مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَع القُرآنِ الكَريمِ بِالشَّارِقَة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعَ عشَرَ

سُورَةُ الفُرقَانِ

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾

[الفرقان: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليَةُ الحقِّ تعالى لرّسولِ ربِّ العالَمين

لمّا أخبر اللّهُ تعالى نبيَّه بحقيقة حالِ المشركين، وحكى له من قبائح أقوالهم وأفعالهم، وكان ذلك ممّا يُحزِنه ﷺ لشِدّة حِرصه على رجوعهم، ولزومِ ما ينفعُهم، واجتناب ما يضرُّهم؛ سَلّاه بقوله مُعجِّبًا من شناعة حالهم، وأعلمَهُ بأنّ مِثلَهم لا يُرجَى اهتداؤه؛ لأنَّهم جعلوا هواهم إلهَهُم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَوَىٰهُ﴾: (هوي) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خُلوٍّ وسقوطٍ، والهويُّ: السّقوط من أعلى، والهوى: هوى النّفس وما يُخالجها من حُبٍّ ورغبةٍ ومَيلٍ إلى الشّيء ونحوه، وسُمّي بذلك لأنّه يَهوي بصاحبه في الدّنيا إلى كلِّ داهيَةٍ، وفي الآخرة إلى الهاوية[2]، والتّعبير بأنّه مِن أهل الأهواء؛ أيّ: ممّن يزيغ وينحرف عنِ الطّريقة المُثلى الّتي يجب أن تكون[3]، ومعنى ﴿هَوَىٰهُ﴾ في سياق الآية: أنّ الرّجل مِن هؤلاء يعبُد حجرًا أو صنمًا ما، فإذا مالت نفسُه إلى غيره ورآه أحسنَ منه؛ رمى بالأوّل وعَبَدَ الثّاني؛ فجعل هواه إلهًا يُعبَد مِن دون اللّه تعالى[4].

2) ﴿وَكِيلًا﴾: (وكل) التّوكيل بمعنى التّفويض، والتّوكيل هو الاعتماد على غيرك، وتجعله ينوب عنك في شؤونك، والتّوكّل أن

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 392، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 34.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (هوي).
(3) المُطرِّزي، المُغرِب في ترتيب المُعرِب، ص: 509.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 19/ 433.

تُظهِر العجز، فتعتمدَ على غيرك، واتَّكلتُ على فلانٍ في أمري، بمعنى الاعتماد عليه، و"الوكيل وصْفٌ لِمَن يُعتَمد عليه في الأمور المُهِمّة، فتكون مُكتفيًا في أمرك بالاعتماد عليه[1]، وإذا جعلت الأمرَ إلى غيرك فقد وكّلته[2]، والتَّوكّل منه، وهو إظهار العجز في الأمر"[3]، ومعنى الوكيل في الآية وهو خِطابٌ للرّسول ﷺ: أأنت تتوكّل عن هذا الكافر، وتُجبرُه على أن يدخل في الإسلام شاء أم أبى؟ والدّين اقتناعٌ لا إكراهَ فيه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تعجيبُ اللهِ نبيَّه من أحوالِ الكافرين، والتّأكيدُ على أنّ الحفظَ والهدايةَ بيدِهِ تعالى

انظر وتأمّل أيّها الرّسول الكريم في أحوال هؤلاء الكافرين، فإنّك لن ترى جهالةً كجهالاتهم، لأنّهم إذا حَسّن لهم هواهم شيئًا اتّخذوه إلهًا لهم، مهما كان قُبح تصرفِهم، وانحطاطُ تفكيرهم، فهل مثلُ هؤلاء يَصلُحون لأنْ تهتمّ بأمرهم، أو تحزن لاستهزائهم؟ كلّا، إنّهم لا يصلحون لذلك، وعليك أن تَمضيَ في طريقك، فأنتَ لا تَقْدِر على حفظهم أو كفالتهم أو هدايتهم، وإنّما نحن الَّذين نَقدِر على ذلك، وسنتصرَّف معهم بما تقتضيه حكمتُنا ومشيئتنا[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

تسليةٌ للرّسولِ ومؤاساةٌ له، وتأكيدٌ على عدمِ اهتداءِ هؤلاءِ الضّالّين بدعوتِهِ

قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ جملةٌ استئنافيّة؛ لذلك فصَلَها عمّا سبق، والخطابُ فيها للرّسول ﷺ؛ تسليةً له وتخفيفًا ممّا يُلِمّ به منَ الحزن على ما يكون من قومه، إعراضًا عن دعوته، وهو الحريصُ على هُداهم، فأعلمَهُ في هذا الخطاب أنّ أمثالهم لا يُرتجَى

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المُفرَدات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وكل).
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 489.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 429.
(5) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 201.

هداهم؛ لاتّخاذهم الهوى لهم إلهًا[1]، ولَمّا كانت هذه الجملة مُصدَّرة بالاستفهام ﴿أَرَءَيۡتَ﴾؛ فهي إنشائيّة لفظًا ومعنًى، وما قبلَها خبريّة لفظًا ومعنًى في التّعبير عن مُقاربة الضّلال وما بعدَه، من قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ فقد تُرك العطفُ بينَ الآيتَيْن لكمالِ الانقطاعِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

تـعـجـيـبٌ مـن شـنـاعـةِ حـالِ الـكـفّـارِ وقبائحِ أفعالِهم

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ لرسول اللّه ﷺ، وهو استفهامٌ تعجّبيٌّ من شناعةِ حالِ المشركين بعد حكايةِ ما قَبُح من أفعالهم، وبيانِ مصيرِهم ومآلهم، والتّنبيهِ على أنّ ذلك منَ الغرابةِ والدّهشةِ ما يستوجبُ أن يُرى ويُتعجَّبَ منه[3]، ويجوز أن يكون الاستفهامُ في هذه الجملةِ للتّوبيخ؛ إنكارًا لفعلهم الَّذي فعلوه ويفعلونه؛ منِ اتّخاذهمُ الآلهةَ هواهم، ولجاجتِهم فيه من غيرِ تثبّتٍ ولا تفكيرٍ، ولا تَعرُّف للحقِّ المُبين[4].

دلالةُ التّعبير بالرّؤية مادّةً وصيغةً:

استـفـهـامٌ عـنِ الـرّأي أو الرّؤيةِ تنبيهًا وتمهيدًا لِما بعدَه من نبأٍ غريبٍ أو عجيبٍ

فِعلُ الرّؤية في كلامِ العربِ يدلُّ على الرّؤية البصريّة، والرّؤيةِ العلميّة، وعبارةُ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ في الآية هي استفهامٌ عنِ الرّأي، أو عنِ الرّؤية الدّالّة على العِلم، وهو استفهامٌ تقريريٌّ المُراد منه: التّنبيهُ والتّوطِئَة لِما سيُذْكر غِبَّه منَ الأخبار الغريبة، والأنباء العجيبة، أو هو استفهامٌ لإقامة المسألة ودحضِ الشّبهة[5]، وهو هنا استفهامٌ عنِ اتّخاذ المُشار إليه إلَهَهُ هواه، ولا أعجبَ من هذا الفعل.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في الإخبارِ بفعلِ الرّؤيةِ:

انـظُـرْ وتـعـجَّـبْ مـن حـالِ هـذا الـضّـالِّ الَّـذي اتَّخَذَ إلَهَهُ هواه

التّعبيرُ بفعل الرّؤيةِ الواقعِ في حيّزِ الاستفهامِ في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 35.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 63.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 220 - 221، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 201.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5286.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/ 341.

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هو من باب المَجاز؛ لدلالتِه على التّقرير والتّعجيبِ لا الاستفهام؛ أيْ: لتقريرِ الرّؤية، بمعنى: انظُر ورَ من حال هذا النّاكبِ عن طريقِ الصّراطِ، ويتولّد من ذلك التّعجيبُ مِن اتّخاذه المَذكورَ المَذمومَ[1].

بيانُ المُخاطَب في ﴿أَرَءَيۡتَ﴾:

نداءٌ للرّسولِ ﷺ للتّعجيبِ من شأنِ مَنْ جَعَلَ إلَهَهُ هواه

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ موجَّهٌ للرّسول ﷺ؛ أيِ: انظُر إلى هذا الّذي لا يَرى معبودًا غيرَ هواه، كيف يُمكن أن تدعوَه إلى الهدى؟ أفتكونُ منك الوكالةُ عليه، فتجبرَه على الإيمان، ولا إكراهَ في الدّين؟![2].

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

مفعولُ الرُّؤيةِ صادقٌ على الجمعِ المُتحدَّثِ عنهم فيما سَبَقَ

﴿مَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلّ نصبٍ، وهو مفعولُ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾[3]، يُستعمَل للعاقلِ، ويصدُق على الجمع الَّذي يُتَحَدّث عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، وأمّا ضمائرُ الصّلة فمبنيّةٌ على الإفراد لفظًا، ﴿ٱتَّخَذَ﴾؛ أيْ: هو، و﴿إِلَٰهَهُۥ﴾؛ أيْ: هو، و﴿هَوَىٰهُ﴾؛ أيْ: هو؛ مراعاةً للفظ ﴿مَنِ﴾، فإنّه مفردٌ لفظًا، مجموعٌ معنًى؛ أيْ: مَنِ اتّخذوا هواهم إلهًا لهم[4]، وذِكْرُ الموصول ﴿مَنِ﴾ مُتصدّرًا بعد الفعل ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ إيذانٌ بأنّ المُرادَ الاهتمامُ به، وتسليطُ الضّوءِ عليه، لا باعتبار ذاته وشخصه ممّا قد ينصرف إلى الذّهن من ذلك التّقديم؛ بل باعتبار الأحوال الّتي تُذْكَر عنه بعدَه مِن اتّخاذه الهوى إلهًا معبودًا سوى الحقِّ سبحانه[5]، والتّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿مَنِ﴾

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 106 - 107.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 282.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 72.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 36.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 62.

في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ في إشارةٍ إلى عِلّة بناء الخبر على الصّلة؛ فإنّ التّعجيبَ من حال هذا الشّقيّ الكافرِ كان بموجِب اتّخاذِه إلَهَهُ هواه، فيتَّبِعُه في كلّ حين؛ فيَجْعلُ معبودَه وإلَهَه بحسَب اختياره لنفسه[1] بما يُرضي شهواتِه ونَزواتِه.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الاتّخاذِ:

تكلّفَ وأجهدَ نفسَه خلافَ الطّبيعةِ والفِطرةِ السّليمةِ

استُعمِلت صيغةُ الاتّخاذِ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ﴾؛ فالفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وزنه (افْتَعَل)، وهو وزنٌ دالٌّ على التّكلُّف في معاني الصّيغ في العربيّةِ[2]؛ فأوثِر هنا ولم يُستعمَل الفعلُ المُجرَّد (أخذَ)؛ لِما تمنحُه هذه الصّيغةُ من معنى التّكلُّف[3]، فإنّه طلبَ وأجهد نفسَه خلافَ الطّبيعةِ والفطرةِ السّليمةِ، فجعلَ هواه إلهًا له، فلا يكون له ذلك إلّا بمجاهدةِ النّفسِ في تركِ فِطرتِها.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في ذِكْرِ مفعولَيْ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

انظُرْ وتعجّبْ ممّن يتّخِذُ هواه إلهًا معبودًا

قُدِّمَ المفعول الثّاني على المفعول الأوّل في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ اعتناءً به؛ لأنّ مَدار التّعجُّب يدور عليه؛ لأنّ المفعول الثّاني (الهوى) هو المُتلبِّس بالحدوثِ والتّغيير بأن يجعل هواه إلَهَ نفسِه؛ فيبني عليه أمرَ دينِه، مُعْرِضًا عن براهين الحقّ سبحانه، والمعنى: انظرْ إليه، وتعجّب منه[4]، ويجوز أن يكون ترتيبُ المَفعولَيْن جاريًا على الأصلِ؛ لاستوائهما في التّعريفِ بالإضافةِ إلى الضّميرِ؛ فيكون معنى ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أنّ الحقّ ﷻ هو الإله الَّذي يجب أن يُعْبَد؛ فالمعنى: أنّه اتّخذَ اللّهَ هواه وعنايته، وهو غير مذمومٍ[5]، وإجراءُ قولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ على التّرتيب المعهود من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 459.
(2) الزّمخشريّ، المُفصَّل، ص: 371.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 392.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 221.
(5) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 39.

غير تقديم ولا تأخير "معناه: جعل إِلَهَهُ الشّيءَ الَّذي يهوى عبادَتَه؛ أيِّ: لُمجرَّد الشّهوةِ، لا لأنّ إِلَهَهُ مستَحِقٌّ للإِلَهيَّة؛ فالمعنى: منِ اتَّخذ ربًّا له محبوبَه، فإنّ الَّذين عبدوا الأصنام كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّة على استحقاقها العبادةَ"[1]، ويجوز في تقديم المفعول الثّاني ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الأوّل ﴿هَوَىٰهُ﴾ الإشعارُ بالثّبات بخلاف المُتأخّر، فتقدُّمُ الإلهِ يُشْعِرُ بوجوب وجودِ الإلهِ له، كما يُقال: اتّخذ فلانٌ ابنَه غلامَه، فإنّه مؤذِنٌ بأنّ له ابنًا، ولا يُشْعِر بأنّ له غلامًا على وجهِ الحقيقة، فهذه فائدةُ تقديم الإلهِ على الهوى[2].

بلاغةُ التّشبيهِ البليغِ في تشبيه الهوى بالإلهِ:

عندما يُسيطرُ الـهـوى على الإنسانِ يصبح إلهًا يُعْبَد

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ من باب التّشبيه البليغ؛ إذ يُشبِّه الحقُّ ﷻ حالَ مَنِ انقاد لهواه، واستولى عليه سلطانُه، بحال عبدٍ مُذَلّل مُستعبَد لإلهه، يُطيعُه في جميع أوامره ونواهيه، دون أيِّ تفكيرٍ أو تحليلٍ، فكما أنّ العبد يُطيع إلَهَهُ خضوعًا وخوفًا، كذلك فإنّ منِ انقاد لهواه أصبح هواه إلَهَهُ، يُطيعه في أُموره ونَواهيه كلّها، من غير أيِّ مقاومةٍ أو قدرةٍ[3]، وإذا جُعل التّرتيب في الآية من باب تقديم المفعول الثّاني على المفعول الأوّل، فيتحصّل من ذلك التّشبيهُ البليغُ، فإنّ هذا الضّالّ قد جعل الهوى أسوةً له في أفعاله، فلا يأتي شيئًا منه إلّا ما كان موافقًا لشهوته، فكأنّ هواه إلَهُه، وهو معنًى أبلغُ في الذّمِّ؛ لأنّه يشمل عبادة الأصنام، وغيرَ ذلك منَ المُنكَرات والفواحش[4]، وفي ترتيب المفعولَيْن في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أيضًا فائدةُ القَصْر؛ فالمعنى: أنّ هذا الشّخص المذموم قد حصَرَ عبادته في إلهٍ واحدٍ هو هواه، ممّا يدلّ على فساده، وانعدام صلاحه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 35.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 24.
(3) يحيى العَلَويّ، الطّراز: 2/ 4.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 35.

وقد يُضلِّل غيرَه أيضًا، ويَجُرُّهم إلى طريق الضّلال؛ والمعنى: أنّه لم يتّخذ غيرَ الهوى إلهًا[1].

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾:

استئنافٌ مَسوقٌ لاستبعادِ الرّسولِ عن كونِه حفيظًا لهدايةِ الضّالّين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ عمّا قبله من اتّخاذِ المذمومِ إلَههُ هواه؛ لأنّها جملةٌ مُستأنفةٌ، ساقها الحقُّ سبحانه لاستبعادِ الرّسولِ ﷺ عن كونِه حفيظًا على منِ اتّخذ هواه إلهًا، فيرشده إلى الحقِّ طوعًا أو كَرهًا[2]؛ فاللهُ تعالى وحدَه هو القادرُ على هدايةِ عبادِه.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

استبعادُ إجبارِهم على الهدايةِ، فلا وكالةَ على الإيمانِ، ولا سلطانَ على الإرشادِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ إنكاريٌّ؛ والمعنى: استبعاد كونه ﷺ يُجبِر أحدًا على الإيمان، أو أن يكون حفيظًا عليه، أو أن يُغيّر قناعتَه، ويزجرَه عمّا هو عليه منَ الضّلال، فلا وكالةَ له على إيمانِ أحدٍ، ولا سلطانَ له على إرشادِ الضّالِّ إلى الحقِّ طوعًا أو كَرهًا[3].

علاقةُ الاستفهامِ الثّاني بالأوّلِ على اتّصالِهما أوِ انفصالِهما:

متّصلان على معنى: أرأيتَكَ تكون وكيلًا على منِ اتّخذَ إلَههُ هواه

هناك علاقةٌ بينَ الاستفهام الأوّل، وهو قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، والاستفهامِ الثّاني، وهو قولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾، فإن كانت العلاقة اتّصاليّةً؛ تَعيّن أن يكون فعل الرّؤية فعلًا قلبيًّا؛ بمعنى: أعلمتَ؟ ويكون السّؤالان إنكاريّيْن، والهمزة الثّانية توكيدًا للأولى، ويكون معنى الجُملتيْن: (أرأيتَكَ تكون وكيلًا على منِ اتَّخذ إلَههُ هواه)، وتكونُ الجملة الثّانية بمنزلةِ المفعول الثّاني لفعل الرّؤية القلبيّ[4]، أمّا إذا كان نَظمُ الكلام

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 25، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 201.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 35 - 36.

على نيّة الانفصال، بأن تكون كلّ جملة مستقلَّة عنِ الأُخرى جُعِلَ الاستفهامُ في الجملة الأولى مبنيًّا على التّعجيب من حالهم باتِّخاذ إلهِهم هواهم، وهو تعجيبٌ مختلِطٌ بالإنكار، ويكون الاستفهام في الجملة الثّانية إنكاريًّا محضًا، على معنى: إنّك لن تستطيع دفعَه عن ضلاله وكفره[1].

معنى الفاءِ ودلالتُها على المحذوفِ في ﴿أَفَأَنتَ﴾:

لن تكونَ وكيلًا عليهم ولو حرصتَ بصَرْفِ الهوى عنهم

لَمّا لم يكن بمقدور النّبيّ ﷺ أن يصرف الهوى عنهم؛ لأنّ ذلك بيد الله وحده، تسبّب عن شِدّة حرصه على هدايتهم قولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[2]؛ فالفاء دالّةٌ على السّببيّة، ويجوز أن تكون الفاء دالّةً على التّرتيب؛ أيِ: ترتيب الإنكار على ما قبله[3] من الحالة الموجِبة باتّخاذه الهوى إلهًا، كأنّه قيل: أبعدَ ما شوهِد من غُلُوِّه بمتابعته الهوى، وعُتوّه عنِ السّير في طريق الهدى، تُجبرُه على الإيمان شاء أو أبى؟[4] فإجبارُ النّاس على الإيمان أمرٌ لا يُجدي نفعًا، والإيمانُ الحقيقيّ ينبع منَ القلب عنِ اقتناع، وليست مَهمّة الرّسول إلّا التّبليغ، والله الهادي إلى سواء السّبيل، ويجوز في الفاء أن تكون دالّةً على جواب الشّرط للموصول المُشبَّه بالشّرط[5]، أو الَّذي عومِل معاملةَ الشّرط على جعل الاستفهامَيْن إنكاريّيْن، ويجوز أن تكون الفاء تفريعيّة؛ تُفرّع الجملة الثّانية على التّعجيب والإنكار الوارد في الجملة الأولى[6].

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ﴾:

تقويةُ إنكارِ تحميلِ الرّسولِ نفسَه الحرصَ على هدايةِ قومِهِ

قُدِّم المُسنَدُ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 36.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 394.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 103.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 221.
(5) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 18.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 36.

﴿تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾؛ للتّقوّي، وهو بذلك يُشير إلى إنكارِ ما كان الرّسولُ ﷺ يُحمّل نفسَه منَ الاهتمام والحِرص والحُزن في طلبِ تركِهِم الهوى والإقلاع عنه؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونُس: 99][1]، وفي إيلاء (أنت) بينَ الهمزة وفعل الكون في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ للتّركيز على الفاعل (أنت)، وجَعْلِه محورَ الإنكار، وليس إلى الفعل ﴿تَكُونُ﴾ بحدّ ذاته، ففي التّركيب معنى القَصْر؛ لأنّ الإنكار مُختَصٌّ بالفاعل دونَ غيره، ولو كان المُرادُ إنكارَ الفعل لما أتى به بأن يُقال: أفتكون عليه وكيلًا؟[2].

فائدةُ التّعبيرِ بفعلِ الكَونِ مضارعًا:

استُعمِل فعلُ الكون ﴿تَكُونُ﴾ بصيغة المضارع، مُؤثِرًا إيّاه على صيغة الماضي؛ لشمولِ المضارع إنكارَ الوكالةِ في جميع الأزمانِ؛ حاضرًا ومستقبلًا، خلافَ الماضي المَقصورِ على ما مضى؛ ليبقى الحالُ والاستقبالُ خارجَيْن عن إنكار الوكالة، فيجوز وقوعُها في أحدِهما أو كليهما، وهو غيرُ مرادٍ البتّة[3].

استمراريّةُ الإنكارِ والرّفضِ الّذي لا ينقطعُ

نُكْتَةُ تعديَةِ ﴿وَكِيلًا﴾ بـ(على):

عُدّيَ الوكيلُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ بالحرفِ الدّالِّ على الاستعلاءِ (على)؛ لأنّ مرادَه ﷺ الحرصُ على هدايتِهم إلى طريقِ الحقِّ المُبين، وطلبُ الرّحمةِ لهم من ربِّ العالَمين، وابتغاؤه ردَّهم عن الغَيِّ[4].

حرصُه ﷺ على هدايتِهم ورحمتِهم، وردِّهم عن طريقِ الغَيِّ

غرضُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

قُدِّم شِبهُ الجملةِ على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾؛

لستَ وكيلًا عليه خاصّةً، فقد اهتدى على يديكَ الكثيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 36.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 63.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 63.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 394.

لإفادة الاختصاصِ؛ أيْ: أن تكونَ عليه وكيلًا على وجه الخصوص؛ لأنّ قولَ: أفأنت تكون وكيلًا عليه؛ أيْ: وعلى غيره، لا يستقيم؛ فقد هدَى الرّسولُ ﷺ الكثيرَ ممّن استجابوا له ولدعوته، وقد مدحه الحقُّ سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشّورى: 52]، أمّا الهداية الخاصّة فلا تكون إلّا بإذنه سبحانه[1].

الغرضُ من تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾:

لا يُمكن أن يكون الرّسولُ وكيلًا حفيظًا على أيّ ضالٍّ اتّخذ هواه إلهًا

وقعَ لفظُ الوكيل في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ نكرةً؛ للدّلالة على العموم؛ أيْ: أنّ الرّسول ﷺ لا يُمكن أن يكون وكيلًا حفيظًا على أيِّ ضالٍّ اتّخذ هواه إلهًا، ولا قدرة له على حفظه منَ الوقوع في الكفر والضّلال[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوَكيل والكَفيل والوَليّ والنّصير:

لستَ بحفيظٍ عليهم ترعاهم وتُخرجُهم منَ الظّلماتِ إلى النّورِ

الوكيل: الحفيظ الَّذي يهديهم، ويُخرجهم منَ الظّلماتِ إلى النّورِ[3]، أمّا الكفيلُ: فهو المُتكفّل بأمرِه، الضّامنُ له[4].

وأمّا الوَليُّ فمن (ولي)؛ وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْب، يُقال: تباعَدَ بعْدَ ولْي؛ أيْ: قرب[5]، وتُستعار الولاية للقُرب من حيثُ المكان، ومن حيثُ النّسبة، ومن حيثُ الدّين، ومن حيثُ الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والوِلايَةُ: النُّصرةُ[6].

وأمّا النّصير: فهو النّاصِر، والجمع: الأنصار، من نصر ينصُر، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ:

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 19/ 23.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 201.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5286.
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (كفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (ولي).

العَوْنُ، والتَّناصُرُ: التَّعاوُن، واستنصَره على عدوّه؛ أيّ: سأله أن يَنْصُرَهُ عليه، وتَناصَروا: نَصَرَ بعضُهم بعضًا[1]، فالنّصير يُطلَق على كلّ مَن يُعين أحدًا على مَن يريد به ضُرًّا.

وإذا تمعّنّا في الآية ألفَينا أنَّ وصف الوكيل ألصَقُ بسياق الآية، وأنسَبُ منَ المفردات الأخرى، وإن كان ثمّةَ تقارُبٌ بينَها في المعنى.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات: (نصر).

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تثبيتُ فؤادِ النَّبي ﷺ وتسليته

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها أوجهٌ متقاربة:

الأوَّل: أنَّهُ لمّا انتفى الرَّدُّ عنِ الهوى قَسْرًا بالوكالةِ، في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: 43]؛ نفى الرَّدَّ طوعًا بتقبيحِ الضَّلالةِ، فذكرَ المانعَ منهُ بقولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾(1).

والثّاني: أنَّ الآيةَ انتقالٌ عنِ التَّأييسِ مِن اهتدائِهم لغلَبةِ الهوى على عقولِهم؛ إلى التَّحذيرِ مِنْ أنْ يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائلِ والبراهين(2).

والثالث: تثبيتُ فؤادِ النبيِّ ﷺ وتسليتُه ببيان أنَّهم لا ينتفعون بحواسِّهم، ولا يدركون الدلائل بعد اتِّخاذهم أهواءهم آلهةً.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحۡسَبُ﴾: (حسب): الحِسابُ: استعمالُ العددِ، والحسيبُ والمُحاسِبُ: مَنْ يُحاسِبُكَ، و(حَسِبَ) يُستعمَلُ في معنى الكفايةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أي: كافينا هو، كلُّ ذلكَ مصدرُهُ الحُسْبانُ(3)، والمشهورُ أنَّ (حَسِبَ) يرادفُ (ظنَّ)(4)، والحِسبةُ في الأمر التدبُّر والنظر فيه، وهو يتحسَّب الأخبار، أي: يتحسَّسُها، ويطلبها، ومن ذلك حسبه كذا، أي: ظنَّه، واستحضر ذلك في رأسه، والمراد بالآية هنا الظنُّ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 395.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب)، والراغب، المفردات: (حسب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسب).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (حسب).

2) ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: (نعم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، ومِنْ ذلكَ: النِّعمةُ، وهي ما يُنعِمُ اللّٰهُ تعالى بهِ على عبادِهِ مِنْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّٰهِ تعالى عليهِ نِعْمةٌ[1]، والنِّعمةُ بكسرِ النّونِ: المِنَّةُ، وكذا النَّعْماءُ[2]، والنَّعْمةُ بفتحِ النّونِ: التَّنعُّمُ وطيبُ العيشِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدخان: 27]، والنَّعَمُ: الإبلُ، لِما فيها مِنَ الخيرِ والنِّعْمةِ[3]، والجمعُ: أنعامٌ، لكنَّ الأنعامَ تُقالُ للإبلِ والبقرِ والغَنَم، ولا يقالُ لها: أنعامٌ، حتَّى يكونَ في جملتِها الإبلُ[4].

3) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ شيءٍ مع اتِّصاله، سواء أكان من أعلى إلى أسفل أم من جهةٍ إلى جهةٍ، فمِنَ الأوَّلِ قولُكَ: أسبلتُ السِّتْرَ، وأسبلَتِ السَّحابةُ ماءَها وبمائِها، ومِنَ الثّاني يقالُ: أسبلَ الزَّرعُ؛ إذا خرجَ سُنْبُلُهُ، وامتدَّ طولًا[5]، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيهِ سُهولةٌ ووضوحٌ، وجمعُهُ: سُبُلٌ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ [النحل: 15]، ويقالُ لسالكِ السَّبيلِ: سابلٌ، وجمعُهُ: سابلةٌ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ، خيرًا كانَ أو شرًّا[6].

المَعنى الإجماليُّ:

الكافرونَ أضلُّ سبيلًا مِنَ الأنعامِ

يقولُ جلَّ ذكرُهُ: أم تَحْسَبُ - أيُّها النبيُّ - أنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ يسمعونَ ما يُتلَى عليهِم، فيَعونَ، أو يَعقِلونَ ما يشاهدونَ مِنْ حُجَجِ اللّٰهِ تعالى، فيفهمونَ، ما هُم إلّا كالبهائمِ الَّتي لا تفقهُ ما يقالُ لها، بل هم أضلُّ سبيلًا مِنَ البهائمِ؛ لأنَّ البهائمَ تهتدي لمَراعيها، وتنقادُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(2) الجوهري، الصحاح: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(4) الراغب، المفردات: (نعم)، والسمين، عمدة الحفاظ: (نعم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(6) الراغب، المفردات: (سبل).

لأربابِها، وهؤلاءِ الكفرةُ لا يُطيعونَ ربَّهم، ولا يشكرونَ نِعَمَهُ، بل يكفرونَ بها، ويَعْصونَ خالقَهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ﴾:

مَن يأتيه البلاغُ، ولا يستجيب؛ كأنَّه ليس له عقلٌ ولا سمع البتَّة

﴿أَمۡ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ منْقطِعةٌ بمعنى (بل) و(الهمزةِ)، أي: بل أتحسَبُ أنَّ أكثرَهم يسمعونَ، أو يعقلونَ؟ كأنَّ هذهِ المَذَمَّةَ أشدُّ مِنَ الَّتي تقدَّمَتْها في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43]، حتَّى أُضرِبَ عنها إليها، وهي كونُهم مسلوبي الأسماعِ والعُقولِ[2]؛ لأنَّهم لشدَّةِ عنادِهم لا يُصغونَ إلى الكلامِ، وإذا سَمِعوهُ؛ لا يتفكَّرونَ فيهِ، فكأنَّه ليسَ لهُم عقلٌ ولا سمعٌ البتَّةَ، فعندَ ذلكَ شبَّهَهم بالأنعامِ في عدمِ انتفاعِهم بالكلامِ، وعدمِ إقدامِهم على التَّفكُّرِ، وإقبالِهم على اللَّذّاتِ الحاضرةِ الحسّيَّةِ، وإعراضِهم عن طلبِ السَّعاداتِ الباقيةِ العقليَّةِ[3].

بلاغةُ خطاب المفرد في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ﴾:

اتِّساعُ المعنى لكلِّ مخاطَب

المخاطَبُ هو مَن يصلح له الخطاب، ويدخل فيه النَّبيُّ ﷺ دخولًا أوليًّا أو العكس، بأن يكون المخاطَب هو رسول اللّه ﷺ؛ لأنَّه أكملُ البشر، والأمَّة تبعٌ له في الخطاب، والظّاهر أنَّ المُخاطَبَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّهُ هو المُخاطَبُ أيضًا في الآيةِ السّابقةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43]، والَّتي فيها إنكارُ ما حملَ الرَّسولُ ﷺ نفسَهُ عليهِ مِنَ الحِرْصِ والحَزَنِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 274.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 282.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.

في طلبِ إقلاعِهم عنِ الهوى، وهذهِ الآيةُ انتقالٌ عنِ التَّأييسِ مِن اهتدائِهم - لغلَبةِ الهوى على عقولِهم - إلى التَّحذيرِ مِنْ أنْ يُظَنَّ بهِم إدراكُ الدَّلائل[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالحُسْبانِ دونَ الظَّنِّ:

ملاءمةُ الحُسْبانِ لسياقِ الإنكارِ

عُبِّرَ بالحُسْبانِ دونَ الظَّنِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، ولم يقل: (أم تظنُّ أنَّ أكثرَهم يسمعونَ أو يعقلونَ)؛ لأنَّ الحُسبانَ ظنٌّ مبنيٌّ على حساب ما، والظنُّ مبنيٌّ على مطلق الحدس والتَّخمين - وإن اقترن به بعض القرائن - فالرَّسول ﷺ عاش معهم، وبلغهم، وراقب أحوالهم، فحسب ما حسبه؛ بناءً على تلك المعايشة، وليس ظنًّا وخاطرةً خطرت بباله، وسياقُ الآيةِ للإنكارِ، والحُسْبانُ أنسبُ بهِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ أنَّ المُخاطَب لغايةِ حرصِهِ على هدايتِهم حكمَ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ، ولم يخطر ببالِهِ أنَّهم قد لا يكونونَ كذلكَ، فيكونُ الإنكارُ أبلغَ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ﴾:

إنكارُ استمرارِ الحُسْبانِ، وتصويرُ حالتِهِ العجيبةِ

قولُهُ ﷻ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، فيهِ إنكارُ ظنِّ أنَّ أكثرَهم يسمعونَ، أو يعقلونَ، بمعنى أنَّ هذا الظَّنَّ لا ينبغي أنْ يكونَ؛ لأنَّهم لا يسمعونَ الحقَّ، ولا يهتدونَ بهِ، ولا يتفكَّرونَ فيهِ.

وفي التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ الدّالَّةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ دلالةٌ على إنكارِ تجدُّدِ هذا الظَّنِّ أو استمرارِه، وفيها كذلكَ تصويرُ الحالةِ المُنْكَرةِ العجيبةِ الشَّأنِ، وهي حالةُ ظنِّ أكثرِهم يسمعونَ، أو يعقلونَ، وكأنَّ السّامعَ يشاهدُ صورةَ الحُسْبانِ الَّذي لا ينبغي أنْ يكونَ.

بلاغةُ التَّوكيدِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

المبالغة في الإنكارِ لبيان حال المعرضين

جيءَ بقولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ مُؤَكَّدًا بـ ﴿أَنَّ﴾؛ لأنَّ المقامَ لإنكارِ ظنِّ المُخاطَبِ أنَّ أكثرَهم يسمعونَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 36 - 37.

أو يعقلونَ، وفي الإتيانِ بالتَّوكيدِ مزيدُ مبالغةٍ في الإنكارِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ أنَّ المُخاطَبَ قد قَوِيَ ظنُّهُ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ، ولم يكنْ ظنُّهُ ضعيفًا، ولذلكَ كانَ جديرًا بزيادةِ المبالغةِ في الإنكارِ.

التَّنبيهُ على أنَّ منهُم مَنْ عرفَ الحقَّ، ومنعَهُ منهُ مانعٌ، ومنهم من سيؤمن

سرُّ الحُكمِ على الأكثرِ دونَ الكلِّ:

حُكِمَ بأنَّ أكثرَهم لا يسمعونَ، أو يعقلونَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، ولم يُحكَم فيهِ على الكلِّ، فلم يقل: (أم تحسبُ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ)؛ لأنَّهُ كانَ فيهِم مَنْ يعرفُ اللّهَ تعالى، ويعقلُ الحقَّ[1]، إلّا أنَّه منعته المكابرةُ والمعاندةُ ومتابعة الهوى من الدخول في الإسلام ومتابعة النَّبي ﷺ، حتى لا يتساووا مع ضعفاءِ المؤمنين من قريش وعبيدِهم كعمّارٍ وبلال[2].

وقيلَ: لأنَّ منهُم مَنْ قد علمَ أنَّهُ يؤمنُ[3]، فيكونُ المرادُ بـ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ في الآيةِ: مَنْ علمَ اللّهُ أنَّهم يموتونَ على الكفرِ[4].

كثرةُ من اتَّبع هواه، فلم يستمع لما أوحي به للنَّبي ﷺ

سرُّ عَوْدِ الضَّميرِ مجموعًا بعد إفراد في قوله: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

يعود الضميرُ في: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، على (مَنْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43] باعتبارِ معناهُ، وقولُهُ: ﴿عَلَيۡهِ﴾ [الفرقان: 43] باعتبارِ لفظِه، واختيرَ الجمعُ هنا؛ لمناسبتِهِ إضافةَ (أكثرَ) لهُم، وأُفرِدَ فيما قبلَهُ؛ لجعلِهم في اتِّفاقِهم على الهوى كشيءٍ واحدٍ[5].

تنزيلُ مَنْ لا ينتفعُ بسمعِهِ وعقلِهِ منزلةَ الفاقدِ لها

بلاغةُ نَفْيِ السَّمعِ والعقلِ عمَّن اتَّبع هواه:

قولُهُ جلَّ وتبارك: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 37.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 36، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 125.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 107.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 221، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 426، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.

معناهُ: أتظنُّ وتُقدِّرُ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ؟ وإنكارُ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ - معَ أنَّهم في الواقعِ يسمعونَ ويعقلونَ - لبيانِ أنَّهم لا يسمعونَ الحقَّ، ولا يهتدونَ بهِ، ولا يتدبَّرونَ، فكانوا كمَنْ لا يسمعُ أصلًا؛ لأنَّ اللّهَ وهبَ لنا السَّمعَ لنتَّقيَ بهِ أضرارَ المفاجآتِ، ولنكونَ في يَقَظَةٍ، فإذا لم يُفِدِ السَّماعُ إدراكَ الحقِّ؛ فهو كعدمِه، ففي الكلامِ مجازٌ، وكذلكَ مَنْ عندَهُ عقلٌ - ولا يستعملُه - فكأنَّهُ سُلِبَهُ[1].

دلالةُ عطفِ ﴿أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ على ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

نفيُ انتفاعِهم بالدَّلائلِ المقاليَّةِ وغيرِ المقاليَّةِ

عطفُ ﴿أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ على ﴿يَسۡمَعُونَ﴾، في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾؛ لنفيِ أنْ يكونوا يعقلون الدَّلائلَ غيرَ المقاليَّةِ، وهي دلائلُ الكائناتِ، كما قالَ ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101][2]، فيكونُ هؤلاءِ المشركونَ قد جَمَعوا بينَ التَّصامِّ عنِ الدَّلائلِ المقاليَّةِ وبينَ التَّعامي عن الدَّلائلِ غيرِ المقاليَّةِ.

دلالةُ العطفِ بـ ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ حُسْبانَ أحدِهما غيرُ مُتوقَّعٍ فضلًا عن مجموعِهما

لمّا كانَ السّياقُ في قولِ اللّهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ للمبالغةِ في إنكارِ الحُسْبانِ الواقعِ منهُ ﷺ بسببِ جِدِّهِ وسَعْيِهِ البليغِ في هدايتِهم؛ عُطِفَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ دونَ الواوِ؛ لأنَّ ﴿أَوۡ﴾ لمنعِ الخُلوِّ، فتُفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ أحدَهما غيرُ مُتوقَّعٍ منهُ ﷺ، فضلًا عن مجموعِهما، وإلّا فلا بدَّ منهما في تلقّي الهدايةِ بالقبولِ[3].

نكتةُ تقديمِ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ على ﴿يَعۡقِلُونَۚ﴾:

السَّمعُ آلةٌ لتعقُّلِ الحقِّ

تقديمُ السَّمعِ على العقلِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 282، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5287.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 37.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 107.

﴿أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ لأنَّهُ آلةٌ لتعقُّلِ الحقِّ[1]، فيكونُ تقديمُهُ كتقديمِ الوسائلِ على المقاصدِ، وقيلَ: لمّا كانَ الدَّليلُ السَّمعيُّ أهمَّ نظرًا للمقامِ مِنَ الدَّليلِ العقليِّ؛ قيلَ: ﴿يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾[2].

كما أنَّ في تقديم السَّمع على العقل تدرُّجًا في الإنكار، فالبدءُ بإنكار السَّماع أسهلُ من البدء بإنكار التعقُّل، فقُدِّمَ الأسهلُ على الأصعب، وهذا مضطرد في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: 10].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

الـدَّلالـةُ على تـجـدُّد انـتـفـاءِ السَّمعِ والعقلِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ انتفاءَ سمعِهم للحقِّ وتفكُّرِهم فيهِ أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ؛ لأنَّهُ بمنزلةِ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم، والنَّفيُ مأخوذٌ مِنَ الاستفهامِ.

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

إنـكـارُ حُسْبانِهِ ﷺ أنَّهم ممَّنْ يسمعُ أو يعقلُ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عنِ الإنكارِ المذكورِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43] إلى إنكارِ حُسْبانِهِ ﷺ أنَّهم ممَّنْ يسمعُ، أو يعقلُ حسبما يُنبِئُ عنهُ جِدُّهُ واجتهادُه ﷺ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، واهتمامُهُ بالإرشادِ والتَّذكيرِ، لكنَّ الإنكارَ في الآيةِ السّابقةِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا يقعُ، والإنكارَ في هذهِ الآيةِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا ينبغي أنْ يقعَ[3]، يعني: أنَّ الحُسْبانَ قد وقعَ، وكانَ ينبغي ألّا يقعَ، فالإنكارُ مُتوجِّهٌ إلى وقوعِهِ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 107.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.

علَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ عمّا قبلَهُ:

عدمُ الانتفاعِ بما يَقْرَعُ آذانَهم مِنَ الآياتِ يجعلُهم كالبهائمِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مَسوقةٌ؛ لتقريرِ الإنكارِ وتأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحُسْبانِ بالمرَّةِ، والمعنى: ما هم في عدمِ الانتفاعِ بما يَقْرَعُ آذانَهم مِنْ قوارعِ الآياتِ، وانتفاءِ التَّدبُّرِ فيما يشاهدونَهُ مِنَ الدَّلائلِ والمعجزاتِ، إلّا كالبهائمِ الَّتي هي مَثَلٌ في الغفلةِ والضَّلالةِ[1].

وقيلَ: جملةُ ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا لسؤالٍ نشأَ ممّا قبلَها؛ لأنَّ ما تقدَّمَ مِنْ إنكارِ أنَّهم يسمعونَ، أو يعقلونَ يُثيرُ في نُفوسِ السّامعينَ سؤالًا عن سببِ نَفْيِ فهمِهم؛ لِما يسمعونَ، معَ سلامةِ حواسِّ السَّمعِ منهُم وسلامةِ العُقولِ[2]، وعليهِ يكونُ الفصلُ بينَ الجملتينِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

سرُّ إيثارِ ﴿إِنۡ﴾ النافية على (ما) النافية:

الحكمُ على حاضرٍ لا يمتدُّ زمانُه

يُلحَظُ في (ما) و(لا) النافيتين امتدادُ زمانِ النَّفيِ المناسب لامتداد الألف، بينما ﴿إِنۡ﴾ لا يمتدُّ زمانُ النَّفيِ في معناها؛ لعدمِ وجودِ المدِّ في لفظِها، ولمّا كانَ الاستفهامُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ مفيدًا لنفيِ السَّمعِ والعقلِ عنهُم؛ أَثبتَ ما أفهمَهُ الاستفهامُ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، أي: ما هُم إلّا كالأنعامِ في عدمِ العقلِ؛ لعدمِ الانتفاعِ بهِ[3].

بلاغةُ استعمالِ الضَّميرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

اتِّساعُ معنى الضَّميرِ لكلِّ ما يصلحُ له

ضميرُ ﴿هُمۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ للأكثرِ في قولِهِ جلَّ وتبارَكَ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، أو لـ (مَنْ) في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: 43]،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 37.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 395، والشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 59.

ولم يُذكَرِ الأكثرُ هنا، فلم يقل: (إنْ أكثرُهم إلّا كالأنعامِ)؛ اكتفاءً بذكرِه فيما قبلَهُ[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تقبيحُ المُشبَّهِ بتشبيهِه بما هو مثلٌ في الغفلة

في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ تشبيهٌ بديعٌ، حيثُ شُبِّهَ المشركونَ المُعرِضونَ عنِ الحقِّ بالأنعامِ الَّتي هي مَثَلٌ في الغفلةِ[2]، والمعنى: لا تتأسَّفْ عليهم، ودَعْهُم لرأيِهم، ولا تحسَبْ أنَّهم على ما يجبُ مِنَ التَّحصيلِ والعقلِ، بل هم كالأنعامِ في الأكلِ والشُّربِ وسائرِ الشَّهواتِ، والجهلِ بالمنافعِ، وقلَّةِ التَّفطُّنِ للعواقبِ[3].

بلاغةُ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ في قولِه: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تقبيحُ شأنِ الكفرةِ المُعرِضينَ عنِ الحقِّ، وتسفيهُ رأيِهم وأحلامِهم

القصرُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغةِ في تقبيحِ شأنِ الكفرةِ المُعرِضينَ عنِ الحقِّ الَّذينَ اتَّخَذوا آلهتَهم أهواءَهم، وتسفيهِ رأيِهم وأحلامِهم، ووجهُ المبالغةِ: أنَّ المعنى: ما هم بموصوفينَ بصفةٍ مِنَ الصِّفاتِ إلّا صفةَ كونِهم كالأنعامِ.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾:

الانتقالُ مِنْ إخبارٍ إلى إخبارٍ أعلى وأقبح

قولُه ﷻ: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ إضرابٌ دالٌّ على الانتقالِ مِنْ إخبارٍ إلى إخبارٍ، ففي الجملةِ الأولى شُبِّهوا بالأنعامِ في انتفاءِ منافعِ الإدراكاتِ المُؤدّيةِ إلى امتثالِ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وفي الجملةِ الثّانيةِ أُثبِتَ لهُم المبالغةُ في ضلالِ طريقِهم الَّتي يسلكونَها[4]، فانتَقلَ في صفةِ حالِهم إلى ما هو أشدُّ مِنْ حالِ الأنعامِ[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 282، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 110.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 211، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 36.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/ 230.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.

سرُّ تكرارِ الضَّمير ﴿هُمْ﴾:

تأكيدُ نسبةِ أضلّيَّةِ السَّبيلِ إليهم

كُرِّرَ الضَّميرُ ﴿هُمْ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، ولم يقل: (إنْ هُم إلّا كالأنعام بل أضلُّ سبيلًا)؛ لِما في تكرارِ الضَّميرِ مِنْ تأكيدِ نسبةِ أضلّيَّةِ السَّبيلِ إليهم.

نكتةُ جعلِ الكافرينَ أضلَّ مِنَ الأنعامِ:

الأنعامُ تنقادُ لأربابِها، وهؤلاءِ لا ينقادونَ لربِّهم

جُعِلَ الكفرةُ أضلَّ مِنَ الأنعامِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وذلكَ مِنْ وجوهٍ:

أوَّلها: أنَّ الأنعامَ تنقادُ لأربابِها التي تَعْلِفُها، وتتعهَّدُها، وتعرفُ مَنْ يُحسِنُ إليها ممَّنْ يُسيءُ إليها، وتطلبُ ما ينفعُها، وتجتنبُ ما يضرُّها، وتهتدي لمَراعيها ومَشاربِها، وهؤلاءِ لا ينقادونَ لربِّهم، ولا يعرفونَ إحسانَهُ مِنْ إساءةِ الشَّيطانِ، ولا يطلبونَ الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافعِ، ولا يتَّقونَ العِقابَ الَّذي هو أشدُّ المَضارِّ، ولا يهتدونَ للحقِّ[1].

وثانيها: أنَّ قُلوبَ الأنعامِ كما أنَّها خاليةٌ عنِ العلمِ، فهي خاليةٌ عنِ الجهلِ الَّذي هو اعتقادُ المُعتقد على خلافِ ما هو عليهِ مع التَّصميمِ، وأمّا هؤلاءِ؛ فقلوبُهم كما خلَتْ عنِ العلم، فقدِ اتَّصفَتْ بالجهلِ؛ فإنَّهم لا يعلمونَ، ولا يعلمونَ أنَّهم لا يعلمونَ، بل يُصِرّونَ على أنَّهم يعلمونَ.

وثالثُها: أنَّ عدمَ علمِ الأنعامِ لا يضرُّ بأحدٍ، أمّا جهلُ هؤلاءِ؛ فهو منشأُ الضَّررِ العظيمِ؛ لأنَّهم يَصُدّونَ النّاسَ عن سبيلِ اللّهِ.

ورابعُها: أنَّ الأنعامَ لا تعرفُ شيئًا، ولكنَّها عاجزةٌ عنِ الطَّلبِ، وأمّا هؤلاءِ الجُهّالِ؛ فإنَّهم غيرُ عاجزينَ عنِ الطَّلبِ.

وخامسُها: أنَّ البهائمَ لا تستحقُّ عِقابًا على عدمِ العلمِ، أمّا هؤلاءِ؛ فيستحقّونَ عليهِ أعظمَ العِقابِ[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 282.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.

وسادسُها: أنَّ الأنعامَ تَفْقَهُ بعضَ ما تسمعُهُ مِنْ أصواتِ الزَّجْرِ ونحوِها مِنْ رُعاتِها، وهؤلاءِ لا يفقهونَ شيئًا مِنْ أصواتِ مُرشِدِهم وسائسِهم، وهو الرَّسولُ ﷺ[1].

نكتةُ إسنادِ الأضلّيَّةِ إلى السَّبيلِ وتنكيرِها:

المبالغةُ في وصف ضلال الكافرينَ

يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ على أنَّ ضلالَ طريقِ الكافرينَ أشدُّ مِنْ ضلالِ طريقِ الأنعامِ الَّتي شُبِّهوا بها في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وفي نسبةِ المبالغةِ في الضَّلالِ إلى طريقِهم مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم وسوءِ اختيارِهم وصنيعِهم؛ حيثُ يُخيَّلُ للسّامعِ أنَّ الطَّريقَ الَّذي يسيرونَ فيه - والطَّريقُ عادةً يوصِلُ إلى المقصودِ - ضالٌّ تائهٌ، لا يدري أينَ يتَّجِهُ، فما بالُكَ بسالكيه؟

وتنكيرُ ﴿سَبِيلًا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ للنَّوعيَّةِ، ولفظُ ﴿سَبِيلًا﴾ تمييزٌ مُفسِّرٌ لنوعِ الأضلّيَّةِ المُبهَمةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾:

الدَّلالةُ على الثُّبوتِ والاستقرارِ والدوام

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ للدَّلالةِ على أنَّ كونَ المشركينَ أضلَّ سبيلًا مِنَ الأنعامِ أمرٌ مُستقِرٌّ ثابتٌ دائمٌ، لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّلُ، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم يبقَى على صفحةِ الأيّامِ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحُسْبانُ والظَّنُّ:

الظَّنُّ فيه تغليبٌ لأحدِ النَّقيضينِ على الآخرِ، والحُسْبانُ لا تغليبَ فيهِ

فُرِّقَ بينَ الحُسْبانِ والظَّنِّ: بأنَّ الحُسْبانَ: أنْ يحكمَ لأحدِ النَّقيضينِ مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِهِ، والظَّنَّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضينِ ببالِهِ، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.
(2) الراغب، المفردات: (حسب).

ومن جهة أخرى فإنَّ الحُسبان مبنيٌّ على حساب غير مكتمل الجوانب، بينما الظنُّ مبنيٌّ على مطلق الحدس والتخمين.

العقلُ والعِلمُ والفكرُ:

العقلُ: هو العِلمُ الأوَّلُ الَّذي يزجرُ عنِ القبائحِ، والفكرُ: هو تردُّدُ القلبِ بالنَّظرِ

الفرقُ بينَ العقلِ والعِلم: أنَّ العقلَ هو العِلمُ الأوَّلُ الَّذي يزجرُ عنِ القبائحِ، وكلُّ مَنْ كانَ زاجرُهُ أقوى؛ كانَ أعقلَ، وخلافُ العقلِ الحُمقُ، وخلافُ العِلمِ الجهلُ[1]. فالعِلمُ أفضلُ مِنَ العقلِ؛ لأنَّهُ مقصودٌ لذاتِه، والعقلُ مقصودٌ لغيرِه[2]؛ ولذلك يوصف اللّهُ بالعلم، ولا يوصفُ بالعقل.

والفكرُ: هو تردُّدُ القلبِ بالنَّظرِ والتَّدبُّرِ لطلبِ المعاني، والعقلُ: قوَّةٌ في النَّفسِ مُجرَّدةٌ عنِ المادَّةِ يُعرَفُ بها الحقُّ والباطلُ[3].

السَّبيلُ والطَّريقُ والصِّراطُ:

الصِّراطُ: هو الطَّريقُ السَّهلُ، والطَّريقُ لا يقتضي السُّهولةَ، والسَّبيلُ أعمُّ

فُرِّقَ بينَ الصِّراطِ والطَّريقِ والسَّبيلِ: بأنَّ الصِّراطَ هو الطَّريقُ السَّهلُ، والطَّريق لا يقتضي السُّهولةَ، والسَّبيل: يُطلَقُ على ما يُطلَقُ عليهِ الطَّريقُ، وعلى ما لا يُطلَقُ عليهِ الطَّريقُ، تقولُ: سبيلُ اللّهِ، وطريقُ اللّهِ، وتقولُ: سبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أنْ تفعلَ كذا.

وفُرِّقَ بينَ السَّبيلِ والطَّريقِ أيضًا: بأنَّ السَّبيلَ أغلبُ وقوعًا في الخيرِ، ولا يكادُ الطَّريقُ يرادُ بهِ الخيرُ إلّا مُقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تُخصِّصُهُ لذلكَ، كقولِه تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4].

وقيلَ: الطَّريقُ قد يكونُ معتادَ السُّلوكِ، وقد يكونُ غيرَ معتادٍ، والسَّبيلُ: ما يكونُ معتادًا[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 366.
(2) حقي، الفروق، ص: 170.
(3) هنريكوس، فرائد اللغة، ص: 213.
(4) العسكري، الفروق، ص: 313.
(5) حقي، الفروق، ص: 143.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾

[الفرقان: 45 - 46]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ذِكرُ الدَّلائلِ على وجودِ الصّانعِ بعدَ بيانِ ضلالِ الكفرة

في مناسبةِ الآيتينِ لِما قبلَهما وجهانِ متقاربانِ:

أحدُهما: أنَّهُ ﷻ لمّا بيَّنَ ضلالَ المُعرِضينَ عن دلائلِ اللّهِ، وفسادَ طريقِهم في ذلكَ؛ ذكرَ بعدَهُ أنواعًا مِنَ الدَّلائلِ الدّالَّةِ على وجودِ الصّانعِ[1]؛ لعلَّهم يتدبَّرونَها، ويؤمنونَ بمَنْ هذهِ قُدرتُهُ وتصرُّفُهُ في عالَمِهِ[2].

والثّاني: أنَّ الآيةَ انتقالٌ مِنْ إثباتِ صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللّهِ المُنزَلُ على رسولِهِ، وصفاتِ الرُّسُلِ وما تخلَّلَ ذلكَ مِنَ الوعيدِ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32]، وفيهِ انتقالٌ إلى الاستدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوحدانيَّةِ للّهِ سبحانَهُ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ بقولِهِ في أوَّلِ السّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: 3][3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدَّ﴾: (مدّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالُ شيءٍ بشيءٍ في استطالةٍ[4] من جنسه غالبًا، فيزيدُهُ طولًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 111.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدد).

واستمرارًا أو قَدْرًا[1]، ومِنْ ذلكَ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومدَّ النَّهْرَ نَهْرٌ آخرُ: زادَ فيهِ وواصلَهُ، وأمدَدْتُ الجيشَ بمَدَدٍ، والمِدادُ: ما يُكتَبُ بهِ؛ لأنَّهُ يُمَدُّ بالماءِ ونحوِهِ[2]، ورجلٌ مَديدُ القامةِ، أي: طويلُ القامةِ[3]، والمُدَّةُ: الوقتُ الممتدُّ، وأكثرُ ما يقالُ الإمدادُ في المحبوبِ، والمَدُّ في المكروهِ، قالَ تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾ [الطور: 22]، وقالَ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15][4]، وقال سبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]، أي: زيادةً[5]، والمقصود بالآية: أطاله، وزادَ فيه، وواصلَهُ.

2) ﴿ٱلظِّلَّ﴾: (ظلّ): سَتْرُ شيءٍ لشيءٍ، وهو الَّذي يُسمَّى الظِّلَّ، ومنهُ ظِلُّ الإنسانِ[6]، ويقالُ: أظلَّني الغَمامُ والشَّجَرُ، وظلَّلني مِنَ الشَّمسِ[7]، قالَ تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ [البقرة: 57]، والظُّلَّةُ: سحابةٌ تُظلُّ، وأكثرُ ما يقالُ فيما يُستوخَمُ، ويُكرَهُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171]، وقالَ: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: 189]، وقد يُطلَقُ الظِّلُّ على كلِّ ساترٍ، محمودًا كانَ أو مذمومًا، فمِنَ المحمودِ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١﴾ [فاطر: 21]، ومِنَ المذموم قولُهُ: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾ [الواقعة: 43]، ويقالُ مجازًا: أظلَّني فلانٌ، أي: حَرَسَني، وجعلَني في ظِلِّهِ وعِزِّهِ ومَنَعَتِهِ[8].

3) ﴿سَاكِنٗا﴾: (سكن): السُّكون خلافُ الاضطرابِ والحركةِ[9]، واستقرارٌ في جوفِ حيِّزٍ أو باطنٍ[10]، فالسُّكونُ: ثبوتُ الشَّيءِ بعدَ تحرُّكٍ[11]، أو ثبوتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ إلى حركةٍ سابقةٍ[12]، ويُستعمَلُ في الاستيطانِ، نحوُ: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنَهُ، والسَّكَنُ:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدد).
(3) الجوهري، الصحاح: (مدد).
(4) الراغب، المفردات: (مدد).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (مدد)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (ظلل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(10) الراغب، المفردات: (سكن).
(11) الخليل، العين: (سكن).
(12) السمين، عمدة الحفاظ: (سكن).

السُّكونُ وما يُسكَنُ إليهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ [النحل: 80][1]، ويقالُ: سَكَنْتُ إلى فلانٍ، أي: استأنستُ بهِ، ولا تَسْكُنُ نَفْسي إلى غيرِهِ[2].

4) ﴿دَلِيلًا﴾: (دلل) أصلانِ: أحدُهما: اضطرابٌ في الشَّيءِ، والآخرُ: إبانةُ الشَّيءِ بأَمارةٍ تتعلَّمُها، فمِنَ الأوَّلِ قولُهم: تدلدلَ الشَّيءُ، أي: اضطربَ، ومِنَ الثّاني قولُهم: دَلَلْتُ فلانًا على الطَّريقِ[3]، ويجمع ذلك أصلٌ واحد، وهو امتداد الشَّيءِ من أعلى إلى أسفل[4]، والاضطراب سببٌ في الامتداد، وامتداد الشَّيء وضوحٌ له وإبانة، والدَّلالةُ: ما يُتوصَّلُ بها إلى معرفةِ الشَّيءِ، كدلالةِ الألفاظِ على المعاني، ودلالةِ الإشاراتِ، والرُّموزِ، والكتابةِ، والعُقودِ في الحِسابِ، وسواءٌ كانَ ذلكَ بقصدٍ ممَّنْ جعلَهُ دلالةً، أو لم يكنْ بقصدٍ، كمَنْ يرى حركةَ إنسانٍ، فيعلمُ أنَّهُ حيٌّ، قالَ ﷻ: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ [سبأ: 14]؛ لأنَّ الأَرَضةَ لم تقصدْ ذلكَ[5]، والدَّليلُ: ما يُستدلُّ به[6].

5) ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾: (قبض) القبضُ جمعُ الكفِّ بشدَّةٍ على الشَّيءِ المأخوذِ؛ إمساكًا لهُ[7]، كقَبْضِ السَّيفِ وغيرِهِ، والقبضةُ: ما قَبَضْتَ عليهِ مِنَ الأشياءِ، يقالُ: أعطاهُ قبضةً مِنْ سَويقٍ أو تمرٍ[8]، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: 96]، وقَبْضُ اليدِ على الشَّيءِ: جمعُها بعدَ تناولِهِ، وقَبْضُها عنِ الشَّيءِ: جمعُها قبلَ تناولِهِ، وذلكَ إمساكٌ عنهُ، ومنهُ يقالُ لإمساكِ اليدِ عنِ البذلِ: قَبْضٌ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، أي: يمتنعونَ مِنَ الإنفاقِ، ويُستعارُ القَبْضُ لتحصيلِ الشَّيءِ، وإنْ لم يكنْ فيهِ مراعاةُ الكفِّ، كقولِكَ: قَبَضْتُ الدّارَ منْ فلانٍ، أي: حُزْتُها، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ معناهُ: نسَخْنا الشَّمسَ بالظِّلِّ، وجعَلْناهُ مكانَها[9].

---

(1) الراغب، المفردات: (سكن).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دلل - دلدل).
(5) الراغب، المفردات: (دلل)، والسمين، عمدة الحفاظ: (دلل).
(6) الجوهري، الصحاح: (دلل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبض)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قبض).
(8) الجوهري، الصحاح: (قبض).
(9) الراغب، المفردات: (قبض)، والسمين، عمدة الحفاظ: (قبض).

6) ﴿يَسِيرًا﴾: (يسر) اليُسْرُ: ضدُّ العُسْرِ، وهو سريان شيءٍ رقيق بلطف واتِّصال[1]، قالَ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ويقالُ: تيسَّرَ كذا، واستيسرَ، أي: تسهَّلَ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196]، وقالَ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] أي: تسهَّلَ وتهيَّأَ، واليسيرُ والميسورُ: السَّهْلُ، ويُطلَقُ اليسيرُ أيضًا على الشَّيءِ القليلِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الظِّلُّ نعمةٌ جليلةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ ﷻ

ألم ترَ - أيُّها النَّبيُّ - كيفَ مدَّ ربُّكَ الظِّلَّ، وهو ما بينَ طُلوعِ الفجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاءَ؛ لجعلَهُ دائمًا لا يزولُ، ممدودًا لا تُذهِبُهُ الشَّمسُ، ولا تُنقِصُهُ، ثمَّ دلَلْناكُم بنَسْخِ الشَّمسِ إيّاهُ عندَ طُلوعِها عليهِ أنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ ربِّكم، يوجِدُهُ؛ إذا شاءَ، ويُفنيهِ؛ إذا أرادَ، ثمَّ قبَضْنا ذلكَ الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبْضًا خفيًّا سريعًا بالفيءِ الَّذي نأتي بهِ بالعَشيِّ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الانتقالُ من إثباتِ صِدقِ الوحيِ إلى إثباتِ بُطلانِ كفرِهم

قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآيةَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو انتقالٌ مِنْ إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ، وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ المُنْزَلُ على رسولِهِ، وصفاتِ الرُّسُلِ وما تخلَّلَ ذلكَ مِنَ الوعيدِ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]، وفيهِ انتقالٌ إلى الاستدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوحدانيَّةِ للهِ سبحانَهُ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يسر).
(2) الراغب، المفردات: (يسر)، والسمين، عمدة الحفاظ: (يسر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 275 - 277.

بقولِهِ في أوّلِ السّورة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: 3][1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الاستفهامُ للتّقريرِ والتّأكيدِ

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ للتّقريرِ، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى بديعِ صُنْعِهِ تعالى[2]، أي: قد رأيتَ، أو قد انتهَى عِلمُكَ[3]، والاستفهامُ صالحٌ لطبقاتِ السّامعين: مِنْ غافلٍ يُسألُ عن غفلتِهِ ليُقِرَّ بها؛ تحريضًا على النَّظرِ، ومِنْ جاحدٍ يُنكِرُ عليهِ إهمالُهُ النَّظرَ، ومِنْ موفَّقٍ يُحَثُّ على زيادةِ النَّظرِ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

اتِّساعُ المعاني لكونِ الرُّؤيةِ بصريَّةً أو قلبيَّةً

عبَّر النَّظمُ الكريم بالرُّؤيةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، ويُراد بها وجهانِ: **أحدُهما**: أنَّها مِنْ رؤيةِ العينِ، والمعنى: (ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؟)[5] **والثّاني**: أنَّها مِنْ رؤيةِ القلبِ، يعني: العِلمَ، والمعنى: (ألم تَعْلَمْ؟)[6].

تعيينُ المُخاطَبِ في قولِهِ: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الأصلُ في خطابِ القرآنِ أن يكونَ عامًّا إلّا إذا خصَّص

الخطابُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ لرسولِ اللّهِ ﷺ[7]، بحسَبِ ظاهرِ اللَّفظِ، ولكنَّ الخطابَ عامٌّ في المعنى؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الآيةِ بيانُ نِعَمِ اللّهِ تعالى بالظِّلِّ، وجميعُ المكلَّفينَ مشتركونَ في أنَّهُ يجبُ تنبُّههم لهذهِ النِّعمةِ، وتمكُّنُهم مِنَ الاستدلالِ بها على وجودِ الصّانعِ جلَّ شأنُهُ[8].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 37.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 26.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.

تضمينُ الفعلِ معنى النَّظرِ أو معنى الانتهاءِ

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

إذا كانَتِ الرُّؤيةُ في قولِه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بصريَّةً؛ فكلمةُ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّاخلةُ على المرئيِّ مبنيَّةٌ على تضمينِ الرُّؤيةِ معنى النَّظرِ[1]، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؟

وإذا كانَتِ الرُّؤيةُ قلبيَّةً؛ فالتَّعبيرُ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ لتضمُّنِ الفعلِ معنى الانتهاءِ[2]، والمعنى: ألم يَنْتَهِ عِلمُكَ إلى كيفيَّةِ مدِّ ربِّكَ للظِّلِّ؟

التَّعبيرُ بالوصفِ الدّالِّ على الإحسانِ

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ما يَعْقُبُهُ مِنْ آثارِ رُبوبيَّتِهِ ورحمتِهِ تعالى[3]، فيكونُ ملائمًا لمقامِ الامتنانِ بنعمةِ الظِّلِّ، ومقامِ إقامةِ الدَّليلِ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا تشويقٌ إلى إدامةِ النَّظرِ إليهِ، والإقبالِ عليهِ، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى المُحسِنِ إليكَ، أي: ألم تَنْظُرْ إلى فعلِهِ[4]، وفي ذلك توجيهُ الإنسانِ إلى المنعمِ قبلَ توجيهِهِ إلى النِّعمةِ؛ إذ لم يقل: (ألم ترَ إلى مدِّ ربِّكَ الظلَّ).

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ

نكتةُ إضافةِ الرُّبوبيّةِ إلى ضميرِه ﷺ:

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى ضميرِهِ ﷺ؛ لتشريفِهِ ﷺ[5]؛ لِما تُشيرُ إليهِ هذهِ الإضافةُ مِنْ كونِهِ ﵇ مَحَطَّ عِنايةِ اللّهِ تعالى ورعايتِهِ.

مَطْمَحُ أنظارِهِ ﷺ معرفةُ الصّانعِ قبلَ معرفةِ الصَّنعةِ

سرُّ توجيهِ الرُّؤيةِ إليهِ ﷻ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

أصلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ، فغُيِّرَ النَّظمُ إشعارًا بأنَّ المعقولَ مِنْ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 295.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 397.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.

الكلامِ، كالمحسوسِ المُشاهَدِ المرئيِّ؛ لوضوحِ بُرهانِه، وهو دلالةُ حدوثِه وتصرُّفِه على الوجهِ النّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلك فعلُ الصّانعِ الحكيمِ(1).

ولو قيلَ: ألم ترَ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؛ لكانَ الانتقالُ مِنَ الأثرِ إلى المُؤثِّرِ، والَّذي عليهِ النَّظمُ عكسُهُ، والمقامُ يقتضيه؛ لأنَّ الكلامَ في تقريعِ القومِ وتجهيلِهم في اتِّخاذِهم الهوى إلهًا معَ وضوحِ هذهِ الدَّلائلِ، ولذلكَ جُعِلَ ما يدلُّ على ذاتِه مُقدَّمًا على أفعالِه في سائرِ آياتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، ولذلكَ قالَ بعضُهم: مُخاطَبةُ العامِّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]، ومُخاطَبةُ الخاصِّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾(2).

أو أنَّ توجيهَ الرُّؤيةِ إليهِ ﷻ في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ معَ أنَّ المرادَ تقريرُ رؤيتِه ﷺ لكيفيَّةِ مدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظرَهُ ﷺ غيرُ مقصورٍ على ما يُطالِعُهُ مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطْمَحُ أنظارِهِ معرفةُ شؤونِ الصّانعِ المجيدِ جلَّ شأنُهُ(3).

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه:

المقصودُ من الخِطابِ توجيهُ العبادِ للنَّظرِ إلى آياتِ الله تعالى

في قولِ الباري جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ مضافٌ مُقدَّرٌ حُذِفَ، وأُقيمَ المضافُ إليهِ مقامَهُ، أي: ألم تَنْظُرْ إلى صُنْعِ ربِّكَ؛ لأنَّهُ ليسَ المقصودُ رؤيةَ ذاتِ اللّهِ ﷻ(4)، وإنَّما المقصودُ النَّظرُ إلى آياتِ اللّهِ تعالى.

إعرابُ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

اتِّساعُ اللَّفظِ لعددٍ من المعاني لاختلافِ أوجهِ الإعرابِ

اختُلِفَ في إعرابِ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 244.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 244.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 26.

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فقيلَ: ﴿كَيۡفَ﴾ سؤالٌ عن حالٍ في موضعِ نصبٍ بـ ﴿مَدَّ﴾، والجملةُ في موضعِ متعلِّقِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ لأنَّ ﴿تَرَ﴾ معلَّقةٌ، والجملةُ الاستفهاميَّةُ الَّتي هي معلَّقٌ عنها فعلُ القلبِ ليسَتْ باقيةً على حقيقةِ الاستفهامِ، والمعنى: ألم ترَ إلى مدِّ ربِّك الظِّلَّ[1].

وقيلَ: ﴿كَيۡفَ﴾ مُنسلِخةٌ عنِ الاستفهاميَّةِ، وهي بمعنى الحالِ، منصوبةٌ، والتَّقديرُ: (مدَّ الظِّلَّ على أيِّ حالٍ شاءَهُ)، أو (مدَّهُ على حالٍ غريبةٍ لطيفةٍ)، والجملةُ بيانٌ لصنيعِهِ تعالى[2].

وقيلَ: ﴿كَيۡفَ﴾ مُجرَّدةٌ عنِ الاستفهامِ، وهي اسمٌ دالٌّ على الكيفيَّةِ، فهي في محلِّ جرٍّ بدلُ اشتمالٍ مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾، والتَّقديرُ: (ألم ترَ إلى ربِّكَ إلى هيئةِ مدِّهِ الظِّلَّ)[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ﴾:

المحسوسُ المشاهدُ لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه

في التَّعبيرِ عنِ المدِّ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مدَّ الظِّلِّ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وهو أمرٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ لجميعِ النّاسِ، فلا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ.

المرادُ بمدِّ الظِّلِّ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

المرادُ إنشاءُ الظِّلِّ ممتدًّا

قولُهُ ﷻ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، معناهُ: كيفَ خلقَهُ ممتدًّا عندَ ابتداءِ طلوعِ الشَّمسِ، وفي ذلكَ مزيدُ تعجيبٍ مِنْ هذا الخلقِ وتفخيمٍ لهُ، وتعظيمٍ لقدرةِ الخالقِ سبحانَهُ، وليسَ المرادُ أنَّهُ مدَّهُ بعدَ أنْ لم يكنْ ممتدًّا، كما يحصلُ بعدَ نصفِ النَّهارِ إلى غروبِ الشمسِ، فإنَّ هذا المعنى لا يوافقُ السّياقَ، وليسَ فيهِ تصريحٌ بخلقِ اللهِ للظِّلِّ[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 111.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 108.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 40.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.

وقيلَ: في قولِه ﷻ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلك أنَّ المدَّ في الأصلِ: بَسْطُ الشَّيءِ المُنقبِضِ المتداخلِ، يقالُ: مدَّ الحَبْلَ، ومدَّ يدَهُ، ويُطلَقُ على الزّيادةِ في الشَّيءِ على سبيلِ الاستعارةِ، وهي استعارةٌ شائعةٌ، والمرادُ بِهِ هنا: الزّيادةُ في مِقْدارِ الظِّلِّ[1].

سرُّ إطلاقِ مدِّ الظِّلِّ على تحرُّكِهِ:

تسميةُ الشَّيءِ باسمِ مُلابسِهِ أو سببِهِ

قيلَ: معنى قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: جعلَهُ يمتدُّ، وينبسطُ، فينتفعُ بِهِ النّاسُ، سُمّيَ انبساطُ الظِّلِّ وامتدادُهُ تحرُّكًا منهُ، وسُمّيَ عدمُ ذلكَ سُكونًا[2]، فيكونُ إطلاقُ مدِّ الظلِّ وبَسْطِهِ على الحركةِ مِنْ بابِ تسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابسِهِ أو سببِهِ[3].

سرُّ العُدولِ عن (مُتحرِّكًا) إلى ﴿مَدَّ﴾:

دَمجُ معنى معرفةِ أوقاتِ الصَّلَواتِ

قيلَ: عُدِلَ عن (مُتحرِّكًا) إلى ﴿مَدَّ﴾، معَ أنَّهُ أظهرُ مِنْ ﴿مَدَّ﴾ في تناولِهِ الانبساطَ والامتدادَ؛ ليُدمَجَ فيهِ معنى الانتفاعِ المقصودِ بالذّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ، فإنَّ اعتبارَ الظِّلِّ فيها بالامتدادِ دونَ الانبساطِ، وتمَّمَ معنى الإدماجِ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾، أي: بالتَّدريجِ والمَهَلِ؛ لمعرفةِ السّاعاتِ والأوقاتِ[4].

المرادُ بالظِّلِّ في قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معنيَينِ

اختُلِفَ في المرادِ بالظِّلِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فقيلَ: الظِّلُّ هو الأمرُ المُتوسِّطُ بينَ الضَّوءِ الخالصِ وبينَ الظُّلمةِ الخالصةِ، وهو ما بينَ ظُهورِ الفجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، وكذا الكيفيّاتُ الحاصلةُ داخلَ السَّقْفِ وأفنيةِ الجُدرانِ، وهذهِ الحالةُ أطيبُ الأحوالِ؛ لأنَّ الظُّلمةَ الخالصةَ يكرهُها الطَّبْعُ، وينفرُ عنها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 245.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 245.

الحِسَّ، وأمّا الضَّوءُ الخالصُ؛ فهو يبهرُ الحِسَّ البَصَريَّ، ويُفيدُ السُّخونةَ القويَّةَ، وهي مُؤذيةٌ.

وقيلَ: لمّا خلقَ اللّهُ الأرضَ والسَّماءَ والكواكبَ والشَّمسَ والقمرَ؛ وقعَ الظِّلُّ على الأرضِ، ثمَّ خلقَ سبحانَهُ الشَّمسَ دليلًا عليهِ؛ لأنَّهُ بحسَبِ حركاتِ الأضواءِ تتحرَّكُ الأظلالُ، فإنَّهما متعاقبانِ متلازمانِ، لا واسطةَ بينَهما، فبمقدارِ ما يزدادُ أحدُهما؛ ينقصُ الآخرُ[1].

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلظِّلَّ﴾:

اتِّساعُ المعنى لاحتمالِ إرادة العهدِ والجنس والاستغراق

تحتمل (أل) التعريفية العهدَ، أي: الظِّل المعروف المعهود، المرئي المشاهد، وتحتمل (أل) التعريفيَّة في ﴿ٱلظِّلَّ﴾ أن تكون للجنس، أي: مدَّ لكم جنس الظلِّ، وتحتمل أن تكونَ للاستغراق، فتفيد العمومَ بنوعيه: عموم الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الظل، وكلَّ درجة من درجاته، أو عموم الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ الظِّلال.

براعةُ التَّمثيل في الآيةِ:

مدُّ الظِّلِّ وقَبْضُهُ تمثيلٌ لحكمةِ التَّدريجِ في التَّكويناتِ الإلهيَّةِ

مدُّ الظِّلِّ وقَبْضُهُ تمثيلٌ لحكمةِ التَّدريجِ في التَّكويناتِ الإلهيَّةِ؛ ليكونَ هذا التَّمثيلُ بمنزلةِ كُبْرى القياسِ؛ للتَّدليلِ على أنَّ تنزيلَ القرآنِ مُنَجَّمًا جارٍ على حكمةِ التَّدرُّجِ؛ لأنَّهُ أمكنُ في حصولِ المقصودِ، وذلكَ ما دلَّ عليهِ قولُهُ سبحانَهُ فيما سبقَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى تمثيلِ نُزولِ القرآنِ بظُهورِ شمسٍ في المواضعِ الَّتي كانَتْ مظَلَّلةً؛ إذ قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، فإنَّ حالَ النّاسِ في الضَّلالةِ قبلَ نزولِ القرآنِ تُشبِّهُ بحالِ امتدادِ ظُلمةِ الظِّلِّ، وصارَ ما كانَ مُظلَّلًا ضاحيًا بالشَّمسِ، وكانَ زوالُ ذلكَ الظِّلِّ تدريجيًّا حتَّى ينعدمَ الفيءُ، فنظمُ الآيةِ بما اشتملَ عليهِ مِنَ التَّمثيلِ أفادَ تمثيلَ هيئةِ تنزيلِ القرآنِ مُنَجَّمًا بهيئةِ مدِّ الظِّلِّ مُدرَّجًا، ولو شاءَ؛ لجعلَهُ ساكنًا[2].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.

بلاغةُ الاعتراضِ في: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾:

الدّلالةُ على قدرة الله في إسداء نِعمِه

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بينَ المتعاطفينِ - وهما ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، و﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ للتَّنبيهِ مِنْ أوَّلِ الأمرِ على أنَّهُ لا مدخلَ للأسبابِ العاديَّةِ مِنْ قُرْبِ الشَّمسِ إلى الأُفُقِ الشَّرقيِّ على الأوَّلِ، أو قيامِ الشّاخصِ الكثيفِ على الثّاني، وإنَّما المُؤثِّرُ فيه حقيقةً المشيئةُ والقُدرةُ[1]، أو تكون فائدةُ الاعتراضِ التَّذكيرَ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً جليلةً ونعمةً عظيمةً[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لو) في: ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾:

الدّلالةُ على امتناعِ جعلِ الظِّلِّ ساكنًا

(لو) حرفُ شرطٍ يدلُّ على امتناعِ جوابِهِ لامتناعِ شرطِهِ، فتدلُّ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ على امتناعِ جعلِ الظِّلِّ ساكنًا؛ بسببِ امتناعِ مشيئةِ اللهِ ﷻ جعلَهُ ساكنًا.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾:

الإيجازُ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ على القاعدةِ المستمرَّةِ في مثلِ هذا التَّركيبِ، والتَّقديرُ: (ولو شاءَ سُكونَهُ؛ لجعلَهُ ساكنًا)، أي: ثابتًا على حالِهِ، ظِلًّا أبدًا، كما فعلَ ﷻ في ظلِّ الجنَّةِ، أو لجعلَهُ ثابتًا على حالِهِ مِنَ الطّولِ والامتدادِ، وذلكَ بألّا يجعلَ سبحانَهُ للشَّمسِ على نَسْخِهِ سبيلًا، بأنْ يُطلِعَها، ولا يَدَعَها تنسخُهُ، أو بألّا يَدَعَها تُغيِّرُهُ باختلافِ أوضاعِها بعدَ طُلوعِها[3].

بلاغةُ وقوعِ اللّامِ في جوابِ ﴿وَلَوۡ﴾:

سرعةُ وقوعِ جوابِ (لو) بعد فعلِها

اللّامُ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ هي اللّامُ الواقعةُ في جوابِ أداةِ الشَّرطِ (لو)، وهي تربطُ بينَ الشرطِ وجوابِه،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 41.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.

كأنَّه لا يوجد فاصلٌ في الزمان بين فعل (لو) وجوابها، حيث إنَّه لو شاء ذلك؛ لجعله ساكنًا بمجرَّد المشيئة، كما أنَّها تقوّي الجواب وتؤكِّده، أي: إنَّ انتفاء جعْلِ الظلِّ ساكنًا أمرٌ مؤكَّدٌ مشاهد لا شكَّ فيه، كما أنَّها تفيد تعليلَ انتفاء الجواب بانتفاء الشرط.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في: ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾:

الإشارةُ لطلاقة القدرة وحريَّة المشيئة

(لو) للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ فرْضًا في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، ولذلكَ يلزمُ في جملتَيْها المُضيُّ وعدمُ الثُّبوتِ[1]، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ سُلطانُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾، أي: إنَّه لم يشأ ذلك أبدًا منذ بدء الخلق إلى الآن، وأنَّ ذلك جارٍ بطلاقةِ القدرةِ الواقعةِ وفق المشيئة.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سَاكِنٗا﴾:

مقابلةُ الامتدادِ المشتمِل على الحركةِ

معنى قولِه ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾: ولو شاءَ اللّه؛ لجعلَ الظِّلَّ لاصقًا بأصلِ كلِّ مُظِلٍّ - مِنْ جبلٍ وبناءٍ وشجرةٍ - غيرَ مُنبسِطٍ، فلم يُنتفَعْ بهذا الظل، فسُمّيَ انبساطُ الظِّلِّ وامتدادُهُ تحرُّكًا منهُ، وعدمُ ذلكَ سُكونًا[2]، وعلى ذلكَ يكونُ قولُهُ: ﴿سَاكِنٗا﴾ مأخوذًا مِنَ السُّكونِ[3].

أو: ولو شاءَ؛ لجعلَهُ ثابتًا على حالِهِ مِنَ الطّولِ والامتدادِ، وإنَّما عُبِّرَ عن ذلكَ بالسُّكونِ؛ لأنَّ مقابلَهُ الَّذي هو تغيُّرُ حالِهِ بتغيُّرِ الأوضاعِ بينَ الظِّلِّ وبينَ الشَّمسِ يُرَى رأيَ العينِ حركةً وانتقالًا[4]، وعلى ذلكَ يكونُ ﴿سَاكِنٗا﴾ مأخوذًا مِنَ السُّكْنى بمعنى الاستقرارِ، لا

(1) التفتازاني، المختصر: 281 - 284.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.

مِنَ السُّكونِ[1]، أو إنَّه إنَّما عُبِّرَ عن ذلكَ بالسُّكونِ؛ لأنَّ مقابلَهُ الَّذي هو زوالُهُ لمَّا كانَ تدريجيًّا؛ كانَ أشبهَ شيءٍ بالحركةِ[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾:

الشَّمسُ علامةٌ يُستدَلُّ بأحوالِها المُتغيِّرةِ على أحوالِ الظل

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾، داخلٌ في حكمِهِ، والمعنى: ألم ترَ إلى ربِّك بما له من العظمة، كيف جعل الشَّمسَ علامةً يُستدَلُّ بأحوالِها المُتغيِّرةِ على أحوالِ الظلِّ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ بينَهما سببيَّةٌ وتأثيرٌ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾:

اتِّساعُ المعنى باحتمال (ثُمَّ) للتراخي الرتبي والزماني

حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: لبيانِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ أعظمُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[4]؛ لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دليلًا على وجودِهِ، فلولا الشَّمسُ؛ ما عُرِفَ الظِّلُّ[5].

ويمكنُ أن تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الزَّمنيِّ، وذلكَ أنَّهُ ﷻ مدَّ الظِّلَّ حينَ بنى السَّماءَ كالقُبَّةِ المضروبةِ، ودحا الأرضَ تحتَها، فألقَتِ القُبَّةُ ظِلَّها على الأرضِ فيْنانًا ما في أديمِهِ فُرَجٌ لعدمِ النَّيِّرِ، ولو شاءَ تعالى؛ لجعلَهُ في ذلك الوقت ساكنًا مُستقِرًّا على تلكَ الحالةِ، ثمَّ خلقَ الشَّمسَ، وجعلَها على ذلكَ الظِّلِّ، أي: سلَّطَها عليهِ، ونصبَها دليلًا متبوعًا لهُ، كما يُتبَعُ الدَّليلُ في الطَّريقِ، فهو يزيدُ بها، وينقصُ، ويمتدُّ، ويتقلَّصُ[6]، ولا مانع من إرادة الأمرين معًا.

تردُّدُ دلالة ﴿ثُمَّ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

الإيجازُ بإرادة اللفظ الحقيقة أو المجاز أو هما معًا

إنْ كانَتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.

للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فهي استعارةٌ تبعيَّةٌ، حيثُ شُبِّهَ بُعْدُ المرتبةِ بالبُعْدِ الزَّمانيِّ، ثمَّ استُعيرَت لجانبِ المُشبَّهِ لفظةُ ﴿ثُمَّ﴾، وأمّا إنْ كانَتْ للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ فهي على حقيقتِها[1].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا﴾:

الـدَّلالـةُ على عِـظَـمِ الـقُـدرةِ ودِقَّةِ الحكمةِ

الالتفاتُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾؛ لِما في الجَعْلِ المذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ - معَ ما يُشاهَدُ بينَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّورانِ المُطَّردِ المُنبئِ عنِ السَّببيَّةِ - مِنْ مزيدِ الدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ ودِقَّةِ الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾[2]، ويمكن أن يكونَ الالتفاتُ؛ للإيذانِ بعِظَمِ قَدْرِ هذا الجَعْلِ؛ لِما يستتبعُهُ مِنَ المصالحِ الَّتي لا تُحْصَى[3]، أو أنَّ الالتفاتَ وقع هنا؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّم أدخلُ في الامتنانِ مِنْ ضميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نعمةٌ، وهي نعمةُ النّورِ الَّذي بِهِ تمييزُ أحوالِ المرئيّاتِ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ ارتقاءً في المِنَّةِ[4].

وقيلَ: الالتفاتُ لبيانِ إرادةِ اللّهِ الواضحة، وأنَّهُ هو الفاعلُ المختارُ، ولتربيةِ المَهابةِ في النُّفوسِ بخطابِهِ بذاتِهِ العَليَّةِ[5].

نكتةُ إسنادِ ﴿جَعَلۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تـعـظـيـمُ شـأنِ جعْلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ

في إسنادِ ﴿جَعَلۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ تعظيمٌ لشأنِ هذا الجَعْلِ العجيبِ الشَّأنِ، فهو جَعْلٌ تترتَّبُ عليهِ نعمةُ النّورِ الَّذي بِهِ تمييزُ أحوالِ المرئيّاتِ، والمعنى: ثمَّ جعَلْنا بعظَمتِنا الشَّمسَ عليهِ دليلًا[6].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 41.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5289.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 397.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿دَلِيلٗا﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ للمؤخَّرِ

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿دَلِيلٗا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ للعنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ الجَعْلِ مُتعلِّقًا بالظِّلِّ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الدَّليلُ، ويضافُ إلى ذلكَ أنَّ تأخيرَ ﴿دَلِيلٗا﴾ تترتَّبُ عليهِ مراعاةُ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها.

نكتةُ تعديةِ ﴿دَلِيلٗا﴾ بـ (على):

الإشارةُ إلى أنَّ دلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ دلالةُ تنبيهٍ على شيءٍ قد يَخْفَى

تُفيدُ تعديةُ ﴿دَلِيلٗا﴾ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ أنَّ دلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ دلالةُ تنبيهٍ على شيءٍ قد يَخْفَى، وهو الدلالةُ على قدرة اللّه تعالى وعظيم نعمته، وأنَّه ينبغي النَّظر إلى المنعم قبل النَّظر إلى النِّعمة، ويشملُ هذا حالتَي المدِّ والقَبْضِ[1].

معنى كونِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ:

الاستدلالُ بالشَّمسِ وأحوالِها في مَسيرِها على أحوالِ الظِّلِّ

قولُه ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾، معناهُ: أنَّ النّاسَ يستدلّونَ بالشَّمسِ وأحوالِها في مَسيرِها على أحوالِ الظِّلِّ، مِنْ كونِه ثابتًا في مكانٍ، زائلًا ومُتَّسِعًا ومُتقلِّصًا، فيبنونَ حاجتَهم إلى الظِّلِّ واستغناءَهم عنهُ على ذلكَ[2].

أو: أنَّ المعنى: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ بنسخِها الظِّلَّ عندَ مَجيئِها دالَّةً على أنَّ الظِّلَّ شيءٌ ومعنًى؛ لأنَّ الأشياءَ تُعرَفُ بأضدادِها، ولولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ، ولولا النّورُ؛ ما عُرِفَتِ الظُّلمةُ[3].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾:

تشبيهُ الشَّمسِ بالمُرْشِدِ الهادي

في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ تشبيهٌ بديعٌ، وذلكَ أنَّ الدَّليلَ في الأصلِ: المُرشِدُ إلى الطَّريقِ والهادي إليهِ، فجُعِلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 37.

امتدادُ الظِّلِّ لاختلافِ مقاديرِهِ كامتدادِ الطَّريقِ، وجُعِلَتِ الشَّمسُ مِنْ حيثُ كانَتْ سببًا في ظُهورِ مقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مراحلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، فكما أنَّ الهاديَ يُخبِرُ السّائرَ أينَ ينزلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلكَ الشَّمسُ بتسبُّبِها في مقاديرِ امتدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِهِ؛ ليشرعَ فيها[1].

علَّةُ عدمِ تأنيثِ قولِهِ تعالى: ﴿دَلِيلًا﴾:

الدَّليلُ في معنى الاسمِ

لم يُؤنَّثِ الدَّليلُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وهو صفةٌ للشَّمسِ؛ لأنَّهُ في معنى الاسمِ، كما يقالُ: الشَّمسُ بُرهانٌ، والشَّمسُ حقٌّ، أو أنَّ الشمس مؤنَّث مجازي، فتذكيرُ الدَّليل أقوى من تأنيثِهِ للإشارةِ إلى قوَّة دلالة الشَّمس على الظل.

نكتةُ تنكيرِ ﴿دَلِيلًا﴾:

تعظيمُ كونِ الشَّمس دليلًا على الظِّلِّ

يدلُّ تنكيرُ ﴿دَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ على تعظيمِ شأنِ كونِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ، أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ على الظِّلِّ دليلًا عظيمَ الشَّأنِ، فيه حِكَمٌ وأسرارٌ.

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾:

التَّشريكُ في الحُكمِ مع كثرة المعاني

جملةُ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ عطفٌ على جملة: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، داخلةٌ في حكمِها[2]، أو على جملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبْضَ الظِّلِّ مِنْ آثارِ جعلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾:

احتمالُ (ثُمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ أو الرُّتبيِّ

قيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لأنَّ في بيانِ كونِ القَبْضِ والمدِّ مرتَّبين - دائرين على قُطْبِ مصالحِ المخلوقاتِ - مزيدَ دلالةٍ على الحكمةِ الرَّبّانيَّةِ.

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 297، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.

ويجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ، والمعنى: أزَلْناهُ بعدَما أنشأناهُ مُمتدًّا، ومَحَوْناهُ بمَحْضِ قُدرتِنا ومشيئتِنا عندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ موقعَهُ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهُ تأثيرٌ في ذلك أصلًا[1].

وقيلَ في توجيهِ التَّراخي الرُّتبيِّ: إنَّ مضمونَ جملةِ: ﴿قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أهمُّ في الاعتبارِ بمضمونِها مِنْ مضمونِ جملةِ ﴿جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾؛ إذ في قَبْضِ الظِّلِّ دلالةٌ مِنْ دلالةِ الشَّمسِ هي عكسُ دلالتِها على امتدادِه، فكانَتْ أعجبَ؛ إذ هي عملٌ ضدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أعجبُ مِنْ صُدورِ أحدِهما السّابقِ في الذِّكرِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها على التراخي الزمني أو الرتبي:

اتِّساعُ المعنى للدلالة على الحقيقة أو المجاز أو عليهما معًا

إنْ كانَتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فهي استعارةٌ تبعيَّةٌ، حيثُ شُبِّهَ بُعْدُ المرتبةِ بالبُعْدِ الزَّمانيِّ، ثمَّ استُعيرَت لجانبِ المُشبَّهِ لفظةُ ﴿ثُمَّ﴾، وأمّا إنْ كانَتْ للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ فهي على حقيقتِها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ القَبْضِ:

مناسبةُ القَبْضِ للمدِّ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾، معناهُ: ثمَّ أزَلْنا الظِّلَّ بإيقاعِ الشَّمسِ موقعَهُ[4]، فيكونُ استعمالُ القَبْضِ في الإزالةِ مِنْ بابِ المجازِ المُرسَلِ؛ لأنَّ الإزالةَ لازمةٌ للقَبْضِ[5].

ويجوزُ أنْ يكونَ استعمالُهُ فيها على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وتعديتُهُ بقولِهِ: ﴿إِلَيۡنَا﴾ تخييلٌ، شُبِّهَ الظِّلُّ بحَبْلٍ أو ثوبٍ طواهُ صاحبُهُ بعدَ أنْ بسطَهُ، وحرفُ (إلى) ومجرورُه تخييلٌ[6].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 126.
(5) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 111.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.

وسرُّ هذا التَّجوُّز: أنَّهُ لمّا عُبِّرَ عن إحداثِه بالمدِّ بمعنى التَّسيير؛ عُبِّرَ عن إزالتِه بالقَبْضِ إلى نفسِه الَّذي هو في معنى الكفِّ[1]، فيكونُ في ذِكرِ القَبْضِ بعدَ ذِكرِ المدِّ رعايةُ معنى المقابلةِ والتَّضادِّ، وهو مِنْ مُحسِّناتِ الكلامِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾:

الـدَّلالـةُ على تـحـقُّقِ وقـوعِ قبض الظل

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ على تحقُّقِ وقوعِ قَبْضِ الظِّلِّ[3]، وأنَّهُ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، ولا يزال يتكرَّر كلَّ يوم، فهو محسوسٌ مُشاهَدٌ، فلا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه.

بلاغةُ إسنادِ ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تـعـظـيـمُ شـأنِ قَـبْـضِ الـظِّـلِّ ومدِّه

أُضيفَ ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ لتعظيمِ شأنِ قَبْضِ الظِّلِّ؛ لأنَّهُ صادرٌ عن ذي العظَمةِ والجلالِ ﷻ، ويُقوّي هذا التَّعظيمَ التَّعبيرُ بضميرِ العظَمةِ في قولِه ﷻ: ﴿إِلَيۡنَا﴾.

أو أنَّهُ أُضيفَ القَبْضُ إليهِ سبحانَهُ؛ لأنَّهُ يكونُ بإرادتِه، وبالنِّظامِ الثّابتِ الَّذي وضعَهُ اللّهُ تعالى للكونِ، فجعلَ سبحانَهُ الأرضَ تدورُ حولَ الشَّمسِ، وبهذا الدَّوَرانِ يكونُ اللَّيلُ والنَّهارُ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيۡنَا﴾:

مرجعُ الظِّلِّ إليهِ تعالى لا يشاركُه أحدٌ في إزالتِهِ أو حدوثِه

التَّعبيرُ بـ﴿إِلَيۡنَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾؛ للتَّنصيصِ على كونِ مرجعِ الظِّلِّ إليهِ تعالى، لا يشاركُه أحدٌ في إزالتِه، كما أنَّ حدوثَهُ منهُ ﷻ، لا يشاركُهُ فيه أحدٌ[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 126.
(2) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 111.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5290.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَبۡضٗا﴾:

تأكيدُ القَبْضِ

يدلُّ التَّعبيرُ بالمصدرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ على تأكيدِ وقوعِ القَبْضِ العجيبِ الشَّأنِ، الدّالِّ على كمالِ قُدرتِهِ جلَّ شأنُهُ.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿يَسِيرٗا﴾:

منافعُ مدِّ الظلِّ وقبضِهِ لا تتحصَّلُ إلّا إذا وقعتْ ببطءٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ معناهُ: على مَهَلٍ، وفي القَبْضِ اليسيرِ - شيئًا بعدَ شيءٍ - مِنَ المنافعِ ما لا يُعَدُّ، ولا يُحْصَى، ولو قُبِضَ دفعةً واحدةً؛ لتعطَّلَتْ أكثرُ منافعِ النّاسِ بالظِّلِّ والشَّمسِ جميعًا[1]، وعلى هذا يكونُ قد أُطلِقَ اليُسْرُ، وأُريدَ بهِ لازمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ ببُطْءٍ، على طريقةِ الكنايةِ[2].

أو المرادُ مِنْ قَبْضِ الظِّلِّ قبضًا يسيرًا: قَبْضُهُ عندَ قيامِ السّاعةِ، وذلكَ بقَبْضِ أسبابِهِ، وهي الأجرامُ الَّتي تُلقي الأظلالَ، وقولُهُ: ﴿يَسِيرٗا﴾ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾ [ق: 44]؛ لأنَّ إتيانَ السّاعةِ وأماراتِها عليهِ يسيرٌ[3].

براعةُ التَّمثيلِ في التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ:

تقريبُ أحوالِ النّاسِ مِنَ الإيجادِ إلى مصيرِهم لربِّهم

المعنى: أنَّه قد حصلَ مِنَ التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾، معَ المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القُدرةِ، تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النّاسِ وأحوالِ الشَّبابِ وتقدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلكَ صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيهِ ولا بُعْدَ، فلمّا صارَ قَبْضُ الظِّلِّ مَثَلًا لمَصيرِ النّاسِ إلى اللهِ بالبعثِ؛ وُصِفَ القَبْضُ باليُسْرِ، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ إلى أنَّ الحياةَ الدُّنيا كظلٍّ يمتدُّ، وينقبضُ، وما هو إلّا ظلٌّ[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 43.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 43.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الظِّلُّ والفيءُ:

الظِّلُّ يكونُ ليلًا ونهارًا، وهو الحاصلُ مِنَ الحاجزِ بينَكَ وبينَ الشَّمسِ، والفيء لا يكونُ إلّا بالنَّهارِ، كما أنَّ الظِّلَّ: مِنَ الطُّلوعِ إلى الزَّوالِ، والفيءُ: مِنَ الزَّوالِ إلى الغُروبِ.

الظِّلُّ يكونُ ليلًا ونهارًا، والفيء لا يكونُ إلّا بالنَّهارِ

وقيلَ: الفيءُ: ما نسخَهُ ضوءُ الشَّمسُ، والظِّلُّ: ما كانَ قائمًا لم ينسَخْهُ ضوءُ الشَّمسِ، فكلُّ فيءٍ ظِلٌّ، وليسَ كلُّ ظلٍّ فيئًا(1).

السُّكونُ والثَّباتُ:

فُرِّقَ بينَ الثَّباتِ والسُّكونِ بأنَّ الثَّباتَ: عدمُ انتقالٍ مِنْ مكانٍ إلى آخر أو تغيُّر من حال إلى آخر، والسُّكونَ: عدمُ حركةٍ ممّا مِنْ شأنِهِ أنْ يتحرَّكَ، والسُّكونُ مقابلُ الحركةِ، والثَّباتُ مقابلُ الانتقالِ(2).

الثَّباتُ: عدمُ انتقالٍ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ، والسُّكونُ: عدمُ حركةٍ

الدَّليلُ والبُرهانُ:

الفرقُ بينَ البُرهانِ والدَّليلِ: أنَّ البُرهانَ: الحُجَّةُ القاطعةُ المفيدةُ للعلمِ، وأمّا الدَّليلُ؛ فيُفيدُ الظَّنَّ(3).

البُرهانُ: يُفيدُ العلمَ، والدَّليلُ: يُفيدُ الظَّنَّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 340.
(2) هنريكوس، فرائد اللغة، ص: 50.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 97.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ صراحةً بعدَ ذِكرِهما ضمنًا

اختُلِفَ في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها، فقيلَ: لمّا تضمَّنتِ الآياتُ السّابقةُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ قالَ سبحانَهُ مُصرِّحًا بهما دليلًا على الحقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخَلْقِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ الآيةَ[1]، أو هي مناسبةُ الانتقالِ منَ الاستدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: أنَّ اللَّيلَ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّهُ ظُلمةٌ تَعْقُبُ نورَ الشَّمسِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسًا﴾: (لبس) أصلٌ يدلُّ على مخالطةٍ ومداخلةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: لَبِسَ الثَّوبَ، أي: استترَ به، وألبسَهُ غيرَهُ، واللِّباسُ: ما يُلبَسُ، قالَ تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ﴾ [الأعراف: 26]، وجُعِلَ اللِّباسُ لكلِّ ما يُغطّي قبيحَ الإنسانِ، فجُعِلَ الزَّوجُ لزوجِهِ لباسًا مِنْ حيثُ إنَّهُ يمنعُها، ويصدُّها عن تعاطي القبيحِ، قالَ ﷻ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187][4].

2) ﴿سُبَاتًا﴾: (سبت) أصلُ السَّبْتِ: القَطْعُ، ومنهُ: سَبَتَ شَعرَهُ: حَلَقَهُ، وسَبَتَ أَنْفَهُ: قطعَهُ[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ: 9]، أي: قَطْعًا لأعمالِكم الَّتي تزاولونَها نهارًا، والمعنى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 399، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).
(4) الراغب، المفردات: (لبس).
(5) الراغب، المفردات: (سبت).

جعَلْناهُ راحةً لكُم، أو لأنَّهُ تنقطعُ فيهِ حرَكاتُكم، فتسكُنونَ[1]، وفُسِّرَ السُّباتُ أيضًا بالموتِ.

3) ﴿نُشُورًا﴾: (نشر) النشر: فتْحُ شيءٍ وتشعُّبُهُ[2]، ومِنْ ذلكَ: بَسْطُ الثَّوبِ والصَّحيفةِ والسَّحابِ والنِّعمةِ والحديثِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ [التكوير: 10]، أي: بُسِطَتْ، وقالَ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرًا ۝٣﴾ [المرسلات: 3]، أي: والملائكةِ التي تَنشُرُ الرّياحَ، أوِ بمعنى: الرّياحِ التي تَنشُرُ السَّحابَ، وقالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: جعلَ فيهِ الانتشارَ وابتغاءَ الرِّزقِ، وانتشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم، وتفرُّقُهم في الحاجاتِ[3]، وأصلُ النَّشْرِ في الأجرامِ، ثمَّ تُجوِّزَ بهِ في المعاني[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وهو الَّذي جعلَ لكُم - أيُّها النّاسُ - اللَّيلَ لباسًا، تسكُنونَ فيه، وتستترونَ بهِ، وجعلَ لكُم النَّومَ راحةً، تستريحُ بهِ أبدانُكم، وتهدأُ بهِ جوارحُكم، وجعلَ النَّهارَ يقَظةً وحياةً، تنتشرونَ فيهِ لمَعايشِكم ومكاسبِكم وأسبابِكم[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾:

اتِّساعُ المعنى لاحتمالِ كونِ الواوِ عاطفةً أو استئنافيَّةً

تحتملُ الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أنْ تكونَ عاطفةً، والجملةُ بعدَها معطوفةٌ على ما قبلَها، وتكون داخلة في حيز استفهام ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ويكون ذلك من جملة عطاء الربوبيَّة.

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (سبت).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).

(3) الراغب، المفردات: (نشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نشر)، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: (نشر).

(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بسط).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 278، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 114.

وتحتملُ أنْ تكونَ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، ويكون ذلك انتقالًا إلى باب جديد من أبواب الاستدلال على استحقاق اللّهِ تعالى للألوهيَّة وانفراده بها، كأنَّهُ استدلالٌ بعطاء الربوبيَّة على حقِّ الألوهية.

سرُّ الالتفاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾:

توفيةُ مقامِ الامتنانِ حقَّهُ

رجعَ أسلوبُ الكلامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ مِنَ التكلُّم إلى الغَيبةِ على طريقةِ الالتفاتِ[1]، وفي ذلكَ تلوينٌ للخطابِ، والغرضُ منهُ توفيةُ مقامِ الامتنانِ حقَّهُ[2].

سرُّ تعريفِ المسند إليه والمسند:

إيجازُ القصرِ بالتَّعبيرِ عن الجملتينِ في جملة واحدة

افتُتِحت الآية بتعريف الطَّرفين بالضَّمير والاسم الموصول؛ للدلالة على القصر، وهو باب من أبواب البلاغة العالية بالإيجاز، للتعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، أي: هو الذي يقدر على هذا الجعل، ولا يستطيع أحدٌ سواه أن يقدر عليه، ولا على شيء قريب منه.

وبالجملة فإنَّ استخدامَ الضمير (هو) مع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، دون الاقتصار على الاسم الموصول وحده، هو أسلوب بلاغيٌّ مُتقن يُضفي على الجملة الإيجاز والوضوح والتَّأكيد.

والقصر ههنا قصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْرَكُهُ غيرُهُ في جعلِ اللَّيلِ لباسًا والنوم سباتًا والنَّهار نشورًا، أمّا كونُ الجعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللّهِ؛ فهُم يُقِرّونَ بهِ، ولكنَّهم لمّا جعلوا لهُ شُرَكاءَ على الإجمالِ؛ أُبطِلَتْ شِرْكتُهم بقصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ إذا بطلَ تصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ؛ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عندهُم؛ إذ الإلهيَّةُ لا تقبلُ التَّجزئةَ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾:

في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٌ كثيرة تدلُّ على عِظَم قدرة الخالق

جمعَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ استدلالًا وامتنانًا، فهو دليلٌ على عِظَم قُدرةِ الخالقِ، وهو أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه، فإنَّ في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ كثيرةً؛ لما يدلُّ عليهِ حصولُ الظُّلمةِ مِنْ دِقَّةِ نظامِ دَوَرانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، ومِنْ دِقَّةِ نظامِ خَلْقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليهِ وجودُ النَّهارِ مِنْ تغيُّرِ دَوَرانِ الأرضِ، ومِنْ فوائدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما يدلُّ عليه اللَّيلُ مِنْ نظامِ النَّومِ المناسبِ للظُّلمةِ، حينَ ترتخي أعصابُ النّاسِ، فيحصلُ لهُم بالنَّومِ تجدُّدُ نشاطِهم، وما يدلُّ عليه اللَّيلُ أيضًا مِنَ الاستعانةِ على التَّستُّرِ بظُلمته، ومِنْ نظامِ النَّهارِ مِنْ تجدُّدِ النَّشاطِ وانتشارِ النّاسِ للعملِ، معَ ما هو ملائمٌ لذلكَ مِنَ النّورِ الَّذي بهِ إبصارُ ما يقصدُهُ العاملونَ غالبًا[1].

وقد عُبِّرَ بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الامتنان بالنِّعم والاستدلال بها على إفراده تعالى بالعبادة والشُّكر، هو الكلام المذكور في حيِّز الصِّلة.

سرُّ التَّعبيرِ بالجعل بدلَ الخلق:

تهيئةُ الأشياءِ بعدَ خلقها للانتفاع بها

عبَّر بالجعل بدلَ الخَلق؛ ليدلَّ على عناية اللّه تعالى بالأشياء المخلوقة، وأنَّه لم يخلُقْها عبثًا، إنَّما خلقَها؛ لينتفع بها طوائفُ من خَلقِه، لاسيَّما أهلُ التَّكليف سواء أبقيت المخلوقات على أصلها أم حدث فيها نوعُ تغيير وتحويل، ويؤكِّد هذا ما سيأتي بعده من دلالة اللام في ﴿لَكُمُ﴾ على الاختصاص، أي: هيَّأها بعد خلقها من أجلكم أنتم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الجعلِ المذكورِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، على أنَّ جعلَ اللَّيلِ لباسًا، وما عُطِفَ عليهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

أمرٌ قد تحقَّق، وثبت، وهو معلومٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ مُتكرِّرٌ؛ إذ الشَّيءُ الذي حدث، ومضى، وانتهى لا يستطيع أن ينكره أحدٌ، ولا يُنازَع في ثبوتِه، فكيف به إذا تحقَّق حدوثه في الماضي، وتكرَّر حدوثه بعد ذلك، ولم يتخلَّف في وقت من الأوقات عن هذا التَّكرار، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، والامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَم.

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمُ﴾:

الـلّامُ للتَّمليكِ والـدلالـة على الاختصاصِ

لامُ ﴿لَكُمُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ للاختصاصِ، وهي تُفيدُ أنَّ هذهِ النِّعَمَ الجليلةَ قد جعلَها اللّهُ تعالى لأجلِ المُخاطَبينَ، وهي مِنْ مظاهرِ نعمتِهِ عليهم ورحمتِهِ بهم.

فائدةُ تعلُّقِ الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ بـ﴿جَعَلَ﴾:

الإشـارةُ إلى تهيئةِ اللَّيلِ والنهار للمخاطَبين كي ينتفعوا بهما

الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ مُتعلّقانِ بـ ﴿جَعَلَ﴾، أي: مِنْ جملةِ ما خُلِقَ لهُ اللَّيلُ كونُهُ لباسًا لكُم، وهذا لا يقتضي أنَّ اللَّيلَ خُلِقَ لذلكَ فقط؛ لأنَّ اللَّيلَ عَوْدُ الظُّلمةِ إلى جانبٍ مِنَ الكرةِ الأرضيَّةِ المُحتجِبِ عن شُعاعِ الشَّمسِ باستداراتِهِ، فتحصلُ مِنْ ذلكَ فوائدُ جمَّةٌ، منها ما في هذه الآية، ومنها ما في قولِهِ تعالى بعدَ هذا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: 62][1].

بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور على مفعولي جعل:

الاختصاصُ وعظيم الانتفاع

قدَّم الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على مفعولي ﴿جَعَلَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص من جهة، ولبيان بعض فوائد المجعول في هذه الآية، وللاعتناءِ ببيانِ كونِ ما يَعْقُبُهُ مِنْ منافعِهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

اتِّساعُ المعنى في الكلمة الواحدة لاحـتـمـالـهـا معاني مختلفة

غرضُ تعريفِ قولِهِ: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ونوعه:

تحتمل (أل) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ أن تكونَ للجنس، أي: جعل لكم جنسَ اللَّيل لباسًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراقِ الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الليل سكنًا، أو استغراقِ الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ الليالي سكنًا، والعمومُ الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوعُ تخصيصٍ، إمّا في بعض أجزاءِ اللَّيل أو في بعض الليالي دون بعض أو فيهما معًا، أو يكون التَّخصيص أمرًا خارجًا عن اللَّيل كلِّه، وذلك لبعض الناس دون بعضٍ.

اتّـسـاعُ المعـاني باتّـساع أغراض التنكير

نكتةُ تنكيرِ ﴿لِبَاسٗا﴾:

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿لِبَاسٗا﴾ في قولِ اللّهِ تبارك شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ للتنويع، أي: أنواعًا مختلفة من اللباس غير المتعارف عليه باعتبار أجزائه على أنَّ (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ لاستغراق الأجزاء، أي: نوعًا مِنْ أنواعِ اللِّباسِ، وهو غيرُ المُتعارَفِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيم، أي: لباسًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ العظيمةِ.

تـشـبـيـهُ ظـلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السّاترِ

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِبَاسٗا﴾:

في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ تشبيهٌ بليغٌ بديعٌ، حيثُ شُبِّهَ ما يسترُ مِنْ ظلامِ اللّيلِ باللِّباسِ السّاترِ[1]، مِنْ حيثُ إنَّهُ يسترُ الأشياءَ ويُغطّيها[2]، وفي هذا السَّترِ مِنَنٌ كثيرةٌ لقضاءِ الحوائجِ الَّتي يجبُ إخفاؤُها[3].

مراعاةُ التَّناسُبِ بينَ الظِّلِّ واللَّيلِ

نكتةُ تعقيبِ بيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببيانِ أحكامِ اللَّيل:

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ فيهِ تعقيبُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 427.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

بيانِ أحوالِ الظِّلِ المذكورةِ في الآيتينِ السّابقتينِ ببيانِ أحكامِ اللَّيلِ الَّذي هو ظلُّ الأرضِ، وفي ذلكَ التَّعقيبِ مِنْ لُطفِ المَسْلَكِ ما لا مزيدَ عليه[1]؛ لِما فيهِ مِنْ رعايةِ التَّناسبِ بينَ شيئَينِ كلٌّ منهما ظلٌّ.

سرُّ عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ على ما قبلَهُ:

زيادةُ الامتنانِ بذكرِ نعمةٍ جديدةٍ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ على قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾؛ لزيادةِ الامتنانِ على المخاطَبينَ بذكرِ نعمةٍ جديدةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِم لم تسبقِ الإشارةُ إليها.

فائدةُ عدمِ ذكرِ الجعلِ مع نعمةِ النومِ:

الإشارةُ إلى أنَّ الأصلَ في النومِ أن يكونَ في اللَّيلِ

لمّا كان الغرض الحاصل من النّوم، وهو كونه سباتًا لا يكون على أكمل وجهٍ إلّا في اللَّيل؛ كان كأنَّه نعمةٌ منبثقةٌ من جعل اللَّيل لباسًا، فكانا كالنِّعمة الواحدة؛ لذا لم يتكرَّر ذِكرُ الجَعْلِ مع النوم بخلاف ذِكْرِ الجَعْلِ مع النَّهارِ بعد ذلك.

المرادُ بالسُّباتِ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبَاتٗا﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً

يُطلَقُ السُّباتُ على النَّومِ؛ إذ النّوم راحةٌ، ويُطلَقُ على الموتِ، بدليلِ مقابلتِهِ بالنُّشورِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾[2]، والمعنى: وجعلَ النَّومَ الَّذي يقعُ في اللَّيلِ غالبًا؛ قطعًا عنِ الأفعالِ المختصَّةِ بحالِ اليقَظةِ، عُبِّرَ عنهُ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ؛ لِما بينَهما مِنَ المشابهةِ التّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ[3]، والمغشيِّ عليهِ، والعليلِ؛ إذا كانَ مُلقًى كالنّائمِ[4]، فالسُّباتُ ضربٌ مِنَ الإغماءِ يعتري اليقظانَ مرضًا، فشُبِّهَ النّائمُ بهِ[5]، ففي كلِّ ذلك معنى القطع، فالنّوم قطعٌ للحركة يستجلب الراحة، والميِّت قُطعَتْ حياتُهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 248.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212.

على التأبيد، والمغشي عليه قُطعت حياتُهُ على التأقيت، وقيلَ: الأنسبُ بمقامِ الامتنانِ هنا هو معنى الرّاحةِ[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿سُبَاتًا﴾:

اتِّساع المعاني باتِّساع أغراض التَّنكير

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿سُبَاتًا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ للتنويع، أي: نوعًا مِنْ أنواعِ السُّباتِ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: سباتًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ الجليلةِ للمُخاطَبينَ.

ويحتمل أن يكون التَّنكير للاستغراق الدّالِّ على عموم الأجزاء أو عموم الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ درجات النوم سباتًا، أو كلَّ أنواع النوم سباتًا.

دلالةُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

التشريكُ في القصرِ

الواو في جملةِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ عاطفةٌ، والجملة بعدها معطوفةٌ على جملة: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، فهي داخلةٌ في حيِّزِ القصرِ، أي: وهو لا غيرُهُ الَّذي جعلَ النَّهارَ نُشورًا.

نكتةُ تَكرارِ الفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾:

جَعْلُ النهار نشورًا مخالفٌ لجَعْلِ اللَّيل لباسًا

إعادةُ فعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ دونَ أنْ يُعادَ في قولِهِ: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ للتَّنبيهِ على أن جَعْلَ النهار نشورًا مخالفٌ لجَعْلِ اللَّيلِ لباسًا، وذلكَ أنَّهُ أُخبِرَ عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾[2].

نكتةُ التَّعريفِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

التَّعريفُ للجنسِ

تحتمل (أل) التعريفية في ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ أن تكون للجنس، أي: جعل لكم جنس النهار نشورًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراق الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء النَّهار نشورًا،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 248، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

أو لاستغراق الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ النَّهار نشورًا، والعموم الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوع تخصيص؛ إمّا في بعض أجزاءِ النَّهار، أو في بعض الأيام دون بعضٍ، أو فيهما معًا، أو يكون التَّخصيص أمرًا خارجًا عن النَّهار كلِّه، ويحتمل أن يكون هناك مضافٌ محذوفٌ، والتقدير: (أوَّل النَّهار نشورًا)، على أنَّ النشور: هو الإحياء من الموت (النوم)، فلا يحتملُ عمومَ الأجزاء.

المرادُ بالنُّشورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

النَّـهـارُ ينتشرُ فـيـهِ الـنّـاسُ لـحـوائـجِـهـم واكتسابِهم

يحتملُ النُّشور في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ معاني منها: البُروزُ والانتشارُ والشيوع والاتِّساع، الذي هو ضدُّ الطي، في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]، وهو راجعٌ إلى معنى البروز، فيكون ضدَّ اللِّباسِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، ويكونَ الإخبارُ بِهِ عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ ينتشرُ فيهِ النّاسُ لحوائجِهم واكتسابِهم.

ومنها أنْ يُرادَ بِهِ بَعْثُ الأجسادِ بعدَ موتِها، فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[1]، شُبِّهَتِ اليقَظةُ بِه؛ ليتطابَقَ الإحياءُ مَعَ الإماتةِ، وهما اللَّذانِ يتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ[2]، ومنه الدُّعاء المأثور: «الحمد للّٰه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾:

الإشـــارةُ إلى الحركةِ والكسبِ وإنهاءِ السُّباتِ

في كلمةِ ﴿نُشُورًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ إنْ أُريدَ بالنُّشورِ الانتشارُ - إشارةٌ إلى أمورٍ ثلاثة: أوَّلُها: إنهاءُ سُباتِ اللَّيلِ، وثانيها: الحركةُ العاملةُ الَّتي بها يُعمَّرُ الكونُ، وثالثُها: الكسبُ في الحياةِ وظُهورُ الأعمالِ خيرِها وشرِّها[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 114.
(3) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: (6324).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.

التَّذكيرُ بالبعثِ والتَّعريضُ بالرَّدِّ على مُنكِريهِ

بلاغةُ الإدماجِ والتَّعريضِ في قولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾:

إن كان المرادُ بالنُّشورِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ بَعْثَ الأمواتِ؛ يكونُ في الكلامِ إدماجٌ للتَّذكيرِ بالبَعْثِ، وتعريضٌ بالاستدلالِ على مَنْ منعوه، وأحالوهُ، بتقريبِهِ بالهُبوبِ والانتشارِ في النَّهارِ[1].

جعلَ الله النَّهارَ زمـانَ بَعْـثٍ مِن السُّباتِ لطلب المعاش

بلاغةُ الوصف بالنُّشورِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

معنى قولهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: جعلَ النَّهارَ ذا نُشورٍ، ينتشرُ فيهِ النّاسُ لطلبِ المَعاشِ، وفي التعبير بالمصدر وجعْلِهِ نفسَ النُّشورِ مبالغةٌ[2]، أو جعلَ النَّهارَ زمانَ بَعْثٍ مِنْ ذلكَ السُّباتِ، وإحياء من موتِ النَّوم، وهو على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ[3]، وعلى هذينِ الوجهينِ يكونُ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

وقيلَ: ﴿نُشُورًا﴾ بمعنى: ناشرًا، على الإسنادِ العقليِّ[4]، سُمّيَ الزَّمانُ باسمِ ما يقعُ عليهِ، وهذا مجازٌ علاقتُهُ ظَّرفيَّةٌ، وفي ذلكَ ما يفيدُ أنَّهُ زمنُ حركةٍ وعملٍ، وليسَ زمنَ توانٍ وكَسَلٍ، وهذهِ دعوةٌ إلى العملِ، فالعملُ حياةٌ، والكَسَلُ موتٌ[5].

التَّنكيرُ للنَّوعيَّةِ أو التَّعظيمِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿نُشُورًا﴾:

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿نُشُورًا﴾ في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ للتَّنويع، أي: أنواعٌ مختلفة من النُّشورِ شاملةٌ كلَّ معانيه، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيم، أي: نُشورًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ والمصالحِ الجليلةِ للمُخاطَبينَ.

ويحتملُ أن يكون للعموم بنوعيه، أي: جعل لكم النَّهار نشورًا عامًّا شاملًا كلَّ معاني النشورِ في كلِّ زمانِ النَّهار.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.

براعةُ الإيجازِ بالاحتباكِ في الآيةِ:

قولُهُ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً وحركةً وتقلُّبًا بما أوجدَ فيهِ مِنَ اليقَظةِ المُذكِّرةِ بالبعثِ، المُهيِّئةِ للتَّقلُّبِ، بردِّ ما أعدمَهُ النَّومُ مِنْ جميعِ الحواسِّ، فالآيةُ مِنَ الاحتباكِ، حيثُ ذكرَ السُّباتَ أوَّلًا؛ دليلًا على الحركةِ ثانيًا، وذكرَ النُّشورَ ثانيًا؛ دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[1].

ذِكرُ السُّباتِ دليلٌ على الحركةِ، وذِكرُ النُّشورِ دليلٌ على السُّكونِ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ الآياتِ:

قُدِّمَ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ جَعْلُ اللَّيلِ لباسًا على جَعْلِ النَّومِ سُباتًا؛ لتقدُّمِه عليه، ووقوعِ النَّومِ في أثنائِه، ولمناسبةِ اللَّيلِ للظِّلِّ، وعُكِسَ في سورةِ النَّبأِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: 9 - 11]؛ ليتَّصلَ اللَّيلُ بالنَّهارِ بعدَهُ، والنَّومُ بالأزواجِ الَّتي هي راحةٌ لهُم[2].

وقيلَ: تقديمُ الاعتبارِ بحالةِ سَتْرِ اللَّيلِ على الاعتبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لمراعاةِ مناسبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخلافِ ما في سورةِ النَّبأِ، فإنَّ نعمةَ النَّومِ أهمُّ مِنْ نعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسبةَ بينَ نعمةِ خَلْقِ الأزواجِ وبينَ النَّومِ أشدُّ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 399.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 427.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ [الفرقان: 48 - 49]

مُناسَبةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنَ الاستدلالِ بنعمةِ اللَّيلِ والنَّهارِ إلى ما في الرّياحِ والمطرِ من النِّعَم

في مناسبةِ الآيتين لِما قبلَهما وجوهٌ متقاربةٌ:

منها: أنَّهُ لمّا دلَّ سبحانَهُ على عظَمتِهِ بتصرُّفِهِ في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وختمَهُ بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبعَهُ التَّصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلكَ، دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ[1].

ومنها: أنَّ الآيةَ انتقالٌ مِنَ الاستدلالِ بذكرِ حالِ النُّشورِ والامتنانِ بِهِ إلى ما في الرّياحِ مِنَ النُّشورِ[2].

ومنها: أنَّهُ بعدَ بيانِ نعمتِهِ سبحانَهُ على عبادِهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وبيانِ أنَّ النُّفوسَ تَستَروِحُ الرّاحةَ في اللَّيلِ، وتنهضُ للعملِ في النَّهارِ لطلبِ الرِّزقِ؛ بيَّنَ سبحانَهُ أنَّهُ يرزقُ النّاسَ بما يكونُ مادَّةَ عملِهم، وفيهِ مَعاشُهم، فقالَ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشۡرَۢا﴾: (بشر) البُشْر: ظُهورُ الشَّيءِ وانتشاره معَ حُسْنٍ وجمالٍ[4]، فالبَشَرةُ: ظاهرُ الجِلْدِ، وسُمّيَ الإنسانُ بالبَشَرِ اعتبارًا بظُهورِ جِلْدِهِ مِنَ الشَّعَرِ، بخلافِ الحيواناتِ الَّتي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعَرُ أوِ الوَبَرُ، وخُصَّ في القرآنِ كلُّ موضعٍ اعتُبِرَ مِنَ الإنسانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 400.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بشر).

جُثَّتُه، وظاهِرُهُ بلفظِ البَشَرِ، نحوُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾، والمباشرةُ: الإفضاءُ بالبَشَرتينِ، وأبشَرْتُ الرَّجلَ، وبَشَرْتُه وبَشَّرْتُهُ: أخبرتُهُ بسارٍّ بَسَطَ بشَرةَ وجهِهِ، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّت؛ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[1]، والبِشارةُ: الخبرُ السّارُّ، ولا تقعُ في الشَّرِّ إلّا على سبيلِ التَّهكُّم، كقولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21]، وقيلَ: تُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لأَنَّ البِشارةَ عبارةٌ عن خبرٍ يتغيَّرُ له البَشَرُ، وذلكَ يكونُ في الشَّرِّ، كما يكونُ في الخيرِ[2].

2) ﴿طَهُورًا﴾: (طهر) أصلٌ يدلُّ على نَقاءٍ وزوالِ دَنَسٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنَسِ، والتَّطهُّرُ: التَّنزُّهُ عنِ الذَّمِّ وكلِّ قبيحٍ[4]، ويقالُ: طَهُرَتِ المرأةُ طُهْرًا وطهارةً، خلافُ طمثَتْ، والطَّهارةُ: النَّظافةُ والمبالغةُ فيها[5]، والطَّهارةُ ضربانِ: طهارةُ جسمٍ، وطهارةُ نفسٍ، والطَّهورُ قد يكونُ مصدرًا، وقد يكونُ اسمًا لِما يُتطهَّرُ به، وقد يكونُ صفةً[6].

3) ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾: (سقي) أصلٌ يدلُّ على تحصيلِ الماءِ ونحوِهِ مِنَ المائعِ في الجوفِ بإنفاذِهِ إليهِ[7]، تقولُ: سَقَيْتُه أَسْقيهِ سَقْيًا، وأسقَيْتُهُ؛ إذا جعلتَ لهُ سُقْيًا[8]، قالَ تعالى في السَّقْيِ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21]، وقالَ في الإسقاءِ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: 27]، وقيلَ: السَّقْيُ والإسقاءُ بمعنًى، والاستسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ أو الإسقاءِ[9]، والسِّقايةُ: الموضعُ يُتَّخذُ فيهِ الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها[10].

4) ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: (أنس) أصلٌ يدلُّ على الأُنسِ والأُلفةِ بظُهورِ الشَّيءِ، وكلُّ شيءٍ خالفَ طريقةَ التَّوحُّشِ[11]، فالإنسُ: خلافُ الجِنِّ، والأُنْسُ: خلافُ النُّفورِ، والإنسيُّ منسوبٌ إلى

(1) الراغب، المفردات: (بشر).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر)، والزمخشري، أساس البلاغة: (طهر).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (طهر).
(6) الراغب، المفردات: (طهر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سقي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي).
(9) الراغب، المفردات: (سقي)، والسمين، عمدة الحفاظ: (سقي).
(10) الخليل، العين: (سقي).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).

الإنسِ، يقالُ ذلكَ لمَنْ كَثُرَ أُنْسُهُ، ولكلِّ ما يُؤْنَسُ بهِ، وجمعُ الإنسِ: أَناسيُّ، قالَ ﷻ: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾، وأمّا الإنسانُ؛ فقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ خُلِقَ خِلْقةً لا قِوامَ لهُ إلّا بأُنْسِ بعضِهم ببعضٍ، ولهذا قيلَ: الإنسانُ مدنيٌّ بالطَّبعِ، ولا يمكنُهُ أنْ يقومَ بجميعِ أسبابِهِ، وقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّه يأنسُ بكلِّ ما يألفُهُ، وقيلَ: أصلُهُ: إنْسيانٌ، سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ عَهِدَ اللّهُ إليهِ، فنَسيَ[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المــطــرُ حــيــاةٌ للأرضِ والأنعامِ والنّاسِ

أرسلَ اللّهُ الرّياحَ مُبشِّراتٍ بمجيءِ السَّحابِ بعدَها، وأنزَلَ بعظَمتِهِ مِنَ السَّحابِ الَّذي أنشأَهُ بالرّياحِ ماءً طَهورًا؛ لتحيا بهِ أرضًا لا تُنبِتُ، وليشربَ منهُ الحيوانُ مِنْ أنعامٍ وأناسيَّ محتاجينَ إليهِ غايةَ الحاجةِ، لشُرْبِهم وزروعِهم وثمارِهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بينَ الجملتينِ بالواوِ:

الامتنانُ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ على ما قبلَهُ؛ لأنَّهُ داخلٌ معَهُ في حيِّزِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ تعالى، وحيِّزِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

إرســالُ الـريـاحِ دليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ

في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ استدلالٌ وامتنانٌ، فهو دليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وتذكيرٌ ببعضِ نِعَمِهِ جلَّ وتباركَ على عبادِهِ، وعُبِّرَ بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ، والَّذي يفيده بناءً على القصرِ وجوبُ إفرادِهِ تعالى بالعِبادةِ والشُّكرِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (أنس).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 279.

الإرسالُ فيه رِفْقٌ ورحمةٌ، والبعثُ تنبيهٌ وإيقاظٌ

سرُّ إيثارِ الإرسالِ على البَعْثِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

اختيرَ الإرسالُ دونَ البَعْثِ في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، معَ أنَّهما يشتركانِ في معنى التَّوجيهِ - لأنَّ مِنْ جملةِ الفروقِ بينَهما: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلَّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3][1]، والسّياقُ هنا سياقُ نعمةٍ ورِفْقٍ ورحمةٍ، فيناسبُهُ الإرسالُ.

إطلاقُ الإرسالِ على تكوينِ الرّياحِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرۡسَلَ﴾:

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، حيثُ أُطلِقَ على تكوينِ الرّياحِ للسحابِ الإرسالُ، الَّذي هو حقيقةٌ في بَعْثِ شيءٍ وتوجيهِهِ؛ لأنَّ حركةَ الرّياحِ تُشبهُ السَّيرَ، وقد شاعَ استعمالُ الإرسالِ في إطلاقِ العِنانِ لخيلِ السِّباقِ[2]، كأنَّ الرّياحَ كانَتْ مُقيَّدةً بإرادتِهِ سبحانَهُ، ثمَّ أرسلَها[3].

الخالقُ هو المتصرِّفُ في هذهِ الكائناتِ

بلاغةُ تعريفِ الطرفينِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ استدلالٌ على الانفرادِ بالخَلْقِ، وامتنانٌ بتكوينِ الرّياحِ والمطرِ، ومَوْرِدُ الاستدلالِ قصرُ إرسالِ الرّياحِ، وما عُطِفَ عليهِ على اللّهِ ﷻ؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّركاءِ لهُ في الإلهيَّةِ، بنفيِ الشِّركةِ في التَّصرُّفِ في هذهِ الكائناتِ، وذلكَ ما لا يُنكِرُهُ المشركونَ، وهذا الاستدلالُ بدقيقِ صُنْعِ اللّهِ في تكوينِ الرّياحِ، فالعامَّةُ يعدّونَ بما هو داخلٌ تحتَ مُشاهَدتِهم مِنْ ذلكَ، والخاصَّةُ يُدرِكونَ كيفيَّةَ حدوثِ الرّياحِ وهُبوبِها واختلافِها[4].

---

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 136 - 137.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.

ويلاحظ أنَّ التعريف هنا بالضمير، الذي هو أعرفُ المعارف، واسم الموصول الذي هو قريب منه في القوَّة، ويحلُّ القصر محلَّ جملتين، الأولى إثبات ذلك للّه، والثانية نفي ذلك عمّا سواه، وفي هذا الأسلوبِ من تأكيد المعنى وتعظيم اللّه تعالى بإفراده بالأُلوهيَّة ما لا يُقادر قدرُهُ، ولا يكتنه كنهه، ولا يقترب منه غيره.

دلالةُ التَّعريفِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

اتِّساع المعنى باحتمال الجنس والاستغراق

تحتمل (أل) التعريفية في ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ أن تكون للجنس، أي: جعل لكم جنس الرياح بُشرًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراق الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الرياح بُشرًا ورحمة، أو لاستغراق الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ أفراد الرياح وأنواعها بُشرًا، والعموم الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوع تخصيص؛ إمّا في بعض أجزاء الرياح التي تحمل الغمام، وليس فيه مطر، أو في بعض الرياح دون بعض، كريح الدبور، التي أهلكت بها عادٌ، أو فيهما معًا، أو يكون التخصيص أمرًا خارجًا عن أنواع الرياح كلِّها بقدرتِهِ سبحانه.

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالجمعِ والإفرادِ

قرأَ ابنُ كثيرٍ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفرادِ، وقرأَ الباقونَ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمعِ[1]، وقراءةُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ محمولةٌ على الجنسِ، فهي بمعنى الرّياحِ[2]، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قراءةَ الجمعِ أوجهُ؛ لأنَّ الرّيحَ متى وردَتْ في القرآنِ مُفرَدةً؛ تكن للعذابِ، ومتى وردَتْ بالجمعِ؛ تكن للرَّحمةِ؛ لأنَّ ريحَ المطرِ تتشعَّبُ، وتتفرَّقُ، وتأتي ليِّنةً مِنْ عِدَّةِ جهاتٍ، وبالتَّدريجِ، وريحَ العذابِ تأتي جسدًا واحدًا، فتُدمِّرُ ما تجدُ[3]، وأوردَ عليهِ أنَّ هذا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 334.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213.

الفرقَ أكثريٌّ، أو عندَ عدمِ القرينةِ، أو هو في المُنَكَّرِ لا في المُعرَّفِ، وعليهِ فمُؤَدَّى القراءتينِ واحدٌ[1].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بُشۡرَۢا﴾:

بلاغةُ الإيجازِ في تعدُّدِ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ في اللفظِ الواحدِ

قرأَ عاصمٌ: ﴿بُشۡرَۢا﴾، وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿نُشۡرَۢا﴾، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿نَشۡرَۢا﴾، وقرأَ الباقونَ: ﴿نُشُرَۢا﴾[2].

أمّا قراءةُ ﴿نُشُرَۢا﴾؛ فهي جمعُ (نَشورٍ)، مِثلُ: رُسُلٍ ورَسولٍ، وأمّا قراءةُ ﴿نُشۡرَۢا﴾؛ فهي بتخفيفِ العينِ، كما يقالُ: كُتْبٌ ورُسْلٌ، وقراءةُ ﴿نَشۡرَۢا﴾؛ فالنَّشْرُ مصدرُ نَشَرْتُ الثَّوبَ، ضدُّ طَوَيْتُهُ، والمرادُ بالمصدرِ هنا المفعولُ، والرّياحُ كأنَّها كانَتْ مطويَّةً، فأرسلَها اللّهُ تعالى منشورةً بعدَ انطوائِها.

وأمّا قراءةُ ﴿بُشۡرَۢا﴾؛ فهي جمعُ (بشيرٍ)، أي: أرسلَ الرّياحَ مُبشِّراتٍ تُبشِّرُ بالمطرِ والرَّحمةِ[3]، وكلُّ هذه المعاني صالحةٌ لوصفِ الريحِ بها.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾:

الرّيحُ وما تأتي به مبشِّراتٌ عن رحمةِ الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ مِنْ قولِه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ استعارةٌ مليحةٌ[4]، وهذهِ الاستعارةُ ترشيحيَّةٌ، شُبِّهَ المطرُ بالرَّحمةِ، ثمَّ استُعيرَت لهُ الرَّحمةُ، ورُشِّحَتْ بقولِهِ: ﴿بُشۡرَۢا﴾، ثمَّ جُعِلَ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ﴾ تتميمًا لها؛ لأنَّ البشيرَ يتقدَّمُ المُبشَّرَ بهِ.

ويجوزُ أنْ تكونَ تمثيليَّةً، و﴿بُشۡرَۢا﴾ مِنْ تتمَّةِ الاستعارةِ، وداخلٌ في جملتِها، ومَنْ قرأَ ﴿نَشۡرَۢا﴾؛ كانَ تجريدًا لها؛ لأنَّ النَّشْرَ يناسبُ السَّحابَ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 269 - 270.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 287.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 284.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 251.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ كناية عن القُدّام، وإنْ لم يكنْ لهُ يدٌ[1].

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتِهِۦ﴾:

تشريفُ الرَّحمةِ بإضافتِها إلى اللهِ ﷻ

في إضافةِ الرَّحمةِ إلى ضميرِهِ تعالى في قولِه ﷻ: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ تشريفٌ للرَّحمةِ، وتفخيمٌ لشأنِها، وذلكَ ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ لمقامِ الامتنانِ على الخَلْقِ بهذهِ النِّعَمِ الجليلةِ، ومقامِ الاستدلالِ على قُدرتِهِ ﷻ.

بلاغةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾:

التَّشريكُ في القصرِ والمعنى المترِّتِّب عليه

جملةُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾، فهي داخلةٌ في حيِّزِ القصرِ، أي: وهو لا غيرُهُ الَّذي أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

إبرازُ كمالِ العنايةِ بإنزالِ المطرِ

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لإبرازِ كمالِ العِنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّهُ نتيجةُ ما ذُكِرَ مِنْ إرسالِ الرِّياحِ[3]، ولأنَّ التَّكلُّمَ أليَقُ بمقامِ الامتنانِ[4].

نكتةُ إسنادِ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ

أُسنِدَ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لتعظيمِ شأنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ، حيثُ لا مُمسِكَ للماءِ غيرُهُ ﷻ[5]، والمعنى: وأنزَلْنا بعظَمتِنا بما رتَّبْنا مِنْ إرسالِ الرِّياحِ مِنْ جهةِ الفَوْقِ ماءً بليغًا في الطَّهارةِ[6].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 117، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 224، واطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 66.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 224، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 30.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ ابتدائيَّةٌ[1]، والمعنى: وأنزَلْنا ابتداءً مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّماءِ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

اختُلِفَ في المرادِ بالسَّماءِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾، فقيلَ: المرادُ بها جهةُ العُلوِّ[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها إحدى السماواتِ السَّبْعِ، أوِ السَّحابَ[3].

بلاغةُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءٗ﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ومراعاةُ الفاصلةِ

قُدِّمَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءٗ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ لِما في التَّقديمِ مِنَ العِنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ نُزولِ المطرِ مِنَ السَّماءِ، وذلكَ أعظمُ في القُدرةِ، وأنسبُ بمقامِ الاستدلالِ عليها، ومقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الماءُ الطَّهورُ، ولتعظيمِ مصدرِ الماءِ.

وأيضًا: في تأخيرِ ﴿مَآءٗ﴾ مَعَ وصفِهِ ﴿طَهُورٗا﴾ مراعاةٌ لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

سرُّ تنكيرِ قولِه: ﴿مَآءٗ﴾:

تعظيمُ نعمةِ حَملِ الماءِ بالرياحِ وإنزالِه

تنكيرُ ﴿مَآءٗ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ للتَّعظيمِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بديعًا عظيمَ الشَّأنِ، لا يَقْدِرُ على إنزالِهِ غيرُنا، وهذا التَّعظيمُ يناسبُ مقامَ الاستدلالِ على كمالِ قُدرتِهِ جلَّ وعزَّ، ومقامَ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ.

وللدلالة على العموم مع أنَّه نكرةٌ في سياق الإثبات؛ لأنَّه جاء في مقام الامتنان من جهة، ولوصفه بصيغة المبالغة ﴿طَهُورٗا﴾ من جهة أُخرى.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 117.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10464.

(3) اطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 66.

نكتةُ وصفِ الماءِ بالطَّهورِ ﴿مَآءً طَهُورًا﴾:

إكرامُ المُخاطَبينَ، وتتميمُ المِنَّةِ عليهم

إنزالُ الماءِ موصوفًا بالطَّهارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وتعليلُهُ بالإحياءِ والسَّقْيِ في قولِهِ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّ الطَّهارةَ شرطٌ في صحَّةِ ذلكَ، وليسَ الأمرُ كذلكَ، بل وجهُ وصفِ الماءِ بالطَّهورِ، أنَّهُ لمّا كانَ سَقْيُ الأناسيِّ مِنْ جملةِ ما أُنزِلَ لهُ الماءُ؛ وُصِفَ بالطَّهورِ؛ إكرامًا لهُم، وتتميمًا للمِنَّةِ عليهِم، فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ ممّا خالطَهُ ما يزيلُ طهوريَّتَهُ، وبيانًا أنَّ مِنْ حقِّهم حينَ أرادَ اللّٰهُ لهُمُ الطَّهارةَ، وأرادَهم عليها أنْ يُؤثِروها في بواطنِهِم، ثمَّ في ظواهرِهِم، وأنْ يبتعدوا عن مخالطةِ القاذوراتِ كلِّها[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطَّهورِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً

اختُلِفَ في المرادِ بالطَّهورِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾:

فقيلَ: الطَّهورُ: اسمٌ لِما يُتطهَّرُ به، كالفَطورِ لِما يُفطَرُ به، والسَّحورِ لِما يُتسحَّرُ بهِ، والمعنى: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طاهرًا مُطهِّرًا[2]، وقيلَ: الطَّهورُ صفةٌ، كقولِكَ: ماءٌ طَهورٌ، وقولِكَ: ماءٌ طاهرٌ[3]، وجوِّزَ أنْ يكونَ مصدرًا لـ (تطهَّرَ) المضعَّفِ، جاءَ على غيرِ المصدرِ[4].

بلاغةُ الإدماجِ في وصفِ الماءِ بالطَّهورِ:

الماءُ طاهرٌ في نفسِهِ مُطهِّرٌ لغيرِهِ

يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ على أنَّ ماءَ المطرِ بالغٌ مُنتهَى الطَّهارةِ؛ إذ لم يختلطْ بهِ شيءٌ يُكدِّرُهُ، وهو أنقَى المياهِ؛ لخُلوِّهِ عن جميعِ الجراثيمِ، فهو الصّافي حقًّا، ووصفُهُ بالطَّهورِ يقتضي أنَّهُ مُطهِّرٌ لغيرِهِ؛ إذ العُدولُ عن صيغةِ فاعلٍ إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 466.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 115.

صيغة فعولٍ لزيادةِ معنًى في الوصفِ، فاقتضاؤُهُ في هذهِ الآيةِ أنَّهُ مُطهِّرٌ لغيرِهِ اقتضاءٌ التزاميٌّ؛ ليكونَ مُستكمِلًا وصفَ الطَّهارةِ القاصرةِ والمُتعدّيةِ، فيكونُ ذِكرُ هذا الوصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المقصودةِ، ويكونُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: 11]، ولولا الإدماجُ المذكورُ؛ لكانَ الأحقُّ بمقامِ الامتنانِ وصفَ الماءِ بالصَّفاءِ أو نحوِ ذلكَ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ هذهِ الآيةِ وآياتٍ أُخَرَ:

قالَ ﷻ هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾.

وقالَ في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57].

وقالَ في سورةِ الرّومِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾ [الروم: 48].

وقالَ في سورةِ فاطرٍ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9].

وقد وقعَ في هذه الآياتِ اختلافٌ، معَ تشابهِها في اللَّفظِ وتقاربِ مقاصدِها، ومِنْ جملةِ وجوهِ الاختلافِ:

الأوَّلُ: اختلافُ مَطالعِها بورودِ (يُرسِلُ) و(أرسلَ).

الثّاني: وصفُ الرّياحِ وإتباعُها بقولِهِ في الأعرافِ والفرقانِ: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، ولم يَرِدْ ذلكَ في سواهما.

الثّالثُ: ما يكونُ عن إرسالِ الرّياحِ، ففي آيةِ الأعرافِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: 57]، وفي سورةِ الرّومِ وسورةِ فاطرٍ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [الروم: 48] [فاطر: 9]، ولم يُذكَرْ ذلكَ في الفرقانِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.

والجوابُ عنِ الأوَّلِ: "أنَّ آيةَ الأعرافِ تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، فذكرَ سبحانَهُ ما تقرَّرَ، وتحصَّلَ مِنْ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ممّا لا تكرُّرَ لهُ، ثمَّ أعقبَ سبحانَهُ بما يتكرَّرُ مِنْ إنعامِهِ على الخَلْقِ ممّا بِهِ قِوامُ أحوالِهم ومصالحُ عَيْشِهم، فعبَّرَ بصيغةِ المضارعِ الدّالَّةِ على الاستمرارِ والتَّكرُّرِ.

وأمّا آيةُ الرّومِ؛ فقد تقدَّمَها التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ.

وأمّا آيةُ الفرقانِ؛ فقد تقدَّمَها التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي.

وأمّا آيةُ فاطرٍ؛ فالتَّعبيرُ فيها بالماضي مبنيٌّ على مَطْلَعِ السّورةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، فـ﴿فَاطِرِ﴾ [فاطر: 1] و﴿جَاعِلِ﴾ [فاطر: 1] هنا بمعنى المُضيِّ.

والجوابُ عنِ الثّاني: أنَّ آيةَ الأعرافِ قد تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وقولُهُ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56]، وفي هذا كلِّهِ استلطافٌ، ومِنْ نحوِ هذا الاستلطافِ قولُهُ سبحانَهُ في سورةِ الفرقانِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الآياتِ، فناسبَ ذلكَ أنْ يورَدَ في السّورتينِ قولُهُ تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، ولم يَرِدْ ذلكَ في سورةِ الرّومِ وسورةِ فاطرٍ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهما مِثْلُ هذا الاستلطافِ.

والجوابُ عنِ الثّالثِ: أنَّ آيةَ الأعرافِ لمّا قيلَ فيها: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: 57] بالتَّعبيرِ بلفظِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾ [الأعراف: 57]؛ ناسبَ ذلكَ وُرودُ ما يُفهِمُ كثرةَ ماءِ السَّحابِ، وهو وصفُها بكونِها ثِقالًا، ولمّا لم يقعْ في الآياتِ الأُخَرِ توسعةٌ في المُخْرَجِ بالماءِ؛ وقعَ الاكتفاءُ بذكرِ إثارةِ السَّحابِ، وحصلَ إرسالُها الماءَ ممّا بعدُ، ولم يَرِدْ في آيةِ الفرقانِ ذِكْرُ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ؛ اكتفاءً ببِشارةِ قولِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾"[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لِّنُحْـِۧىَ﴾:

اللّامُ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ للتَّعليلِ، فالغرضُ مِنْ إنزالِ

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 182.

الماءِ الطَّهورِ إحياءُ المَواتِ وسَقْيُ الأناسيِّ[1]، وتحتمل أن تكون اللّامُ لامَ العاقبةِ، وليسَتْ لامَ التَّعليلِ؛ لأنَّ أفعالَ اللّهِ ﷻ لا تُعلَّلُ، وقد بيَّنَ سبحانَهُ في الآيةِ غايةَ الماءِ الطَّهورِ، أو عاقبةَ نُزولِهِ بإرادةِ اللّهِ تعالى وأمرِهِ الَّذي لا مُعَقِّبَ لهُ، ولا رادَّ لفضلِهِ[2].

الغرضُ مِنْ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ إحياءُ المَواتِ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

الإحياءُ والسَّقْيُ أمرانِ مستقبلانِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾؛ لأنَّ إحياءَ المَواتِ وسَقْيَ الأناسيِّ أمرانِ مستقبلانِ بالنِّسبةِ لزمنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ في قولِهِ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ﴾ و﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾ و﴿خَلَقۡنَآ﴾:

تعظيمُ شأنِ الإحياءِ والسَّقْيِ والخَلْقِ

عُبِّرَ بنونِ العظَمةِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ لتعظيمِ شأنِ إحياءِ المَواتِ وسَقْيِ الأناسيِّ والخَلْقِ؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلكَ إلّا القديرُ المقتدرُ ﷻ، أي: لنُحيِيَ بعظَمتِنا بهِ بلدةً مَيْتًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإحياءِ في: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ﴾:

تشبيهُ وجودِ الزَّرعِ والغرسِ بالإحياءِ

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى شبَّهَ وجودَ الزَّرعِ والغَرْسِ وما يتبعُهما بالإحياءِ، أي: إنَّ الأرضَ في حالِ جَدْبِها كالميتِ، وفي حالِ زرْعِها واستغلالِها كالحيِّ، وكلُّ ذلكَ بفضلٍ مِنَ اللّهِ تعالى[3].

بلاغةُ باءِ السببيَّةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿بِهِۦ﴾:

الحديثُ عن السَّببِ بعد الحديث عن المسبَّب

بعد أن ذكر النَّظْمُ الكريم المطر ونزوله إلى الأرض جاء بالباء في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ للسَّببيَّةِ، والمعنى:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5293.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5293.

لنُحييَ نحن بما لنا من العظمة بهذا الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ بلدةً مَيْتًا.

نكتةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿بَلۡدَةٗ﴾:

العِنايةُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ

قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿بَلۡدَةٗ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾؛ للعِنايةِ بالمُقدَّم، وهو حصولُ الإحياءِ بالماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو وقوعُ الإحياءِ على البلدةِ المَيِّتِ.

سرُّ التَّعبيرِ عن المكان بالبلدة:

خُلوُّ الأرضِ ممّا ينتفع بها

أغلبُ استعمالاتِ هذه المادة في خلوِّ الشَّيء ممّا يُنتفع به غالبًا، فالبلدةُ منزلة من منازل القمر خلاء لا نجوم فيها، والبلد من الأرض: مكانٌ لم يُحفر فيه بئرٌ، ولم توقدْ فيه نارٌ، والبلد من السَّحاب الذي لم يُمطر، ومن الفرس الذي لم يسبق، ومن الإنسان البليدِ الَّذي لم يجتهد لخمول أو غباء، فعبَّر عن المكان بالبلدةِ؛ للدَّلالة على أنَّه قفرٌ، ليس فيه شيءٌ يُنتفع به.

سرُّ تنكيرِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بَلۡدَةٗ﴾:

تعدُّدُ الأغراضِ البلاغيَّةِ في النَّكرة

يحتمل أن يكون تنكيرُ ﴿بَلۡدَةٗ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: لنُحييَ بِهِ بعضَ البلادِ المَيْتةِ[1]، وهي بعضُ بلادِ المُتبعِّدينَ على مَظانِّ الماءِ[2].

ويُحتملُ أن تكون للعموم مع أنَّها نَكرةٌ في سياق الإثبات؛ لأنَّها وردت في سياق الامتنان، وهو أقوى السياقات الدالَّة على عموم النَّكرة المثبتة، ولا مانع أن يكون التَّنكيرُ للتحقير للدلالة على أنَّها بلدةٌ، ليس فيها شيءٌ يُنتفع به، ثم هي ضعيفةٌ حقيرةٌ، لا تصلح أن تكون أهلًا للحياة ولا الإحياء.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 542.

بلاغةُ وصفِ البلدةِ بالميِّتِ:

إجراءُ الوصفِ ليعمَّ كلَّ مكانٍ

لمّا كُرِهَ أنْ يُفهَمَ مِنْ قولِه تعالى: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ﴾ تخصيصُ البلادِ؛ أُجريَ الوصفُ باعتبارِ الموضعِ؛ ليعمَّ كلَّ مكانٍ، فقيلَ: ﴿مَّيۡتٗا﴾، أي: بما نُحدِثُ فيهِ مِنَ النَّباتِ بعدَ أنْ كانَ هشيمًا ثمَّ ترابًا؛ ليكونَ ذلكَ آيةً بيِّنةً على قُدرتِنا على بَعْثِ الموتى بعدَ كونِهم ترابًا[1].

علَّةُ تذكيرِ وصفِ البلدةِ: ﴿مَّيۡتٗا﴾:

البلدُ بمعنى الموضعِ أوِ البلدِ

ذُكِّرَ وصفُ البلدةِ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾، ولم يقل: (مَيّتةً)؛ لأنَّ المرادَ: لنُحييَ بهِ موضعًا ومكانًا مَيْتًا[2]، أو أنَّ البلدةَ في معنى البلدِ[3]، فوُصِفَتِ البلدةُ بالمَيِّتِ؛ لأنَّهُ جعلَهُ كالمصدرِ الَّذي يوصَفُ بهِ المُذكَّرُ والمُؤنَّثُ، وجازَ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ[4].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾:

الدِّلالةُ على الموتِ وما يسبقُه بلفظٍ واحدٍ

قرأَ أبو جعفرٍ: ﴿مَّيِّتٗا﴾ بتشديدِ الياءِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿مَّيۡتٗا﴾ بتخفيفِها[5]، والمَيْتُ: هو الَّذي ماتَ بالفعلِ، والمَيِّتُ: هو الَّذي يَؤولُ أمرُهُ إلى الموتِ، وإنْ كانَ ما يزالُ على قيدِ الحياةِ[6]، أو الَّذي فيه نوعُ حياةٍ، لكنَّه أشرفَ على الموتِ، وقيلَ: هما لغتانِ[7].

سرُّ تقديمِ إحياءِ الأرضِ على سَقْيِ الأنعامِ:

إحياءُ الأرضِ سببٌ لحياةِ الأنعامِ

قُدِّمَ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ إحياءُ الأرضِ على الأنعامِ؛ لكونِ إحياءِ الأرضِ سببًا لحياةِ تلكَ الأنعامِ[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 279.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 284.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213.
(5) القاضي، البدور الزاهرة، ص: 227.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10456.
(7) الجزائري، فروق اللغات، ص: 212.
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.

بلاغةُ الواوِ العاطفة في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾:

التَّشريكُ في الحُكم مع قصد الترتيب المحكم

قولُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ويفيدُ هذا العطفُ أنَّ في الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَّتين: **إحداهما**: إحياءُ المَواتِ وإظهارُ النَّباتِ الَّذي هو منفعةٌ للرَّعيِ، **والثَّانيةُ**: سَقْيُ الأنعامِ والأناسيِّ، وهو منفعةٌ عظيمةُ الجَدْوى في الحفظِ مِنَ الموتِ بالشُّربِ، كما كانَتْ نعمةُ الإحياءِ حافظةً بالأكلِ[1]، وفي ذلكَ تحريكٌ لِسلْسِلةِ الشُّكرِ للمُنعِمِ المُتفضِّلِ جلَّ شأنُهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾:

الضَّميرُ للماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ

ضميرُ الهاءِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ راجعٌ إلى الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، أي: ونُسْقي ذلكَ الماءَ الطَّهورَ عندَ جَرَيانِهِ في الأوديةِ أوِ اجتماعِهِ في الحياضِ والمَناقعِ والآبارِ أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا[2]، وللدَّلالة على أنَّ كلَّ أنواع الماء الصالح للسقي من الآبار والأنهار وغيرها راجعٌ إلى الماء الطهور، المنزل من السَّماء، فهو وحده مصدرها، وإن تعدَّدت، واختلفت، وتنوَّعت.

بلاغةُ استعمالِ (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ وإعرابها:

كثرةُ المعاني بناءً على اختلاف الإعراب

تحتملُ أن تكون (مِنْ) في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تبعيضيَّةً[3]، والمعنى: ونُسْقيَهُ بعضَ ما خلَقْناهُ[4]، وتحتملُ أنْ تكونَ بيانيَّةً[5].

والجار والمجرور في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ مِنْ ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾[6]، أي: ونُسْقيَهُ أنعامًا وأناسيَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 402.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 31.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.

كثيرًا كائنةً ممّا خلقنا، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بالفعلِ ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، وفيه إشارةٌ بديعةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى يتعهَّد خلقه بعد خلقه لهم، فيسوق إليهم طعامهم وشرابهم، أو للدَّلالة على أنَّ سبب رعايته سبحانه هؤلاء الأنعام والأناسي أنَّهم خلقُهُ، أي: ما سقتُ لهم بعظمتي الطَّعام والشراب إلّا لكونهم خَلقي وصنعتي، وسأربّيهم بِنِعَمي، ولا أتخلّى عنهم أبدًا، وأمهلهم، وإن عبدوا غيري.

نكتةُ التَّعبير بـ (ما) في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مِمَّا خَلَقۡنَآ﴾:

احتمالُ (ما) للموصوليَّة والمصدريَّة

تحتمل أن تكون (ما) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ موصولةً، والموصولُ للإيماءِ إلى علَّةِ الخبرِ، أي: نُسقيهم؛ لأنَّهم خلَقَنا، وفي ذلك إشارةٌ إلى رحمةِ اللّهِ بهم؛ لأنَّهم خَلْقُهُ[1]، ويحتمل أن تكون مصدريَّةً، أي: نسقيه خلقنا، وفيها الإشارة السابقة نفسها.

وعلى كلا الاحتمالين يأتي احتمال (مِن) التبعيضية والبيانية، فهذه أربعة أوجهٍ يمكن الجمعُ بينها، كلٌّ واحدةٍ منها باعتبار، وفي ذلك من إيجاز القرآن العظيم ما لا يخفى.

نكتةُ تخصيصِ الأنعامِ والأناسيِّ بالذِّكرِ:

زيادةُ الامتنانِ على المُخاطَبينَ

تخصيصُ الأنعامِ والأناسيِّ بالذِّكرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ لأنَّ أهلَ المدنِ والقُرى يقيمونَ بقُرْبِ الأنهارِ، فبهم وبما حولَهم مِنَ الأنعامِ غُنْيةٌ عن سُقْيا السَّماءِ، وسائرُ الحيواناتِ تُبْعِدُ في طلبِ الماءِ، فلا يُعْوِزُها الشُّرْبُ غالبًا، معَ أنَّ مَساقَ هذهِ الآياتِ للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ، فهو لتعدادِ أنواعِ النِّعمة، والأنعامُ قِنْيةُ النّاسِ، وعامَّةُ منافعِهم ومعايشِهم مَنوطةٌ بها[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.

سرُّ تقديمِ الأنعامِ على الأناسيِّ:

الأنعامُ قِنْيةُ الإنسانِ

قُدِّمَ سَقْيُ الأنعام على سَقْيِ النّاسِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ لأنَّ الأنعامَ قِنْيَةُ الإنسانِ، وعامَّةُ منافعِهم مَنوطةٌ بها[1]، ولأنَّ تقديمَ ذكرِ الأنعام على الأناسيِّ اقتضاهُ نَسْجُ الكلام على طريقةِ الإحكام في تعقيبِه بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾، ولو قُدِّمَ ذِكرُ الأناسيِّ؛ لتفكَّكَ النَّظمُ[2].

وقيلَ: تقديمُ سَقْيِ الأنعامِ على سَقْيِ الأناسيِّ؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سَقْيَ أرضِهم ومَواشيهم؛ لم يَعْدَموا سُقْياهم، فهو مِنْ بابِ تقديمِ ما هو الأهمُّ والأصلُ في بابِ الامتنانِ، وذِكرُ سَقْيِ الأناسيِّ على هذا إردافٌ وتتميمٌ للاستيعابِ[3]، وبالجملة فإحياءُ الأرض وإخراج النَّبات بالمطر ينفع الأنعامَ والأناسيَّ، فكأنَّه ﷻ يمتنُّ على الإنسان بنعمِهِ التي تصلهُ بواسطة النبات والأنعام، والتي تصلهُ بغير واسطةٍ كسقي الماء.

سرُّ تنكيرِ الأنعامِ والأناسيِّ ووصفِ الأناسيِّ بالكثرةِ:

المــرادُ بعضُ الأنــاسيِّ، وهم أهلُ البوادي

نُكِّرَ الأنعامُ والأناسيُّ، ووُصِفَ الأناسيُّ بالكثرةِ في قولِ الحقِّ جلَّ وتبارك: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾؛ لأنَّ جُلَّ الناسِ مُنيخونَ بالقُرْبِ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومنابعِ الماءِ، فبِهم غُنْيَةٌ عن سَقْيِ السَّماءِ، وأمّا أعقابُهم - وهم كثيرٌ منهُم - فلا يُعيِّشُهم إلّا ما يُنزِلُ اللّهُ مِنْ رحمتِهِ وسُقْيا سمائِهِ.

وبناءً على ذلكَ يكونُ التَّنكيرُ للتَّنويعِ، فالمرادُ نوعٌ مِنَ الأناسيِّ والأنعامِ، وهم سُكّانُ البوادي[4]، ولا يُنافي التَّنكيرُ المفيدُ للقليلِ وصفَ الأناسيِّ بالكثرةِ؛ لأنَّهم وإنْ كانوا بعضًا مِنَ النّاسِ؛ فهُم كثيرٌ[5].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 49.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 31.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(5) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 120.

اتِّساع دلالة الصيغة على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث

دلالةُ وصفِ الجمعِ بالمفردِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ وُصِفَ ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ وهو جمعٌ - بـ ﴿كَثِيرًا﴾، وهو مُفرَدٌ في اللفظ؛ لأنَّ فعيلًا قد يُرادُ بهِ المُتعدِّدُ، كرفيقٍ وقليلٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: 86][1].

❁ الفروقُ المعجميَّةُ:

البَعْثُ والإرسالُ:

البعثُ: فيهِ تنبيهٌ وإيقاظٌ، والإرسالُ: فيهِ رِفْقٌ ورحمةٌ غالبًا

فُرِّقَ بينَ البعثِ والإرسالِ مِنْ وجوهٍ:

منها: أنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ أو بما يَجْري مَجْراها غالبًا، وأمّا البعثُ؛ فيجوزُ دونَ ذلكَ[2]، ومنها: أنَّ الاستعمالَ القرآنيَّ لكلمتَيِ البعثِ والإرسالِ يشتركُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو التَّوجيهُ، وبينَ الكلمتينِ ملامحُ دلاليَّةٌ فارقةٌ؛ هي: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ التي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3][3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 49.

(2) معجم الفروق اللغوية، ص: 103.

(3) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 136 - 137.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾

[الفرقان: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القرآنُ فيه حياةٌ لـلأرواحِ كالمطرِ الّـذي فيه حياةُ الأشباحِ

إن كان الضميرُ راجعًا إلى الماء؛ فالمناسبة ظاهرة، وهي ذِكر تَعداد بعض النِّعم الواردة في الماء، بعد تَعداد بعضها السابق، ووجهُ المناسبةِ: أنَّهُ سبحانَهُ بعدَما ذكرَ نعمةَ إنزالِ المطرِ، وبيَّنَ فوائدَهُ للنّاسِ والأنعام؛ ذكرَ أنَّ أكثرَ النّاسِ يكفرونَ بهذهِ النِّعمةِ الجليلةِ، ولا يقومونَ بحقِّ شكرِها.

وإن كان راجعًا إلى القرآن؛ فلمّا ذكرَ ﷻ أنَّ مِنْ ثمرةِ إنزالِ القرآنِ مُنجَّمًا إحياءَ القلوبِ الَّتي هي أرواحُ الأرواحِ، وأتبعَهُ ما ناسبَهُ، إلى أنْ ختمَ بالماءِ الَّذي جعلَهُ سببًا لحياةِ الأشباحِ، فكانَ موضعًا لتوقُّعِ العَوْدِ إلى ما هو حياة الأرواحِ؛ قالَ مُنبِّهًا على فائدةٍ أخرى لتنجيمِهِ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾: (صرف) الصَّرْفُ: ردُّ الشَّيءِ مِنْ حالةٍ إلى حالة، أو إبدالُهُ بغيرِه، يقالُ: صَرَفْتُهُ فانصرفَ، قالَ ﷻ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]، والتَّصريفُ كالصَّرْفِ إلّا في التَّكثيرِ، وأكثرُ ما يقالُ في صَرْفِ الشَّيءِ مِنْ حالةٍ إلى حالةٍ، ومِنْ أمرٍ إلى أمرٍ، وتصريفُ الرّياحِ: صَرْفُها مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ومنهُ: تصريفُ الكلامِ، وتصريفُ الدَّراهم[2].

2) ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾: (ذكر) يقالُ: الذِّكْرُ تارةً، ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفسِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 403.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف)، والراغب، المفردات: (صرف)، والسمين، عمدة الحفاظ: (صرف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).

بها يُمكِنُ للإنسانِ أنْ يحفظَ ما يكتسبُهُ مِنَ المعرفةِ، ويقالُ تارةً لحُضورِ الشَّيءِ القلب أو القول، ولذلك قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ، وكلُّ واحدٍ منهما ضربانِ: ذِكْرٌ عن نسيانٍ، وذِكْرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ الحفظِ(1)، ومِنَ المجازِ: الذِّكْرُ بمعنى الشَّرَفِ، وفُسِّرَ بِهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44](2).

3) ﴿فَأَبَىٰٓ﴾: (أبي): المعنى المحوريُّ: الامتناعُ عنِ الشَّيءِ؛ كراهةً لهُ أو استغناءً عنهُ(3)، وقيلَ: الإباءُ: شدَّةُ الامتناعِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: 32]، ومنهُ: رجلٌ أَبِيٌّ، أي: مُمتنِعٌ مِنْ تحمُّلِ الضَّيمِ(4).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

كُفورُ أكثرِ النّاسِ في مقابلِ إحسانِ اللهِ سبحانَهُ

(ولقد قسَّمنا هذا الماءَ - الَّذي أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ طَهورًا، فأمطَرْنا هذهِ الأرضَ دونَ هذهِ، وسُقْنا السَّحابَ، فمرَّ على الأرضِ، وتعدّاها، وجاوزَها إلى الأرضِ الأخرى - ليتذكَّرَ النّاسُ نِعَمي عليهِم، ويَشْكُروا أياديَّ عندَهم، وإحساني إليهِم، فأبَى أكثرُ النّاسِ إلّا كُفرًا وجُحودًا)(5).

أو: (ولقد نوَّعنا هذا القرآنَ باختلافِ أساليبِه؛ لينتفعوا بما فيه، ويعبدوا مُنزِّلَهُ، فأبَى أكثرُ النّاسِ إلّا كُفرًا وجُحودًا).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ وصلِ الآيةِ بما قبلَها:

التَّشريكُ في الاستدلالِ والامتنانِ

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ بما قبلَهُ؛ لأنَّهُ داخلٌ في حيِّزِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللهِ تعالى، وحيِّزِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على العبادِ.

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبى)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أبى).
(4) الراغب، المفردات: (أبى)، والسمين، عمدة الحفاظ: (أبى).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 279، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 115.

بلاغةُ توكيدِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾:

إبطالُ مزاعمِ الكفار

توكيدُ قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بلامٍ رابطة لجواب القَسَم و(قد)، والمعنى: واللهِ لقد صرَّفْناهُ بينهم؛ لإبطالِ زعمِ مَنْ يزعمُ أنَّ ذلكَ بسببِ الأنواءِ[1].

وقيلَ: التَّوكيدُ لتحقيقِ التَّعليلِ بقولِهِ تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾؛ لأنَّ تصرُّفَ المطرِ مُحقَّقٌ لا يحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وإنَّما الشَّيءُ الَّذي لم يكنْ لهُم عِلمٌ بِهِ هو أنَّ مِنْ حكمةِ تصريفِهِ بينَ النّاسِ أنْ يذكُروا نعمةَ اللهِ تعالى عليهِم معَ نُزولِهِ عليهِم، وفي حالةِ إمساكِهِ عنهُم؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النّاسِ لا يَقْدِرُ قَدْرَ النِّعمةِ إلّا عندَ فقدِها، فيعلَموا أنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الواحدُ المختارُ في خلقِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ، وقد كانوا لا يتدبَّرونَ حكمةَ الخالقِ، ويُسنِدونَ الآثارَ إلى مُؤثِّراتٍ وهميَّةٍ أو صوريَّةٍ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾:

الـدَّلالـةُ على تحقُّقِ التَّصريفِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ تحقُّقِ التَّصريفِ ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ مُحقَّقٌ مُشاهَدٌ محسوسٌ، فلا ينبغي ألّا يُنكِرَهُ أحدٌ، ويؤكِّد تحقُّقَ ذلك تكرارُهُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

نكتةُ إسنادِ ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ إلى نونِ العظَمَةِ:

تعظيمُ شأنِ التَّصريفِ بإسنادِهِ إلى ذي العظَمةِ والجلالِ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ التَّصريفِ بإسنادِهِ إلى ذي العظَمةِ والجلالِ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَقْدِرُ على هذا التَّصريفِ العجيبِ غيرُهُ.

سرُّ إيثارِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾:

اختُلِفَ في مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾:

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 259.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 49.

تعدُّدُ المعاني بتعدُّدِ احتمالاتِ مرجعِ الضَّميرِ

فقيلَ: الضَّميرُ عائدٌ على الماءِ المُنْزَلِ مِنَ السَّماءِ، والمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ إنزالَ الماءِ تذكرةً، بأنْ يصرفَهُ عن بعضِ المواضعِ إلى بعضِها، وهذا كلُّهُ في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ[1]، وهو الوجهُ الذي اقتصر ابن عاشور على ذكره.

وقيلَ: الضَّميرُ للقرآنِ وإنْ لم يتقدَّم لهُ ذِكرٌ؛ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، ويَعْضُدُ ذلكَ قولُهُ بعدَ ذلكَ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾[2].

وقيلَ: الضَّميرُ راجعٌ إلى المطرِ والرّياحِ والسَّحابِ والأظلالِ وسائرِ ما ذُكِرَ مِنَ الأدلَّةِ[3].

وقيلَ: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾، أي: صرَّفْنا هذا القولَ - وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ وإنزالِ القَطْرِ؛ ليتفكَّروا، ويستدلّوا بهِ على الصّانعِ - في القرآنِ وسائرِ الكُتُبِ والصُّحُفِ الَّتي أُنزِلَتْ على الرُّسُلِ[4].

بلاغةُ الضَّميرِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

أكثريَّةُ الكفارِ والمشركين من النّاس

ضميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ راجعٌ إلى النّاسِ مِنَ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ[5]، أو بين الكفار والمشركين، وتكون الأكثرية باعتبار ما سبق في علم اللّه من إيمان بعضهم.

بلاغةُ اللّامِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

الغايةُ من التَّصريف التَّذكُّر والاعتبار

اللّامُ في ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ للتَّعليلِ، وهي تفيدُ أنَّ الحكمةَ مِنَ التَّصريفِ تذكُّرُ النّاسِ، أي: ليُفكِّروا، ويَعتبِروا، ويَعْرِفوا حقَّ النِّعمةِ، ويَشْكُروا المنعِمَ بها[6].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 473.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 473.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 473.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 224.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

التَّذكُّرُ شاملٌ لشكرِ المُنعِمِ، ولتفطُّنِ المحرومينَ إلى سببِ حِرْمانِهم

لمّا كانَ التَّذكُّرُ شاملًا لشكرِ المُنعِمِ عليهم بإصابةِ المطرِ، ولتفطُّنِ المحرومينَ إلى سببِ حِرْمانِهم إيّاهُ، لعلَّهم يستغفرونَ؛ جيءَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بفعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾؛ ليكونَ علَّةً لحالتَي التَّصريفِ بينَهم[1].

بلاغةُ القراءاتِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

الجمعُ بين معنيين في لفظ واحد

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿لِيَذۡكُرُواْ﴾ بإسكانِ الذّالِ وضمِّ الكافِ مُخفَّفةً، وقرأ الباقونَ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بفتحِ الذّالِ والكافِ مُشدَّدتينِ[2].

أمّا القراءةُ الأولى؛ فهي مِنَ الذِّكرِ.

وأمّا القراءةُ الثّانيةُ؛ فهي مِنَ التَّذكُّرِ، وهو قريبٌ مِنَ الذِّكرِ، إلّا أنَّ التَّذكُّرَ يُطلَقُ فيما بَعُدَ عن القلبِ، فيحتاجُ إلى تكلُّفٍ في التَّذكُّرِ[3]، وعليه فإنَّهما درجتان لفعل واحد، أو هما فعلان مختلفان، فالأوَّل: فعل اللسان، والثاني: فعل القلب.

بلاغةُ الفاءِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿فَأَبَىٰٓ﴾:

الجمعُ بين العطف والسَّببيّة

الفاءُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ عاطفةٌ، وتُشيرُ إلى السَّببيَّةِ، والمعنى: أنَّهم بدلَ أنْ يجعلوا الآياتِ سبيلًا لتذكُّرِهم وتدبُّرِهم؛ جعلوها سبيلًا لكفرِهم وبُعْدِهم عنِ الحقِّ[4]، أو أنَّهم بدلَ أنْ يجعلوا المطرَ سببًا لشكرِ النِّعمةِ والاعترافِ بحقِّ المُنعِمِ بها، وضعوا الكفرَ موضعَ الشُّكرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الإباءِ وتمكُّنه منهم

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 50.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 307، والقاضي، البدور الزاهرة، ص: 227.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 57.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5295.

للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإباءِ فيهم وتمكُّنه منهُم، وأنَّ إباءهم أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وتكرَّرَ حتَّى صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الرّاسخةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

الإشارةُ إلى كثرةِ المشركينَ وقلَّةِ المؤمنينَ

عُبِّرَ بالأكثريَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ أكثرَ النّاسِ هم المشركونَ، وقد كانوا في مكَّةَ الكثرةَ الكاثرةَ، وكانَ المؤمنونَ القلَّةَ المُستضعَفةَ، ولكنَّها القويَّةُ بالحقِّ[1].

سرُّ التَّعريفِ بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

تـعـدُّدُ المعاني المرادة من الناس

تعريف ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ للجنسِ، أي: فأبى أكثرُ الجنسِ المُسمَّى بالنّاسِ إلّا كُفورًا، ويحتمل أن يكونُ التَّعريفُ للعهدِ، والمراد أهلُ مكَّةَ، أي: فأبى أكثرُ أهلِ مكَّةَ إلّا كُفورًا[2].

نكتةُ التَّصريحِ موضعَ الإضمارِ في قولِهِ: ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الكفرِ إليهم والتهكُّم بهم

صرَّح النَّظمُ الكريم بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، ولم يقل: (فأبى أكثرُهم) - لأنَّ العُدولَ عنِ الضَّميرِ إلى الظّاهرِ تأكيدٌ في نسبةِ الكفرِ إليهم[3]، وفيه تهكُّمٌ بهم وازدراء لهم؛ إذ كان ينبغي منهم مع وضوح تلك الدَّلائل أن يكونوا من أوَّل المؤمنين؛ لأنَّهم من جملة الناس المكرَّمين.

المرادُ بالكُفورِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾:

احتمالُ معنيي الكفر الاصطلاحي والمجازي

المرادُ بالكُفورِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ كُفرانُ النِّعمةِ وجُحودُها، وقلَّةُ الاكتراثِ لها، فلا يتفكَّرونَ فيها، ولا يستدلّونَ بها على وجودِ الصّانعِ وقُدرتِهِ وإحسانِهِ[4]، أو يكون المرادُ مِنَ الكُفورِ: الكفرَ الاصطلاحيَّ، وذلكَ الكفرُ إنَّما حصلَ؛

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5295.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5295.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 235.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 473.

لأنَّهم يقولونَ: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا[1]، وهذا على أنَّ مرجعَ الضَّميرِ في ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾، هو المطرُ، وأمّا إنْ كانَ مرجعُهُ هو القرآن؛ فالمرادُ بالكُفورِ هو الكفرُ الاصطلاحيُّ.

الكُفورُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ مصدرُ كَفَرَ، وهو بمعنى الكفرِ، وقد عُبِّرَ بهِ؛ مبالغةً في صدورِ الكفرِ مِنْ أكثرِ النّاسِ[2].

بلاغةُ الإيجازِ في جريانِ التركيبِ مجرى المثل:

تصميمُ المشركين على الكفر وعدم الرُّجوع عنه

قولُه ﷻ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ تركيبٌ جَرَى بمادَّتِهِ وهيئتِهِ مَجْرى المَثَلِ في الإخبارِ عن تصميمِ المُخبَرِ عنهُ على ما بعدَ حرفِ الاستثناءِ، وذلكَ يقتضي وجودَ الصّارفِ عنِ المُستثنَى، والمعنى: فصمَّموا على الكُفورِ، لا يرجعونَ عنهُ؛ لأنَّ الاستثناءَ مِنْ عمومِ أشياءَ مُبهَمةٍ جُعِلَتْ كلُّها ممّا تعلَّقَ بهِ الإباءُ، كأنَّ الآبينَ قد عُرِضَتْ عليهِم مِنَ النّاسِ أو من خواطرِهِم أمورٌ، وراجعوا فلم يَقْبَلوا منها إلّا الكُفورَ، وإنْ لم يكنْ هنالكَ عَرْضٌ ولا إباءٌ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 473.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 404.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 50.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: 51 - 52]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الآيتان متَّصلتان بمطالبِ المشركينَ

الآيتان متَّصلتان بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، فبعدَ أنْ بيَّنَ إبطالَ طَعْنِهم بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32]؛ انتقلَ إلى تنظيرِ القرآنِ بالكتابِ الَّذي أوتيَهُ موسى عليه السلام، وكيفَ استأصلَ اللهُ مَنْ كذَّبوهُ، ثمَّ استطردَ بذكرِ أُمَمٍ كذَّبوا رُسُلَهم، ثمَّ انتقلَ إلى استهزاءِ المشركينَ بالنَّبيِّ ﷺ، وأشارَ إلى تحرُّجِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ إعراضِ قومِه عن دعوتِه بقولِه: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43]، وتسلسلَ الكلامُ بضَربِ المَثَلِ بمدِّ الظِّلِّ وقَبْضِه، وبحالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وبإرسالِ الرِّياحِ أمارةً على رحمةِ غَيْثِه الَّذي تحيا به المَواتُ، حتَّى انتهَى إلى قولِه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾، ويُؤيِّدُ ما ذُكِرَ اشتمالُ التَّفريعِ على ضميرِ القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَبَعَثۡنَا﴾: البعث: هو الإثارةُ للشَّيءِ[2]، بحيثُ يندفعُ ناهضًا أو مُبتعِدًا[3]، يقالُ: بَعَثْتُه، فانبعث، ويختلفُ البَعْثُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثتُ البعيرَ: أَثَرْتُه، وسيَّرتُه، وقولُه ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36] معناهُ: يُقيمُهم للحَشْرِ[4]، ويومُ البَعْثِ: يومُ القيامةِ[5]، وقولُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بعث).
(4) الراغب، المفردات: (بعث).
(5) الخليل، العين: (بعث).

ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: 31]، أي: قيَّضَهُ، ويسَّرَهُ، وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: ذهابَهم، ومُضيَّهم[1]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 12]، أي: أيقَظْناهم، سُمّيَ إيقاظُهم بَعْثًا؛ تشبيهًا للنَّوم بالموت، وقولُهُ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: 35]، أي: أَرْسِلوا[2]، والمقصود بالآية أرسلنا رسولًا.

2) ﴿قَرۡيَةٖ﴾: (قري) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: القريةُ، وهي اسمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيهِ النَّاسُ، ويقالُ: قَرَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ: جمعتُهُ[4].

3) ﴿نَّذِيرٗا﴾: (نذر) كلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ مع نوعِ إعلامٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويفِ، ويقالُ: تناذَروا، أي: خوَّفَ بعضُهم بعضًا[5]، والنَّذيرُ: المُنذِرُ، ويقعُ على كلِّ شيءٍ فيهِ إنذارٌ، إنسانًا كانَ أو غيرَهُ[6].

4) ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾: الجَهْدُ والجُهْدُ: الطّاقةُ والمشقَّةُ، والاجتهادُ: أخذُ النَّفسِ ببذلِ الطّاقةِ وتحمُّلِ المشقَّةِ، والجهادُ والمجاهدةُ: استفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العدوِّ[7]، والمقصود بالآية بذْلُ الجهد والطاقة في الدَّعوة إلى القرآن.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجاهدةُ الكافرينَ أبلغُ الجهادِ

ولو شِئْنا - أيُّها النبي - لأرسَلْنا في كلِّ مِصرٍ ومدينة نذيرًا يُنذِرُهم بأسَنا، فيَخِفُّ عنكَ كثيرٌ مِنْ أعباءِ ما حمَّلْناكَ منهُ،

(1) الراغب، المفردات: (بعث).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرى)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قري).
(4) الراغب، المفردات: (قري)، والسمين، عمدة الحفاظ: (قري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(6) الراغب، المفردات: (نذر).
(7) الراغب، المفردات: (جهد)، والسمين، عمدة الحفاظ: (جهد).

ويسقطُ عنكَ بذلكَ مُؤنةٌ عظيمةٌ، ولكنّا حمَّلْناكَ ثِقَلَ نِذارةِ جميعِ القُرى؛ لتستوجبَ بصبرِكَ عليهِ ما أعدَّ اللّهُ لكَ مِنَ الكرامةِ عندَهُ، فلا تُطِعِ الكافرينَ فيما يدعونَكَ إليهِ مِنْ أنْ تَعْبُدَ آلهتَهم، وجاهِدْهم بهذا القرآنِ أو بتركِ طاعتِهم جهادًا كبيرًا؛ حتَّى ينقادوا، ويُذْعِنوا لِما تدعوهم إليهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاعتراضِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾:

شحذُ همَّةِ النبي ﷺ للجهاد

جملةُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ اعتراضٌ بينَ ذِكرِ دلائلِ تفرُّدِ اللّهِ بالخَلْقِ، وذِكرِ منَّتِهِ على الخَلْقِ من جهةٍ[2]، والنَّهي عن طاعة الكافرين والأمر بمجاهدتهم من جهةٍ أخرى؛ لنشحذَ همَّتَهُ في الامتثال للنَّهي والأمر.

دلالةُ الشرط بـ (لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾:

عـظـمُ منـزلـة الـنـبـيِّ ﷺ وفضله

(لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، أي: امتناع الجوابِ لامتناعِ الشَّرطِ، أي: امتنعَ أنْ يجعلَ اللّهُ تعالى في كلِّ قريةٍ نذيرًا؛ لامتناعِ مشيئتِهِ سبحانَهُ ذلكَ؛ ليكون إنذارُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ عامًّا للنّاسِ أجمعينَ[3]؛ لحكمة بالغة، وليثقل الحملُ المُلقى على عاتقه في تبليغ الرِّسالة، المفضي إلى زيادة فضل النبي ﷺ ومنزلته.

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ في: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا﴾:

تـعـظـيمُ شـأنِ المشيئةِ والبَعْثِ

أُسنِدَ فِعْلا المشيئةِ والبَعْثِ في قولِ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ تعظيمًا للمشيئةِ والبَعْثِ، فمشيئةُ بَعْثِ نذيرٍ في كلِّ قريةٍ وإنفاذُ هذهِ المشيئةِ أمرانِ جليلانِ عظيمانِ، لا يَصْدُرانِ إلّا مِنْ ذي العظَمةِ والجلالِ والقُدرةِ التّامَّةِ سبحانَهُ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 51.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5296.

والمعنى: ولو شِئْنا؛ لَبَعَثْنا بما لنا مِنَ العظَمةِ ونُفوذِ الكلمةِ في كلِّ قريةٍ نذيرًا[1].

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ في: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾:

بعثُ الرُّسلِ والأنبياء من مشيئة الله تعالى

في قولِه تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ وذلكَ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ على القاعدةِ المستمرَّةِ في مِثلِ هذا التَّركيبِ، والتَّقديرُ: (ولو شِئْنا بَعْثَ نذيرٍ في كلِّ قريةٍ؛ لَبَعَثْنا في كلِّ قريةٍ نذيرًا).

بلاغةُ اللّامِ في قولِه جَلَّ: ﴿لَبَعَثۡنَا﴾:

تقوية ترتُّب الجواب على الشرط

لامُ ﴿لَبَعَثۡنَا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ هي اللّامُ الرابطة لجوابِ أداةِ الشَّرطِ (لو)، وهي تفيد تقوية ترتُّب الجواب على الشرط وتوكيده، أي: إنَّ انتفاء بعْثِ نذيرٍ في كلِّ قريةٍ أمرٌ مؤكَّدٌ، لا شكَّ فيه؛ لانتفاء مشيئة اللّه ذلك، كما تفيد تعليلَ انتفاء الجواب بانتفاء الشرط.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا﴾:

تأكيدُ انتفاءِ إرسال أكثر من رسول مع النَّبيِّ

(لو) للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ فرْضًا في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، ولذلكَ يلزمُ في جملتَيْها المُضيُّ وعدمُ الثُّبوتِ[2]، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ سُلطانُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾.

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾:

النَّذيرُ يعيش وسط أهل القرية التي ينذرها

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فالقُرى هي مكانُ البَعْثِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ رسول يكون وسط قومه، ويعيش بينهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 405.

(2) التفتازاني، المختصر: 281 - 284.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلِّ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ الشُّمولِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ لإفادةِ عُمومِ البَعْثِ لكلِّ قريةٍ من القُرى.

سرُّ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿قَرۡيَةٖ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ المفضي للعموم

نُكِّرَ لفظُ ﴿قَرۡيَةٖ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ للإفرادِ، وهو يُفيدُ معَ لفظِ ﴿كُلِّ﴾ الدّاخلِ عليهِ العُمومَ، أي: في كلِّ فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالقريةِ.

وجهُ الاقتصارِ على وصفِ النَّذيرِ:

المبعوث يجمعُ بينَ صفتَيِ النِّذارةِ والبِشارةِ

اقتُصِرَ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ على ذكرِ وصفِ النِّذارةِ، معَ أنَّ المبعوثَ يجمعُ بينَ صفتَيِ النِّذارةِ والبِشارةِ؛ لأنَّ السّياقَ فيهِ ذكرُ كفرِ الكافرينَ، وذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، وقولِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والنِّذارةُ بالكفّارِ أليَقُ، وفيه دلالةُ الإيجازِ لدلالته على كلامٍ كثيرٍ، أي: لبعثنا في كلِّ قريةٍ رسولًا يُنذر الناس، ويخوِّفهم.

سرُّ التَّنكيرِ في قوله: ﴿نَّذِيرٗا﴾:

بعثنا في كلِّ قريةٍ نذيرًا عظيمًا قويًّا

تنكيرُ ﴿نَّذِيرٗا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ للإفرادِ، والمعنى: ولو شِئْنا؛ لَبَعَثْنا في كلِّ قريةٍ فردًا مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالنَّذيرِ، أو للتعظيم، أي: لبعثنا في كلِّ قرية نذيرًا عظيمًا قويًّا.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تفريعُ الحُكمِ على الخبر

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للتَّفريعِ، وقد اختُلِفَ في وجهِ التَّفريعِ: فقيلَ: ترتيبُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ على ما قبلَهُ؛ باعتبارِ أنَّ قَصْرَ الرِّسالةِ على النَّبيِّ ﷺ نعمةٌ جليلةٌ ينبغي شكرُها، وما ذُكِرَ نوعٌ مِنَ الشُّكرِ، فكأنَّهُ قيلَ: بعَثْناكَ نذيرًا لجميعِ القُرى، وفضَّلْناكَ، وعظَّمناكَ، ولم

نبعثُ في كلِّ قريةٍ نذيرًا، فقابِلْ ذلكَ بالثَّباتِ والاجتهادِ في الدَّعوةِ وإظهارِ الحقِّ[1].

وقيلَ: تفريعُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على جملةِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ لأنَّها تتضمَّنُ أنَّهُ مُرسَلٌ إلى المشركينَ مِنْ أهلِ مكَّةَ، وهم يطلبونَ منهُ الكفَّ عن دعوتِهم وعن تنقُّصِ أصنامِهم[2]، فتفرَّع عن ذلك نهيُهُ ﷺ عن طاعتهم.

أو هو تفريعٌ على كلامٍ محذوفٍ يدلُّ عليهِ ما ذُكِرَ، والتَّقديرُ: (ولكنّا أفرَدْناكَ بالنِّذارة، فلا تُطِعِ الكافرينَ)[3]، وبناءً على ذلكَ تكونُ الفاءُ مُفرَّعةً على محذوفٍ، لا على الآيةِ السّابقةِ.

غرضُ النَّهي في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

الاجتهادُ في التَّبليغ والجهاد بالقرآن

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناهُ: فلا تُطِعِ الكافرينَ فيما يريدونَكَ عليهِ، والكلامُ تهييجٌ لهُ عليه السلام وللمؤمنينَ[4]، أي: تحريكٌ لغَيْرتِهِ، وإلّا فإطاعتُهُ لهُم غيرُ مُتصوَّرةٍ حتَّى يُنهَى عنها، وإذا خوطِبَ بشيءٍ؛ فأُمَّتُهُ مخاطَبةٌ بهِ[5].

بلاغةُ العُمومِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ﴾:

عُمومُ التَّحذيرِ مِنْ أدنى طاعةٍ للمشركين

النَّهيُ في قولِ اللهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، وفعلُ ﴿تُطِعِ﴾ في سياقِ النَّهيِ يُفيدُ عُمومَ التَّحذيرِ مِنْ أدنى طاعةٍ[6]، لأنَّ الفعلَ في قوَّةِ النَّكرة، فكأنَّه نكرةٌ في سياقِ النَّهي، فكان نصًّا في العموم، وهذا يدلُّ على فضل نبيِّه ﷺ وعظيم منزلته، فكيف لمن في هذه الدَّرجة والمنزلة أن يطيعَ من هم دونه في الفضل والمنزلة وغير ذلك.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 214.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 430.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.

دلالةُ التعريف بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عامٌّ لكلِّ الكفّارِ، ويدخلُ فيهم كفّارُ قريشٍ دخولًا أوّليًّا، فالمعنى: لا تُطِعِ كلَّ الكفارِ لا سيَّما كفّارَ قريشٍ؛ فإنَّهم كانوا رَغِبوا إليهِ ﷺ أنْ يرجعَ إلى دينِ آبائِهم، ويُملِّكونَهُ عليهم، ويجمعونَ لهُ مالًا عظيمًا، فنهاهُ تعالى عن طاعتِهم حتَّى يظهرَ لهُم أنَّهُ لا رغبةَ لهُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ، بل رغبتُهُ في الدُّعاءِ إلى اللهِ والإيمانِ به[1].

النَّـهـي عن طاعة الكافرين والاستماع لطلباتهم

علَّةُ التصريح بالاسمِ الظّاهرِ: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

ذُكِرَ الكافرونَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالاسمِ الظّاهرِ؛ لبيانِ أنَّ طاعتَهم طاعةٌ للكفرِ، فكأنَّ ذلكَ تأكيدٌ للنَّهيِ ببيانِ سببِهِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: فلا تُطِعْهم؛ لأنَّهم كافرونَ.

التَّنبيهُ على علَّةِ النَّهيِ عنِ الإطاعةِ

سرُّ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾:

عطف النَّظمُ الكريم جملة: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ على جملةِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ووجهُ العطفِ: أنَّهُ بعدَ أنْ حذَّرَهُ مِنَ الوَهَنِ في الدَّعوةِ؛ أمرَهُ بالحرصِ عليها والمبالغةِ فيها[3]، فكلٌّ من جملتَي الأمرِ والنَّهيِ واجبةُ الامتثالِ.

التشريكُ في الحكم بين الأمر والنهي

دلالةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾، والمراد به:

الأمرُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا.

الأمرُ ببذلِ الجُهدِ في الأداءِ والدُّعاءِ

واختُلِفَ في المرادِ بالجهادِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾: فقيل هو بذلُ الجُهدِ في الأداءِ والدُّعاءِ، أو قتال الكفار وجهادهم بالسلاحِ، ويحتمل أن يكون المرادُ كليهما، والأقربُ الأوَّلُ؛ لأنَّ السّورةَ مكّيَّةٌ، والأمرُ بالقتالِ وردَ بعدَ الهجرةِ بزمنٍ[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 117.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5297.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 474.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجهادِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾:

التَّعبيرُ بالاسمِ الجامعِ لمُنتهَى الطَّاقةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فيهِ أمرٌ بالحِرصِ على الدَّعوةِ والمبالغةِ فيها بعدَ التَّحذيرِ مِنَ الوَهَنِ فيها، وعُبِّرَ عن ذلك بالجهادِ؛ لأنَّهُ الاسمُ الجامعُ لمُنتهَى الطّاقةِ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ المصابرةِ والحِرصِ على استمرارِ الدَّعوةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفاعلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾:

الدَّلالةُ على مقابلةِ مجهودِ الكفارِ بمجهودِ الداعي

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أمرٌ بليغٌ بالحِرصِ على الدَّعوةِ، وصيغةُ المفاعلةِ تُفيدُ مقابلةَ مجهودِهم بمجهودِهِ، فلا يَهِنُ، ولا يَضْعُفُ[2]، وفيه إشارة إلى أنَّ الكفار يبذلون جهدهم في محاربة الإسلام، فلا ينبغي أن يكون أقلَّ منهم في الدفاع عنه.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّميرُ للقرآنِ أو لتركِ الطّاعةِ

ضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ للقرآنِ أو لتركِ الطّاعةِ الَّذي يدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والمرادُ: أنَّ الكفّارَ يجتهدونَ في توهينِ أمرِكَ، فقابِلْهم مِنْ جِدِّكَ واجتهادِكَ بما تغلبُهم به.

ويجوزُ أنْ يرجعَ الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ إلى ما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ مِنْ كونِهِ نذيرَ كافَّةِ القُرى؛ لأنَّهُ لو بُعِثَ في كلِّ قريةٍ نذيرٌ؛ لوجبَ على كلِّ نذيرٍ مجاهدةُ قريتِهِ، فاجتمعَتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ تلكَ المُجاهَداتُ كلُّها، فعَظُمَ جهادُهُ مِنْ أجلِ ذلكَ[3].

بلاغةُ الباءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بِهِۦ﴾:

تعدُّد معاني الباءِ لاختلافِ مرجعِ الضَّميرِ

قولُهُ جلَّ وتبارَكَ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، معناهُ:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 286.

وجاهِدْهم بالقرآنِ أو بتركِ طاعتِهم، والمعنى: أنَّهم يجتهدونَ في إبطالِ حقِّكَ، فقابِلْهم بالاجتهادِ في مخالفتِهم جهادًا كبيرًا[1].

والباءُ للاستعانةِ على القولِ برجوعِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾ إلى القرآنِ، وللملابَسةِ على القولِ برجوعِهِ إلى التَّركِ[2].

وجوِّزَ أنْ يرجعَ الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ إلى ما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾، مِنْ كونِهِ نذيرَ كافَّةِ القُرى؛ لأنَّهُ لو بُعِثَ في كلِّ قريةٍ نذيرٌ؛ لوجبَ على كلِّ نذيرٍ مجاهدةُ قريتِهِ، فاجتمعَتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ تلكَ المُجاهَداتُ كلُّها، فعَظُمَ جهادُهُ مِنْ أجلِ ذلكَ، والمعنى: وجاهِدْهم بسببِ كونِكَ نذيرَ كافَّةِ القُرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلِّ مجاهدةٍ[3]، وعلى هذا تكونُ الباءُ للسَّببيَّةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلَقِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿جِهَادٗا﴾:

توكيدُ المجاهدةِ والمبالغةُ فيها

يدلُّ التَّعبيرُ بالمفعولِ المُطلَقِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ على تأكيدِ طلبِ المُجاهَدةِ منهُ ﷺ، والمبالغةِ فيها بحيثُ تكونُ في مقابلةِ اجتهادِ الكافرينَ في كفرِهم وباطلِهم.

يضافُ إلى ذلكَ التَّوصُّلُ بذكرِ المفعولِ المُطلَقِ إلى وصفِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿كَبِيرٗا﴾ الَّذي تترتَّبُ عليهِ ملاءمةُ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها.

سرُّ وصفِ الجهادِ بكونِهِ كبيرًا:

كـثرةُ مَـشاقِّ الجهادِ

جُعِلَ الجهادُ كبيرًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾؛ لِما يُحتمَلُ فيهِ مِنَ المَشاقِّ العِظامِ، ويجوزُ أنْ يرجعَ الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ إلى ما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾، مِنْ كونِهِ نذيرَ كافَّةِ القُرى؛ لأنَّهُ لو بُعِثَ في كلِّ قريةٍ نذيرٌ؛ لوجبَ على كلِّ نذيرٍ مجاهدةُ قريتِهِ، فاجتمعَتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ تلكَ المُجاهَداتُ كلُّها،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127 - 128.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 126.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 286.

فعَظُمَ جهادُهُ مِنْ أجلِ ذلكَ، والمعنى: وجاهِدْهم بسببِ كونِكَ نذيرَ كافَّةِ القُرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلِّ مجاهدةٍ[1].

وقيلَ: جُعِلَ الجهادُ كبيرًا؛ لأنَّ مجاهدةَ السُّفَهاءِ بالحُجَجِ أكبرُ مِنْ مجاهدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مخالفتَهم ومعاداتَهم كانَتْ فيما بينَ أظهُرِهم معَ عُتوِّهم وظُهورِهم[2].

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في التَّعبيرِ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿كَبِيرًا﴾ رعايةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها[3].

بلاغةُ تنكيرِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾:

نُكِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ الجهادِ وتهويلِهِ؛ فإنَّ دعوةَ كلِّ العالَمِينَ على الوجهِ المذكورِ جهادٌ كبيرٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ كمًّا وكَيْفًا[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطّاعةُ والإجابةُ:

الطّاعةُ: موافقةُ الإرادةِ الحادثةِ إلى الفعلِ، والإجابةُ: موافقةُ الدّاعي إلى الفعل

فُرِّقَ بينَ الطّاعةِ والاجابةِ: بأنَّ الطّاعةَ: موافقةُ الإرادةِ الحادثةِ إلى الفعلِ برغبتِهِ أو رهبتِهِ، والاجابةَ: موافقةُ الدّاعي إلى الفعلِ مِنْ أجلِ أنَّهُ دعا بِهِ، ولذلكَ يقالُ: أجابَ اللّهُ فلانًا، ولا يقالُ: أطاعَهُ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 286.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 126.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 225، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 32.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 334.

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان: 53]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العَوْدُ إلى الاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ

مناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها: أنَّها عَوْدٌ إلى ذكرِ النِّعَم[1]، والاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ[2]، والمذكورُ فيها هو النَّوعُ الرّابعُ مِنْ دلائلِ التَّوحيدِ[3].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَجَ﴾: (مرج) مجيءٌ وذهابٌ واضطرابٌ[4] واختلاطٌ[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ معناهُ: أنَّهُ تعالى أجرَى البحرينِ، وأرسلَهما مُختلطًا أحدُهما بالآخرِ، وجعلَ بينَهما حاجزًا، وقولُهُ: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾ [ق: 5]، أي: مُختلِطٍ، مرَّةً يقولونَ: هو شاعرٌ، ومرَّةً: كاهنٌ، ومرَّةً: ساحرٌ، ومرَّةً: مجنونٌ، ويقالُ: مَرَجَ الشَّيءُ؛ إذا قَلِقَ، فلم يَثْبُتْ، ومنهُ: مَرَجَ الخاتمُ، أي: خرجَ، ولم يستقرَّ[6].

2) ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: (بحر) أصلُ البحرِ: كلُّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثيرِ، ثمَّ اعتُبِرَ تارةً سَعَتُهُ المُعايَنَةُ، فقيلَ: بَحَرْتُ كذا: أوسعتُهُ سَعَةَ البحرِ؛ تشبيهًا بهِ، ومنهُ: بَحَرْتُ البعيرَ: شَقَقْتُ أُذُنَهُ شقًّا واسعًا، وسمَّوا كلَّ مُتوسِّعٍ في شيءٍ بحرًا، فقالوا: فرسٌ بحرٌ، باعتبارِ سَعَةِ جَرْيِهِ، وللمُتوسِّعِ في علمِهِ: بحرٌ، وقد تبحَّرَ في كذا، أي: توسَّعَ فيهِ[7].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 474.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرج).
(5) الراغب، المفردات: (مرج).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (مرج).
(7) الراغب، المفردات: (بحر)، والزبيدي، تاج العروس: (بحر).

3) ﴿عَذْبٌ﴾: (عذب) يقالُ: عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً، فهو عَذْبٌ، أي: طيِّبٌ[1]، وأعذبَ القومُ؛ إذا عَذُبَ ماؤُهم، واستعذَبوا؛ إذا استَقَوا، وشَرِبوا عَذْبًا[2]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، واختُلِفَ في سببِ تسميةِ العذابِ بذلكَ، فقيلَ: هو مِنْ قولِهم: عذبَ الرَّجلُ؛ إذا تركَ المَأْكَلَ والنَّوْمَ، فهو عاذبٌ وعَذوبٌ، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَملُ الإنسانِ على أنْ يعذِبَ، أي: يَجوعَ، ويَسْهَرَ، وقيلَ: أصلُهُ مِنَ العَذْبِ، فعذَّبتُهُ: أَزَلت عَذْبَ حياتِهِ، وقيلَ: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّربِ بعَذَبةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها، وقيلَ: التَّعذيبُ هو الضَّربُ، وقيلَ: هو مِنْ قولِهم: ماءٌ عَذْبٌ؛ إذا كانَ فيهِ قَذًى وكَدَرٌ، فيكونُ عذَّبتُهُ، كقولِكَ: كدَّرتُ عَيْشَهُ[3].

والأصل في المادة يرجع إلى كلِّ طيِّب يسوغ للإنسان، والتفعيل منها (التعذيب) إزالةُ ذلك الطيب والحرمان منه، ومثلُها في الصيغة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ [سبأ: 23]، أي: أُزيل الفزع عنها.

4) ﴿فُرَاتٌ﴾: (فرت) الماء الفرات: هو الخالص من الملح الصافي من الكدورةِ، ولهذا عَبَّرَ عنه البعضُ بأنَّه أشدُّ الماءِ عذوبةً[4]، لجمعه بين جمال الطَّعم والمنظر، ومن قال: إنَّ الماءَ الفُراتَ: هو العَذْبُ[5]؛ نظر إلى صفةٍ واحدةٍ من صفتيه وهي خلوُّه من الملوحة، وهو مأخوذ مِنْ فرَتَ الشَّيءَ، أي: شقَّهُ، فكأنَّهُ فرَتَ العَطَشَ، والفُراتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، يقالُ: ماءٌ فُراتٌ، ومياهٌ فُراتٌ[6].

5) ﴿أُجَاجٌ﴾: (أجج) الماء الأُجاجُ: شديدُ المُلوحةِ والمرارة والحرارةِ[7]، مِنْ قولِهم: أَجيجُ النّارِ، ويقالُ: أَجَّ الظَّليمُ؛ إذا عدا، تشبيهًا بأَجيجِ النّارِ[8].

---

(1) الخليل، العين: (عذب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(3) الراغب، المفردات: (عذب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (عذب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي (فرت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرت).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (فرت).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجج)، وابن فارس، مقاييس اللغة (أج).
(8) الراغب، المفردات: (أجج)، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجج).

6) ﴿بَرْزَخًا﴾: (برزخ) البرزخُ: الحائلُ بينَ الشَّيئينِ[1]، وقيلَ: البرزخُ: ما بينَ الموتِ إلى القيامةِ[2]، والمقصود في الآية: الحاجز بين شيئين.

7) ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: (حجر) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهوَ المنعُ والإحاطةُ على الشَّيءِ، يقالُ: حَجَرَ الحاكمُ على السَّفيهِ حَجْرًا: منعَهُ مِنَ التَّصرُّفِ في مالِهِ، ويُسمَّى العقلُ حِجْرًا؛ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ إتيانِ ما لا ينبغي[3]، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: منعًا لا سبيلَ إلى رَفْعِهِ ودَفْعِهِ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الامتنانُ بخَلْقِ أنواعِ المياهِ

اللهُ الَّذي خلطَ البحرينِ، هذا عَذْبٌ شديدُ العُذوبةِ، وهذا مِلْحٌ شديدُ الملوحةِ، ومنعَ المِلْحَ مِنْ تغييرِ العَذْبِ عن عُذوبتِهِ، وإفسادِهِ إيّاهُ، فجعلَ بينَهما حاجزًا يمنعُ كلَّ واحدٍ منهُما مِنْ إفسادِ الآخرِ، وجعلَ كلَّ واحدٍ منهُما حرامًا مُحرَّمًا على صاحبِهِ أنْ يُغيِّرَهُ، ويُفسِدَهُ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

التَّشريكُ في الاستدلال بآثار القدرة

جملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، ومناسبةُ وقوعِها عَقِبَ الَّتي قبلَها أنَّ كلتيهما استدلالٌ بآثارِ القُدرةِ في تكوينِ إيجاد أنواع المياهِ المختلفةِ[6]، على استحقاق الخالق للألوهية، وانفراده بها.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

الجمعُ بين غياب الذات وحُضور الأفعال

لمّا ذكرَ تصريفَ الفُرقانِ ونَشْرَهُ في جميعِ البلدانِ، بعدَ إثارة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برزخ).
(2) الجوهري، الصحاح: (برزخ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(4) الراغب، المفردات: (حجر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 281.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.

الرّياحِ ونَشْرِ السَّحابِ، وخَلْطِ الماءِ بالتُّرابِ؛ أتبعَهُ على سبيل التَّذكيرِ بالنِّعمةِ، والتَّحذيرِ مِنَ النِّقمةِ، الحَجْزَ بينَ أنواعِ الماءِ، الَّذي لا أعظمَ امتزاجًا منهُ، ورجعَ إلى أسلوبِ الغَيبةِ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ تذكيرًا بالإحسانِ بالعطفِ على ضميرِ الرَّبِّ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[1].

ولأنَّ هذه الأفعال آثارٌ واضحةٌ ودلائلُ حاضرةٌ مشاهدة للإله الذي لا يُشاهد، فهو بمنزلة الغائب بالذات، الحاضر بالصفات والأفعال.

الامتنانُ لنِعَمِ اللهِ تعالى الموجب لإفراده بالعبادة

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ، والَّذي ينبني عليهِ بناءً على القصرِ وجوبُ إفرادِهِ تعالى بالعِبادةِ والشُّكرِ، ففي قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استدلالٌ على عِظَمِ قُدرةِ اللّهِ ﷻ، وامتنانٌ وتذكيرٌ ببعضِ نِعَمِهِ جلَّ وتبارك على خَلْقِهِ.

مَرَجَ اللهُ البحرين وجَعَلَ الحِجْرَ المحجورَ بينَهما

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿مَرَجَ﴾ و﴿وَجَعَلَ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ على أنَّ مَرْجَ البحرينِ، وجَعْلَ الحِجْرِ المحجورِ بينَهما، أمرانِ قد تحقَّقا، وثبَتا، وهما معلومانِ محسوسانِ مُشاهَدانِ مُتكرِّرانِ، لا يُنكِرُهما أحدٌ، ولا ينازِعُ أحدٌ في ثبوتِهما، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، ومقامِ الامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ.

انفرادُ الله تعالى بهذه النِّعم

بلاغةُ القصرِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استدلالٌ على انفرادِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 406.

جلَّ ذكرُهُ بالخَلْق، وامتنانٌ بمَرْج البحرينِ والفصلِ بينَهما، ومَوْرِدُ الاستدلالِ قصرُ مَرْجِ البحرينِ وما عُطِفَ عليهِ على اللهِ ﷻ؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لهُ في الإلهيَّة، بنفي الشِّركةِ في التَّصرُّفِ في هذهِ الكائناتِ، وذلكَ ما لا يُنكِرُهُ المشركونَ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مَرَجَ﴾ ومعناها:

الـدّلالـةُ على شـدَّةِ المـجـاورة والالتصاق

في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المَرْجَ في الأصلِ: الخَلْطُ، وقد استُعيرَ هنا لشدَّةِ المجاورةِ والالتصاق، والقرينةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[2].

وقد اختُلِفَ في معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: فقيلَ: المرادُ: جعْلُهما متجاورينِ متلاصقينِ بحيثُ لا يتمازجانِ[3]، وقيلَ: المراد: أرسلَهما في مَجاريهما حتى يتجاورا، ويلتصقا، ولا يختلطا، كما تُرسَلُ الخيلُ في المَرْجِ[4]، وهو راجعٌ إلى المعنى الأوَّل.

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

احتمالُ العهدِ والـجـنـس والاستغراق

جاء قوله: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معرَّفًا؛ للعهد، واختلف في البحرين المعهودين، فقيل: بحرُ فارس وبحر الروم، وقيل: غير ذلك[5]، أو تعريفهما للجنسِ، والمرادُ بهما: جميعُ جنس الماءِ العَذْبِ الفرات، وجميعُ جنس الماءِ المالح الأُجاج، كأنَّهُ قالَ: مَرَجَ نوعَي الماءِ[6]، أو تعريف البحرين للاستغراق، أي: استغراق أفراد البحار العذبة والمالحة.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 33.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 117.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 214، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 117.

سرُّ الفصلِ في: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾:

الإيجازُ بالاستئنافِ البيانيِّ أو الحال

جملةُ: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه الكلام، كأنَّ قائلًا قالَ: ما صفةُ هذين البحرين؟ وكيفَ مَرْجُهما؟ فقيلَ: هذا عَذْبٌ فراتٌ، وهذا مِلْحٌ أجاج[1]، أو الجملة حالٌ بتقدير محذوف، أي: مقولًا فيه ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، والمعنى: أنَّهما بحران مختلفان في الطَّعم واللون والرائحة، متجاوران ملتصقان، ولا يختلطان بقدرة اللّه ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

الدلالةُ على المشاهدةِ والمعاينةِ

الأصلُ في الإشارة الحضورُ والمشاهدةُ؛ لأنَّك لا تشير إلى غائب إلّا مجازًا، ويمكن أن يكون السَّببُ في التَّعبير باسم الإشارة للتَّقسيم في الأمور العرضية، لأنَّ العادةَ أنْ يقالَ: لَقيتُ رجلينِ أحدُهما كذا والآخرُ كذا، وقد قيلَ هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ لأنَّهُ إنْ أُريدَ التَّقسيمُ بالأمورِ العَرَضيَّةِ يُؤتَى باسمِ الإشارةِ، وإنْ أُريدَ التَّعرُّضُ للأمورِ الذّاتيَّةِ يقالُ: أحدُهم كذا، والآخرُ كذا[2].

نكتةُ استخدامِ اسمِ الإشارةِ الذي يأتي للقريبِ:

التَّنبيهُ على عدمِ التباسِ البحرين معَ شدَّةِ المقاربةِ

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ تنبيهٌ على عدمِ التباسِ البحرينِ معَ شدَّةِ المقاربةِ، حتَّى إنَّهُ إذا حُفِرَ على شاطئِ البحرِ المالحِ بالقُربِ منهُ جدًّا؛ خرجَ الماءُ عذبًا فراتًا[3].

أو للدلالة على شدَّةِ قُربهما في الوجود، أو للدَّلالة على أنَّ العلم بهما في غاية القوَّة واليقين كالشَّيء القريب المشاهَد.

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 490.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 236.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 407.

غرضُ تنكيرِ ﴿عَذۡبٞ﴾ و﴿مِلۡحٌ﴾:

عظمةُ نعمةِ اللهِ تعالى بجعلِ الماءِ عذبًا أو مالحًا

أي: هذا البحرُ عظيمٌ، وماؤه شديد العذوبة والصفاء، وهذا البحرُ ملح، ماؤه متناهٍ في الملوحة والمرارة والحرارة، أو التَّنكير للتَّنويع، أي: هذا نوعٌ عَذْبٌ، وهذا نوعٌ مِلْحٌ، ودليل كونِ التَّنكيرِ للتَّنويعِ ورودُهُ في سياقِ التَّقسيم.

سرُّ وصفِ العَذْبِ بالفُراتِ:

المبالغةُ في اتِّصافِهِ بالعُذوبةِ

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ معناهُ: هذا عَذْبٌ فُراتٌ قامعٌ للعَطَشِ مِنْ فرْطِ عُذوبتِه[1].

وتوصيفُ العَذْبِ بالفُراتِ - وهو شديدُ العُذوبةِ - للمبالغةِ فيه، وبيانِ كمالِ قُدرتِه ﷻ، ببيانِ أنَّ مجاورةَ الماءِ المِلْحِ لا تُزيلُ عُذوبتَهُ الشَّديدةَ، فضلًا عن إزالةِ عُذوبتِه رأسًا[2].

نكتةُ وصفِ المِلْحِ بالأُجاجِ:

المبالغةُ في اتِّصافِهِ بالأوصافِ المرغوبِ عنها

قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾، معناهُ: وهذا مِلْحٌ بالغُ الْمُلوحةِ والمرارةِ والحرارةِ[3]، ووصفُ المِلْحِ بالأُجاجِ؛ للمبالغةِ في ذلك الوصف، وبيانِ كمالِ قُدرتِه ﷻ على خَلْقِ الماءِ على هذهِ الصِّفةِ العجيبةِ.

بلاغةُ الجمعِ بينَ العَذْبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاجِ:

رعايةُ التَّقابلِ بذكرِ وصفينِ متضادَّينِ

في الجمعِ بينَ العَذْبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاجِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ نكتةٌ بديعةٌ، وهي رعايةُ المقابلةِ بينَهما، أي: هذا عَذْبٌ في نهايةِ العُذوبةِ، وهذا مِلْحٌ في نهايةِ الْمُلوحةِ[4].

سرُّ تقديمِ العَذْبِ على المِلْحِ:

الانتفاعُ بالماءِ العذبِ الفراتِ أكثرُ من الانتفاعِ بالماءِ المالحِ

قُدِّمَ العَذْبُ الفُراتُ على المِلْحِ الأُجاجِ في قولِهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 127.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 490.

﴿فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّهُ نعمةٌ عظيمة، لا يوازيهِ مِنْحةٌ مِنَ المِنَحِ[1].

ولأنَّ الانتفاعَ بالماء العذبِ الفراتِ أعظمُ فائدةٍ من الانتفاع بالماء الملح الأجاج، والإنسانُ لا يستطيع الاستغناءَ عن الأوّل، ويستطيع الاستغناء عن الثاني.

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾:

تمامُ الانتفاعِ بالبحرين العذبِ والمالحِ

جملةُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، وهي مِثْلُها داخلةٌ في حيِّزِ الصِّلةِ، وفيها بيانُ ما بِهِ تمامُ الانتفاعِ بالبحرين.

سرُّ احتمالِ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ لأكثر من إعراب:

تنوُّعُ المعاني بتنوُّعِ الإعراب

﴿بَيْنَهُمَا﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ظرفٌ لـ ﴿وَجَعَلَ﴾، أو متعلِّقٌ بمحذوف حالٍ مِنْ ﴿بَرْزَخًا﴾[2]، أي: برزخًا كائنًا أو موجودًا بينهما.

غرضُ تنكيرِ: ﴿بَرْزَخًا﴾:

وجودُ البرزخِ يمنعُ اختلاط البحرين

الظّاهرُ أنَّ تنوينَ ﴿بَرْزَخًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ للتَّعظيم، أي: وجعلَ بينَهما برزخًا عظيمًا؛ حيثُ إنَّهُ على كثرةِ مُرورِ الدُّهورِ لا يتخلَّلُهُ ماءُ أحدِ البحرينِ، حتَّى يصلَ إلى الآخرِ فيُغيِّرَ طَعْمَهُ[3]، أو برزخًا عظيمًا لا يزول مع مرور الوقت.

سرُّ التَّعبيرِ بالبرزخِ:

البرزخُ حاجزٌ غيرُ مرئيٍّ في طلاقة القدرة

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ معناهُ: وجعلَ بينَهما حاجزًا غيرَ مرئيٍّ مِنْ قُدرتِهِ[4]، فهما مختلطانِ في مَرائي العينِ، منفصلانِ بقُدرةِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 128.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 225.

اللّهِ تعالى[1]، وقيلَ: المرادُ بالبرزخِ: تشبيهُ ما في تركيبِ الماءِ المِلْحِ ممّا يدفعُ تخلُّلَ الماءِ العَذْبِ فيه، بحيثُ لا يختلطُ أحدُهما بالآخر، ويبقَى كلاهما حافظًا لطَعْمِه عندَ المَصَبِّ[2]، وهذا من طلاقة قدرة اللّه تعالى.

تردُّدُ إعراب ﴿وَحِجۡرٗا﴾ بين عطف المفردات وعطف الجمل:

ثـــراءُ المعـنـى باختلافِ الإعرابِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِجۡرٗا﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿بَرۡزَخٗا﴾، أي: وجعلَ بينَهما هذهِ الكلمةَ، أو هو منصوبٌ بقولٍ مُقدَّرٍ، أي: ويقولانِ: حِجْرًا محجورًا[3]، ويلزمُ مِن الأوَّلِ أن يكون الحِجرُ غيرَ البرزخ، ويلزم من الثّاني إثباتُ الحياة للماء؛ إذ كِلا البحرين يقولان.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾:

المـبـالـغـةُ في وصـف الـحِـجْـرِ بين البحرين

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ هي الكلمةُ الَّتي يقولُها المُتعوِّذُ، وهي هنا واقعةٌ على سبيلِ المجازِ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ البحرينِ يتعوَّذُ مِنْ صاحبِه، ويقولُ لهُ: حِجْرًا محجورًا، كما قالَ تعالى: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠﴾ [الرحمن: 20]، أي: لا يبغي أحدُهما على صاحبِه بالممازجةِ، جُعِلَ كلُّ واحدٍ منهُما في صورةِ الباغي على صاحبِه، فهو يتعوَّذُ منهُ، وذلكَ مِنْ أبلغِ الاستعاراتِ[4].

وتقريرُ الاستعارةِ: أنَّهُ شُبِّهَ البحرانِ بطائفتينِ متعاديتينِ، تريدُ كلٌّ منهُما البَغْيَ على الأخرى، لكنَّهما امتنعَتا مِنْ ذلكَ لمانعٍ قويٍّ مُجبِرٍ، فهي تصريحيَّةٌ تمثيليَّةٌ، بولِغَ فيها هنا، حيثُ جُعِلَ المعنى المستعارُ كاللَّفظِ المَقولِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ تتعوَّذُ مِنْ صاحبتِها، فانقلبَتِ المُصرِّحةُ مكنيَّةً.

وجوِّزَ فيهِ أنْ يكونَ مجازًا مُرسَلًا، فأُطلِقَ: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ على ما يلزمُهُ مِنَ التَّنافرِ البليغِ[5].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 118.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 287.

(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 430.

دلالةُ وصفِ الحِجْرِ بالمحجورِ:

الــدَّلالــةُ على تمكُّنِ المعنى

﴿مَّحۡجُورٗا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ وصفٌ لـ ﴿وَحِجۡرٗا﴾، وهو مُشتقٌّ مِنْ مادَّتِه؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ المعنى المُشتقِّ منه، كقولِهم: ليلٌ أليَلُ[1].

إشارةٌ تفسيرية من أسلوب التَّمثيلِ في الآيةِ:

الــحــجــز بين الــفــريــقــين كــالــحــجــز بين البحرين

قيلَ: في ضمنِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ تمثيلٌ لحالِ دعوةِ الإسلامِ - في مكَّةَ يومئذٍ، واختلاطِ المؤمنينَ معَ المشركينِ - بحالِ تجاورِ البحرين، أحدُهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخرُ مِلْحٌ أُجاجٌ، وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللّٰهَ تعالى كما جعلَ بينَ البحرينِ برزخًا يحفظُ العَذْبَ مِنْ أنْ يُكدِّرَهُ الأُجاجُ، كذلكَ حجزَ بينَ المسلمينَ والمشركينَ، وحفظ المسلمين وعقائدهم من المشركين ودسائسهم.

ولذلكَ كانَ لموقعِ هذهِ الآيةِ عَقِبَ قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أكملُ حُسْنٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَذْبُ والفُراتُ:

الـفُـراتُ زيـادة وصـف الصفاء على العذوبة

الفرقُ بينَ العَذْبِ والفُراتِ: أنَّ العَذْبَ هو الماءُ الطَّيِّبُ الحلو، وأنَّ الفرات هو الجامع بين عذوبة الماء وصفائه، أو أنَّ العذب هو الماء الطيب، والفُراتَ هو الشَّديدُ العُذوبةِ والطّيبِ، حتَّى إنَّه يَقْرُبُ إلى الحلاوةِ.

الملحُ والأُجاجُ:

الماءُ المالح هو الذي يكثُرُ فيه الملح بحيث لا يَنتفعُ به في السَّقي إنسانٌ ولا أرض إلّا بنوع معالجة، والأُجاج هو الذي يجمع مع الملوحة مرارة وحرارة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِنَ الأدلَّةِ المبثوثةِ في الآفاقِ إلى الأدلة المبثوثة في الأنفس

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ:

أحدُها: لمّا ذكرَ تعالى قُدرتَهُ في منعِ الماءِ مِنَ الاختلاطِ؛ أتبعَهُ القُدرةَ على خَلْطِه؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّهُ ممتنعٌ؛ تقريرًا للفعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقولِ بالطَّبائعِ(1).

والثّاني: أنَّهُ بعدَ أنْ بيَّنَ سبحانَهُ ما في الكونِ مِنْ عجائبَ وبدائعَ ظاهرةٍ تُدرَكُ بالعيانِ، ويُدرَكُ بعضُها بالجَنانِ؛ عادَ إلى الإنسانِ المُخاطَبِ بالتَّكليفِ، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾(2).

والثّالثُ: أنَّها استدلالٌ بدقيقِ آثارِ القُدرةِ في تكوينِ المياهِ وجعْلِها سببَ حياةٍ مختلفةِ الأشكالِ والأوضاعِ، ومِنْ أعظمِها دقائقُ الماءِ الَّذي خُلِقَ منهُ أشرفُ الأنواعِ الَّتي على الأرضِ، وهو نُطْفةُ الإنسانِ، بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسْلِ للبشرِ، فإنَّهُ يكونُ أوَّلُ أمرِه ماءً، ثمَّ يتخلَّقُ منهُ البشرُ العظيمُ(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَ﴾: أصلُ الخَلْقِ التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مِثالٍ سابقٍ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعَهما، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 408.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5300.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.

الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ؛ فقد جعلَهُ اللّهُ لغيرِهِ في بعضِ الأحوالِ، كقولِهِ لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110]، والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في الإنسانِ إلّا على وجهينِ: أحدُهما في معنى التَّقديرِ كما مرَّ، والثّاني في الكذبِ، كقولِهِ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17][1].

2) ﴿نَسَبًا﴾: (نسب) المعنى المحوريُّ للنّونِ والسّينِ والباءِ: اتِّصالُ شيءٍ بشيءٍ، ومِنْ ذلكَ: النَّسَبُ، سُمّيَ بذلكَ؛ لاتِّصالِهِ والاتِّصالِ بهِ[2]، ويقالُ: فلانٌ نسيبُ فلانٍ، أي: قريبُهُ[3]، ومِنَ المجازِ: المناسبةُ: المشاكلةُ، يقالُ: بينَ الشَّيئَينِ مناسبةٌ وتناسبٌ، أي: مشاكلةٌ وتشاكلٌ[4].

3) ﴿وَصِهْرًا﴾: (صهر): للصّادِ والهاءِ والرّاءِ أصلانِ: أحدُهما يدلُّ على قُربى، والآخرُ يدلُّ على إذابةِ شيءٍ[5]، فالأوَّلُ: الصِّهْرُ، وهو الخَتَنُ، قالَ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، والأصلُ الآخرُ: إذابةُ الشَّيءِ، يقالُ: صَهَرْتُ الشَّحمةَ، أي: أذبتُها[6]، والمقصود في الآية: القُربى الناشئةُ من طريق الزواج.

المَعنى الإجماليُّ:

خَلْقُ الإنسانِ مِنْ دلائلِ قُدرةِ اللهِ سبحانَهُ

وهو الَّذي خلقَ الإنسانَ مِنْ ماءٍ، فسوّاهُ، وعدَّلَهُ، وجعلَهُ كاملَ الخِلْقةِ، ذكرًا أو أُنثى، كما يشاءُ، فجعلَهُ نَسَبًا وصِهْرًا، فهوفي ابتداءِ أمرِهِ ولدٌ نَسيبٌ، ثمَّ يتزوَّجُ، فيصيرُ صِهْرًا، ثمَّ يصيرُ لهُ أصهارٌ وأختانٌ وقراباتٌ[7]، وكانَ ربُّكَ قديرًا بالغَ القُدرةِ على خَلْقِ ما يشاءُ مِنَ الخَلْقِ، وتصريفِهم فيما شاءَ وأرادَ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق)، والراغب، المفردات: (خلق)، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسب).
(3) الراغب، المفردات: (نسب).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (نسب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صهر).
(6) الراغب، المفردات: (صهر)، والسمين، عمدة الحفاظ: (صهر).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 117.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 284.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ العطف صدر الآية:

الاستدلالُ على قدرةِ الله والامتنان بنعمِهِ

جملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها مِنَ الجملِ المُفتتَحةِ بقولِه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، الَّتي فيها استدلالٌ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، وامتنانٌ بالنِّعَمِ على عبادِهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ وتكريرِه في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

الحثُّ على استحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ المتُقدِّمةِ

عُبِّرَ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ وما تقدَّمَهُ، حثًّا على استحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ الَّتي تقدَّمَتْ؛ لتُعرَفَ الحيثيَّةُ الَّتي كُرِّرَ الضَّميرُ لأجلِها(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾:

مدارُ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ

في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ الآيةَ استدلالٌ على عِظَمِ قُدرةِ اللّهِ ﷻ، وامتنانٌ وتذكيرٌ ببعضِ نِعَمِهِ جلَّ وتباركَ.

وقد عُبِّرَ بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ، والَّذي ينبني عليهِ بناءً على القصرِ وجوبُ إفرادِهِ تعالى بالعِبادةِ والشُّكرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في: ﴿خَلَقَ﴾ و: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الخَلْقِ والجَعْلِ المذكورين

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ على أنَّ خَلْقَ البشرِ مِنَ الماءِ، وجَعْلَهُ نَسَبًا وصِهرًا، أمرانِ قد تحقَّقا، وثبَتا، وهما معلومانِ محسوسانِ، لا يُنكِرُهما أحدٌ، ولا ينازعُ أحدٌ في ثبوتِهما، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، ومقامِ الامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 408.

بلاغةُ القصرِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾:

القصرُ لإبطالِ دعوى شِرْكةِ الأصنامِ للهِ في الإلهيَّةِ

قولُهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ استدلالٌ على انفرادِهِ جلَّ ذكرُهُ بالخَلْقِ، وامتنانٌ بنعمةِ الخَلْقِ والإيجادِ وما عُطِفَ عليها[1]، والقصرُ المستفادُ مِنْ تعريفِ الجزأينِ قصرُ إفرادٍ؛ لإبطالِ دعوى شِرْكةِ الأصنامِ للّهِ في الإلهيَّةِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ الابتدائيَّة:

الدلالةُ على مصدرِ ابتداءِ الخَلقِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ ابتدائيَّةٌ[3]؛ للدَّلالة على مصدر ابتداء الخلق، والمعنى: وهو الَّذي ابتدأ خلقَ البشر مِنَ الماءِ.

دلالةُ التعريفِ في ﴿ٱلْمَآءِ﴾:

الماءُ الَّذي خُلِقَ منهُ أصلُ المخلوقات

اختُلِفَ في المرادِ بالماءِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ فهو الماءُ الَّذي خُلِقَ منهُ أصلُ الحيوانِ، وهو الَّذي عناهُ تعالى بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45][4]، وعليهِ يكونُ تعريفُ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ للجنسِ[5]، أو أنَّ المرادَ بالماءِ النُّطْفةُ الَّتي خُلِقَ منها الإنسانُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: 6][6]، وعليهِ يكونُ تعريفُ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ للعهدِ[7].

سرُّ تنكيرِ ﴿بَشَرًا﴾ والمراد به:

المرادُ آدمُ عليه السلام أو هو وذُرِّيَّتُهُ

إنْ كان المرادُ بالماءِ: الماءَ المعروفَ، وتعريفُهُ للجنسِ؛ فالمرادُ بالبشرِ: آدمُ عليه السلام، أو جنسُ البشرِ الصّادقُ عليه السلام وعلى ذُرِّيَّتِهِ، وإنْ كان

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 431.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 475.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 35.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 475.
(7) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 131.

المرادُ بالماءِ النُّطْفةَ؛ فيتعيَّنُ حملُ البشرِ على أولادِ آدمَ عليه السلام[1]؛ لأنَّهم المخلوقونَ مِنَ النُّطْفةِ.

وتنكيرُ ﴿بَشَرٗا﴾ للتَّعظيم[2]، والمعنى: وهو الَّذي خلقَ مِنَ الماءِ بشرًا عظيمَ الخَلْقِ بديعَ الشَّأنِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾:

انفردَ اللهُ تعالى بخلقِ الخلقِ وجعلِهم أقارب

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ عاطفةٌ لـ (جعلَهُ) على ﴿خَلَقَ﴾ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾، وهي تُفيدُ دخولَ الجَعْلِ المذكورِ في حيِّزِ الصِّلةِ، أي: إنَّ كلًّا من الخلق والجعل يشتركان في أنَّهما ممّا انفرد اللّه - عزَّ وجلَّ - به.

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾:

تعدُّدُ المعنى بتعدُّدِ مرجعِ الضَّميرِ واختلافِ معانيه

الضَّميرُ المنصوبُ في ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ عائدٌ إلى البشرِ، أي: فجعلَ البشرَ الَّذي خلقَهُ مِنَ الماءِ نَسَبًا وصِهرًا[3].

والبشرُ هذا إمّا أن يكونَ آدمَ وذريَّتَهُ دونه، تبعًا لاختلاف المراد بالماء، ومن هنا يكون المعنى: فجعل آدم وذريَّته، وهو المتبادر، وإن كان المرادُ ذريَّتَهُ إلّا آدم وحواء؛ فيكون معنى الضمير: فجعل ذرية آدمَ نسبًا وصِهرًا، وهذا أوفقُ بالمقام؛ لأنَّ آدم وحواء لم يكن لهما نسبٌ فوقهما ولا صهر له؛ لأنَّ حوّاء لم يكن لها أهل قبل ذلك.

بلاغةُ التعبيرِ بالواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾:

قسَّم اللهُ جلَّ ذكرُهُ البشرَ قسمينِ: نَسَبًا، وصِهْرًا

الواوُ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ للتَّقسيم[4]، وهي بمعنى: (أو)، والواوُ أجودُ مِنْ (أو) في التَّقسيمِ، أي: قسَّمَ اللّهُ جلَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 35.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55، واطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 72.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 431.

ذكرُهُ البشرَ قسمين: نَسَبًا، وصِهْرًا[1]، وإنَّما لم يقل: نسبًا أو صهرًا؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من البشر له نسبٌ باعتبار، ومصاهرة باعتبار آخر، من جهته غالبًا، أو جهة أقاربه أحيانًا.

بلاغةُ الإيجازِ بحذف المضاف في قولِهِ تعالى: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾:

الحذفُ يدلُّ على المبالغة

في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّهُ بتقديرِ مضافٍ، وقد حُذِفَ؛ ليدلَّ على المبالغةِ ظاهرًا[2]، والتَّقديرُ: (فجعلَهُ ذا نَسَبٍ وصِهْرٍ)، ووجهُ المبالغةِ: أنَّ ﴿نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ مصدرانِ سُمّيَ بهما صنفانِ مِنَ القرابةِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالنَّسبِ والصِّهْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾:

النَّسبُ من جهةِ الذُّكورِ والمصاهرة من جهة النساء

المرادُ بالنَّسَبِ والصِّهرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ الذَّكرُ والأنثى[4]؛ لأنَّ النَّسَبَ يعني: انتقالَ الأدنى مِنَ الأعلى بذُكورةٍ، فيظلُّ الإنسانُ فلانَ بنَ فلانِ بنِ فلانٍ إلخ ... فالنَّسَبُ يأتي مِنْ ناحيةِ الذُّكورة، أمّا الأُنوثةُ؛ فهي مصاهرةٌ، حينَما يتزوَّجُ رجلٌ ابنتي، أو أتزوَّجُ ابنتَهُ يُسمّونَهُ صِهْرًا[5].

أو أنَّ النَّسَب لا يخلو مِنْ أُبوَّةٍ وبُنوَّةٍ وأُخوَّةٍ لأولئكَ وبُنوَّةٍ لتلكَ الأُخوَّة، وأمّا الصِّهْرُ؛ فهوُ اسمٌ لِما بينَ المرءِ وبينَ قرابةِ زوجِهِ وأقاربِهِ مِنَ العلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مصاهرةً؛ لأنَّهُ يكونُ مِنْ جهتينِ، وهو آصِرةٌ اعتباريَّةٌ تتقوَّمُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهْرُ الرَّجلِ قرابةُ امرأتِهِ، وصِهْرُ المرأةِ قرابةُ زوجها.

ويُطلَقُ الصِّهْرُ على مَنْ لهُ مِنَ الآخرِ علاقةُ المصاهرةِ، مِنْ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 431.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 35.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10471.

إطلاقِ المصدرِ في موضعِ الوصفِ، فالأكثرُ حينئذٍ أنْ يُخَصَّ بقريبِ زوجِ الرَّجلِ، وأمّا قريبُ زوجِ المرأةِ؛ فهو خَتَنٌ لها أو حَمٌ[1].

نكتةُ العدولِ عن (ذكرًا وأُنثى) إلى ﴿نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾:

الإيـــذانُ بالانشعابِ نصًّا

قيلَ: المرادُ بالنَّسَبِ والصِّهرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ الذَّكرُ والأنثى، وقد عُدِلَ عن أنْ يقالَ: (ذكرًا وأُنثى)؛ للإيذانِ بالانشعابِ نصًّا[2].

علّةُ تقديمِ النَّسَبِ على الصِّهرِ:

العِنايةُ بالمُقدَّمِ فتقديمُ النَّسَبِ؛ لأنَّهُ الأهمُّ

قُدِّمَ النَّسَبُ على الصِّهرِ في قولِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾؛ لأنَّ كلمةَ ﴿نَسَبًا﴾، تعني: الذُّكورةَ، وكلمةَ ﴿وَصِهۡرًاۗ﴾ تعني: الأُنوثةَ، وتقديمُ النَّسَبِ؛ لأنَّهُ الأهمُّ، فالنَّسَبُ يعني: انتقالَ الأدنى مِنَ الأعلى بذُكورةٍ، فيظلُّ الإنسانُ فلانَ بنَ فلانِ بنِ فلانٍ إلخ ... فالنَّسَبُ يأتي مِنْ ناحيةِ الذُّكورةِ، أمّا الأُنوثةُ؛ فهي مصاهرةٌ[3].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾:

إجراءُ الجملةِ التي بعدَ الواوِ مجرى المثل

الواوُ في قولِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مستأنفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو مِنْ قبيلِ التَّذييلِ الجاري مَجْرى الأمثالِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ﴾:

قُدرةُ اللهِ جلَّ شأنُهُ راسخةٌ واجبةٌ له

﴿وَكَانَ﴾ في قولِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ هي الَّتي للدَّوامِ قبلُ وبعدُ، لا أنَّها تُعطي مُضيًّا فقط[4]، وفي التَّعبيرِ بها إيذانٌ بأنَّ قُدرتَهُ جلَّ شأنُهُ راسخةٌ واجبةٌ لهُ، وهو متَّصفٌ بها في الأزلِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 55.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 35.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10471.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 215، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ وإضافة ضمير الخطاب إليه:

ملاءمةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لسياقِ الامتنانِ

لمّا كانَ السّياقُ للاستدلالِ على عظيمِ قُدرةِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ، والامتنانِ بنِعَمِهِ على عبادِهِ؛ ناسبَ التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، والمعنى: وكانَ ربُّكَ - المُحسنُ إليكَ بإرسالِكَ وإنزالِ هذا الذِّكرِ إليكَ - قديرًا[1].

وفي إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ تشريفٌ للمضافِ إليهِ، واعتناءٌ بهِ، أي: وكانَ ربُّكَ المُحسنُ إليكَ قديرًا، وهو خالقُكَ الَّذي أنشأكَ، وهو يحفظُكَ، ويرعاكَ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيل) في قولِهِ تعالى: ﴿قَدِيرًا﴾:

المبالغةُ في اتِّصافِهِ سبحانَهُ بالقُدرةِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ (فعيل) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على المبالغةِ في اتِّصافِهِ ﷻ بالقُدرةِ؛ لِما في هذهِ الصّيغةِ مِنَ الدَّلالةِ على قوَّةِ القُدرةِ المُقتضيةِ تمامَ الإرادةِ والعلمِ[3]، أي: وكانَ ربُّكَ مبالغًا في القُدرةِ، حيثُ قَدَرَ على أنْ يخلقَ مِنْ مادَّةٍ واحدةٍ بشرًا ذا أعضاءٍ مختلفةٍ، وطِباعٍ متباعدةٍ، وجعلَهُ قسمينِ متقابلينِ، وربَّما يخلقُ مِنْ نُطْفةٍ واحدةٍ توْءَمينِ ذكرًا وأُنثى[4].

سرُّ اختيارِ صفةِ القُدرةِ دونَ غيرِها وتنكيرِها في قولِهِ: ﴿قَدِيرًا﴾:

مناسبةُ القُدرةِ لمقامِ الاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ

تنكيرُ ﴿قَدِيرًا﴾ في قولِ اللّهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ لتفخيمِ شأنِ القُدرةِ، أي: وكانَ ربُّكَ قديرًا قُدرةً عظيمةَ الشَّأنِ، فذكرَها دونَ غيرِها مِنَ الصِّفاتِ؛ لأنَّ هذهِ مسألةٌ دقيقةٌ، لا تَحْدُثُ إلّا بقُدرةِ اللّهِ تعالى[5]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ والإيجادِ، واستحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِهِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 408.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5301.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 226.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10473.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

الـــدَّلالـــةُ عـــلى الــدوام والاستمرارِ

قولُهُ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، معناهُ: وكانَ ربُّكَ مبالغًا في القُدرةِ، و(كانَ) في مِثلِ هذا التَّركيبِ للاستمرارِ، وإذا قلنا: إنَّ الجملةَ الاسميَّةَ نفسَها تُفيدُ ذلكَ أيضًا؛ أفادَ الكلامُ استمرارًا على استمرارٍ، وأشعرَ ذلكَ بأنَّ القُدرةَ البالغةَ مِنْ مُقتضَياتِ ذاتِهِ جَلَّ وَعَلَا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّسَبُ والصِّهْرُ:

الـنَّـسَـبُ قرابةُ النَّسَبِ، والصِّهْرُ قرابةُ النِّكاحِ

الفرقُ بينَ النَّسَبِ والصِّهرِ: أنَّ النَّسَبَ قرابةُ النَّسَبِ، والصِّهْرَ قرابةُ النِّكاحِ[2]، فالنَّسَب لا يخلو مِنْ أُبوَّةٍ وبُنوَّةٍ وأُخوَّةٍ لأولئكَ، وأمّا الصِّهْرُ؛ فهوُ اسمٌ لِما بينَ المرءِ وبينَ قرابةِ زوجِهِ، ويُسمَّى مصاهرةً؛ لأنَّهُ يكونُ مِنْ جهتينِ، وهو قرابة تتقوَّمُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهْرُ الرَّجلِ قرابةُ امرأتِهِ، وصِهرُ المرأةِ قرابةُ زوجِها.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 677.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ [الفرقان: 55]

تقبيحُ حالِ المشركينَ بعدَ بيانِ دلائلِ التَّوحيدِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر البيان القرآني دلائلَ التَّوحيدِ؛ عادَ إلى تهجينِ سيرةِ المشركينَ في عبادةِ الأوثانِ، وإشراكِهم بهِ مَنْ لا يَقْدِرُ على نفعٍ ولا ضرٍّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهِيرًا﴾: (ظهر) المعنى المحوريُّ: القوَّةُ والبُروزُ[2]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: ظَهَرَ عليه: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][3]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهْرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ المُعاوِنَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِهِ، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ مُعاوَنةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهْرِ حتَّى باللِّسانِ[4]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾، أي: وكان الكافر على ربِّه هيِّنًا ذليلًا مُعينًا للشَّيطانِ على ربِّهِ لا قدر ولا وزن لهُ عند اللّه كالمُلقى وراءَ الظهر.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التَّعجيبُ ممَّنْ يَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ

يَعْبُدُ هؤلاءِ المشركونَ باللّهِ مِنْ دونِهِ آلهةً لا تنفعُهم؛ إذا هم عَبَدوها، ولا تضرُّهم؛ إنْ تركوا عبادتَها، ويتركونَ عبادةَ مَنْ أنعمَ عليهم هذهِ النِّعَمَ الَّتي لا كِفاءَ لأدْناها، ومَنْ قُدرتُهُ التي لا يمتنعُ عليهِ معَها شيءٌ أرادَهُ، ولا يتعذَّرُ عليهِ فعلُ شيءٍ أرادَ فعلَهُ، وكانَ الكافرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 475، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).

مُعينًا للشَّيطانِ على ربِّهِ، مُظاهِرًا لهُ على معصيتِهِ، أو المعنى: وكانَ الكافرُ على ربِّه هيِّنًا غيرَ مُلتفَتٍ إليهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

يـعـبـدونَ مِـنْ دونِ اللهِ أحجارًا لا تـنـفـعُـهـم بشيءٍ

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ واوُ الحالِ[2]، والمعنى: هذهِ قُدرةُ اللهِ القاهرةُ، معَ أنَّهم لم يَعتبِروا، ولم يُدرِكوها، والحالُ أنَّهم يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ أحجارًا أو ما يُشبِهُها، لا تنفعُهم بشيءٍ قطُّ بحيثُ يعبدونَها رجاءً، ولا تستطيعُ ضررًا لهُم، بحيثُ تكونُ العبادةُ دفعًا لهذا الضَّررِ، فهي لا حياةَ لها، وهي دونَهم، ولكنَّ الوهمَ جعلَهم يعبدونَها معَ هذهِ الحالِ[3].

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها مستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، مسوقة للشروع في تقبيح جنوح المشركين الى عبادة الأوثان[4].

غرضُ الخبرِ في الآيةِ:

التَّعجيبُ مِنْ حالِ المشركينَ

الغرضُ مِنَ الإخبارِ بقولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ التَّعجيبُ مِنِ استمرارِ المشركينَ في الشِّركِ، معَ وضوحِ الدَّلائلِ والبراهينِ الَّتي مِنْ جملتِها ما ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

عـدمُ إجـداءِ الدَّلائلِ المُقلِعةِ عنِ الشركِ مع المشركين

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ عبادتِهم الأصنامَ واستمرار ذلك، وعدمِ إجداءِ الدَّلائلِ المُقلِعةِ عنها في جانبِهم[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 284.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5301.

(4) الدرويش، إعراب القرآن: 7/ 31.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.

وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعلوا ذلكَ مرَّةً؛ لكانَ في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ؟ فيكونُ ذلكَ زيادةً في تبشيعِ عبادتِهم المذكورة[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

تدني الكفار في عبادتهم غيرَ اللهِ

قولُه ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ معناهُ: ويَعْبُدون بدلَ اللّهِ ما لا ينفعُهم ولا يضرُّهم، أو معناهُ: ويَعْبُدونَ مُتجاوِزينَ اللّهَ تعالى ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم، والتَّعبير بـ﴿دُونِ﴾ يشير إلى أنَّ كلَّ ما عبده الكفار غيرَ اللّهِ؛ فهو دون؛ للدلالة على أنَّ كلَّ آلهتِهم الَّتي يعبدونها غايةٌ في الدونيَّة والحقارة.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الإنكارِ على المشركينَ

لَمّا كانَ السّياقُ للتَّعجيبِ مِنْ عبادةِ المشركينَ ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم، والإنكارِ عليهِم في ذلكَ؛ عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾؛ لأنَّهُ مُستجمِعٌ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي يستحقُّ بها الإفرادَ بالعبادةِ، فيكونُ أنسبَ بهذا السّياقِ، والمعنى: ويَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللّهِ - المُستجمِعِ لصفاتِ العظَمةِ، بحيثُ إنَّهُ لا ضرَّ ولا نفعَ إلّا وهو بيدِهِ - ما لا ينفعُهم شيئًا، ولا يضرُّهم[2].

وبالجملةِ فالتَّعبيرُ بلفظ الجلالة يشعرُ بالمهابة، التي ينبغي أن يُخاطبَ بها الكفارُ حين لا تنفع معهم الدلائل.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالظّاهِرِ موضعَ المُضمَرِ:

زيادةُ التَّشنيعِ والتَّعجيبِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ويعبدونَ مِنْ دونِهِ ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.

﴿دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾؛ لِما في إظهارِ لفظِ الجلالةِ مِنْ زيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ على المشركينَ بعُدولِهم عن عبادةِ المُستجمعِ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، المُستحِقِّ وحدَهُ للألوهيَّةِ والعبادةِ.

وللفرقِ الواضح بين اسم الربِّ ولفظ الجلالة؛ إذ الأوَّلُ مُشعرٌ بكثرة العطايا والنِّعَم الآتية من اللّه، والثاني يشعر مع المهابة بحقوق الألوهيَّة التي ينبغي أن يؤدّيها العبدُ للّه.

دلالةُ ﴿مَا﴾ والمرادُ بها في: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ﴾:

إفـادةُ العموم في كلِّ ما يعبده المشركون

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ موصولةٌ، أي: ويعبدونَ مِنْ دونِ اللّهِ تعالى آلهةً لا شيء فيها ينفعُهم، ولا يضرُّهم، فكلُّها في ذلك سواء.

والمرادُ بـ﴿مَا﴾: الأصنامُ، أو كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللّهِ ﷻ، أي: ويعبدونَ مِنْ دونِ اللّهِ ما لا ينفعُهم إنْ عَبَدوهُ، ولا يضرُّهم إن لم يَعْبُدوهُ[1].

والتَّفسيرُ الأوَّلُ ناظرٌ إلى أنَّ الكلامَ واردٌ في حقِّ كفّارِ قريشٍ قبلَ غيرِهم، والتَّفسيرُ الثّاني ناظرٌ إلى العُمومِ في ﴿مَا﴾، والخلافُ يسيرٌ؛ لأنَّ العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الـدّلالـةُ على استمرارِ انتفاءِ النَّفعِ والضَّرِّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ النَّفعِ والضَّرِّ مِنْ آلهةِ المشركينَ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّد الاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ تجدُّد الانتفاءِ واستمراره، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إظهارِ عَجْزِ هذهِ الآلهة.

علَّةُ تكرارِ (لا) في: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾:

كُرِّرَتْ (لا) في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ لتأكيدِ النَّفي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 226.

الاحـــتراسُ من فهْمِ غيرِ المراد

المستفادِ مِنْ ﴿لَا﴾ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾، وفي ذلكَ مبالغةٌ في نفيِ النَّفعِ والضَّرِّ عن آلهةِ المشركينَ، وهو ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ مقامَ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ والتَّعجيبِ.

أو للدَّلالة على أنَّهم لا يملكون النفع والضُّرَّ منفردَين، ولا يملكونهما مجتمعَين، ولأنَّ في حذفها إيهامًا بنفيِ النَّفع وإثبات الضُّرِّ.

براعةُ نفيِ الضُّرِّ بعدَ نفيِ النَّفعِ:

التَّـنبيـهُ على انـتـفـاءِ شُبْهةِ عَبَدَةِ الأصنامِ

نفيُ الضُّرِّ بعدَ نفيِ النَّفعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ للتَّنبيهِ على انتفاءِ شُبْهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِرْكِهم؛ لأنَّ موجِبَ العبادة إمّا رجاءُ النَّفعِ، وإمّا اتِّقاءُ ضَرِّ المعبودِ، وكلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمشاهدةِ[1].

بلاغةُ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ النَّفعِ والضُّرِّ في الذِّكرِ:

تـمـكـينُ عـجـزِ الأصنامِ في نفسِ المشركين

في الجمعِ بينَ النَّفعِ والضُّرِّ المنفيَّينِ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ رعايةٌ للطِّباقِ بينَهما؛ ليرى المُخاطَبُ صورتينِ متقابلتينِ: إحداهما عدمُ النَّفعِ، والأخرى عدمُ الضُّرِّ، فيتمكَّنَ في نفسِهِ عَجْزُ الأصنامِ.

علَّةُ تقديمِ نفيِ النَّفعِ على نفيِ الضُّرِّ:

رجـاءُ الإحسانِ يـوجِـبُ الإقـبـالَ على المُحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ

لمّا كانَ السّياقُ لتعدادِ نعمِه سبحانَهُ، وكانَ الحاملُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكانَ رجاءُ الإحسانِ يوجِبُ الإقبالَ على المُحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ، والخوفُ يوجِبُ الإقبالَ ظاهرًا فقطْ؛ قُدِّمَ نفيُ النَّفعِ على نفيِ الضُّرِّ، فقيلَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.

سرُّ الإتيانِ بالاستئناف:

إفادةُ التَّعليل

جملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ استئنافيَّةٌ، لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، واقعة موقعَ التَّعليل لما سبق والجارية مجرى المثل، أو الإيجاز المُثبت للحُكم، أمّا الأول؛ فعلى معنى: (وكان الكافر عند ربِّه ذليلًا مهينًا)، وأمّا الثاني؛ فعلى معنى أنَّ الكفّار يُظاهر بعضهم بعضًا، أو يظاهرون الشيطان في مواجهة دينِ اللّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ﴾:

الـدَّلالـةُ علـى الـدَّوامِ والاستمرارِ

﴿وَكَانَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ هي الَّتي للدَّوامِ قبلُ وبعدُ، لا أنَّها تُعطي مُضيًّا فقط، وجعلُ الخبرِ عنِ الكافرِ خبرًا لـ (كانَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَهُ بالخبرِ أمرٌ مُتقرِّرٌ معتادٌ مِنْ كلِّ كافرٍ[1]، لا ينفكُّ عنه أبدًا؛ لأنَّ هذه الصفة كالأمور الجبليَّة التي تفيد (كان) معها الدَّوام والاستمرار.

دلالةُ التعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

جميعُ الكفارِ يُظاهر بعضهم بعضًا

عرَّف النظم الكريم بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ وهي للجنس، أي: إنَّ جنس الكفار يتَّصف بهذه الصفة، أو للعهدِ، والمرادُ بالكافرِ: أبو جهلٍ؛ لأنَّ الآيةَ نزلَتْ فيه، أو للاستغراق المفيد لعموم الأفراد.

والمعنى: أنَّ كل الكافرينَ يُظاهِرُ بعضُهم بعضًا على إطفاءِ نورِ دينِ اللّهِ[2]، وأنَّ كلَّ كافرٍ على ربِّه ظهيرٌ[3]، والأولى حملُهُ على العُموم على كلِّ الأوجه؛ لأنَّ خُصوصَ السَّببِ لا يقدحُ في عُموم اللَّفظِ، ولأنَّهُ أوفقُ بظاهرِ قولِه سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]؛ فقد عُبِّرَ فيهِ بضميرِ الجمعِ، ولأنَّ استغراقَ المفردِ أشملُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 57.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 287.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 476.

بلاغةُ الإتيان بالظّاهرِ موضعَ المُضمَر:

التَّسجيلُ على كفرِهم وبيانُ أنَّهُ علَّةُ الحُكمِ

إنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ للعُمومِ - كما هو الرّاجحُ - فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (وكانوا)؛ لتقدُّمِ ذكرِهم في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾؛ لنَعْيِ كُفرِهم عليهم(1)، وبيانِ الوصفِ الحاملِ لهُم على ما لا يفعلُه عاقلٌ(2).

نكتةُ الإتيانِ بـ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ مفردًا:

عجزُ الكافرِ يجعله منفردًا وإن كانوا جماعة

عُبِّرَ بالإفرادِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾، ولم يقل: (وكانَ الكفّارُ) بالجمعِ؛ لإفادةِ الإفرادِ تحقيرَهم والاستهانة بجمعهم، أي: وكانَ الكافرُ معَ علمِهِ بضَعْفِه وعَجْزِهِ على ربِّهِ ظهيرًا(3)، أو أنَّ استغراقَ المفردِ أشملُ(4).

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الكافرَ مُتعالٍ مُستكبِرٌ

التَّعبيرُ بـ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ دالٌّ على أنَّ الكافرَ - وإنْ كانَ مَهينًا في نفسِه حقيرًا - فاعلٌ فعلَ العالي على الشَّيءِ القويِّ الغالبِ لهُ، المُعينِ عليهِ؛ وذلكَ لأنَّهُ يجعلُ لِما يعبدُهُ مِنَ الأوثانِ نصيبًا ممّا تفرَّدَ اللّهُ بخلقِه، ويعاندُ أولياءَ اللّهِ مِنَ الأنبياءِ وغيرِهم، وينصبُ لهم المكايدَ والحروبَ، ويُؤذيهم بالقولِ والفعلِ، معَ عِلمِه بأنَّ اللّهَ معَهم، فكانَ هذا فعلَ مَنْ لا يعبأُ بالشَّيءِ، والكلامُ في الحقيقةِ تهكُّمٌ بالكفّارِ؛ لأنَّهم يفعلونَ ما يلزمُ عليهِ هذا اللّازمُ الَّذي لا يدورُ في خَلَدِ عاقلٍ(5).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410 - 411.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة على ﴿ظَهِيرًا﴾:

تعجيلُ مَدارِ الذَّمِّ والتَّقبيحِ

لمّا كانَ الكافرُ لا يمكنُ أنْ يُصافيَ مُسلمًا ما دامَ كافرًا، وكانَتْ مصافاتُهُ لغيرِهِ حاصلةً إمّا بالفعلِ أو بالقوَّة؛ عُدَّتْ مصارمتُهُ لغيرِهِ عدمًا، فكانَتْ مصارمتُهُ خاصَّةً بأولياءِ اللّهِ، وكانَ ذلكَ أشدَّ لذمِّه، وقد دُلَّ على ذلكَ بتقديمِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على قولِهِ: ﴿ظَهِيرًا﴾[1].

أو لمّا كانَ المقامُ لتقبيحِ فعلِ الكافرِ والتَّعجيبِ منهُ؛ قُدِّمَ ما هو مَدارُ الذَّمِّ والتَّقبيحِ، وهو وقوعُ المظاهرةِ على ربِّه، فقيلَ: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تقديمِ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ وتأخيرِ ﴿ظَهِيرًا﴾ رِعايةً للفاصلةِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

التَّعريضُ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَوْلاهُ

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ للتَّعريضِ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَوْلاهُ[3]، أي: وكانَ الكافرُ على ربِّهِ المُحسنِ إليهِ ظهيرًا[4].

وفيهِ إشارةٌ إلى تعامي الكافرِ عنِ الدَّلائلِ، أي: وكانَ الكافرُ على ربِّهِ - الَّذي ذُكِرَتْ آثارُ ربوبيَّتِهِ ﷻ - ظهيرًا[5].

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿ظَهِيرًا﴾:

الظَّهيرُ هو المُعينُ أوِ المطروحُ

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ فيهِ تأويلانِ:

أحدُهما: أنَّ الظَّهيرَ هو المُعينُ، فتكونُ الآيةُ بمعنى توبيخِ الكفارِ؛ لأنَّهم يُعينونَ على ربِّهم غيرَهم مِنَ الكفرةِ، ويُعينونَ الشَّيطانَ بأنْ يُطيعوهُ، ويُظاهروهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 57.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.

والثّاني: أنْ يكونَ الظَّهيرُ (فعيلًا) مِنْ قولِكَ: ظَهَرْتُ الشَّيءَ؛ إذا طرحتَهُ وراءَ ظَهْرِكَ، واتَّخَذْتَهُ ظِهْرِيًّا، فيكون معنى الآيةِ احتقارَ الكفرةِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ) في: ﴿ظَهِيرًا﴾:

المبالغةُ في اتِّصافِ الكافرِ بالمظاهرةِ على ربِّهِ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ للمبالغةِ في اتِّصافِ الكافرِ بالمظاهرةِ على ربِّهِ جلَّ وعزَّ، وفي ذلك مزيدُ مناسبةٍ لمقامِ الإنكارِ والتَّوبيخِ، وفي ذلك أيضًا تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فمِن حيثُ اللفظُ كلاهما مفرد في الظاهر، ومن حيث المعنى فكلاهما يفيد الكثرة أو العموم، فالأوَّل يفيد العموم بالاستغراق أو الجنس أو القياس على العهد، والثاني يفيد الكثرة بدلالة الصيغة (فعيل)؛ إذ تدلُّ على القليل والكثير.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآيةِ:

تأكيدُ الجملةِ معنى الكلامِ الَّذي قبلَها

جملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تذييلٌ لِما يتضمَّنُ الكلامُ السّابقُ مِنَ المعنى على التَّقديرينِ في معنى الظَّهيرِ.

فعلى الأوَّلِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إخبارٌ عنِ استعظامِ ما ارتكبوهُ مِنْ عبادةِ غيرِ اللّهِ، ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بأنَّ عادةَ الكافرِ أنْ يُظاهِرَ الشَّيطانَ.

وعلى الثّاني: الكلامُ نعَى عليهم سوءَ أفعالِهم، وأنَّهم ممَّنْ لا يُلتفَتُ إليهم، ولا إلى صنيعِهِم؛ لأنَّهم يعبدونَ مِنْ دونِ اللّهِ ما لا ينفعُ، ولا يضرُّ، وفيهِ شائبةٌ مِنَ الإنكارِ، ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بأنَّ الكافرَ على ربِّه هيِّنٌ مَهينٌ[2].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 215.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 267.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ [الفرقان: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

وصفُ هداية البشيرِ النَّذير المُرسلَةِ، بعد ادِّعاءات أَهْلِ الكُفْرِ الباطلةِ

لَمّا ذكَر اللهُ تعالى حالَ الكُفّارِ واستِمرارَهُم عَلى عبادَةِ ما لا يَضُرُّهم، ولا يَنْفَعُهم، في قولِهِ سُبحانَه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ [الفرقان: 55]؛ أعقبَهُ ببَيانِ ما يدُلُّ على استِمرارِهِم عَلى تَكْذيبِهم بنُبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وادِّعاؤُهم أنَّ ما جاءَ بهِ محضُ الإفْكِ، أو أساطيرُ الأوَّلين، أو أنَّه سِحْرٌ، فأبطَلَ اللهُ ﷻ دَعاويهم كلَّها، وذلك بوصْفِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه مُرْسَلٌ من الله تَعالى عَلى وجْهِ البِشارَةِ والنِّذارة، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1]، أي: لم نُرْسِلْك - يا محمَّد - إلّا لتبشِّر أهل الطّاعة بالجنَّة، وتنذر أهل المعصية بالنّار[2]، أو أنَّ المَعْنى: وما أرسلناكَ إلّا مبشِّرًا للمُؤمنين، ونذيرًا للكافرينَ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَشِّرٗا﴾: (بشر) تدُلُّ تصاريفُها على ظُهور الشَّيء، مَعَ حُسْن وجَمال[4]، والبِشارةُ - بكَسْرِ الباء - هي كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغيَّر بَشرةُ الوجه بِهِ، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهب بعضُ أهلِ العِلْم إلى أنَّ البِشارة هيَ الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُهُ في غيرِهِ من بابِ التَّهَكُّم[5]، والبِشْرُ - بالكسر - الطَّلاقَةُ، والبَشيرُ: المُبَشِّرُ[6]، ومنَ المجازِ: المبشِّرات،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 57.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5242.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 544.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(5) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 78.
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (البشر).

وهيَ الرّياح التي تهبُّ بالسَّحاب، وتبشِّر بالغيث[1]، والمُبَشِّر في قولهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في الخَيْر.

2) ﴿وَنَذِيرٗا﴾: (نذر) تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى التَّخويفِ[2]، ومِنْهُ الإنْذار، وهو الإبلاغُ معَ التَّخويف والتَّهْديد[3]، ويُقال: تَناذَرَ القومُ؛ إذا خَوَّفَ بعضُهم بعضًا[4]، ويُقال: فلانٌ نذير القوم ومُنْذِرُهم، وهم نذر القوم، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك: 17]، أيْ: إنذاري، وقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ [القمر: 16]، أي: وإنذاراتي[5]، وبَيْنَ الإنذارِ والإعلام عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ؛ إذْ كُلُّ إنذارٍ إعلامٌ، وليس كلُّ إعلام إنذارًا[6]، وذكر القُرْطبيُّ وغيرُهُ قَيْدًا زائدًا في الإنذار، وهو كونُهُ لا يكون إلّا في تخويفٍ يتَّسعُ زمنُهُ لِلاحْتراز مِنَ المُخَوَّف، فإن لم يتَّسعْ زمَنُهُ؛ كان إشْعارًا[7]، والغرَضُ مِنَ الإنذارِ ليس مجرَّدَ الإعلامِ والتَّخويف، وإنَّما لِلحذَرِ مِنَ المُخوَّف[8]، أمّا الإنذارُ في الاستعمالِ القرآنيِّ؛ فهو بمعنى: التَّخويفِ مِنْ عذاب اللّه تعالَى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ القَصْدِ مِنْ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ

وما أَرْسَلْناكَ - أيُّها الرَّسولُ الكريم - إلّا مبشِّرًا للمُؤْمِنين بالثَّواب الجزيل، ومُنْذِرًا للكافِرين بالعِقاب الأليم[9]، والبِشارَةُ إرشاد لِما ينفَعُهم، والنِّذارة تحذيرٌ ممّا يضرُّهم، بقصْدِ

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(3) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة: (نذر)، والرَّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نذر)، والشِّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/ 273.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/ 29.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نذر).
(6) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/ 95، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (نذر).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 184، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 76.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 199.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 286، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.

هِدايَتِهم إلى المعرفة والتَّوحيد، ومَنْعِهم مِن المفاسد المُنافية له ولِطَريقهِ المُستقيم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

بيانُ حالِ النَّبيِّ ﷺ في الإرْسالِ، ودوره في المقصد والمآل

وُصِلَت هذهِ الآيةُ بالَّتي قَبْلَها، وهي قولُه تَعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ٥٥﴾ [الفرقان: 55]، لاشْتِراكِهما في الخبريَّةِ؛ إذْ كُلٌّ مِنَ الجُملتين خبريَّتان، وبينَهُما تناسبٌ لفظيٌّ، وهو اتِّفاقُهُما في الفعليَّةِ، فكانَ بينَ الجُملتَيْن عَلى هذا توسُّطٌ بينَ الكَمالَيْن.

ويجوزُ أَن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً[2]، ويكون الكلامُ بَعْدَها مستأنَفًا لتَقْريرِ حالِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه ما أُرْسِلَ إلّا لِقَصْدِ البِشارَةِ والنِّذارَة.

نُكْتَةُ إسْنادِ فِعْلِ الإرْسالِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

بِعْثَةُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ أجَلِّ النِّعَمِ على الأممِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإرسالِ إلى الضَّمير (نا) الدّال عَلى العَظَمَةِ، في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ الإرْسالِ وجَلالَةِ المُرسِل سُبْحانَهُ[3]، فإنَّ مِنْ أعظَمِ المِنَنِ وأجَلِّها إرسالَ النَّبيِّ ﷺ إلى الخَلْقِ؛ ذلك أنَّه مسكُ الختام، وتتويجُ التَّمام، وأنَّ إرسالَه كان بشارةً ونذارةً للعالمين، كما يُفْهَمُ مِن نصوص الكتاب المبين، ونسبة إرساله للنّاس من ربِّ الناس كفيلٌ بأَنْ يكونَ لَه التَّأييد الرَّبّانيُّ والحفظ الإلهيُّ الَّذي يبسط له القبولَ في الأرض، فيبلغ دينُه ما بلغ اللَّيلُ والنَّهار، وتنتفع به البشريَّة في كلِّ الأعصار والأقطار.

بَلاغَةُ التَّعْريضِ في الآيَةِ الكريمة:

لَيسَ مِنْ وظائفِ الرُّسُلِ إكْراهُ الخَليقَةِ عَلى الإيمانِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تصريحٌ

---

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 32.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 31.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 411.

بمقصودِ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلكَ تَعْرِيضٌ بألّا يَحْزَنَ ﷺ لتَكْذيبِ الكُفّار إيّاه[1]؛ لأنَّه لم يُرسَلْ بِقَصْدِ إِجْبارِ الخَليقَةِ عَلى اتِّباعه، وإنَّما وظيفَتُهُ البِشارَةُ والنِّذارَةُ، وهو ما ينسَجِمُ مع مقاصدِ الإسلام في ترك الإكراهِ على قَبولِ الدَّعوة؛ اكتفاءً بحصولِ الإقناع العقليِّ، والقبول الوجدانيِّ، حيث يتجلّى قولُ اللّهِ تعالى مُخاطِبًا رسولَهُ الأكرم ﷺ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: 21 - 22].

بَيـانُ منهج البِعْثَةِ النَّبَويَّةِ لِتَحْقيقِ المقاصد الدَّعويّة

بَلاغَةُ أسلوب القَصْرِ في الآيَةِ الكريمةِ:

في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقَد وقعَ القَصْرُ بالنَّفْي والاستِثْناء، وهو أَقْوى طُرُقِ القَصْرِ، ولِذا اخْتيرَ في كَلِمَةِ التَّوحيد (لا إلهَ إلّا اللّه).

والقَصْرُ في الآيةِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، مِن قَصْرِ المَوْصوفِ عَلى الصِّفة، فقَد قُصِرَ إرسالُ النَّبيِّ ﷺ على وصْفَي البِشارَةِ والنِّذارة، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ غيرُ حقيقيٍّ؛ لِما تقرَّر في بابِ القَصْرِ أَنَّه لا وُجودَ للقَصْرِ الحقيقيِّ في قَصْرِ المَوْصوفِ عَلى الصِّفَة، والمقصودُ بأسْلوبِ القَصْرِ في الآيةِ: الإيماءُ إلى أَنْ ليسَ المطلوبُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أَنْ يُؤْمِنَ النّاسُ جميعهم[2].

أَفْعـالُ العِبادِ دائِـرَةٌ بَيْنَ الحُسْنِ والقُبْحِ، والجزاءُ بحَسب ذلك

بديعُ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿مُبَشِّرٗا﴾ و﴿وَنَذِيرٗا﴾:

بينَ ﴿مُبَشِّرٗا﴾ و﴿وَنَذِيرٗا﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ طباقُ إيجاب، وفيهِ إيماءٌ إلى عُموم بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى الخَلْق؛ إذِ الخَليقَةُ لا تَخْلو من مُسْتَحَقٍّ للبِشارَةِ أو مُسْتَحِقٍّ للنِّذارَة، بَل حالُ العبدِ الواحدِ في نَفْسِه لا تَخْلو إمّا مِن عمَلٍ يَسْتَحِقُّ عليهِ البِشارَةَ بالثَّواب، أو عملٍ يستحقُّ عليهِ النِّذارةَ بالعَذابِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 57.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 119.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الوَصْفَيْنِ:

عُمومُ البِشارَةِ والنِّذارَةِ موفٍ بدلالة السّياق

حُذِفَ متعلِّقُ الوَصْفَيْن في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وذلكَ لإرادةِ العُمومِ؛ إذْ إنَّ حَذْفَ المُتَعَلِّقِ مُؤْذِنٌ بذلِك، والمَعْنى: وما أَرْسَلْناكَ إلّا مُبَشِّرًا لكُلِّ مُؤْمِنٍ، ونذيرًا لِكُلِّ عاصٍ[1].

نُكْتَةُ العُدولِ عَنْ (مُنْذِرًا) إلى (نَذيرًا):

الإيماءُ إلى كَثْرَةِ أَهْلِ الكُفْرِ وكثرةِ المُنْذَرين

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ عُدِلَ عن (مُنْذِرًا) إلى (نَذيرًا)، مع أنَّ لفظَ (مُنْذِرًا) أنسَبُ لِلَّفْظِ المُقابل لَهُ، وهو ﴿مُبَشِّرٗا﴾، والنُّكْتَةُ في ذلكَ أنَّ لَفْظَ ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من صيَغِ المُبالَغةِ، وفي ذلكَ إشْعارٌ بغايَةِ إصْرارِهِم عَلى ما هُم فيهِ مِنَ الانْحِرافِ والضَّلال، وفيهِ إيماءٌ أيضًا إلى كَثْرَةِ المُنْذَرين؛ إذْ إنَّ الكُفّارَ أكثَرُ مِن أهلِ الإيمانِ[2]، وكونه اقْتُصِر على صيغة المُبالغة في الإنذار، فجاء النَّظمُ القرآنيُّ (نَذيرًا) على وزن (فعيلًا)؛ لتخصيصِهِ ذلك بالكافرين؛ إذِ الكلام بهذا المعنى فيهم، والإنذارُ الكامل بهذا الملمح موجَّهٌ لَهُم بالخصوص، فذلك وجهٌ، ويجوزُ أن تكون المبالغة باعتبار المؤمنين الّذين فيهم الطّائع والعاصي؛ لشمولِ معنى النِّذارة العُصاةَ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرْسال والبَعْث:

البَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإرْسالِ، ولِكُلٍّ منهما استعمالُهُ الأثير في القرآنِ المُحْكَم

ذَكَرَ ابْنُ فورَك أَنَّهُما بِمَعْنًى[4]، وقالَ بِذَلِكَ جَماعَةٌ في سياقِ بَيانِهِم مَعْنى إِحْدى اللَّفْظَتَيْنِ، فإِنَّهُم يُفَسِّرونَها بِالأُخْرى[5]، كَقَوْلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 411، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 36.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 36.

(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 326.

(4) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 221.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 470، و19/ 293، والواحديّ، التّفسير البسيط: 2/ 542، والماورديّ، النّكت والعيون: 1/ 123، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 127، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/ 59.

ابْنِ جَريرٍ: "قَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [القمر: 19]، يَقولُ تَعالى ذِكْرُهُ: إنّا بَعَثْنا عَلى عادٍ؛ إذْ تَمادَوا في طُغْيانِهِم وكُفْرِهِم باللّهِ ريحًا صَرْصَرًا"(1).

بَلْ مِنَ العُلَماءِ مَنِ اسْتَدَلَّ عَلى مَجيءِ البَعْثِ، بِمَعْنى التَّخْلِيَةِ، بِمَجيءِ الإِرْسالِ لِذلِكَ المَعْنى(2)، فكَأَنَّهُ أَعْطى لِلبَعْثِ جَميعَ ما لِلإِرْسالِ مِنَ المَعاني.

وَفَرَّقَ بَيْنَهُما جَماعَةٌ، مِنْهُم أَبو هِلالٍ العسكريُّ، فقالَ في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يَبْعَثَ الرَّجُلُ إِلَى الآخَرِ لِحاجَةٍ تَخُصُّهُ دونَكَ، ودونَ المَبْعوثِ إِلَيْهِ، كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إِلى المَكْتَبِ، فتَقولُ: بَعَثْتُهُ، ولا تَقولُ: أَرْسَلْتُهُ؛ لِأَنَّ الإِرْسالَ لا يَكونُ إِلّا بِرِسالَةٍ، وما يَجْري مَجْراها"(3).

وَهَذا الفَرْقُ قَدْ تُشْكِلُ عَلَيْهِ آياتُ إِرْسالِ الرّياحِ، كَما هوَ ظاهِرٌ، إِلّا إِنْ قيلَ: إِنَّ إِرْسالَ الرّياحِ يَكونُ بِرِسالَةٍ يُفْهِمُها اللّهُ تَعالى إِيّاها، ويُفْهِمُها الأَرْضَ المَيِّتَةَ، ولَكِنَّ هَذا مِنَ الغَيْبِ الَّذي لا يُمكِنُ الجَراءَةُ عَلَيْهِ إِلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلمِ بينَهُما مِن وجهٍ آخَرَ، وهوَ أَنَّ الإِرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البَعْثِ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ "الإِرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلُوِّ"(4)، وفي تَفْسيرِ المَنارِ تَقْريرٌ لِلفَرْقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى، وهوَ أَنَّ البَعْثَ أَبْلَغُ مِنَ الإِرْسالِ؛ "لِأَنَّهُ يُفيدُ مَعْنى الإِثارَةِ والإِزْعاجِ إِلَى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولَم يُذْكَرْ في القُرْآنِ إِلّا في بَعْثِ المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أَيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بِعْثَةِ نَبِيِّنا وموسى خاصَّةً، وكَذا في بَعْثِ نُقَباءِ بَني إِسْرائيلَ، وبَعْثِ مَنِ انْتَقَمَ مِنْهُم، وعَذَّبَهُم، وسَباهُم حينَ أَفْسَدوا في الأَرْضِ"(5).

وَيُشْكِلُ عَلَيْهِ ذِكْرُ إِرْسالِ الرّيحِ لِلعَذابِ في مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 69]، وقَوْلِهِ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١﴾ [الذّاريات: 41]، ولَم يُسْتَعْمَلْ مَعَهُ البَعْثُ.

وَأَظْهَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ ما ذَكَرَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغَرْناطيُّ مِنْ أَنَّ الفِعْلَ (أَرْسَلَ) أَخَصُّ في

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 132.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 394.

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 289، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/ 176.

(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/ 302.

(5) رضا، تفسير المنار: 9/ 34.

بابِ الإِرْسالِ مِنَ البَعْثِ؛ "إِذْ لا يُقالُ: أَرْسَلَ، إِلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ مَعْنى الانْتِقالِ حَقيقَةً أَوْ مَجازًا، أَمّا (بعث)؛ فأَوْسَعُ؛ فإِنَّهُ يَقَعُ بِمَعْنى الإِرْسالِ، وبِمَعْنى الإِحْياءِ، ومِنْهُ: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[1].

وَبِناءً عَلَيْهِ؛ فالبَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإِرْسالِ، فيَلْتَقيانِ في مَعْنًى، ويَنْفَرِدُ البَعْثُ بِمَعْنًى آخَرَ، وإِذا جُمِعَ بَيْنَهُما بِمَعْنًى؛ يُرادُ بِهِ التَّنْويعُ في العِبارَةِ والتَّفَنُّنُ فيها.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 216.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٥٧﴾ [الفرقان: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين إرسالِ النَّبيِّ الخاتمِ والرَّدِّ على طَعْنِ أهْلِ الكُفْرِ

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تَعالى أنَّهُ ما أَرْسَلَ رَسولَهُ ﷺ إلّا على وجهِ البِشارَةِ والنِّذارة؛ بيَّن أنَّ ما يُقال لَهُم إذا طَعَنوا في هذهِ الرِّسالَةِ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾(1)، وإن كان العجب لِشَيْءٍ؛ فالعجبُ لأمرِهم، فقد بلغ بِهِم الجهلُ مَدًى طافحًا، لدرجة الإساءةِ والإيذاءِ لِمَن جاء لِنَفْعِهِم وهدايتهم، وهو الرَّسول المبشِّر بالخير العميم؛ إذا هم اسْتَجابوا له، وأطاعوا ربَّهُم، والمنذر لَهُم بالويل والثُّبور؛ إذا هم كذَّبوه، وعصَوا ربَّهم، ثمَّ هو لا يَبْغي على مُقابل ذلك أجرًا؛ لأنَّ توكُّله على اللّهِ وحدَهُ دونَ سِواه(2).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجْرٍ﴾: (أجر) تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العمَل، وجَبْر العظم الكسير، وبين هذين المَعْنَيَيْن نِظامٌ يجمعُهُما، وذلك أنَّ الأُجرة بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ مقابلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عمله(3)، والأَجْرُ: ما يعود من ثواب العمل، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلّا في النَّفْعِ دون الضُّرِّ(4)، وكان الخليلُ يقول: الأجر جزاءُ العمل، والفعل: أجَر يأجر أجْرًا، والمفعول مأجور، والأجير: المستأجَر، والإجارَة: ما أَعْطَيْتَ من أجْرٍ في عملٍ، ومِن ذلكَ: مهرُ المرأة، قال اللّه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النّساء:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 411.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 28.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (أجر).

24](1)، والأجرُ في قول اللّه تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هو الثَّوابُ الدُّنيويُّ(2).

2) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) تدلُّ اشْتِقاقاتُها على أَصْلَيْنِ كُلّيَّيْن، أحدهما: إرسالُ شيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، والآخَرُ: على امتِدادِ شَيْءٍ، فمِنَ الأوَّلِ قولُهُم: أَسْبَلْتُ السِّترَ؛ وذلكَ لانْسِدالِهِ مِن علوٍّ إلى سُفْلٍ، ومِن الآخر قولُهُم: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّي بذلك لامتدادِه(3)، وقيَّده الرّاغِبُ بالطَّريقِ الَّذي فيهِ سُهولَةٌ(4)، والسَّبيل يُذكَّر ويُؤنَّث، قال اللّهُ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: 108]، فأنَّث، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] فذكَّر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خُلوصُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ مِنْ إرادَةِ أَعْراضِ الدُّنْيا ومُبْتَغياتِها

قُل لِهَؤُلاءِ الذين أَرْسَلْتُك إِلَيْهِم: ما أَسْأَلُكُم يا قومي عَلى ما جِئْتُكُم بِهِ مِن عندِ رَبّي أَجرًا، فتقولونَ: إنَّما يَطْلُبُ هذا النَّبيُّ أموالَنا بما يَدْعونا إليه، فلا نَتْبَعُه فيه، ولا نُعْطيهِ من أموالِنا شَيْئًا، لَكِنْ مَن شاءَ مِنْكُم اتَّخذ إلى ربِّهِ سبيلًا بِإنْفاقِه من مالِه في سَبيلِه، وفيما يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ مِن الصَّدقَةِ والنَّفقَةِ في جِهادِ عَدوِّه، وغَيْرِ ذلكَ مِن سُبُلِ الخَيْرِ(5)، "فلستُ أُجْبِرُكم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنَّما هو راجع لِمَصْلَحَتِكم وسُلوكِكُم للسَّبيل الموصلة إلى ربِّكم"(6)، ولكم كامِلُ الاختيار في قَفْوِ هذا السَّبيل أو ذاكَ مع تحمُّل تبِعَةِ ذلك الاختيارِ في الآخرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 554.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(4) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (سبل).
(5) الطّبريّ، جامع البيان، 19/ 286، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 585.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الجُملَةِ عَمّا قَبلَها:

فَصْلُ الإنْشاءِ عَنِ الخَبَرِ هو الغالِبُ في كَلامِ العَرَبِ

فُصِلَت هذه الآيةُ عمّا قَبْلَها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لِما بينَ الجُملَتَيْن من كَمالِ الانْقِطاع، فإنَّ الجُملَةَ المُتَقَدِّمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ خبريَّةٌ، وجملة: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ إنشائيَّةٌ، فوجبَ الفَصْلُ عَلى ما هو الأَغْلَبُ في مِثْلِ هَذا.

ويَجوز أن تَكونَ الآيةُ فُصِلَت؛ لِكَوْنِها استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ الكُفّار قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الفرقان: 7]، فأجابَهُم اللّهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، فنشأ مِن ذَلِك سُؤالٌ، وهو: ما الَّذي يُقال لَهُم؛ إذا طَعَنوا في الرِّسالة؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾[1].

تَعْيينُ المُخاطَبِ بِـ ﴿قُلۡ﴾ ودِلالَةُ الأمرِ:

النِّكاتُ البَلاغيَّةُ تَتَواءمُ، ولا تَتَزاحَمُ

﴿قُلۡ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ فِعْلُ أمرٍ، وفاعلُهُ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره: أَنْتَ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، والمَعْنى: قُل لَهُم يا أَكْرَمَ الخَلْقِ، وأَعْدَلَهُم سبيلًا، وهَذا الأمرُ باعْتِبارِ صُدورِهِ مِنَ اللّهِ تعالى إلى نَبيِّهِ ﷺ دالٌّ على الوجوب، على ما هو الأصلُ في دِلالَةِ الأمرِ، ويُضاف إلى ذلكَ دِلالتُه عَلى الإرشادِ؛ إذِ الدِّلالاتُ البلاغيَّة تَتوارَدُ ولا تَتزاحَمُ.

دِلالَةُ النَّفْيِ بالأداة ﴿مَآ﴾:

إزالَةُ الدّاعي إلى اللهِ تَعالى مَواضِعَ التُّهْمَةِ المُحتَمَلَةِ

في إيثارِ النَّفْيِ بِـ ﴿مَآ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ دلالَةٌ عَلى إِنْشاءِ هذه المَقالَةِ مِنْهُ عَلى وجْهِ التَّأكيد[2]؛ إمعانًا في البيانِ وتأكيدًا في الاحْتِجاجِ عَلَيْهِم، بإزالَةِ ما يكونُ مَوْضِعًا لِلتُّهَمَةِ؛ وذلكَ لأنَّ في ﴿مَآ﴾ مَعْنى التَّأكيد، كَما قالَ سيبَوَيْه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 411.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4530.

"وإذا قالَ: (لقَدْ فعَلَ)؛ فإنَّ نَفْيَهُ: (ما فعَلَ)؛ لأنَّه كأنَّه قالَ: (واللّهِ لَقَدْ فعَلَ)، فقالَ: (واللّهِ ما فعَلَ)"[1]، فهي آكد في النَّفي مِنْ (لَم)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾:

دَوامُ نَفْيِ سُؤالِ الأَجْرِ عَلى الدَّعْوَةِ تمحيضٌ للتَّوكُّلِ عليهِ وحدَهُ

جاءَ التَّعْبيرُ عَنِ السُّؤال بالفِعْلِ المُضارِعِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ للدَّلالَةِ عَلى الاسْتِمرارِ والدَّوام، والمُرادُ: دوامُ النَّفْيِ واسْتِمرارُه، أيْ: أنا دائمٌ على عَدَمِ سُؤالِكُم الأَجْرَ عَلى ما أَدْعوكُم إِلَيْه، وليسَ المُراد نَفْيَ الدَّوام؛ لأنَّ هَذا يَقْتَضي أنَّه يَسْأَلُهُم الأجرَ أَحْيانًا، وهو باطِلٌ.

تَعْيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِ﴾:

عَوْدُ الضَّميرِ عَلى الإبْلاغِ المُسْتَفادِ مِنَ الإرْسالِ مبينٌ عن المراد

الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ راجِعٌ إلى تبليغ الرِّسالة، مقرونًا بالبِشارَة والنِّذارَة، وهَذا الإبلاغُ مُستَفادٌ مِنَ الإرْسالِ المَذْكورِ، في قولِه تَعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[3].

مَعْنى الحَرْفِ ﴿مِنْ﴾ ودِلالَتُه:

بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَسْأَل عَلى دَعْوَتِهِ أَجْرًا ولَو قليلًا

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يُرادُ به توكيدُ النَّفْيِ[4]؛ وذلكَ لأنَّ لفظَ ﴿أَجْرٍ﴾ نكرةٌ واقعةٌ في سياقِ النَّفْيِ ﴿مَآ﴾، فتدُلُّ على العُموم، إلّا أنَّ هذا العمومَ ظاهرٌ، وليسَ نَصًّا، ولَكِنْ لَمّا دخَلَ حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِنْ﴾؛ نَقَلَ العُمومَ مِن كَونِه ظاهرًا إلى كونِه نصًّا، فأفادَ دُخولُها أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَسْأَلِ المَدْعوّينَ أيَّ أجْرٍ كانَ - ولَو قلَّ - على دَعْوَتِه وإبْلاغِه دينَ رَبِّه سُبْحانَهُ[5].

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 412، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 62.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10481.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بينَ آيَةِ الفُرْقانِ وآيَةِ سورَةِ ص:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في تَنْويعِ التَّعْبيرِ بِما يُلائِمُ السِّياقَ

قال اللّهُ ﷻ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وقال سُبحانه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: 86]، فخُصَّت آيةُ الفُرقان بالاسْتِثْناءِ، في قولِه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ووجهُ ذلكَ: أنَّ السّياق لمّا كانَ مُتَعَلِّقًا بالنَّبيِّ ﷺ، وبما يُفيد حِرْصَهُ عَلى إرشادِ الأُمَّة إلى رَبِّها سُبْحانَهُ، رُغْمَ سُخْرية الكُفّار منهُ؛ ناسبَهُ قولُه بَعْدُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، بخلافِ ما في سورَةِ ص؛ فإنَّه تقدَّمها ذِكْرُ قِصَّةِ آدمَ عليه السلام وإبليسَ، وأفادَ ذلك أنَّ السّياق غيرُ متعلِّق بما يدُلُّ على حِرْصِ النَّبيِّ ﷺ عَلى أُمَّتِه، فكانَ الأَنْسَبُ الاكتِفاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[1].

دِلالَةُ الاسْتِثْناءِ بينَ الانْقِطاعِ والاتِّصالِ:

قَطْعُ شائِبَةِ الطَّمَعِ، وإِظْهارُ كَمالِ شَفَقَةِ النَّبيِّ ﷺ

الاستثناءُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مُنْقَطِعٌ عندَ جُمهور أهلِ التَّفْسيرِ، والمَعْنى: لَكِنْ مَن شاءَ أن يتَّخِذ سَبيلًا إلى ربِّه، بإنفاقِهِ من مالِه في سبيلِ اللّهِ تَعالى؛ فلْيَفْعَلْ، والمُرادُ بالاسْتِثْناءِ قَطْعُ شائبةِ الطَّمعِ، وإظهارٌ لغايةِ شَفَقَةِ النَّبيِّ ﷺ عَلَيْهِم[2].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الاسْتِثْناءُ مُتَّصِلًا، ويُقدَّر لَهُ مُضافٌ، والتَّقديرُ: (إلّا أجْرَ مَن شاء أن يتَّخِذ إلى ربِّه سبيلًا)، وذلكَ بأَنْ يَتَّبِعَ الدّين الصَّحيح؛ لينالَ الكَرامةَ في الدُّنْيا والآخرة[3].

وفائدةُ الاسْتِثْناءِ في الآيةِ: تأكيدٌ لنَفْيِ أن يَكونَ سائِلًا إيّاهُم

---

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 750.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 120، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 62.

أَجْرًا، وذلكَ لأنَّه استثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ محذوفٍ ما يدلُّ عليها؛ لإرادَةِ التَّعميم[1].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾:

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: (إلّا عملَ مَن شاءَ أن يتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا)، وذلك هو اتِّباعُ دينِ الإسْلام، فإنَّ هذا لَمّا كانَ إجابَةً لدعوةِ النَّبيِّ ﷺ؛ أشبَهَ الأجْرَ على تِلْكَ الدَّعْوَةِ، فكانَ ذلكَ نظيرَ قولِه تَعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2] [الشّورى: 23].

مِنْ صوَرِ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ تَعالى: بَـذْلُ المـالِ في أَوْجُهِ الخَيْرِ

وقدَّره بعضُ أهلِ العِلْم بـ: (إلّا مالَ مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا)؛ إذِ الأَجْرُ في قولِه تَعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هو المالُ، والمعنى: ما أَسْأَلُكم على تَبْليغِ الرِّسالَةِ مالًا، إلّا مالَ مَن يَتَّخِذ بإنفاقِهِ إلى ربِّه سبيلًا، أي: يتقرَّب بهِ إلى اللّهِ تعالى، ويَطْلُبُ الدَّرجة الرَّفيعةَ عِنْدَهُ[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الافْتِعالِ ﴿يَتَّخِذَ﴾:

جِهـادُ النَّفْسِ شَـرْطٌ لِسُلـوكِ سَبيـلِ الحَـقِّ الموصلة إلى اللهِ الحقِّ

في التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الافْتِعالِ ﴿يَتَّخِذَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ سلوكَ سبيلِ الحقِّ يَفْتَقِرُ إلى مجاهدَةِ النَّفْس، فعَلى العَبْدِ أن يكلِّف نفسَهُ في مخالفةِ هَواهُ؛ ليتَّبع سبيلَ اللّهِ تَعالى ودينَهُ[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتَّخِذَ﴾:

دَوامُ لُـزومِ طَريقِ الحَقِّ هو مسلك النَّجاة المحقَّق

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارعِ ﴿يَتَّخِذَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إشارَةٌ إلى الاسْتِمرارِ والدّاوم، وأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 58.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 268.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 412.

سلوكَ سبيلِ اللّهِ تعالى ودينَهُ الحقَّ يَلْزَمُ أَن يكونَ دائمًا، وأَنَّ التَّكلُّفَ في مُخالفةِ هَوى النَّفْسِ لاتِّباعِه، يَنْبَغي أَن يكونَ مُسْتَمِرًّا.

سِرُّ جَعْلِ السَّبيلِ مُتَّخذًا إلى اللهِ تَعالى:

كَـوْنُ السَّبيلِ وسيلَةً إلى إجابَتِهِ في الذي دَعاهُم إلَيْهِ في دعوتِهِ

اتِّخاذُ السَّبيلِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ هو أَخْذُهُ، وأصلُ الأخْذ: التَّناولُ باليَدِ، وأُطْلِقَ هَهنا على قَصْدِ السَّيرِ فيه، وجُعِلَ السَّبيلُ في الآيةِ إلى اللّهِ تعالى؛ لِكَوْنِه وسيلَةً إلى إجابَتِهِ في الذي دَعاهُم إلَيْهِ[1].

نُكْتَةُ اخْتيارِ اسْمِ (الرَّبِّ):

لُـزومُ رُجـوعِ العَبْدِ إلى رَبِّهِ سُبْحانَهُ؛ لافتقاره إليه باطِّرادٍ

اخْتيرَ اسمُ اللّه (الرَّبّ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، دون الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه)، بأَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إلّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّه سَبيلًا) - للإشارَةِ إلى اسْتِحْقاقِهِ السَّيْرَ إليه؛ إذِ اسْمُ اللّهِ الرَّبِّ دالٌّ على كَوْنِه خالِقًا مالِكًا مُدبِّرًا، والعَبْدُ يَلْزَمُهُ أن يَرْجِعَ إلى ربِّهِ وإلّا عُدَّ آبِقًا[2].

دِلالَةُ إضافَةِ اسْمِ اللهِ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ:

الحَثُّ على سُلوكِ سَبيلِ اللهِ سُبْحانَهُ ضمانٌ للنَّجاة

أُضيفَ اسْمُ اللّهِ تعالى (الرَّبّ) إلى الضَّمير في ﴿رَبِّهِۦ﴾، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾؛ حثًّا وإغراءً على سُلوكِ سبيلِ اللّه تعالى؛ وذلكَ لأنَّه هو ربُّ الَّذي يُريدُ السُّلوك، وإذا كانَ ربَّه؛ فهوَ حريٌّ بإكرامِهِ وإنْعامِه، فلْيَسْتَمِرَّ في هذا السُّلوك.

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

الاهْتِمامُ بِذِكْرِ غايَةِ سَبيلِ اللهِ تَعالى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ لإفادَةِ القَصْرِ؛ وذلكَ لأنَّ الجارَّ والمجرورَ حَقُّه التَّأخُّر، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخير، يُفيد الحَصْرَ والقَصْرَ، والمَعْنى: مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ سبيلًا إلى رَبِّهِ لا إلى غَيْرِه، ومفادُ السّياق: "من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 58.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 58.

شاء مِنْكُم أَنْ يتَّخذ إلى ربِّهِ طريقًا بإنْفاقِه مِن مالهِ في سبيلِ ربِّه، فتُعْطوني مِن أموالكم وما يُنفقه في ذلك، فتتَّخذوا بذلك طريقًا إلى رحمةِ ربِّكم"(1).

وفي التَّقْديمِ أيضًا مَعْنى الاهْتِمامِ بذِكْرِ غايَةِ هَذا السَّبيلِ وهو الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ.

بَراعَةُ التَّمثيلِ فِي التَّعْبيرِ باتِّخاذِ السَّبيلِ:

تَـمثيـلُ هَيئَـةِ الاقْتِـداءِ بِهَيْئَةِ مُسايَرَةِ الدَّليل

جاء التَّعْبيرُ باتِّخاذ السَّبيل في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ دون أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (إلّا مَن شاءَ أن يَتَّبِع سبيلَ ربِّه) لأنَّ في التَّركيب الَّذي آثَرَهُ القُرآنُ تَمثيلًا لهيئَةِ الاقْتِداءِ بِهَيْئَةِ مُسايرَةِ الدَّليل، تمثيلًا مُتَضَمِّنًا تشبيهَ الدّين الحقِّ بالسَّبيل، ومُحْتَويًا تشبيهَ ما يَحْصُلُ عَن سُلوكِ ذلِكَ السَّبيل مِنَ النَّجاة ببلوغِ السّائرِ إلى المَوْضِع المقصود، بخِلافِ لَفْظِ المُتابعَة، فقَد شاعَ إطلاقُه عَلى مُطْلَقِ الاقْتِداءِ، فهو غيرُ دالٍّ على هذا التَّمثيلِ(2).

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بينَ آيةِ الفُرْقان وآيَةِ المُزَّمِّل:

دِقَّــةُ الـبَـيـانِ القُرْآنيِّ في تَنْويع صيَغِ الأَفْعـالِ بِـمـا يُـلائِـمُ السّياقَ

قال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزّمّل: 19]، فخُصَّت آيةُ الفُرْقان بالفِعْلِ المُضارِع ﴿يَتَّخِذَ﴾، وخُصَّت آيةُ المُزَّمِّل بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱتَّخَذَ﴾ [المزمل: 19]، ووجهُ ذلِكَ: أنَّ آيةَ الفُرقان صُدِّرت بقولِ اللّه تَعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، فلَمّا كان قولُه: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أكثرَ تعلُّقًا بالحاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ؛ ناسبَهُ أن يَكونَ الاتِّخاذُ كَذَلِكَ، فقالَ تَعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، بخلافِ آيَةِ المُزَّمِّل، فقد صُدِّرَت بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ﴾ [المزمل: 19]،

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.

فلَمّا كان فِعْلُ الشَّرْطِ ماضيًا؛ ناسبَهُ أَن يَكونَ جوابُ الشَّرْطِ كَذَلِكَ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل: 19][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأَجْر والجَزاء والثَّواب:

الأَجْـرُ والـجَـزاءُ يُـسْـتَـعْـمَلانِ في المَنَافِعِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْــرَويَّــةِ، والـثَّـوابُ خـاصٌّ بِالأُخْرَويَّةِ

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعْنَيَيْنِ: الكِراء على العمل، وجَبْرِ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العامل بمنزلة الشَّيءِ الَّذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِه[2].

وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوع، والمرادُ به: ما يعود على الإِنْسان من جَزاء عمله[3]، وأمّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إِن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[4]، والفَرْقُ بينَها[5]: أنَّ الثَّوابَ يُستَعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دون الضُّرِّ، ويتضمَّن معنَى المعاوضةِ، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء، فهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء، مِن جهة أَنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنْيَويَّة والمنافع الأُخْرَوِيَّة.

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 750.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).
(5) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم: 46 - 48، ومحمّد ياس الدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ: 164 - 166.

السَّبيلُ والطَّريقُ:

الطَّريقُ أَعَمُّ مِنَ السَّبيلِ

السَّبيلُ: هو الطَّريقُ الَّذي فيه سهولةٌ، ويُطلق على الطَّريق المسلوكَةِ، ومِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أي: مسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ السُّلوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ [النّحل: 69]، وقولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53].

ولسهولَةِ سلوكِ السَّبيلِ وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مرادًا بها: ما يُسلَكُ لنيلِ الخيرِ، وأمّا قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النّساء: 98]، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِم من خلالِه الخلاصُ من أذى الكُفّارِ وقَهْرِهِم.

وأمّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأرجلِ، ثُمَّ استُعير لكلِّ مَسْلَكٍ يسلكه الإنسانُ، وهو لا يستلزِمُ السُّهولَةَ كالسَّبيل، والغالب في الطَّريقِ، إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أخصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّ السَّبيلَ يستلزِمُ السُّهولةَ بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزِمُها؛ فهو أعمُّ بِهَذا الاعتبارِ[1].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 313، ودوري، دقائق الفروق في البيان القرآني: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم: 281 - 284.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان: 58]

الرَّبطُ بين ابتغاء الرَّسولِ الأجرَ منَ اللهِ تَعالى والتَّوكُّل عَلَيْهِ وحده في الأُمورِ كُلِّها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانَ المقصودُ من قولِه تَعالى قبلُ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ رَدَّهُم عَن غيِّهِم وعِنادِهم، وكان ذلكَ غايَةً في الصُّعوبَةِ، وكان هَذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتَعَنِّتيهِم - وهُمُ الأكثَرُ - الَّذين تُخْشى غائِلَتُهُم؛ أَعْقَبَ اللّهُ تَعالى ذَلِكَ بِأَمرِ نَبيِّه ﷺ بإِظْهارِ العَجْزِ والاستسلام، والاعْتِمادِ في أَمرِه كُلِّه على ربِّه ﷻ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾: (وكل) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على الاعْتِمادِ في الأَمرِ، ومِنْهُ التَّوَكُّل، وهو: إِظْهارُ العَجْزِ في الأَمرِ والاعْتِماد عَلى غَيرِكَ[2]، والتَّوْكيلُ: أَن تَعْتَمِدَ عَلى غَيرِك، وتَجْعَلَهُ نائِبًا عَنْكَ[3]، ويقالُ: "وكل إليه الأمر وكولًا، وهذا موكول إليك، ووكلته إلى اللّهِ وواكلتُه، وتواكلوا، وفلان وكلٌ ووكلةٌ تكلةٌ، ومواكلٌ: ضعيف يتَّكل على غيره، وتقول: توكَّل على اللّه، ولا تتَّكل على غيره"[4]، والوكيل: اللّه ﷻ؛ لأنَّ الأمور توكَل إليه، قال تَعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمّل: 9]، والوكيل من النّاس: الَّذي يوكَّل على الشَّيء، والجمعُ: الوكلاء[5]، وحقيقَةُ التَّوَكُّل شَرْعًا: صِدْقُ اعْتِمادِ القَلْبِ عَلى اللّهِ سُبْحانَهُ، في تحصيل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 412 - 413.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).

(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (وكل).

(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وكل).

(5) الحميري، شمس العلوم: (وكل).

المَصالِح، ودَفْع المضارِّ، من أمورِ الدُّنيا والآخرة، وتَفْويضُ الأمورِ كُلِّها للّهِ تَعالى، وتحقيقُ الإيمانِ بِأَنَّهُ لا يُعْطي، ولا يَمنَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ سِواهُ[1].

2) ﴿ٱلۡحَيِّ﴾: (حيا) تدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى أَصْلَيْن: أَحَدهما: ضِدُّ المَوْت، والآخَرُ: ضدُّ الوقاحَة، فالأوَّلُ: الحياةُ، ومِنْهُ سُمّيَ المَطَرُ حيًا؛ لأنَّه سببٌ لِحَياةِ الأَرْض، ومِنَ الأَصْلِ الآخَرِ: الحَياءُ والاسْتِحْياءُ[2]، والحياةُ: ضِدُّ الموتِ، والحَيُّ: ضِدُّ الميِّت، والمَحْيا: مَفْعَلٌ مِنَ الحياةِ، تقولُ: مَحْيايَ ومَماتي، والجَمْعُ: المَحايي، وزعموا أنَّ الحيَّ بالكسر: جمع الحياة[3]، والحيُّ الَّذي لا يَموتُ: هو اللّه ﷻ، وهو من صِفات الأزَلِ، تقول: لم يزل اللّه حيًّا، ولا يزال سبحانه[4]، والحَيُّ مِن أَسْماءِ اللّهِ تَعالى: هو صاحِبُ الحَياة الكامِلَةِ المُتَضَمِّنَة لِجَميع صِفاتِ الكَمالِ، لَم تُسْبَقْ بعدَم، ولا يلحَقُها زوالٌ، ولا يَعْتَريها نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجوه[5].

3) ﴿وَسَبِّحۡ﴾: (سبح) تَدورُ تَصْريفاتُها على مَعْنَيَيْن كُلِّيَّيْن: أَحَدهُما: ضَرْبٌ مِنَ العِبادَة، والآخَرُ: ضربٌ مِنَ السَّعْي، فمِنَ الأوَّلِ: السُّبحةُ، وهي الصَّلاةُ[6]، وتَخْتَصُّ في عُرْفِ الفُقهاءِ بالنَّفْلِ مِنْها، ومِنْهُ: التَّسْبيحُ، وهو تَنْزيهُ اللّهِ سُبْحانَهُ مِن كُلِّ سوءٍ، وأَصْلُهُ مِنَ البُعْد، تقولُ العَرَبُ: سُبحانَ مِنْ كذا، أي: ما أبعدَهُ! ومِنَ الأَصْلِ الآخَرُ: السَّبحُ والسّياحَةُ، وهو العومُ في الماءِ[7]، والتَّسْبيحُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾، بِمَعْنى: التَّنْزيه[8].

4) ﴿بِذُنُوبِ﴾: (ذنب) تدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى ثلاثَةِ أُصولٍ، وهيَ: الجُرم، ومُؤَخَّر الشَّيْءِ، وضَرْبٌ مِن الحَظِّ والنَّصيب، والأَنْسَبُ لِلَفْظِ الآيةِ مِن هذهِ الثَّلاثة هو الأَصْلُ الأوَّل، ومِنْهُ الذَّنْبُ؛ وهو الجُرْمُ، يُقال: أذنَبَ يُذنِبُ، والاسْمُ مِنْهُ: الذَّنبُ[9]، والذَّنب: الإثمُ، والجمعُ ذُنوبٌ، وأذنَبَ: صار ذا ذَنْبٍ، بِمَعْنى: تحمَّله[10]، وقَد قالوا: إِنَّ هذا مِنَ الأفعال التي

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيّ).
(3) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (حيا).
(4) الحميري، شمس العلوم: (حي).
(5) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/ 165.
(6) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 50.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5305.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذنب).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ذنب).

لم يُسْمَع لها مصدَرٌ عَلى فِعْلها؛ لأنَّه لم يُسْمع إِذْنابٌ كإِكْرام، وقولُه ﷻ في مناجاة موسى ﵇: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشّعراء: 14]، عَنى به قتْلَ الرَّجل الَّذي وكزه موسى ﵇، فقضى عليه[1]، ويُسْتَعْمَلُ في كُلِّ فِعْلٍ يُسْتَوْخَمُ عُقْباه[2]، وغالبُ اسْتِعْمالاتِ الذَّنْبِ في القرآن خاصَّةٌ بِما يكونُ بَيْنَ العَبْدِ وربِّه، وهو شامِلٌ للصَّغائِرِ والكَبائِر.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بالتَّوكُّل على الحيِّ الَّذي لا يَموتُ

وتَوَكَّلْ - يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - على الَّذي له الحياةُ الدّائِمَةُ الَّتي لا مَوْتَ معَها، فثِقْ بِهِ في أَمرِ ربِّك وفوِّضْ إِلَيْه، واسْتَسْلِم لَهُ، واصْبِر عَلى ما نابَكَ فيه، واعْبُدْهُ شُكْرًا مِنْكَ لَه على ما أَنْعَم بِهِ عَلَيْكَ، وحَسْبُكَ بالحيِّ الذي لا يموتُ خابِرًا بذُنوبِ خَلْقِه، فإنَّه لا يَخْفى عليه شَيْءٌ مِنْها، وهو مُحْصٍ جميعَها عَلَيْهِم حتّى يُجازِيَهُم بِها يومَ القيامَة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

اشـتِراكُ الجُمـلَـتَيْنِ في الإِنْـشـائـيَّـةِ، واتِّحادُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ فيهما

عُطِف قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، على قولِهِ سُبْحانَهُ قَبْلُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ لاشْتِراكِهما في الإنشائيَّة؛ إذ إنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ مُصَدَّرةٌ بأسلوبِ الأَمرِ، وفيهما اتِّحادٌ في المُسْنَدِ إِلَيْه - وهو ضميرُ الخطابِ المستترُ المرادُ به النَّبيُّ ﷺ - والمَعْنى: قُلْ لَهُم ذَلِكَ، وتوكَّل على اللّهِ سُبْحانَهُ في دَعْوَتِك إِلى دينِهِ؛ إِذْ هو الَّذي يُجازيكَ عَلى دَعْوَتِكَ، ويُجازيهِم عَلى أَعْمالِهِم[4]، وفي هذا دعوة جليَّة للوثوق اليقينيِّ به، والتَّحفيز لإسناد الأمر إليه؛

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (ذنب).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ذنب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 286 - 287، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 59.

رَجاء استكفاءِ كلِّ شرٍّ، واستجلاب كلِّ نفعٍ، وذلك بتجنُّب الاتِّكال على الحيِّ الَّذي يطرأ عليهِ المَوْتُ، ويتوكَّل على الحيِّ الَّذي لا يموتُ، ولا تُصيبُه العوارِضُ الكثيرةُ قبلَ الموتِ، كالمَرَضِ والنِّسيانِ والموتِ الزُّؤام، وذكروا أنَّ بعض البررة من صالحي العلماء لمّا قرأها، وتأمَّل مضمونها؛ انْبرى قائلًا: لا يصحُّ لذي عقل وثيق وإيمان عميق أَن يَثِقَ بعدَها بمخلوقٍ، مَهْما تأنَّق وصفُه أو تنمَّق وعدُه[1].

دِلالَةُ فِعْلِ الأَمرِ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾:

إِظْهارُ العَجْزِ والاسْتِسْلامِ للهِ تَعالى في الأُمورِ كُلِّها

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فِعْلُ أَمرٍ، وفاعلهُ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره: أَنْتَ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، والمَعْنى: وتوكَّل - يا أَكْرَمَ المُرْسَلينَ - على اللّهِ تعالى وحْدَهُ، بإِظْهارِ العَجْزِ والاسْتِسْلام والاعْتِمادِ في أَمرِكَ كُلِّه، ولا سيَّما في مواجَهَتِهِم بالإِنْذارِ، وفي ردِّهم عَن غيِّهم وعِنادِهِم، أي: "أردتَ أَنْ تتوكَّل، فتوكَّل على مَنْ ينفعُكَ، ولا يتركُكَ، على مَنْ يظلُّ على العهد معكَ، لا يتخلّى عنك، على مَنْ لا يُعجزه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، هذه هي الفِطْنَة"[2]، وهَذا الأمرُ بِاعْتِبارِ صُدورِهِ مِنَ اللّهِ تَعالى إلى نَبيِّه ﷺ، هو دالٌّ على الوجوبِ، على ما هو الأصلُ في دِلالَةِ الأَمرِ، ويُضاف إلى ذلكَ دِلالتُه عَلى الإرشادِ؛ إِذْ ذَلِكَ مِمّا لا يُنافي وُجوبَ ما أُرْشِدَ إليهِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في دِلالَةِ ﴿عَلَى﴾ في السّياقِ:

كِفايَةُ اللهِ تَعالى عِبادَهُ المُتَوَكِّلينَ عَلَيْهِ ما أَهَمَّهم مِن ضَرَرٍ أَوْ خَطَرٍ

﴿عَلَى﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ حرفٌ يُفيد في أصلِ دِلالَتِه على معنى الاسْتِعْلاءِ، ومناسبَتُهُ ههنا: أَنَّ الوكيلَ لَمّا كان يَحْمِلُ عَنِ المُوَكِّلِ ثِقَلَ ما أظهرَ له عَجْزَه فيه، ويقومُ بأعبائِه، حتّى يَصير كَمَن يَحْمِلُ عَنِ الآخر أمرًا مَحْسوسًا لا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 545.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 483.

يصيرُ لَه عليهِ شيءٌ مِنْهُ أصلًا؛ جاءَ التَّعبيرُ عن هذا المَعْنى بِحَرْفِ الاسْتِعْلاء ﴿عَلَى﴾، مِن بابِ الاسْتِعارَةِ والتَّمثيلِ[1].

سِرُّ العُدولِ عَن (وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ):

لا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ على الحَيِّ الذي يَموتُ مُطْلَقًا

عَدَل البَيانُ القرآنيُّ عَن (وتوكَّل على اللّه) إلى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾؛ لِما يُفيدُه النَّظْمُ القرآنيُّ مِن تعليلِ الأَمرِ بالتَّوكُّل عليهِ، وعدمِ صِحَّة التَّوكُّل على غيرِ المُتَّصف بما ذُكِرَ مِن الحَياة والبَقاء، وذلك لأَنَّ عدَمَ صِحَّةِ التَّوَكُّل عَلى مَن لَم يَتَّصِفْ بالحَياة أَصْلًا - كالأَصْنام - ظاهِرٌ، وأمّا عدَمُ صِحَّةِ التَّوَكُّل على مَنِ اتَّصف بالحَياةِ، ولَكِنْ لَم يَتَّصِف بالبَقاءِ بِأَنْ كانَ مِمَّن يَموتُ؛ فلأَنَّ ذلكَ دَليلُ العَجْزِ والضَّعْفِ؛ إِذْ إِنَّهُ إذا ماتَ؛ ضاعَ مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ[2].

دِلالَةُ اللّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡحَيِّ﴾:

كَمالُ حَياةِ اللهِ سُبْحانَهُ

اللّامُ في ﴿ٱلۡحَيِّ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ دالَّةٌ عَلى الكمالِ، أَي: هو الحيُّ الكامِلُ في حياتِه، فهيَ حياةٌ لَم يَسْبِقْها عدَمٌ، ولا يَلْحَقُها زوالٌ، ولا يَعْتَريها نَقْصٌ بِأَيِّ وجْهٍ مِنَ الوجوهِ، وفي ذِكْرِ الوَصْفَيْنِ - ﴿ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ تعريضٌ بأهلِ الشِّرك الذين علَّقوا آمالَهُم بالأَصْنام، وهيَ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ[3].

نُكْتَةُ وصْفِ الحَيِّ بـ ﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾:

لا ضَياعَ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ ﷻ

وُصِف الحيُّ بالَّذي لا يَموتُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾؛ لأَنَّ الأَحياءَ مِنَ الخَلْقِ يموتونَ، فلَو اكْتَفى البيانُ القرآنيُّ بـ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ﴾؛ لَتوَهَّم مُتَوَهِّمٌ جوازَ التَّوكُّل على كُلِّ حَيٍّ، ولكنَّ اللّه تعالى بيَّن أَنَّ حياتَهُ ليسَتْ كَحياةِ غَيْرِه، فإِنَّ حياتَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59.

سُبْحانَهُ كامِلَةٌ دائِمَةٌ، فلا ضَياعَ لِمَن تَوَكَّل عليهِ، بِخِلافِ مَن توكَّل عَلى حيٍّ يموتُ؛ فإنَّه إذا ماتَ المُتَوَكَّلُ عليهِ؛ ضاعَ المُتَوكِّل[1].

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ التَّوَكُّل:

وُجوبُ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى مِن أُصولِ الهِدايَةِ

حُذِفَ متعلِّقُ فِعْلِ التَّوَكُّل في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لإفادَةِ العُمومِ؛ إذ إنَّ حذْفَ المُتَعَلِّق مُؤْذِنٌ بذَلِك، والمَعْنى: توكَّل عليهِ في جَميعِ أُمورِكَ، ومِنْها في الاسْتِكْفاءِ عَن شُرورِهِم، والإغْناءِ عَن أُجورِهِم، فإنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ هو الحقيقُ بأَنْ يُتوكَّل عليهِ في جَميعِ ذَلِكَ[2].

دِلالَةُ التَّسْبيحِ في الفعل ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

وُجوبُ تَنْزيهِ اللهِ تَعالى عَمّا لا يَليقُ بِهِ: مِنْ أُصولِ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ

التَّسْبيحُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾، يُراد به تَنْزيهُ اللّه تَعالى عمّا لا يليقُ بِه، وهو أَظْهَرُ معانيه، ومنها تنزيهُهُ عن صفاتِ النُّقصانِ، والثَّناء عليه بنعوتِ الكمالِ؛ طلبًا لمزيدِ الإنعامِ بالشُّكرِ على سَوابغه المغدقة، وعطاياه المجزيَة، ممّا لا ينقضي عددًا، ولا ينتهي مددًا[3].

وحَمَلَهُ بعضُ أهلِ العِلْمِ عَلى التَّسبيحِ نفسه بِالقَوْلِ، وهوقولُ: سُبْحانَ اللّهِ، وهَذا المَعْنى لا يُنافي ما تقدَّمَ، بَل إنَّ التَّسبيحَ بالقَوْلِ يواطِئُ تنزيهَ اللّهِ تَعالى عمّا لا يليقُ بِهِ عِنْدَ الصّادقِ في قولِهِ، وذهَبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ التَّسبيحَ هُنا، بِمَعْنى الصَّلاة، وهو غيرُ ظاهرٍ[4].

مَعْنى الباءِ في ﴿بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ ودِلالَتُها:

مُصاحَبَةُ التَّسْبيحِ لِلثَّناءِ عَلَيْهِ ﷻ

الباءُ في ﴿بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ تدُلُّ على المُصاحَبَة، والمَعْنى: سَبِّحْهُ تَسْبيحًا مُصاحِبًا الثَّناء عليهِ تَعالى بِما هو أَهْلُهُ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 476 - 477، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 226.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 477.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 59.

نُكْتَةُ الجمعِ بَيْنَ التَّسْبيحِ والتَّحْميدِ:

تَـنْـزيـهُ الـلـهِ تَـعـالى عَـنِ النَّقائِصِ وإِثْباتُ الكَمالاتِ لَهُ

في الجَمعِ بين التَّسبيحِ والتَّحميدِ، في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾، جمعٌ للنَّبيِّ ﷺ في هذا الأمرِ بينَ التَّخْليَةِ والتَّحلية، فالتَّخْليَةُ في التَّسبيحِ؛ لأنَّه تنزيهُ اللّهِ تعالى عمّا لا يليقُ بهِ، والتَّحْليَةُ في التَّحميدِ؛ لأنَّ فيهِ وصفَ اللّهِ تعالى بالكَمالاتِ، وقُدِّمت التَّخلية في الآيةِ؛ لأنَّ شأنَ الإصْلاحِ، أن يُبدأ بإزالَةِ النَّقائِصِ(1).

دِلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَكَفَىٰ﴾:

كِفايَةُ اللهِ تعالى عِبادَهُ: مِن لُطْفِهِ بِهِم، وعَطْفِهِ عَلَيْهِم

العَطْفُ في لفظ ﴿وَكَفَىٰ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ واقِعٌ عَلى غَيْرِ مذكورٍ، والتَّقدير: (فكَفى بهِ لَك نَصيرًا، وبذُنوب عِبادِه خَبيرًا)؛ وذلكَ لأنَّه لَمّا كانَ المُسَلَّى رُبَّما وقعَ في فِكْرِه أنَّ مَن سلّاهُ إمّا غيرُ قادرٍ على نَصْره أو غيرُ عالمٍ بجرائِم خَصْمِه، وكانَ السّياق لِلشَّكْوى مِن إعْراضِ المُبَلَّغين عنِ القُرآن الكريم وما يَلْحَقُ ذلكَ منَ الأذى؛ أشارَ بالعَطْفِ عَلى غَيْرِ مَذْكورٍ إلى أنَّ التَّقديرَ: (فَكَفى بهِ لَكَ نَصيرًا)(2).

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ الكِفايَةِ في ثَنايا الآيَةِ:

الـتَّـحْـذيـرُ مِـن مُخالَفَةِ أمرِ اللهِ تَـعـالى مَـلْـمَـحٌ مُهِمٌّ في السّياقِ

اخْتيرَ التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الكِفايَةِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ لِكَوْنِها كلمَةً يُرادُ بها المبالَغَةُ؛ إذْ هو بِمَعْنى الحَسْبِ، أي: لا تَحْتاجُ مَعَهُ إلى غَيْرِه؛ لأنَّهُ خبيرٌ بأَحْوالِهِم قادِرٌ عَلى مُجازاتِهِم، وهذا فيهِ وعيدٌ شديدٌ وتَهْديدٌ أكيدٌ، كأنَّهُ قالَ: إنْ أَقْدَمتُم عَلى مُخالَفةِ أمرِهِ؛ يَكْفيكُم عِلْمُهُ في مُجازاتِكُم بما تَسْتَحِقّونَهُ منَ العِقابِ(3).

دِلالَةُ الباءِ في شِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِهِۦ﴾:

تَأْكيدُ عِلْمِ اللهِ تَـعـالى بِـذُنـوبِ عِبادِهِ

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يُراد بها التَّأْكيدُ والتَّحْقيقُ، ففي قولِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 59.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 477.

تحقيقٌ وتأكيدٌ لِعِلْمِ اللهِ تَعالى بذُنوبِ العِبادِ، وما يَلْزَمُ ذلك مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾:

بَيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ تَعالى بأحْوالِ العِبادِ ظاهِرِها وباطِنِها

في إضافَةِ الذُّنوبِ إلى العِبادِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ دِلالَةٌ عَلى العُمومِ؛ لأنَّ الجَمعَ المُضافَ مِنَ الصِّيَغِ المُفيدَةِ العُمومَ، ويكونُ المَعْنى عمومَ عِلْمِه سُبْحانَهُ بذُنوبِ عِبادِهِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ[2]، وفي إضافَةِ العِبادِ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّهِ تَعالى - ﴿عِبَادِهِۦ﴾ عمومٌ آخَرُ، والمُرادُ: عُمومُ النّاسِ[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿خَبِيرًا﴾:

إحاطَةُ اللهِ سُبْحانَهُ بِجَميعِ ذُنوبِ العِبادِ

في التَّعبيرِ بلفظ ﴿خَبِيرًا﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى إحاطَةِ عِلْمِه سُبْحانَهُ بِجَميعِ ذُنوبِ العِباد، وذلكَ لأنَّ الخبيرَ هو العالِمُ بِبَواطِنِ الأمورِ، وإذا كانَ اللّهُ سُبْحانَهُ عالِمًا بِبَواطِنِ ذُنوبِ العِبادِ؛ فهو عالِمٌ بِظَواهِرِها مِن بابٍ أَوْلى، فكانَ في التَّعْبيرِ بـ ﴿خَبِيرًا﴾ عمومٌ آخر، يُضافُ إلى العُمومَيْنِ المُتَقَدِّمَيْنِ، المُسْتَفادَيْنِ مِنَ الإضافَةِ في قولِه تَعالى: ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾[4].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في سِياقِ الآيَةِ:

بيانُ مُجازاةِ اللهِ تَعالى عِبادَهُ عَلى ذُنوبِهِم

العِلْمُ بالذُّنوبِ المذكورُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ كِنايةٌ عَن لازِمِه، وهو أنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يُجازي العِبادَ على تِلْكَ الذُّنوبِ[5].

بَلاغَةُ التَّعْريضِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

تَسْلِيَةُ اللهِ تَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ دَليلُ تَعْظيمٍ وتَبْريزٍ

في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تعريضٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 414.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 60.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.

بِتَسْلِيَةِ النَّبيِّ ﷺ على ما يُلاقيهِ مِن أَذى المُعانِدين المُعارِضين دَعْوَتَه[1]، والمَعْنى: أنَّ اللّه تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى ذُنوبِ عِبادِه، بِحَيْثُ لا يَخْفى عليه مِنْها شَيْءٌ، فيُجازيهِم عَلَيْها، ولا عليكَ - أَيُّها النَّبيُّ الكَريمُ - إن آمَنوا، أَوْ كَفَروا[2].

دِلالَةُ الاعْتِراضِ التَّذْييليّ:

عُمومُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِذُنوبِ العِبادِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعْتِراضٌ في آخِرِ الكَلامِ، فيُفيد مَعْنى التَّذْييلِ، وهو تَذْييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لِعَدَمِ اسْتِقْلالِه بِنَفْسِه، وافْتِقارِهِ إلى غَيْرِهِ في فهْمِ تمامِ المُرادِ مِنْهُ، وهو دالٌّ على عُمومِ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بِذُنوب عبادِهِ، ومِن ذَلكَ ذُنوبُ المُشْرِكين الَّذين جاءَ الكلامُ فيهم أَصالةً[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذُّنوب والآثام:

الذَّنْبُ أَعَمُّ مِنَ الإِثْمِ

الذُّنوبُ جَمعُ ذَنْبٍ، وهوَ في اللُّغةِ: الجُرْمُ والمعصيَةُ، أمّا الآثام؛ فجمعُ: إثم، وهو في اللُّغَةِ يدلُّ على البُطْءِ والتَّأَخُّر عنِ الخَيْرِ، مِنْ قولهم: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَي: متأخِّرةٌ في سَيْرِها؛ وذلك لأنَّ صاحِبَ الإِثْمِ بطيءٌ عَنِ الخيرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ.

وقد جاءَ الذَّنْبُ في القُرآنِ الكريمِ مُفْرَدًا ومَجْموعًا، فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وقولُه سُبحانَهُ: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 11]، ومن الآخرِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وقولُهُ تَعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: 6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59 - 60.

وتدلُّ اسْتِعْمالاتُ لفظِ الذَّنْبِ في القُرآنِ الكَريمِ عَلى أنَّ الذَّنْبَ أعمُّ مِنَ الإثْمِ، والخَطيئَةِ، والسَّيِّئَة، والحوبِ ونحوها؛ لِشُموله الصَّغائرَ والكَبائِرَ، كَما يَعُمُّ كُلَّ أَمرٍ لا تُحمَدُ عقباهُ، كَما قالَ اللّهُ تَعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشّعراء: 14]، فجَعَلَ لَهُم عَلَيْهِ ذَنْبًا، أي: جِناية تُسْتَوْخَمُ عُقباها عِنْدَهُم، وغالبُ اسْتِعْمالاتِ الذَّنْبِ خاصَّةٌ بِما يكونُ بَيْنَ العَبْدِ وربِّه.

وأمّا الإثْمُ؛ فقَدْ ورَدَ في القُرآن الكَريمِ في مَواضِعَ، مِنْها: قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾ [الأحزاب: 58]، وقولُهُ جل جلاله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: 12]، وغير ذلك.

وتدلُّ استعمالاتُ لفظةِ الإثم - في القرآن الكريم - على أنَّ الإثم فِعْلٌ قبيحٌ مُتَعَمَّدٌ تنفرُ مِنْهُ النَّفْسُ، ولا يطمئنُّ إليهِ القَلْبُ، وهوَ ممّا يوجِبُ الذَّمَّ واللَّوْمَ، كما أنَّه يشمَلُ الصَّغائرَ والكبائرَ، واستعمالُها في الكبائرِ أغْلَبُ[1].

العِباد والعَبيد:

غالِبُ اسْتِعْمالِ (العِبادِ) في الطّائِعينَ للهِ تَعالى، واسْتِعْمالِ (العَبيدِ) فيما يُقابِلُ الأحْرارَ

العبادُ والعبيدُ كلاهما جمعُ عَبْدٍ، إلّا أنَّ العبادَ جَمعُ عَبْدٍ، وهوَ العابِدُ، أمّا العبيدُ؛ فهو جَمعُ عبْدٍ، وهوَ خلافُ الحُرِّ، وأمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فيَرِدُ لفظُ (العباد) للإيماءِ إلى عِبادِ اللّه الطّائعين المُخْلِصينَ لَهُ العبادَةَ غالبًا، ولذا يَنْسِبُهُم اللّهُ سُبحانَهُ إليهِ تشريفًا لَهُم، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: 42]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا

(1) محمَّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية: 31 - 41.

عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، ومِنْ غيرِ الغالِبِ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ [الإسراء: 17]، وفي هَذا إيماءٌ إلى أنَّ ذُنوبَهُم خالَفَت ما يَنْبَغي أَن يَكونوا عَلَيْهِ مِنْ سُلوكِ سَبيلِ الطّاعَةِ.

وأمّا لَفْظُ (العبيدِ)؛ فهوَ في الأصلِ دالٌّ على المُستَعْبَدينَ مِنَ النّاسِ، وهُم أقَلُّ مَرْتَبَةً مِنَ الأحرارِ في مَقاييسِ المُجْتَمَعاتِ، ولذا يُستعمل هذا الجَمعُ في القرآنِ الكريم غالبًا في مَوضع التَّحقير وتصغير الشَّأن، كما في قول اللّه تَعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ [آل عمران: 181 - 182][1].

(1) محمَّد خضر ياس الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 308 - 309.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى

بَعْدَ أَن أمَرَ اللّهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ بالتَّوكُّلِ عليه؛ لِكَوْنِه الحيَّ الَّذي لا يَموتُ؛ أَعْقَبَ ذلك بِذِكْرِ ما لَهُ مِن عظيمِ القُدْرَةِ بالملكِ والاخْتراعِ وحُسْنِ التَّدْبيرِ؛ لِيَحْسُنَ ظَنُّ المُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَ﴾: (خلق) تَدُلُّ كثيرٌ من تَصْريفاتِها عَلى تَقْديرِ الشَّيْءِ[1]، وقيَّده الرّاغِبُ بالتَّقْديرِ المُسْتَقيم، ويُسْتَعْمَلُ الخَلْقُ في إبْداعِ الشَّيْءِ مِن غيرِ أصلٍ ولا احْتِذاءٍ[2]، والمَصْدَرُ: الخَلق، وهوَ في القرآنِ الكريمِ وارِدٌ لِمعانٍ عديدةٍ، منها: إبداع الشَّيء من غيرِ مثالٍ سابقٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73]، ومنها: إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: 95]، ومنها: التَّصوير، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]، ومنها: الاختلاقُ، وهو افتعال الكذب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17][3]، والمَعْنى المُراد في قَوْلِه تَعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أنَّه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خلق).

(3) محمّد هادي الخرسان، محاضرات في علم الأخلاق: 27 - 30.

هو الَّذي أنشأ السَّماواتِ السّبعَ والأرضين، فدبَّرهنَّ وما فيهنَّ في ستَّة أطوار مختلفات[1].

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِۚ﴾: (عرش) تدلُّ اشْتِقاقاتُها على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنيٍّ، ومِن ذلكَ: العَرْشُ، وهو سريرُ المَلِكِ، ومنهُ قولُه سُبْحانَهُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]، ومنهُ قيل لكلِّ بناءٍ يُسْتَظَلُّ به: عرشٌ وعَريشٌ، وسقْفُ البيتِ: عرشٌ، ومنه قولهُ تَعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: 45][2]، والعَرْشُ الواردُ في قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾، هو عرشُ الرَّحمَنِ، وهو أَعْلى المَخْلوقاتِ وأَعْظَمُها[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما في ستَّة أيّام، ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ - أَيْ: عَلا وارْتَفَع - اسْتِواءً يَليقُ بجَلالِه وعَظَمَتِه، هو الرَّحْمَنُ، فاسْأَلْ - أيُّها النَّبيُّ الكَريمُ - بهِ خَبيرًا، يَعْني بِذلِكَ سُبْحانَهُ نَفْسَه[4].

بَيانُ جَلالِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِهِ؛ لِيَحْسُنَ ظَنُّ المُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الوَصْفِ بـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾:

إِثْبـاتُ سَعَـةِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وعِلْمِهِ

الاسْمُ المَوْصولُ ﴿ٱلَّذِي﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في محَلِّ جرٍّ صفةٌ أخرى لـ ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، مِن قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، وجيءَ بهذه الصِّفَةِ، وهيَ صفةٌ فعليَّةٌ قد تقدَّمَتْها صفةٌ ذاتيَّةٌ، وهيَ تَقْتَضي إثباتَ سعَةِ القُدْرَةِ وسَعَةِ العِلْمِ؛ إِذْ خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ، لا يكونُ إلّا عَن علمٍ مُحيطٍ، وقُدْرَةٍ تامَّة، وصاحبُ هذهِ الأَوْصافِ، حقيقٌ بأَنْ يُتَوَكَّل عليه، ويُفَوَّضَ الأمرُ إليهِ[5].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 160.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(3) البرّاك، توضيح مقاصد العقيدة الواسطية، ص: 104.
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 227، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37، والتّحرير والتّنوير: 19/ 60.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

تحقُّقُ وصفِ الخَلْقِ

جيءَ بصِلةِ المَوْصولِ فعلًا ماضيًا ﴿خَلَقَ﴾ مِنْ قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وصفِ الخَلْقِ.

دِلالَةُ جَمعِ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

السَّماواتُ: مَقرُّ المَلائِكَةِ، ومَهْبِطُ الوَحْيِ، ودَليلُ عَظَمَةِ الخالِقِ

اخْتارَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِالسَّماواتِ جَمعًا، في قولِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بها ذواتُ السَّماواتِ بأَعْدادِها الكثيرَةِ، والسَّماواتُ هيَ مَقَرُّ الملائكَةِ، ومَحَلُّ دارِ الجزاءِ، ومَهْبطُ المَلائِكَةِ والوَحيِ، بِخِلافِ ما إذا أُريدَ جِهَةُ العلوِّ؛ فإنَّها تَرِدُ مُفْرَدَةً[1].

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

إفادَةُ عُمومِ جِنْسِ البِقاعِ المُنْدَرِجَةِ في لَفْظِ الأَرْضِ

(أل) في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الأرضونَ السَّبْعُ كُلُّها.

دِلالَةُ (ما) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

كُلُّ ما في الكَوْنِ خَلَقَهُ اللهُ تَعالى، وهوَ دالٌّ عَلى عَظَمَةِ الصُّنْعِ والصّانِعِ

(ما) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ اسمٌ موصولٌ، أَي: خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ والَّذي بَيْنَهُما، وفي التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ دلالَةٌ عَلى العُموم، أي: إنَّهُ سُبْحانَهُ خلقَ السَّماواتِ والأَرْضَ وجميعَ الذي بَيْنَهُما.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾:

بَيانُ كَوْنِ المَقْصودِ بالتَّثْنِيَةِ: الصِّنْفَيْنِ والنَّوْعَيْنِ

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ دون (بَيْنَهُنَّ)، لأَنَّ السَّماواتِ جمعٌ؛ وذلكَ لأنَّ المَقْصودَ بِالتَّثنيَةِ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ الصِّنفانِ والنَّوعانِ والشَّيْئانِ[2].

---

(1) عبد الفتّاح لاشين، صفاء الكلمة: 121 - 122.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 63.

تَعليمُ العِبادِ الصَّبْرَ والأَناةَ في الدَّعْوَةِ إلى اللهِ تَعالى

دِلالَةُ التَّنْصيصِ عَلى الأَيّامِ السِّتَّةِ:

في التَّنصيصِ عَلى الأيّامِ السِّتَّةِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تعجيبٌ لِلجاهِلِ، وتَدْريبٌ للعالم في الحِلم والأناةِ والصَّبْرِ عَلى العِباد في دَعْوَتِهم إلى اللّهِ تَعالى(1).

دِقَّـــةُ الـبَـيـانِ الـــقُـــرْآنيّ في الـــتَّـــصَــرُّفِ بِالأَلْفاظِ زِيادَةً وحَذْفًا بما يُلائِمُ السّياقَ

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ بَيْنَ آيَةِ الفُرْقانِ وآيَةِ الحَديدِ:

قال اللّهُ سُبْحانَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وقال اللّهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: 4]، فخُصَّت آيةُ الفُرْقانِ بالاسْم المَوْصولِ وآيَةُ الحَديدِ بالضَّمير، ولم يُذْكَر في آيةِ الحَديدِ (وما بَيْنَهُما).

ووجهُ ذلكَ: أنَّ آية الفُرْقانِ تقدَّمها قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فلَمّا كان ما سَيَأْتي في مَوْضِع نَعْتٍ لـ ﴿ٱلْحَىِّ﴾، وكان السّياق متعلِّقًا بأهلِ الشِّرْك، كَما يدُلُّ لذلك قولُه تَعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: 55]؛ ناسبَهُ قولُه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾، بخلافِ آيَةِ سورَةِ الحَديدِ؛ فإنَّه تقدَّمها قولُه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: 3]، فلَمّا كان السّياق قائمًا على ذِكْرِ الضَّمير (هو)، ومُتَعَلِّقًا بالسَّماوات والأَرْضِ، كَما يَدُلُّ لِذَلِك قولُه تَعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الحديد: 1]؛ ناسبَهُ ذِكْرُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ [الحديد: 4]، وعَدَمُ ذِكْرِ (وما بَيْنَهُما)، فقالَ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: 4](2).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 414.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 750.

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

رَحْمَةُ اللهِ سُبْحانَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، ووَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

اختير اسمُ اللّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لِنُكْتَتَيْن[1]:

إحْداهُما: أنَّ اللّه تَعالى لَمّا ذكَر عِلْمَهُ وإحاطَتَهُ بِذُنوبِ العِباد، في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، وكان ذلكَ قَد يُشْعِرُ بِتَعْجيلِ العُقوبَةِ لِمَن يَعْصيه، وعَدمِ إمهالِهم؛ أشارَ إلى أنَّه على خِلاف ذَلكَ، وهو أنَّهُ سُبْحانَهُ يُمهِلُ العبادَ، وأنَّ رحمتَهُ سَبَقَت غَضَبَهُ.

والأُخْرى: أنَّ وصْفَ الرَّحمَن أهَمُّ في الغَرَضِ الذي سيقَ الكلامُ لَهُ، وهو الأَمرُ بالتَّوَكُّل عليه؛ وذلكَ لأنَّ الرَّحمةَ وصْفٌ يَقْتَضي تَدْبيرَ اللّه تعالى لأمورِ مَن تَوَكَّل عليه، بِقَويِّ الإسعافِ.

مَوْقِعُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِنَ الإعْرابِ، وأَثَرُهُ في المَعْنى:

أَثَرُ الإعْرابِ في تَكْثيرِ المَعاني وإبْرازِ بَلاغَةِ السّياقِ

في وجهِ رَفْعِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ ثلاثَةُ أوجهٍ[2]:

أَحَدُها: أن يكونَ بَدَلًا مِنَ الضَّمير في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وهو بدَلٌ مُطابِقٌ، والقَصْدُ مِن ذلكَ الإيضاحُ.

ثانيها: أن يكونَ مَرْفوعًا عَلى أنَّه خبرٌ لِمُبْتَدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (هو الرَّحمن)، والغَرَضُ مِن ذَلِكَ: المَدْحُ، ويكونُ هَذا مِن بابِ حَذْفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ، وهو أسلوبٌ شائعٌ في الاسْتِعْمالِ، إذا تقدَّمت أخبارٌ أو أوصافٌ لصاحِبِها.

ثالِثُها: أن يكونَ مَرْفوعًا بِالابْتِداءِ، والخَبَرُ هو الجُملَةُ بعدَهُ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر، 13/ 415، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 60.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 64، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 227، والآلوسيّ، روح المعاني، 10/ 38، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 60.

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾:

الفاءُ في لفظ ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ فصيحةٌ؛ أفْصَحَت عَن شَرْطٍ مقدَّر، والتَّقدير: (إذا أدرتَ أن تَعْرِفَ ذلك؛ فاسأَلْ به خَبيرًا، أو إن شِئْتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تَفْصيل ما تَقَدَّم؛ فاسأل مُعْتَنيًا بهِ خَبيرًا عظيمَ الشَّأن مُحيطًا بِظَواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، وهو اللّه سُبْحانَهُ؛ يُطْلِعُكَ على حقيقةِ الأَمرِ)[1].

العِـلْـمُ لازمٌ لِلخَلْقِ والمُلْكِ

ويجوزُ أَن تكونَ الفاءُ سَبَبِيَّةً، وذلك لأنَّ العِلْمَ لازمٌ للخَلْقِ والمُلْك، فلمّا ذكَر الخَلْقَ والمُلْكَ في قولِه تَعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾؛ ذَكَرَ لازِمَهُما، وهو العلمُ ورتَّبه عليهما، فقالَ تَعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[2].

تَعْيينُ المُخاطَبِ بِلفظ ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾:

العِلْمُ واليَقينُ مَراتِبُ ودَرَجاتٌ، ومَـــنِ ازْدادَ عِـلْـمًا؛ ازْدادَ يَقينًا

ظاهِرُ الخِطاب في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ أنَّه موجَّهٌ للنَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ المرادَ غيرُهُ[3]، وهذا بناءً على أنَّ الباعثَ على السُّؤال هو الشَّكُّ، والنَّبيُّ ﷺ لا يَقَعُ في قلبِه شَكٌّ فيما أخبرَ اللّه تعالى به، فكان المرادُ غيرَهُ، وتكونُ هذهِ الآيةُ كقولِه تَعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس: 94].

أمّا إذا كانَ الباعِثُ على السُّؤال، زيادةَ التَّحقُّق؛ فلا مانِعَ مِن إرادَةِ عُمومِ المُخاطَبين، لأنَّ العلمَ مراتِبُ ودرجاتٌ، ولا يُنافي السُّؤال أن يكون ثَمَّة يقينٌ سابقٌ بِمَضْمونِ الجَوابِ، فيَزداد السّائلُ بسُؤالِه يقينًا.

دِلالَةُ حَرْفِ (الباءِ) في ﴿بِهِۦ﴾:

تَـعَـدُّدُ المَـعـاني القُرْآنيَّةِ بِتَعَدُّدِ مَعاني الحُروفِ: مِـــنْ بَـــلاغَـــةِ السّياقِ

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ تحتملُ أن تكون بمعنى (عَنْ)، والمعنى: فاسأل عنهُ خبيرًا، فيكون نظيرَ قولِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 38، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5307.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 415.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 344، والبغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 91.

اللّٰه تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾[1] [المعارج: 1]، واختار ابنُ جَرير أن تكونَ صلةً، والمَعْنى: فسَلْهُ خبيرًا، ويكون لفظ ﴿خَبِيرٗا﴾ حالًا[2].

ويَجوز أن تكونَ الباءُ تجريديَّةً، وذلك كقولِ العرَبِ: (لو لقيتَ فُلانًا؛ لقيتَ بِهِ البحرَ كرمًا)، أي: لقيتَ مِنْهُ[3]، والمرادُ بالخبيرِ: اللّٰهُ سُبْحانَهُ؛ لأنَّه لا يعلم تفاصيلَ تلك المخلوقاتِ إلّا هو، وقيل: جبريلُ عليه السلام: والأوَّلُ أَوْلى[4].

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى ﴿خَبِيرٗا﴾:

الاهْتِمامُ بِالمُقَدَّمِ مُفْضٍ إلى المَعْنى المُرادِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ عَلى ﴿خَبِيرٗا﴾، من قول اللّٰهِ تَعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾؛ لإرادَةِ الاهْتِمام بالمقدَّم، ورعايةً للتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لِرُؤوسِ الآيِ[5]، وحيثُ إنَّ الغايَةَ هي التَّعريف بالرَّحمن، فقد قدَّم الضَّمير العائد عليه، لإبْرازِ صِفَةِ الرَّحمانيَّةِ من خَبيرٍ بِها، عارفٍ بِعَوارِفها، ومناطُ ذلك راجِعٌ إلى الدَّلالة "على أنَّ في رحمتِهِ مِنَ العظمة والشُّمولِ ما لا تَفي فيهِ العبارَةُ، فيعدل عَن زيادَةِ التَّوصيف إلى الحوالة عَلى عليم بِتَصاريفِ رَحْمَتِه، مجرِّب لها، متلقٍّ أحاديثَها ممَّن عَلِمَها وجرَّبها"[6].

بَلاغَةُ التَّجْريدِ في سِياقِ الآيَةِ المَجيدِ:

المُبالَغَةُ في وصْفِ الخبْرِ

يَجوزُ أَنْ تَكونَ الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ مِن قولِ اللّٰه سُبْحانَهُ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ تجريديَّةً، فيكونُ في الآيةِ أسلوبُ التَّجريد، كالَّذي في قَوْلِهِم: (رأيتُ بِهِ أَسَدًا)، أي: رأيتُ بِرُؤْيَتِهِ أسدًا، وقولِهم: (إِنْ سأَلْتَ فُلانًا؛ لتَسْأَلَنَّ به البَحْرَ)، ومَعْنى الآيةِ على هذا: فاسْأَل بسُؤالِه خبيرًا، أي: إِن سَأَلْتَهُ؛ وجدتَهُ خَبيرًا[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 478، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 61.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 287.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 216.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 340.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 61.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 61.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 38.

بَراعَةُ التَّجاذُبِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

تَكْثيرُ المَعاني القُرْآنيَّةِ وإثْراؤُها

الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ متعلِّقان بالسُّؤال، ويجوز تعَلُّقهما بـ ﴿خَبِيرٗا﴾، أي: اسْأَلْ عَن ذلكَ خبيرًا بِهِ، ولا تنافيَ بَيْنَهُما، بل يَصِحُّ تنازُعُهُما فيه، وبناءً على هذا ففي الآيةِ أسلوبُ المُتَجاذِبِ، وحقيقتُهُ: أن يكونَ اللَّفْظُ واحِدًا بينَ جُملتَيْنِ، يَصِحُّ جعلُه مِنَ الأولى والثّانيةِ، وفائدتُهُ: تكثيرُ المعاني وإثْراؤُها[1].

دِلالَةُ تَنْكيرِ ﴿خَبِيرٗا﴾:

إفادَةُ العُمومِ في كُلِّ خَبيرٍ، مَعَ تَعْظيمِ شَأْنِ الخَبيرِ الأَعْلى سُبْحانَهُ

نُكِّر لفظ ﴿خَبِيرٗا﴾ مِن قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ لإفادةِ العموم، فلا يُظَنُّ خبيرًا بعينِه؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا تَعَلَّق بها فعل الأمرِ؛ اقْتضَت عمومًا، بدليلِ أيِّ خبيرٍ سألْتَهُ؛ فإنَّه سيُعْلِمُك[2].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيم؛ إذا أُريد بالخبيرِ: اللّهُ تعالى.

بَلاغَةُ التَّمثيلِ في ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾:

عُلُوُّ البَيانِ القُرْآنيِّ عَلى كُلِّ كَلامٍ آخَرَ مَهْما كانَ بَليغًا

قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، يَجْري مَجْرى المَثَلِ، وهو نظيرُ قولِ العَرَب: (عَلى الخَبيرِ سَقَطْتَ)، يقولُ ذلكَ العارفُ بالشَّيْءِ؛ إذا سُئِلَ عَنْهُ، وهذا المَثَلُ مَعَ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ مُتَساويانِ في الحُروف المَنْطوق بها - وإنِ اخْتَلَفا في عدَدِ الحُروفِ، باعْتبارِ صورَةِ المَكْتوبِ - ولَكِنَّ المَثَلَ القُرآنيَّ أفصَحُ وأبلَغُ مِن ثلاثَةِ أَوْجُهٍ[3]:

أحدها: سَلامتُهُ مِنَ الثِّقل الحاصِل بِتَلاقي القافِ والطّاء والتّاء، في قولِ العَرَبِ: (سَقَطْتَ).

ثانيها: كونُهُ أشرَفَ مِن جِهَةِ سلامَتِه مِن مَعْنى السُّقوطِ.

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 433.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 61.

ثالثُها: هو أبلغُ في المَعْنى؛ لِما فيهِ مِن عُموم كُلِّ خبيرٍ في قولِ بعضِ أَهْلِ العِلْمِ - بِخِلافِ قَوْلِ العرَبِ: (عَلى الخَبير سَقَطْتَ)؛ فإنَّ مرادَ المتكلِّمِ نفسُهُ لا العمومُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخُبْر والعِلْم:

الخُبْرُ أَخَصُّ مُطْلَقًا مِنَ العِلْمِ

العلاقَةُ بينَ الخُبْر والعِلْم علاقَةُ عموم وخصوص مُطْلَق؛ وذلكَ أنَّ العلمَ أعَمُّ مُطْلَقًا مِنَ الخُبْر، ووجهُ ذلكَ أَنَّ حقيقةَ الخُبْرِ العلمُ بكُنْهِ المَعْلوماتِ عَلى حقائِقِها، ففيهِ مَعْنًى زائِدٌ على العِلْمِ[1]، ولذا قالوا في معنى اسْمِ اللّهِ تَعالى (الخَبير): إنَّه العالِمُ بِبَواطِنِ الأمورِ، وأمّا العلمُ؛ فهو أَشْمَلُ وأعَمُّ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 93.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ۝٦٠﴾ [الفرقان: 60]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُناسَبةُ بينَ نِعَمِ اللهِ تَعالى، وبَيْنَ ما أَظْهَرَهُ الكُفّارُ مِن نُكْرانٍ وكُفْرانٍ

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى إحسانَهُ إلى العِباد وإنعامَهُ عَلَيْهِم؛ أعقبَهُ ببَيان ما أَظْهَروهُ مِنَ الكُفْر في مَوْضِع الشُّكر، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُفُورًا﴾: (نفر) تدلُّ اشتقاقاتُها عَلى مَعْنى التَّجافي والتَّباعد[2]، وأصلُ النَّفْر: الانْزِعاجُ عَن الشَّيء وإلى الشَّيْءِ[3]، والنُّفور: الشِّرادُ ابْتِعادًا عَنِ الدّاعي ونحوِه، والنّفار: هوَ الشُّرود والهروب، كنفور الدّابَّة ونفارها[4]، ومنهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شِدَّةُ عِنادِ الكُفّارِ وعِظَمُ مُكابَرَتِهِم

وإذا قيلَ لِهؤُلاءِ الذين يَعْبُدون مِن دونِ اللّهِ تعالى ما لا يَنْفَعُهم، ولا يضرُّهم: اجْعَلوا سجودَكُم للّهِ سُبحانَهُ خالِصًا دونَ الآلهة والأوثانِ؛ قالوا عَلى وجْهِ العِناد والمُكابرَة: وما الرَّحمن؟ أَنَسْجُدُ نحنُ - يا محمَّدُ - لِما تأمُرُنا أنْتَ أن نَسْجُدَ لَه؟ وزادَ هَؤُلاء المُشْركينَ قولُ القائلِ لَهُم: اسْجُدوا للرَّحمنِ فِرارًا[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (نفر).
(4) عياض بن موسى، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (نفر).
(5) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 288، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في جُملَةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

بَيانُ كُفْرِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِاسْمِ اللهِ تَعالى (الرَّحْمن)

الواوُ في ﴿وَإِذَا﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استئنافيَّةٌ[1]، فالجُملةُ بعده مُستأْنفةٌ، وردَت عَلى سبيلِ الاستِطْراد، وذلكَ أنَّه لَمّا جَرى ذِكْرُ وصْفِ اللّهِ تَعالى بالرَّحْمَن مع صِفات أُخَر؛ بيَّن كُفْرَ المُشْركين بِهَذا الوَصْفِ في اسْتِفْهامِهم اسْتِفْهامًا إنكاريًّا ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2].

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِالأداةِ ﴿وَإِذَا﴾:

تَحقُّقُ دَعْوَةِ النَّبيِّ ﷺ لِلكُفّارِ

عُلِّق الشَّرْطُ بـ (إِذا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ للدَّلالةِ عَلى الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرط، على ما هو الأَصْلُ في (إذا)، وذلكَ يَدُلُّ على تحقُّقِ دَعْوَةِ النَّبيِّ ﷺ - وغيرِه - لَهُم وأمرِهم بالسُّجودِ للّهِ سُبْحانَهُ، ولكنَّهُم قابَلوا ذلكَ بِالعِناد.

دِلالَةُ بِناءِ فِعْلِ القَوْلِ ﴿قِيلَ﴾ لِلمَفْعول:

شِدَّةُ نُفورِ الكُفّارِ مِنَ الحَقِّ؛ كانَتْ حِجابًا بَيْنَهُم وبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ

بُني الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ لِلمَفْعولِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ للإشارَةِ إلى العُموم، أي: إذا قيلَ لَهُم ذَلِكَ مِن أيِّ قائلٍ كانَ؛ كان ردُّهُم واقِعًا عَلى وجْهِ التَّكبُّرِ والجُحودِ والعِناد[3].

وفي بِناءِ الفِعْلِ للمَفْعولِ أَيْضًا إِشْعارٌ بشدَّةِ نُفورِهم مِن أصلِ تسميةِ اللّهِ سُبْحانَهُ بالرَّحْمن[4].

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ اللهِ (الرَّحْمن):

إِعْراضُ المُشْرِكينَ عَنْ أَعْظَمِ مُنْعِمٍ عَلَيْهِم: سَبَبٌ في ضَلالِهِم وهَلاكِهِم

اخْتيرَ اسمُ اللّه (الرَّحمن) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾؛ ليكونَ ذَلِكَ أدعى لِقَبولِ طاعة اللّهِ تَعالى؛ إِذِ المَعْنى: اسْجُدوا للرَّحمن الَّذي لا نِعْمَةَ لَكُم إلّا مِنْهُ، فإذا أَعْرَضوا،

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 61.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 416.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5308.

وتكبَّروا عَن ذَلِكَ، كانَ ذلك في غايَةِ البَشاعَةِ والشَّناعة؛ إِذْ قَد أَعْرَضوا عَن أَعْظَم مُنْعِم عليْهِم[1].

دِلالَةُ الخَبَرِ عَلى الكِنايَةِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

التَّعْجيبُ مِنْ حالِ الكُفّارِ في عِنادِهِم وبُهْتانِهِم

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبرٌ محقَّقٌ؛ لأنَّه عُلِّق بأداةِ الشَّرط (إذا) الدّالَّة في الأصلِ عَلى الجَزْم، بِوُقوع مَدْخولِها، وهذا الخبَرُ لَيْسَ جارِيًا عَلى أَصْلِه في إفادَةِ الإِخْبارِ عَنْهُم بما ذُكر؛ لأنَّه معروفٌ مُشْتَهَرٌ مِن أمرِهِم، وإِنَّما الخبَرُ هَهنا مُسْتَعْمَلٌ على سبيلِ الكِنايَةِ في التَّعجيبِ مِن عِنادهم وبُهْتانِهِم[2].

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَمَا﴾:

عَطْفُ الكَلامِ الصّادِرِ مِنْهُم عَلى الكَلامِ المُوَجَّهِ إِلَيْهِم

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ عاطفةٌ الكلامَ الَّذي صَدر مِنْهُم عَلى الكلامِ الَّذي وُجِّهَ إليهِم في أمرِهِم بالسُّجود للرَّحمن، وذلك عَلى طريقَةِ دُخولِ العَطْفِ بينَ كَلامَي المُتَكَلِّمَين، كالَّذي في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124][3].

ويجوزُ أَن يكونَ عَطْفًا عَلى محذوفٍ، كأَنَّهُم قالوا: سَمِعْنا قولَك من قبلُ، وما هذا الَّذي تريدُهُ، وتُسَمّيه الرَّحمن؟ كأَنَّهم حَسِبوا أَنَّه شيءٌ غيرُ اللّهِ تَعالى[4].

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾:

الاسْتِفْهامُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يجوزُ أَن يكونَ اسْتِفْهامًا جاريًا عَلى حقيقَتِه في طلبِ العِلْم بِشَيْءٍ لَم يكُنْ معلومًا من قبلُ، وهو إمّا سؤالُ طالبٍ للحقيقةِ، إذا قُلْنا: إِنَّهم كانوا مُنْكِرين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 416.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 62.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5307.

للّه تعالى، وإمّا سُؤال عن الاسم، إذا قلنا: إنَّهم كانوا مُقرّين باللّهِ تعالى، ولكنَّهُم جَهلوا كونَه سُبْحانَهُ مُسَمًّى بِهَذا الاسم(1).

سُلوكُ المُشْرِكينَ طَريقَ التَّجاهُلِ والمُغالَطَةِ

واسْتَظْهَر أبو حيّان أنَّ السُّؤال صادِرٌ مِنْهُم على سبيلِ التَّجاهُلِ والمُغالَطَة، وذلكَ لأنَّهم لمّا أُمِروا بالسُّجود للرَّحمن بذِكْرِ الصِّفة المقتضيَةِ للمُبالغَةِ في الرَّحْمَة؛ أَظْهَروا التَّجاهل بهذهِ الصِّفة الَّتي للّه سُبحانَهُ مُغالَطةً مِنْهُم ووقاحةً، فيكون كقولِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشّعراء: 23] على سبيلِ المُناكَرَةِ والمُكابَرَة، حينَ أخبرَهُ موسى عليه السلام بأنَّه ربُّ العالمينَ، والدَّليل على أنَّ فرعونَ كان عالمًا بِرَبِّ العالمينَ قولُ موسى عليه السلام له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102]، وكذلكَ أهلُ الشِّرك اسْتَفْهَموا عنِ الرَّحمن استفهامَ مَن يَجْهَلُه في الظّاهِر، وهُم عالِمون بهِ في حقيقَةِ الأَمر(2).

ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ مُرادًا به التَّعجُّبُ والاستغرابُ، وذلك منْهُم تفنُّنٌ في الإباءِ والجُحودِ، والمَعْنى: وما هذهِ الأسماءِ والأَعْلام الَّتي تُصَدِّعُنا بها، وتَقْرَعُ آذانَنا بالإِذْعانِ لَها(3)؟

نُكْتَةُ الاسْتِفْهامِ بِـ(ما) دونَ (مَنْ):

(ما) في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استفهاميَّةٌ، وآثَروا اسْتِعْمالَ (ما) الاستفهاميَّة دونَ (مَن)؛ لأنَّهم أَرادوا بكلامِهم هذا الاسْتِغْرابَ بِتَجاهُلِ هذا الاسْم(4).

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في قولِهم: ﴿أَنَسْجُدُ﴾:

تـأبّـي الـكُـفّـارِ واسْتِكْبارُهُم عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى

الاسْتِفْهامُ في قولِ اللّه تَعالى حِكايَةً لِقولِ أهلِ الشِّرك: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، لا يُراد بِهِ حقيقَتُه مِن طلبِ العِلْمِ بشَيْءٍ لَم يَكُن معلومًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 479، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 416.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 122.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 435.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 62.

مِن قبلُ، وإنَّما المُرادُ بهِ التَّعجُّب مِن أَمرِه والإِنْكار عليه، ولازِمُ ذَلِكَ الامتِناعُ والإِباءُ، أَيْ: لا نَسْجُدُ للَّذي تَأْمُرنا بالسُّجودِ لَهُ[1].

دِلالَةُ (ما) في ﴿لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾:

تَنَوُّعُ المَعاني لِتَنَوُّعِ دِلالاتِ الأَلْفاظِ

(ما) في ﴿لِمَا﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ اسمٌ موصولٌ بِمَعْنى (الذي)، والعائِدُ محذوفٌ، والتَّقدير: (أَنَسْجُدُ للَّذي تأمُرُنا بالسُّجود له؟).

ويجوزُ أن تكون (ما) نكِرَةً موصوفَةً، والمعنى: (أنسجُدُ لِشَيْءٍ تأمُرُنا بالسُّجود له؟) وأن تكونَ مصدريَّةً، واللّامُ حينئذٍ يُراد بها التَّعليلُ، والتَّقدير: (أَنَسْجُدُ لَهُ لأجْلِ أَمرِكَ إيّانا)، أو (أَنَسْجُدُ لأَجْلِ أَمرِكَ إيّانا)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾:

اسْتِمرارُ النَّبيِّ ﷺ في دَعْوَتِهِ رُغْمَ المواجَهَةِ والمُجابَهَةِ

جاءَ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ للدَّلالَةِ عَلى التَّجدُّد والدَّوام، ففي هذا إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ النَّبيِّ ﷺ في دَعْوَتِه، وأنَّهُ لَم يَفْتُر عَن أَمرِهِم بِعِبادَةِ اللّه تَعالى رُغْمَ ما صدَرَ عَنْهُم مِن إنْكارٍ وعِنادٍ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ و(يَأْمُرُنا):

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ حَمزَةُ والكِسائيُّ ﴿يَأۡمُرُنَا﴾ بياءِ الغَيْبَة، وقرأ باقي العشرَةِ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ بتاء الخِطاب، ووَجْهُ الخطاب ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ أنَّه خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فيكونونَ قَد تَلَقَّوا أمرَهُ ﷺ بالرَّدِّ والإِنْكارِ عليهِ، وهَذا مِنْهُم في غايَةِ القُبْحِ والشَّناعة[3].

ومَن قرأ بالغَيْبَة ﴿يَأۡمُرُنَا﴾؛ فإنَّ المَعْنى: أَنَسْجُدُ لما يَأْمُرُنا محمَّدٌ ﷺ بالسُّجود له؟ وذلك على وجْهِ الإنْكارِ مِنْهُم لذَلِك، وجوَّز بعضُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 416، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 62.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 62.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 122، وابن الجزري، النشر: 2/ 233، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 62.

أهلِ العِلْمِ أَن يكونَ مَرْجِعُ الضَّميرِ الرَّحمنَ، أي: أَنَسْجُد لِما يأمرنا الرَّحمنُ بالسُّجود له، وفيه نظرٌ؛ لأنَّهُم أَنْكَروا الرَّحمن بالكُلِّيَّةِ، وإِنْكارُهُم ما صَدَر عَنْهُ فيه إقرارٌ لَهُ[1].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في ﴿تَأۡمُرُنَا﴾:

طَيُّ ما دَلَّ السّياقُ عَلَيْهِ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذلكَ لأنَّ العائِدَ مَحْذوفٌ، والتَّقديرُ: (أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا بالسُّجود لَهُ؟) ثُمَّ صار التَّركيبُ: (تأمُرُنا بِسُجودِهِ)، ثُمَّ: (تأمُرُنا سُجودَهُ)، كقولِ العرَبِ: (أمرتُكَ الخيرَ)، ثُمَّ صار بالحَذْفِ: تَأْمُرُناهُ، ثُمَّ: تَأْمُرُنا، وهذا الحذْفُ التَّدْريجيُّ مذهَبٌ لبعضِ أهلِ العَرَبيَّةِ، وأمّا سيبويه؛ فيَرى في مِثْلِ هذا أنَّ الحَذْفَ حاصلٌ دَفْعَةً واحدةً من غيرِ تَدْريجٍ[2].

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في ﴿وَزَادَهُمۡ﴾:

ازْديادُ الكُفّارِ بُعْدًا عَنِ الإيمانِ كُلَّما دُعوا إِلَيْهِ؛ دَليلُ سَفَهِ عُقولِهِم

إِسْنادُ النُّفورِ إلى القَوْلِ المُشْتَمِلِ الأمرَ بالسُّجود في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ مجازٌ عَقْليٌّ؛ لأنَّ القولَ سبَبٌ لِتِلْكَ الزِّيادة؛ إِذْ قد كانوا أصحابَ نُفورٍ مِنَ السُّجود للّهِ سُبْحانَهُ، فلَمّا أُمِروا به؛ زادوا بُعْدًا مِنَ الإيمانِ، فيَكونُ كَقَوْلِه تَعالى: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ [نوح: 6][3].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 561.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 40.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 63.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: 61]

الـرَّبْـطُ بَـيْنَ تَأبّي المُشْرِكينَ عَلى السُّجودِ لِلرَّحْمَنِ والتَّذْكيرِ بِآثارِ رَحْمانِيَّتِهِ وأَلْطافِهِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر اللهُ تعالى حالَ النَّذير في دُعائِه إلى الرَّحمن ﷻ، فأنْكَر ذلكَ المُعانِدون؛ اقْتَضى الحالُ أن يُعَقِّبَ بِذِكْرِ ما هُم عالِمون به، مِن آثارِ رحمانيَّتِه، مُصَدِّرًا ذلك بوصفِ اللهِ تَعالى الَّذي جعلَه مَطْلَعَ السّورة، رادًّا لِما تَضَمَّنهُ إنكارُهم مِن نَفْيِه؛ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَارَكَ﴾: (برك) تَدورُ تَصاريفُها على ثَباتِ الشَّيء[2]، وقد يُضافُ إلى ذلكَ مَعْنى الزّيادَةِ والنَّماء[3]، ومِن مَعْنى الثَّباتِ قولُهُم: ابْتَرَكوا في الحَرْبِ، أي: ثَبَتوا، ولازَموا مَوْضِعَ الحَرْبِ، والبِرْكَةُ: محبِسُ الماءِ؛ لِثُبوتِه فيها، والبَرَكة: ثبوتُ الخيرِ الإلَهيِّ في الشَّيء[4]، وتبارَكَ اللهُ، أي: جَلَّ وعَظُم، و(تبارَكَ) وصفٌ لا يجوزُ إلّا لله تعالى[5]، وذكر بعضُ أهلِ العِلْم أنَّ (تبارَكَ اللهُ) معناها: يَتَبَرَّكُ العبادُ - أي: يطلبون البَرَكةَ - بِتَوْحيدِه وذِكْرِ اسْمِه[6].

2) ﴿بُرُوجًا﴾: (برج) تدلُّ اشْتِقاقاتُها على بروزٍ ناصعٍ قويٍّ مِن بَيْنِ ما يَكْتَنِفُه في ظاهِرِ الشَّيء، ومِنْهُ: التَّبرُّج، وهو إبداءُ المرأةِ مَحاسنَ جيدِها ووَجْهِها للرِّجال، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 416 - 417.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (برك)، وأبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (برك).
(4) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (برك).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (برك).
(6) الأزهريّ، الزّاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 64.

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33]، ومن هذا البابِ: البُروجُ بِمَعْنى القُصور؛ سُمّيت بذلكَ لِظُهورِها وبُروزِها، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] [النّساء: 78]، والبُروجُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي النُّجوم الكِبار العِظام، أو الكواكِبُ، وإنّما قيل لِلكواكِب: بُروجٌ؛ لِظُهورِها وبَيانِها وارْتِفاعِها[2].

3) ﴿سِرَاجًا﴾: (سرج) تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى الحُسْنِ والزّينَةِ والجَمالِ، ومِنْهُ: السَّرْجُ الَّذي يوضَعُ عَلى ظَهْرِ الدّابَّة، وذلكَ لِكَوْنِه زينةً لَها، وتقولُ العرَبُ: سرَّجَ اللّهُ وجْهَهُ، أي: حسَّنه، ومِن ذلكَ: السِّراجُ؛ سُمّي بذلكَ لِضيائِه وحُسْنِه[3]، وفي القرآن وصفُ النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: 46]، أي: هوَ مثل السِّراج الَّذي يُسْتضاء به، أو كالشَّمس في النّور والظُّهور، ويقال: الهدى سراجُ المؤمن، على وجْهِ التَّشبيه، ومنهم من جعل لفظ (سِراجًا) في الآيةِ صفةً لِكِتابٍ، أي: ذا كتابٍ منيرٍ بيِّن، قال الأزهريُّ: والأوَّل حسن، والمعنى: هاديًا كأنَّه سراج يُهْتَدى به في الظُّلم[4]، والسِّراجُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ الشَّمسُ، وذلكَ عَلى سبيلِ الاستعارَةِ، فقَد شُبِّهَتِ الشَّمسُ بالسِّراج بجامِعِ التَّلَأْلُؤِ وحُسْنِ المَظْهَر[5].

4) ﴿مُّنِيرًا﴾: (نور) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى الإضافَة والاضْطِرابِ وقلَّة الثَّبات، ومِنْهُ النّور والنّارُ، وقد سُمّيا بذلكَ مِن طريقَةِ الإضاءَة؛ لأنَّ ذلك يكونُ مُضْطَرِبًا سَريعَ الحركَةِ[6]، وحقيقَةُ النّور: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الذي يُعينُ عَلى الإبصارِ، وهو ضَرْبانِ: دُنْيَويٌّ وأُخْرَويٌّ، فالدُّنْيَويُّ، مِنْهُ ما هو معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَة، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأُمورِ الإلهيَّة كَنورِ العَقل ونورِ القرآن، ومنهُ ما هو محسوسٌ بعَيْنِ البَصر، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأَجْسام النَّيِّرَة كالقَمَرَيْنِ والنُّجوم والنَّيِّرات، ومنهُ قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، ومِنَ النّورِ الأُخْرَويِّ قولُ اللّه تَعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[7] [الحديد: 12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برج)، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برج).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط، 16/ 563.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرج).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (سرج).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 64.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نور).
(7) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نور).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

عَظُمَتْ بركاتُ الرَّحمنِ ﷻ، وكَثُر خَيْرُه، الَّذي جعَلَ في السَّماءِ النُّجومَ الكِبارَ بِمَنازِلِها، وجعَلَ فيها شَمسًا تُضيءُ وقمرًا يُنيرُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

تَقريرُ السّياقِ لِما قَبلَهُ مِنَ الكَلامِ، والتَّمهيدُ لِما بَعْدَهُ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونهِ اسْتِئْنافًا ابتدائيًّا، وقد جُعِل تَمهيدًا لِقولِ اللّه سُبْحانَهُ بَعْدُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2].

دِلالَةُ تَصْديرِ الجُملَةِ بِالفِعْلِ ﴿تَبارَك﴾:

إنْشاءُ الثَّناءِ عَلى اللهِ تَعالى بِالخَيْرِ والبَرَكَةِ

أُقيمَت هذهِ السّورةُ عَلى دَعائِمَ ثلاثٍ: وهي إثباتُ أنَّ القُرْآنَ الكريمَ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ اللّه تعالى، وتوابِعُ ذلكَ، ثُمَّ إثْباتُ البَعْثِ والجَزاءِ ولَواحِقُهُما، ثُمَّ الاستدلالُ عَلى وحْدانيَّة اللّه سُبْحانَهُ وتَفَرُّدِه بالخَلْقِ، وقَد افْتُتِحَتْ كُلُّ دِعامَةٍ مِنْ هذهِ الدَّعائم الثَّلاث، بِجُملَةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾[3].

وافتُتِحَ قولُ اللّه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ بالفِعلِ ﴿تَبَارَكَ﴾؛ لِما فيهِ مِن إنْشاءِ الثَّناء على اللّهِ سُبْحانَهُ بالخَيْرِ والبَرَكَةِ؛ لِما جَعَلَهُ للخَلْقِ مِن منافِعَ[4].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿تَبارَك﴾:

تَحَقُّقُ جَلالِ اللهِ تَعالى وعَظَمَتِهِ بِما وُصِفَ بِهِ مِنْ بَرَكَتِهِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿تَبَارَكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ للدَّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ جلالِ اللّه تَعالى وعَظَمَتِه، وقولُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ تسبيحاتٌ مقصودَةٌ، وتسبيحُ اللّهِ

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 63.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 314.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 63 - 64.

سُبحانَهُ لا يغفل عنهُ العبدُ، فلا يَحْتاجُ إلى منبِّهٍ، بخلافِ الأوامِرِ والنَّواهي[1]، واللّه تَعالى هو الأوَّلُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، ولهذا وُصِف بالبركَةِ بصيغَةِ الماضي، وأيَّد ذلك بصيغةٍ مماثلةٍ في قوله تَعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، وقولِه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

إِقْرارُ الثَّقَلَيْنِ غَيْرِ المُكابِرينَ بما أَوْدَعَهُ اللهُ تَعالى في الكَوْنِ المبين

عُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ لأنَّ من شَأْنِ الصِّلة أن تكونَ مَعْلومةً، ففي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ ما تَضَمَّنَتْهُ الصِّلَةُ في هذه الآيةِ، ثابتٌ في نَفْسِ الأَمرِ، وعِنْدَ أهلِ الإيمانِ، وعِنْدَ أهلِ الكُفْرِ أيضًا؛ إذا لَم يُكابِروا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿جَعَلَ﴾:

تَحَقُّقُ خَلْقِ اللهِ تَعالى وثُبوتُهُ مُنْبِئٌ عَن قُدْرَتِهِ المُطْلَقَةِ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالتَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿جَعَلَ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ للدَّلالَةِ عَلى تَحَقُّق هذا الجَعْلِ والخَلْقِ وثُبوتِه، والجَعْلُ الَّذي جعله اللّه تعالى للكواكِبِ المُشارِ إِلَيْها في السّياقِ، هو كونُه خَلَقَها بقولِه: كُنْ فكانَت، ثمَّ هيَّأ لها الأسباب لتقوم بِدَوْرِها في الكونِ وفْقَ مشيئَتِهِ الحَكيمَةِ، وإرادَتِه العَظيمَةِ.

عِلَّةُ وصْلِ جُملَةِ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ بما قَبْلَها:

تَفْصيلُ ما جُعِلَ في السَّماءِ مِنَ المَخْلوقاتِ بَعْدَ ذِكْرِها إجْمالًا

وُصِلَ قولُ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ بالجُملَةِ قَبْلَهُ ﴿جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن، وذلكَ لأنَّ الجُملَتَيْنِ اشْتَرَكَتا في الخبريَّة، وبينَهُما مُناسبَةٌ قوَّة موجب الوَصْلِ، وهو اتِّفاقهما في الفعليَّةِ، واتِّحاد المُسْنَد والمُسْنَدِ إليهِ فيهما، وهوَ الفِعْلُ ﴿جَعَلَ﴾ المُسْنَدُ إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى اللّهِ سُبْحانَهُ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 24.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

صِحَّةُ عَوْدِ الضَّميرِ على السَّماءِ والبُروجِ جَميعًا

اسْتَظْهَرَ أبو حيّان أَنْ يَكون الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ راجعًا إلى السَّماء، أي: جعَلَ في السَّماء سِراجًا وقمَرًا مُنيرًا[1]، وجزَم الرّازيُّ أَنَّ الضَّمير عائدٌ على البُروجِ، والمَعْنى: وجعَلَ في جُملَةِ البُروجِ سِراجًا وقمَرًا منيرًا؛ وذلك لأَنَّ البُروج أقربُ مَذكورٍ يُمكِنُ أن يعودَ الضَّمير عَلَيْهِ[2]، ولا تَنافيَ بينَ المَعْنَيَيْنِ؛ لأَنَّ الشَّمس والقمَرَ مَوْضوعانِ في السَّماء، وهُما مِن جُملَةِ الكَواكِب، والبُروجُ في الآية "هي النُّجومُ عُمومُها، أو منازلُ الشَّمسِ والقمر الَّتي تَنْزِلُها منزلَةً مَنْزِلَةً، وهيَ بمنزلَةِ البُروجِ والقلاعِ للمُدُنِ في حِفْظِها، كذلك النُّجومُ بِمَنْزِلَةِ البُروجِ المَجْعولَةِ للحِراسَةِ، فإنَّها رجومٌ للشَّياطين"[3].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿سِرَٰجًا﴾ و(سُرُجًا):

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ مُفيدٌ في تَنَوُّعِ المَعْنى

قَرَأ حمزَةُ والكِسائيُّ وخلفٌ ﴿سُرُجًا﴾ بِضَمَّتَيْنِ من غيرِ ألفٍ بَيْنَهُما على أنَّه جَمعٌ، وقرأ باقي العشرَةِ ﴿سِرَٰجًا﴾ بالإفْرادِ[4]، فوَجْهُ الإفْرادِ أنَّ المُراد بها الشَّمسُ وحدَها، فتَكونُ هذهِ الآيَةُ نَظيرَ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾ [نوح: 16][5]، ولأَنَّ القَمَرَ إذا ذُكِر في أَكْثَرِ المَواضِع؛ ذُكِرَت الشَّمسُ معَه[6]، ووجْهُ الجَمعِ أَنَّ المُراد بهِ الكَواكِبُ[7]، وذلكَ لأَنَّ كُلَّ كَوْكَبٍ سِراجٌ، كما قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: 12]، والمَصابيحُ هيَ السُّرُجُ[8].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 124.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 479.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 479.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 334.
(5) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 512.
(6) محمّد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربيّة: 1/ 306.
(7) ابن البنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 418.
(8) محمّد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربيّة: 1/ 306.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في لفظ ﴿سِرَاجًا﴾:

عَظيمُ مِنَّةِ اللهِ تَعالى بِخَلْقِهِ الشَّمسَ ذاتَ الأَثَرِ في اسْتِمراريَّةِ الحَياةِ وفَعاليَّتِها

السِّراج في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ هو الشَّمسُ، كما صُرِّح به في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح: 15 - 16]، وفي آية الفُرقانِ اسْتِعارَةٌ؛ إذْ حقيقَةُ السِّراج: المِصْباحُ الزّاهِرُ الضّياءِ، ففي الآية تشبيهُ الشَّمسِ بِالسِّراج؛ بجامعِ إزالَةِ الظُّلمة في كُلٍّ مِنْهُما، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ أصليَّة(1).

وعلى قراءَةِ الجَمعِ (سُرُجًا) فيهِ تشبيهُ النُّجوم والكواكب بالسُّرج، بجامعِ التَّلأْلُؤ وحُسْنِ المَنْظَرِ، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة الأصليَّة كذَلِكَ(2).

نُكْتَةُ المُغايَرَةِ بَيْنَ ﴿سِرَاجًا﴾ و﴿مُّنِيرًا﴾:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ مِنْ بَديعِ الإعْجازِ

أصلُ السِّراج هو المِصباحُ الَّذي يُعْطي حرارةً وضَوْءًا ذاتيًّا، والمرادُ به في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الشَّمسُ؛ وذلك لأنَّ ضَوْءَها ذاتيٌّ مِنْها، وكذلكَ الحَرارَةُ تَصْدُر مِنها، بخلافِ القَمَرِ فقَد وُصِف بكونه ﴿مُّنِيرًا﴾؛ لأنَّهُ يُضيءُ بواسطَةِ الأشِعَّةِ المُنْعَكِسَةِ على سَطْحِه، فإضاءَتُهُ غيرُ ذاتيَّة، ولذا قالَ اللّه سُبْحانَهُ في موضِعٍ آخَرَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، فالضّياءُ هو الَّذي يكونُ ذاتيًّا، والنّور هو انْعِكاسُ الضَّوء على جِرْمٍ آخرَ، وكذلكَ الحالُ في الشَّمسِ والقَمَر(3).

وأَوْلى ما ذُكِرَ في هذا الباب، أنَّ الشَّمسَ لَمّا كانَ فيها ضوءٌ وحرارةٌ؛ عُبِّر عَنْها بالسِّراج؛ لأنَّ فيها ذلك، بخلافِ القمَرِ، فإنَّهُ لَمّا كان ضوءًا بلا حرارَةٍ؛ عُبِّر عنهُ بالنّور(4).

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5308، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 64.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 104093.
(4) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 24 - 25.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النّور والضّياء:

الضّياءُ ضَوْءٌ وحَرارَةٌ، والنّورُ ضَوْءٌ بِلا حَرارَةٍ

ذهبَ بعضُ أهْلِ العِلْمِ بالعربيَّة إلى أنَّ النّور والضّياء بمَعْنًى واحِدٍ[1]، وقد فسَّر الخَليلُ بن أحمدَ النّورَ بالضّياء أيضًا[2]، ويحتمِلُ ذلك منهُ أنَّه يَرى تَرادُفَهُما، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أَصْحابِ المُعجماتِ في ذلكَ.

والتَّحقيقُ أَنَّ بينَهُما فرقًا، وذلك أنَّ أصلَ النّورِ، هو ضوْءُ كلِّ شيءٍ، وهو ضِدُّ الظُّلْمَةِ، بخلاف الضّياء فهو إفراطُ الإنارةِ، ولذا اخْتير الضّياء في التَّعبير عنِ الشَّمس، في نحوِ قولِ اللّه تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5][3]، فيكونُ الضّياءُ على هذا أعظمَ وأبلغَ، ومعلومٌ أنَّ الشَّمسَ أعظَمُ نورًا مِنَ القَمَرِ[4]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نورها، وثَمَّة فرقٌ آخرُ بينَهما، وهو أنَّ الضّياءَ: ما كان مِنْ ذاتِ الشَّيءِ المُضيءِ، بخلاف النّورِ: ما كانَ مُسْتَفادًا من غَيْرِهِ[5]، وهذا الفرقُ هو بالنَّظر إلى خُصوصِ الشَّمسِ والقَمَرِ على النَّحْوِ الوارِدِ في الآيَةِ المُتَقَدِّمِ ذكرُها.

وَأصحُّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُما: أنَّ الضّياء: ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، والنّورَ: ضوءٌ بلا حرارَةٍ، كَنورِ القَمَرِ[6]، وهذا الَّذي تَنْتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ، أمّا قوَّةُ أحدهما في مقابِلِ الآخَرِ، فالغالِبُ في الاسْتِعْمالِ أَنْ يكونَ الضّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بلازِمٍ مُطَّرِدٍ.

---

(1) ابن السكّيت، إصلاح المنطق، ص: 98، وابن أبي الحديد، الفلك الدائر على المثل السّائر (مطبوع بآخر المثل السّائر لابن الأثير): 4/ 233.

(2) الخليل بن أحمد، العين: (نور).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 73.

(4) ابن الملقّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 104093.

(6) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 24 - 25.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اسْتِكْمالُ تَعْدادِ نِعَمِ اللهِ تَعالى على العِبادِ في الكَوْنِ والزَّمَنِ والحَياةِ

لَمّا ذكَر اللّهُ تَعالى الشَّمسَ والقَمَر، في قولِه سُبْحانَه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾؛ أَعْقَبَهُ بِبَيانِ ما هُما آيَتاهُ، وما يُعَدّانِ ظَرْفَيْنِ لَهُما، فقالَ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِلۡفَةٗ﴾: (خلف) أصلٌ تَدورُ تَصْريفاتُه عَلى مَعانٍ، مِنْها: مجيءُ شَيْءٍ بعدَ آخرَ يقومُ مَقامَهُ، ومِنْهُ: الخلَفُ - بالتَّحريكِ - تقولُ العَرَبُ: فلانٌ خَلَفُ صدقٍ مِنْ أبيه، أو خلف سَوْءٍ مِنْ أبيه، فإن لم يُقَيَّدْ بالصِّدْقِ أو بالسَّوءِ؛ اسْتَعْمَلوا الخَلَفَ بالتَّحريكِ في الخيرِ، والخلْف - بالسُّكونِ - للرَّديءِ، ومنْهُ قولُه سُبْحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: 169][2]، ويقال: خلف فلانٌ فلانًا؛ إذا كان خليفَتَهُ، يقال: خلفَهُ في قومِه خِلافَةً، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: 142]، وخلفته أيضًا؛ إذا جِئْتَ بعدَه[3]، والخِلْفَةُ أن يَخْلُفَ كلُّ واحِدٍ الآخَرَ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾[4].

2) ﴿يَذَّكَّرَ﴾: (ذكر) أصلٌ تدُلُّ اشْتِقاقاتُه على قوَّةِ الشَّيءِ وصلابَةِ مادَّتِه، بحَيْثُ يكونُ نافِذًا، ومِنْهُ الذَّكَر، وهو مقابلُ الأُنْثى؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (خلف).
(4) أبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (خلف).

سُمّي بذلك لكونِه أصلبَ وأَخْشَنَ منها، ومنهُ الذِّكْرُ باللِّسانِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ بالصَّوت وجودٌ قويٌّ لَهُ، يَتْبَعُه وجودُه في الأَسْماعِ والقُلوب، والذِّكْر: حِفْظُ الشَّيء، وهو ضِدُّ النِّسْيانِ؛ لكَوْنِ ذِكْرِ الشَّيء بقاءً قويًّا واضِحًا في الذِّهْن[1]، و﴿يَذَّكَّرَ﴾ أصلُه: يَتَذَكَّر، فأُدْغِمَت التّاء في الذّال، والتَّذَكُّر: تفعُّلٌ مِنَ الذِّكْرِ، والمُراد في الآيَةِ: التَّأَمُّل في أدلَّةِ الدّين، أو اسْتِحْضارُ ما نُسيَ في وقتٍ سابقٍ[2].

3) ﴿شُكُورًا﴾: (شكر) تدور اشتقاقاتُها حول امتلاءِ جوفِ الشَّيء برَخْوٍ طيِّب وظُهورِه عليه، ولو كانَ رافِدُهُ قليلًا[3]، حسّيًّا كان ذلك أو معنويًّا، فمِنَ الحسيِّ قولهم: شاةٌ شَكْرَى، وهي ممتلئَةُ الضَّرع لَبَنًا[4]، ودابَّة شكور، وهي الَّتي يكفيها قليلُ العَلَفِ، فتَسْمَنُ عليه، وتَصْلُحُ[5]، ومِنَ المعنويِّ: الشُّكْر، وهو عِرفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه[6]؛ "إِذْ هو تعبيرٌ عَنِ امتلاء النَّفْسِ ورِضاها، بِما قُدِّمَ لَها مِن خَيْرٍ، ونُجوع هذا الخيرِ فيها"[7]، وحقيقة الشُّكْرِ شَرْعًا: ظُهورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ على لِسانِ عَبْدِه: ثَناءً واعْتِرافًا، وعَلى قَلْبِهِ: شُهودًا ومحَبَّة، وعَلى جَوارِحِه: طاعةً وانْقيادًا[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاعْتِبارُ بِتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ

وهو الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهار مُتَعاقِبَيْن، يَخْلُف أحدُهُما الآخَر لِمَن أرادَ أن يَعْتَبِر بما في ذلكَ إيمانًا بالمدبِّر الخالِق، أو أرادَ أَن يَشْكُرَ للّهِ سُبحانَهُ على نِعَمِه وآلائه[9]؛ "إِذْ لو كانَ الدَّهرُ كلُّهُ ليلًا؛

(1) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 570.
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(4) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (شكر).
(5) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (شكر).
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(7) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).
(8) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/ 234.
(9) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.

لبطَلتِ المعايِش والتَّصرُّف فيها ... ولو كان الدَّهر كلُّه نهارًا؛ لبطلت الأجسادُ عند عدم الرّاحة، فجعل كلَّ واحد يخلف الآخرَ"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

بَيانُ أَفْرادِ المَخْلوقاتِ الدّالَّةِ عَلى عَظَمَةِ الخالقِ سُبْحانَهُ

وُصِلَت هذِهِ الآيَةُ بِما قَبْلَها، وهي ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾؛ لاشْتِراكِهما في الخَبَريَّة، ولِما بَيْنَهُما مِنَ المُناسَبَة في المَعْنى؛ إذْ كِلاهُما بيانٌ لأفرادِ خَلْقِ اللهِ تَعالى الدّالِّ على عَظَمَتِه، وحسَّن هذا الوصْلَ اشْتِراكُهُما في التَّعْبير بالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾، واتِّحادُ الفاعِلِ في فِعْلِ الجَعْلِ ﴿جَعَلَ﴾، فكانَ بَيْنَ الجُملَتَيْن توسُّطٌ بينَ الكمالَيْن.

بَلاغَةُ القَصْرِ في عبارة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

انْفِرادُ اللهِ تَعالى بِتَدْبيرِ أمرِ اللَّيْلِ والنَّهارِ

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وطريقُهُ: تَعْريفُ جُزْأَي الجُملةِ؛ إذِ المُبْتَدَأُ (هو) ضميرٌ، وهو مَعْرِفَةٌ، والخبَرُ ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو مِنْ جُملَةِ المَعارِف أيضًا، وهذا القَصْرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ[2]؛ إذْ لَم يُصيّر اللَّيْلَ والنَّهار كذلِكَ إلّا اللّهُ سُبْحانَهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

إقْرارُ بَني آدَمَ غَيْرِ المُكابِرينَ بِتَدْبيرِ الدَّهْرِ مِنَ اللهِ القَوِيِّ المَتينِ

عُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه، في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ لأنَّ من شَأْنِ الصِّلة أن تكونَ مَعْلومةً، ففي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ ما تَضَمَّنَتْهُ الصِّلَةُ في هذه الآيةِ، ثابتٌ في نَفْسِ الأَمرِ، وعِنْدَ أهلِ الإيمانِ، وعِنْدَ أهلِ الكُفْرِ أيضًا إذا لَم يُكابِروا، ومعلوم أنَّ تسيير الكَوْنِ بتلك الدِّقَّة العجيبةِ لا يَقْدِرُ عليها إلّا ربُّ الوجود الخالق لكلِّ موجودٍ، وهو الّذي عبَّر عن نفسه ببيان قُدْرَتِه على

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 65.

كونه، فقال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرّحمن: 5 - 7].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿جَعَلَ﴾:

تَحقُّقُ خَلْقِ اللهِ تَعالى وثُبوتُه

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالتَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿جَعَلَ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ للدَّلالَةِ على تَحقُّق هذا الجَعْلِ وثُبوتِه، وهذهِ قضيَّة تُدْرَكُ بالعقل والتَّأمُّل في حركة الزَّمن وفي الدَّهر، ولونه المختلف سوادًا وبَياضًا، في صُبْحِه ومسائه، ونورِه وظَلْمائه، فكان جَعْلُهُ خِلْفَةً آيةً باهرةً ومعجزةً قاهرةً.

دِلالَةُ الطِّباقِ بَيْنَ لفظَي اللَّيلِ والنَّهارِ:

تَكاثُرُ الأَدِلَّةِ عَلى صِحَّةِ الدِّينِ الحَقِّ

في الجَمع بينَ اللَّيل والنَّهار في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ قَصْدٌ لِاسْتيعابِ الأَزْمِنَةِ كلِّها، وأنَّ الأدلَّة على الدّينِ الحقِّ، تَشْمَلُ الزَّمانَ كُلَّهُ، واستدراكَ ما فاتَ مِنَ الأَعْمالِ مُتَّسِعٌ زمانُه.

دِلالَةُ اخْتيارِ صيغَةِ (فِعْلَة) في الخِلفة:

الإشارَةُ إلى ما في اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ مِنَ الآياتِ والآلاءِ

اخْتيرَ لَفْظُ ﴿خِلۡفَةٗ﴾، وهو على وزْنِ (فِعْلَة) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ لِدِلالَته عَلى الهَيْئَة، فيَكونُ ذَلكَ مُنَبِّهًا عَلى هَيْئَةِ هَذا الاخْتِلافِ بالطّولِ والقِصَرِ المُخْتَلِفَيْن في جِهاتِ الأَرْضِ، وذلكَ مُنَبِّهٌ على أَسْبابِ هَذا الاخْتِلافِ مِن وضْعِ جِرْمَي الأرضِ والشَّمس، وهذا كُلُّه مِن آياتِ اللّهِ سُبْحانَه الدّالَّة عليه، وبتِلْكَ الهَيْئَةِ مِنَ الاخْتِلاف تَقْديرًا وتَنْظيمًا عَظُمَتِ المِنَّةُ عَلى الخَلْقِ وشَمِلَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، فكانَ في لَفْظِ ﴿خِلۡفَةٗ﴾ تنبيهٌ عَلى ما في اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهار مِن آياتٍ دالَّةٍ، ونِعَمٍ عامَّةٍ[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 65.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِّمَنْ﴾ ودِلالَتُها:

اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ نافِعٌ لإِرادَةِ التَّذَكُّرِ والشُّكْرِ

اللّامُ في ﴿لِّمَنْ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ متعلِّقَةٌ بالفِعْلِ ﴿جَعَلَ﴾، مِن قولِه تَعالى قَبْلُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، وهيَ لامُ التَّعْليلِ، وذَلِك مُفيدٌ أنَّ هذا الجَعْلَ نافِعٌ مَن أرادَ التَّذَكُّر، أو أرادَ الشُّكْرَ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ مُدْغَمًا:

الإيماءُ إلى حُصولِ التَّذَكُّرِ ولَوْ في أَقَلِّ صوَرِه

عُبِّر بفِعْلِ التَّذَكُّر ﴿يَذَّكَّرَ﴾ مُدْغمًا مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ للإيماءِ إلى حُصولِ التَّذَكُّر، ولَو في أَدْنى وُجوهِه وصوَرِه[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَذَّكَّرَ﴾:

اسْتيلاءُ الغَفْلَةِ عَلى بَني آدَمَ طَبْعٌ غالِبٌ لا فكاكَ لَهُم مِنْهُ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لإفادةِ الحُدوثِ والتَّجَدُّد الاستمراريِّ؛ وذَلِك لِكَوْنِ الغَفْلَةِ مُسْتَوْلِيَةً على بَني آدمَ، وفي الآياتِ المَرْئيَّة كاللَّيْلِ والنَّهار تَذْكيرٌ لَهُ وتَجْديدٌ لِهَذا التَّذَكُّر[3]، ففي الآيَةِ تَذْكيرٌ بليغٌ لِنِعْمَته، وتنبيهٌ جليلٌ عَلى كمالِ حِكْمَته وسموِّ قُدْرَته، لِمَنْ أرادَ أن يتذكَّر آلاءَ اللّه تَعالى البديعَةَ، ويتفكَّر في صِناعَتِه الرَّفيعة، فيعلم بيَقينٍ لا يُخالِطُهُ رَيْبٌ، وصفاءٍ لا يُمازِجُه شَوْبٌ، وعلمٍ لا تَجْتالُهُ الظّنونُ، وفَهْمٍ لا تُخالِطُه الفتون: أَنَّه لا بدَّ للكونِ العجيبِ والخَلْقِ المدهشِ الغَريبِ مِن صانعٍ حكيمٍ وخالقٍ عظيمٍ، رحيمٍ بالمخلوقاتِ، وإليه يكونُ المعادُ، ولُطْفُه يَغْمر جميعَ العبادِ[4].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿يَذَّكَّرَ﴾ و(يَذْكُرَ):

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قَرَأ حَمزَةُ وخلَفُ العاشِرُ ﴿يَذْكُرَ﴾، مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِّمَنْ

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 190.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 418.

(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 190.

(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 238.

﴿أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾، بِسُكونِ الذّالِ وضَمِّ الكافِ مُخَفَّفًا، وقرأَ الباقونَ بالإدْغام ﴿يَذَّكَّرَ﴾[1]، وقَد ذَكَر الفَرّاء أنَّ (يَذَّكَّرَ) و(يَتَذَكَّرَ) - ومِنْهُ فرْعُ هذه الصّيغَة: يَذَّكَّرَ - يَردانِ بمعنًى واحدٍ، واستشهَدَ له بقولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة: 63]، وقرأها ابنُ مَسْعودٍ: (وتَذَكَّروا ما فيهِ)[2].

وأمّا في آيةِ الفُرْقانِ؛ فالتَّشديدُ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ بمعنى: يَتَذَكَّر، والتَّذَكُّر: التَّفَكُّر، وذلك ليُدْرِك العِلْمَ بِقُدْرَتِه، ويَسْتَدِلَّ بموضِعِ النِّعمة وإتقان الصَّنعة على توحيدِ اللّه تعالى.

وأمّا التَّخفيف ﴿يَذۡكُرَ﴾؛ فهو ما يُقابِلُ النِّسْيان، والمَعْنى: أن يَذْكُرَ ما نَسِيَهُ في اللَّيل، فيستدرِكَهُ نَهارًا، أو يَذْكُرَ ما نَسِيَهُ في النَّهار، فيستدرِكَهُ ليلًا[3].

دلالةُ الأداة ﴿أَوۡ﴾ في السّياق:

استِقْلالُ كُلٍّ مِنَ التَّذَكُّرِ والشُّكْرِ بِالإِرادَةِ

﴿أَوۡ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ يُرادُ بها التَّنْويعُ، عَلى مَعْنى الاشْتِمالِ على هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، ويجوزُ أَن تكونَ للتَّخْييرِ، عَلى مَعْنى الاسْتِقْلالِ بِكُلِّ واحدٍ مِنْهُما، مِن غَيْرِ مَنْعٍ من الاجتماعِ، وفائدَةُ هَذا الأُسْلوبِ: الدِّلالَةُ عَلى الاسْتِقْلالِ؛ إِذْ لَو ذُكِرَت الواوُ بدلًا مِن ﴿أَوۡ﴾؛ لَتُوُهِّمَ معنى المعيَّةِ[4].

سِرُّ عَدَمِ تَكْرارِ المَوْصولِ (مَنْ):

تَأَتّي الجَمعِ بَيْنَ التَّذَكُّرِ والشُّكْرِ

كُرِّر فعلُ الإرادَةِ في التَّذكُّر والشُّكر مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ لأنَّ الإرادَة لا بُدَّ منها معَهُما، ولم يُكرَّر الاسمُ المَوْصول (مَنْ)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (لِمَن أرادَ أن

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 334.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 271.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 570.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 42.

يَذَّكَّر، أو لِمَن أرادَ شُكورًا)؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحِدَ يَجوزُ أن يَتَّصِف بالصِّفتَيْنِ معًا، ولو كُرِّر المَوْصولُ؛ لَتوُهِّم استقلالُهُما استِقْلالًا تامًّا، بحيثُ لا يَتأَتّى الجَمعُ بَيْنَهُما مُطْلَقًا[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ ﴿شُكُورًا﴾:

كَثْرَةُ نِعَمِ اللهِ تَعالى وجَلالَةُ قَدْرِها تَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ النِّعَمِ وشُكْرَها

لفظ ﴿شُكُورًا﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنى الشُّكْر، وهو أَبْلَغُ مِنْهُ؛ لكَوْنِه أكثرَ حروفًا، والزِّيادة في المَبْنى تدُلُّ على الزِّيادة في المَعْنى غالِبًا، والمَعْنى: أو أرادَ شُكْرًا بليغًا عظيمًا، وذلكَ أنسَبُ لِكَثْرَةِ نِعَمِ اللهِ سُبْحانَه وجلالة قَدْرِها[2].

نُكْتَةُ المُغايَرَةِ بَيْنَ ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ و﴿شُكُورًا﴾:

العِنايَةُ بِأَمرِ التَّذَكُّرِ والتَّفَكُّرِ ضَمانٌ لِلشُّكْرِ قَوْلًا وفِعْلًا

في التَّعْبيرِ أوَّلًا بالمَصْدَرِ المُؤَوَّل ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾، دون المَصْدَرِ الصَّريح - كما في المَوْضِع الثّاني ﴿شُكُورًا﴾، مع أنَّ التَّعبيرَ بالمَصْدَر الصَّريح أخصرُ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (لِمَن أراد تَذَكُّرًا) - للإيماءِ إلى مزيدِ الاعْتِناءِ بأَمرِ التَّذَكُّر والتَّفَكُّر[3]، وفي التَّصريح بالمصدرِ ﴿شُكُورًا﴾ تناسُبٌ لِرُؤوسِ الآيِ[4].

نُكْتَةُ الجَمعِ بَيْنَ الإرادَةِ والتَّذَكُّرِ والشُّكْرِ:

حَياةُ الإنْسانِ مَبْنِيَّةٌ عَلى الإرادَةِ والفِكْرِ والعَمَلِ

ذُكِر في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، الإرادَةُ والتَّذَكُّر والشُّكْرُ؛ وذلكَ لأنَّ حياةَ الإنسانِ من أوَّلِها إلى آخرِها مَبْنِيَّةٌ على أركانٍ ثلاثةٍ هي: الإرادةُ، والفِكْرُ، والعمَلُ، وهي المذكوراتُ في الآية؛ إذِ التَّذَكُّر يكونُ بالتَّفكُّر، والشُّكر يحصُلُ بالعَمَلِ.

ثُمَّ إنَّ هذه الثَّلاثَة متوقِّفة على ثلاثةٍ أُخْرى - لا بُدَّ للإنسانِ منْها - فالعمَلُ يتوقَّف على البدَنِ، والفِكْرُ يتوقَّف على العَقْلِ، والإرادةُ

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 190.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 419.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 42.
(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 190.

تتوقَّف على الخُلُق، فالتَّفكيرُ الصَّحيح مِنَ العَقْلِ الصَّحيح، والعمَلُ المُفيدُ مِنَ البدَنِ السَّليم، والإرادةُ القويَّة مِنَ الخُلُقِ القَويم، ولذا كانَ الإنسانُ مأمورًا بالحِفاظِ عَلى هذهِ الكُلّيّاتِ الثَّلاثة: العقلِ والبدَنِ والخُلُق، فكانَت هذِهِ الآيةُ جامِعَةً لأصولِ الحَياةِ السَّعيدة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّكْر والحَمد:

الحَمدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مُتَعَلِّقًا وأَخَصُّ مِنْهُ آلَةً

الحَمدُ هو الشُّكْرُ عند الأَخْفَشِ وجماعةٍ[2]، وفيه نَظَرٌ، بل بينَهُما فرقٌ.

وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشُّكرَ أعمُّ مُطْلقًا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، والشُّكر جِنس، فكلُّ حَمدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[3]، وعكَسَ الجَوْهَريُّ ذلك؛ فجعل الحَمدَ أعمَّ مُطلقًا مِنَ الشُّكر[4].

والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وجْهيًّا، فالحمد أعمُّ مُتَعَلِّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلِّقًا وأعمُّ آلةً؛ وذلك أنَّ الحَمدَ يكون في مقابلِ النِّعمةِ ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، ويكون ابْتِداءً للثَّناء عَلى الرَّجُلِ"[5]، بل قد يُحمَدُ على المُصيبَةِ[6]، وذلك في حَمدِ اللّهِ تعالى؛ إذْ يكون على كلِّ حالٍ بخلاف الشُّكْر، فلا يكون إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، قال في

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 191.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّميريّ في تحبير المختصر: 1/ 62: أنّه ظاهر قول سيبويه، وهو ظاهر كلام ابن جرير في جامع البيان: 1/ 138.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد).

(4) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (حمد).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(6) كمَا جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقولونَ: نَعَمْ، فَيَقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقولونَ: نَعَمْ، فَيَقولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقولونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقولُ اللَّهُ: ابْنوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذي، الحديث رقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير، الحديث رقم: (795).

القاموسِ: "الشُّكْرُ - بالضَّمِّ -: عِرْفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه، ولا يَكونُ إلّا عن يَدٍ"[1]، فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمدَ أعمُّ متعلِّقًا مِن الشُّكر.

أمّا الآلةُ؛ فالحَمدُ يكون باللِّسان والقلبِ دون الجوارحِ، بخلاف الشُّكْرِ، فإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللهُ سُبْحانَه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَشْريفُ أَهْلِ الطّاعَةِ بِإِضافَتِهِم إلى الرَّحْمنِ جل جلاله

لَمّا تجاهَلَ أهلُ الشِّرْكِ الرَّحمنَ جل جلاله، واستَكْبَروا عنِ السُّجود لَهُ، وعرَّفهم اللّهُ سُبْحانَه بالرَّحمن: من حيث خَلْقُهُ وتدبيرُه وإنْعامُهُ؛ أعقبَهُ بِتَعْريفِهِ إيّاهُم بعبادِهِ الَّذين عرَفوهُ بذلكَ، فآمَنوا به، وخَضَعوا لَهُ، بِما تضمَّنَتْهُ هذهِ الآياتُ مِن صِفاتِهِم[1].

ووجهٌ آخَرُ في مُناسبَةِ الآيةِ لما قَبْلَها: أَنَّ اللّه سُبْحانَه لَمّا ذكَرَ العِبادَ الَّذين خَذَلَهُم بِتَسْليطِ الشَّيْطانِ عَلَيْهِم، فصاروا من حِزْبِ الشَّيْطانِ، ولَم يُضِفْهُم إلى اسْمٍ مِن أَسْمائِه؛ إيذانًا بِإِهانَتِهِم لِحَقارَتِهِم عِنْدَهُ؛ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ عِبادِه الَّذين وفَّقَهُم، فصاروا مِن حِزْبِه، وأَضافَهُم إلى اسْمِه الرَّحْمنِ؛ تَشْريفًا لَهُم وتَعْظيمًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَوۡنٗا﴾: (هون): تدلُّ تصريفاتُها على سكينَةٍ أو ذُلٍّ، فمِنَ الأوَّل: الهَوْنُ: وهو السَّكينة والوقارُ، ومن الآخَرِ قولُهُم: رجلٌ فيه مَهانة، أي: ذُلٌّ وضَعف[3]، وفي صفة النَّبيِّ ﷺ أنَّه يمشي هَوْنًا، أي: إنَّه يَمشي في رِفْقٍ غيرَ مُخْتالٍ، والهونُ - بفتح الهاءِ - الرِّفق، قال اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[4].

والهوانُ على ضَرْبَيْنِ[5]؛ أحدُهُما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسِه لِما لا

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير: 192 - 193.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 419 - 420.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون)، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هون).
(4) ابن قتيبة الدّينوريّ، غريب الحديث: 1/ 502.
(5) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هان).

يَلْحَقُ بهِ غضاضَةٌ، فهو ممدوحٌ، كقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾.

والآخَرُ: أن يكونَ مِن جهةِ مُتَسَلِّطٍ مُسْتَخِفٍّ به، فهو مذمومٌ، ومنهُ قولُه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: 93].

2) ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾: (جهل) تَدورُ اشْتِقاقاتُها على أَصْلَيْنِ كُلِّيَّيْنِ: أحدُهما: ضِدُّ العِلْم، والآخَرُ: الخِفَّة وضِدُّ الطُّمأنينَة، فمِنَ الأوَّلِ: الجَهْلُ، وهو نقيضُ العِلْم، ومِنَ الآخر قولُهُم: اسْتَجْهَلَتِ الرِّيحُ الغصنَ؛ إذا حرَّكَتْهُ فاضْطَرَب[1]، ويُطلق الجهلُ على فِعْلِ الشَّيْءِ بخلافِ ما ينبغي أن يُفعل[2]، ومنهُ قولُ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33].

والجَهْلُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ هو السَّفَهُ، فالجاهِلون هُمُ السُّفَهاء[3]؛ لِما فيهِم مِن خِفَّةِ العقولِ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تَعْدادُ الأَوْصافِ الحَسَنَةِ لِعِبادِ الرَّحْمنِ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ

وعِبادُ الرَّحمنِ الصّالِحونَ، يَمشونَ عَلى الأَرْضِ بالحِلْمِ والسَّكينَةِ والوَقارِ، غيرَ مُسْتَكْبِرين، ولا مُتَجَبِّرين، ولا ساعينَ فيها بالفَساد، ومَعاصي اللهِ تَعالى، وإذا خاطَبَهُم الجاهِلون باللهِ سُبحانَهُ بما يَكْرَهونَهُ مِنَ القَوْلِ؛ أجابوهُم بالمَعْروفِ مِنَ القَوْلِ، والسَّداد مِنَ الخِطابِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

بَيانُ أَوْصافِ خُلَّصِ عِبادِ الرَّحْمنِ

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (جهل).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 574.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 294 - 295، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.

معطوفٌ عَلى قولِه سُبْحانَهُ قبلُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ بِمُناسبَةِ ذِكْرِ مَن أرادَ التَّذكُّر، وذلكَ لأنَّه قَد تُخُلِّصَ إلى ذِكْرِ خِلالِ أهلِ الإيمانِ وخِصالِهم، وهُم أتباعُ النَّبيِّ ﷺ؛ لِتَسْتَكْمِلَ السّورةُ أغراضَ التَّنْزيه بالقُرآن الكريم، ومَن جاء به ومَن اتَّبعوهُ[1].

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ اسْتِئْنافيَّةً، ويكونُ الكلامُ بعدَها مُسْتَأْنَفًا سيقَ لِبَيانِ أوصافِ خُلَّصِ عِبادِ اللّه تَعالى وأحوالِهم الدُّنيويَّة والأُخْرَويَّة بعدَ بيانِ حالِ النّافِرين عن عِبادَتِه المُسْتَكْبِرين عَن السُّجود لَهُ[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

تَشْريفُ الطّائِعينَ وزِيادَةُ تَفْضيلِهم بينَ عِبادِهِ الصّالِحينَ

أُضيفَ لفظُ ﴿وَعِبَادُ﴾، إلى اسْمِ اللّه تَعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، في قولِه سُبْحانَه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ لإرادَةِ التَّخْصيصِ والتَّفْضيل والتَّشريف لِلمُضاف، فإنَّ مَن أطاعَ اللّهَ سُبْحانَهُ، وشغَل قَلْبَه وجوارِحَهُ بِما أَمَرَهُ؛ فهو المُسْتَحِقُّ اسْمَ العُبوديَّة، ومَن كان بِضِدِّ ذلك؛ شَمِلَهُ قولُه تَعالى: ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]، أي: في عدَمِ الاعْتِداد بِه[3].

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ اللهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

بِشارَةُ عِبادِ اللهِ تَعالى المُطيعينَ لَـهُ بِـالـرَّحْـمَـةِ وحُسْنِ الحالِ

اخْتير اسْمُ اللّهِ تَعالى في إضافَةِ لَفْظِ العِباد إليه، في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ تَبْشيرًا لَهُم، ولِتَخْصيصهِم بِرَحْمَتِه، ولِتَفْضيلِهم عَلى مَن سِواهُم لكونِهم مَرْحومينَ، وفي ذلك أيضًا تعريضٌ بالفَريق الَّذين قيلَ لَهُم: اسْجُدوا للرَّحمن، قالوا: وما الرَّحْمنُ؟[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 66.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 228، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 43.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 291، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 67، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 125، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 420.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 420، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 43، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 67.

بَلاغَةُ الإِطْنابِ في الآياتِ المُحْكَمَةِ:

تَعْدادُ الصِّفاتِ الحَسَنَةِ لِأَهْلِ الإيمانِ تَعْريضٌ بِأَهْلِ الكُفْرِ والنُّكْرانِ

ذَكَرَ اللّهُ سُبْحانَهُ عدَدًا من صِفات عِبادِه الصّالحين ابْتِداءً مِن قَوْلِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، وفي هذا الإطْناب بتَعْدادِ صِفاتِهِم الحسَنَةِ الطَّيِّبَةِ: تعريضٌ بأنَّ الَّذين أَبَوا السُّجود للرَّحمن؛ هُم على عَكْسِ تِلْكَ المَحامدِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يَمۡشُونَ﴾:

السَّكينَةُ والطُّمَأْنينَةُ طَبْعُ عِبادِ اللهِ تَعالى في مَشْيِهِم

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعل المُضارِع ﴿يَمۡشُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ للدِّلالةِ عَلى التَّجدُّد الاستمراريِّ؛ إذِ المَشي في الأرضِ مِن ضَروراتِ بَني آدَم[2]، وهُم طولَ مُدَّة مَشْيِهِم سالِكون سبيلَ السَّكينةِ والطُّمأنينةِ والتَّواضُع.

سِرُّ اخْتيارِ فِعْلِ المَشْيِ:

مُخالَطَةُ النّاسِ ومُعاشَرَتُهُم بِالرِّفْقِ واللّينِ

اخْتيرَ فِعْلُ المَشْيِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾؛ لِما فيهِ مِن الانتقالِ في الأرْضِ، وذَلِكَ يَقْتَضي مُعاشَرَةَ النّاس ومُخالطَتَهُم، واللّينُ في ذلكَ مَطْلوبٌ غايَةَ الطَّلَبِ[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿هَوۡنٗا﴾:

رَأْفَةُ أَهْلِ الإيمانِ بِالخَلْقِ، وتَواضُعُهُم لِعِبادِ اللهِ تَعالى مِنْ أَخْلاقِ النُّبْلِ

جاء التَّعبيرُ عَن حالِ عِبادِ الرَّحمنِ في مَشْيِهِم بالمَصْدَرِ ﴿هَوۡنٗا﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ مبالغَةً في اتِّصافهم بمَدْلولِه حتّى كأنَّهم نَفْسُ الهَوْن، والمعنى: يَمشون على الأرضِ ذَوي هَوْنٍ، أي: رفقٍ ولينٍ، وسَكينَةٍ وطُمَأْنينَةٍ وتَواضُعٍ، بِحَيثُ لا يُؤْذونَ أحدًا، ولا يَتَكبَّرون؛ رحمةً لأنفُسِهِم وغَيْرِهِم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 67.

(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 194.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 43.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 291، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 480، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 420.

دِلالَةُ الكِنايَةِ في مَشْيِهِم هَوْنًا:

بيانُ رِفْقِ أَهْلِ الإيمانِ في جَميعِ أُمورِهِم، وبُعْدِهِم عَنِ الفَسادِ والإِفْسادِ

المَشْيُ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ على حَقيقَتِه، والمُرادُ مَدْحُهُم بالسَّكينَةِ والوقارِ فيه[1]، وهذا التَّركيبُ ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ كنائيٌّ، أُريدَ بِهِ مَعْناهُ ولازِمُ هذا المَعْنى، فهُم يَمشونَ برِفقٍ وتُؤَدةٍ، فلا يَضْرِبونَ بأقدامِهِم عَلى وجهِ الأَشَرِ والبَطَرِ، وهو دالٌّ أيضًا عَلى سُهولَتِهِم وتَواضُعِهِم وعدَمِ تَكَبُّرِهِم، ورِفْقِهِم في أُمورِهِم وبُعْدِهِم عَنِ الفَسادِ والإِفْسادِ، ويدُلُّ أيضًا عَلى سَيْرِهِم في الحَياة وتَصَرُّفِهِم في أُمورِهِم ومُعامَلَتِهِم النّاسَ، وذلك لأنَّهُم إذا كانوا أهلَ رِفْقٍ وسُهولَةٍ في مَشْيِهِم عَلى الأَرْضِ؛ فهُم كذَلِكَ أهلُ رِفْقٍ وسُهولة في أُمورِهِم الأُخْرى؛ إِذِ الرِّفْقُ والسُّهولة خُلُقٌ مُتَأَصِّلٌ فيهِم[2].

عِلَّةُ وصلِ جُملَةِ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾ بِما قَبْلَها:

تَتِمَّةُ التَّعْريفِ بِعِبادِ الرَّحْمنِ

وُصِلت جُملَةُ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ بِما قَبْلَها: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ لاتِّفاقِهما في الخبريَّة، واشْتِراكِهِما في القَصْدِ، وهوَ التَّعريفُ بعِبادِ الرَّحمنِ[3].

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ(إذا) دونَ (إنْ):

تَشْغيبُ الجاهِلينَ عَلى أَهْلِ العِلْمِ والدِّينِ مَظْهَرٌ لِلكُفْرِ والعِنادِ قَديمٌ

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (إذا) دون (إن) في قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ وقوعِ مَدْخولِها على ما هو الأَصْلُ في (إذا)، فأفادَ ذَلِكَ أَنَّ مُخاطَبَةَ الجاهِلينَ لَهُم بالسّوءِ أمرٌ متيَقَّن محقَّق، والواقِعُ يُؤَيِّد ذلك؛ إِذْ مَتى سَلِمَ أهلُ العِلْمِ والدّين مِنَ الجاهِلينَ؟![4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 43.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 194.
(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 194.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 421، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 194.

نُكْتَةُ عَدَمِ تَكْرارِ الاسْمِ المَوْصولِ في ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾:

رُجوعُ الخَصْلَتَيْنِ إلى مَعْنى التَّواضُعِ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، على قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بِصورَةِ الشَّرْطِ، ولَم يُكرَّر المَوْصولُ كَبَقيَّة المَعْطوفات؛ لِنُكْتَتَيْنِ[1]:

إِحْداهُما: أنَّ الخَصْلَتَيْنِ بمنزِلَةِ الشَّيءِ الواحِدِ؛ لأنَّ كِلَيْهِما يَرْجِعُ إلى التَّواضُعِ.

والأُخْرى: الإيماءُ إلى أنَّ خِطابَ الجاهِلين لَهُم بالسّوءِ ليسَ مِمّا يكونُ دائِمًا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾:

خِطابُ الكُفّارِ لِأَهْلِ الإيمانِ خِطابُ جَهْلٍ وجَفْوَةٍ

ذكَر اللّهُ تَعالى هؤلاءِ بِصِفَةِ الجَهْلِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ - دونَ غَيْرِها مِنَ الأَوْصافِ مِمّا هو أشَدُّ مَذَمَّةً، مثل وَصْفِهم بالكُفْرِ - لأنَّ وَصْفَهُم بالجَهْلِ مُشْعِرٌ بأنَّ الخِطابَ الصّادِرَ مِنْهُم لأَهْلِ الإيمانِ خِطابُ جَهالَةٍ وجَفْوَةٍ[2].

نُكْتَةُ عَدَمِ التَّصْريحِ بِمَضْمونِ خِطابِ الجاهِلينَ:

خِطابُ السَّفيهِ لا يَكونُ إلّا سوءًا

لَم يَذْكُر النَّظمُ القرآنيُّ مضمونَ ما يُخاطِب الجاهلونَ به أهلَ الإيمانِ، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾؛ وذلك للعِلْم بأنَّ خطابَ الجاهِل - وهو السَّفيهُ - لا يكونُ إلّا سوءًا مِمّا يَقْتَضيهِ جَهْلُهُ، ويُمليهِ عليهِ سَفَهُهُ[3].

دِلالَةُ الكِنايَةِ في لفظ ﴿سَلَـٰمًا﴾:

إِطْلاقُ السَّلامِ عَلى لازِمِهِ، وهوَ المُتارَكَةُ

السَّلامُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ مصدَرٌ بِمَعْنى السَّلامة، والمَعْنى: (لا خيرَ بَيْنَنا ولا شرَّ، فنحنُ مُسَلَّمون مِنْكُم)، وجائِزٌ أن يكونَ السَّلام مرادًا به لفظُ التَّحيَّة،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 421، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 69.

(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 195.

فيكونُ مُسْتَعْملًا في لازِمِه، وهو المُتاركةُ؛ وذلكَ لأنَّ أصلَ اسْتِعْمالِ لفظِ السَّلامِ في التَّحيَّة إيذانُهُ بالتَّأمين، أي: عدَمِ الإهاجةِ، والتَّأمينُ يكونُ عندَ إلْقاءِ السَّلام، أوَّلَ ما يَلْقى به العبدُ مَن يُريد إكرامَهُ، ويكون التَّسْليمُ أيضًا عندَ الفِراقِ، فتكونُ هذهِ الآيَةُ في مَعْنى قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾[1] [القصص: 55].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِباد والعَبيد:

غالِبُ اسْتِعْمالِ (العِبادِ) في الطّائِعين، واسْتِعْمال (العَبيدِ) فيما يُقابِلُ الأَحْرارَ

العبادُ والعبيدُ كلاهما جمعُ عَبْدٍ، إلّا أنَّ العبادَ جَمعُ عَبْدٍ، الَّذي هوَ العابِدُ، أمّا العبيدُ؛ فهو جَمعُ عبْدٍ، الَّذي هوَ خلافُ الحُرِّ، وأمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فيَرِدُ لفظُ (العباد)، للإيماءِ إلى عِباد اللّه الطّائعين المُخْلِصينَ لَهُ العبادَةَ غالبًا، ولذا يَنْسِبُهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ إليه، تشريفًا لَهُم، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: 42]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، وقوله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾، ومِنْ غيرِ الغالِبِ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ١٧﴾ [الإسراء: 17]، وفي هَذا إيماءٌ إلى أنَّ ذُنوبَهُم خالَفَت ما يَنْبَغي أن يَكونوا عَلَيْهِ مِنْ سُلوكِ سَبيلِ الطّاعَةِ.

وأمّا لَفْظُ (العبيد)؛ فهوَ في الأصلِ دالٌّ على المُسْتَعْبَدينَ مِنَ النّاسِ، وهُم أقَلُّ مَرْتَبَةً مِنَ الأحرارِ في مَقاييسِ المُجْتَمَعاتِ، ولذا يُستعمل هذا الجَمعُ في القرآنِ الكريمِ غالبًا، في مَوضعِ التَّحقير،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 69.

وتصغير الشَّأن، كما في قول الله تَعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[1] [آل عمران: 181 - 182].

(1) محمَّد خضر ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 308 - 309.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان: 64]

ذِكْرُ تَهَجُّدِ عِبادِ الرَّحْمَنِ لِرَبِّ العالَمِينَ بَعْدَ ذِكْرِ تَواضُعِهِم وحِوارِهِم مَعَ الجاهِلِينَ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكر اللّهُ ﷻ ما بينَ عبادِهِ وبينَ الخلقِ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، وكانَ الغالِبُ عَلى ذَلِكَ أن يكونَ جَلْوَةً نَهارًا؛ أعقبَهُ بِذِكْرِ ما بينَهُم وبينَ خالِقِهِم مِنْ ذَلِكَ خلوةً لَيْلًا، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبِيتُونَ﴾: (بيت) تدُلُّ اشتِقاقاتُها على حَيِّزٍ مُحيطٍ يُستَقَرُّ فيه، ومِنْهُ البيتُ، وهو مسكَنُ الإنسان ونحوه، كقولِ اللّه تَعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: 74]، ومِنْ مَلْحَظِ السُّكونِ والاسْتِقْرارِ الفعلُ (باتَ)، بِمَعْنى: أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ، وهو زمنُ السُّكون، يُقال: باتَ يَفْعَلُ كذا، أي: ظَلَّ يَفْعَلُهُ ليلًا، ومِنْهُ قولُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾(2)، وعن الفرّاء: باتَ الرَّجلُ؛ إذا سهر اللَّيلَ كلَّهُ في طاعة اللّه أو معصيته، وقال اللَّيث: البيتوتة دخولك في اللَّيل، يقال: بِتُّ أصنع كذا وكذا(3).

حالُ عِبادِ اللهِ في صَلاتِهِم بِاللَّيْلِ وهُم يُعاقِبُونَ بَيْنَ السُّجودِ والقِيامِ

المَعنى الإجماليُّ:

الَّذينَ يَبيتونَ لِرَبِّهِم ﷻ يُصَلّون، يُراوِحونَ بينَ سُجودٍ في صَلاتِهِم وقيامٍ(4)، وهم يبيتون في طاعة اللّه تعالى وعبادته، ويذكرونه ذِكْرًا كثيرًا في رُكوعِهم وسجودهم، والمَعْنى: يكونون ساجِدين لربِّهم وقائمينَ، أَيْ: يُحْيون اللَّيلَ كلًّا أو بعضًا بالصَّلاة، وقد قال تعالى في

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير: 192 - 193.
(2) محمد حسن جبل، العجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 296.

صفتهم في موضعٍ آخرَ مِنَ القرآن: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذّاريات: 17 - 18][1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بما قَبلَها:

مُراعاةُ التَّناسُبِ اللَّفظيِّ والمَعنَويِّ في الجُملَتَيْن

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ معطوفٌ على قولِه سُبْحانَهُ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾؛ لاشْتراكِهما في الخبريَّةِ، وبينَهُما مناسبَةٌ لفظيَّةٌ ومعنَويَّة، فأمّا اللَّفْظيَّةُ؛ فاتِّحادُهُما في الاسميَّةِ، وأمّا المَعْنَويَّةُ؛ فلأنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ في بيانِ أَعْمالِ عِبادِ الرَّحمن.

دِلالَةُ إعادَةِ الموْصولِ (الذينَ):

شُهرَةُ أَهلِ الإيمانِ بالصَّلاةِ في اللَّيلِ ميزَةٌ لَهُم وكَرامَةٌ

أُعيد الموصولُ (الّذين) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ لتأكيدِ أنَّهُم يُعْرَفون بِمَضْمون الصِّلة؛ إذْ مِن شأنِ الصِّلَةِ أن تَكونَ ممّا يُعرَفُ، ولا يُنكرُ، وهذا دالٌّ عَلى شُهْرَتِهم بالصَّلاة في اللَّيْلِ[2]، والموصول وجملته هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ "بيانٌ لحالِهم في معاملتِهم مع ربِّهم، أي: يكونون ساجِدين لربِّهم وقائمين، أي: يحبّون اللَّيلَ كُلًّا أو بعضًا بالصَّلاة"[3]، ومن أحبَّ لقاءَ اللّه تعالى في خَلواتِه؛ أحبَّ اللّهُ سُبحانَهُ لقاءَه يوم القيامة في جَلواته.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَبِيتُونَ﴾:

صَلاةُ الصّالِحينَ بِاللَّيلِ مِنْ عاداتِهِمُ الدَّؤوبَةِ الثّابِتَةِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَبِيتُونَ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ للدِّلالةِ عَلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ صلاتَهُم باللَّيل كانت على وجْهِ الاسْتِمرارِ، حتّى

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 70.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 228.

صارت دَأْبًا لَهُم، و(البيتوتة) لغةً: الدُّخول في اللَّيل، ممّا يعبِّرُ عَنْهُ لفظ ﴿يَبِيتُونَ﴾، يقال: بات يَفْعَلُ كَذا يَبِيتُ ويَباتُ؛ إذا فعلَهُ ليلًا، وقد تُسْتَعارُ البَيْتوتَةُ لِلكَيْنونَةِ مُطْلقًا، فتَكونُ مَجازًا، إلّا أنَّ الحقيقةَ أَوْلى؛ لكثرة ما وردَ في مَعْناها من الآيات والذِّكر الحكيم، ولذلك قال جماعةٌ مِنَ السَّلف: في الآية مدحُ قيام اللَّيل والثَّناء على أَهْلِه[1]، وهم أهلٌ لهذا الثَّناء، قال الشّاعر في وصف النَّبيِّ ﷺ، بالتَّهجُّد وقيام اللَّيل:

وفينا رَسولُ اللّهِ يَتْلو كِتابَهُ *** إذا انْشَقَّ مَعْروفٌ مِنَ الفَجْرِ ساطِعُ
أرانا الهُدى بَعْدَ العَمى فقُلوبُنا *** بِهِ موقِناتٌ أَنَّ ما قالَ واقِعُ
يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عنْ فِراشِهِ *** إذا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكينَ المَضاجِعُ[2]

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾:

إِخْلاصُ عِبادِ اللهِ تَعالى في طاعَتِهِم لَهُ سُبْحانَهُ سَبَبٌ لِلقُرْبِ والتَّسامي

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ للدَّلالَةِ على القَصْرِ والحَصْر؛ إذْ إنَّ تَقْديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يدُلُّ عَلى ذَلِكَ، ففي الآيَةِ دِلالَةٌ عَلى إخْلاصِهِم للّهِ تَعالى في أداءِ صَلاتِهِم وابْتِغاء وجْهِ رَبِّهم الكريم، فلا يَسْجُدونَ لِغَيْرِه؛ إذْ لا يَعْبُدونَ غَيْرَهُ، ولا يَسْجُدونَ لِسِواه[3].

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ):

مِنْ بَواعِثِ الصَّلاةِ بِاللَّيْلِ شُكْرُ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى أَفْضالِهِ

اخْتيرَ اسْمُ اللّهِ تَعالى (الرَّبِّ) في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ للإيماءِ إلى الباعِثِ لِعبادِ الرَّحْمن عَلى الصَّلاة في اللَّيل ودَوامِهِم عَلَيْها، وهو شُكْرُ اللّهِ سبحانَهُ على نِعمِه وأفضالِه[4]، والمَعْنى: أنَّهم لا يَفْتؤون يتزَلَّفون إلى اللّهِ تَعالى بِطاعَتِه، شُكْرًا لَهُ عَلى

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 436.

(2) الأبيات مرويّة في صحيح البخاري (رقم الحديث: 1155) عن أبي هريرة، وهي لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يمدح النّبي ﷺ.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 422، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5313، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 436.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 422.

أَفْضالِه ونِعَمِه، "أي: إنَّهم يَبيتونَ ساجِدين لرَبِّهم خاضِعين، وقائمين له، وقدَّم قوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لبيان قَصْرِ السُّجود عليه، فلا يَسْجُدون لغيرِه؛ إذْ لا يَعْبُدون غيرَهُ، ولا يَسْجُدون لِسِواهُ"[1].

دِلالَةُ تَقْديمِ السُّجودِ عَلى القيامِ:

السُّجودُ أَشَدُّ أَرْكانِ الصَّلاةِ قُرْبًا إلى اللهِ تَعالى

قُدِّم السُّجود على القيام في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ مع أنَّه مُتَأَخِّر عنهُ في الفِعْلِ؛ لأنَّه أشَدُّ أركانِ الصَّلاة تقريبًا إلى اللّه سُبحانه؛ لكونه الغايةَ في الخُضوع، ولأنَّه الفعلُ الَّذي يأباهُ الجاهلونَ، كما قالَ اللّه تعالى عَنْهُم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩﴾، معَ ما في تقديم السُّجود على القيام من مُراعاةِ تَناسُب فواصلِ الآي، فإنَّ الآيةَ قَبْلَها خُتِمَت بـ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، والآيةَ بعدَها بـ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[2].

بلاغةُ الكِنايَةِ في لَفْظَتَي ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾:

التَّنْبيهُ عَلى شَرَفِ القيامِ والسُّجودِ في الصَّلاةِ

ذُكِر السُّجودُ والقيامُ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾؛ كنايةً عَن الصَّلاةِ، والمعنى: أنَّهم يُصَلّون، ويتهجَّدون طائعينَ لِرَبِّهم تعالى، وقد وقعَ الإطنابُ في التَّعبير عن الصَّلاة بذِكْرِ رُكْنَيْنِ مِن أركانِها؛ تَنْويهًا بِهِما وتَشْريفًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(سُجَّدٌ) و(سُجودٌ):

(سُجَّد): مُشْعِرٌ بِالحَرَكَةِ المُدْرَكَةِ بِالعَيْنِ، و(السُّجودُ): يَدُلُّ عَلى السُّجودِ الظّاهِرِ والباطِنِ

الفرق بين (سُجَّدٍ) و(سُجودٍ) - مرادًا به جمعُ (ساجِدٍ) -[4] أنَّ جمعَ (ساجدٍ) على (سُجَّدٍ) مُشْعِرٌ بالحركةِ الظّاهرةِ الَّتي تُدركُها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5313.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 127، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 422، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 44، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 70.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 70.

(4) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية: 133 - 135.

العينُ؛ لأنَّ هذا الجمع (فُعَّل) يدلُّ على الحركة الظّاهرة، ويدلُّ أيضًا على تكثير القيام بالفعل، ودلالتُهُ على الحركة الظّاهرةِ أبرزُ، بخلافِ (السُّجودِ)؛ فإنَّهُ يُطْلَقُ على المصدر، ويُطلق جمعًا لـ (ساجدٍ)، ويدلُّ هذا الجمعُ على السُّجود الظّاهر والباطنِ، ولذا قال ابنُ القيّم: "السُّجودُ في الأَصْلِ مصدرٌ، كالخشوع والخضوع، وهو يتناول السُّجود الظّاهر والباطن ... و(السُّجَّد) في جمع (ساجد)، لم يتناول إلّا المعنى الظّاهر، وكذلك الرُّكَّع، ألا تراه يقول: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]، وهذه رؤيةُ العين، وهي لا تتعلَّق إلّا بالظّاهر"[1].

فالسُّجَّدُ دالٌّ على مجرَّد الحركةِ الظّاهرةِ، وقد ورد لفظ (السُّجَّد) في القرآن الكريم، في أحدَ عشر موضعًا، كلُّها تدلُّ على هذا المعنى.

أمّا (السُّجود)؛ فقد ورد في ستَّةِ مواضع، منها موضعان يُرادُ بهما جمع (ساجدٍ)، وهما قول اللّه تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]، وقوله سبحانه: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]، والمقصود: السُّجودُ الكاملُ الجامع بين الظّاهر والباطنِ؛ لأنَّه هو المناسبُ لِمَعْنى التَّطهير.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 66.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: 65 - 66]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرَّبْطُ بَيْنَ السُّجودِ والتَّهَجُّدِ وبَيْنَ شِدَّةِ خَوْفِ أَهْلِ الإيمانِ مِنْ عَذابِ جَهَنَّمَ

لَمّا ذَكَر اللّهُ تَعالى تَهْذيبَ عِبادِ الرَّحمن لأنفُسِهم للخَلْقِ والخالِق؛ بيَّنَ أنَّه لا عُجْبَ عندَهُم بأعْمالِهِم، بَل هُم خائفونَ، والحامِلُ لَهُم على ذلك الخوفِ هوَ الإيمانُ بالآخِرَةِ الَّتي كذَّب بها الجاهِلون، وأنَّهم قدَّموا الدُّعاء بالنَّجاة اهْتِمامًا بِدَرْءِ المَفْسَدَة وخَوْفًا من مواقَعَتِها، وإن اجْتَهَدوا في الأعمالِ الصّالِحَة، لِتَقْصيرِهِم عَن تَقْديرِ اللّهِ سُبْحانَهُ حقَّ قَدْرِه، فقالَ سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡرِفۡ﴾: (صرف): تدورُ تصاريفُها على مَعْنى الرُّجوعِ، أو هوَ ردُّ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ، أو إبدالُهُ بغيرِه، ومِنْهُ: انْصَرَفَ القومُ، أي: رجعوا، ويَرِدُ الصَّرْفُ بمعنَى التَّوبَةِ؛ لأنَّه يُرْجَعُ بِهِ عنَ رُتبةِ المُذْنبينَ إلى حالِ الطّائِعينَ[2]، ومِنْ هذا البابِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]، أي: تَحْويلُها من وجْهٍ إلى وجْهٍ ومن حالٍ إلى حالٍ[3]، ومعْنَى قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾: ادْفَعْهُ عَنّا بالعِصْمَة مِن أسبابِه، ومَغْفِرَة ما وقعَ مِنّا ممّا هو مقتَضٍ للعذابِ[4].

2) ﴿غَرَامًا﴾: (غرم): تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى المُلازمَةِ، ومِنْهُ: الغريمُ، سُمّي بِذَلِكَ لِلُزومِه وإلْحاحِه[5]، وتقولُ العربُ: فلانٌ مُغْرَمٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف)، والرَّاغب، مفردات ألفاظِ القرآن: (صرف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (صرف).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 586.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).

بالنِّساء، أي: يُحِبُّهُنَّ، ويُلازِمُهُنَّ ملازمَةَ الغَريم[1]، والمَغْرَمُ: ما يُلْزِمُهُ الإنسانُ نفسَهُ أو يُلْزِمُهُ غيرَهُ، ولَيْسَ بواجِبٍ عليهِ[2]، والغَرامُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، هو العذابُ اللّازِمُ[3].

3) ﴿مُسْتَقَرًّا﴾: القافُ والرّاءُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على ثَباتِ ما شأْنُه التَّسيُّبُ، وامتِساكُه في قاعٍ عميقٍ[4]، ومِنْهُ القُرارةُ، وهي: ما بَقيَ في القِدْرِ بعد الغَرْفِ منْها[5]، سُمّيَ بذلك لاستقرارِهِ أسفَلَها، والقَرارةُ: كلُّ مطمئنٍّ انْدفع إِلَيْهِ الماءُ، فاستقرَّ فيه[6]، والمُسْتَقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الفعل: استقرَّ، يقال: قرَّ بالمكانِ واستقرَّ: أقامَ فيه، فالمُسْتَقَرُّ: مكان قرارٍ وإقامةٍ[7]، والمستقرُّ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، هو القَرارُ والمَنْزِل، والمَعْنى: إِنَّ جهَنَّم ساءَت مَنْزِلًا وقَرارًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مواصَلَةُ الدُّعاءِ مِنَ السُّجَّدِ القائِمينَ بالوِقايَةِ مِنْ عَذابِ جَهَنَّم

من أحوالِ عبادِ الرَّحمن أنَّهُم الَّذين هُم مَع اجْتِهادِهِم في العِبادة يَخافونَ اللّهَ سُبْحانَهُ، فيَدْعونَهُ أَن يُنَجّيَهُم من عَذابِ جَهَنَّم؛ إذْ إنَّ عذابَ جَهَنَّم، كان دائمًا لازِمًا، غيرَ مُفارِقٍ مَن عُذِّب بِهِ مِنَ الكُفّار، ومُهْلِكًا لَهُ، إِنَّ جهَنَّم شَرُّ قَرارٍ وإقامَةٍ[9].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بما قَبْلَها:

مُراعاةُ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ والمَعْنَويِّ في الجُملَتَيْنِ

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾

(1) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (غرم)، وأبو حيّان، تحفة الأريب: (غرم).
(2) أبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (غرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قرر).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قرر).
(7) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/ 124، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/ 207، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/ 137.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 298.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 296 - 297، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 365.

معطوفٌ على قولِه سُبْحانَهُ قبلُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾؛ لاشْتراكِهما في الخبريَّةِ، وبينَهُما مناسبَةٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى، فأمّا المناسبَة في اللَّفْظِ؛ فاتِّحادُهُما في الاسميَّةِ، مع ما في الجُملَتَيْنِ مِن اتِّحادٍ في الموصولِ (الذين)، واتِّفاق الصِّلَتَيْنِ في الفِعْليَّةِ المُضارعيَّة، وأمّا المناسَبَةُ في المَعْنى؛ فلأنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ في بيانِ أَعْمالِ عِبادِ الرَّحمن.

دِلالَةُ إعادَةِ المَوْصولِ (الذينَ):

لُزومُ أَهْلِ الإيمانِ الدُّعاءَ بِصَرْفِ عَذابِ النّارِ عَنْهُم

أُعيدَ المَوْصولُ (الذين) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لتأكيدِ أَنَّهُم يُعْرَفون بِمَضْمونِ الصِّلة؛ إذْ مِن شأنِ الصِّلَةِ أَن تكونَ ممّا يُعرَفُ، ولا يُنكَرُ، وهذا دالٌّ عَلى شُهْرَتِهِم بهذا الدُّعاءِ ولزومِهم لَهُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

عِظَمُ خُضوعِ أَهْلِ الإيمانِ وخُشوعِهِم دَليلُ ورَعِهِم وخَشْيَتِهِم

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ مِنْ قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ دلالَةٌ عَلى التَّجَدُّد الاسْتِمراريِّ، وأنَّ هذا حالٌ ملازِمَةٌ لَهُم، يُكَرِّرونَها في جميعِ أَوْقاتِهِم، وذَلِكَ يَقْتَضي عظيمَ خُضوعِهِم وخُشوعِهِم ودوامَ حَذَرِهِم الدّائِم مِن عذابِ اللهِ سُبْحانَهُ مَعَ شَديدِ اجْتِهادِهِم في طاعَتِهِ[2].

سِرُّ الدُّعاءِ بِاسْمِ اللهِ (الرَّبِّ):

دَوامُ إِحْسانِ اللهِ تَعالى لِعِبادِهِ يَعْكِسُ سَوانِحَ أَلْطافِهِ

وقعَ الدُّعاءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ باسْمِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ المُتَكَلِّمينَ (نا)؛ لِلإشعارِ بأنَّ اللهَ سُبحانَهُ الَّذي لم يَقْطَعْ إحسانَهُ عنهم في الدُّنيا حَريٌّ بأَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِم في الآخِرَةِ، بِدَفْعِ عذابِ جهَنَّم عَنْهُم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 70.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5314.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 423.

الدَّلالَةُ عَلى الطَّلَبِ والدُّعاءِ مِنَ العَبْدِ الفَقيرِ لخالِقِهِ ومَوْلاهُ

دِلالَةُ فِعْلِ الأَمرِ ﴿ٱصۡرِفۡ﴾:

﴿ٱصۡرِفۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ فعلُ أمرٍ، والمرادُ به التَّضَرُّعُ والدُّعاء؛ لِصُدورِ هذا الطَّلب مِنَ العِباد إِلى رَبِّهم ﷻ.

شِدَّةُ خَوفِ المُؤمِنينَ مِنْ عَذابِ اللهِ سُبْحانَهُ مَلْمَحٌ لِلتَّوَقّي مِنَ النّارِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الصَّرْفِ ﴿ٱصۡرِفۡ﴾:

في التَّعْبير بفِعْلِ الصَّرف ﴿ٱصۡرِفۡ﴾ في قولِ اللّه سُبۡحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ حالَهُم حالُ مَن يَتَصَوَّرُ أنَّ جهنَّم سَتَسْعى إِلَيْهِم، وأَنَّ بينَها وبينَهُم خُصومَةً؛ فسَألوا اللّهَ تَعالى أَن يَصْرِفَها عَنْهُم[1].

كَمالُ انْقِطاعِ الجُمْلَتَيْنِ في اخْتِلافِهِما خَبَرًا وإِنْشاءً

عِلَّةُ فصْلِ جُملَةِ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ عَمّا قَبْلَها:

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ عَن جُملَةِ: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لكمالِ الانْقِطاعِ بينَهُما، فإِنَّ الجُملة الأولى إنشائيَّةٌ؛ لِكَوْنِها دُعاءً، والجملةَ الثّانيةَ خبريَّةٌ، وقد جاءت تَعْليلًا لسُؤالِ صَرْفِ عذابِ جهنَّم عَنْهُم، سواءٌ أَجُعِلَت الجملةُ حكايةً مِن كلامِ القائِلين، أَم جُعِلَت جملةً معترضَةً مِن كلامِ اللّهِ سُبۡحانَه[2]؟

شِدَّةُ عَذابِ النّارِ ودَوامُهُ مِنْ أَشْنَعِ العَذابِ وأَبْشَعِهِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾:

في التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾، مِن قولِ اللّهِ سُبۡحانَه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذا الوَصْفَ لازِمٌ لَها لا يَنْفَكُّ عنها بحالٍ، حتّى كأنَّها جُبِلَت عليه، وطُبِعَت[3].

دَوامُ عَذابِ النّارِ ومُلازَمَتُهُ

عِلَّةُ فصْلِ جُملَةِ ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ﴾ عَمّا قَبْلَها:

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ عمّا قَبْلَهُ؛

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10507.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 423، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 71، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 200.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 423.

لِمَجيئِه تَعْليلًا لاسْتِدْعائِهم المَذْكورِ بِسوءِ حالِها في نَفْسِها إثْرَ تعليلِه بِسوءِ حالِ عَذابِها[1].

ويجوزُ أَن يكونَ فصْلُ هذهِ الجُملَةِ عمّا قبلَها؛ لِما بَيْنَهُما مِن كمالِ الاتِّصال، وذلكَ لأنَّ جملةَ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لمضمونِ جُملَةِ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ مع اختلافٍ في المَعْنى، وذلكَ لأنَّ ما أفادَتْهُ الجُملَةُ الأولى، مِن شدَّة عَذابِها ومُلازَمَتِه؛ أكَّدَتْهُ الجُملةُ الثّانية، بما أفادَتْهُ مِن شَرِّ مُسْتَقَرِّها ومُقامِها[2].

وهذه الجملَةُ - ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ يجوز أن تكونَ حكايَةً لكلامِ القائِلين، فتكونُ تعليلًا ثانيًا، مُؤَكِّدًا لتعليلِهم الأوَّل المَذْكورِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، أو أن تكونَ مِن كلامِ اللّه تعالى دونَ الّتي قَبْلَها، فتكونُ تأْييدًا لِتَعْليلِ القائِلين، ويجوزُ أن تكونَ هيَ والّتي قبلَها مِن كلامِ اللّه سُبْحانَهُ، فتكونُ الجملةُ تَكْريرًا للاعْتِراض[3].

دِلالَةُ التَّأْكيدِ بـ (إنَّ):

الإيماءُ إلى قُبْحِ العَذابِ وشِدَّتِهِ

أُكِّد قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ بـ (إنَّ)؛ لأنَّه قد لوِّح، وأُشير قبلُ إلى مَضْمونِ هذا الخَبَر، وشأنُ السّامع لذلكَ أَن يَسْتَشْرِفَ لَهُ اسْتِشْرافَ السّائلِ المُتَرَدِّد، فيكونُ التَّأكيدُ في هذا الخَبَرِ لتَنْزيلِ خالي الذِّهْنِ منزلَةَ المُتَرَدِّد، ووجهُ هذا التَّلْويح إلى مضمونِ الخَبَر: أنَّ عبادَ الرَّحمنِ لَمّا سألوا اللّهَ تَعالى صَرْفَ عذابِ جَهَنَّم عَنْهُم؛ كان هذا مُشيرًا إلى قُبْحِ هذا العذابِ وشِدَّتِه[4].

دِلالَةُ الجمعِ بَيْنَ لفظي: ﴿مُسۡتَقَرّٗا﴾ و﴿وَمُقَامٗا﴾:

في الجَمعِ بينَ المُسْتَقَرِّ والمُقام في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّهَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 229، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 45.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 71.
(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 200.

جَهَنَّمُ مُسْتَقَرٌّ لِعُصاةِ المُوَحِّدينَ، ومُقامٌ لِأَهْلِ الكُفْرِ

سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ إشارَةٌ إلى أنَّه ليس استقرارًا عارضًا، ولكنَّه إقامَةٌ دائِمَةٌ[1].

واسْتَظْهَر أبو حيّان أنَّ الجَمعَ بينَهُما هو على سبيلِ التَّوكيد؛ إذْ هُما مُتَقارِبانِ في دلالَتَيْهِما[2]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْم إلى أنَّ الوَصْفَيْنِ باعتبارِ المُعَذَّب فيها؛ فالمُسْتَقَرُّ لعصاةِ أهلِ الإيمان، فإنَّهم يَسْتَقِرّون فيها استقرارًا بحسَبِ ذُنوبِهم، ولا يُقيمون فيها إقامَةً دائِمَةً؛ إذْ لا يُخلَّد أهلُ التَّوحيد في النّار إن دخَلوها بسبَبِ مَعاصيهِم، وأمّا المُقامُ؛ فهو لأهلِ الكُفْرِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5314.

(2) أبو حّيان، البحر المحيط: 8/ 128.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 128.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَـذْلُ المُؤْمنينَ لِلمالِ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَراتِ صَلاتِهِم بِاللَّيْلِ

لَمّا بيَّن اللّهُ سُبْحانَه حالَ عبادِهِ الصّالحينَ مَعَ صلاةِ اللَّيل، وكانتِ الصَّلاة مُرَبّيةً للنَّفس ومُهَذِّبةً لَها على تعظيم الرَّبِّ ﷻ واسْتِصْغار الدُّنيا وما فيها، فلا يَعْظُمَنَّ عندَهُم شيءٌ مِنْها؛ بيَّن سُبْحانَهُ ما أَثْمَرَتْهُ صلاتُهُم في أعَزِّ شيءٍ في هذِهِ الدُّنْيا، وهو المالُ، وأنَّهُم لا يُمسِكونَهُ عَن حَقٍّ، ولا يَبْذلونَهُ في باطِلٍ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفَقُواْ﴾: (نفق) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى أَصْلَيْنِ كُلّيَّيْنِ؛ أحدُهما: انْقِطاعُ شَيْءٍ وذهابُه، والآخَرُ: إخفاءُ شيءٍ وإغماضُه، فمِنَ الأوَّل قولُهم: نفَقَ السِّعْرُ؛ لأنَّه يَمضي، فلا يَكْسُدُ، ولا يَقِفُ، ومنهُ سُمّيت النَّفقةُ نفقَةً؛ لأنَّها تَمضي لوَجْهِها، وتقولُ العرَبُ: أنفقَ الرَّجُلُ؛ إذا افْتَقَر، وذلكَ لِذَهابِ ما كانَ عِنْدَهُ، ومِنَ الآخَرِ: النَّفق، وهو سَرَبٌ في الأرضِ لَه مَخْلَصٌ إلى مكانٍ، ومنهُ اشْتُقَّ اسمُ النِّفاق؛ لأنَّ صاحبَه يُظْهِر خلافَ ما يُبطن[2]، ويُطْلَقُ الإنفاقُ على إخراج المالِ ونحوِهِ مِنَ اليدِ، ومِنْهُ قولُهم: نفقَ البيعُ؛ إذا خرج مِن يدِ البائع إلى المُشْتَري[3]، والإنفاقُ يَكونُ بالمال ويكون بغيرِه، ثُمَّ هو قد يكونُ واجبًا أو مستحَبًّا[4].

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 216.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط، 1/ 195.
(4) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن: (نفق).

2) ﴿يُسۡرِفُواْ﴾: (سرف) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على تَعَدّي الحدِّ ومُجاوَزَته، ومِنْهُ قولُهُم: في الأَمرِ سَرَفٌ، أي: مجاوَزَةٌ للقَدْرِ(1)، والسَّرف عامٌّ في كُلِّ فِعْلٍ يُجاوِزُ بهِ الإنسانُ الحَدَّ، واشْتَهَر إطلاقُهُ في الإِنْفاقِ، ومِنْهُ قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾(2).

3) ﴿قَوَامًا﴾: (قول) تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى مَعْنى انْتِصابِ شَيْءٍ إلى أَعْلى، على وجْهِ الثُّبوت، ومِنْهُ: قامَةُ الإِنْسانِ وقيامُهُ، ومِن صوَرِ الانْتِصابِ: الاسْتِقامَةُ، بِمَعْنى عدَمِ العِوَجِ الحِسّيِّ، وبِمَعْنى الثَّبات على العَهْدِ أو الدّين وعدَمِ الحَيْد عَن جادَّتها، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]؛ إذْ هو الَّذي لا انْحِرافَ فيهِ ولا اعْوِجاجَ، ومِنْهُ قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: 5]، أي: المِلَّةِ المُعْتَدِلَة، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، أي: عَدْلًا، ليسَ فيه ميلٌ إلى أيٍّ مِنَ الطَّرفَيْن(3).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاعْـتِـدالُ في النَّفَقَةِ والتَّوَسُّطُ فيها

والَّذينَ إذا أَنْفَقوا مِن أموالِهم، لَم يَتَجاوَزوا الحدَّ في العطاءِ، ولَم يضيِّقوا في النَّفقةِ، وكانَ إِنْفاقُهُم وسطًا بينَ التَّبذير والتَّضْييق(4)، وهذا المَنْهَجُ الوَسَطيُّ المعتدِلُ يُحقِّق للأُسْرَةِ الاستقرارَ، ويَضْمَنُ لها مواجهةَ الأزماتِ في ثِقَةٍ وثباتٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

اتِّـسـامُ عِـبـادِ الـرَّحْـمـنِ بـالاعْـتِـدالِ في الإِنْفاقِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ بما قبلَها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لاشْتِراكِهما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرف).
(2) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن: (سرف).
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 365.

في الخبريَّةِ، وبينَهُما مناسبَةٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى، فأمّا المناسبة في اللَّفْظِ؛ فاتِّحادُهُما في الاسميَّةِ، مع ما في الجُملَتَيْنِ من اتِّحادٍ في الموصولِ (الَّذين)، واتِّفاق الصِّلَتَيْنِ في الفِعْليَّةِ، وأمّا المناسَبَةُ في المَعْنى؛ فلأنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ في بيانِ أعمالِ عِبادِ الرَّحمن.

دِلالَةُ إعادَةِ المَوصولِ (الَّذينَ):

وَصْفُ المُؤْمِنينَ بالإنْفاقِ عَلى وجْهِ الاعْتِدالِ باعْتِبارِهِ مَقْصِدًا شَرْعيًّا مُهمًّا

أُعيدَ المَوْصولُ (الذين) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ لتأكيدِ أنَّهُم يُعْرَفون بمَضْمونِ الصِّلة؛ إذْ مِن شأنِ الصِّلَةِ أن تَكونَ مِمّا يُعرَفُ، ولا يُنكَرُ، وهذا دالٌّ عَلى شُهْرَتِهم بالإنفاقِ عَلى وجْهِ الاعتِدالِ من غيرِ إسْرافٍ ولا تَقْتيرٍ[1]، وفي إعادة اسم الموصول كذلك اعتناء خاص بكلّ صفة أو منقبة إيمانية خاصة.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ ﴿إِذَآ﴾:

تَحقُّقُ إنْفاقِ المُؤْمِنينَ عَلى وجْهِ الاعْتِدالِ

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ ﴿إِذَآ﴾ دون (إنْ) في قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ للدَّلالَةِ على تَحقُّقِ وقوعِ مَدْخولِها، على ما هو الأَصْلُ في ﴿إِذَآ﴾، فأفادَ ذَلِكَ أنَّ إنفاقَهُم على الوجهِ المَذْكورِ مِنَ الاعتدالِ أَمرٌ متحقَّق.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُسۡرِفُواْ﴾:

دَوامُهُم عَلى اجْتِنابِ الإسْرافِ في الإنْفاقِ

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُسۡرِفُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ دلالَةٌ عَلى التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، وأنَّ هذا حالٌ ملازِمَةٌ لَهُم يُكَرِّرونَها في جميعِ أَوْقاتِهم، والمقصودُ دوامُ النَّفْيِ لا نفيُ الدَّوام؛ فإنَّ سياقَ مَدْحِهِم بهذا الوصفِ، يَقْتَضي أنَّهم مُسْتَمِرّون على مُجانَبَةِ الإسْرافِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾:

اسْتِمرارُهُم عَلى مُجانَبَةِ الإقْتارِ في الإنْفاقِ

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ دلالَةٌ عَلى التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 70.

مفيدٌ استمرارَ النَّفْي لا نفي الاستمرار، والقرينَةُ عَلى ذلك ذِكْرُ هذا الوصفِ في سياق المَدْحِ، فدَلَّ على أَنَّهُم مُستَمِرّون على مُجانبَةِ الإقْتارِ في الإنْفاقِ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في لفظ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ نافِعٌ وابنُ عامِرٍ وأبو جَعْفَرٍ ﴿يُقۡتِرُواْ﴾ بضَمِّ الياء وكَسْرِ التّاء، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو ويعقوبُ ﴿يَقۡتِرُواْ﴾ بفَتْحِ الياء وكَسْرِ التّاء، وقرأ باقي العشرَةِ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾ بفتح الياءِ وضَمِّ التّاء[1].

فأمّا قراءةُ ﴿يُقۡتِرُواْ﴾، فهوَ منَ الفِعْلِ المُضارِعِ (أَقْتَر) الرُّباعيِّ، ومنهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، فإنَّ المقترَ اسمُ فاعلٍ من (أَقْتَرَ).

وأمّا قراءةُ ﴿يَقۡتِرُواْ﴾؛ فهوَ منَ الفِعْلِ الثُّلاثيِّ (قَتَرَ)، وبابه ضربَ يضرِب، فيقال: قَتَرَ يَقْتِرُ، وأمّا قراءةُ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾؛ فهوَ منَ الفِعْلِ الثُّلاثيِّ (قَتَر) وبابُه قَتَلَ يَقْتُلُ، فيقال: قَتَرَ يَقْتُرُ[2].

وهي كلُّها لغاتٌ جائِزَةٌ: قَتَرَ يَقْتِر ويَقْتُر، وأَقْتَرَ، ومعناها مُتقارِبٌ، وهوَ تضييقُ النَّفقَةِ وعدَمُ توسيعِها[3].

دِلالَةُ لَفْظِ ﴿قَوَامًا﴾ في سياقِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

مَدْحُ الإنْفاقِ الَّذي يَكونُ عَلى وجْهِ الاعْتِدالِ والعَقْلانيَّةِ

القَوامُ هو العَدْلُ والقَصْدُ بينَ الطَّرفين، والمقصودُ: أنَّهُم يَضَعونَ النَّفقةَ في مَواضِعِها اللّائِقَة بِحَسَبِ ما أَمَرَهُم اللّهُ تَعالى، فيَدومُ إنْفاقُهُم، وذلكَ لأنَّ الإسْرافَ من شأنِه اسْتِنْفادُ المالِ، فلا يدومُ الإنفاقُ، ومِن شأنِ الإقْتار إمساكُ المالِ، فيُحْرَمُ مُستَحِقّوه.

و﴿قَوَامًا﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ حالٌ مؤكِّدَةٌ

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 334، وابن البنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 418.

(2) محمّد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة: 3/ 94.

(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 218.

لمعنى ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾؛ إِذِ المَعْنى: وكانَ إنفاقُهُم بينَ الإِسْرافِ والإِقْتارِ حالَ كونِه قَوامًا، وفي ذلكَ إشعارٌ بمَدْحِ ما بينَ ذَلِكَ بأنَّه الصَّواب لا عِوَجَ فيه[1]، ويجوزُ أن يكونَ ﴿قَوَامٗا﴾ خَبَرًا لـ (كانَ)، و﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ ظَرْفًا مُتَعَلِّقًا به، وفي تقديمِ الظَّرْفِ عَلى هَذا اهتِمامٌ بالمُقَدَّم، ومراعاةٌ لتَناسُبِ فواصِلِ الآيِ.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإِسْراف والتَّبْذير:

التَّبذيرُ في اللُّغة: نَثْرُ الشَّيء وتَفْريقُهُ، مأخوذٌ من بَذْرِ الحُبوبِ للزَّرْعِ، ثُمَّ اسْتُعير لتَضْييعِ المالِ؛ لأنَّ فاعلَ ذلكَ يُشْبِهُ - في الظّاهر - مَن يُلْقي البَذْرَ في الأرضِ من غيرِ مَعْرِفَتِهِ بمآلِ ذَلِكَ[2].

الإِسْـرافُ أَعَـمُّ مِـنَ الـتَّـبْـذيرِ، وكِلاهُما مَنْهِيٌّ عَـنْـهُ فِي كَـلامِ الحَكيمِ الخَبيرِ

والإسرافُ في اللُّغة: مجاوزَةُ القَصْد وتركُ الاعتدالِ في كُلِّ شيء، ومنهُ الإسرافُ في المالِ، وهو إضاعَتُه أو وضْعُه في غيرِ مَوْضِعِه[3].

وفي الاستعمالِ القرآنيِّ للكلمتَيْن نجدُ أنَّ (التَّبذيرَ)، قَدْ خُصَّ بإضاعةِ المال دونَ غَيْرِه، كما في قول اللّه سُبْحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ۝٢٧﴾ [الإسراء: 26 - 27]؛ وذلك لأنَّ الآية سيقَت في شأن الزَّكاة، والمعنى: لا تُضَيِّع مالَكَ فيما نَهى اللّهُ عنهُ منَ المُباهاةِ والتَّفاخُرِ.

وأمّا لفظُ الإِسْرافِ؛ فقَد جاءَ في الاستعمالِ القُرْآنيِّ في إضاعةِ المالِ وغَيْرِه، فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾، ومن الثّاني قولُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: 53].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 72.
(2) الرّاغب، مفردات: (بذر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرف).

والحاصلُ أنَّ كُلًّا مِنَ الإسرافِ والتَّبذيرِ وصفٌ مذمومٌ، دالٌّ على مُجاوزَةِ الحَدِّ، والفَرْقُ بينَهُما: أنَّ التَّبذير خاصٌّ بإِضاعَةِ المالِ، بخِلافِ الإِسْرافِ فإِنَّه عامٌّ في المالِ وغيرِهِ مِنَ الذُّنوب والمعاصي، فبَيْنَ اللَّفْظَيْنِ عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ[1].

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم: 119 - 120.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحلّي عبادِ الرّحمن بالفضائلِ وتَخلّيهم عنِ الرّذائل

لـمّا ذكر ما تحلَّى به عبادُ الرّحمن من أصولِ الطّاعات، بما لهم منَ العدلِ والإحسانِ بالأفعال والأقوالِ، في الأبدان والأموالِ، أتبعَه قسمًا آخرَ من صفاتهم وهو قسمُ التّخلّي عنِ المفاسد وأمّهاتِ المعاصي الّتي كانت ملازمةً لقومِهم منَ المشركين(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدۡعُونَ﴾: أصلُه منَ الدّعاء، وهو النّداء، وأصلُه: إمالةُ الشّيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، ومنه سُمّيَت الرّغبةُ إلى اللّه ﷻ دعاءً، تقول: دعوتُ فلانًا، دُعاءً ودَعوةً، أي: ناديته(2)، ويأتي الدّعاءُ بمعنى الطّلبِ والسّؤال، يقال: دعوتُ اللّه، أدعوه، أي: سألتُه(3)، والدّعاءُ أيضًا: العبادةُ والضّراعة(4). وهو المعنى المقصودُ في الآية.

2) ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾: (نفس) أصلٌ واحدٌ يدلّ على خروج النّسيم، من ريح أو غيرِها، وإليه يرجع فروعُه(5)، فالنَّفس الرّوحُ، يقال: خرجت نَفْسُ فلان، أي روحه، وتأتي بمعنى العَين، فيقال: أصابت فلانًا نَفْسٌ، أي عَين، ونفْسُ الشّيء: عينُه، وأصلُ الكلمة منَ التّنفيس، وهو الخروجُ منَ الجوف، ومنه النّفاسُ وهو الولادة، والنَّفَس: الرّيحُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر، 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 19/ 72.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (دعو).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3644.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).

الدّاخل والخارج في البدن منَ الفم والمنخر، وهو كالغذاء للنَّفْس، وبانقطاعه بطلانُها[1]، ويُطلق النّفْسُ على الدّم؛ لأنّه أساسُ الحياة، أو لأنّ الرّوح تخرجُ بخروجه، يقال: سالت نفسُه: أي دمُه، والحائضُ تسمّى النُّفساءَ لخروج دمها، والنِّفاس: وِلادُ المرأة، فإذا وضعت فهي نُفَساء، ومن معاني النَّفس أيضًا: الجَسد والحَسد والذّاتُ والحقيقةُ والعزُّ والهمّةُ[2]، والمقصودُ في الآية هو الرّوح.

3) ﴿يَزۡنُونَۚ﴾: (زني) أصله أربعُ كلمات مختلفةٌ لا تتضايف[3]، والمقصود هنا الزِّناءُ، وهو وطءُ المرأة من غير عقد شرعيّ، وقد يقصرُ، وإذا مُدّ يصحّ أن يكون مصدرَ المفاعلة، والنّسبة إليه زَنَويٌّ، وفلان لِزِنْيَةٍ وزَنْيَةٍ، قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ [النور: 3][4].

4) ﴿يَلۡقَ﴾: (لقي) أصولٌ ثلاثةٌ: أحدها يدلّ على عِوج، والآخرُ على توافي شيئين، والثّالثُ على طرح شيء، والمقصودُ في هذه الآية الأصلُ الثّاني، فاللِّقاءُ: المُلاقاةُ وتَوافي الاثْنَيْنِ مُتَقابِلَيْن، ولَقيتُه لَقْوَةً، أَيْ مَرَّة واحِدَة ولِقاءَة، ولَقيتُهُ لُقيًا ولُقْيانًا، واللُّقْيَةُ فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاء، والجَمعُ لُقًى[5]، ويطلق هذا الفعلُ على الإدراك بالحسّ، وبالبصر، وبالبصيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: 6]، فملاقاةُ كلّ أحد بعمله الّذي قدّمه، وهو المقصودُ في الآية[6].

5) ﴿أَثَامٗا﴾: (أثم) أصلٌ واحدٌ دالّ على البُطء والتَّأخُّر، والإثمُ مشتقّ من ذلك؛ لأنّ ذا الإثم بطيءٌ عنِ الخير متأخِّرٌ عنه[7]، والأثامُ: اسمٌ للأفعال المبطِئة عنِ الثّواب، وجمعه آثام، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ أي: عذابًا، فسمّاه أثامًا لِما كان منه، ومعنى ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ أي: يحملُه ذلك على ارتكاب آثامٍ، وذلك لاستدعاء الأمور

(1) الراغب، المفردات: (نفس).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زنى).
(4) الراغب، المفردات: (زنى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقي).
(6) الراغب، المفردات: (لقي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم).

الصّغيرة إلى الكبيرة[1]، أو يلقَ جزاءَ آثامه، يقالُ: أَثَمَهُ ويأثُمُهُ: جازاهُ جزاءَ إثْمِهِ[2].

۞ المَعْنَى الإجْماليُّ:

مــدحُ عـبـادِ الرّحمن بالتّنزّه عــنِ الـكـبـائـر والآثامِ

يصفُ ربّنا سبحانه عبادَ الرّحمن بأنّهم الّذين يوحّدون اللّه، ولا يَدْعون ولا يعبدون إلهًا غيره، ولا يقتلون النّفسَ الّتي حرَّم اللّه قتلَها إلّا بما يحقّ قتلُها به: من كفرٍ بعد إيمان، أو زنًى بعد زواج، أو قتلِ نفس عدوانًا، ولا يزنون، بل يَحفظون فروجهم، إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم، ومن يفعلْ شيئًا من هذه الكبائر يَلْقَ في الآخرة عقابًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

جـمـعَ عـبـادُ الــرّحــمــن بـين الـتّـحـلّي بـالـفـضـائـل والـتّـخـلّي عـنِ الرّذائل

وُصل قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميلٌ لصفات عباد الرّحمن المذكورةِ في الآيات السّابقةِ ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: 63]، فبعد أنّ ذكر قسمَ تحلّيهم بالفضائل عطف عليه قسمَ التّخلّي عنِ المفاسد التي كانت ملازمةً لقومهم منَ المشركين فتنزّهُ عبادِ الرحمن عنها بسبب إيمانهم[4].

سرُّ التّعبير بالموصول (الّذين) وعدمِ تَكراره:

تركُ الشّرك داعٍ إلى تـرك سائرِ الكبائر

جُمع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وما بعدها منَ الآية التّخلّي عن هذه الجرائم الثّلاثِ في صلة موصولٍ واحدٍ ولم يُكرّرْ اسمُ الموصول كما كُرِّرَ في ذكر خصال تحلّيهم، للإشارة

(1) الراغب، المفردات: (أثم).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أثم).
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 73.

إلى أنّهم لـمّا أقلعوا عنِ الشّرك ولم يدْعوا مع اللّه إلهًا آخرَ فقد أقلعوا عن أشدّ القبائحِ لُصوقًا بالشّرك، وذلك قتلُ النّفس والزّنا، فجُعِل ذلك شبيهَ خصلةٍ واحدةٍ، وجُعل في صلة موصولٍ واحدٍ.

وقد يكون تكريرُ ﴿لَا﴾ مُجزئًا عن إعادة اسم الموصولِ وكافيًا في الدّلالة على أنّ كلّ خصلة من هذه الخصال موجبةٌ لمضاعفة العذابِ[1].

بلاغةُ النّفي بـ﴿لَا﴾ دون (لم):

توحيدُ اللّه بالعبادة مطلقًا في كلّ الأزمنة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ النّفيُ بـ﴿لَا﴾ دون غيرها من أدوات النّفي لِما تتميّزُ به من كونها أقدمَ حروفِ النّفي في العربية، وتتميّزُ بدخولها على الأسماء والأفعال[2]، فهي غيرُ مختصّةٍ، ولهذا لا تعملُ، كما أنّ النّفي بها مطلقٌ في الأزمنة لإفادة توحيدِ اللّه بالعبادة مطلقًا في كلّ الأزمنة، في حين أنّ النّفي بـ (لم) يفيدُ فقط النّفيَ في الماضي، فهي تقلبُ المضارعَ إلى المضيّ، دون التّعرّض للنّفي في الحاضر والمستقبل.

دلالةُ المضارع المنفيّ ﴿يَدۡعُونَ﴾:

الثّباتُ على توحيدِ اللّه بالدّعاء وسائرِ العبادات مدّة الحياة إلى الممات

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ صيغةُ المضارع دون غيره منَ الأزمنة لِما يفيده المضارعُ من افتراض تَكَرُّرِ الحدث وتجدّدِه واستمراره، وفي ذلك دلالةٌ على استمرارهم على تحقيق توحيدِ اللّه سبحانه بالدّعاء والعبادةِ طِوالَ حياتهم، ونبذِهم عبادةَ أيّ آلهة أخرى تقدحُ في توحيدهم الخالص.

معنى الظّرف ﴿مَعَ﴾ في الآية:

نفيُ تسويةِ الآلهةِ الباطلةِ بالمعبود الحقِّ في مكان العبادة وزمانِها

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الظّرفُ ﴿مَعَ﴾، وهو في اللّغة اسمٌ لمكان الاجتماع، أو وقته[3]، فعبادُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 73.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 220.

الرّحمن لا يجعلون مع اللّه إلهًا آخر في مكان عبادتهم، ولا في أيّ وقت، كما يفيدُ استعمالُ ﴿مَعَ﴾ أنّ ما بعده هو الأصل، فاللّه تعالى هو الإله الواحدُ الأحدُ، وعبادُ الرحمن لا يسوّون مع الإله الواحد إلهًا آخر مطلقًا.

سرُّ إظهارِ اسمِه الأعظمِ في الآية:

تعظيمُ توحيد الألوهيّةِ واستحضارُ صفاتِ الكمال

أُظهر في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ اسمُ اللّه الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامعُ لأسمائه الحسنى تعظيمًا لحقّ الألوهيّة، وتقريرًا للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة للّه سبحانه، فهو جديرٌ بتلك الصّفات الفائقة[1]، وحقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتَصَّةٌ به وحده سبحانه، فيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامِعِ لِصفاتِ الكمالِ[2].

إيثارُ لفظِ (الإله) دون غيره:

الدّعاءُ والعبادةُ من واجبات توحيدِ الألوهيّة

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إيرادُ لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾ دون غيره كالرّبّ مثلا لتعلّق الأمر بالدّعاء والعبادة وهما من واجبات توحيدِ الألوهيّة، فعبادُ الرّحمن لا يتوجّهون بأصناف العبادة لأيّ إلهٍ سوى اللّه ربِّ العالمين، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشعراء: 75 - 77].

سرُّ تنكير لفظ (إله):

حقُّ اللّه على العبيدِ في إخلاص التّوحيد

جاء لفظُ (إله) في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نكرةً، والغرضُ من تنكيره الإبهامُ وعدم التّعيين، فعبادُ الرحمن لا يعبدون مع الرحمن أيَّ إله آخرَ كائنًا ما كان، بخلاف الكفّار الّذين يعبدون أيَّ إله يوافق أهواءَهم، فلا يهمُّ عندهم نوعُ الإله بلِ المهمُّ أن يشركوا مع اللّه تعالى آلهةً أخرى.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

نفيُ الشّرك عن عباد الرحمن وتأكيدُ توحيدهم

فائدةُ وصفِ الإله بوصفِ ﴿ءَاخَرَ﴾:

قُيّد لفظُ ﴿إِلَٰهًا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بوصفِ ﴿ءَاخَرَ﴾ مبالغةً في نفي الشّرك عن عباد الرّحمن، وتأكيدًا لتحقيقهم التّوحيدَ، فهم لا يعبدون إلها غيرَ اللّه ﷻ، على النّقيض منَ المشركين الذين يجعلون مع اللّه ذاتا أخرى على سبيل تأليهها مع اللّه ﷻ[1].

تنزُّهُ عبادِ الرّحمن عن قتل النّفس بعد تنزُّههم عن الشّرك

دلالةُ العطفِ بالواو في الآية:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميلٌ لصفات عباد الرّحمن المذكورةِ في الآيات السّابقة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، فبعد أنّ ذكرَ تنزُّهَهم عنِ الشّرك ذكر هنا تنزّهَهم عن قتل النّفس المحرّمةِ.

مدحُ عبادِ الرّحمن بتأكيد نفْيِ اتّصافهم بصفات الشّرك والطّغيانِ

بلاغةُ تَكرار النّفي بـ(لا):

تكرّر حرفُ النّفي (لا) في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ في عِبارَةِ: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾ بَعْد قوله قبلُ: ﴿لَا يَدۡعُونَ﴾، لنكتة تَأكيد النّفيِ السّابق المستفاد من حرف النّفي ﴿لَا﴾ على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيّز النّفي، وهو استعمال قرآنيٌّ بديعٌ في عطف المنفيّات منَ المفردات والجمل[2].

ارتباطُ النّفس بالبدن وإطلاقُها على الدّم

إيثارُ لفظِ النفس دون الرّوح:

أوثر لفظُ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ دون (الرّوح) في قوله تعالى ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ﴾ لتعلّقِ السّياق بالقتل، فيُطلق لفظُ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ لإرادة اتّصالها بالبدن، وأنّها تخرج منَ البدن بسبب اختلال البنيةِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 97.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 294.

الجسديّةِ، كما أنّ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ يطلقُ على الدّم وهو مناسب لسياق القتل الذي يكون غالبًا بسفك دماءِ النّاس، فيخالف لفظَ (الرّوح) الذي يُذكر مجرّدًا عن الجسد.

علّةُ الوصف بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

استهتارُ المشركين بحرمة النّفوس المعصومةِ

أوثر استعمالُ الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ دون الاسم الظّاهر لنكتة الوصفِ بجملة الصّلة، فوُصفت النّفسُ بصلة الموصول ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانًا لحرمتها المعلومة عند جميع النّاس، وقد كان قتلُ النّفس متفشّيًا في العرب بالعداوات والغارات وبوأد كثير منَ القبائل بناتِهم، وبالقتل لفرطِ الغيرة وغيرها[1].

دلالةُ الفعل الماضي ﴿حَرَّمَ﴾:

تحريمُ قتل النّفس من أقدم الأزمان

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بصيغة الماضي للدّلالة على تحقّق تحريم قتل النّفس واستقراره من عهد آدم فيما حكى اللّه من محاورة ولدَيْ آدم بقوله، ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ [المائدة: 27] الآيات، فتأكّد تحريمُ قتل النّفس من أقدم أزمان البشر ولم يجهلْه أحدٌ من ذرّية آدم[2].

بلاغةُ الحذف في جملة ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾:

كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ، وبالأخصّ دمُه

تضمّن قولُه تعالى: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إيجازًا بالحذف، فقولُه ﴿حَرَّمَ﴾ بمعنى (حرَّم قتلَها) بقرينة ما تقدّمَ منَ السّياق، ولأنّ التّحريم إنّما يتعلق بالأفعال دون الذّوات، فحُذف المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه مبالغةً في التَّحريم؛ فعبادُ الرحمن لا يقتلونَ النّفس بسببٍ من الأسبابِ إلّا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرمتِها وعصمتِها[3].

سرُّ إظهار اسمِه الأعظم في الآية:

أوثر إظهارُ الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ لاستحضار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 229.

استشعارُ عظمة العظيم بامتثال ما نهى عنه من التّحريم

عظمتِه سبحانه في التّحريم واستشعارِ خطورة انتهاكِ ما حرّم العظيمُ الملك الأعلى - الذي لا كُفءَ له - من قتلها[1]، فهو المحيطُ بجميع صفات الكمال في جميع ما أَمر به أو نهى عنه سبحانه، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتَصَّةٌ به وحدَه سبحانه، فيُذْكَرُ اسْمُ الجلالَةِ لِإحضارِ المعْنى الجامِعِ لِصِفاتِ العظمة والكمالِ[2].

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

إخـراجُ القتلِ الحقّ من عموم إثـمِ قتل العُدوان

تضمّن قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أسلوبَ الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾، ومعنى الاستثناء هو الإخراجُ بإلّا أو إحدى أخواتها لِما كان داخلًا أو مُنزَّلًا منزلةَ الدّاخل[3]، والاستثناءُ في الآية مفرّغٌ من أعمّ الأسباب، أي: لا يقتلونها بسبب منَ الأسباب إلّا بسبب الحقّ المزيلِ لحرمتها وعصمتِها، وهو المذكورُ في قوله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلّا اللّه وأَنّي رَسولُ اللّه، إلّا بإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزّاني، والمارِقُ مِنَ الدّينِ التّارِكُ لِلْجَماعَةِ»[4].

معنى الباء في الآية:

دقّـةُ النّظمِ القـرآنيّ في اختيار حروفِ المعاني

تحتملُ (الباء) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ السببيّةَ، أي لا يقتلونَها بسببٍ منَ الأسبابِ إلّا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرمتِها وعصمتِها، وتحتمل كذلك الملابسةَ، بمعنى أنّهم لا يقتلون قتلًا ما إلّا قتلًا ملتبسًا بالحقِّ أو لا يقتلونها في حالٍ من الأحوالِ إلا حال كونهم ملتبسين بالحقِّ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر، 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) السّيوطي، همع الهوامع: 1/ 222.
(4) متفق عليه: أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6878)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1676).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 229.

إيثارُ لفظِ الحقّ في الآية:

أوثر لفظُ (الحقّ) في الآية؛ للدّلالة على الأسباب المشروعة لقتل النّفس المحرّمة، والمرادُ بالحقّ زمنَ نزول الآية: قَتْلُ قاتِل أحدِهم، وهو تهيئةٌ لمشروعيّة الجهاد عقب مُدّة نزول هذه السّورة، ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطانٌ لإقامة القصاص والحدود[1]، وفي هذا الاستثناء تعظيمٌ لقتل النّفس بالتّخصيص بعد التّعميم، ويكون تعريف (الحقّ) في الآية للعهد مقصودًا به الحقَّ الكامل، ولا يكون كاملًا إلّا وهو كالشّمس وضوحًا لا شبهةَ فيه[2]، وجوِّزَ أن يكون (الحقّ) صفةً لمصدر محذوف، أي: لا يقتلونها نوعًا من القتل إلّا قتلًا ملتبسًا بالحقّ وأن يكون حالًا أي لا يقتلونها في حال منَ الأحوال إلّا حالَ كونِهم ملتبسين بالحقّ[3].

تعظيمُ قتل النّفس بالتّخصيص بعد التّعميم

دلالةُ العطف بالواو:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ على ما قبلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فبعد أن ذكر النّظمُ القرآنيّ القتلَ الجليّ بقوله: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾، عطف عليه القتلَ الخفيّ بقوله: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾؛ لأنّ فيه تضييعًا لنسب الولد، كما أنّ الزّنا جارٌّ أيضًا إلى القتل والفتن، وفيه التّسببُ لإيجاد نفسٍ بالباطل، كما أنّ القتل تسبّبٌ إلى إعدامها بذلك[4]، وفي عطف الزّنا على الشّرك والقتل تهويلٌ لأمره بنظمِه في سلكِهما[5].

عطفُ القتل الخفيِّ على القتل الجليِّ

بلاغةُ نفي المضارع المجموع ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾:

جاء الفعلُ ﴿يَزۡنُونَۚ﴾ بصيغة المضارع دون غيره من الأزمنة لما يفيده المضارعُ من افتراض تَكَرُّرِ الحدث وتجدّدِه واستمرارِه، فعبادُ

تنزُّهُ عبادِ الرّحمن عن فاحشة الزّنا التي اعتادها المشركون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 73.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 318.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 47.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 426.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 229.

الرّحمن يخالفون المشركين في اعتيادهم الزّنا والسّفاحَ والانكبابَ عليه وعدمَ التّورّع عنه، وفي ترك عباد الرّحمن للزّنا رحمةٌ لِما قد يحدث من ولد، إبقاءً على نسبه، ورحمةً للمَزْنيِّ بها ولأقاربها أن تُنتَهك حُرماتُهم، مع رحمتهم لأنفسِهم بأن يقترفوا هذه القبائحَ.

نكتةُ تَكرار (لا) في نفي الأفعال الثلاثة:

تنزيهُ عبادِ الرّحمن عنِ اقتراف القبائح مفردةً أو مجموعةً

تكرّر حَرفُ النّفي (لا) في الأفعال الثلاثة: ﴿لَا يَدۡعُونَ﴾، ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾، ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾، لنكتة تَأْكيد النّفيِ السّابق المستفادِ من حرف النّفي (لا) على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيّز النّفي[1]، كما أنّ تّكرار (لا) أفاد ورودَ النّفي على وقوع الخصال الثّلاثَ حالَ الاجتماع والانفراد، فالمعنى أنّ عباد الرّحمن لا يوقعون شيئًا من هذه القبائح لا مفردةً ولا مجموعةً[2].

سرُّ ترتيب الأفعالِ المنفيّة:

الشّركُ والقتل والزّنا أعظمُ الكبائر

جاءتِ الكبائر في الآية مرتّبةً منَ الأغلظ فما دونه، ويُستفاد ذلك من وجهين:

الأوّل: أنّ الأصل في التّقديم الاهتمامُ بما سبقت له الآية، وهو التّنفيرُ المفيد للتّغليظ، فيكون كل واحد منها أعلى ممّا بعده.

الثّاني: أنّ الواو لا تقتضي التّرتيبَ ولا تُنافيه، وقد وقعت الأفعالُ مرتّبةً في الذّكر كما رُتّبت في الحديث بـ (ثمّ) فيكون مرادًا بها التّرتيبُ[3]، والحديث المقصود هو حديثُ عبد اللّه بنِ مسعود قال: «قلتُ يا رسول اللّه أيّ الذّنب أكبر؟: قال أن تَدْعوَ للّه ندّا وهو خلقك، قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خيفة أن يَطْعَمَ معك، قلت ثمّ أيّ؟ قال: أن تُزاني حليلَةَ جارك، فأنزل اللّه تعالى تصديقا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 294.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 74.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 428.

﴿يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى ﴿أَثَامًا﴾»[1]، وفي رواية ابن عطية: ثم قرأ رسولُ اللّه ﷺ هذه الآية[2].

دلالةُ العطف بالواو:

الجمعُ بين الأفعال والجزاءِ عليها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالّ على الاقتران للجمع بين السّبب والمسبّب والفعل والنّتيجة، فمنِ اقترف شيئًا منَ الكبائر الموصوفة يلقَ جزاءَه يومَ القيامة بمضاعفة العذاب في جهنّم والعياذُ باللّه.

فائدةُ اسمِ الشّرط (مَنْ):

الجزاءُ الموعودُ لمنِ اقترف الكبائرَ منَ الذّنوب

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ استعمالُ حرف الشّرط (من)، والنّكتةُ في التّعبير بالجملة الشّرطيّة أن يتوقّف وقوعُ الجواب والجزاء على وقوع فعل الشّرط، فإذا وقع الأوّل وقع الثّاني، وذلك لأنّ أسلوبَ الشّرط يقتضي وجودَ جوابه لأجل وجود شرطه[3]، وكذلك في هذه الآية فإنّ منِ اقترف شيئًا من هذه الكبائر (فعل الشّرط)، تحقّق فيه جزاءُ الشّرط، وهو أن يلقى جزاءَ هذه الذّنوب بمضاعفة العذاب.

نكتةُ التّعبير بلفظ (الفعل) دون (العمل):

التّخويفُ من عموم فعلِ القبائح

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ التّعبيرُ بلفظ الفعل ﴿يَفۡعَلۡ﴾ دون غيره نحو: (يعمل) أو (يصنع) لقصد العموم في التّخويف من فعل القبائح المذكورة، فلفظُ الفعل عامّ لِما كان بإجادة أو غير إجادة، ولِما كان بعلم أو غير علم، وقصدٍ أو غير قصد، ولِما كان من الإنسان أو غيره[4]، والفعلُ أيضًا يُستعمل لِما كان دفعةً واحدةً عكسُ العمل الذي يكون بامتداد زمنٍ.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (رقم: 4761).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 73.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.

(4) الراغب، المفردات: (فعل).

سرُّ التّعبير بالمضارع في الآية:

تخويفُ المذنبين بمضاعفة العذابِ يومَ الدّين

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ بصيغة المضارع في فعل الشّرط وجوابِه للدّلالة على الاستقبال، وفي ذلك تهديد ووعيدٌ للعباد لينزجروا عن هذه القبائح العظام، فقد توعّد اللّٰه فاعلَها بمضاعفة العذاب يومَ القيامة والخلودِ فيه.

دلالةُ اسمِ الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إبعادُ كبائرِ الذّنوب أصحابَها عنِ الجنّة وعن كلّ خير

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ الإشارةَ بأداة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى هذه الأفعال العظيمة القبيحة مع قربها، فدلّ على أنّ البعد من رُتبتها، فهي أفعال عظيمة قبيحةٌ بلغت المنتهى في القبح، كما أنّها تُبعد صاحبَها عن كلّ خير، وتهوي به - إن لم يتب - بعيدًا في جهنم(1).

واختلفوا في المشار إليه به، فقيل الإشارةُ بذلك إلى ما ذُكر منَ الكبائر على تأويله بالمذكور، والمتبادر منَ الإشارة أنّها إلى المجموع، أي: من يفعل مجموعَ الثّلاث، ومعلومٌ أنّ جزاء من يفعل بعضَها ويتركُ بعضًا عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعَها، وأنّ البعض أيضًا مراتبُ، وليس المراد: من يفعلُ كلَّ واحدة ممّا ذكر يلقَ أثامًا؛ لأنّ لُقيّ الآثام بُيِّنَ هنا بمضاعفة العذاب والخلودِ فيه، وقد نهضت أدلّةٌ متظافرة منَ الكتاب والسّنة على أنّ ما عدا الكفر منَ المعاصي لا يوجب الخلودَ، ممّا يقتضي تأويلَ ظواهر الآية، كما أنّ تَكرار (لا) أفاد ورودَ النّفي على وقوع الخصال الثّلاثِ حالَ الاجتماع والانفراد، فالمعنى: لا يوقعون شيئًا منها، فكان معنى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: ومن يفعل شيئًا من ذلك؛ ليَرِدَ الإثباتُ على ما ورد عليه النّفي، فيحصل التّناسبُ(2).

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 674.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 74.

توجيه المضارع المجزوم ﴿يَلۡقَ﴾:

التّهديد بالعقاب على هذه القبائح يومَ الحساب

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ أوثر التّعبيرُ باللُّقيِّ مع المصدر المزيد الدّالّ على زيادة المعنى في قوله: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ دون (يأثم)، أو (يلق إثمًا)، والمقصودُ يلقَ جزاء إثمه، كما أنّ مجيئه بصيغة المضارع في جواب الشّرط للدّلالة على الاستقبال وفي ذلك تهديدٌ بالعقاب على هذه القبائح يومَ القيامة والخلودِ فيه[1].

توجيهُ لفظِ (الأثام) دلالةً وصيغةً:

الأثام جزاءُ الإثم أو وادٍ في جهنّمَ

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ بلفظ (الأَثام)، وهو في كلام العرب العقابُ، يُقال: آثمه اللّه يوثمه آثامًا وأثامًا، أي جازاه جزاءَ الإثم فهو مأثوم، أي: مجزيٌّ جزاءَ الإثم، وجاء في معناه: أنّ أثامًا وادٍ في جهنّم جعله اللّه عقابًا للكفرة، أو هو جبلٌ فيها[2].

ومجيءُ هذا اللّفظ ﴿أَثَامٗا﴾ على وزن المصدر دون يأثم أو يلق إثمًا أو جزاء إثمه دالٌّ على زيادة المعنى، إذ زيادةُ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالبًا، فدلّت صيغته أنّه جزاءٌ كبير من نوع ما ارتكبَ من كبائرَ[3].

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿أَثَامٗا﴾:

إطلاقُ اسمِ الشّيء على الجزاء

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ مجازًا؛ إذِ المرادُ بالأثام هنا جزاءُ الآثام، فأطلق اسمُ الشّيء على جزائه[4]، فيكون مجازًا مرسلًا علاقتُه السّببيّةُ، فقد ذكر السّبب وهو (الأثام)، والمرادُ العقابُ المسبَّب عنِ اقترافها.

فائدةُ التّنوين في ﴿أَثَامٗا﴾:

الجزاءُ من جنس العمل

جاء لفظُ ﴿أَثَامٗا﴾ نكرةً، والنّكتةُ البلاغيّة من تنكيره التّفخيمُ

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 674.
(2) صديق حسن خان، فتح البيان: 9/ 350.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5317.
(4) صديق حسن خان، فتح البيان: 9/ 350.

والتّهويل النّاتج عن إبهام اللّفظ، فتذهب النّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، والمعنى: يلقى مرتكبُ هذه الكبائر عقابًا عظيمًا جزاءً وفاقًا للعظائم التي ارتكبها[1].

بلاغةُ التّعريض في الآية:

تطهيرُ عبادِ الرّحمن الصّالحين من كبائر المشركين

تضمّن قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيان وهو (التّعريض)، وهو كونُ معنى الكلام مفهومًا من عُرضه، أي: جانبه[2]. ففي هذه الآية نفى اللّه هذه الكبائرَ عن عباده الصّالحين، وفيه تعريضٌ لِما عليه المشركون أعداءُ الدّين من اقترافها، كأنّه قيل: والذين طهّرهم اللّه ممّا أنتم عليه، فعبادُ الرّحمن هم الذين لا يدعون مع اللّه إلهًا آخرَ وأنتم تدعون، ولا يقتلون النّفسَ الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ، وأنتم تقتلون الموؤدةَ، ولا يزنون وأنتم تزنون[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّفس والرّوح:

الرّوحُ من عالم الأمـرِ والنّفسُ من عالم الخلْقِ

الرّوح بضمّ الرّاء في كلام العرب: النّفخُ، سمّي روحًا: لأنّه ريحٌ يخرج منَ الرّوح، لذا اقترن النّفخ مع الرّوح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وجُعِلتِ الرّوح من أمر اللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52]، بخلاف النّفس، فقد جُعلت من عالم الخلق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، والآياتُ في هذا عديدةٌ، ولمّا كانتِ الرّوح من عالم الأمر فهي أشرفُ منَ النّفس، لذا نسبت إليه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 2230.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 483.

سبحانه تشريفًا لها وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29](1).

وممّا يذكرُ في الفرق بينهما أنّ الرّوح جوهرٌ لطيفٌ حامل قوّة الحياة والحسّ والحركة الإرادية، وهي أمر من اللّه تعالى، تعجز العقولُ عن إدراك كُنهه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، والنّفس هي ما يجمع بين الرّوح والبدن، وتطلقُ على القوة الدّاعية إلى الخير والشّرّ(2)، فأوثر في نظم الآية لفظُ (النّفس) لمناسبته سياقَ القتل وعلاقته بالجسد.

الإثم، والذنب، والخطيئة:

خصوصُ الإثم بكبائر الذّنوب

يتّضح الفرقُ بين هذه الألفاظ ببيان معنى كلٍّ واحدٍ منها، فالإثم تدور معانيه على: البُطء والتّأخّر، يقال: ناقة آثمة، أي متأخّرة، والإثم مشتقّ من ذلك؛ لأنّ ذا الإثم بطيءٌ عنِ الخير متأخّر عنه، ولهذا قال الرّاغب في الإثم: "اسمٌ للأفعال المُبطّئة عن الثّواب، وجمعُه آثام"(3). والإثم أيضًا: الذّنب؛ لأنّه يُبطئ عنِ الخير، ويطلق الإثمُ في مقابل البرّ، فهو كلُّ فعل يستحق فاعلُه الذّمّ واللّوم(4).

والذَّنْب في الأصل: هو الأخذُ بذَنَبِ الشّيء، يقال: ذَنَبْتُه، أي: أصبت ذَنَبَه، ويستعمل في كلّ فعلٍ يُسْتَوْخَمُ عُقباه اعتبارًا بذَنَب الشّيءِ، ولهذا يسمّى الذَّنْبُ تَبِعَةً، وعقوبةً اعتبارًا لِما يحصل من عاقبته.

والخطيئة: يدور معناها على تعدّي الشّيء والذّهابِ عنه، ويقال أخطأ: إذا فعل خلافَ الصّواب، وإذا أذنب؛ لأنّه يترك وجه الخير ويتجاوزُه، والجمعُ الخطيئاتُ والخطايا، ويقال: أخطأ، إذا سلك

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 137.

(2) الراغب، المفردات: (روح)، وعبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/ 748.

(3) الراغب، المفردات: (أثم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أثم).

سبيل خطأ عامدًا أو غيرَ عامد[1]، ونلاحظ أنّ النّظم القرآنيَّ في هذه الآية ذكرَ الآثامَ دون الذّنوب والخطايا لتعلّق الأمر بالكبائر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112] فذكرُ الخطيئة والإثم هنا يدلُّ على أنّهما متغايران، فالمرادُ بالخطيئة المعصيةُ الصّغيرةُ، والمرادُ بالإثم الكبيرةُ[2].

فأوثر في نظم الآية لفظُ (الآثام) المناسبُ لعقاب الكبائر المذكورة من الشّرك والقتل والزّنا.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خطأ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 196.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ [الفرقان: 69]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

زيـادةُ التّهديد بتفصيلِ الوعيد

لـمّا ذكر في الآية السّابقة الوعيدَ بلقاء الآثام لمن أتى شيئًا منَ القبائح الثّلاثة منَ الشّرك والقتل والزّنا، ذكر في هذه الآية تفسيرَ الآثام وتفصيلَ العذاب ومآلَه.

۞ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُضَٰعَفۡ﴾: (ضعف) أصلان متباينان، يدلّ أحدُهما على خلاف القوّة، ويدلّ الثّاني على أن يُزاد الشّيء مثلَه، وهو المقصودُ في هذه الآية، قال الخليل: أضْعَفْتُ الشّيء إضعافًا، وضَعَّفته تضعيفًا، وضاعفته مضاعفةً، وهو أن يُزاد على أصل الشّيء، فيجعلَ مثْلين أو أكثرَ[1]، وهو عند العرب أيضًا المِثلُ إلى ما زادَ، وليس مقصورًا على المثلينِ، وضِعْفُ الشّيء مِثْلُه، وضِعفاهُ مِثْلاهُ، وأضعافُهُ أمثالُهُ[2]، فأصل معناه: هو أن يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَه[3].

2) ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾: (خلد) أصلٌ واحدٌ يدلّ على الثّبات والملازمة، فيقال: خَلَدَ، أي: أقامَ، وأَخلَدَ أيضًا، ومنه جَنَّةُ الخلدِ، ويقال أخلَدَ إلى الأرضِ إذا لصق بها[4]، وقال تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: 19]، من الخُلد، وهو البقاء، أي: لا يموتون، وكلُّ ما يتباطأ عنه التّغييرُ والفساد تصفه العرب بالخلود، والخلودُ في الجنّة أوِ النّار: بقاءُ الأشياء على الحالة الّتي هي عليها من غير اعتراض الفساد[5].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(5) الراغب، المفردات: (خلد).

3) ﴿مُهَانًا﴾: (هان) أصله هان يهون هَوْنا، ويدور على معنيين متضادّين بحسب سياق المدح أو الذّمّ، فيكون مدحًا بمعنى: السّكينة والوقار، نحو قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾ [الفرقان: 63]، ويكون ذمّا بمعنى: هوان الشّيء الحقيرِ الهيّن الّذي لا كرامةَ له، ومنه: أهنت فلانا وتهاونت به واستهنت به[1]، ويوصف بها من نُزعت منه كرامتُه[2]، والذي في القرآن من التركيب بعضُه من الإهانة ومنها (يُهن)، و(هون) و(مُهين)، و(مُهان)، وسائره من (الهَوْن) بمعنى اللّين واليسر والسّهولة[3].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

تهديدُ أصحابِ الكبائرِ بمضاعفة العذابِ والخلودِ فيه

يخبر ربّنا سبحانه أنّه من يفعلْ شيئًا من الكبائر الموصوفةِ يَلْقَ في الآخرة عقابًا فيُضاعَف له العذابُ يوم القيامة، ويَخْلُدْ فيه ذليلًا حقيرًا، والوعيد بالخلود لمن فعلها كلَّها، أو لمن أشرك باللّه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملةِ ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ عمّا قبلها:

إبدالُ مضاعفةِ العذاب منَ التّوعّد بالعقاب

فُصل قَوْله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عن الجملة السّابقة وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحادُ الجملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تنزّل الثّانيةُ منَ الأولى منزلةَ نفسها[5]، فقد وقعت جُملَةُ ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بدلًا من جملة ﴿يَلۡقَ﴾ لاتّحادِهما في المعنى كقوله:

متى تَأْتِنا تُلْمِم بنا في ديارِنا *** تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تَأجَّجا[6]

(1) القرطبي، جامع البيان: 541/ 11.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (هان).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هون).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.
(5) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(6) البيت لعبيد الله بن الحر كما في البغدادي، خزانة الأدب: 9/ 90، والرماني، شرح كتاب سيبويه، ص: 1011، 1019، وابن جني، سرّ صناعة الإعراب: 2/ 317، والزمخشري، المفصل في صناعة الإعراب، ص: 335، والكشاف، 3/ 294.

بلاغةُ التّعبير بالفعل ﴿يُضَٰعَفۡ﴾:

الجزاءُ من جنس العمل نوعًا وكيفًا

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ التّعبيرُ بالفعل ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ في حقّ أصحاب الكبائر منَ الشّرك والقتل والزّنا للدّلالة على أنّهم أكثرُ النّاس عذابًا يوم القيامة؛ لأنّ جرائمهم الثّلاثَ تلك من أعظم الجرائم، فإذا عُذِّبَ غيرُهم من المعذّبين بألوان من العذاب، فإنّ ما يلقاه هؤلاء، أضعافُ ما يلقاه المعذّبون من أهل النّار غيرِهم[1]، ويحتمل أيضًا أنّ معنى مضاعفة العذاب إتيانٌ بعضِه في أثر بعض بلا انقطاع كما كان يضاعف سيّئته كذلك، حتّى إنّه ليبدو لدى المعاقب، كأنّه مضاعف للذّنب، وإنّ المُذنب دائما يحسّ بالجزاء كأنّه أكثرُ من الذّنب، فاللّه تعالى يصوّر له العقابَ كأنّه مضاعف، ولأنّه يتجدّد آنًا بعد آنٍ، كلّما نضجت جلودهم بدّلهم اللّه تعالى جلودًا غيرَها، فهو عذاب بعد عذاب، وبهذا التَّكرار الدّائم يكون كأنّه مضاعف، وإنّه عذابٌ دائم مستمرٌّ[2].

بلاغةُ القراءات في الآية:

مناسبةُ التّشديد لمضاعفةِ العذاب وزيادةِ الوعيد

تنوّعتِ القراءات في قوله تعالى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، فقد قرأ ابنُ عامر برفع الفاء والدّال مع تشديد العين ﴿يُضَعَّفُ﴾ ﴿وَيَخۡلُدُ﴾، وقرأ أبو جعفر وابنُ كثير ويعقوبُ ﴿يُضَعَّفۡ﴾ ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾، بالتشديد والجزم فيهما، وقرأ أبو بكر شعبة: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ﴿وَيَخۡلُدُ﴾ بالرفع فيهما، وقرأ الباقون: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾، ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ بألف بعد الضّاد، والجزم فيهما[3]، والحجّة لمن رفع: أنّه لمّا اكتفى الشّرطُ بجوابه كان ما أتى بعده مستأنفًا فرفعه، والحجّة لمن جزم أنّه لمّا اتّصل بعضُ الكلام ببعض جُعِل ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بدلًا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 10/ 58.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5318.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 334.

من قوله: ﴿يَلۡقَ﴾ فجَزَمَه، ورددتَّ عليه ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ بالجزم عطفا بالواو[1]، والحجّة لمن خفّف: أنّ ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أكثرُ من ﴿يُضَعَّفۡ﴾، والحجّة لمن شدّد: التّكريرُ ومداومةُ الفعل[2].

سرُّ تقديم شبهِ الجملة ﴿لَهُ﴾ على الفاعل:

اختصاصُ أصحاب الشّركِ والكبائر بمضاعفة العذابِ والخلودِ فيه

تقدّم في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ شبهُ الجملة ﴿لَهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ لنكتة الاختصاص، بمعنى قصْرِ مضاعفة العذاب على من أتى شيئًا من هذه الذّنوب العظيمة والقبائح المنكرةِ دون غيره من أصحاب الذّنوب الأخرى الّتي هي أقلُّ جُرمًا منها.

توجيهُ تعريف العذاب:

شيوعُ لفظِ العذاب في نار جهنّم وبئسَ المصير

جاء لفظُ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ في قوله تعالى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ معرّفًا بـ (أل) الدّالّة على تعريف العهد، فقد تقدّم في كثير منَ الآيات، وصار معهودًا عند المسلمين أنّ العذابَ المقصود في لسان الشّرع هو عذابُ نارِ جهنّم والعياذُ بالله، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزمر: 19].

علّةُ التّقييدِ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تهويلُ مضاعفةِ العذاب بكونها في يوم الحساب

أوثر في قوله تعالى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تقييدُ مضاعفة العذاب بالظّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لغرض تهويلِ عذاب أصحاب الكبائر المذكورة وزجرًا عنِ اقترافها، فـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أهولُ من غيره من الأيّام بما لا يقايسُ، وعذابُه أفظعُ من عذاب الدّنيا بما لا يقارنُ[3].

دلالةُ العطف بالواو في الآية:

المبالغةُ في الوعيد بالجمع بين مضاعفةِ العذاب والتّخليدِ

عُطفت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ على الجملة

---

(1) ابن خالويه، الحجّة، ص: 266.
(2) ابن خالويه، الحجّة، ص: 98.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.

قبلها: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ إذ يجمعُ لأصحاب الكبائر الثلاثة المذكورةِ بين مضاعفة العذابِ والتّخليدِ في النّار مع التّحقير والإهانةِ مبالغةً في الزّجر عنِ ارتكابها.

إيثارُ لفظ (يخلد) صيغةً ودلالةً:

المكثُ الطّويلُ أوّلُ درجات الخلودِ في النّار وبئسَ المصيرُ

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ صيغةُ المضارع في الفعل (يخلد) للدّلالة على الاستقبال، إذ محلُّه يوم القيامة، كما يدلّ المضارعُ على الدّوام، فهُدّد أصحابُ الكبائر بالخلود الّذي هو أوّلُ درجاته أن يكون مكثًا طويلًا مستمرًّا مع مهانته الشّديدة الواضحةِ الدّائمة المستمرّةِ، وكذلك يستبدلُ اللّه بغطرستهم الجاهليّة، واعتزازِهم الظّالم العاتي مهانةً دائمةً مستمرّة[1]، ومعنى الخُلد والخلودِ اللّصوقُ بالأرض في ذلّة ومهانة[2].

سرُّ تقديم شبهِ الجملة (فيه):

زيادةُ الحسرة والنّدامةِ بمعرفة مكان الخلودِ والإقامةِ

تقدّم في قوله تعالى ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ شبهُ الجملة ﴿فِيهِۦ﴾ على الحال ﴿مُهَانًا﴾ لنكتة الاهتمام بمحلّ الخلود ومكانه، وهو الخلودُ في عذاب جهنّم والعياذُ باللّه، فالضّميرُ في ﴿فِيهِۦ﴾ يعودُ إلى العذاب الّذي لا يُخرج منه، بل يعيش فيه مستكينًا، ضارعًا، ذليلًا، مهينًا[3].

بيانُ التّعبير بالحال ﴿مُهَانًا﴾ دلالةً وصيغةً:

الزّيادةُ في التّقريع بالإهانة مع العذاب الفظيعِ

عُبّر في قوله تعالى ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بالحال ﴿مُهَانًا﴾ والقصدُ منها تشنيعُ حال المُتوَعَّد في الآخرة، أي يُعذَّبُ ويُهانُ إهانةً زائدةً على إهانة التّعذيب بأن يُشْتَم ويُحَقَّرَ[4] أو أنْ يكون الغرضُ من الحال

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5318.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 230، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 58.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 58.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 72.

الاحترازَ عمّا يجوز من أنّ بعض عصاة هذه الأمّة - الّذين يريد اللّه تعذيبَهم - يعلمون أنّهم يُنَجَّوْنَ ويُدخَلونَ الجنَّة، فتكونُ إقامتُهم - مع العلم بالمآل - ليسَت على وجه الإهانَة[1]، إضافةً إلى أنّ مجيء هذا اللّفظ على وزن اسم المفعولِ دالٌّ على وقوع فعل الإهانة عليه زيادةً على التّعذيب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العذاب، والعقاب، والحساب:

عمومُ العذاب واختصاصُ العقاب بالجزاء عن ذنب

يظهر الفرقُ بين: (العذاب)، و(العقاب)، و(الحساب) أنّ (العذاب) و(العقاب) مترتّبان عن (الحساب)، و(الحساب) هو عدُّ الشّيء، واللّه سريعُ الحساب بمعنى: هو مُحْصٍ أعمالَ عبادِه، وسريعُ المجازاة على الأعمال، فلا يحتاج إلى عدّ ولا إحصاء[2].

أمّا العقاب فهو يقتضي بظاهره الجزاءَ على فعلِه المعاقَب؛ لأنّه من التّعقيب والمعاقَبة، وأصلُ العقاب التِّلْوُ، وهو تأديَةُ الأوّلِ إلى الثّاني، يقال عَقِبَ الثّاني الأوَّلَ إذا تلاه، وعَقِبَ اللّيلُ النَّهارَ، واللّيل والنّهار هما عقيبان، ويرتبط العِقابُ بالذَّنبِ، فإذا عَظُم الذَّنْبِ عَظُمتِ العقوبة، وإذا صَغُر كان العقاب على قدره، ويوضّح ذلك بجلاء قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: 126]، فيأمر اللّه المؤمنين بأن لا يزيدوا عمّا فعلوه بهم[3].

أمّا العذاب فليس كذلك، فقد يكون نتيجةَ ذنب مرتَكبٍ، وقد لا يكون نتيجةً عن ذنب؛ إذ يُقال للظّالم المبتدئ بالظّلم إنّه مُعَذِّبٌ، وليس لذنب وإنّما لمجرّد التَّشَهّي أو غير ذلك، فبينهما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.

(2) ابن جرير، جامع البيان، 6/ 279، والقرطبي، الجامع: 2/ 435.

(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 281.

عمومٌ وخصوص[1]، وهذا الفرقُ يستقيمُ في (عذاب) البشر، أما في (عذاب) الله، فلا يكون (عذابه) سبحانه إلّا عنِ استحقاق ذنبٍ مرتَكبٍ.

وقد أوثر في الآية لفظُ (العذاب) لأنّه نتيجةُ الكبائر المرتكبةِ من الشّرك والقتل، والزّنا.

الإهانة، والاحتقار، والإذلال، والازدراء:

الإهانـةُ نتيجةُ الإذلال في الجهر والإعلان

الفرقُ بين الإذلال والإهانة: أنّ إذلال الرّجل للرّجل هنا أن يجعلَه منقادًا على الكُره أو في حكم المنقاد، والإهانةُ أن يجعله صغيرَ الأمر لا يبالي به، والشّاهد قولك: استهان به، أي لم يبالِ به ولم يلتفت إليه، والإذلالُ لا يكونُ إلّا منَ الأعلى للأدنى، والاستهانةُ تكون منَ النّظير للنّظير.

ونقيضُ الإذلال الإعزازُ، ونقيض الإهانة الإكرامُ، فليس أحدُهما من الآخر في شيء، إلّا أنّه لمّا كان الذّلّ يتبعُ الهوانَ: سُمّيَ الهوانُ ذلّا، وإذلال الرجل لغيره: غلبتُه له على وجه يظهر ويشتهر، ألا ترى أنّه إذا غلبه في خلوة لم يقل إنّه أذلّه، ويجوز أن يقال إنّ إهانة الرّجل صاحبَه هو تعريف الغير أنّه غيرُ مستصعب عليه، وإذلاله غلبتُه عليه لا غير، ونقيضُ الإهانة الإكرامُ، فكما لا يكون الإكرام منَ الله إلّا ثوابًا فكذلك لا تكون الإهانة إلّا عقابًا، والهوانُ نقيض الكرامة، والإهانةُ لا تقع إلّا عقوبةً، والذّلّة الضّعفُ عن المقاومة ونقيضُها العزّة وهي القوّة على الغلبة، ومنه الذّلولُ وهو المقودُ من غير صعوبة؛ لأنّه ينقاد انقيادَ الضّعيف عن المقاومة، وأمّا الذّليلُ فإنّه ينقاد على مشقّة[2]، والاحتقار أصلٌ واحدٌ، استصغارُ الشّيء،

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 365.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 365.

يقال شيء حقيرٌ، أي صغير[1]، والازدراء أصله (زرى) وهو يدلّ على احتقار الشّيء والتّهاون به، يقال: زَرَيْتُ عليه، إذا عِبْتُ عليه، وأزريت به: قَصَّرْتُ به[2].

وقد أوثر في الآية لفظُ (الإهانة)؛ لأنّه متعلّق بعذاب جهنّمَ، وهو أعظمُ عقوبةٍ يفتضح فيها أصحابُ الكبائر، والعياذُ باللّه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حقر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حقر).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترغيبُ الأبرار في رحمة العزيز الغفّار

لـمّا أتمّ سبحانه تهديدَ الفُجّار، على هذه الأوزار، أتبعه ترغيبَ الأبرار في الإقبال على الله العزيز الغفّار[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَابَ﴾: (تاب) تدور اشتقاقاتُها على معنى الرّجوع، ومنه قولهم: تاب من ذنبه إذا رجع عنه[2]، وتاب إلى الله: رجع إليه بالطّاعة بعد المعصية، وتاب الله على العبد: رجع إليه بالمغفرة[3]، والتّواب: اسمٌ من أسماء الله تعالى، معناه: أنّه يوفّق عباده للتّوبة، ويقبلُها منهم[4]، وحقيقةُ التّوبة شرعًا: تركُ الذّنب مخافة الله تعالى، واستشعارُ قبحه، والنّدمُ على ذلك، والعزيمةُ على ألّا يعود إليه إذا قدر عليه[5].

2) ﴿يُبَدِّلُ﴾: البَدلُ الخَلَفُ من الشّيء[6]، وأصلُ البَدل، حلولُ شيء محلَّ شيء، وهو قيام الشّيء مقامَ الشّيء الذّاهب، يقال: هذا بَدلُ الشّيء وبديلُه[7]، ويقال بَدَلٌ وبِدْلٌ لغتان وأبدَلْت الشّيء بغيره، وبدّله الله من الخوف أمنًا، والمُبادَلَةُ: التَّبادُلُ[8]، ومعناه أعْطاهُ مِثْلَ ما أخَذَ منه[9].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 428.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (توب).
(4) سعيد القحطان، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.
(5) صالح السّدلان، التوبة إلى الله، ص: 10.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (بدل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (بدل).
(9) الفيروزابادي، القاموس: (بدل).

ومعنى تبديل سيئاتِ العُصاة في الآية أنّ يُبدلهم اللّه بقبائح أعمالهم في الشِّرك محاسنَ الأعمال في الإسلام؛ فيبدِّلهم بالشِّرْك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتلَ المشركين، وبالزِّنا عِفّة وإحصانًا[1].

❁ المَعْنَى الإجْماليُّ:

استثناءُ النّادمين التّائبين مِن العذاب المهين

تَستثني العنايةُ الربانيةُ من العذاب الّذي أُعِدَّ لأصحاب الكبائر مَن تاب مِن هذه الذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعمل الصالح، فأولئك يمحو اللّه عنهم سيئاتِهم ويجعلُ مكانها حسناتٍ؛ بسبب توبتهم وندمهم، وكان اللّه غفورًا لمن تاب، رحيمًا بعباده حيث دعاهم إلى التّوبة بعد مبارزته بأكبر المعاصي[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستثناء في مطلع الآية:

رحمةُ ربِّ العالمين بعباده التّائبين

استُهِلّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بأسلوب الاستثناء مِنَ العموم الذي أفادته (مَن) الشّرطيةُ في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾، والتّقدير: (إلّا من تاب فلا يضاعف له العذاب ولا يخلد فيه)، وهذا تطمينٌ لنفوس فريق من المؤمنين الّذين قد كانوا تلبّسوا بخِصال أهلِ الشّرك ثم تابوا عنها بسبب توبتهم مِنَ الشّرك[3]، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ ناسا من أهل الشّرك قَتلوا فأكثروا وزَنَوْا فأكثروا، فأتَوْا محمّدًا ﷺ فقالوا: إنّ الّذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرُنا أنَّ لِما عَمِلنا كفّارةً فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية»، والمعنى: أنّه يُعفى عنه من عذاب الذّنوب التّي تاب منها[4].

واختلف العلماءُ في نوع هذا الاستثناء على وجهين؛ **أحدُهما:** أنّه

(1) الواحدي، البسيط: 16/ 596.
(2) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 75.
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (122).

استثناء متّصلٌ وهو ما دلّ عليه كلامُ الجمهور؛ لأنّه من الجنس، **والثّاني**: أنّه منقطع، ورجّحه أبو حيان معلّلًا بأنّ المستثنى منه محكومٌ عليه بأنّه يضاعف له العذابُ، فيصير التّقدير: (إلّا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا فلا يضاعف له العذاب)، ولا يلزم من انتفاء التّضعيف انتفاءُ العذاب غيرِ المضعّف بخلافه في المنقطع، فإنّ التّقدير: (لكن من تاب إلى آخره)، فلا يلقى عذابًا البتّة، ووجه كلام الجمهور بأنّ ما ذُكر ليس بلازم؛ إذِ المقصود الإخبارُ بأنّ من فعل كذا فإنَّه يحِلّ به ما ذُكر إلّا أن يتوب، وأمّا إصابة أصلِ العذاب وعدمُه فلا تَعَرُّضَ في الآية له[1].

إيثارُ الموصول ﴿مَن﴾ في الآية:

مخاطبةُ العقلاء المكلّفين بتطبيق شرائعِ الدّين

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ باسم الشّرط ﴿مَن﴾ القائمِ مقامَ الاسم الموصول المشترك ﴿مَن﴾ الدّالّ في الأصل على العاقل، وذلك لأنّ السّياق في مخاطبة العقلاء المكلّفين شرعًا بفعل المأمورات واجتناب المنهيّات، وهم الذين يكون لهم الثّوابُ على الطّاعة والعقابُ على المعصية.

سرُّ التّعبير عن الأفعال بالمضيّ:

ارتباطُ قبولِ التّوبةِ بتحقّق شروطِها في التّائب

أوثر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ استعمالُ أفعال (التّوبة والإيمان والعمل) بصيغة الماضي دون غيرها للدّلالة على وجوب تحقّق هذه الصّفات في التّائب من الكبائر المذكورةِ، وذلك لأنّ قَبول التّوبة منوطٌ بتحقّق شروطِها منَ الإقلاع عن الذّنب، والنّدمِ على ما فرّط، والعزمِ على أن لّا يعود إلى الذّنب.

دلالةُ عطف الإيمان والعمل الصّالح بالواو:

ضرورة الجمع بين التّوبة والإيمان والعمل الصّالح لقَبول التّوبة

عُطف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الإيمانُ والعملُ الصّالح على التّوبة بحرف الواو الدّالّ على الجمع

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 675.

والاقتران لإفادة ضرورة الجمع بينها لقبول التّوبة، فالتّائبُ يرجع عن كلّ شيء كان فيه من هذه النّقائص بعد أن يوجِدَ الأساسَ الذي لا يَثبتُ عملٌ بدونه وهو الإيمان، ويؤكِّد رجوعَه بالعمل الصّالح المؤسَّس على الإيمان[1].

إيثارُ لفظِ العمل دون غيره:

قصدُ التّائب للأعمال الصّالحة تكفيرا عن أعماله الطّالحة

أوثر التّعبيرُ بالفعل (عمل) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ دون غيره؛ لأنّ العمل لا يكون إلّا بقصد فهو أخصّ من الفعل[2]، فيجب على التّائب القصد إلى الأعمال الصالحة والاجتهاد فيها ليكفّر اللّه عنه أعماله السيّئة، كما يطلق الفعل (عمل) على معالجة الشيء والدّأب عليه ولهذا سمّيت النّاقة الدّؤوب باليَعْمُلة، فينبغي للتّائب المداومةُ على العمل الصالح وعدمُ الانقطاع عنه.

نكتةُ التّعبير بالمفعول ﴿عَمَلًا﴾:

التّوكيد على ضرورة الأعمال الصّالحة المغايرةِ للأعمال السّابقة

صُرّح في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بالمصدر ﴿عَمَلًا﴾ بخلاف شبيهها من الآيات الكثيرة التي اكتُفي فيها بالوصف ﴿صَٰلِحًا﴾ دون الموصوف نحو: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [مريم: 60] ونحو ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: 82] لنكتةٍ بلاغيةٍ وهي أنّ ذكر الموصوفِ مع جريانِ الصّالحِ والصّالحاتِ مَجرى الاسم للاعتناءِ والتَّنصيص على مغايرتهِ للأعمال السيّئة السّابقةِ[3]. وكذلك للجمع بين الفعل ومصدرِه المؤكّدِ له مبالغةً في التّوكيد على ضرورة سعي التّائب للإتيان بأعمالٍ صالحةٍ تمحو أعماله السّيئةَ.

سرُّ عطفِ العامّ على الخاصّ في الآية:

أُفرِد ذكرُ التّوبة والإيمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 675.

(2) الراغب، المفردات: (عمل).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 229.

الإيمانُ أساسُ قَبول الأعمال

﴿وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ مع كونهما داخلَين في العمل الصّالح المذكور بعدهما لنكتةٍ بلاغيةٍ وهي التّنويهُ بشأنهما وفضلِهما، ولمّا كان لا بدّ معهما من سائر الأعمال لا جرمَ ذكرَ عقيبَهما العملَ الصالح، فعطف ﴿وَءَامَنَ﴾ على ﴿مَن تَابَ﴾ للتّنويه بالإيمان، وليبنيَ عليه قولَه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ وهو شرائعُ الإسلام تحريضًا على الصّالحات وإيماءً إلى أنّها لا يُعتدّ بها إلّا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: 17]، وقال في عكسه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: 39][1].

سرُّ تنكير ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾:

التّرغيبُ في عموم الأعمال الصّالحةِ دون تعيين

ورد العملُ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ نكرةً لغرض العموم، وعدمِ إرادة التّعيين، ثم وُصف بـ ﴿صَٰلِحٗا﴾ الّتي جاءت نكرةً أيضًا، فأضافت لهذا العموم تخصيصًا، والمعنى: الحسنُ من الأعمال.

فالتّائب مطالبٌ بالحرص على اغتنام كلّ الأعمال الصّالحةِ دون تعيين لقوله ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[2]، وقولِه ﷺ: «اتَّقوا النّارَ ولو بشِقِّ تَمرَةٍ، فمَن لَم يَجِدْ فبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[3].

معنى الفاء من قوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

ترغيبُ العُصاة في التّوبة ممّا فات بإبدال سيئاتِهم حسناتٍ

عُطف قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ على ما قبله وهو قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ بحرف الفاء ربطًا للجزاء بالشّرط دليلًا على أنّه سببُه، وزيادةً في ترغيب العصاة في التّوبة وتبشيرِهم بأنّهم إن تابوا وآمنوا وعملوا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 484، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 76.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2626).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (6023).

عملًا صالحًا سيبدّل اللّه سيئاتِهم حسناتٍ، وهو كلامٌ مسوقٌ لبيان فضل التّوبة المذكورة التي هي الإيمانُ بعد الشّرك[1].

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة للمجموع البعيدِ:

مدحُ التّائبين بعلوِّ منزلتِهم عند ربّ العالمين

استُعمل في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٖۗ﴾ اسمُ الإشارة (أولئك) وهو موضوعٌ في اللغة للجمع البعيد، وهو هنا إشارةٌ إلى الموصولِ، والجمعُ باعتبارِ معناه كما أنّ الإفراد في الأفعالِ الثَّلاثة باعتبار لفظه، أي: (أولئك العالوا المنزلة الموصوفون بالتَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصّالح)، كما يفيد اسمُ الإشارة للبعيد (أولئك) التّنبيهَ على أنّهم أَحْرياءُ بما أُخبِر عنهُم به بعد اسم الإشارة لأجل ما ذُكِر منَ الأوصاف قبل اسم الإشارة، أي: فأولئك التّائبون المؤمنون العاملون الصّالحاتِ يبدّل اللّه عقابَ سيئاتهم الّتي اقترفوها منَ الشّرك والقتل والزّنا بثوابٍ[2].

دلالةُ التّعبير بفعل التّبديل مادةً وصيغةً:

كرمُ ربِّ العالمين المتجدّدُ مع عباده التّائبين

أوثر في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٖۗ﴾ التّعبيرُ بالفعل ﴿يُبَدِّلُ﴾، ومعنى التّبديل جعلُ شيء بدلًا عن شيء آخرَ، فيجعلُ اللّه لهم حسناتٍ كثيرةً عوضًا عن تلك السّيئات الّتي اقترفوها قبل التّوبة، وهذا التّبديل جاء مجملًا وهو تبديلٌ يكون له أثرٌ في الآخرة بأن يعوّضهم عن جزاء السّيئات ثوابَ حسناتٍ أضدادَ تلك السّيّئات، وهذا لفضل الإيمان بالنّسبة للشّرك ولفضل التّوبة بالنّسبة للآثام الصّادرة منَ المسلمين، كما أنّ مجيء الفعل ﴿يُبَدِّلُ﴾ بصيغة المضارع لنكتةِ الدّلالة على الاستقبال بأن يكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 429، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 230، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 76.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 77.

ذلك يومَ القيامة، كما يفيد الاستمرارَ والدّوام فكلّما تاب العصاة من ذنوبهم أبدلهم اللّه عوضَها حسناتٍ[1].

سرُّ إظهارِ اسمه الأعظم:

استشعارُ عظمةِ الكريم في عطائه الجزيل

عُبّر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ بالاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ لاستحضار عظمتِه سبحانه في فضله وكرمه في معاملته للتّائبين منَ العصاة، فيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامعِ لِصِفاتِ العظمة والكمالِ[2].

توجيهُ نسبةِ السّيّئات إلى العصاة دونَ الحسنات:

تـفـضّـلُ الـلـه عـلـى الـعـصـاة بتبديل سيئاتِهم حسناتٍ

أضيفتِ السّيّئات في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ إلى التّائبين منَ المعاصي؛ لكونهم باشروها بأنفسهم واكتسبوها، ونكّر الحسناتِ ولم يضفْها إليهم؛ لأنّها من غير صُنعهم وكسبهم، بل هي مجرّدُ فضل اللّه وكرمِه المحضِ[3]، كما يدلُّ تنكيرُ ﴿حَسَنَٰتٖۗ﴾ على الكثرة، فهو يُبدلهم بسيآتهم حسنات كثيرةً، ويدلّ على هذا حديثُ: «آخِرُ أَهْلِ النّارِ خُروجًا مِنْها، رَجُلٌ يُؤْتَى به يَومَ القيامَةِ، فيُقالُ: اعْرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارْفَعوا عنْه كِبارَها، فتُعْرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِهِ، فيُقالُ: عَمِلْتَ يَومَ كَذا وكَذا: كَذا وكَذا، وعَمِلْتَ يَومَ كَذا وكَذا: كَذا وكَذا، فيَقولُ: نَعَم، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يُنْكِرَ وهو مُشْفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِهِ أنْ تُعْرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لكَ مَكانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فيَقولُ: رَبِّ، قدْ عَمِلْتُ أشْياءَ لا أراها هاهُنا، فلقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ اللّه ﷺ ضَحِكَ حتَّى بَدَتْ نَواجِذُهُ»[4].

معنى الواو في ختام الآية:

مـغـفـرةُ الـلـه ورحمتُه وسعت كلَّ شيء

عُطف قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ على ما قبله بحرف

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 76.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 441.
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (190).

الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه خرج مخرجَ التّذييل لِما سبق، وفائدةُ التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيّل، وإبرازُ حُكمه في صورة كليّة[1]، فأكّد اللّه سبحانه أنّ رحمته وغفرانَه غيرُ مقيّدَين بشيء ممّا مضى، بل صفاتُه مطلقةٌ تليق بكرمه وجلاله.

دلالةُ فعلِ الكينونة الماضي:

صفاتُ اللّه سبحانه دائمةٌ مطلقةٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ استعمالُ الفعل الماضي (كان)، الّذي يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غيرَ أنّه يخرج لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، فتختصُّ كان بمرادفة لم يزل كثيرًا، أي: أنّها تأتي دالّةً على الدّوام[2]، وفائدتُها هنا الإشعارُ بأنّ اتّصافه تعالى بهذين الوصفَين دائمٌ ثابتٌ في الأزل، وهذا المناسبُ لصفات اللّه سبحانه فهي دائمةٌ مطلقةٌ، ثمّ إنّ ذلك من شأنه وعادتِه سبحانه أن يغفرَ ويرحم[3].

سرُّ إظهارِ لفظ الجلالة في النّظم:

عظمةُ اللّه سبحانه في مغفرتِهِ ورحمته

أُظهر الاسمُ الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأنّه لمّا كان إبدالُ السّيّئات حسناتٍ أمرًا لم تجرِ العادةُ بمثله، أخبر سبحانه أنّها صفتُه تعالى أزلًا وأبدًا، فقال مكرّرًا للاسم الأعظم للدّلالة على أنّه ذو الجلال والإكرام المختصُّ وحده بصفاتِ العظمة.

إيثارُ لفظَيْ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دلالةً وصيغةً:

إثباتُ رحمة اللّه بالعصاة وإبدالُ سيآتهم حسناتٍ

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إثباتَ صفتَين من صفات اللّه ﷻ، وهي صفةُ المغفرة وصفة الرحمة، فاللّه سبحانه ستورٌ لذنوب كلِّ من تاب من عباده العصاة، رحيم بهم يُعطيهم مكانَ كلّ سيّئة حسنةً ويرفع درجاتِهم في الآخرة[4].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/ 1823.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 429.

دلالةُ جملةِ الفاصلة الاعتراضيّة:

تقريبُ العباد بالغفران وتنجيتُهم بالتّوبة من النّيران

جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ على سبيل الاعتراض التّذييليّ، فهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثل؛ لكونه مستقلًّا بالإفادة، من غير افتقارٍ إلى ما قبله في بيان المرادِ منه، وفائدتُه تقريرُ ما سبق في الكلام قبله من محوِ السيّئات وإثبات الحسنات مكانَها، مذيّلًا بذكر صفتَيِ المغفرة والرّحمة المقتضيتَين لتقريب عباده بالغفران والرّحمة وفتحِ باب التّوبة لمن أراد من عباده الصّالحين[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التوبة، والإنابة:

الإنابةُ توبةٌ ولزومٌ للطّاعة في المستقبل

يظهر الفرقُ بين (التّوبة)، و(الإنابة) في المعنى الدّلاليّ لكلّ لفظٍ منهما، فالتّوبة أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرُّجوع، يقال تابَ مِنْ ذنبه، أي رَجَعَ عنه يتوب إلى اللّه تَوبةً ومَتابًا، فهو تائب[2]، وهي لا تُطلق إلّا على الرّجوع إلى الحقّ، وأمّا الإنابة فأصلٌ واحدٌ أيضا يدلُّ على اعتياد مكانٍ ورجوعٍ إليه[3].

فنلاحظ من هذين التّعريفين أنّ الإنابة توبةٌ وزيادةٌ، ففي الإنابة معنى اللّزوم للطّاعة بعد الرّجوع بالتّوبة، ويؤكّد هذا الفرقَ كلامُ ابن القيّم رحمه اللّه في مدارج السّالكين: "من نزل في منزل التَّوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإذا استقرّت قدمُه في منزل التّوبة نزل بعده منزلَ الإنابة، وقد أمر به تعالى في كتابه، وأثنى على خليله به، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: 54] "[4] وكذلك قوله في الفوائد: "قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق: 33] قال ابن عباس: راجعٌ عن معاصي اللّه مقبلٌ عليّ طاعة اللّه، وحقيقةُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 230، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5320.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(4) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/ 55.

الإنابة عكوفُ القلب على طاعة اللّه ومحبّته والإقبال عليه"[1]، فجعل من معانيها العكوفَ على الطّاعة وهو بمعنى لزومها، ويؤكّد هذا الفرقَ أيضًا قولُ العسكريّ في الفرق بين التّوبة والإنابة: أنّ التّوبة هي النّدم على فعل ما سبق، والإنابةُ: ترك المعاصي في المستقبل[2]، وهذا لا يكون إلّا بلزوم الاستقامة.

وقد أوثر في الآية استعمالُ لفظِ (التّوبة) تحريضًا للعصاة على ترك ما هم عليه منَ الفواحش، والنّدمِ على ما سبق منهم.

العمل، والفعل، والصنع:

عمومُ الفعل، وخصوصُ العمل بالقصد والزّمان، وتميّزُ الصّنع بالإتقان

العمل والفعل كلاهما دالٌّ على الحدث، ومع ذلك يوجد بينهما فرقٌ في الاستعمال القرآني وإن كان يجمعُهما معنى التّأثير في الشّيء، فالفعل هو التّأثير في الشّيء من جهة مؤثِّرٍ، والعملُ إيجادُ الأثر في الشّيء، يقال فلان يعمل الطّين خزفًا، ويعمل الخوصَ زمبيلًا، ولا يقال يفعلُ ذلك؛ لأنّ المراد من ذلك الشّيء هو إيجادُه، ومنَ الفروق بينهما أنّ في العمل امتدادًا زمنيًّا، قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ [سبأ: 13] إذ كان فعلُهم بزمان، وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، أي: ثابروا على عملها، وأمّا الفعل فيتميّزُ بالسّرعة، قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحج: 77]، أي استبقوا إليه بالمسارعة[3].

أمّا الصّنع فترتيبُ العمل وإحكامُه، وتقدّمُ العلم به وبما يوصل إلى المراد منه، ولذلك قيل للنّجار صانعٌ، ولا يقال للتّاجر صانعٌ؛ لأنّ النّجّار قد سبق علمُه بما يريد عمله من سرير أو باب، ويعلمُ الأسباب التي توصل إلى ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنّه يصل إلى ما يريده منَ الرّبح، فالعملُ لا يقتضي العلمَ بما يعمل له.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 146.
(3) القبعيّ، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

والصّنعُ يدلّ على الجودة[1]، فهو أخصّ من العمل، فلا يقال إلّا لِما كان منَ الإنسان بقصد واختيارٍ، وبعد فكر وتحرٍّ وإجادة، فحيثما ذُكر كافّتُهم قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾ [المائدة: 62]، وحيثما ذُكر خاصّتُهم وحفظةُ العلم ذُكِر: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣﴾ [المائدة: 63][2]، وقد أوثر في الآية استعمالُ لفظ (العمل) لإفادة القصد إلى الأعمال الصّالحة والمثابرةِ على فعلها مدّةَ الحياة.

التّبديل، والتّغيير، والتّعويض:

التَّبديلُ أصلُه بدل، والباء والدّال واللّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشّيء مقامَ الشّيء الذّاهب[3]، وهو أعمُّ منَ العوض، فإنّ العوض هو أن يصير لك الثّاني بإعطاء الأوّل، والتّبديل قد يقال للتّغيير مطلقًا وإن لم يأت ببدله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][4].

التّبديلُ أعمّ منَ التّعويض، والتّغييرُ أعمُّ منهما

أمّا التّغيير فمِن (غير)، والغين والياء والرّاء أصلان، أحدُهما يدلّ على اختلاف شيئين[5]، والتّغييرُ: التّبديل بالمغاير[6]، فإذا أتيت بثوبٍ أبيضَ مكان ثوبٍ أسودَ مختلفٍ في القماش واللّون، قلت: غيّرتُ الثّوب، وإذا أتيت بثوبٍ أبيضَ مكانَ ثوبٍ أسودَ، مصنوع من قماش واحد، وكان الثّوبان لا يختلفان في شيء، قلت: بدّلت الثّوب، ويدور معنى التّغيير حول تحوّل الشّيء تحوّلًا تامًّا أو كالتّامّ، كتحوّل نفس الغيران منَ الرّضا ونحوه إلى الغضب الشّديد، وكالتّحوّل منَ القصاص إلى الدّية، ويرجَّحُ أنّ أصل هذا التّحول يكون من حسن أو

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 136، 135.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/ 392، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/ 134.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غير).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 102.

خيرٍ إلى شرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53][1].

فآثر النّظمُ القرآنيّ لفظَ التّبديل لدلالته على جعل شيءٍ بدلًا عن شيء آخرَ، فيجعلُ اللّه للعصاة التّائبين حسناتٍ كثيرةً عوضًا عن تلك السّيئات الّتي اقترفوها قبل التّوبة.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غير).

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ [الفرقان: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترغيبُ العصاة في التّوبة والإنابة إلى الله

لـمّا أشعرتِ الفاء بالتّسبيب، ودلّ تأكيدُ الفعل بالمصدر على الاحتياج إلى عملٍ كثير ربّما جلّ عن طوقِ البشر، أتبع ذلك بيانَ الطّريق إليه بما أجرى منَ العادة[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَابًا﴾: (توب) أصلٌ يدلّ على الرّجوع، يقال: تاب إلى اللّٰه يتوب توبًا وتوبة ومتابًا، أي: أناب ورجع عن المعصية إلى الطّاعة[2]، والـمَتاب: مصدرٌ ميميّ على وزن مَفْعَل، بمعنى التّوبة، والمعنى المحوريّ للّفظة: توقّفُ الشّخص وانقطاعُه عمّا كان يعمله منَ الذنوب ونحوها لرقّةٍ اعترته، فالتّوبة تركُ التّمادي في المعاصي[3].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

قَبولُ الله الكريم توبةَ التّائبين الصّادقين

يخبرُ ربّنا سبحانه أنّه من تاب عمّا ارتَكَبَ من الذّنوب، وعمل عملًا صالحًا فإنّه بذلك يرجع إلى اللّٰه رجوعًا صحيحًا، فيقبلُ اللّٰه توبته ويُكَفِّرُ ذنوبه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ العطف بالواو في الآية:

الحثُّ على التّوبة وتحصيلِ شروطها

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ على ما قبله بحرف الواو للدّلالة على ارتباطه به، فبعد أن أخبر سبحانه أنّ اللّٰه يقبل توبة التّائبين عنِ المعاصي بيّن في هذه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 430.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب).
(3) جبل، المعجم الإشتقاقي المؤصل: (توب).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.

الآية شروطَ التّوبة من وجوب الإقلاع عن المعاصي والنّدمِ عليها والشّروعِ في الأعمال الصّالحة والرّجوعِ إلى اللّه بصدق.

سرُّ تَكرار فعلَيِ التّوبةِ والعمل الصّالح:

تأكيدُ فضلِ التّوبة ووعْدِ التّائبين بالفضل المبين

اختلف العلماء في الحكمة من تكرّر فعلَيِ التّوبة والعمل الصالح في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ بعد أن قال في الآية قبْله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ فقال بعضهم إنّ التّوبة الأولى رجوعٌ عن الشّرك والمعاصي، والتّوبةَ الثّانية رجوعٌ إلى اللّه تعالى للجزاء والمكافأة، كقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: 30]، أي: مرجعي، أو أنّ الآية الثّانية تأكيدٌ لأمر التّوبة، والمعنى: (وَمَنْ تابَ فإنه قد تمسّك بأمر وثيق)، والمقصودُ مدحُ المتاب، كأنّه قال: (فإنّه يجد بابا للفرج والمغفرة عظيمًا)[1].

ويجوز أن لا يكون هذا تكريرًا أصلًا؛ لأنّ الأوّل لمّا كان خاصّا بالتّوبة من الكبائر المذكورةِ من الشّرك والقتل والزّنا بيّن تعالى هنا أنّ جميع الذّنوب بمنزلتها في صحّة التّوبة منها[2].

نكتةُ حذفِ المفعول (عملا):

تيسيرُ توبة التّائبين وتخفيفُها على العاصين

حُذف المفعولُ (عملا) في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ بعد أن كان مذكورا في الآية قبله ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ لنكتة التّخفيف على التّائبين وتيسيرِ أمر التّوبة عليهم، فإنّه لـمّا كان في سياق التّرغيب، أغناه عن التّأكيد، ليدلّ على قَبول توبة التّائب ولو كان عمله ضعيفًا[3].

معنى الفاء في الآية:

ربطُ الإخلاصِ في التّوبة بالتّوفيق للاستمرارِ فيها

أفادتِ الفاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 222.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 485.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 431.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ ربَطَ فعل الشّرط ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بجزائه ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾، فأخبر سبحانه أن من أتى بهذه التّوبة على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنّه سيوفّقه للاستمرار في التّوبة، وهذا من أعظم البِشارات[1].

بلاغةُ التّوكيد بإنّ:

تأكيدُ قَبول توبةِ التّائبين

استُعمل حرفُ التّوكيد (إنّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لتحقيق مضمونِ الخبر من أنّ من تاب إلى اللّه فقد أتى بتوبة مرضيّةٍ للّه مكفّرةٍ للذّنوب محصّلةٍ للثّواب العظيم.

سرُّ تَكرار فعلِ التوبة مضارعًا:

تحريضُ التّائبين على الاستمرار في الطّريق القويمِ

أعيد فعلُ التوبة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ بصيغة المضارع لِما تفيده هذه الصّيغةُ من معنى التّجدّد والدّوام، أي: فإنّه يستمرّ على توبته ولا يرتدُّ على عقبَيه فيكون وعدًا من اللّه تعالى أن يثبّته على القول الثّابت إذا كان قد تاب وأيّد توبتَه بالعمل الصالح[2].

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

اختصاصُ أصحابِ الشّرك والكبائر بمضاعفةِ العذاب والخلودِ فيه

تقدّم شبهُ الجملة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لنكتة الاختصاص، بمعنى إخلاصِ نيّة التّوبة للّه وحده، ومن وُفّق في ذلك فقد أتى بتوبة مرضيّة للّه مكفّرةٍ للذّنوب محصّلةٍ للثّواب العظيم، وأنّ التّائب سيرجعُ إلى اللّه تعالى للجزاء والمكافأة[3].

سرُّ إظهارِ الاسم الأعظم في النّظم:

فرحُ الله الكريم بتوبة التّائبين الصّادقين

أُظهر اسمُ اللّه الأعظمُ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لإناطة التّوبة بصريح اسمه الجامعِ وليُؤذن به أنّ من تكون توبتُه إلى من اسمُه اللّه فأعظم بتوبته، فاسمُ اللّه الأعظم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 485.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 485.

جامعٌ لسائر صفاته الحسنى وأسمائه العظمى، وله في كل مقام تجلٍّ بحسب اقتضاء ذلك المقام، والمقابل له، وهذا المقام مقامُ التّوبة، فالتّجلّي بوصف التّوّابية، فاللّه يحبُّ التّوابين ويحبُّ المتطهّرين، ويفرحُ بتوبة التّائبين فرحًا لا فرحَ فوقه[1].

أثـرُ الصّيغةِ الصّرفية في تنوّع المعاني الدّلاليةِ

وجهُ التّعبير بـ ﴿مَتَابًا﴾ دلالةً وصيغةً:

ورد لفظُ ﴿مَتَابًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾، على أنّه مفعولٌ مطلقٌ غرضُه التّأكيدُ، أي: من تاب وعمل صالحًا، فإنّ توبته هي التّوبةُ الكاملة الخالصةُ للّه على حدّ قول النّبيّ ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التّحريم: 8][3]، أو أنّه مصدر ميميّ اسم مكان، أي: أنّه يعود إلى مكان التّوبة وملجئها الحصين الذي لا يذلّ من يلجأ إليه، ويجعلُه حصنَه الحصين، وركنَه الركين[4].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 296.

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (94)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1907).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5320.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾

[الفرقان: 72]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحلّي عبادِ الرّحمن بمزيد الفضائلِ وتَخلّيهم عنِ الرّذائل

لـمّا وصف عبادَه سبحانه بأنّهم تحلّوا بأصول الفضائل، وتخلَّوا عن أمّهات الرّذائل، أتبع خصالَ المؤمنين الثّلاثَ التي هي قوامُ الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتّخلّقِ بفضائله، ومجانبةِ أحوال أهل الشّرك[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡهَدُونَ﴾: (شهد) أصلٌ يَدُلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلام، لا يخرج شيءٌ من فروعه عنها، من ذلك الشّهادة، يَجْمَعُ الأصولَ الّتي ذُكِرَتْ من الحضور، والعلم، والإعلام، يقال شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً، والمَشْهَدُ: محضَرُ النّاسِ[2]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، أي: ما يغيبُ عن حواسّ النّاس وبصائرهم وما يشهدونه بهما[3].

وعلى هذا فالشّهادة في الشّريعة: إخبارٌ عن عيانٍ بلفظ الشّهادة في مجلس القاضي بحقٍّ لآخر على آخرَ: فالإخبارات ثلاثةٌ: إمّا بحقٍّ لآخر على آخر، وهو الشّهادة، أو بحقٍّ للمخبِر على آخر، وهو الدَّعوى، أو بالعكس، وهو الإقرارُ[4]، وعليه فيحتمل معنى الشّهادة في الآية الحضورَ أوِ الإخبارَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 431، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الراغب، المفردات: (شهد).
(4) الشّريف الجرجاني، التّعريفات، ص: 129.

2) ﴿ٱلزُّورَ﴾: (زور) أصلٌ واحد يدلُّ على الميل والعُدول، من ذلك الزّور: الكذب؛ لأنّه مائلٌ عن طريقة الحقّ، ويقال زور فلان الشّيءَ تزويرًا، حتى يقولون: زوّر الشّيء في نفسه: هيأه؛ لأنه يعدل به عن طريقة تكون أقربَ إلى قبول السّامع[1]، وقيل للكذب: زور؛ لكونه مائلًا عن جهته، قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: 30][2]، ويحتمل لفظُ ﴿ٱلزُّورَ﴾ في الآية شهادةَ الكذب، كما يحتملُ كلَّ شيء باطل كالغناء ومجالس اللّهو ... الخ[3].

3) ﴿مَرُّواْ﴾: (مرّ) الميم والرّاء أصلان صحيحان، يدلّ أحدُهما على مضيّ شيء، والآخرُ على خلاف الحلاوة والطّيب، فالأوّل، وهو المقصود، مرّ الشّيء يَمُرُّ، إذا مضى، ومَرُّ السّحاب: انسحابُه ومضيّه، ولقيته مَرَّةً ومَرّتين إنّما هو عبارة عن زمان قد مرّ[4]، وعليه فمعنى ﴿مَرُّواْ﴾ في الآية: أنّهم يمضون وهم في حال كرامةٍ، غيرِ متلبّسين بالمشاركة في اللّغو[5].

4) ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: (لغو) اللّام والغين والحرف المعتلّ أصلان صحيحان، أحدُهما يدلّ على الشّيء لا يُعتدُّ به، والآخرُ على اللّهج بالشّيء، والمقصودُ هنا الأوّل، يُقال لغا يلغو لغوًا، بمعنى اختلاط الكلام في الباطل[6]، واللّغا: السّقطُ، وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره، ولا يحصلُ منه على فائدة ولا نفع[7]، وقال ابنُ الأنباريّ: اللّغو عند العرب ما يُطرح من الكلام استغناءً عنه[8]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: 55]، فمعنى اللّغو في الآية الكلامُ العبثُ والسّفهُ الذي لا خير فيه[9].

5) ﴿كِرَامًا﴾: (كرم) أَصْلٌ صَحِيحٌ لَهُ بابانِ: أَحَدُهُما شَرَفٌ في الشَّيْءِ في نَفْسِهِ أَوْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زور).
(2) الراغب، المفردات: (زور).
(3) الواحدي، البسيط: 16/ 602.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لغو).
(7) ابن سيده، المحكم: (لغو).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 436.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.

شَرَفٌ في خُلُقٍ مِنَ الأَخْلاقِ، يُقالُ رَجُلٌ كَريمٌ، وفَرَسٌ كَريمٌ، ونَباتٌ كَريمٌ[1]، والكَرَمُ إذا وُصف اللّه تعالى به فهو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: 40]، وإذا وُصف به الإنسانُ فهو اسمٌ للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه، والإِكْرامُ والتَّكْريمُ: أن يوصل إلى الإنسان إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يلحقُه فيه غضاضةٌ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كَريمًا، أي: شريفًا[2]، ومعنى ﴿كِرَامًا﴾ في الآية أنّ عباد الرّحمن إذا مرّوا على أصحاب اللّغو تنزّهوا عن مشاركتهم وتجاوزوا ناديهم فكانوا في حال كرامةٍ، وهذا ثناءٌ على المؤمنين بترفّعِهم على ما كانوا عليه في الجاهليّة[3].

المَعْنَى الإِجْماليُّ:

تــنــزّهُ عــبــادِ الــرّحــمــن عن مجالس الباطِل والبُهتان

يضيفُ ربّنا سبحانه إلى صفات عبادِ الرّحمن أنّهم لا يشهدون بالكذب ولا يحضرون مجالسَه، وإذا مرّوا بأهل الباطل واللّغو من غير قصدٍ مرّوا معرضين منكرين يتنزّهون عنه، ولا يرضونه لغيرهم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

متابعةُ البيانِ بتكميل صفاتِ عباد الرحمن

وُصل قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميلٌ لصفات عبادِ الرّحمن المذكورة في الآيات السّابقة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: 63]، فبعد أنّ ذكر قسمَ تحلّيهم بالفضائل، وتخلّيهم عن أمّهات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرم).

(2) الرّاغب، المفردات: (كرم).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.

(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.

الرذائل، أتبع ذلك بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتّخلّقِ بفضائله، ومجانبةِ أحوال أهل الشّرك[1].

سرُّ التّعبير بالموصول (الّذين):

مدحُ عبادِ الرحمن بمجانبة شهادةِ الزّور والبُهتان

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ التّعبيرُ بالاسم الموصول (الّذين) الخاصِّ بجمع المذكّر العاقلِ لِما يسمحُ به الموصولُ من الوصف بجملة الصّلةِ، فمدحَ عبادَ الرّحمن بأنّهم لا يحضرون محاضرَ الباطل الّتي كان يحضرُها المشركون.

بلاغةُ النّفي بـ﴿لَا﴾:

نفيُ شهادةِ الزّور في مطلق الأزمنة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ النّفي بـ﴿لَا﴾ دون غيرها من أدوات النّفي لِما تتميّزُ به من كونها أقدمَ حروفِ النّفي في العربيّةِ، وتتميّزُ بدخولها على الأسماء والأفعال[2]، فهي غيرُ مختصّةٍ ولهذا لا تعملُ، كما أنّ النّفيَ بها مطلقٌ في الأزمنة لإفادة اعتزالِهم مجالسَ الباطل مطلقًا في كلّ الأزمنة.

نكتةُ التّعبير عنِ الفعل المنفيِّ مضارعًا:

ثباتُ عبادِ الرّحمن على صفاتهم المرضيّةِ

أوثر في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ صيغةُ المضارع في الفعل المنفيّ ﴿لَا يَشۡهَدُونَ﴾ دون غيره منَ الأزمنة لِما يفيده المضارعُ من الثّبوت والدّوام والاستمرارِ، وفي ذلك دلالةٌ على ثباتهم في اعتزالهم لمجالس الباطل ودوامِهم على هذه الخصال المرضيّةِ عند ربّهم سبحانه.

وجهُ تعريفِ الزّور في الآية:

عمومُ الزّور في مجالس الباطلِ

جاء لفظُ ﴿ٱلزُّورَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالّةِ على تعريف الجنس المقتضي للعموم؛ لأنّ أصلَ الزّور تحسينُ الشّيء ووصفُه بخلاف صفتِه حتى يُخَيَّلَ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 78.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.

من يسمعُه أو يراه أنّه بخلاف ما هو به فهو تمويهُ الباطل بما يوهمُ أنّه حقّ، والشّرك قد يدخلُ في ذلك؛ لأنّه مُحسَّنٌ لأهله حتّى ظَنّوا أنّه حقٌّ وهو باطل، ويدخلُ فيه الغِناء؛ لأنّه أيضًا ممّا يُحَسَّن بترجيع الصّوت حتّى يستحليَ سامعُه سماعَه، والكذبُ أيضًا يدخل فيه بتحسين صاحبه إيّاه حتّى يُظنّ أنّه حقّ، فكلُّ ذلك ممّا يدخلُ في معنى الزّور، فيكون المعنى: (والّذين لا يشهدون شيئا من الباطل، لا شِركا، ولا غِناء، ولا كذبا ولا غيره، وكُلُّ ما لَزِمه اسم الزّور)؛ لأنّ اللّه عمّ في وصفه إيّاهم أنّهم لا يشهدون الزّور، فلا ينبغي أن يَخصَّ من ذلك شيءٌ إلّا بحُجَّةٍ يجبُ التّسليمُ لها، من خبر أو عقل[1].

بلاغةُ المجازِ في ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾:

الـثّـنـاءُ على عـبـادِ الرّحـمن بـاجـتـنـابِ أماكن الباطلِ والعصيان

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ مجازًا؛ إذ يحتملُ أن يكون المقصودُ إقامةَ الشّهادة الباطلة، ويكونُ المعنى أنّهم لا يشهدون شهادةَ الزّور فحُذِف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه، فيكونُ مجازًا بالحذف، ويمكنُ حملُ شهود الزّور على حضور أبنيةِ الباطل فيُحملُ الشّهودُ على الحضور، ويجعلُ الزّور استعارةً عنها؛ لأنّها باطلةٌ[2].

دلالةُ العطفِ بالواو:

تـرَفُّـعُ عـبـادِ الـرّحـمـن عن مجالسة أهلِ اللّغو

وُصل قولُه تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، فبعد أن مَدَح عبادَ الرَّحمن بعدم حضور الزّور عُطف عليه ما هو أعمُّ منه فأثنى على المؤمنين بترفّعِهم عن مجالسة أهل اللّغو وتنزّهِهم عن مشاركتهم وتجاوزِ ناديهم فيكونون في حال كرامةٍ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 523.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 485.

سرُّ التّعبير بـ(إذا) دون (إن):

وجوبُ تركِ اللّغو والابتعادِ عنه

جاء التّعبيرُ بـ (إذا) في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ دون (إن)، لِما في (إذا) مِنَ الدّلالة على تحقّق مدخولِها، وفيه إيماءٌ إلى وجوب تركِ اللّغو، ومرورِهم بخلقٍ حسن[1].

إيثارُ لفظِ المرور ماضيًا مجموعًا:

عادةُ عبادِ الرّحمن في ترك أهل اللّغوِ والخُسران

عُبِّرَ بالفعل ﴿مَرُّواْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ مرّتين، فعبّر أولًا عن سماع اللّغو بالمرور به؛ لأنّ المرور به دلّ على أصحابه، ودلّ ذلك على سماعه منهم، ثم عبّر ثانيًا عنِ الإعراض عنه بالمرور به، على تلك الحالة، فإنَّ الكريم إذا مرّ باللّغو أعرضَ عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، وتخصيصُ المرور بالذِّكر للإيذان بأنَّ ذلك دأْبهم وعادتُهم[2].

دلالةُ التّعريف في اللّغو:

شمولُ اللّغوِ لكلّ ما لا خيرَ فيه

جاء لفظُ (اللّغو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ معرّفًا بـ (أل) الدّالّةِ على تعريف الجنس المقتضي لعموم ما ينبغي أن يُطرح ويبطل سواء كان من وادي الكذب أوِ العبث الّذي لا يُجدي، وهو في كلام العرب كلُّ كلام أو فعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبح من الكلام، ويدخلُ فيه الشّركُ واللّغو في القرآن وشتمُ الرّسول ﷺ، والخوضُ فيما لا ينبغي ... الخ[3].

دلالةُ حرفِ الجرّ في الآية:

النّهيُ عن مجالسة أصحابِ اللّغو المتلبّسين به

معنى حرفِ الجرّ (الباء) في لفظ ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ الملابسةُ؛ لأنّ معنى المرور باللّغو المرورُ بأصحابه اللّاغين في حال لغْوِهم، فجُعل المرورُ بنفس اللّغو للإشارة إلى أن أصحابَ اللّغو متلبّسون به وقتَ المرور[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 53.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 299.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 433، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 485.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 79.

بلاغةُ المجازِ في ﴿مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾:

يتضمّن قولُه تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ مجازًا بالحذف؛ لأنّ مرور الممدوحين باللّغو معناه المرورُ بأهل اللّغو والمشتغلين به، فيمرّون معرضين عنهم، مُكرمين أنفسَهم عنِ التّوقف عليهم والخوضِ معهم، كما يحتملُ السّياق أن يكون المقصودُ باللّغو أبنيةَ الظلمة، فيكون المرور بها استعارةً مصرحةً تحقيقيّةً، والقرينةُ استعمالُ المرور فيها، كأنّه قيل: لا يحضرون تلك المشاهدَ، وإذا مرّوا بها مرّوا غيرَ مُلتفتين إليها ولا يُجيلون النّظر إليها استحسانًا[1].

أثرُ التّقدير في اتّساعِ المعاني الدّلاليّةِ

وجهُ التّعبير بلفظِ ﴿كِرَامٗا﴾ دلالةً وصيغةً:

عُبّر بالحال ﴿كِرَامٗا﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾، والمعنى: مرّوا كرامًا أنّهم يمرّون وهم في حال كرامةٍ، أي: غيرُ متلبّسين بالمشاركة في اللّغو، فإنّ السّفهاء إذا مرّوا بأصحاب اللّغو أنِسوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم، فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامةٍ، والكرامةُ في اللّغة: النّزاهةُ ومحاسنُ الخِلال، وضدُّها اللّؤمُ والسّفالةُ، وأصلُ الكرامة أنّها نَفاسةُ الشّيء في نوعه، قال تعالى: ﴿أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧﴾ [الشعراء: 7]، ويقال أيضًا: تكرّم فلانٌ عمّا يشينه إذا تنزّه وأكرم نفسه عنه، ونظيرُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص: 55][2].

مِن محاسنِ الخِلالِ الكرامةُ وضدُّها اللّؤمُ والسّفالةُ

توجيهُ حذفِ متعلّقِ ﴿كِرَامٗا﴾:

قدّر بعضُ المفسّرين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ محذوفًا في عبارة ﴿مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ تقديره: (أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللّغو)، وإكرامُهم لها لا يكون إلّا بالإعراض

كرامةُ النّفوس بالإغضاء عنِ الفواحش والذّنوب

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 298.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 79.

وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة والخوض فيما لا ينبغي، ومن ذلك الإغضاءُ عنِ الفواحش، والصَّفحُ عن الذُّنوب والكنايةُ عمّا يُستهجنُ التّصريحُ به(1).

بلاغةُ الإطناب في الآية:

من وقفَ مواقفَ السّفهاء سُفِّهَ وقُدِحَ في عدالته

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ بعد قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، فإذا فُسِّرَ قوله: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ بأنّهم ينفرون عن محاضر الكذّابين والخطّائين، و﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنى يحضرون، كانت كالتّتميم له، وإذا فُسِّرَ بأنّهم لا يشهدون شهادةَ الزّور كانت كالتّكميل له، ويجوز أن يكون تتميمًا على تفسير الحسن بأنّهم لم تسفّههم المعاصي؛ لأنّ من وقف مواقفَ السّفهاء سُفِّهَ، ويكون قدحًا في عدالته(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزُّور والكذب والافتراء والاختلاق والإفك والزيف:

عمومُ الزّور في كلّ باطلٍ من قول أو فعل

تتقارب هذه الكلمات في المعنى، لكنْ بينها فروقٌ دلاليّةٌ دقيقةٌ، أمّا (الزّور) فهو مطلقٌ في كلّ باطل كالغناء ومجالس اللّهو... الخ(3)؛ لأنّ أصل اشتقاقه واحدٌ يدلُّ على الميل والعُدول، وسُمّي الكذبُ زورًا؛ لأنّه مائل عن طريقة الحقّ، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30](4).

وأمّا الكذبُ فهو عدمُ مطابقة الخبر للواقع(5)، والافتراءُ: افتعالٌ من الفَرْي، وهو أقبحُ الكذب وأعظمُه، ويكون في القول والفعل، فيقال لمن عمل عملًا، فبالغ فيه: إنّه ليَفْري الفَرْيَ، يعني: ليقطعُ الأمرَ العجيب(6)، قال جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 486، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 230.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 298.
(3) الواحدي، البسيط: 16/ 602.
(4) الراغب، المفردات: (زور).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 449.
(6) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.

﴿أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: 12]، وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، قيل: معناه: عظيمًا، وقيل: عجيبًا، ووقع الافتراءُ في القرآن، والمراد به: الكذبُ، نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103]، والشّرك نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]، وكلّ ذلك بحسبِ المقامات الواردةِ في الكتاب(1).

فالافتراء أخصُّ منَ الكذب في باب الأقوال؛ لأنّ الافتراء كذبٌ في حقّ الآخر بما لا يرتضيه، بخلاف الكذبِ، فإنّه قد يكون في حقّ المتكلّم نفسِه، ولذا يقال لمن قال: فعلت كذا، ولم أفعل كذا، مع عدم صدقِه في ذلك: هو كاذب، ولا يقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنّه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفترٍ: لأنّ ذلك ممّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا، وقد ذكر الله قولَ الكفّار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]، لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه(2)، ومن هنا فالافتراء اختلاقٌ للكذب، لذا يُطلق الفقهاءُ الفِريةَ والافتراء على القذف: وهو رميُ المحصن بالزّنى من غير دليل، ومنه قيل: افترى فلان على فلان، إذا قذفه بما ليس فيه، أو قذف أبويه(3)، وأيضًا قد يحسنُ الكذب في بعض الوجوه: كالكذب في الحرب، وإصلاحِ ذات البين، وعلى الزّوجة، كما وردت فيه الرواياتُ، بخلاف الافتراء(4).

وأمّا الاختلاق فأصلُه الخلقُ وهو: (التّقدير المستقيم)، ويستعملُ في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاءٍ، وكلُّ موضع استعمل الخلق في وصف الكلام فالمرادُ به الكذبُ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ [الشعراء: 137]، وقولُه: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: 7](5)، وأمّا الإفك فأصلُه قلبُ الشّيء وصرفُه عن جهته بالكذب والباطل(6)، وأمّا الزّيفُ: فهو من وصف الدّراهم، يقال: زافت عليه دراهمُه أي صارت مردودةً لغشّ فيها، وقد زُيِّفَتْ إذا رُدّت(7)، فيسمّى الكذبُ زيفًا لبهرجِه

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرى).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 450.
(3) الراغب، المفردات، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 31.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 450.
(5) االراغب، المفردات: (خلق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زيف).

وتزيينه بما لا حقيقةَ له، وقد أوثر في الآية لفظُ ﴿ٱلزُّورَ﴾ لعمومه وإطلاقِه في كلّ باطل كالغناء ومجالسِ اللّهو ... الخ، زيادةً في مدح عبادِ الرّحمن بالتّنزّه عن كلّ باطلٍ في القول والفعل.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ [الفرقان: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مخالفةُ المؤمنين لأحوالِ المشركين عند سماع القرآنِ المبين

لـمّا أريد تمييزُ المؤمنين بمخالفة حالةٍ هي من حالات المشركين، وتلك هي حالةُ سماعهم دعوةَ الرّسول ﷺ وما تشتملُ عليه من آيات القرآن وطلبِ النّظر في دلائل الوَحدانيّة، ذُكر حالُ المؤمنين المخالفُ لحال المشركين عند سماعها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُكِّرُواْ﴾: (ذكر) أصلان؛ الأوّل خلافُ الأنثى، والأصلُ الآخر وهو المقصود هنا وذَكَرت الشَّيءَ، خِلافَ نَسِيتُه، ويقولون: اجعله منك على ذُكر، بضمّ الذّال، أي: لا تنسَهُ، والذِّكر: خلافُ النّسيان[2]، وهو هيئةٌ للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتضيه منَ المعرفة، وهو كالحفظ، إلّا أنّ الحفظ يُقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يُقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقال لحضور الشّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلك قيل: الذِّكرُ ذِكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللّسان[3]، ومعناه في الآية كما قال ابنُ قتيبة: لم يتغافلوا عنها كأنّهم صمٌّ لم يسمعوها، وعُميٌ لم يروها[4].

2) ﴿يَخِرُّواْ﴾: (خرّ) أصلٌ واحدٌ، وهو اضطرابٌ وسقوطٌ مع صوت، فالخرير: صوتُ الماء والرّيح والعُقاب وغيرِ ذلك ممّا يسقطُ من عُلوّ[5]، وخرّ لله ساجدًا يَخِرُّ خُرورا، أي: سقط سقوطًا يُسمع منه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 315.
(5) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (خرّ).

الخريرُ[1]، ومعنى نفي الخرورِ في الآية أنّ عبادَ الرّحمن إذا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يقيموا عليها غيرَ واعين لها، بل أكبّوا عليها حرصًا على استماعها[2].

3) ﴿صُمًّا﴾: (صمم) تدور اشتقاقاتُها على انسدادِ فتحاتِ الشّيء، والحيلولةِ دون النّفاذ فيها[3]، ومنه الصَّمَمُ في الأذن: وهو ذهاب سمعِها، أوِ انسدادُها وثِقلُ السّمع، ويُقال للمتّصف به: أصمّ، والأنثى: صمّاء، والجمع: صُمّ[4]، وقد يطلقُ الأصمّ على من لا يهتدي إلى الحقّ، من باب التّجوّز، فيكون من صمم العقل لا الأذنِ[5]، وهو المقصودُ في الآية تفظيعًا لحال المشركين.

4) ﴿وَعُمۡيَانًا﴾: (عمي) أصلٌ يدلّ على ستْر وتغطيةٍ، والعمى: ذهابُ البصر من العينين كلتيهما[6]، ويقال أيضًا في افتقاد البصر والبصيرة، وجمعُ أعمى: عُميٌ وعُميانٌ[7]، والفعل منه عميَ يَعمى عَمًى، ورجلٌ عمٍ: إذا كان أعمى القلب، وقومٌ عَمون[8]، والعَمى: ضِدُّ البصر، وهو نوعان: حقيقيٌّ ومجازيّ، وهو ما عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الرعد: 46]، وعمى الأبصار أهونُ من عمى البصائر[9]، وهو المقصودُ في الآية.

❁ المَعنَى الإجماليُّ:

مدحُ عبادِ الرّحمن بالاتّعاظِ بآي القرآن

يمدحُ ربّنا سبحانه عبادَ الرّحمن بأنّهم الّذين إذا وُعِظوا

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرّ).
(2) العليمي، فتح الرّحمن: 5/ 44.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صمم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (صمّ)، والزّبيديّ، تاج العروس: (صمم).
(5) جمال الدّين الفتّني، مجمع بحار الأنوار: (صمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمى).
(7) الراغب، المفردات: (عمى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(9) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عمي).

بآيات القرآن ودلائل وحدانية الله لم يتغافلوا عنها، كأنّهم صمٌّ لم يسمعوها، وعُميٌ لم يُبصروها، بل وعَتْها قلوبُهم، وتفتَّحت لها بصائرُهم، فخرّوا لله ساجدين مطيعين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

من صفاتِ المؤمنين الاتّعاظُ بآيات القرآن المبين

وُصِلَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميلٌ لصفات عبادِ الرّحمن المذكورةِ في الآيات السّابقة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، فأثنى عليهم في هذه الآية بالاتّعاظ بآيات القرآن المبين خلافًا للمشركين المُعرضين.

سرُّ التّعبير بالموصول (الذين):

التّعريضُ بتفظيع حالِ المشركين الكارهين لسماعِ آي الذّكر الحكيم

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ التّعبيرُ بالاسم الموصول (الّذين) الخاصّ بجمع المذكّر العاقلِ لِما يسمحُ به الموصولُ من الوصف بجملة الصّلة، جيءَ بالصّلة منفيةً لتحصيل الثّناء عليهم مع التّعريض بتفظيع حالِ المشركين الكارهين لسماعِ آي الذّكر الحكيم[2].

نكتةُ التّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

حثٌّ للمؤمنين على الاتّعاظِ بآي الذّكر الحكيم

جاء التّعبيرُ بـ﴿إِذَا﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دون (إن)، لِما في ﴿إِذَا﴾ من الدّلالة على تحقّق مدخولِها، وفيه حثٌّ للمؤمنين على الاتّعاظ بآي الذّكر الحكيم ودلائلِ وحدانية ربِّ العالمين، ومجانبةِ حال الكافرين المُعرضين كأنّهم صمٌّ لم يسمعوها، وعُميٌ لم يُبصروها.

---

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 80.

دلالةُ صوغ الفعل ﴿ذُكِّرُواْ﴾ مبنيًّا للمفعول:

التّركيزُ على فعل التّذكير دون المُذكِّرِ

عُبّر بالفعل ﴿ذُكِّرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعلُه لنكتة التّركيزِ على فعل التّذكير في حدّ ذاته؛ لكونِه المقصودَ منَ الكلام بغضّ النّظر عنِ المذكِّرِ، فالغرضُ العامُّ من ذكر الفعل مجرّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجودِ المجرّدِ في الشّيء دون التّعرّض للمعمول[1]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلامُ منصبًّا إلى غرض منَ الأغراض جعل سياقَه له وتوجّهَه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مطّرحٌ[2].

معنى الباء في الآية:

تأكيدُ تعديةِ فعل التّذكير إلى مفعوله الثّاني

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ حرفُ الجرّ (الباء) من قوله ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾، ومعناه في هذا السّياق التّعديةُ، بمعنى تأكيدِ تعديةِ فعل التّذكيرِ إلى مفعوله الثاني، والمفعولُ الأوّل الواو، وبآيات اللّه مفعولٌ ثانٍ لفعل التّذكير، يقال: ذكّرته أمرًا نسيَه، فتعديتُه بالباء لتأكيد التّعديةِ كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5][3].

دلالةُ جمعِ الآيات وتنكيرِها:

كثرةُ آياتِ اللهِ الشّرعيّة والكونيّةِ ومنزلتِها العليّة

جاء لفظُ (الآيات) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ مجموعًا للدّلالة على كثرتها، فهي ليست آيةً واحدةً بل هي آياتٌ كثيراتٌ شرعيّةٌ وكونيّةٌ، وقد جاءتِ الآيات في هذا السّياق مضافةً إلى مصدرها وهو الربّ ﷻ تعظيمًا لقدرها وتشريفًا لمنزلتها، وهذا أدعى للعباد إلى تعظيمِها وقبولِها والاتّعاظِ بها.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّة ونكتةُ إضافتِه إلى ضمير (هم):

شفقةُ الرّبّ بالمربوب والإحسانُ إليه

عُبِّرَ بوصف ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 237.

﴿رَبِّهِمۡ﴾ دون سواه من أسماء اللّه وصفاته لِما في وصف الرّبوبية منَ الدّلالة على الشّفقة بالمربوب، ومحبّةِ الخير له، ولتتأتّى الإضافةُ المفيدةُ للتّشريف والقُرب فهو ربّهم الذي وفّقهم لتذكّر إحسانه إليهم في حسن تربيتِه لهم بالاعتبار بالآيات المرئيّةِ والمسموعةِ[1].

بلاغةُ النّفيِ والإثبات في الآية:

إعراضُ المشركين والمنافقين عنِ الانتفاع بالذِّكر الحكيمِ

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ بأسلوب النّفيِ والإثبات، فقوله سبحانه ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا﴾ عند كثير من العلماء ليس بنفيٍ للخرور وإنّما هو إثباتٌ له، ونفيٌ للصّمم والعمى، كما تقول: لا يلقاني زيدٌ مُسَلِّمًا، هو نفيٌ للسّلام لا للّقاء، فالنّفيُ على هذا منصبّ إلى القيد فقط كما هو مختارُ صاحبِ (الكشّاف) بقوله: "والمعنى: أنّهم إذا ذُكّروا بها أكبّوا عليها حرصًا على استماعها، وأقبلوا على المذكِّر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذانٍ واعيةٍ، مبصرون بعيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرون بها فتراهم مُكِبّين عليها مُقبلين على من يُذَكِّر بها، مُظهرين الحرصَ الشّديدَ على استماعها، وهم كالصمّ العميان حيث لا يعونها ولا يتبَصّرون ما فيها كالمنافقين وأشباهِهم[2] ".

وقد ذهب فريقٌ آخرُ من العلماء إلى أنّ النّفي متوجّهٌ إلى الفعل وإلى قيده معًا، وقالوا بأنّ الوجه الأوّل ضعيفٌ؛ لأنّه إنّما يليقُ لو كان المعرَّضُ بهم منافقين، وكيف والسّورةُ مكّيةٌ، فأمّا المشركون فكانوا يُعرضون عن تلقّي الدّعوة علنًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: 26]، وقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: 5][3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 295.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 81.

ذكرُ حالِ المؤمنين تعريضٌ بحال المشركين

سرُّ التّعريضِ في الآية:

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيان وهو (التّعريض)، وهو كونُ معنى الكلام مفهومًا من عُرضه، أي جانبه[1]، ففي هذه الآية ذكرَ اللّه حالَ المؤمنين عند سماع آياتِ الذّكر الحكيم، وفيه تعريضٌ بمن ليسوا على صفة المؤمنين، فذمّهم بأنّهم إذا ذُكّروا بآيات ربّهم كانوا كالصّمّ والعميان عن قبولها، وهو تنديدٌ وتقريعٌ للكافرين بأنّهم صمّ عميٌ لا ينتفعون بما يقرؤون، ولا يعتبرون بما يشاهدون، ولا يتجاوز آذانَهم ما يسمعون[2].

استعارةُ الخُرور لشِدّة الكراهيةِ والتّباعدِ عنِ الموعظة

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ﴾:

أوثر التَّعبيرُ بفعل الخُرور في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾؛ تفظيعًا لحال المشركين، فإنّ المشركين إذا ذُكِّروا بآيات اللّه خرّوا صُمًّا وعميانًا كحال من لا يحبُّ أن يرى شيئًا فيجعلُ وجهَه على الأرض، فاستعير الخُرورُ لشِدّة الكراهية والتّباعد بحيث إنّ حالهم عند سماع القرآن كحال الّذي يخرُّ إلى الأرض لئلّا يرى ما يكرهُ بحيث لم يبقَ له شيءٌ منَ التّقوّم والنّهوضِ، فتلك حالةٌ هي غايةٌ في نفيِ إمكان القَبول.

ومنه استعارةُ القعود للتخلّف عن القتال، وفي عكس ذلك يُستعارُ الإقبالُ والتّلقّي والقيامُ للاهتمام بالأمر والعنايةِ به، ويجوزُ أن يكون الخرورُ واقعًا منهم أو من بعضهم حقيقةً؛ لأنّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتهم ونواديهم، فإذا دعاهم الرّسولُ ﷺ إلى الإسلام طأطأوا رؤوسَهم وقرّبوها من الأرض؛ لأنّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفِرار أو ستر الوجه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: 7][3].

(1) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.
(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 80.

دلالةُ شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡهَا﴾:

تكبّرُ المشركين واستعلاؤهم عن تدبّر آياتِ القرآن المبين

التّعبيرُ بحرف الجرّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾، فيه إيماءٌ إلى تكبّر المشركين واستعلائِهم عن تدبّر آيات القرآن المبين، بخلاف المؤمنين الذين يخرّون سجّدًا وبكيًّا عند سماعها والاتّعاظِ بها.

سرُّ تقديم شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡهَا﴾:

وجوبُ الاهتمام بآياتِ الله العظيمةِ

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ على الحال لنكتة الاهتمامِ والعنايةِ بآيات اللّه، وفيه إشعارٌ بأنّ التّذكيرَ بآيات اللّه عظيمة القدر والخطب عليهم.

وجهُ التّعبير بلفظِ ﴿صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ دلالةً وصيغةً:

عبادُ الرحمن يخرّون سُجّدًا وبُكيًّا، والكافرون يخرّون صُمًّا وعميانًا

عبّر بصفتَي الصّمم والعمَى في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾؛ قصدًا في هذا السّياق إلى عدم الاعتبار بالآيات، فكأنّهم صُمّ لم يسمعوا، أو عميانٌ لم يروا، وهذه أخلاقُ المشركين فهم الّذين يخرّون كالصُمّ والعُميِ لا يعتبرون ولا يُدركون، وليس المراد وصفَ المشركين بهذا الوصف السّلبيّ فقط، بل إنّه وصفٌ للمؤمنين عبادِ الرّحمن بأنّهم على نقيض وصفِ الظّالمين يخرّون سجّدًا وبكيًّا، فهم ليسوا كهؤلاء لا يَعتبرون، بل يعتبرون ويخرّون للّه في كلّ آية يسمعونها، وفي كلّ عِبرة يعتبرونها، وينظرون إلى خلق اللّه تعالى نظرةً مُدركة مستبصرةً مستهديةً طالبةً للرّشاد، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ إلى أنّ الآياتِ التّي تُتلى أو توجِّهُ الأنظار في المخلوقات من شأنها أن تجعل من يتأمّلُها ويسمعُها يخرّ خرورًا لوضوح إعجازِها ودلالتِها، لكنّ عبادَ الرّحمن يخرّون سجّدًا وبُكيًّا، والكافرون يخرّون صُمًّا وعُميانًا[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5323.

دلالةُ العطف بالواو:

انسدادُ كلّ طرقِ وصولِ الهداية إلى المشركين

عُطف العَمى على الصّمم في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران زيادةً في تفظيع حال المشركين بانسداد كلِّ طرق وصولِ الهداية إلى قلوبهم، فهم صمٌّ لا يسمعون عظاتِ القرآن وعُميانٌ لا يبصرون أنوارَه.

إيثارُ الجمع ﴿وَعُمۡيَانٗا﴾ دون (عُميًا):

المبالغةُ في تصوير عمَى المشركين عن الانتفاع بآيِ الذّكر الحكيمِ

أوثرَ الجمع ﴿وَعُمۡيَانٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ دون (عُميًا) [البقرة: 18] كما في قوله سبحانه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18] وغيرِها من الآيات لنكتة المبالغة في تصوير عمى المشركين عنِ الانتفاع بآي الذّكر الحكيم بما أشارت إليه المبالغةُ بزيادة النّون في الجمع (عميان)، وكذلك لأنّ سياقَ الآيات وصفُ عباد الرّحمن بفعلٍ ضدّ فعلِ المشركين المعرضين، أي: أنّهم يَسقطون عند سماعها ويبكون عليها، سقوطَ سامعٍ منتفعٍ بسمعه، بصيرٍ منتفعٍ ببصره وبصيرته، سجّدًا يبكون كما تقدّم في أوّل أوصافهم[1].

وجهُ تقديمِ الصّمم على العمَى:

السّمعُ آلةُ تلقّي المعارفِ وبلوغِ دعوةِ الأنبياء

تقدّم وصفُ الصّمم على العَمى في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ لنكتة تقديمِ حاسّة السّمع على البصر في كثير من آيات القرآن الكريم، وفي هذا دليلٌ على أهمّية السّمع وأنّه أفضلُ فائدةً لصاحبه من البصر؛ فإنّ التّقديم مُؤذِن بأهمية المقدَّم؛ فالعرب "إنَّما يقدّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعْنَى، وإن كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم"[2]، وذلك لأنّ السّمع آلةٌ لتلقّي المعارف الّتي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بلوغ دعوةِ الأنبياء إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ من بلوغها بوساطة البصر لو فُقد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 434.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 34.

السّمعُ، ولأنّ السّمع تُردّ إليه الأصواتُ المسموعة من الجهات الستّ بدون توجّه، بخلاف البصر فإنّه يحتاج إلى التّوجّه بالالتفات إلى الجهات غيرِ المقابلة، وغيرِها من الحِكَم(1).

بلاغةُ التّشبيه في ﴿صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾:

أثرُ التّشبيه في تفظيع حالِ المشركين

جاء لفظا ﴿صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ حالَين من ضمير ﴿يَخِرُّواْ﴾، والمراد بهما التّشبيهُ بحذف حرف التّشبيه، والتّقديرُ: (يخرّون كالصُّمّ والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها ممّا يذكرون به)، والغرضُ من هذا التّشبيه تفظيعُ حال المشركين والتّنفيرُ من مشابهتهم والتّحريض على مخالفتهم(2).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخرور، والهويّ:

خصوصُ الخرور بالسّقوطِ مع صوتٍ

يشترك كلٌّ من (الخرور)، و(الهوي) في الدّلالة على السّقوط، ويختلفان في نوع السّقوط وأوصافه، فالخرورُ سقوطٌ يُسمع منه صوتُ الخرير، والخريرُ: صوتُ الماء والرّيح والعُقاب وغيرِ ذلك ممّا يسقط من عُلّوٍ، أمّا (الهويّ) فهو سقوطٌ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ(3)، وأصلُه الهواء بين الأرض والسّماء، سُمّي لخلوّه(4)، قال تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحج: 31]، وتقول: رأيت فلانًا يهوي نحوك، معناه: ينحطّ إليك، وينحدر، وينزل(5).

وفعل الخرور أنسبُ لحالتَي الصّمم، والعمَى؛ لأنّ الأصمَّ الأعمَى يصاحبُ حركة سقوطه خوارٌ وعويلٌ بمقتضى عدم سماعِه ورؤيتِه، وتشبيهُ حال المشركين عند سماع الآية بالسّقوط المصحوبِ بصوت خريرٍ في سياق الآية يدلّ على المبالغة في كراهيّة سماعِ آيات القرآن، بَلْهَ عدم تدبّرِ معانيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 81.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوي).
(5) الفراء، معاني القرآن: 2/ 78.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حرصُ المؤمنين على انتشار الدّين

لـمّا ذكر ما تحلّى به عبادُ الرّحمن منَ الخصال المثمرةِ والطّاعات المرضيّة، ذكر صفةً ثالثةً للمؤمنين بأنّهم يُعنَوْنَ بانتشار الإسلام وتكثيرِ أتباعه بما يضمنُ استمرارَ عمارة الوجودِ بالطّاعات[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿هَبۡ﴾: (وهب): كَلِماتٌ لا يَنْقاسُ بَعْضُها على بَعْضٍ، ووَهَبْتُ لَهُ هِبةً، ومَوهِبَةً، ووَهْبًا، ووَهَبًا إِذا أَعْطَيْتَهُ[2]، والهِبةُ: العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، فإِذا كَثُرَتْ سُمّي صاحِبُها وهّابًا، وهوَ مِنْ أَبْنية المُبالغة، والوَهّابُ مِنْ صفاتِ اللّه، المُنعِمُ عَلى العِبادِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ، مِنْ ولَدٍ وغَيْرِهِ: فهوَ مَوهوبٌ[3].

2) ﴿أَزۡوَٰجِنَا﴾: (زوج) تدور اشتقاقاتُها على مقارنة شيءٍ لشيء، ومن ذلك الزّوج: زوجُ المرأة، والمرأة زوجُ بعلِها، وهو الفصيحُ، قال اللّه جلّ ثناؤه: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][4]، فالزّوج كلُّ شيءٍ ثانٍ مع شيء آخرَ بينهما تقارنٌ في حال ما، وسمّيت الأنثى القرينةُ للرّجل بنكاح: زوجًا؛ لأنّها اقترنت به وصيّرته ثانيًا، ويُسمّى الرّجل زوجًا لها لذلك بلا فرق، فمن ثَمَّ لا يقال للمرأة زوجةٌ بهاء التّأنيث؛ لأنّه اسمٌ وليس بوصف[5]، والمرادُ بالأزواج في الآية اسمٌ لذاتٍ مُنْضَمّةٍ إلى غيرها على وجه الملازمة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 434، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهب).
(3) الراغب، المفردات: (وهب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زوج)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 428.

3) ﴿وَذُرِّيَّتِنَا﴾: (ذرّ) أصل يدلّ على لطافة وانتشار[1]، ومنه ذرَرْتُ، وهو أخذُك الشّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ الملح المسحوقِ على الطّعام[2]، والذُّرِّيَّةُ: الخَلق والنّسلُ، مأخوذة من الذّرء، تقول: ذرأ اللّه الخلق، أي: خلقَهم، وذرية الرّجل: ولدُه[3]، وقيل: هو مأخوذٌ من الذّرّ، وهو النّشر، فيقال: ذرّ الشّيء، يَذُرُّه أي نشره، أو من صغار النّمل؛ لأنّ اللّه أخرج الخلقَ من صلب آدمَ كالذّرّ[4]، والجمع الذّراري والذّرّيات، والمقصود بالذّرّية في الآية نسلُ الإنسان من ذكور وإناث.

4) ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: (قرّ) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على برد، والآخرُ على تمكّنٍ، والمقصودُ هنا الأوّلُ فالقُرُّ، وهو البرد، ويومٌ قارٌّ وقَرٌّ، وقولهم: أَقَرَّ اللّه عينَه، زعم قومٌ أنّه من هذا الباب، وأنّ للسّرور دمعةً باردةً، وللغمّ دمعةً حارّةً، ولذلك يقال لمن يُدعى عليه: أسخن اللّه عينَه[5]، والمفهوم من قرّة العين أن تكون مطمئنّةً بذكر اللّه وأن يكون الأزواجُ والذرّيّات في سكينة الإيمان، برؤيتهم مطيعين للّه تعالى، وقرارُ العين مظهرٌ من مظاهر سكونِ النّفس، واطمئنانِ الفؤاد[6].

5) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: (وقي) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِه، المُتّقي اسمُ فاعلٍ مِن (اتَّقَى)، وهو افتعالٌ مِن (وَقى)؛ فأصلُ التّاءِ من (اتّقى) واوٌ: اوْتَقى[7]، ومصدر (اتّقى): الاتّقاءُ، والتَّقوى والتُّقَى: الصّيانَةُ والحِفْظُ[8]، أو جَعْلُ النَّفس في وِقاية مِمّا يُخافُ[9]، أمّا الاتّقاء؛ فهو افْتِعالٌ مِنَ التَّقْوى يُرادُ به: اتِّخاذُ الوقاية[10]، فالافْتِعال هَهُنا بمعنَى الاتِّخاذ، كما يقال: اخْتَتَمَ زَيْدٌ؛ إذا اتَّخذ خاتِمًا، واخْتَدَمَ إذا اتَّخَذ خادِما، ونحو ذلك[11]، وحقيقةُ التَّقوى شرعًا: اتِّخاذُ الوقايةِ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، وذلك بِفِعْلِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ - ذرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 222، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5324.
(7) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 15/ 402، والزَّبيدي، تاج العروس: 40/ 229.
(8) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيَّة: 6/ 2527، والرَّاغب، المفردات: (وقى)، والفيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 669.
(9) الرَّاغب، المفردات: (وقى)، ووصف الرَّاغبُ هذا البيانَ بأنَّهُ التَّحْقيقُ.
(10) عليُّ الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 65.
(11) الحملاويّ، شذا العرف في فن الصَّرف، ص: 32.
(12) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/ 478.

6) ﴿إِمَامًا﴾: (أَمَّ) أصلٌ واحد له فروعٌ كثيرة، فالإمام: كُلُّ من اقتُدِيَ به وقُدِّمَ في الأمور، والنّبيّ ﷺ إمامُ الأئمّة، والخليفةُ إمامُ الرّعيّة، والقرآن إمامُ المسلمين[1]، فكلّ من يؤتمّ به إنسانًا كان فيُقتدى بقوله أو فعله، أو كتابًا، أو غيرَ ذلك محقًّا كان أو مُبطلًا، سُمّي إمامًا، وجمعُه: أئمَّة، نحو قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71] أي: بالّذي يقتدون به[2]، فيكون معنى ﴿إِمَامًا﴾ في الآية: أنّهم طلبوا أن يجعلَهم اللّه رؤساءَ يُقتَدى بهم في الخيرِ[3].

المَعْنَى الإِجْماليُّ:

حرصُ عبادِ الرّحمن على انتشار الخير ونيلِ الإمامةِ في الدّين

يصفُ ربّنا سبحانه عبادَ الرّحمن بأنّهم الّذين يسألون اللّه تعالى قائلين: (ربّنا هب لنا مِن أزواجنا وذريّاتنا ما تَقَرُّ به أعيننا، وفيه أُنسُنا وسرورُنا، واجعلنا قدوةً يُقتدى بنا في الخير)[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو:

رغبةُ الصّالحين في تمسّك ذريّاتِهم بالدّين

وُصل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميلٌ لصفات عبادِ الرّحمن المذكورةِ في الآيات السّابقة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، فعطف في هذا الموضع صفةً من صفاتهم المحمودة وهي الرّغبةُ في انتشار الدّين عبر الذّريّة، وقد توسّط العاطفُ بين هذه الصّفات لتنزيلِ الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلافِ الذّاتيِّ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(2) الراغب، المفردات: (أمم).
(3) الواحدي، البسيط: 15/ 128.
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 231.

سرُّ التّعبير بالموصولِ (الّذين):

عنايةُ عبادِ الرّحمن بانتشار الإسلام

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ التّعبيرُ بالاسم الموصولِ (الذين) الخاصِّ بجمع المذكّر العاقلِ لِما يسمحُ به الموصولُ من الوصف بجملة الصّلة، فمدح عبادَ الرحمن بأنّهم يُعنَون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجًا وذرّيّاتٍ تَقَرُّ بهم أعينُهم.

سرُّ تكرارِ الاسم الموصولِ في الآيات:

تنزيلُ الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلافِ الذّاتيِّ

أعيد الموصولُ في المواقع السَّبعةِ مع كفايةِ ذكرِ الصِّلات بطريقِ العطفِ على صلة الموصول الأوّل؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ ممّا ذُكر في حيِّزِ صلةِ الموصولاتِ المذكورة وصفٌ جليلٌ على حياله له شأنٌ خطيرٌ حقيقٌ بأنْ يُفردَ له موصوفٌ مستقلٌّ ولا يُجعلَ شيءٌ من ذلكَ تتمّةً لغيرهِ، وتوسيطُ العاطفِ بين الموصولاتِ لتنزيلِ الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلافِ الذّاتيِّ[1]، وتَكرارُ التّعبير بالموصول فيه دلالةٌ أيضًا على أنّ الحكم الفرديَّ ههنا كالحكم الجماعيّ، ليشملَ كلَّ مَنْ تتحقّق فيه الصّلة.

إيثارُ لفظِ القول مضارعًا مجموعًا:

تكرّرَ دعاءُ المؤمنين لأهلهم بصلاح الدّنيا والدّين

أوثر استعمالُ الفعل ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ لما تدلّ عليه هذه الصّيغةُ من التّجدّد والدّوام والاستمرار، ففي ذلك إشارةٌ إلى تكرّر هذا الدّعاء منهم مرارًا ومداومتهم عليه لِما فيه من الخير العميم في الدّنيا والآخرة لهم ولأهلهم أجمعين، ولمّا كان لفظُ القول يصحُّ جعلُه مجازًا عن الاعتقادات والآراء[2]، جازَ أنْ يخرج قولُهم مخرجَ الاعتقاد الرّاسخ، والدّعاء المُتيقَّن.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 231.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 34.

سرُّ التّعبير بلفظ الرّبوبيّةِ والإضافةِ:

تَشَرُّفُ المؤمنين بسؤالِ ربّهم الرّحيمِ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا﴾ بوصف ﴿رَبَّنَا﴾ دون سواه من أسماء اللّه وصفاته لما في وصف الرّبوبية من الدّلالة على الشّفقة بالمربوب ومحبّةِ الخير له، ولتتأتّى الإضافةُ المفيدةُ للتّشريف والقرب، فهو ربُّهم الذي يرجونه ويسألونه هبةَ قرّة العين في الأزواج والبنين.

دلالةُ الأمر ﴿هَبۡ﴾:

قرّةُ عينِ المؤمنين في هبة الله الكريمِ

عُبِّرَ بفعل الأمر ﴿هَبۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ الخارج ههنا مخرج الدّعاء، طلبًا للهبة، والهِبةُ: العَطيَّة الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ، مِنْ ولَد وغَيْرِه: فهو مَوهوبٌ[1]، فعبادُ الرحمن سألوا ربّهم الوَهّاب، المُنعِمَ عَلى العِبادِ، أن يُعطيَهم قرّةَ العين في الأزواج والذّرّيّة.

فائدةُ التّعبير بشبهِ الجملة ﴿لَنَا﴾ مقدّمًا:

الاهتمامُ بتعجيل المنفعةِ بالأزواج والذّرّيّة الصّالحة

تقدّم شبهُ الجملة ﴿لَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾؛ لنكتةِ تخصيصهم بهذه الهبة، والاهتمامِ بحصول المنفعة لهم بالأزواج والذّرّيّة الصّالحة، فمن أجل ذلك جُعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنّة وإن كان فيه حظٌّ لنفوسهم بقرّة أعينهم؛ إذ لا يُناكدُ حظُّ النّفس حظَّ الدّين في أعمالهم[2].

معنى ﴿مِنۡ﴾ في الآية:

أثرُ حروف المعاني في تنوّع السّياقِ القُرآني

استعمل حرفُ الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾، ويحتملُ في سياق الآية أنْ تكون بيانيةً، كأنّه قيل: هب لنا قرّةَ أعين، ثمّ بُيّنت القرّةُ وفُسّرت بقوله: من أزواجنا وذرّيّاتنا، ومعناه: (أن يجعلهم اللّه لهم قرّة أعين)،

(1) الراغب، المفردات: (وهب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 81.

وهو من قولهم: رأيت منك أسدًا، أي: أنت أسدٌ، ويحتمل أيضًا أن تكون ابتدائيةً على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيونُنا من طاعة وصلاح[1].

سرُّ جمع الأزواج والذّرّياتِ ودلالةُ تعريفهما:

اتّفاقُ كلمةِ المؤمنين في سُؤال قرّة العين

استُعمل في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ لفظُ الأزواج والذّرّيّات جمعًا، وقد أضيفتا إلى ضمير المتكلّمين؛ لأنَّ المرادَ أن يدعوَ كلُّ واحد لنفسه بالزّوجة والذّرّيّة الصّالحة المطيعة، أو لأنَّهم كنفس واحدةٍ لاتِّحاد طريقتهم واتِّفاق كلمتِهم، ومدارُ هذا صدورُ هذا الدُّعاء إمّا عن الكلِّ بطريق المعيَّة، وإمّا عنْ كلّ واحدٍ منْهُم بطريق تشريك غيرِه في الدّعاء، والظّاهرُ صدورُه عنهم بطريقِ الانفرادِ وأنَّها عبارةُ كلِّ واحدٍ منهم عند الدُّعاء خلا أنّه حُكيت عباراتُ الكلِّ بصيغة المتكلِّم مع الغيرِ للقصدِ إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51][2].

نكتةُ الجمع بين الأزواج والذّريات:

المقصدُ الأصيلُ منَ الزّواج طلبُ النّسلِ الصّالح

جُمع بين الأزواج والذّرّيّات في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ إشارةً إلى أنّ الغرض الأصيلَ من الزّواج هو طلبُ النّسل الصّالح لا مجرّد قضاء الشّهوة، وكذلك جاء الولدُ في الآية منسوبًا إلى الأزواج وهو جمع زوجٍ هو الولد الصُّلبيُّ، والصّالحون يسألون أزواجًا وذرّية في الدّنيا يشاركونهم، فأحبّوا أن يكونوا معهم في التّمسّك بطاعة الله فيقوى طمعُهم في أن يصيروا معهم في الجنّة فيتكاملَ سرورُهم في الدّنيا والآخرة[3].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 296.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 231.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف، 1/ 266، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 486، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5324.

بلاغةُ تقديمِ الأزواج على الذّرّيات:

صلاحُ الزّوجات مفتاحٌ لصلاح الذّرّيات

قُدّمتِ الأزواجُ على الذّرّيات في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾؛ لأنّ الأزواج هنّ منشأ الذّريّة ومصدرُها، فقدّم الأصلُ على الفرع، كما أنّ أعظم سببٍ لصلاح الذّرّيات هو اختيارُ الأزواج الصّالحات.

توجيهُ القراءات في ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾:

أثرُ اختلافِ القراءة في تنوّع الدّلالة

تنوّعتِ القراءةُ في لفظ ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ من قوله تعالى ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ فقرأ المدنيان، وابنُ كثير ويعقوبُ وابنُ عامر وحفصٌ بالألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد[1]، فقراءة الجمهور بالجمع ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ جمع ذُرّيّة، والجمع مُراعًى فيه التّوزيعُ على الطّوائف من الذين يَدّعون بذلك، وإلّا فقد يكون لأحد الدّاعين ولدٌ واحدٌ، وعلى قراءة الإفراد يُستفاد معنى الجمع من الإضافة إلى ضمير الّذين يقولون، أي: ذرّيّة كلِّ واحد[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾:

دمعُ السّرور باردٌ ودمعُ الحزن ساخنٌ

تضمّن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ فنًّا من فنون البيان، وهي الكنايةُ في قوله ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾، وهي كناية عن السّرور والفرح، وهي مأخوذة من القُرِّ وهو البَرْد، يقال: دمعُ السّرور باردٌ، ودمعُ الحزن سُخن، ويقال: أقرّ اللّه عينك، وأسخن اللّه عينَ العدوّ، وقيل: مأخوذ من القرار أي يَقَرُّ النَّظر به ولا ينظُرَ إلى غيره، وقال أبو عمرو: وقُرّة العين النّومُ أي آمنًا؛ لأنّ الأمن لا يأتي مع الخوف، وقُرّة العين فيما ذكر بعض السّلف: رؤيتهم مطيعين للّه، قاله ابن عبّاس والحسن، وكانوا في أوّل الإسلام يهتدي الأبُ والابن كافرٌ، والزّوجُ والزّوجة كافرة، وكانت قرّةُ عيونهم في إيمان

---

(1) ابن الجزري، النشر: 3/ 335.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 83.

أحبابهم، وقال ابن عبّاس: قرّة عين الوِلدان تراه يكتب الفقه، والظّاهر أنّهم دعوا بذلك ليُجابوا في الدّنيا فيُسرّوا بهم[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿قُرَّةَ﴾ وإفرادِها:

سـؤالُ المؤمنين السّرورَ العظيم

ورد لفظُ ﴿قُرَّةَ﴾ في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ نكرةً، والغرضُ البلاغيّ من تنكيرها التّفخيمُ والتّعظيم، أي: سرورًا عظيمًا لا يُكتنه كنهُه[2].

نكتةُ تنكير ﴿أَعۡيُنٖ﴾ وجمعِها جمعَ قلّةٍ:

قـلّـةُ عبـادِ الله المتّقين مقارنةً بالكافرين

جاء لفظُ ﴿أَعۡيُنٖ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾؛ لأجل تنكير القرّة؛ لأنّ المضافَ لا سبيل إلى تنكيره إلّا بتنكير المضاف إليه، كأنّه قال: هب لنا منهم سرورًا وفرحًا، وكذلك يمكنُ أن يكون التّنكيرُ للتّقليل، ليناسبَ بناء (أفعل) في التقليل، كأنه قرّة أعين الشّكورِ من عباد اللّه.

وإنّما قال ﴿أَعۡيُنٖ﴾ بجمع القلّة دون عيون؛ لأنّه أراد أعينَ المتّقين، وهي قليلة نسبةً إلى عيون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، ويجوز أن يقال في غرض تنكير أَعۡيُنٖ أنّه للتّخصيص بمعنى أعينٍ خاصّةٍ، وهي أعينُ المتّقين[3] كذا قال صاحبُ الكشّاف، وتعقّبه ابنُ المنيّر بأنّ الظّاهر أنّ المحكيَّ كلامُ كلّ واحدٍ من المتّقين، أي: يقول كلّ واحدٍ منهم: اجعل لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين، قال: وهذا أحسن من تأويله، فإنّ المتقين - وإن كانوا قليلين - فهم كثيرون في أنفسهم، وقلّتُهم بالنّسبة إلى غيرهم، والمعتبرُ في جمع القلّة أن يكون الشّيء قليلًا في نفسه لا بالنّسبة والإضافة[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 133.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 296.
(4) ابن المنيّر، الانتصاف من الكشّاف: 3/ 296.

صلاحُ الأهل والأولاد سببُ سعادةِ المؤمنين

بلاغةُ المجاز في جملة ﴿هَبۡ لَنَا﴾:

تضمّن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ مجازًا، وذلك لأنّ عباد الرّحمن سألوا ربّهم أن يرزقهم أزواجًا وأعقابًا عمّالًا لله، فكان التّقدير: (هب لنا أزواجًا وذرياتٍ مطيعين لك)، ولمّا كانت طاعتُهم سببًا لسرورهم وُضع المسبّبُ موضعَ السبب للمبالغة، وأنَّ المطلوبَ الأولى بالأولاد طاعة اللّه، وجُعل هذا الدّعاء من جملة صفات الكَمَلة من المؤمنين للدّلالة على عظم منزلةِ من يطلب النّكاح لذلك، وهذا بالنّسبة إلى الدّاعي، فكيف بمن يتّصفُ بذلك[1].

من صفات الصّالحين طلبُ الإمامة في الدّين

دلالةُ العطف بالواو:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فكما سأل الصّالحون التّوفيقَ والخير لأزواجهم وذرّياتهم عطفوا عليه الدّعاء لأنفسهم بعد أن وفّقهم اللّه إلى الإيمان أن يجعلَهم قدوةً يقتدي بهم المتّقون[2].

دعاء الصّالحين بتضييرهم أئمّةً في الدّين

إيثارُ فعل ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾ دون غيره:

أوثر الدّعاء بفعل الأمر ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، وهو لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها، والجعلُ أعمُّ من الفعل والصّنع وسائرِ أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجهٍ حسبَ السّياق الّذي يرد فيه[3]، وهو في هذه الآية بمعنى التّصيير، فعبادُ الرحمن يدعون ربّهم الكريمَ أن يصيّرهم مُقدَّمين يُقتدى بهم في الخير والدّين.

تشريك المؤمنين لبعضهم البعض في الدّعاء بالخير العميمِ

نكتةُ إضافة فعلِ الجعل إلى الضّمير (نا):

أضيف فعلُ الجعل إلى ضمير المتكلّمين في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ لأنَّ المرادَ أن يدعو كلُّ واحد لنفسه بالإمامة في

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 83.
(3) الراغب، المفردات: (جعل).

الدّين، أوِ اتَّحدَ دعاؤهم؛ لأنَّهم كنفس واحدةٍ لاتِّحاد طريقتهم واتِّفاق كلمتِهم، ومدارُ هذا صدورُ هذا الدُّعاء إمّا عن الكلِّ بطريق المعيَّةِ، وإمّا عنْ كلّ واحدٍ منْهُم بطريق تشريك غيره في الدُّعاء[1].

معنى حرفِ اللّام في الآية:

سؤالُ الإمامة في الدّين لنفعِ الآخرين

استعمالُ حرف الجرّ (اللّام) من قوله تعالى: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، يجوز أن يكون معناها التّقوية، فيكونَ المجرور باللّام في معنى المفعول، أي: الّذين اتّصفوا بتقوى الله، أي: امتثالِ أوامره واجتنابِ ما نهى عنه، ويجوز أن يكون معنى اللّام التّعليلَ، أي: إمامًا لأجل المتّقين، يقتدون بنا في الدّين[2].

سرُّ جمعِ المتّقين وتقديمِه مع الجارّ:

اختصاصُ المتّقين بالإمامةِ في الدّين

تقدّم شبهُ الجملة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لنكتة الاختصاصِ، فقد دعا عبادُ الرحمن بأن يكونوا قدوةً للمتقين دون غيرهم منَ الضّالين الفاسقين.

وجهُ التّعبير بلفظِ ﴿إِمَامًا﴾ دلالةً وصيغةً:

طلبُ الرّياسة في الدّين واجبٌ

عُبّر في قوله تعالى ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ بلفظ (إمام)، وأصلُه في اللّغة: المثالُ والقالب الذي يُصنع على شكله مصنوع من مثله، فأطلق الإمامُ على القُدوة تشبيهًا بالمثال والقالب، وغلب ذلك فصار الإمامُ بمعنى القدوة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: 124][3].

ووقع الإخبارُ بـ ﴿إِمَامًا﴾ وهو مفرد عن ضمير جماعة المتكلمين؛ لأنّ لفظ (إمام) يستعمل مفردًا وجمعًا كهجان والمرادُ به هنا الجمعُ ليطابق المفعولَ الأول لجعل، واختير على (أئمة)؛ لأنّه أوفقُ بالفواصل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 231.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 83.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 83.

السّابقة واللّاحقة، وقيل: هو مفرد، وأُفرد مع لزوم المطابقة؛ لأنّه اسمُ جنس فيجوز إطلاقُه على معنى الجمع مجازًا بتجريده من قيد الوَحدة، أو لأنّه في الأصل مصدرٌ وهو لكونه موضوعًا للماهية شاملٌ للقليل والكثير وضعًا، فإذا نُقل لغيره قد يُراعي أصله، أو لأنّ المراد: (واجعل كلّ واحد منا)، أو لأنّهم كنفس واحدة لاتّحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العطيّة والهِبة والمِنحة:

العـطـيّـةُ أعـمُّ مطلقًا منَ الهبةِ والمنحةِ

تشترك هذه الألفاظ في كونها من عقود التّبرّعات، ويظهر الفرقُ بينها في علاقة العموم والخصوص، فالهبةُ أحدُ أنواع العطيّةِ[2]، فتكون بهذا العطيّةُ أعمَّ مطلقًا من الهبة.

كما يتجلّى الفرق بينهما في أنّ المُعطي يحقّ له أن يرجعَ في عطيته، وأمّا الواهب والمانح فلا يجوز له أن يرجع في هبته[3]، لقوله ﷺ لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «لا تَعُدْ في هبتك، فإن العائد في هبته، كالعائد في قيئه»[4].

وأصل المنحةِ الشّاةُ أوِ البعير يمنحُها الرّجل أخاه فيحتلبُها زمانًا ثم يردّها، قال بعضهم: لا تكون المنحة إلّا النّاقة، ثم صارت كلُّ عطية منحةً لكثرة الاستعمال، وقال بعضهم: كلّ شيء تقصدُ به قصدَ شيء فقد منحته إياه[5]، ولمّا كانت الهبةُ تمليكًا لا رجعةَ فيه ناسب هذا المعنى دعاءَ المؤمنين بأن يرزقَهم اللّه تعالى كلَّ هذه العطايا من غير ردّ أو إرجاع، والقصدُ ثباتُها فيهم نوالًا دائمًا راسخًا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 52.
(2) الحطّاب، مواهب الجليل: 6/ 49.
(3) ابن جبرين، شرح عمدة الأحكام: 54/ 08.
(4) متفق عليه: رواه البخاري، الحديث رقم: (2621)، ومسلم، الحديث رقم: (1622).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 515.

الزوج والبعل:

عمومُ الزّوج في الذّكر والأنثى، وخصوص البعل بالرّجل

يتّضحُ الفرق بينهما أنّ الزّوج يقال لكلّ واحد منَ القرينين منَ الذّكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوجٌ، ولكلّ قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخُفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلٍ له أو مضادٍّ: زوجٌ[1]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقال: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: 40]، غير أنّ الرّجل لا يكون بَعْلا للمرأة حتّى يدخل بها، وذلك أنّ البِعال النِّكاحُ والملاعبة، وأصلُ الكلمة القيامُ بالأمر، ومنه يقال للنّخل إذا شرب بعروقه ولم يحتج إلى سقي: بعلٌ، كأنّه يقوم بمصالح نفسه[2]، ولمّا كان هذا الدّعاء صادرًا عن المؤمنين، ويشمل ذلك رجالَهم ونساءهم، ناسب التّعبيرُ بلفظ (زوج)؛ ليكون هذا دعاءَ المؤمنين والمؤمنات جميعا بأن يرزق اللّه تعالى الرّجال أزواجًا صالحاتٍ، ويرزقَ المؤمنات أزواجًا صالحين تقرّ أعينُهم بهم.

الذّريّة، والنّسل والخَلَف:

دلالةُ الذّريّة على الانتشار والنّسل على السّرعة

يظهر الفرق بين هذه الألفاظ في أصل الاشتقاق وفي ملحظ التّسمية، فالذّرّية مأخوذةٌ من الذّرّ والانتشار، فتطلقُ على نسل الرّجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، فهي تنتظم الأولادَ ذكورًا وإناثًا[3]، وأمّا النّسلُ فأصله الخروجُ والسّقوط بسرعة، وهو مصدر نَسَلَ يَنْسُلُ أي: خرج بسُرعة، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]، ومنه نسل وبرُ البعير، ونسل ريشُ الطّائر أي: خرج وتطاير، وقيل: النّسل الخروجُ متتابعًا، وسمّي الولد نسلًا لخروجه من ظهر الأب، وسقوطِه من بطن الأمّ بسرعة[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (زوج)، ص: 384.
(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 283، والكفويّ، الكليّات، ص: 249.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذرّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسل)، وتفسير الراغب: 1/ 428، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 2/ 353، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 3، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 316.

أمّا الخَلَفُ: فأصله ما جاء بعدُ، ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلَف سوء من أبيه، فإذا لم يذكروا صِدقا ولا سوءا قالوا للجَيِّد خَلَفٌ وللرَّديء خَلْفٌ، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169][1]، ولمّا كان سياقُ الآية حرْصَ الصّالحين على انتشار الدّين ناسب التّعبيرُ بلفظ الذرّيّة الدّالّ على الانتشار.

الإمامة، والرّياسة، الزّعامة:

خصوصُ الإمامة بـالـتّـقـدّم في الدّين والخير

لا تكون الإمامة إلّا في الدّين والخير بخلاف الرّياسة والزّعامة، والدّليلُ قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124] أي: اجعل أيضًا من ذريتي أئمةً يهدون إلى الدّين، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124]، فالآية تدلّ على أنّ إمامةَ الدّين لا ينالها الظّالمون، ولو كان المقصودُ من الآية رياسةَ الدنيا وزعامتَها لكان قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124] يتصادم مع الواقع؛ لأنّنا نرى أنّ الرياسة آلت في كثير من الأحوال إلى أيدي الظّالمين، وأمّا الإمامةُ الدّينية فلا يمكن أن تقع أبدًا في يدي ظالم، وإنّما هي لأئمة الهُدى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

[الفرقان: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأجرُ العظيمُ لعبادِ الرّحمن الصّالحين

لمّا وصف سبحانه عبادَه المؤمنين بضدّ أوصافِ الكافرين منَ الرّفق والسَّكينة، والتّواضع والحِلمِ والطُّمأنينة والشُّكرِ لربّهم والرّغبةِ إليه والرّهبةِ منه، فوصفَ مشيَهم وخِطابهم ودُعاءهم ونفقاتِهم ونزاهتَهم وتيقُّظهم وانتباهَهم وصِدقهم ومحبتَّهم ونُصحهم، تشوَّف السّامعُ إلى ما لهم عند ربّهم منَ الثّواب العظيم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾: (جزي) يدلّ على قيام الشّيء مقامَ غيره ومكافأته إيّاه(2)، وجزى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة(3)، فالجزاء يكون ثوابًا، ويكون عقابًا(4)، وهو الغَناءُ والكفاية، وهو ما فيه الكفايةُ إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرّ، وهو تحصيل شيء مقصود من تناول شيء أو معالجته(5)، وكلّ ما في القرآن من التّركيب فهو الجزاء بمعنى المكافأة على الشّيء في الخير والشر، ويصدقُ في الثّواب والعقاب، وهو في هذه الآية خاصٌّ بالثّواب.

2) ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾: (غرف) أصلٌ صحيح، إلّا أنّ كلماته لا تنقاس، بل تتباين، فالغَرْفُ مصدرُ غَرَفْت الماءَ وغيره أغرِفُه غَرْفًا، والغُرفة: اسمُ ما يُغْرَفُ، والغُرْفَةُ: العِلِّيَّةُ(6)، والغُرْفَةُ: عليّة من البناء، وسُمّي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 435.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزى).
(3) الخليل، العين: (جزى).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (جزى).
(5) الراغب، المفردات: (جزاء).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (غرف).

منازلُ الجنّة غُرَفًا، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، وقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: 58][1]، والمقصود في الآية: العَلالي في الجنّة، وهي كلُّ بناء عالٍ مرتفعٍ يُصعد إليه بدَرَج وهو أعزّ منزلًا منَ البيت الأرضيّ[2].

3) ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾: (لقي) أصولٌ ثلاثةٌ: أحدها يدلّ على عوج، والآخر على توافي شيئين، والآخرُ على طرح شيء، والمقصودُ في هذه الآية الثّاني، فاللِّقاءُ: المُلاقاةُ وتَوافي الاثْنَيْنِ مُتَقابِلَيْن، ولَقيتُه لَقْوَةً، أَيْ مَرَّة واحِدَة ولِقاءَة، ولَقيتُهُ لُقيًا ولُقْيانًا، واللُّقْيَةُ فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاء، والجَمعُ لُقًى[3]، ويطلق هذا الفعل على الإدراك بالحسّ، وبالبصر، وبالبصيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق: 6]، فملاقاة كلِّ أحد بعمله الّذي قدّمه[4]، والمعنى في الآية: يلقون البقاءَ والتّخليدَ مع السّلامة[5].

4) ﴿تَحِيَّةٗ﴾: (حي): هي قول (حيّاك اللّه)، أي: أبقاك وأدامك، وأصلها: الدّعاءُ بالحياة، يقال: حيّاه، يحيّيه، تحيةً، أي: دعا له بالحياة، وقيل أصلها: استقبالُ المحيّا وهو الوجه، وتطلق على كلّ قولٍ أو فعل يؤتى به عند اللّقاء بقصد التّكريم، ومن معانيها التّعظيمُ، والتّكريم، والفرح[6]، والمقصود في الآية الدّعاءُ بالبقاء والتّخليد[7].

5) ﴿وَسَلَٰمًا﴾: (سلم): معظمُ بابِه من الصِّحّة والعافية، والسّلامُ: السّلامة والبراءة من العيوب، والعاهةِ والأذى[8]، ومعنى السّلام عليكم: أَمنُكُم من العذاب في الدّنيا والآخرة[9]، وهو كلمةٌ للأمان قالتها العرب عند لقاء المرء بغيره دلالةً على أنّه مسالمٌ لا محارب، ليأمن أحدُهما الآخرَ[10]، والمقصودُ في الآية الدّعاءُ بالسّلامة لأهل الجنّة.

(1) الراغب، المفردات: (غرف).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 436، والطِّيبيّ، فتوح الغيب، 11/ 304، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 84.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، (لقي).
(4) الراغب، المفردات: (لقي).
(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب، 11/ 305، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(6) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيّ).
(7) الطِّيبيّ، فتوح الغيب، 11/ 305، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح: (سلم).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/ 297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 527.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 257.

❁ المَعْنَى الإِجْماليُّ:

تبشيرُ عبادِ الرّحمن بالتّحية والسّلام في دار الإكرام

يُخبر ربّنا سبحانه عن عباد الرّحمن الّذين اتّصفوا بالصّفات السّابقة بأنّهم يُثابون أعلى منازل الجنّة؛ برحمة اللّه وبسبب صبرهم على الطّاعات، وسَيُلَقَّوْن في الجنّة التّحيّةَ والتّسليم من الملائكة، والحياةَ الطيّبة والسّلامةَ مِنَ الآفات[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التّصدير باسم الإشارة للبعيد:

التّنويهُ بشأن الصّالحين وبُعدِ منزلتهم

صُدّر قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتّنويه بشأن المتّصفين بما فُصِّل في حيّز صلةِ الموصولات الثّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به، وفيه دلالةٌ على أنَّهم متميِّزون بذلك أكملَ تميُّزٍ منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدَة، وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِهم في الفضل، وللتّنبيه على أنّ ما يَرِدُ بعده كانوا أحرياءَ به لأجل ما ذُكر قبل اسم الإشارة، وتلك مجموع إحدى عشرة خصلة وهي: التّواضع، والحِلْم، والتهجُّد، والخوف، وترك الإسراف، وترك الإقتار، والتّنزُّه عن الشّرك، وترك الزّنا، وترك قتل النّفس، والتّوبة، وترك الكذب، والعفو عن المسيء، وقَبولُ دعوة الحقّ، وإظهار الاحتياج إلى اللّه بالدّعاء، واسمُ الإشارة هو الخبر عن قوله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][2].

إيثارُ لفظِ الجزاء مبنيًّا للمفعول:

التّركيزُ على الجزاء الكريم ترغيبًا فيه

عُبّرَ بالفعل ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ لنكتة التّركيز على الجزاء في حدّ ذاته؛ لكونه المقصودَ من الكلام، فهم يُجزَون فضلًا من اللّه على ما وفّقهم له من هذه الأعمال الزّاكية، والأحوال الصّافية[3].

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 84.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 436.

ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض منَ الأغراض جُعل سياقُه له وتوجّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَح(1).

توجيهُ تعريفِ ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾، وإفرادِها:

غُـرَفُ الجنّة منتهَى الطّلبِ وغايةُ الأربِ

جاء لفظُ ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ معرّفًا بـ (أل) الدّالّةِ على تعريف الجنس، فيستوي فيه المفردُ والجمع مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: 25] فالمعنى: يُجزون الغرف، أي: من الجنّة، قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾ [سبأ: 37]، والدّليل على أنّ المراد بـ ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الجنسُ: مجيئُها في (سبأ) جمعًا وإفرادًا، فإنّ حمزة أفرد بها مفردًا، والجماعة أجمعوا على جمعها، فدلّت قراءةُ الجمع على أنّ المراد من الإفراد الجنسُ لتتوافق القراءتان.

وهذه ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الّتي هي لعُلّوها واتّساعها وطيبها لا غُرفةَ غيرُها؛ لأنّها منتهى الطّلب وغايةُ الأرب، لا يبغون عنها حولًا، ولا يريدون بها بدلًا، وهي العَلالي في الجنّة، وهي كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ يُصعد إليه بدَرَج وهو أعزّ منزلًا من البيت الأرضيّ(2).

إيثارُ لفظِ الغرفة على الجنّة:

تخصيصُ عبادِ الرّحمن بأعالي الجِنان

أوثر لفظُ الغرفة على الجنّة في قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾؛ لأنّ الغرفة تُطلق على عليّة البيت، واستعيرت للجنّة أو لعلية الجنّة، أي: أعلى مكان فيها؛ لأن هذه الصّفاتِ رفعتهم إلى أعلى درجات الإنسانية، فاستحقّوا أعلى جزاء وهو الجنّةُ أو أعلاها، وقيل هي اسمٌ من أسماء الجنَّةِ(3).

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 436، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 304، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 84.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 232، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5325.

معنى حرفِ الباء في الآية:

الصّبرُ أعظمُ أسبابِ دخول الجنّة

يدلّ حرفُ الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على السّببيّة، أي: يُجزون الجنّةَ بسبب صبرهم على ما لَقَوْا من المشركين من أذًى، وصبرِهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرِهم على مشقّة الطّاعات، وقيل: معنى الباء البدليةُ أي بدلَ صبرهم[1].

إيثارُ (ما) المصدريّةِ:

ترجيحُ التّعبير بالأفعالِ على الأسماءِ

(ما) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ مصدريّةٌ، ومعنى كونها مصدريةً أن يصير الفعلُ بعدها في تأويل مصدرٍ، والمصدريةُ مشعرةٌ بسبب فوزهم بالجنّة وهو صبرُهم، وكذلك فإنّ في الإتيان بـ (ما) مع الفعل على تقدير المصدرية جزالةً لا توجد في الاسم الصّريح؛ لأنّ العرب يرجّحون الأفعال على الأسماء في طرق التّعبير[2].

علّةُ العُدول من الفعل إلى المصدر المُنسبك:

تميّزُ المصدرِ المُؤوّل على الصّريح ببيان الزّمنِ

ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ استعمالُ الحرفِ المصدريّ (ما)، وهو يؤوّلُ مع فعله بمصدرٍ صريح، والتّقديرُ: (يجزون الغرفة بصبرهم)، والنّكتةُ البلاغية في إيثار المصدر المؤوَّل على الصّريح أنّ المصدر المؤوَّلَ يبيّن الزّمنَ، فدلّ قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على وقوع الصّبر منهم في الزّمن الماضي، وهو في دار الدّنيا التي هي دارُ عمل، والآخرةُ دارُ جزاءٍ.

وجهُ التّعبير عنِ الصّبر بالماضي المجموع:

تحقّقُ صفةِ الصّبرِ في عبادِ الله الصّالحين

أوثر في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ استعمالُ الفعل ﴿صَبَرُواْ﴾ بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقّق صفةِ الصّبر في الممدوحين، وكذلك لأنّ سياقَ الكلام هو في ثوابهم يومَ القيامة، فكان الإخبارُ عن صبرهم في الدّنيا من قَبيل الماضي المنقضي.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 40.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ الصّبر:

إفادةُ الحذفِ العمومَ في كلّ مصبورٍ عليه

حُذف متعلّقُ الصّبر في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ لأجل العموم في كلّ مصبورٍ عليه، فلم يُؤتَ بمتعلّق الصّبر لئلّا يقتصرَ عليه، فيتناول كلَّ مصبورٍ عليه كالصّبر على مشاقّ الطّاعات، وعلى مشاقّ تركِ الشّهوات وعلى مشاقّ أذَى المشركين وعلى مشاقّ الجهادِ والفقر ورياضة النّفس ... الخ[1].

دلالةُ تخصيصِ صفةِ الصّبر من بين الصّفات:

أصلُ التّديّنِ والإيمانِ من ضروب الصّبر

خُصّتْ صفةُ الصّبر بالذّكر من صفات عبادِ الرحمن؛ إذ قد تقرّر أنّ اسم الإشارة إذا عقب به من أجرى عليه الأوصاف دلّ على أنّ المذكور قبلَه جديرٌ بما بعده لأجل تلك الأوصاف الجاريةِ عليه، فالسّببُ في أنّهم يُجزون الغُرفةَ تلك الأوصافُ الّتي أُجريت على عباد الرّحمن، فكان يتبادر إلى الذهن أن يُجاء بدلَ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: (بما فعلوا) كنايةً عن تلك المذكورات بأسرها، لكنّه عدلَ إلى قوله ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ للإيذان بأنّ ملاك العبادات الصّبرُ، وأنَّ حبس النَّفس على طاعة اللّه هي الطِّلْبَةُ، وقطعُها عن مشتهَياتها هي المرام[2].

والعبد إذا تأملّ وجد أنّ أصل التّديّن والإيمان من ضروب الصّبر؛ فإنّ فيه مخالفةَ النّفس هواها ومألوفَها في التّصديق بما هو مُغيَّبٌ عن الحِسّ الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحدًا من جنسها لا تراه يفوقُها في الخِلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الدّيانات السّابقة، والصّبرُ جامعٌ لأحوال التّقوى والعمل الصّالح كُلّه؛ لأنّ جميعه لا يخلو عن تحمُّل النَّفس لترك محبوبٍ أو فعل ما فيه كُلفةٌ[3].

دلالةُ العطفِ بالواو:

تتميمُ نعيمِ الجنّةِ بالسّلامِ والتّحيّة

وُصِلَ قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ بما قبْله وهو قوله

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 304، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 304.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 479.

تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ لأنّه تتميمٌ لنعيم الجنّة بأن يُدعى لهم بكون نعيمِ الجنة باقيًا غيرَ منقطع، خالصًا عن شوائب الضّرر والمُنغِّصات.

نكتةُ التّعبير بالمضارع المضعَّف ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾:

محلُّ الجزاء يومُ القيامة

أوثرت صيغةُ المضارع ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾؛ للدّلالة على الاستقبال؛ إذ محلُّه في الجزاء يومُ القيامة، كما يدلّ المضارع على الدّوام، فأصحاب الجنّة تَغْدو عليهم الملائكة وتروح محيّيةً، ومسلِّمةً عليهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: 23 - 24].

توجيهُ القراءات في ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾:

تـغـيّرُ المعنى والـدّلالـةِ بتغيّر القراءةِ

تنوّعتِ القراءاتُ في لفظ ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾؛ فقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بفتح اللام وتخفيف القاف: ﴿وَيَلۡقَوۡنَ﴾، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف(1).

والحُجَّة لمن شدَّد: أنّه أراد تكريرَ تحية السّلام عليهم مرة بعد أخرى، ودليلُه قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: 11]، والحجّةُ لمن خَفّفَ: أنّه جعله من اللِّقاء لا من التّلقّي كقوله: لقيته ألقاه، ويلقاه مني ما يسرّه(2).

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ (اللّقي):

استعارةُ اللُّقيّ لسماع التّحيةِ والسّلام

تضمّن قوله تعالى ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ على قراءة التّخفيف مجازًا، فقد استُعير اللُّقيُّ لسماع التّحية والسّلام، أي: أنّهم يسمعون ذلك في الجنّة من غير أن يدخلوا على بأس أو يدخلَ عليهم بأسٌ، بل هم مصادفون تحيةَ إكرامٍ وثناءٍ مثل تحيّاتِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 335.
(2) ابن خالويه، الحجّة، ص: 267.

العظماء والملوك التي يردّدها الشّعراء والمنشدون، ويجوز أن يكون إطلاقُ اللُّقيّ لسماع ألفاظ التّحيّة والسّلام لأجل الإيماء إلى أنّهم يسمعون التّحيّة من الملائكة يلقونهم بها، فهو مجازٌ بالحذف، قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103][1].

سرُّ التّعبير بشبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾ مقدّمًا:

تعجيلُ البشرى لأهل الجنّة بمعرفة مكانِ الخلود والإقامةِ

(في) للظّرفيّة الحقيقيّة، أي: يلقّون في الجنّة، وتقديمُ شبهِ الجملة على المفعول في قوله تعالى ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾؛ لنكتة الاهتمام بمحلّ الخلود ومكانِه، وهو الخلودُ في أعالي الجنّة، فالضّمير في ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ إلى الجنّة الّتي لا يخرجون منها، بل يعيشون فيها خالدين مُكرّمين.

نكتةُ تنكيرِ التّحيّة والسّلام:

استقبالُ الملائكة الكرامِ لأهل الجنّة بالتّحيّة والسّلام

نُكِّرَ لفظا ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾؛ للإبهام والتّعظيم، فأهلُ الجنّة يُستقبلون بتحيّةٍ وسّلامٍ كريمين على وجه التّبجيل والإعظام من الملائكة الكرام ثوابًا من ربّهم المنّان.

علّةُ الجمع بين التّحيّة والسّلام:

المبالغةُ في التّكريم لأهل النّعيمِ المقيم

جُمِعَ لأهل الجنّة في قوله تعالى ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ بين التّحيّة والسّلام مبالغةً في تكريم أهل النّعيم المقيم، فالتّحيةُ الدّعاءُ بالتّعمير، والسّلامُ الدّعاءُ بالسّلامة، فيرجع حاصلُ التحيّة إلى كون نعيم الجنّة باقيًا غيرَ منقطع، ويرجع السّلامُ إلى كون ذلك النّعيم خالصًا عن شوائب الضّرر، ثمّ هذه التّحيّةُ والسّلام يمكن أن يكون من اللّه تعالى لقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾ [يس: 58]، ويمكن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 84.

أن يكون من الملائكة لقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: 23 - 24] ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض.

وبعضُ العلماء ربط معنى التحيّة والسّلام بالقراءة في لفظ ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾، فالمناسبُ على قراءة التّشديد أن تكون التّحيةُ بمعنى الدّعاء بالتّعمير، أي: (تتلقاهم الملائكة ويحيّونهم ويسلّمون عليهم)، وعلى قراءة التّخفيف تكون التحيّة بمعنى التّبقية والتّخليد، أي: (يلقون البقاء والتّخليد مع السّلامة)[1].

بلاغةُ تقديمِ التحيّة على السّلام:

ضمانُ البقاءِ والحياة مع السّلامةِ من الآفات

قُدّمتِ التّحيّة على السّلام في قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾؛ لنكتة الاهتمام، فأهمُّ صفة من صفات أهل الجنّة الخلودُ والتّعميرُ، فقدّمت التّحيّة؛ لأنّها مشتقّة من الحياة فتكون بمعنى التّبقية والتّخليد، ويأتي التّسليمُ تتميمًا لنعيم أهل الجنّة بعد أن ضمنوا البقاءَ في النّعيم المقيم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجزاء والأجر والإثابة والمكافأة:

الثّوابُ يقال في الخير والشّرّ، واشتُهر في الخير

الجزاء أصله الغَناء والكِفاية، وما فيه الكِفاية من المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرّا فشرٌّ[2]، والأجر في الأصل مصدرٌ، يقال: أَجَّرَهُ اللّه أجرًا، وقد يعبّر به عن نفس الشّيء المُجازَى به[3]، وشاعتِ الأُجرة في الثّواب الدّنيوي[4]، والإثابةُ من الثّواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، والثّوابُ يقال في الخير والشّرّ، لكنّ الأكثرَ المتعارف في الخير[5]، وقد فرّق أبو هلال العسكريُّ بينهما

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 305، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(2) الراغب، المفردات: (جزأ).
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/ 187.
(4) الراغب، المفردات: (أجر).
(5) الراغب: المفردات: (ثوب).

بقوله: إنّ الأجر يكون قبل الفعل المأجور عليه، والشّاهد أنّك تقول: ما أعمل حتّى آخذ أجري، ولا تقول: لا أعمل حتّى أخذ ثوابي؛ لأنّ الثّواب لا يكون إلّا بعد العمل، هذا على أنّ الأجر لا يستحقّ له إلّا بعد العمل كالثّواب، إلّا أنّ الاستعمال لا يجري بما ذكرناه، وأيضا فإنّ الثّواب قد شُهِّرَ في الجزاء على الحسنات، والأجر يقال في هذا المعنى، ويقال على معنى الأجرة التي هي من طريق المثامنة بأدنى الأثمان، وفيها معنى المعاوضة بالانتفاع"[1]، وأمّا المكافاةُ فأصله (كفا)، ومعناه المكافأة المساواة والمقابلة في الفعل[2]، فيُجعل له جُعلٌ مساويًا للعمل الذي قام به.

الغرفة، والحجرة:

ملحظُ الغرفة العلوُّ، وملحظُ الحجرة المنعُ

الغُرفة عند أهل اللّغة: العِلّيّة من البناء، وسُمّيت منازلُ الجنّة غُرَفًا، قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، وقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: 58][3]، فملحظ التّسمية العُلوُّ، أمّا الحجرة فهي من الحَجْرِ وهو المنع، وهي تدلُّ على أنّ ما فيها ممنوع أن يستعملَه غيرُ مالكه، ولذا استعملت في سورة الحجرات، حجرات نساءِ النّبيّ ﷺ، وكذلك تستعملُ في كلّ حجرة يختصّ بها صاحبُها وتُمنع عن غيره، فملحظ التّسميةِ المنعُ، ويناسبُ معنى العلوّ ذكرَ جزاءِ المؤمنين المتّصفين بحميد الخصال؛ تشريفًا لهم، وتكريمًا.

التحيّة والسلام:

التّحيةُ أعمُّ من السّلام

يظهر الفرقُ بينهما في علاقة العموم والخصوصِ، فالتّحيّة عامّةٌ في قولك: حيّاك اللّه، ولك البشرى، ولقيتَ الخير، ولا يقال لذلك: سلام، إنّما السّلام قولُك: سلامٌ عليك، ويكون السّلام في غير هذا الوجه السّلامةَ مثل: الضّلال والضّلالة، والجلال والجلالة،

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 237.
(2) الراغب، المفردات: (كفؤ).
(3) الراغب، المفردات: (غرف).

والسّلام اسمٌ من أسماء اللّه، والتّحيّة أيضًا المُلك، فالتّحية تقال في حقّ اللّه تعالى: التّحيات للّه، وأمّا السّلام فلا يقال في حقّ اللّه، والتّحية تعظيمٌ، واللّه المستحقُّ للتّعظيم، وأمّا السّلام فإنّه دعاء، واللّه ليس بحاجة إلى الدّعاء[1].

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 59، والفوزان، إعانة المستفيد: 2/ 217.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تبشيرُ أهلِ الإيمان بالخلودِ في الجنان

لمّا أخبر اللّه سبحانه عن أهل الجنّة بدوام حياتهم سالمين بصريحه، وبعظيمِ شرفهم بلازمه، دلّ على أنّهم لا يَبرحون عنه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: (خلد) أصلٌ واحدٌ يدلّ على الثّبات والملازمة، فيقال: خَلَدَ، أي: أقامَ، وأَخلَدَ أيضًا، ومنه جَنَّةُ الخلدِ، ويقال أخلَدَ إلى الأرضِ إذا لصق بها[2]، وقال تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: 19]، من الخُلد، وهو البقاء، أي: لا يموتون، وكلّ ما يتباطأ عنه التّغييرُ والفساد تصفُه العرب بالخلود، والخلودُ في الجنّة أوِ النّار: بقاءُ الأشياء على الحالة الّتي هي عليها من غير اعتراضِ الفساد[3].

2) ﴿حَسُنَتۡ﴾: (حسن) أصلٌ واحدٌ، وهو ضِدُّ القُبح، يقال: رجلٌ حسنٌ، وامرأة حَسناءُ وحُسّانَةٌ[4]، فهو عبارة عن كلّ مُبْهِجٍ مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسَنٌ من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسّ، والحسنةُ يعبّر عنها عن كلّ ما يسرّ من نعمةٍ تنال الإنسانَ في نفسه وبدنه وأحواله، والسّيئة تضادُّها[5].

3) ﴿مُسۡتَقَرّٗا﴾: (قَرَّ) أصلٌ يدلّ على تمكّنٍ[6]، وتدلّ هذه المادّةُ أيضًا على ثباتِ ما شأنُه التّسيّبُ، وامتساكه في قاعٍ عميق[7]، ومنه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(3) الراغب، المفردات: (خلد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الراغب، المفردات: (حسن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكن).

القُرارة: وهي ما لزق في القدر من مرق أو تابلٍ محترق أو سمنٍ أو غيرِه[1]، وسمّي بذلك لاستقراره أسفلَها، والقرارة: كلُّ مطمئنّ اندفع إليه الماء، فاستقرّ فيه[2]، والمستقَرّ اسم مكان من الفعل: استقرّ، يقال: قرّ بالمكان واستقرّ، أي: أقام فيه، فالمستقرّ، مكان قرار وإقامة[3].

4) ﴿وَمُقَامًا﴾: (قوم) أصلٌ يدلّ على انتصابٍ أو عزمٍ[4]، ويُقال: أَقامَ إِقامةً ومُقامَةً، والمَقام والمُقام، بالفَتْح والضَّمِّ، وقد يَكونانِ للمَوْضِع؛ لِأَنَّك إِذا جَعَلْتَه من قامَ: يَقوم فمَفْتوحٌ، وإِن جَعَلتَه من أَقام يُقيمُ فمَضْمومٌ اسم مكان، والمَقامُ يكون مصدرًا، واسم مكانِ القيام، وزمانِه، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي﴾ [يونس: 71]، ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125]، ومعنى (المقام) في الآية الإقامةُ الدّائمة[5].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

حُسنُ دارِ المؤمنين بما فيها من النّعيم المقيم

يُخبر ربّنا سبحانه عن أهل الجنّة بأنّهم خالدون فيها أبدًا مِن غير موت، وقد حَسُنَت الجنّةُ مستقرًّا يَقِرّون فيه ومقامًا يقيمون به، فهم لا يبغون عنها تحولًا[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مجموعًا:

بُشرى عبادِ الرّحمن بعدمِ مفارقةِ الجِنان

تضمّن قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بُشرى لعبادِ الرّحمن بأنّهم سيدخلون الجنّة حالَ كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في تلك الغرفة لا يموتون

(1) ابن سيده، المحكم: (قرر).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (قرر).
(3) الواحدي، التّفسير الوسيط: 1/ 124، والسّيوطي، نواهد الأبكار: 2/ 207، والقنوجي، فتح البيان: 1/ 137.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 482.
(6) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.

ولا يخرجون منها[1]، ويؤكّدُ هذا المعنى قولُه ﷺ: «يُؤْتَى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، فيَشْرَئِبّونَ ويَنْظُرونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَم، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُم قدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنادي: يا أهْلَ النّارِ، فيَشْرَئِبّونَ ويَنْظُرونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَم، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُم قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، خُلودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النّارِ، خُلودٌ فلا مَوْتَ»[2].

فائدةُ شبهِ الجملة ﴿فِيهَاۚ﴾:

تمامُ المنّةِ بتعريف دارِ الإقامة والكرامةِ

غرضُ التّعبير بشبه الجملة ﴿فِيهَاۚ﴾ في قوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ تأكيدُ الاهتمام بمحلّ الخلود ومكانه، وهو الغرفة، جزاءَ ما أزعجهم الكفّار من ديارهم حتى هاجروا فعوّضهم اللّه بدلَ ذلك دارَ الكرامة والنّعيم المقيم.

إيثارُ لفظِ الإحسان ماضيًا:

مقابلةُ مصيرِ الكافرين بمصيرِ المؤمنين الموحّدين

أوثر التّعبيرُ بالفعل ﴿حَسُنَتۡ﴾ في قوله تعالى ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾؛ لأنّه مقابلٌ لقوله في آية سابقة: ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66]، والتّقدير: (ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا)[3]، وهذا الفعل (حَسُن) هو إمّا فعلٌ تامٌّ فاعلُه ضميرٌ راجع إلى الغرفة، ومستقرًّا تمييز، أو هو من أفعال المدح فاعلُه ضميرٌ مبهمٌ يفسِّره المميِّزُ، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ، فعلى هذا تأنيثُ الضّمير لتأويل المستقرّ والمقام بالجنّة أوِ الغُرفة؛ لأنّها مخصوصةٌ بالمدح[4].

سرُّ تنكيرِ المُستقرّ والمقام:

تعظيمُ قدرِ الجنّة مستقَرًّا ومُقامًا

نُكِّرَ لفظا ﴿مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ للتّفخيم والتّعظيم، أي: أنّ الجنّة حَسُنت مستقرًّا ومقامًا عظيمين لا يكتنه كنهُهما[5].

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 20/ 122.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4730).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 437.

وجهُ الجمعِ بين المُستقَرِّ والمُقام:

الإقامةُ أطولُ لبثًا من مجرّد القرار

جُمع بين لفظ (المستقرّ) و(المقام) بحرف الواو الدّالّ على العطف والاقتران، والعطفُ يقتضي المغايرةَ في الأصل، فقال العلماء إنّ المستقرّ موضعُ القَرار، والمقامَ موضعُ الإقامة، ولا شكّ أنّ في الإقامة لُبثًا أطولَ من مجرّد القَرار، ولهذا قال بعض المفسّرين في قوله عن جهنّم أنّها ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66]: القرار للعُصاة من أهل الإيمان، فإنّهم يستقرّون في النّار ولا يقيمون فيها، وأمّا الإقامة الدّائمة فللكفّار(1).

بلاغةُ تقديمِ المُستقرّ على المُقام:

تـدرّجُ النّظمِ منَ الطّويل إلى الأطول زمنًا

قُدِّم المُستقرّ على المُقام في قوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ على سبيل التّدرّج، فالاستقرارُ يكون بالدّخول والقرارِ لمدّة معيّنة، ويأتي بعد ذلك الإقامةُ بالمكوث الأبديّ في الجنّة.

الفُروقُ المُعجَميَّة:

المُستقرّ، والمُقام، والمثوى:

الإقامةُ أطولُ منَ القَرار، والثّواءَ أطولُ منهما

يتّضح الفرقُ بين هذه الألفاظ في كون المستقرّ موضعَ القَرار، والمقامُ موضعُ الإقامة، والمثوى: اسمُ مكان الثّواء، ولا شكّ أنّ في الإقامة لُبثًا أطولَ من مجرّد القَرار، والثّواءُ مدّة أطولُ منهما هو لأنّه عند أهل اللغة طولُ المُقام، ولذا يقال: ثُوِّيَ الرّجلُ إذا قُبِرَ، ويقال للغريب إذا قام ببلدةٍ: ثاوٍ، ومنه قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45](2)، ولهذا قال بعض المفسّرين في قوله عن جهنّم أنّها ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66]، قالوا القرار للعُصاة من أهل الإيمان فإنّهم يستقرّون في النّار ولا يقيمون فيها، وأمّا الإقامة الدّائمة فللكفّار(3).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 482.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 233.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 482.

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]

ربُّ العالمين غنيٌّ عنِ النّاس أجمعين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا استوعبتِ السّورةُ أغراضَ التّنويه بالرّسالة والقرآن، وما تضمّنته من توحيد اللّه، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعلُّلاتهم، وأحوالِ المؤمنين، وأقيمتِ الحججُ الدّامغة للمعرضين، خُتمت بأمر اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ أن يخاطب المشركين بكلمة جامعةٍ يُزال بها غرورهم وإعجابُهم بأنفسهم وحُسْبانُهم أنّهم قد شَفَوْا غليلهم منَ الرّسول ﷺ بالإعراض عن دعوته وتورّكِهم في مجادلته فبيّن لهم حقارتَهم عند اللّه تعالى[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡبَؤُاْ﴾: (عبأ) أصلٌ يدلُّ على اجتماع في ثِقَلٍ، من ذلك العِبْءُ، وهو كلُّ حِملٍ، من غُرْمٍ أو حَمالَةٍ، والجمع الأَعْباءُ، ومن الباب: ما عبأت به شيئًا، إذا لم تبالِه، كأنك لم تجد له ثِقلًا[2]، وقولك: ما عَبَأْتُ به، أي: لم أبالِ به، كأنّه قال: ما أرى له وزنًا وقدرًا، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾، وأصلُه من: عَبَأْتُ الطّيبَ، كأنّه قيل: ما يُبقيكم لولا دعاؤكم[3]، ومعنى ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ﴾ في الآية الكريمة: ما يبالي وما يهتمُّ[4].

2) ﴿لِزَامَۢا﴾: (لزم) أصلٌ واحدٌ صحيح يدلُّ على مصاحبة الشّيء بالشّيء دائمًا، يقال: لَزِمه الشّيء يَلْزَمُهُ، واللِّزام: العذابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 85.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبأ).
(3) الراغب، المفردات: (عبأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 85.

الملازِم للكفار(1)، ولُزومُ الشيء: طولُ مُكثِه، ومنه يقال: لَزِمَهُ يَلْزَمُهُ لُزومًا، والإِلْزامُ ضربان: إلزامٌ بالتّسخير من اللّٰه تعالى، أو من الإنسان، وإلزامٌ بالحكم والأمر، نحو قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ أي: لازما(2)، وعن مجاهد رحمه اللّٰه: هو القتلُ يومَ بدرٍ وأنّه لوزم بين القَتْلى، وفي الصحيح عن ابن مسعود: «خمس قد مضين: الدّخانُ والقمرُ، والرّوم، والبطشة، واللّزام»(3)، يعني أنّ اللّزام غيرُ عذاب الآخرة(4). ومعنى اللّفظة في الآية عدمُ المفارقة والانفكاك(5).

المَعْنَى الإِجْماليُّ:

عـــدمُ المـبـالاة بـالـعـبـاد لـولا الدّعاءُ والعبادةُ

أخبر اللّٰه تعالى أنّه لا يُبالي ولا يَعبأ بالنّاس لولا دعاؤهم إيّاه دعاءَ العبادة ودعاءَ المسألة، فقد كَذَّبتم - أيّها الكافرون - فسوف يكون تكذيبُكم مُفْضيًا لعذابٍ يَلزَمكم لزومَ الغريم لغريمه، ويُهلِكُكم في الدّنيا والآخرة(6).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الأمر ﴿قُلۡ﴾ وعودِ الضّمير فيه:

أُمــرَ الـرّسـولُ الـكـريـمُ بتبليغ كلامِ ربّ العالمين

توجّه الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ إلى النّبيّ ﷺ بأنْ يبيِّن للنّاسِ أنَّ الفائزين بتلك النَّعماءِ الجليلةِ الّتي يتنافسُ فيها المتنافسونَ إنّما نالوها بما عُدِّدَ من محاسنهم ولولاها لم يُعتدَّ بهم أصلًا، أي: قُل لهم كافَّةً أيّها النّبيّ مشافِهًا لهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لزم).
(2) الراغب، المفردات: (حتم).
(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4825)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2798).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 86.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 85.
(6) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 366.

بما صدرَ عن جنسهم من خيرٍ وشرّ: أيُّ عِبءٍ يُعبأُ بكم وأيُّ اعتدادٍ يُعتدُّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرَّ تفصيلُه؛ فإنَّ ما خُلق له الإنسانُ معرفتُه تعالى وطاعتُه، وإلا فهو وسائرُ البهائمِ سواءٌ[1].

دلالةُ الحرفِ ﴿مَا﴾ في الآية:

أثـــرُ حـــروفِ المعاني في توجيه دلالـــةِ الـنّظم القرآنيّ

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ الحرفُ ﴿مَا﴾، وقد قيل في دلالتها في هذه الآية قولان: الأوّل أنّها متضمّنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النّصب وهي عبارة عنِ المصدر، كأنّه قيل: وأيُّ عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم، الثّاني أن تكون ﴿مَا﴾ نافيةً بمعنى نفيِ العبء أصلًا[2].

دلالةُ الفعل ﴿يَعۡبَؤُاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

الكنايةُ عن قلّةِ العناية

أوثر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ التّعبيرُ بالفعل المنفيّ ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ﴾، وهذا التّركيب: (ما يعبأ به) يدلُّ على التّحقير، وضِدُّه عَبَأَ به يفيدُ الحفاوَةَ، ومعنى ما يَعبَؤا: ما يبالي وما يهتمُّ، وهو مضارع عَبَأَ مثل: مَلَأَ يَملَأُ، مُشتقّ من العِبء وهو الحِمل، أي الشّيء الثّقيل الّذي يُحمل على البعير، ولذلك يُطلق العِبءُ على العِدْل، فأصل ما يعبؤا: ما يَحْمل عبئًا، تمثيلًا بحالة المتْعَبِ من الشّيء، فصار المقصودُ: ما يهتمّ وما يكترِثُ، وهو كنايةٌ عن قلّة العناية[3].

فائدةُ التّعبير بحرف الباء:

دقّــةُ الـنّـظـمِ الـــقـــرآنيِّ في اختيار حـروفِ المعاني

معنى الباء المتّصلة بالضّمير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾: السّببيّةُ، أي بسببكم، وهو على حذف مضافٍ يدلّ عليه مقام الكلام، والتّقدير: (ما يعبأ بخطابكم)[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 232.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 297.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 86.

عودُ الضّمير ﴿بِكُمۡ﴾:

خصوصُ الخطابِ بالمشركين أو عمومُه للنّاس أجمعين

اختلف العلماء في عوْد الضّمير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ على قولين، الأوّل: المقصودُ بالخطاب هم النّاسُ على الإطلاق، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذّبون عاصون، فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادةِ والتّكذيب، ويشهد له قراءةُ: فقد كذّب الكافرون، والقول الثّاني أنّ الخطاب بالآيتين لقريشٍ خاصّةً، أي: ما يَعْبَأ بِكُم رَبّي لَوْلا دُعاؤُكُم الأصنامَ آلهةً دونه، فإنّ ذلك يوجب تعذيبَكم، وهذا التّفسير هو الذي يقتضيه المعنى بدليل تفريعِ ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ عليه وهو تهديد لهم، أي: فقد كذبتم الدّاعي وهو الرّسولُ ﷺ[1].

سرُّ التّعبير بلفظِ الرّبوبيّة وإضافتِه إلى ضميرِ المتكلّم (الياء):

اعتزازُ النّبيّ عليه الصّلاة السّلام بربوبيّة الله

أوثرَ لفظُ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ دون سواه لِما في هذا الوصف من الدّلالة على الشّفقة بالمربوب، ومحبّةِ الخير له، وقد أضيف إلى ضمير المتكلّم للإشارة إلى انفراده من بين قومه مشركي قريش بعبادة اللّه تعالى فهو ربُّه وحدَه من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنَى القصر الإضافي، مع ما تتضمّنه الإضافةُ مِنَ الاعتزاز بربوبية اللّه إيّاه والتّشريف لنفسه بذلك[2].

دلالةُ التّعبير بـ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾:

امتناعُ عدمِ العبءِ لوجود الدّعاء

﴿لَوۡلَا﴾ حرف امتناع لوجود، أي يقتضي امتناعَ جوابه لوجود شرطه، ومعناه في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ امتناعُ عدمِ العبء لوجود الدّعاء، ثمّ اختلف المفسّرون في معنى هذا التّركيب على وجهين؛ **أحدُهما**: (لولا دعاؤه إيّاكم إلى الدّين والطّاعة)، والدّعاءُ على هذا مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول، **ثانيهما**: أنّ الدّعاء مضافٌ إلى الفاعل، وعلى هذا التّقدير ذكروا فيه وجوهًا:

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 297، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.

أحدُها: (لولا إيمانكم)، وثانيها: (لولا عبادتُكم)، وثالثُها: (لولا دعاؤكم إيّاه في الشّدائد)، ورابُعها: (لولا شكركم له على إحسانه)، وخامسُها: (ما خلقتكم وبي إليكم حاجةٌ إلّا أن تسألوني فأعطيَكم وتستغفروني فأغفرَ لكم)[1].

معنَى نسبةِ الدّعاء إلى ضمير (كم):

ترجيحُ توجيهِ الخطاب إلى المشركين لتفريعِ التّكذيب عليه

أضيف لفظُ الدّعاء إلى ضمير الجمع المخاطَبِ في قوله تعالى: ﴿دُعَآؤُكُمۡۖ﴾، وضميرُ الخطاب موجّهٌ إلى المشركين بدليل تفريع ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ عليه وهو تهديدٌ لهم، أي: فقد كذّبتم الدّاعيَ وهو الرّسول ﷺ، وهذا التّفسير هو الذي يقتضيه المعنى والسّياق، وقد فسّر بعضُهم الدّعاء بالعبادةِ فجعلوا الخطابَ موجّهًا إلى المسلمين، ثم تكلّفوا له توجيهاتٍ يأباها سياقُ تهديدِ المشركين[2].

معنَى حرفِ الفاء:

تفريعُ تكذيبِ المشركين على دعوةِ الرّسول الكريمِ

عُطف قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ على الآية السّابقة وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ بحرف الفاء، فقال بعضهم إنّ معناها السّببيّةُ، والخطاب لمشركي قريش بأنّه قد تسبّبَ عن ذلك تكذيبُكم لسوء طباعِكم ضدّ ما كان ينبغي لكم من الشّكر والخيرِ بأن عقبتم بالإنجاء وحقّقتم وقرنتم التّكذيبَ بالرّحمن بعد رحمتكم بالبيان مع ضعفِكم وعجزِكم، وتركتم ذلك الدّعاءَ له وعبدتم الأوثانَ، وادّعيتُم له الولدَ وغيرَه منَ البهتان[3].

كما يحتملُ معناها التّفريعَ، بمعنى أنّ النّبيّ ﷺ قد دعاكم إلى الإسلام، فتفرّعَ عن ذلك تكذيبُكم الرّسولَ ﷺ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 489.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 86.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 438، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5327.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 86.

وجهُ التّعبير بـ(قد) وصيغةِ الماضي:

تهديدُ المشركين بتحقّقِ وقوعِ التّكذيب

ورد الفعل ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بصيغة الماضي المصحوب بـ(قد) الدّالّة على التّحقيق مبالغةً في الإخبار بتحقّق وقوعِ تكذيب قريشٍ للرّسول ﷺ، وإنكارِ دعوته لهم إلى توحيد اللّه بالعبادة، وفي ذلك تهديدٌ لهم، أي: فقد كذّبتم الدّاعيَ وهو الرّسولُ ﷺ فستنالون الجزاءَ[1].

معنَى الفاء من ﴿فَسَوْفَ﴾:

جزاءُ التّكذيب العذابُ المقيمُ في النّار

عُطف قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بحرف الفاء الدّالّةِ على السّببيّة وعلى لزوم ما بعدها لِما قبلَها، والمعنى أنّه سيكون جزاءُ التّكذيبِ أو أثرُه لازمًا يحيقُ بكم لا محالةَ حتَّى يُكبّكم في النّارِ[2].

إيثارُ (سوف) على (السين):

تأخيرُ عذابِ المشركين إلى يومٍ لا ريبَ فيه

إيثارُ (سوف) دون (السّين) في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ للدّلالة على تأخير العذاب، والمعنى أنّ اللّه سوف يُجازيكم على تكذيبكم، ولكنّه مع قوّتِه وقدرته واختياره لا يُعاجلكم، بل سوف يكون جزاءُ هذا التّكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من الآجال، وكلُّ بعيد عندكم قريبٌ عنده، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فتهيؤوا واعتدّوا لذلك اليوم[3].

دلالةُ فعل الكونِ المضارع:

التّهديدُ والوعيدُ بوقوع العذابِ القريبِ

أوثر في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ استعمالُ فعل ﴿يَكُونُ﴾ بصيغة المضارع للدّلالة على وقوع العذابِ في المستقبل، وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ لمشركي قريشٍ بأنّه سيحلّ بهم جزاءُ التّكذيبِ وأثرُه لازمًا يحيقُ بهم لا محالةَ حتَّى يُكبّهم في النّارِ، ودخل

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 297، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 223.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 232.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 439.

في هذا الوعيد ما يحلُّ بهم في الدّنيا من قتل وأسرٍ وهزيمةٍ وما يحلُّ بهم في الآخرة من العذاب[1].

سرُّ حذفِ اسم يكون:

تفخيمُ الكلامِ بالحذفِ للإبهام

أُضمر اسمُ ﴿يَكُونُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ لنكتة الإبهام وتناولِ ما لا يكتنهُه الوصف حتّى تذهب النّفسُ في تقديره كلَّ مذهبٍ، وقد قيل إنّ الضّمير في ﴿يَكُونُ﴾ عائدٌ إلى التّكذيب المأخوذ من ﴿كَذَّبْتُمْ﴾، أي: (سوف يكون تكذيبهم لزاما لكم، أي: لازما لكم لا انفكاك لكم منه)، وهذا تهديد بعواقب التّكذيب تهديدًا مَهولًا بما فيه من الإبهام كما تقول للجاني: قد فعلت كذا فسوف تتحمّلُ ما فعلت، وقيل في تقديره أقوال أخرى نحو: فسوف يكون هذا النّبأ، أوِ الذّكر الحكيم، أوِ الأمر الجليل، أمرُ الرسالة، لازمًا وثابتًا، يفتح من الحق رتاجًا، وتدخل النّاس في دين اللّه أفواجًا[2].

توجيهُ لفظِ ﴿لِزَامًا﴾ دلالةً وصيغةً:

شهرةُ اللّزامِ عند السّلف بأنّه يومُ بدر

اللّزام: مصدرُ لازم، وقد صيغ على زِنة المفاعلة لإفادة اللّزوم، أي عدمِ المفارقة، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه: 129]، أي عذاب الآخرة، فالإخبارُ باللّزام من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة، وقدِ اجتمع فيه مبالغتان: مبالغةٌ في صيغته تفيد قوّةَ لزومه، ومبالغةٌ في الإخبار به تفيد تحقيقَ ثبوت الوصف، وعنِ ابن مسعود وأبيّ بن كعب: أنّ اللِّزام: عذابُ يوم بدر، وكذلك عن مجاهد رحمه اللّه هو القتلُ يومَ بدرٍ وأنّه لوزم بين القَتْلى، ومرادُهم بذلك أنّه جزئيّ من جزئيات اللّزام الموعودِ لهم، ولعلّ ذلك شاع حتى صار اللّزامُ كالعلَم بالغلبة على يوم بدر،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 232.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 298، والقاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 446.

وفي الصحيح عن ابن مسعود: «خمس قد مضين: الدّخانُ والقمرُ، والرّوم، والبطشةُ، واللّزام»[1]، يعني أنّ اللّزام غيرُ عذابِ الآخرة[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلزام والحتم والوجوب:

الإيجابُ يكون في الأوامـرِ والحتمُ يكون في الأحكامِ والأقضية

تختلف هذه الألفاظُ في قوّة معناها، فالإلزام أدنى المراتب ويدلُّ على مصاحبة الشّيء بالشّيء دائمًا، يقال: لَزِمه الشيء يَلْزَمُهُ، واللِّزام: العذابُ الملازِمُ للكفّار[3]، وأمّا الوجوب فهو أعلى منه ويدلُّ على سقوط الشّيء ووقوعِه، قال الله في النّسائك: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ [الحج: 36][4]، والحتمُ أقواها، ومعناه القضاءُ المقدّر[5].

وقد فرّق بعضُ أهل اللّغة بين الحتم والوجوب، فقالوا إنّ الحتم إمضاءُ الحكم على التّوكيد والإحكام، يقال حتّم اللّه كذا وكذا وقضاه قضاءً حتمًا أي: حكمَ به حُكمًا مؤكدًا، وليس هو من الإيجاب في شيء؛ لأنّ الإيجابَ يكون في الأوامر، والحتمَ يكون في الأحكام والأقضية، والشّاهدُ أنّ العرب تسمّي الغراب حاتمًا؛ لأنّه يحتِّمُ عندهم بالفراق أي يقضي به، وليس يريدون أنّه يوجبه[6]، ولمّا كانت لفظةُ الإلزام، بالصّيغة التي وردت في الآية على زِنة المفاعلة تدلّ على اللّزوم، أي: عدم المفارقة، وعدم الانفكاك ناسب سياقَ ملازمةِ العذاب للمكذّبين.

---

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4825)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2798).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 86.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لزم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجب).

(5) الراغب، المفردات: (حتم).

(6) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 175.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

التّعريف العامُّ بالسّورة:

سورة الشّعراء مكّيّة موضوعًا وسبكًا ورواية

سورة الشّعراء مَكّيَّةٌ عند جمهور العلماء[1]، وقيل: بوجود آياتٍ مَدَنيَّة[2]، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: 224 - 227]، واحتجَّ القائلون بمَدَنيَّة هذه الآيات بموضوعها، ونقله الشوكاني في تفسيره عن ابن عباس ﷺ، فقال: أخرَجَ النَّحّاسُ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ قالَ: "سورَةُ الشُّعَراءِ أنزلت بمكة، سوى خمس آيات آخرها نزلت بالمدينة"[3].

والصّحيح أنَّها آياتٌ مَكيَّة؛ لأنّ نظم فصول السّورة يدلّ على أنّها نزلت متلاحقةً حتّى تمّت دون فصل، واتّصالهما بالسّياق سبكًا وموضوعًا يُسوِّغ الشَّكَّ في مدنيّتهما، ويُضاف إلى ذلك أنّ الشّعراء أشهرُ في العهد المَكّيِّ منهم في المَدَنيِّ، وكانوا يَهْجون النّبيّ ﷺ في مكّة، وأمّا الحديث عن بني إسرائيل وعلمائهم؛ فقد كانوا معروفين أيضًا في مكّة، وسبق لبعض السّور المكّيّة أن تناولت بعض شؤون بني إسرائيل؛ مثل: الرَّعد والإسراء والقصص والعنكبوت، وغيرها[4].

ترتيبها في النزول وفي المصحف:

سورة الشُّعراء هي السّورة السّادسة والعشرون في ترتيب

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 224.
(2) السيوطي، الإتقان: 1/ 62.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 108.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 89 - 90.

المصحف الشّريف، جاءت بين سورتي الفرقان والنّمل، وهي السّابعة والأَرْبَعونَ في الترتيب النزوليّ للسّور، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الواقعة وقَبْلَ سورَةِ النّمل فيما قيل[1].

والحقُّ أنَّ التّرتيب النّزوليّ يفتقر إلى صحَّة الأدلَّة، وعدد آياتها مئتان وست وعِشْرونَ آيَة في المدنيّ الأَخير والمكّيّ والبصريّ، وسبع وعِشْرونَ في المدنيّ الأوّل والكوفيّ والشّاميّ[2].

فضائل السورة:

لم يصح في سورة الشُّعراء فضلٌ مأثور على وجه الخصوص، لكن ورَدَ في فضل السّور المِئين عامَّة، والسّورة من المِئين؛ بل هي ثاني أطول سورة في القرآن بعد البقرة من حيث عدد الآيات، قوله ﷺ: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[3]، وورد في فضل ذوات ﴿طسٓمٓ﴾ قوله ﷺ: «وَإِنّي أُعْطيتُ سورَةَ البَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الأَوَّلِ، وأُعْطيتُ طَهَ، وطَواسينَ، والحَواميمَ مِنْ أَلْواحِ موسَى، وأُعْطيتُ فاتِحَةَ الكِتابِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ»[4].

أسماء السّورة الكريمة وسبب التّسميّة:

يُـمـثِّـل أغـلـبُ الـشّـعـراء أداة الـصَّـدِّ عـن ديـن الله تعالى عند نزول القرآنِ

الاسم الأشهر للسّورة هو (الشُّعراء)، سُمّيت به في جميع المصاحف، وكتب التّفسير والسُّنّة، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً؛ فقد تفرَّدت من بين سور القرآن الكريم بذِكْر كلمة (الشّعراء) بلفظ الجمع[5]، وسُمّيت أيضًا بـ (طسم الشُّعراء) نسبةً إلى مطلعها، وسُمّيت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 90.
(2) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 196.
(3) أخرجه أحمد في المُسند، الحديث رقم: (16982)، والطبراني في المُعجم، الحديث رقم: (187)، والبيهقي في شُعب الإيمان، الحديث رقم: (2415).
(4) الحاكم، المُستدرك على الصَّحيحيْن، حديث رقم (2087)، وقال الذّهبيّ: "هَذَا حَديثٌ صَحيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ".
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 89.

بـ(الجامعة)؛ لِأنَّها أوّل سورة جمعت ذِكْر الرّسل أصحاب الشّرائع المعلومة إلى الرِّسالة المُحمَّديّة[1]، وسُمّيت بـ(الظُّلَّة) لما ورد في قصّة إهلاك المؤتفكات من قوم شعيب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: 189].

ويرجع تسمية السّورة بهذا الاسم (الشعراء) ما له من دلالة عند العرب، فالشعراء هم وسيلة الإعلام آنئذ، وهم مضامين الفكر والثقافة والأدب، وقد جاءت السورة بذَمِّهم إلّا مَن جعل شعرَه وسيلةً خادمةً للحقِّ، ففيه إشارةٌ إلى مفارقةِ القرآنِ الشّعرَ من علوّ مَقامه، واستقامةِ مناهجه وعزِّ مرامِه، وصِدقِ وعدِهِ ووعيدِهِ، وعَدْلِ تبشيرِه وتهديدِه[2]، وبهذا فهو يردّ عليهم جَعْلَ القرآنِ عِضينَ أو أجزاء كسائر نظومهم؛ فكانت تسميتُها بسورة الشّعراء تتضمَّن إشارةً قويّةً إلى إعجاز القرآن سائرَ نظومهم بما حواه من حقائق تاريخيَّة، ونواميس كونيّة تستقيم بها الحياة الإنسانيّة.

دلالة التوقيت الزمني لنزول السورة:

نزلت سورة الشعراء في مكة المكرمة في الفترة ما بين السنة السابعة والسنة العاشرة من البعثة النبوية، وهي فترة كانت فيها الدعوة الإسلامية تواجه تحديات كبيرة، وتحديدًا في مكة المكرمة، فتعرض المسلمون لشتى أنواع الاضطهاد، وكان يُنظر إليهم على أنهم متمردون على التقاليد والديانة السائدة، مما جعلهم هدفًا للعداء، وأجبروا على قطع علاقاتهم بأهلهم وأقاربهم بسبب إيمانهم، وفي ظل هذه الظروف الصعبة، كان المسلمون يسعون لتعزيز هويتهم وعقيدتهم، وكانوا يبحثون عن دعم روحي ونفسي من خلال القرآن الكريم، وكانت هناك محاولات مستمرة للدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الرسالة وتوضيح حقائقها، هذه الظروف كانت تمثل خلفية النزول لسورة الشعراء التي تناولت مواضيع عديدة تتعلق بالعقيدة والأخلاق، وتقديم الحجج ضد الكفار والمشركين.

فاعْتِلاقُ هذا الاسم المشتهر لها (الشّعراء) بمحورها؛ إنّما هو لأنّها جاءت لتتناول أثرَ هذا القرآن المُعجِز في تثبيت النّبيّ ﷺ على دعوته بما قصّه عليه من مناهج الأنبياء السّابقين له في الدّعوة، وما عانوه في الدّعوة، وما تعرّضوا له من اتّهامات، ومن أذًى

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 1.

نفسيٍّ وبدنيٍّ، وبما سنّه الله تعالى على النّاس من نُصرة الحقّ على الباطل؛ فاقتضى هذا الأمرُ التّعريضَ بالشّعراء الضّالّين المُضلّين، المعروفين بحُسْن النّظم والدّيباجة، والذين يقولون ما لا يفعلون، فالشّعراء الذين واجههم النّبيّ ﷺ في دعوته هم صورة المُكذِّبين من الأقوام السّابقين الذين عملوا على قلب الحقائق، وتشويه صور الأنبياء والوحي الذي جاؤوا به، فتسميتها بسورة الشّعراء لما فيها من رمزيّة التّمثيل بأغلب أحوال الشّعراء، وأثرهم في قلب الحقائق وتبديل الأمور، فضلًا عن أنّ حديث السّورة عن هذا الكتاب المُبين الذي نزل به الرّوح الأمين على قلب النّبيّ ليكون من المنذرين؛ يقتضي إثبات تفرُّده عن سائر أنواع كلامهم.

مِحورُ السّورةِ العامُّ:

أثــرُ الـقـرآنِ الكريمِ في تثبيت الـنَّـبـيِّ ﷺ في مواجهة المُكذِّبين

المحور العام لهذه السورة يدور حول التَّوحيد، وبيان موقف السّابقين من دعوة النَّبيّين، فإنَّ السّورة قد لفَّت أخبار المكذِّبين، وجاءت بأحوال المُفترين؛ لبيان الصِّراع بين الحقِّ والباطل، والشِّرك والتَّوحيد، عبر مسيرة النَّبيّين مع أقوامهم، وأنَّ ما كان من المشركين في موقفهم من القرآنِ الكريم، ما هو إلّا امتدادٌ للموقف القديم، وما اختُصّت به السورة في محورها العامِّ يؤول إلى تقرير أثر القرآن الكريم في تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ، وإنزال الصَّبر على قلبه الشَّريف للاستمرار في التَّبليغ، والمُضيِّ في إنفاذ دعوته.

وقد عَرضتِ السورة قصص الأمم السّابقين، وموقفهم من دعوة التوحيد، وقد بدأت السّورة بالحديث عن القرآن الكريم، وذلك في المقطع الافتتاحيِّ للسّورة، وكذلك كان الأمر في المقطع الأخير؛ فكانت البداية والنهاية واحدة، وما بينهما بيانٌ كاشفٌ للسُّنن، وأنَّ الله تعالى يُجازي المُكذِّبين على تكذيبهم، ممّا يؤكّد أنّ الحديث عن أثر القرآن في تسلية النّبيّ ﷺ وتثبيت فؤاده، بما قصّه

عليه من النّماذج البشريّة السّابقة التي ما كان ليعلمها لولا هذا القرآن، فيستعين بهذا الهَدْي على مواجهة التّحدّيات والشُّبه والتُّهم التي يلقاها من قومه في المُضيِّ في دعوته، وأن يكون توكُّله على اللّه العزيز الرحيم.

موضوعات السّورة وخصائصها:

التّنويه بالقرآن الكريم، والتّلويح بعاقبة المُكذِّبين

تدور موضوعات هذه السّورة حول الآتي:

أوّلًا: التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ، وعظيمُ شأنه.

ثانيًا: التَّعْريضُ بِعَجْزِ المشركين عن مُعارَضته.

ثالثًا: تَسْليَةُ النَّبي ﷺ على ما يُلاقيهِ من إِعْراضِ قَوْمِهِ عَنِ التَّوْحيدِ الَّذي دَعاهُم إِلَيْهِ القُرْآنُ.

رابعًا: تَهْديدُ المشركين على تَعَرُّضِهِم لِغَضَبِ اللّه تَعالَى، وضَرْبُ المَثَلِ لَهُم بِما حَلَّ بالأُمَمِ المُكَذِّبَةِ رُسُلَها والمُعْرِضَةِ عن آياتِ اللّه.

خامسًا: شَهادَةُ أَهْلِ الكِتابِ لَلقرآنِ، والرَّدُّ على مَطاعِنِهِم في القُرْآنِ وجَعْلِه عِضينَ، وأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عن أَنْ يَكونَ شِعْرًا ومن أَقْوالِ الشَّياطينِ، وأَمرُ الرَّسولِ ﷺ بِإِنْذارِ عَشيرَتِهِ، وأَنَّ الرَّسولَ ما عَلَيْهِ إِلّا البَلاغُ، وما تَخَلَّلَ ذَلِكَ من دَلائل[1].

الخصائص الموضوعيّة:

اشتملت سورة الشّعراء على مظاهر انحراف الأقوام عن الحقِّ في تاريخ النَّبيّين

أولًا: تميزت السّورة الكريمة باشتمالها على القصص في معظم آياتها؛ إذ شغلت القصص منها نحو مئةٍ واثنتين وثمانين آية من أصل مائتين وسبع وعشرين آية؛ أيّ بنسبة ثمانين بالمائة من آيات السّورة الكريمة.

ثانيًا: تفرّدت السّورة الكريمة بتفصيل مظاهر الانحراف البشريّ عبر التّاريخ: ففي قصّة موسى ﷺ ظهر الانحرافُ العَقَديُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 90 - 91.

في شخصيَّة فرعونَ، وفي قصَّة إبراهيم عليه السلام مع قومه ظهر جانبٌ من الانحراف العقديّ والاجتماعيّ في التّقليد الأعمى للموروثات الاجتماعيَّة الفاسدة، وظهر الانحراف العقديّ القائم على الاستكبار والفصل العنصريّ في قصّة نوح عليه السلام، وظهر الانحراف المادّيّ والاغترار بأسباب القوّة والاستعلاء والتّعدّي على الآخرين في قصّة عاد، وظهر الانحراف العَقَديُّ في جحود النِّعم والاغترار بها، وفي طاعة المُفسدين دون المُصلحين في قصّة ثمود، وظهر الانحراف الأخلاقيّ من خلال قصّة لوط، وأمّا خاتمة القصص؛ فبيّنت مظاهر الانحراف الاقتصاديّ والمعياريّ في قصّة شعيب مع أصحاب الأيكة.

وبذلك تكون السّورة الكريمة قد قدّمت نماذجَ بشريّةً في مظاهر الانحراف البشريّ المتنوّعة، وذلك حتّى يفيد الدّعاة منها في التّعامل مع أقوامهم، فأسباب الانحراف واحدة لا تتغيّر بتقدّم العصور واختلاف الأمكنة.

ثالثًا: تميّزت السّورة بحديثها عن كيفية نزول أمين السّماء جبريل عليه السلام بالقرآن على أمين الأرض؛ فالقرآن نزل بلفظه ومعناه من عند الله عز وجل، والغرض من إنزاله بهذه الطّريقة هو تحقيق الإنذار لقومه.

رابعًا: انفردت السّورة بالحديث عن الشّعراء الغاوين في آخرها، إيماءً إلى أثرهم الباطل في التَّصدّي للحقِّ وأهله، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نبيِّه الشّعر في القرآن الكريم.

خامسًا: أكثرت السّورة من ذِكْر نفي أخذ الأجر على الدّعوة من قبل الأنبياء عليهم السلام، حيث تكرّر هذا النّفي على لسان الرُّسل: هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام[1]، بينما جاء طلب الأجر في السّورة نفسها على لسان سَحَرَة فرعون؛ لبيان الفرق بين الدَّعوتيْن.

الخصائص الأسلوبيَّة:

أولًا: تفرَّدت السّورة الكريمة بتكرار قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد كلّ قصَّة فيها حيث وردت ثمان مرّات.

ثانيًا: اقترن اسما الله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد كلِّ قصةٍ، ثم في الآيات الأخيرة من السّورة التي تضمَّنت وصايا للنّبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك من باب بيان النهايات للأقوام؛ ففيه إيماء بإنزال العذاب على المشركين إن هم استمرّوا بالعنادِ.

(1) الآيات: 109، 127، 145، 164، 180.

امتازت سورة الشّعراء بمفردات وتراكيب وفواصل لم تأتِ في سائر السّور

ثالثًا: أغلب فواصل السورة قد انتهت بجمع المذكّر السّالم أو بالفعل المضارع المرفوع بثبوت النّون، ومن ثَمَّ فأكثر فواصلها تنتهي بحرف النّون، والشّواهد على ذلك كثيرة فاقت الخمسين شاهدًا؛ من مثل: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾، و﴿خَٰضِعِينَ﴾، و﴿مُعۡرِضِينَ﴾، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾، ونحو ذلك، وفي نحو نصفها كان يأتي حرف (من) سابقًا لهذه الجموع، حيث دلّ على البيان أو التّبعيض مثل: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 20]، و﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: 42]، و﴿مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾ [الشعراء: 167]، وأمّا الأفعال المنتهية بالنّون؛ فهي أكثر من أن تُحصى أو تُعدّ مثل: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، و﴿يَتَّقُونَ﴾، و﴿يُكَذِّبُونِ﴾ ... وغيرها، وهذه الظّاهرة مرتبطة بالخطاب الجَمعيّ الذي حوته السّورة الكريمة؛ لتكون خطابًا لكلِّ النّاس دون بعضهم، ولعلَّه السَّبب في تسميتها بالجامعة.

رابعًا: ذُيّلت أربعُ آيات بـ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1]، في سياق الامتنان عليهم بإنجائهم من فرعون ومَلَئِه، وفي معرفتهم للكتاب، وفي هذا ارتباطٌ وثيقٌ في محور السّورة الكبير المُتعلّق بأخبار السّابقين في تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ وفي إثبات صدق القرآن.

خامسًا: أكثرت السّورة الكريمة من ذِكْر صفة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في فواصلها، حيث بلغت إحدى عَشْرَةَ مرَّة[2]، ولعلَّ العِلَّة في ذلك أنّ الموضع الأوّل منها كان في خطابه تعالى لموسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم توالت السّورة بذِكْر ذلك لبيان أنَّ الذي أرسل الرّسل للعالمين هو ربهم الذي تكفَّل برعايتهم بأنبيائه ورسله.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة في أسلوبها بذِكْر بعض الأبنية والمُشتقّات الصَّرفيَّة التي لم تَرِد في غيرها من السّور.

---

(1) الآيات: 17، 22، 59، 197.

(2) الآيات: 16، 23، 47، 77، 98، 109، 127، 145، 164، 180، 192.

فمن الأفعال: ﴿يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: 227] و﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ [الشعراء: 94] و﴿يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ [الشعراء: 207] و﴿تَمُنُّهَا﴾ [الشعراء: 22] و﴿عَبَّدتَّ﴾ [الشعراء: 22] و﴿فَأَسۡقِطۡ﴾ [الشعراء: 187] و﴿وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ [الشعراء: 79] و﴿يُمِيتُنِي﴾ [الشعراء: 81] و﴿يُحۡيِينِ ٨١﴾ [الشعراء: 81] و﴿فَظَلَّتۡ﴾، و﴿يَرَىٰكَ﴾ [الشعراء: 218] و﴿خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]، و﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: 146]، وغيرها.

ومن الأسماء: ﴿قَلِيلُونَ ٥٤﴾ [الشعراء: 54]، و﴿ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشعراء: 168]، و﴿مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشعراء: 208]، و﴿أَخُوهُمۡ﴾ [الشعراء: 106]، و﴿حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ [الشعراء: 56]، و﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ [الشعراء: 184]، و﴿ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾ [الشعراء: 181]، و﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾ [الشعراء: 82]، و﴿ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]، و﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، و﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء: 29]، و﴿سَحَّارٍ﴾ [الشعراء: 37]، و﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ [الشعراء: 54]، و﴿مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: 129]، و﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء: 153]، و﴿خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4]، وغيرها.

ولا شكّ أنّ لهذه الأبنية والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بالمشاهد القصصيَّة التي تُشكِّل المساحة الرئيسة التي قامت عليها السّورة.

سابعًا: تفرَّدت السّورة الكريمة بألفاظٍ عن غيرها من السّور من جهة الجَذْر والمادَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿رِيعٍ﴾ [الشعراء: 128] و﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ [الشعراء: 54] و﴿ضَيۡرَۖ﴾ [الشعراء: 50] و﴿كَٱلطَّوۡدِ﴾ [الشعراء: 63] و﴿فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: 149].

وإنّ الجامع لهذه الألفاظ التي تفرّدت بها السّورة يجد أنّها ذات اتّصال مباشر بمحور السّورة، القائم على بيان أثر القرآن المعجِز في تثبيت النّبيّ ﷺ والدّعاة من بعده، فالرّيع جاءت في معرض وصف قوّة عاد وجبروتهم، و﴿فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: 149] في وصف قوَّة ثمود، وبقية الألفاظ في قصَّة موسى عليه السلام مع فرعون، ولا شكَّ أنَّ هذه القصص قد سيقت في هذه السّورة الكريمة بما يتلاءم مع محورها في بيان أثر هذا القرآن في حفظ المؤمنين وتثبيت قلوبهم.

مناسبة السّورة لسابقتها ولاحقتها:

توالت سورة الفرقان والشُّعراء والنَّمل في النزول وترتيب المصحف الشَّريف، ومدار السّور الثَّلاث حول تسلية النَّبي ﷺ والانتصار للقرآن الكريم.

جاءت سورة الشُّعراء في ترتيب المصحف بعد الفرقان وقبل النَّمل وفي ترتيب النزول كذلك، وذلك لأوجهٍ من المناسبة، ونبدأ بالمناسبة بين سورتي الفرقان والشُّعراء:

أولًا: المناسبة بين سورتي الفرقان والشعراء:

1) السّورتان قد بُدئتا بمدح القرآن؛ ففي الشّعراء وصف الفرقان بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وفي الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: 1].

2) ما أُجمل في سورة الفرقان، جاء تفصيله في سورة الشّعراء.

3) اشتركت السّورتان بالتّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وتسليته وتثبيت قلبه.

4) خُتمت السّورتان بإبعاد المُكذِّبين ووعيدهم، فقد خُتمت الفرقان بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ⑦⑦﴾ [الفرقان: 77]، وخُتمت الشُّعراء بوصفهم بالظُّلم وبوعيدهم بقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ②②⑦﴾ [الشعراء: 227][1].

ثانيًا: المناسبة بين سورتي الشُّعراء والنَّمل:

كما تقدَّمت سورة الشُّعراء على سورة النَّمل في ترتيب المصحف، وذلك للآتي:

1) تُعد سورة النَّمل كالمقابلة لسورة الشُّعراء في ذِكْر القصص، فاختصَّت الشُّعراء بقصص المُكذِّبين، والنَّمل بقصص المؤمنين.

2) فُصِّلَتْ بعضُ القصص في سورة النَّمل لِما جاء ذِكْرُه في سورة الشّعراء من القصص النّبويّ، وهي قصّة موسى في الآيات [7 - 14] وقصّة صالح في الآيات [45 - 53] وقصة لوط في الآيات [54 - 58].

3) التَّشابه الموضوعيُّ بين السّورتيْن في وصف القرآن وتنزيله من عند اللّه؛ لأنّه قال في بداية الشُّعراء: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وقال في النّمل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾ [النمل: 1]، وقال في أواخر الشُّعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ①⑨②﴾ [الشعراء: 192] وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ②①⓪﴾ [الشعراء: 210]، وقال في النّمل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [النمل: 1]؛ أي: الذي هو تنزيل رب العالمين.

4) تلتقي السّورتان في بيان وحدة القصد من القصص القرآنيّ؛ وهو تسلية الرّسول ﷺ عما يلقاه من أذى قومه، وإعراضهم عنه.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 44.

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشّعراء: 1 - 2]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيان أنَّ القرآن مُكوَّن في الأصل من الحروف المُقطَّعة

بعد أن افتتح النّظم الجليل السّورة في الآية الأولى بالحروف المُقطَّعة لجذب الانتباه؛ انتقل في الآية الثّانية إلى توضيح ما تُشير إليه، وهو أنّ آيات القرآن الكريم المبين، من هذه الحروف المعروفة المبذولة لكلِّ أحدٍ؛ فالآية الثّانية تُفسِّر ما أُشير إليه في الأولى، فينتقل النَّظم من الغموض إلى الوضوح؛ فالغموض والإبهام في ﴿طسٓمٓ﴾، يتْبعه الوضوح والتّحديد في: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، كما أنَّه يُمثِّل انتقالًا من كثرة التَّأويلات التي تُثيرها الحروف المُقطَّعة إلى مركزيّة البيان والوضوح في نصّ القرآن الكريم.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: (بين) أصلُ الكلمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ؛ فالبَيْنُ: الفِراقُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ: البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[1]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضحُ[2]، يقول سيبَوَيْهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، قال: هو التِّبيان؛ وليس على الفعل، إنَّما هو بناء على حِدَةٍ، ولو كان مصدرًا لَفَتَحْتَ كالتَّقْتال؛ فإنَّما هو من (بَيَّنْتُ)؛ كالغارة من (أَغَرْتُ)[3]، والمُبِينُ المقصود في الآية: الظّاهِر الجَليُّ، ويجوزُ أَنْ يكونَ من أَبان المُتعدّي؛ أَيِ: الَّذي يُبيِّنُ ما فيه من معاني الهُدى والحقِّ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بين).
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 84.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بين)، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 92، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 232.

كلامُ اللهِ مُعجِزٌ واضحٌ جَليٌّ قد أبانَ معالمَ الحقِّ وزُيوفَ الباطل

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ابتدأت السّورةُ بالحُروفِ المُقطَّعةِ التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضته بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ الّتي يَتحدَّثون بها، وإنَّ تلك الآيات القرآنيَّة الّتي أنزلناها عليك - أيَّها الرَّسول الكريم - والَّتي سنُنزلها عليك تِباعًا حسب حكمتنا وإرادتنا، هي آيات الكتاب الواضح إعجازه، والظّاهرة هداياته ودلالاته على أنَّه من عند اللّه تعالى، ولو كان من عند غيره سبحانه، لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة افتتاح السّورة بالأحرُف المُقَطَّعة:

مادّة القرآن حروفٌ مُتاحةٌ سنيَّة لكلِّ ناطقٍ بالعربيَّة

يُؤثِر النَّظم الجليل افتتاحَ قَبيلٍ من سوَر القرآن الكريم بالحروف المُقطّعة، وقد اشتهر اختلاف أئمّة التّفسير في بيان المقصود منه على أقوال، وأَوْلى ما قال أهل التّفسير في حقّها: (اللّه أعلمُ بمُرادِه)[2]؛ لأنّها من الأسرار الغامضة، كما قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: (إنّ لكلّ كتابٍ سِرًّا، وسِرُّ القرآن في المُقطَّعات)[3]، وقد قيل: "إنَّ المعاني المُتعلِّقة بالأسرار والحقائق لا يعلمها إلّا اللّه، ومَن أطلعه اللّه عليها من الرّاسخين في العلم، وهم العلماء باللّه؛ فلا معنى للبحث عن مرتبة، ليس للّسان حظّ منها، ولا للقلم فيها نصيب"[4].

أكثرُ السّور المُفتَتَحة بالأحرف المُقَطَّعة يعقبها ذِكرُ القرآن

لعلَّ أشهر الآراء التي قيلت في الحكمة من هذه الحروف المُقطَّعة أنّ هذه الحروف تُشير إلى أنّ القرآن مُكوَّن من الحروف التي تنطقون بها، ومع ذلك تعجزون عن أن تأتوا بمثله؛ لأنّه من عند

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 160، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 232.
(2) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالَيْن، ص: 3.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 148.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 258.

اللّه تعالى، فإذا ابتدأت السّورة بهذه الحروف الصَّوتيّة، استرعاهم صوتها؛ فجاؤوا مُتلهِّفين للاستماع، ولذا كانت أكثر السّور المُفتتحة بهذه الأحرف يَعْقُبها ذِكْرُ القرآن[1]، فهي تُمثّل دعوة ضمنيَّة لإلهاب النّفوس لاستفراغ الوسع، لتأليف نظْمٍ مثله، فعندما يظهر العجز، يتحقّق العِلم بكونه خارجَ القدرة.

دلالة الجملة بعد الحروف المُقطَّعة:

البيانُ والوضوحُ المُعجِزُ مُكوَّنٌ من تلك الحروف النّاصعة

لمّا كانت الحروف المقطّعة تُمثّل لفتًا للأسماع وإلهابًا للنّفوس بمحاكاة القرآن الكريم نظمًا وتأليفًا؛ كان مناسبًا لبيان أنّ القرآن قد بُني من هذه الحروف المُتاحة لكلّ ناطق بالعربيّة، فهو أظهر للإعجاز، ويُقال في ذلك: "إنَّ القرآن من حيث تعذّر عليهم أن يأتوا بمثله؛ يمكن أن يُستدلّ به على فاعلٍ مُخالفٍ لهم، كما يُستدلُّ بسائر ما لا يقدر العباد على مثله؛ فهو دليل التّوحيد من هذا الوجه، ودليل النّبوّة من حيث الإعجاز"[2]، وهذا الّذي أهّل مضمونه لِأن يوصف بأنّه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

بيان أنّ آيات السّورة هاته من القرآن عالية المكانة في البيان

آثر النَّظْمُ الكريمُ التّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ تقويةً للمعنى وتأكيدًا للخبر؛ فالآيات في هذه السّورة مُتَّصفة بأنّها من آيات الكتاب المبين؛ فهي بيِّنة تحمل رسائل واضحة للنّاس؛ فمضمون الجملة لا يَحْتَمِل الشّك؛ إذْ آياتُ الكتاب المبين حقيقة ثابتة لا تقبل الشّك والجدل.

والمُراد بالكتاب: السّورة الّتي نزلت بفواتحها المقطّعة المعجزة؛ والمعنى: أنّ آيات هذا القرآن المُؤلَّف من الحروف المبسوطة في عمومه وخصوصه يُشبِه آيات هذه السّورة المُتحدَّى بها؛ فأنتم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5334 - 5335.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 490.

عجزتم عن الإتيان بمثل هذه السّورة في مَعْرِض التّحدّي والإبانة عن تفرُّد البيان القرآنيِّ، وقد ظهر عجزكم تجاهه؛ فحُكْمُ تلك الآيات كذلك(1).

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

الإعجاز يقع بالجزء من القرآن كما وقع بجميعه

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ليشير إلى ما قرّ في الأذهان من الآيات الّتي أُنزلت من قبل، ومعنى الإشارة إلى تلك الآيات، ليبيّن أنّ التّحدي يقع بأجزائه تفصيلًا، كما وقع التّحدّي بجميعه إجمالًا(2).

إيثار التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البعد:

منزلة الآيات في البيان سامية الدّلالة سامقة المقام

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البُعد في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، للتّنبيه على علوّ منزلة تلك الآيات، وأنّها بأعلى رتب البيان والكمال في النّظم والمضمون؛ وهي بمعنى: أنّ هذا الكلام الّذي أوحيتُ به إليك يا محمّد، هو آياتُ القرآن البَيِّن الواضح، الّذي يفصل بين الحقِّ والباطل، والغيِّ والرَّشادِ(3).

دلالة الخطاب بالكاف في اسم الإشارة:

خطاب التّحدّي شاملٌ لكلّ سامعٍ

في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أَدْخَلَ النّظمُ الجليل حرف الخطاب الدّالَّ على المُفرد في اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾، مُخاطِبًا به كلَّ سامعٍ، فهو خطابٌ عامٌّ لكلِّ مُتأهِّلٍ لهذا التّحدّي(4).

سِرّ إيثار التّعبير بالآيات دون الكتاب:

الإعجازُ جزئيٌّ بالآيات وكُلّيٌّ بالقرآن كلّه

آثر النَّظم الكريم الإشارةَ إلى الآيات دون الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2]؛ لأنّه قصد بالإشارة إليها إلى أنّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 59.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 92.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 92.

الإعجاز كما وقع بالكتاب كلّه فإنّه واقع بالآيات المُفرَدَة من هذا الكتاب المبين.

دلالةُ إضافة ال﴿ءَايَٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آيــاتُ الـكـتـاب بـاهـرةٌ معـجـزةٌ تمامًا كالكتاب المُعجِز البليغ

أُضيف لفظ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والإضافة هنا بمعنى (مِن)؛ أيّ: هي آيات كائنة من هذا الكتاب؛ فهي تحمل خصائصه في البيان والرّوعة والإعجاز والتّحدّي[1]؛ فمادَّة هذا الكلام هي بين يدي كلِّ عربيٍّ ذي دُرْبَةٍ وسليقةٍ، وقد برّوا الأمم في معرفتهم بمراتب الكلام؛ وهو بهذا التَّحدّي يدعوهم لجمع الجهود، للإتيان بمثل هذا النّظم القرآنيّ السّامي، وهم أرباب البيان، وذلك شبيهٌ بالدَّعوة للمُبارَزَة في ميادين القتال، ممّا هو معهودٌ عند الفُرْسان الأشاوس الأبطال[2]؛ ولذلك أُضيفت الآيات إلى الكتاب للإشارة إلى أنَّ التّحدّي قائمٌ في الجزء كما هو واقعٌ في الكلّ.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون (القرآن):

الـكـتـاب المُـنـزَّل جـامـعٌ لـكـلِّ ما يـصـلـحُ لـلـنّـاس من الخير كلِّه

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الكتاب دون القرآن وغيره؛ إشارة إلى أنّه الكتاب الّذي جمع الحقَّ والمُتفرّقَ من الشّرائع، والحِكَم، والمنافع، والهدايات... فهو جامع لكلّ فرقان[3]، "والمُراد بالكتاب: القرآن، وبالمُبين: الظّاهر إعجازه، على أنّه من (أبان) بمعنى: بان؛ والمعنى: هذه آياتٌ مخصوصة من القرآن، مُترجَمَةٌ باسمٍ مُستقلٍّ، والمُراد ببيان كونها بعضًا منه وصْفُها بما اشتهر به الكلّ من النّعوت الفاضلة"[4]، والقرآن مُعجِزٌ في كونه الكتاب الّذي حمل آخر إرسال السَّماء بالحقائق، وعبّر مضمونه عن فحوى مُراد اللّه من الخلائق.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5335.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 3.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 233.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الـــقـــرآن هــو الكتاب الجدير بأن يكون نموذجَ الهداية الأخير

عبّر النّظم الكريم عن الكتاب بصيغة التّعريف بـ (أل)، إشارة إلى أنّه الكتاب الجدير بأن يكون الجامع لكلّ الفضائل، والشّرائع، والحِكَم، والقصص، والمعنى: إنّ هذه الآيات الّتي أنزلتُها على مُحمَّد في هذه السّورة آيات الكتاب الّذي يُبيّن لِمَن تدبَّره بفهم وفكرٍ أنّه من عند اللّه[1]، ووصفُ اللّهِ له بالكتاب سيكون جامعًا لمعاني البيان والحكمة، ومُتوفِّرًا على عناصر التّأهيل للبقاء باعتباره معجزةَ الخلودِ الّذي لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرّدِّ، ولا يشبع منه العلماء.

دلالةُ وصفِ الكتابِ بلفظ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

معالمُ الإعجازِ ومصدرُه الإلهيُّ بيّنةٌ لكلِّ سامع

وصف النّظم الجليل الكتابَ بأنّه مُبينٌ؛ والمُراد بهذا الوصف بيانُ أنّ الكتاب واضح في نفسه، وأنّه مُعجِزٌ، وأنّه من عند اللّه؛ فهو البَيِّن في ذاته، والمُبيِّن للشَّرائع والتَّوحيد، وما من شيء يتعلَّق بالإيمان والشَّرائع إلّا بيَّنه، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها؛ فهذا الكتاب وبعض الآيات منه واضح الدّلالة على أنّه من عند اللّه تعالى، وأنّه بحيث لا يُؤتى بمثله[2].

---

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 8/ 5275.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5335.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن
ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ
فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشّعراء: 3 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد أن بيّن النّظم الجليل أنّ الكتاب واضح في نفسه، وأنّه معجزٌ وأنّه من عند الله تعالى، وأنّ الحجّة قائمة به على النّاس؛ أتبعه بتوجيه النّبيّ ﷺ، وحثّه على الكفّ عن الحزن والأسى على فوات إسلام قومه[1]، فتحوّل من الخطاب الّذي يُبيِّن جدارة القرآن بالاتِّباع، إلى تَأْسيَة النَّبيِّ ﷺ وتَسْلِيَته بعزوف النّاس عن الإيمان بما ظهر أنّه حقّ، مؤكّدًا أنّ إيمانهم ليس ممّا تعلّقت به مشيئة الله تعالى[2]، ثمّ بيّن "شدّة شكيمتهم وعدم ارعوائِهم عمّا هم عليه من الكُفر والضّلال بغير الآيات المُلجئة، تأكيدًا لصرف رسول الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم"[3]؛ أتبعه ببيان أنّ إعراضهم ترتّب عليه تكذيبُهم بالوحي والدّعوة، موضّحًا الإعراض بذِكْر التّكذيب عقبه[4].

بعد وضوح الحُجّة تسليةٌ للدّاعي عن عزوف النّاس عن دعوته

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰخِعٞ﴾: (بخع) أصلٌ واحدٌ، وهو القَتْلُ وما داناهُ من إذلالٍ وقهْرٍ[5]، يُقال: بَخَعَ الرّجل نفسه يبخعها، بَخْعًا وبُخوعًا: أهلكها وجْدًا[6]، وبَخَعَ فلان بالطّاعة وبما عليه من الحقّ: إذا أقرَّ به وأذعن

(1) المراغي، تفسير المراغيّ: 19/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 150.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 152.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 153.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بخع).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 529.

مع كراهةٍ شديدة[1]، وبَخَعت لَهُ: تذَلَّلت وأَطَعت وأَقرَرْت[2]، وقيل: البَخْعُ: أن يبلُغ بالذَّبح البِخاعَ؛ وهو عِرقٌ مُستبطِنٌ القفا، وذلك أقصَى حَدِّ الذَّبحِ، والمُراد بالبَخْعِ في الآية: قَتْلُ النَّفْسِ وإهلاكُها.

2) ﴿فَظَلَّتْ﴾: (ظلَّ) أصلٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ؛ فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيره، تَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمٌ[3]، وظَلَّ يَفْعَلُ كذا إذا فعَلَهُ نَهارًا؛ وذلكَ أَنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا ليلًا؛ لأَنَّ اللَّيلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[4]، وفِعْلُ (ظَلَّ) مِنْ أَفعالِ الكَونِ أخَواتِ كانَ الَّتي تَدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ[5]؛ وعليه فـ﴿فَظَلَّتْ﴾ في الآية: بمعنى المضارع (تَظلُّ)؛ أيْ: تَدومُ.

3) ﴿خَاضِعِينَ﴾: (خضع) أصلٌ يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيءِ[6]، والخَضَع: تطامُنٌ في العُنُق، ودُنُوٌّ من الرَّأس إلى الأَرض، وخَضِع خَضَعًا فهو أخضع، والأُنْثَى خَضْعاء[7]، والخُضوعُ: الذُّلُّ والاستِخذاءُ، والتَّخاضُعُ: التَّذَلُّلُ والتَّقاصُرُ[8]، وكلُّ ذليلٍ خاضعٌ[9]، والمُراد بالخضوعِ في الآيةِ: التَّطامُنُ والتَّواضعُ، ويُستعملُ في الانقيادِ مجازًا؛ لأَنَّ الانقيادَ مِنْ أسبابِ الخُضوعِ[10].

4) ﴿مُحْدَثٍ﴾: (حدث) أصلٌ يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أَنْ لم يكُنْ، عَرَضًا كان ذلك أو جوهرًا، وإِحداثه: إيجاده[11]، والحديثُ من هذا؛ لأَنَّهُ كلامٌ يَحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيءِ[12]، ويُقالُ لكلِّ ما قرُب عهده مُحدَث، فِعلًا كان أو مقالًا[13]، ومُحْدَثاتُ الأمور: ما ابتدعه أهل

(1) الرّاغب، المفردات: (بخع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بخع).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خضع).
(7) ابن سيده، المُحكم: (خضع).
(8) الخليل، العين: (خضع).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خضع).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 96.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (حدث).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حدث).
(13) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

الأهواء من الأشياء الّتي كان السَّلف الصّالح على غيرها[1]، والحَدَث في الدّين كُله[2]، والمُراد بالمُحدَثِ في الآية: الجَديدُ.

5) ﴿مُعْرِضِينَ﴾: (عرض) أَصلُ كلمةِ الإعراضِ من العَرْضِ، وهو الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ، ويَعْرَضُ عَرْضًا؛ أَيْ: ظَهَرَ وبَرَزَ[3]، وقيلَ: أَصلُها من العَرْضِ، وهو: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعتَرضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافضَ أظهرَ خِلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّه كالواقفِ عَرْضًا في وجهِ الشَّيءِ[4]، والإعراضُ أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفضُ، ويُطلَقُ الإعراضُ بمعنى: الانصرافِ عن الشَّيءِ بالقَلْبِ[5]، والمُرادُ بالإعراضِ في الآيةِ: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تأسف عليهم؛ فلو شاء الله لأخضعهم؛ ولكنّه يُمهل ولا يُهمل

يُخاطب اللّه سبحانه رسولَه ﷺ، بما يُسلّيه عن تكذيبِ المشركينَ له، فقال: لِمَ تهلك نفسَك يا محمَّدُ غمًّا وأسَفًا على أهلك وقومك إذ لم يؤمنوا باللّه، ولم يستجيبوا لك؟ إنّهم لا يستأهلون هذا، ولا يستحقّون من أحدٍ أن يحرص عليهم؛ فهم ممَّن لا وزن لهم في ميزان الإنسانيّة، لو شِئْنا لأنزَلْنا على هؤلاءِ الكُفّارِ مُعجزةً ظاهرةً من السَّماءِ تَضطرُّهم إلى الإيمانِ، فينقادوا للحَقِّ قهرًا، ولكِنْ أراد اللّهُ بحكمتِه، أن يكونَ إيمانُ كُلِّ أحدٍ اختياريًّا، وإذا أتى الكُفّارَ قُرآنٌ حَديثُ النُّزولِ مِن الرَّحمنِ؛ ليَتذكَّروا ويتَّعِظوا ويتَّبِعوه، أعرَضوا عنه، فلم يُؤمِنوا به ولم يتدَبَّروه، فقد كذَّب هؤلاء الكُفّارُ بالقُرآنِ الّذي جاءهم مِن عندِ اللّه، فسيأتيهم عاقِبةُ ما كذَّبوا واستَهزؤوا به[6].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حدث).
(2) عياض، مشارق الأنوار: (حدث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 548، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 89، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 589، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 73.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل الجملة في سياق الآية:

الاسـتـئـنـاف تسليةٌ لصاحب الدّعوة الرّحيم

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فقد سيقت للإجابة عن سؤال يُثار في نفس النّبيّ ﷺ إثر قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، فكأنّ النبي تساءل عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن؛ فاستأنف تسريةً عنه لإزالة أسفه وحزنه، مشيرًا إلى أنّه لا نقص في إنذاره، ولا في كتابه الّذي ينذر به يكون سببًا لوقوفهم عن الإيمان، وإنَّما السّبب في ذلك، توفيق اللّه تعالى للهداية[1].

دلالة التّعبير بحرف التّرجّي (لعلّ):

النّهي البليغ المؤكّد يُناسِب شدّةَ أسى النّبيّ ﷺ

استعمل النَّظم الجليل (لعلّ)، في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ للاشفاق؛ أيْ: أشفِقْ على نفسك من أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك[2]، والمُراد من الإشفاق هنا الحثُّ على ترك الأسفِ، وإهلاكِ النّفس على ضلالهم[3]، والنَّهي بهذا الأسلوب أشدّ بلاغة في طلب الكفِّ عن الفعل المتوقّع منه إحداث مضمون الخطاب.

سِرُّ إيثار التَّعبير بالبَخْع مادَّةً وصيغةً:

البَخْعُ تحقُّق الذّبح، ويبيّن كيفيّة القتل

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ البخع دون الذّبح أو القتل؛ وذلك لأنّ البخع هو أقصى حدّ يبلغه الذّابح كما أشرنا[4]، فأُريدَ تقريرُ أنّ الذّبح ناجزٌ مُحقّق بالغ أقصاه، ولم يُعبّر بالقتل لأنّه عامّ، وقد خصّ نوع القتل بأنّه ذبح يبلغ أقصاه؛ فآثر ذلك تعبيرًا عن شدّة

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 298.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 93.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 6 - 7.

ما كان يعانيه النّبيّ ﷺ من التّحسّر على فوات إيمان قومه، وقد جاء التّعبير عنه بصيغة اسم الفاعل، للدّلالة على شدّة الاتّصاف ورسوخ المعنى؛ فهو إشارة إلى قوّة تحقّق ذلك المعنى في النّبيّ.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بلفظ البخع:

ربّما أَوْدَى الحزن والأسى بالنّفس البشريّة إلى الرّدى

استعار النّظم الكريم لفظ البخع لبيان شدّة الهمّ والأسى في قلب النَّبيِّ ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وحقيقة البخع بلوغ الذّبحِ الأعماقَ كما أشرنا[1]، فشبّه حال النّبيّ ﷺ، وهو يتأسّى ويحزن على امتناع قومه من الإيمان بذابح يبلغ بسكّينه أعمق مكان في عنق المذبوح، وذلك تعبيرًا عن شدّة ما كان يعانيه النَّبيُّ ﷺ من التّحسّر على كفر قومه، بحيث إنّه يكاد يقتل نفسه همًّا، والاستعارة تصريحيّة؛ لأنّه صرّح بلفظ المُشبَّه به؛ وهو الباخع.

دلالة التَّعبير بالمصدر المُؤَوَّل من الفعل المَنْفيّ:

عِلّة بخع النّفس امتناع قريش عن الإيمان بالحقّ الواضح المبين

عبَّر النّظم الجليل بالمصدر المُؤَوَّل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ من (أنْ) والفعل المضارع المَنْفيِّ للدّلالة على علّة البخع المُشفق منه؛ أيْ: باخع نفسك لعدمِ إيمانِهم، أو خيفةَ ألّا يُؤمنوا به[2]؛ فالمصدر المُؤَوَّل مفعول لأجله، وذلك بتقدير مضافٍ محذوفٍ وهو خيفة امتناع قريش عن الإيمان بذلك الكتاب المبين؛ والمعنى: لعلّك قاتل نفسك لتركهم الإيمان[3].

سِرُّ العدول عن نفي الإيمان إلى نفي الكون:

استمرارُ المعاندين على الكفر بسبب رسوخه فيهم

عَدَلَ النَّظم الجليل عن نفي الإيمان إلى نفي الكينونة ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ فقال جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ دون أن يقول: (أن لا يؤمنوا)؛ وذلك لتأكيد كونهم مُستمرّين على

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 298.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 233.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 150.

كفرهم؛ لأنّ فِعلَ الكَوْن يدلّ على الاستمرار، كما أنّه يدلُّ على رسوخ الوصف في المُسنَد إليه، وقد آثر النّظمُ الكريم التَّعبير بفعل الكون مضارعًا، للإشارة إلى أنّه ينبغي ألّا يأسف على عدم إيمانهم، ولو استمرّ ذلك في المستقبل[1].

دلالة حذف مُتعلِّق الإيمان:

بيان أنّ إطلاق لفظ الإيمان بديلٌ على انتفاء إيمانهم

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ عن الإيمان، بحذف المُتعلِّق في قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فجعله مطلقًا؛ وذلك لأنّ المُراد بيان أنّهم لم يؤمنوا بشيء ممّا دعاهم إليه؛ فحذف المتعلّق ليكون عامَّ الدّلالة.

مُتشابه النّظم بين آية الشّعراء (3)، وآية الكهف (6):

استعمال الأسلوب المناسب لدلالة السّياق مفيد في الدّلالة

يشابه نظم الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ النّظمَ المعجز في سورة الكهف حيث قال ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]؛ فجاء النّفي بـ (لم) الّذي ينفي الماضي في سورة الكهف؛ وذلك لأنَّ سورة الكهف مُتأخِّرة في النُّزول عن سورة الشّعراء، فعَدَمُ إيمانهم قد تقرَّر حينئذٍ، وبلغ حدَّ الميؤوس منه؛ فناسب التّعبير عنه في الكهف بنفي الماضي، وفي الشّعراء بالمضارع[2].

دلالة فصل الجملة عمّا قبلها:

الاستئنافُ التّعليليُّ مُفيدٌ في إبراز المعاني

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فهي مساقة لتعليلِ النّهي عن التّحسّر على امتناعهم عن الإيمان؛ وذلك ببيان أنَّ إيمانَهم ليس ممّا تعلَّقتْ به مشيئةُ اللّه تعالى حتمًا، فلا وجهَ للطَّمعِ فيه والتَّحسُّر عليه، والتَّألّم مِن فواته[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 233.

سرّ إيثار التّعبير بـ ﴿إن﴾ الشّرطيّة دون (إذا):

انتفاء نزول تلك الآيــة يـوجـب التّعبير بشرط عدم الوقوع

آثر النّظم الكريم التّعبير بحرف الشّرط ﴿إن﴾ دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾، وذلك للإشعار بأنّ انتفاء تلك المشيئة وقع لحكمة يعلمها اللّه تعالى؛ فإنّ ﴿إن﴾ الشّرطيّة يغلبُ عليها أن تدلَّ على عدم الجزم بوقوع الشّرط؛ فهي تشير إلى أنَّ مضمون الشّرط ليس واقعًا[1]، ولو قال: (إذا نشاء) لدلّ على احتمال وقوع تلك المشيئة؛ لأنّ إرادته تعالى مريدةٌ جَلْبَ القلوب لا إخضاعَ الأعناق، والإيمان البالغ الرُّسوخ، والاعتقاد العميق الدّلالة، يكون آثَرَ في النّفع والفاعليّة والجدوى.

دلالةُ حذف مفعول الفعل: ﴿نَّشَأۡ﴾:

حـذفُ المعلوم مـن الـسّـيـاق إيجازٌ في التّعبير

حذف النّظم الجليل المفعولَ به للفعل شاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾؛ وذلك طلبًا للإيجاز؛ فاكتفى بدلالة جواب الشّرط عليه؛ والتّقدير: (إن نشأ تنزيل آية مُلْجِئَةٍ نُنزّلها)[2].

دلالةُ النّفيِ الضِّمنيّ عن المشيئة:

منهجُ القرآنِ الإقـــنـــاعُ لا الإخضاعُ

دلّ أسلوب الشّرط على انتفاء المشيئة ضمنيًّا في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾، ويدلّ انتفاء المشيئة أنّ الحكمة اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار، لا عن قهر وإجبار، وهو الأجدى في انتشار الإسلام[3] الّذي ما فتئ يخاطب العقول ببيان النّهج القويم مع مراعاة ملمح الاختيار الّذي راعَتْهُ مشيئةُ الواحد القهّار؛ ولذلك لم يُنَزِّل عليهم آيةً كونيّةً مُخْضِعةً؛ بل ترك ذلك لآيِ القرآن الباهرة المُقنِعة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

لـو أُنـزلـت الآيـةُ القاهرةُ لـخـضـعـت الأعناقُ المُنكِرة

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾؛ ليبيّن أن الجواب - وهو خضوع الأعناق - مُؤكَّد التَّحقُّق عند وقوع فعل الشّرط، كما أنّ هذا التّعليق يدلّ على أنّ اللّه تعالى قادرٌ على المجيء بالآيات، ولكنّه تعالى يُريد التّكليف لا مجرّد الامتناع عن الشّرّ والعصيان[1].

دلالة التّعبير بالمضارع في السّياق:

القـدرة على تنزيل آيات الله لا تنقطع على المدى

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في فعلَي الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعبيرًا عن دوام تلك المشيئة والقدرة[2]، قال قتادة: معناه: لو شاء اللّه لأنزل آيةً يَذِلّونَ بها؛ فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية اللّه بعد ذلك، وقال ابن جريج: معناه لو شاء لأراهم أمرًا من أمره، ودليلًا من جبروته وقهره، لا يعمل أحدٌ بعده بمعصية في دهره[3].

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿نُنَزِّلۡ﴾:

الإنزال والتنزيل لـلآية يُخضع أهـل الـكـفـر لا محالة

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿نُنزِلۡ﴾ بإسكان النّون وتخفيف الزّاي، وقرأ الباقون: ﴿نُنَزِّلۡ﴾ بفتح النّون وتشديد الزّاي[4]، والفرق بين الإنزال والتّنزيل: أنَّ الإنزال: يستعمل في الدَّفعة، والتَّنزيل: يستعمل في التَّدريج[5]، فلو نزلت الآية مرة واحدة، أو نزلت على مراحل فخضوعهم وإذعانهم وانتهاء تمرّدهم مُؤكَّد الحصول، وفي التشديد مزيد حشد وتأكيد.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.
(2) البقاعي، نَظْمُ الدّرر: 14/ 7.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5277.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 218.
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 68، والراغب، المفردات: (نزل).

دلالةُ حرف الاستعلاء (على) في السّياق:

إرادةُ الله قاهرةٌ، وحكمته في خطاب عباده باهرةٌ

قيّد النَّظمُ الجليلُ الإنزالَ بحرف الاستعلاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الآية التّي لو شاء إنزالها فإنّها ستكون قاهرةً، فحَرْفُ الاستعلاء هنا دالٌّ على القهر والقَسْر[1].

دلالةُ تقييد الإنزال بكونه من السّماء:

آياتُ السّماء توجب الإيمانَ الجبريَّ لا الطّوعيَّ

قَيَّدَ النّظمُ الجليل إنزالَ الآية بشبه الجملة المبيِّنة مكانَ النّزول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على أنّها ستكون آيةً مُلجِئةً لهم على الإيمان، فلا يكون لديهم احتمال التّكذيب والمعاندة والكفر، فيكون الإيمان فيهم إيمانًا وقع على سبيل القهر بلا تفكير[2]، كما أنَّ فيه ترهيبًا للسّامعين بما عُهِدَ من أنّ ما يأتي من السّماء فيه إبهامٌ وغرابةٌ، وهو أنسب في مقام التّخويف والتّهديد.

بلاغة تقديم الجارَّيْن والمجرورَيْن على المفعول به:

أهميّةُ تقديم المُنزل عليهم، وإنزال الآية من السّماء

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة، من الجارّ والمجرور، على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾، وذلك للاهتمام بالمُقدَّم، وهو هنا بيان أنّ المقصود بهذا التّنزيل هم، وأنّ مكانه أهمّ من الآية ذاتها، كما أنّ في تأخير المنزَّل تشويقًا للآذان والأذهان لانتظار ذِكْره، فيكون أَوْقَعَ في السّمع.

نكتةُ التّعبير بلفظ الآية مُفردةً نكرةً:

آيةٌ من الله واحدةٌ تكفي لإخضاع كلِّ المعاندين

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الآية في قوله جلّ شأنه: ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾؛ للدّلالة على ظهور معالم ذلك التّهديد وبوارق حلوله فيهم، فيكون إهلاكهم ممّا تراه العين كرؤية الآيات والعلامات[3]، وجاء لفظ الآية مُفردًا دون الجمع إشارةً إلى أنّ آيةً

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5336.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 6/ 233 - 234.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 95.

واحدةً من ذلك القَبيل كافيةٌ في تحقيق المطلوب، وقد جيء بها بصيغة التّنكير للدّلالة على التّفخيم والتّعظيم؛ فهي آية غاية في الهول بحيث إنّها تُزيل كلَّ شَكٍّ عنهم.

دلالةُ الفاء في لفظ ﴿فَظَلَّتۡ﴾:

خضوعُ الأعناق نتيجةٌ حتميّةٌ لنزول الآيات

افتُتح النَّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، بالفاء العاطفة للدّلالة على تعقيب مضمونها لجملة الشّرط؛ فخضوعُ الأعناق سيَعْقُبُ نزولَ الآية بلا مهلة، كما أنّها تدلّ على معنى السّببيّة؛ فالخضوع مُسبَّبٌ عن النّزول[1].

سِرُّ الماضي ﴿فَظَلَّتۡ﴾ دون المضارع (تظلّ):

دوامُ خضوع الأعناقِ مُحقَّقٌ مُؤكَّدٌ لا محالة

آثرَ النّظمُ الكريم التّعبير بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ دون الفعل المضارع؛ فلم يَقُلْ: (فتظلّ) تبعًا للفعل المضارع المعطوف عليه (نُنزِّل)؛ وذلك لأنّه أشار إلى تحقُّق أثرها، وكون خضوعهم وانتهاء تمرّدهم مُؤكَّدَ الحصول[2].

بلاغةُ المجاز المُرسل في خضوع الأعناق:

خضوعُ الرِّقابِ أظهرُ علاماتِ الخضوع والذُّلّ

أسنَدَ النّظمُ الكريم الخضوعَ إلى الأعناق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ على سبيل المجاز المُرسل؛ لأنّ مَنْ يخضع إنّما هم أصحابها، ولكنّه عبّر باسم الجزء وأراد الكلّ[3]؛ وذلك لأنّ للأعناق مزيّةً في هذا المقام، عن بقيّة الأركان؛ فهي مظهر الخضوع والخنوع، ولأنَّ أوَّلَ أعمال الخضوع أنْ تلوى الأعناق[4]، وذلك أنّ الخضوع لمّا لم يكن إلّا بخضوع الأعناق؛ جاز أن يُخبر عن المضاف إليه كما قال الشّاعر:

---

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10536.

رَأَتْ مَرَّ السّنينَ أَخَذْنَ مِنّي *** كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ[1]

فلمّا كانت السِّنون لا تكون إلا بمَرٍّ؛ أخبر عن السِّنين وإن كان أضاف إليها المرور[2].

دلالةُ الكنايةِ عن الذّلّ بخضوع الأعناق:

الخضوعُ لازمٌ للذُّلِّ لا ينفكُّ عنه

كَنَّى النَّظم الجليل عن الذُّلِّ بنسبة الخضوع إلى الأعناق في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، فخضوع الأعناق ليس مُرادًا لذاته؛ بل تعبيرًا عن ذلّ صاحبه والهوان الّذي يَلحقُهُ بعد العِزِّ والكبرياء[3]؛ فقد علم أنَّ الذُّلَّ يُلازمه خضوع الأعناق؛ فأشير بالخضوع إلى الذُّلِّ.

دلالة تقديم ﴿لَهَا﴾ على الخبر:

آيات الله باهرةٌ للألباب تخضع لها الرّقاب

عبّر النّظم الجليل بشِبْه الجملة ﴿لَهَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ للدّلالة على أنَّ هذا الوصف يكون بسببها لا بسببٍ آخر، وأفاد تقديم شبه الجملة على الخبر أنّ خضوعهم بهذا الشّكل مخصوص لهذه الآية لا لغيرها، وللإشارة إلى أنّ الخضوع يكون بالطّبع من غير تأمّل لما أبهتهم وحيَّرهم من عَظَمَة الآيةِ، فكأنَّ الفعل للأعناق لا لهم[4].

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿خَٰضِعِينَ﴾، لا (خاضعة):

ذُلُّهم جميعًا ظاهرٌ بخضوعِ أعناقِهم

وصفَ النّظم الجليل الأعناق بصفة جمع المذكر السّالم في قوله جلّ شأنه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ على طريقة المجاز العقليّ دون أن يقول: (فظلّت أعناقهم لها خاضعة)؛ للدّلالة على أنّ المقصود من ذلك هم الأشخاص[5]، فالذُّلّ لأهلها وليس للعنق بذاتها، وقد آثر

(1) البيت لجرير الخطفيّ، ديوان جرير، ص: 426، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 335.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 335.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 190.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5336.

التّعبيرَ عن ذلك بصيغة الجمع؛ ليدلَّ على أنَّهم يكونون في الذُّلِّ في حالة كونهم جميعًا، فلا يُغني جمعُهم عن آحادِهم[1].

دلالةُ عطفِ الجملة على الجملةِ:

بيانُ كُفرهم بالتّنزيل يؤكّد التّسلية للرّسول الجليل

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ على الجملة في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ تأكيدًا لداعي التّسلية؛ أيْ إنّهم قوم دأبوا على الكفر؛ فلا تأسف لعدم إيمانهم بالآيات البيّنة وما يجيئهم منها من بعد؛ فإنّهم سيُعرِضون عن الذِّكر لرسوخهم في الكفر[2].

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالفعل المضارع:

إذا قست القلوبُ المُنكِرة؛ لا تنفعها المواعظ المُؤثِّرة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ﴾ للدّلالة على تجدّد كفرهم وإعراضهم بتجدّد تنزيل الذّكر الحكيم؛ والمعنى: ما يأتيهم من موعظةٍ من المواعظ القرآنيّة الجليلة، أو نازلة من الآيات البديعة الجميلة ممّا فيه النّفع والرّشاد واتّقاء الضّلال والفساد؛ إلّا جدَّدوا إعراضًا عنه على وجه التّكذيب والاستهزاء، مع الإصرار العاتي على ما يمارسونه من الكفرِ والضَّلالِ؛ وذلك ديدنُ أهلِ الكُفْر من المُلحدين والمُنكِرين، في كلّ عصرٍ وحينٍ[3].

دلالة ﴿مِّن﴾، وتنكير ﴿ذِكۡرٍ﴾:

لا يُصرُّ على الإعراض والكفر إلّا جاهلٌ بالذِّكْر

أدخلَ النّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ على النّكرة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ﴾؛ للدّلالة على العموم والاستغراق؛ فـ ﴿مِّن﴾ تُؤكِّد العموم[4]، والتّنكير في حيِّز النَّفي يدلُّ على الاستغراق؛ فأيُّ ذكرٍ يأتيهم فإنَّهم يُلاقونه بالإعراض؛ بلا فهمٍ ولاتدبُّر له.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 97
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 152.

سرُّ التّعبير عن القرآن بلفظ الـ﴿ذِكۡرٍ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن القرآن الكريم بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ تعبيرًا عن كونه تذكيرًا ووعظًا للنّاس؛ فهو يُذكِّرهم ويُنبِّههم عن الغفلة؛ فكأنَّ القرآن هو ذاته الذِّكْرُ من جهتِه[1].

القرآن تذكيرٌ للغافلين، وموعظةٌ للنّاس أجمعين

دلالةُ وصفِ الذِّكر بأنّه مُحدَثٌ:

وصفَ النّظمُ الجليل الذِّكر بأنّه محدَث في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ للدّلالة على أنّه جديد على أذهانهم؛ وذلك لأنّه يقع بآية واحدة؛ بل بآية تتلوها آيات[2]، فهو ذِكْرٌ مُتجدِّد يتنزَّل حالًا بعد حالٍ.

تجدُّد الحُجج والبراهين بتتابع نزول القرآن المبين

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في السّياق المُحْكَم:

أدخلَ النَّظم الكريم حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ على اسم اللّه تعالى الرَّحمن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾؛ وهي هنا دلالة على مبتدأ مجيئه، والغرض من ذلك بيان مَنْ صدر عنه التّذكير لتفخيم شأن الذِّكْر[3].

عَظَمَةُ الذِّكْر مِن عَظَمَةِ الله تعالى المُنزِل له

علّة التّعبير بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون (الرّبّ):

آثر النّظمُ الكريم التّعبير باسم اللّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون غيره من الأسماء؛ للدّلالة على أنّ إتيان الذِّكر من رحمة اللّه تعالى، وفي ذلك تغليظ لشناعتهم بالإعراض؛ فإنَّ الإعراضَ عن الوحي هو فعل شنيع، ولكنّ الإعراض عمّا يأتيهم بموجِبِ رحمته تعالى؛ فهو أشنع وأقبح[4].

بعثُ الرّسالة رحمةٌ ممحّضةٌ من الله الرّحيم بعباده

وقد تجلّى ذلك في تشابه قوله تعالى هنا وما ورد في قوله: ﴿مَا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، والشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10537.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

﴿يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]؛ إذْ ذُكر فيها لفظ الرُّبوبيَّة لا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ وذلك لأنّ السّياق في (الشّعراء) جاء تسلية للنّبيّ ﷺ على إعراض قومه وكفرهم، ففي ذِكْرُ الرّحمن تشنيع حال المعرضين، وقبح ما واجهوا به الكتاب المبين؛ فناسب ذلك المجيء بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دون (الرّبّ)[1].

بلاغة التَّعبير بالاستثناء المُفَرَّغ:

مــن شـنـاعـةِ المُعانِدين أنَّهم لا يـكـونـون إلّا بحالِ العِنادِ

عبّر النّظمُ الجليلُ بأسلوب الاستثناء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾، للدّلالة على الاستثناء من أحوال مُتعدّدة، وجملة: ﴿كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ في محلّ نصبِ حالٍ؛ أيْ: ما يَأْتيهم من ذِكْرٍ في حالٍ من الأحوالِ إلّا حال كونهم مُعرضين عنه[2]؛ فهم لم يكونوا بحالٍ من الأحوال الأخرى إلّا أسوأ حالٍ وهو الإعراض؛ فدلّ هذا الأسلوب على الإيغال في التّشنيع عليهم، وبيان قبيح فِعْلهم.

دلالة التّعبير بفعل ﴿كَانُواْ﴾ دون (أعرضوا):

الإعـراضُ راسخٌ فـي الـكـافـريـن رسوخًا لا ينفكّ عنهم

آثر النّظمُ الكريم التّعبير عن الإعراض بفعل الكَوْنِ دون التّعبير بأسلوب مباشر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إلّا عَنْهُ يُعْرِضونَ)؛ وذلك للإشارة إلى رسوخ الكِبْر فيهم ودوامِه[3]؛ فهو إعراضٌ قديمٌ فيهم راسخٌ منذ كينونتهم، وهم مُستمرّون على الإعراض استمرارًا لا ينفكُّ عنهم.

سِرُّ تقديم شبه الجملة ﴿عَنۡهُ﴾:

فــســادُ فـكـرِ المـعـانـديـن في إعـراضـهـم عن الحقّ المبين

قدّم النَّظْم الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾؛ فلم يَقُلْ على الأصل: (مُعْرِضِينَ عَنْهُ)؛ لأنّ التّقديم يفيد معنى الاختصاص؛ أي إنَّهم لا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 98.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.

يُعرضون إلّا عن الحقِّ؛ فقد فسدت نفوسهم، فهم لا يُعرضون عن باطل[1]، كما أنّ التّقديم هنا فيه مراعاةٌ للفاصلة.

سِرُّ التّعبير عن الإعراض بالاسم دون الفعل:

الإعـــراضُ عن الحقّ صفةٌ في مَنْ كفر وعقّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم دون الفعل في بيان الإعراض في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾، وذلك لبيان أنّ الإعراض صفةٌ لازمةٌ لهم، راسخة فيهم[2]، فهم يُعرضون عن الدَّعوة، ليس لأنّها لا تصلح لهم؛ بل لأنَّهم قومٌ خَصِمون مُعانِدون.

دلالة (الفاء) في صدر الجملة:

سبب التّكذيب مُـترتِّـبٌ على وقوع الإعراض

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بالفاء، وهي هنا مستعملة للدّلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها؛ فهي الفاء السّببيّة؛ أيْ: بسبب إعراضهم قد كذَّبوا بالحقّ لمّا جاءهم[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالحرفِ (قد):

تكذيبُ الكافرين إثـرَ الإعـراضِ حقيقةٌ لا ريب فيها

أدخلَ النّظمُ الجليل حرفَ التَّحقيق (قدْ) على الفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ كذبهم قد تحقَّق وتأكّد؛ فهو يُؤكّد وقوعَ التَّكذيب إثر الإعراض، وعليه - كما أورد القِنَّوجيّ - فقد كذّبوا بالذّكر الّذي يأتيهم تكذيبًا صريحًا، ولم يكتفوا بمجرَّد الإعراض، ثمَّ انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدُّ منه، وهو التّصريح بالتّكذيب، ثمّ انتقلوا عن التّكذيب إلى ما هو أشدّ منه، وهو الاستهزاء[4].

دلالة الفعل الماضي بصيغة التّفعيل:

تكذيبُ المعرضين واضــحٌ جـليٌّ وصريحٌ عَتيٌّ

عبّر النّظم الكريم عن تكذيبهم بالفعل الماضي في قوله جلّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5337.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان، 9/ 363.

شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ للدّلالة على تحقُّق التّكذيب وتأكيد وقوعه، وأفاد التّعبير عن ذلك بصيغة التّفعيل، وذلك بتضعيف عين الفعل للدّلالة على قوّة تكذيبهم بأنَّه تكذيبٌ واضحٌ صريحٌ قد وقع بعد الإعراض.

دلالة (الفاء) في جملة: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾:

العذابُ لا يكون إلّا بسبب ما جَنَتْهُ أيدي المُعاندين

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بالفاء الدّالّة على التّرتيب والتّعقيب والسَّببيَّة، لبيان أنّ الوعيد بمجيء الأنباء مُترتِّبٌ ومُتسبِّبٌ عن تكذيبهم النّبيَّ ﷺ؛ أيْ: بسبب تكذيبهم ستأتيهم تلك الأنباء[1].

دلالةُ التّعبير بحرف الاستقبال:

مجيءُ الأنباءِ في المستقبل أمرٌ مُؤكَّد لا يشوبه شَكٌّ

أدخلَ النّظمُ الجليل حرفَ التّنفيس (السّين) على الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، للدّلالة على تأكيد وقوعه في المستقبل؛ فهو تأكيدٌ لمضمون الجملة وتقريره؛ أيْ: إنّ تلك الأنباء آتيةٌ على وجه القطع[2]؛ والمعنى: أنّهم قد كذَّبوا بالآيات الآنفة الّتي جِئتَهم بها - أيّها النّبيّ - فأنكروها برفضها والصَّدِّ عنها؛ وعليه فإنّ ما سينزل عليك من آيات بعد هذا سوف لا ينفعهم فتيلًا، فلينتظروا البلاء العظيم، وسيعلمون علمًا لا ريب فيه حقيقةَ هذه الآيات، وأنّها الحقُّ من ربِّهم، ولكنْ بعد الفوات[3].

نكتة التّعبير بحرف (السّين) دون (سوف):

بيان أنّ وقت مجيء الأنباء ليس بعيدًا عنهم

آثر النّظم الكريم التّعبير بحرف التّنفيس (السّين)، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون (سوف)، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]، وذلك لأنّه أراد هنا تقليل التّنفيس لبيان قِصَر المدّة؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5337.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 73.

لأنّهم لمّا أعرضوا عن النّبيّ ﷺ وكذّبوه واستهزؤوا به، عجّل لهم التّهديد، ليكون مُحتمِلَ الوقوع، فقد يأتي في الدّنيا أو في الآخرة، كما في يوم بدر وغيره من المواقع[1]، فيعلموا أنّ وقوعه في الدّنيا، كائن عمّا قريب، وليس في الفرقان استهزاء بالدّعوة أو النّبيّ ﷺ.

سرُّ إيثار الفعل ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾ في السّياق:

إرسال العقوبات دفعةً واحدةً لا تُعجز الله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، للدّلالة على أنّ الإتيان بتلك الأنباء في الوعيد يكون بسهولة ويسر؛ لأنّها صادرة عن قدرة اللّه تعالى الّتي لا يعجزها شيء، وقد آثر التّعبيرَ بإفراد الفعل دون جمعه فقال: (يأتيهم) دون أن يقول: (تأتيهم)؛ مع أنّ الفاعل جمع تكسير لغير مُذكّر حقيقيّ، والغالب فيه أن يأتي بصيغة التّأنيث الدّالّة على الجمع؛ والعلَّةُ في ذلك أنّه جَعَل مجيءَ الأنباء ونزولَها بهم كمجيء شيءٍ واحد تقويَةً للمجيء؛ فجعل الأشياء الكثيرة واحدًا في المجيء مبالغةً في قوّة أثرها.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالنَّبأ دون الخبر:

عواقب الإعراضِ عميقةُ الأثرِ وهائلة الخطرِ

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ (النّبأ) دون (الخبر) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنّه أراد أنَّها أخبارٌ عظيمةٌ جليلة الأثر؛ فأراد التّهويلَ من شأن تلك الأنباء؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ عظيمٌ[2]، فعبَّر به عن العواقب العظيمة والخطيرة المُترتِّبة على كفرهم وتكذيبهم.

دلالةُ جمع لفظ ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ﴾:

من شدّة العقاب كثرةُ أنواعه وتعدُّدها

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأنباء بصيغة الجمع دون الإفراد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ وذلك

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264، والبقاعي، نظم الدّرر: 14/ 9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 234.

لأنَّهم قد استهزؤوا بأشياء كثيرة؛ فكانت الأنباء كثيرةً: كالبعث، والعذاب في الدّنيا، ونصر المسلمين عليهم، وفتح مكّة، وعذاب جهنّم[1]، وفي لفظ الأنباء تهويلٌ؛ "لأنّ الأنباء لا تُطلق إلّا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ كبير؛ أيّ: فسيأتيهم لا محالة مِصداقُ ما كانوا يستهزؤون به، إمّا في الدّنيا؛ كيوم بدر وغيره من مواطن الحتوف؛ أو يوم القيامة"[2].

دلالة ﴿مَا﴾ وأثرها في المعنى:

الاستهزاءُ بالدّين من أكبرِ جرائم المُكذِّبين

عبّر النّظم الجليل باسم الموصول ﴿مَا﴾[3] في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لما فيه من دلالةٍ على العموم والإبهام؛ فيشمل كلَّ ما استهزؤوا به من أمر الدّعوة والدّين، كما فيه دلالة على تهويل أمر ما استهزؤوا به، وتلك طبيعة الكَفَرَة المُناوئين ممّا عبّر عنه قوله تعالى: ﴿يَـٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ [يس: 30]، قال المراغيّ: "وقصارى ذلك إنّهم كذّبوا بما جئتَهم به من الحقّ، وإنَّه سيأتيهم لا محالة صِدْقُ ما كانوا يستهزئون به من قبل، بلا تدبُّرٍ ولا تفكير في العاقبة"[4].

دلالةُ التّعبير بفعل الكون دون الاستهزاء:

بيانُ حالِ مَنْ رسخوا في الاستهزاء، وعاقبة أمرهم فيه

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل الكَوْنِ دون التّعبير عن الاستهزاء مباشرة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ما به يستهزئون)؛ بل ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وذلك للإشارة إلى استمرارهم بالاستهزاء، وأنّه قديم راسخ فيهم على وجه الاستمرار، ولذلك فسيعلمون ما يحيق بهم من العقوبات، في العاجل والآجل، لأنّهم نُبِّهوا على خطر استهزائهم، ولكنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 124.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 54.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 47.

بقوا سادرين في غوايتهم، ولم يعبؤوا بوعيد بالهلاك، ولا تهديد بالعذاب، مع معرفتهم بقدر ما استهزؤوا به، وأنّه حقّ من اللّه، ومع ذلك جحدوا بالآيات واتّخذوها هزوًا.

دلالةُ (الباء) في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

أبانتِ الباءُ أنَّ الاستهزاءَ يطالُ ما يُشير إلى الدّين وشؤونه

عبّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وهي هنا للتّعدية[1] - فعدّى فعل الاستهزاء إلى المفعول به؛ فبيّن أنّ الاستهزاء واقع بالضّمير؛ فأوصل الباء أثر الفعل إلى مفعوله، وهو الضّمير العائد إلى الاسم الموصول الدّالّ على كلِّ ما كفروا به.

سِرُّ تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل:

مَن استهزأ بالآيات والكتب؛ أتاه العذابُ من حيث لم يحتسب

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور في قوله جلّ شأنه: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وكان الأصل أن يُقال: (يَسْتَهْزِئونَ بِهِ)؛ وذلك للدّلالة على اختصاص استهزائهم؛ فكأنّهم لشدّة إمعانهم في الاستهزاء به؛ صاروا قاصرين الاستهزاء به دون سواه[2]؛ فهم لشدَّة انحرافهم لا يستهزئون إلّا بالحقِّ.

سِرُّ إيثارِ الاستهزاءِ دونَ التّكذيبِ:

الاستهزاءُ مظهرٌ من مظاهر التّكذيب لا ينفكُّ عنه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الاستهزاء دون التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ما كانوا به يكذّبون)؛ وذلك لإفادة أنّهم مع تكذيبهم كانوا يستهزئون؛ فيكون قد أخبر عنهم بصفتيْن[3]، والاستهزاء أشدّ وطأً وآلَمُ وقعًا من التّكذيب وما يشبهه من الألفاظ، ولك ألّا تعبأ بهم ولا باستهزائهم؛ فسَيَأتيهم عن قريبٍ أَنْباء ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِؤونَ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.

فيظهر حينئذٍ أهو حقٌّ حقيقٌ يستحقّ أن يُنقاد له ويُتَّبع هَدْيُه، أم هو باطل يجب أن يُتّقى ويُهمل زيفه؟!(1).

سرّ إيثار ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على (يهْزؤون):

الاستهزاءُ من الكافرين رغبةٌ لا عارِضٌ

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الاستهزاء دون الهُزْءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فاستُعمل الفعل ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دون الفعل (يهزؤون)؛ وذلك للإشارة إلى شدّة رغبتهم في ذلك الهزء؛ فهم طالبون له(2)؛ لأنّ التّعبير بصيغة الاستفعال يدلُّ على الطّلب؛ فهم يسعون في هذا الهزء ويطلبونه.

دلالةُ التّعبيرِ عن الاستهزاءِ بالمضارع:

استهزاءُ الكافرين يتجدّدُ بتجدُّدِ الوحيِ ووعيدهم فيه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دون التّعبير باسم الفاعل؛ فلم يَقُلْ: (مستهزئون) كما في ختام الآيات السّابقة، حيث استعمل ألفاظ اسم الفاعل: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ و﴿خَٰضِعِينَ﴾ و﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ وذلك لأنّ الاستهزاء يتجدَّد عند تجدُّد وعيدهم بالعذاب، وأمّا الإعراض فهو وصفٌ مكينٌ فيهم(3).

بلاغةُ ترتيب: (الإعراض، فالتّكذيب، فالاستهزاء):

التّرقّي في المعاني التّوصيفيّة من البيان المُفصِح عن المُراد

ترقّى النّظم الجليل بذِكر الأفعال الثّلاثة المُعبّرة عن سلوك المشركين؛ فذكر الإعراضَ ثمّ التّكذيب، فالاستهزاء، فبدأ بالأقلّ منها رتبةً وبالأصل، ثمّ انتقل إلى ما يتسبّب منها، فالإعراض عن الشّيء هو عدم الالتفات إليه، ثمّ يصار منه إلى ما هو أشدّ منه؛ وهو التّصريح بالتَّكذيب، ثمّ انتقلوا عن التّكذيب إلى ما هو أشدّ منه؛ وهو الاستهزاء(4).

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 124.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 10.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 99.

(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 153.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذّبح والبخع:

البَخْعُ أخصُّ من الذَّبح والقتل، وهو بلوغُ منتهى حدِّ الذَّبح

بَخَعَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ: قَتَلَها غيظًا من شدَّة الوَجْد[1]، وبخع الشّاة: بالغ في ذبحها حتّى قطع البِخاع، وهو عرقٌ باطنٌ في الصُّلب وفي القفا، وذلك أقصى حدّ الذّابح[2]؛ فآثر النَّظمُ التّعبيرَ بلفظ البَخْعِ دون الذَّبح أو القتل؛ تعبيرًا عن شدّة ما كان يعانيه النّبيُّ ﷺ من التَّحسُّر على فوات إيمان قومه، فأُريد تقرير أنّ الذّبح ناجزٌ مُحقَّقٌ بالغٌ أقصاه لشدّة الغيظ والتّحسّر؛ أمّا القتل والذّبح؛ فهما عامّان.

الاستهزاء والسّخرية:

الاستهزاءُ يقع بلا سببٍ، والسّخريةُ تقتضي وجودَ فعلٍ سابق

الاستهزاء: وقوعُ الهُزْءِ بلا مُستوجبٍ له؛ فإنّ الإنسان قد يُستهزأ بِهِ من غير أَن يسْبق مِنْهُ فعلٌ يُسبِّب الاستهزاء، أمّا السّخرية فتدلّ على وجود فعلٍ قد سبقَ من المسخور مِنْهُ، كما أنّ فعل الاستهزاء يتعدّى بالباء الدّالّة على الإلصاق، كَأَنَّك ألصقتَ بِهِ استهزاءً من غير أَن يدلّ على شَيْء وقع الِاسْتِهْزَاء من أَجله، أمّا السّخرية فتتعدّى بحرف الجرّ (من) للدّلالة على السّببيّة، فسخرت مِنْهُ يقتضي أنّ السّخريّة قد وقعت بسببه هو[3]؛ فعبّر في الآية بلفظ الاستهزاء، للدّلالة على أنّ الآيات لم يكن فيها ما يستوجب الهزء والسّخرية.

---

(1) الخليل، العين: (بخع).

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 6 - 7.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية: ص: 254 - 255.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ [الشّعراء: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

الـرّبـط بين الإعـراض عن الآيـات المنزلة وآيـات الكـون المشاهدة

بعد أن أورد النَّظْم الجليل ذِكْر الآيات المبينة المعجزة، وأنّها لم تقع منهم موقع التّأثير فأعرضوا عنها؛ أَتْبَعَ ذلك ببيان أنّهم أعرضوا عن الآيات الكونيّة كذلك، مع أنّهم يشاهدونها في الآفاق(1)، فبيّن النّظم الجليل أنّ اللّه تعالى مع حكمته في إنزال القرآن الكريم متجدِّدًا، فإنّه رحيم بعباده فلا يتركهم عند ذلك الحدّ؛ بل يُظْهِرُ لهم من الدّلائل المبثوثة بالكون ما يكفي للمُتأمِّل في النّظر والاستدلال(2)، مُتْبِعًا ذلك ببيان أنّ ذلك باهرٌ للعقل، ومُنبِّهٌ للأنظار على عظيم اقتدار صانعه وبديع اختياره، وأنّه آية كافية للاستدلال على الخالق العظيم(3).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿زَوۡجٖ﴾: (زوج) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، يُقال: لِفُلانٍ زوجان من الحمام؛ أيْ: ذكرٌ وأنثى؛ وزوجٌ من الثّياب؛ أيْ: لونٌ منها(4)، فالزَّوْجُ كلُّ شَيءٍ ثانٍ مع شيءٍ آخَرَ بينهما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنثى القرينةُ للرَّجُلِ بنكاحٍ زَوْجًا لأَنّها اقترنتْ به وصيَّرتْهُ ثانيًا، ويُسمَّى الرَّجُلُ زوجًا لها(5)، ويُطلَقُ الزَّوجُ على الصِّنْفِ مِنْ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 154، والشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10539.
(2) تفسير النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 11.
(4) الخليل، العين: (زوج).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 428.

نَوعٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [الرّعد: 3]، وممّا سبق يتبيَّن أنّ المقصود بالزَّوج في الآية: هو اسمٌ لِذاتٍ مُنْضَمَّة إلى غَيرها على وجه المُلازَمَة، والمُراد به النَّوع[1].

2) ﴿كَرِيمٍ﴾: (كرم) أَصْلُ الكَرَم: الجودُ وكَثْرَةُ الخَيْر، يُقال: كَرُمَ الرَّجُلُ: إذا جادَ وأَعْطَى دون انْتِظارِ مُقابِلٍ، والكَريمُ من كُلِّ شَيْءٍ: النَّفيسُ الفائِقُ في صِنْفِه[2]، والكَريمُ أيضًا: كَثيرُ الخَيْرِ حَميدُ الصِّفاتِ، وضِدُّ الكَرَم: البُخْلُ واللُّؤْمُ[3]، ومِن مَعانيه أيضًا: العَظَمَةُ، والنُّبْلُ، والفَضْلُ، والصَّفْحُ، والحُسْنُ، والسُّهولَةُ، والسّيادَةُ[4]، والمُرادُ بالكَريمِ في الآية: المحمودُ فيما تحتاج إليهِ فيهِ؛ أيْ: النَّفيسُ من نوعهِ[5].

3) ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: (أي) الهَمزَةُ والياءُ أَصْلٌ واحِدٌ، وأصلُ الآية العلامة الثّابتة من قولك: تأَيَّيْتُ بالمكان إذا أقمتَ به وثبتَّ فيه ومن ثَمَّ يُقالُ: لأجعلنَّك آيةً؛ أيْ: علامة[6]، وهي في القرآن على وجهَيْن: الأوَّل: العِبرة، كما في الآية: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]؛ أيْ: عِبرة يُعتبر بها، والثّاني: العلامة، قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرّوم: 22]؛ أيْ: ومن العلامات على رُبوبيَّته، والوجهان مُتقاربان يصلح استعمال أحدهما في موضع الآخر[7]، والآية هنا مُراد بها العِبرة على قُدرة الله تعالى في خَلْقِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنّهم أعرضوا عن الآيات المنزلة من عنده؛

الصُّنعُ الحَكيمُ في الأرض المُسخَّرة لا يَصدُرُ إلّا عن الخالق الحكيم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 128، و19/ 101.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كرم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كرم)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 101.
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أي).
(7) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.

ذكر أنَّهم أعرضوا عن الآيات الَّتي يشاهدونها في الآفاق؛ فقال: أولم يَرَ أولئك المُشرِكون إلى الأرضِ وكثرة ما فيها من أصناف النّبات المختلفة الأشكال والألوان، ممّا يدلُّ على باهر القُدرة وعظيم سلطان ذلك العليّ الكبير؟! إنَّ في إحيائها وإنباتها بعدَ مَوتِها لَدَلالةً على قُدرةِ اللّهِ على إحياءِ الموتى، وما أكثَرُ هؤلاء المُشرِكين بمؤمِنينَ باللّهِ تعالى وآياتِه، وإنَّ ربَّك يا محمَّدُ لهو القويُّ القاهِرُ المُنتَقِمُ مِن أعدائِه الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعِقابِه، ويقبَلُ تَوبةَ مَن آمَنَ به، ويُنَجّي أولياءَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) في سياق الآية:

عطـف الأدلّـة يُقيم الحُجَّة ويؤكّدها

عطف النَّظم الجليل الجملة في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾، والمقصود من هذا العطف إقامةُ الحُجَّة على المُعرِضين المُكذِّبين بأنّهم لا ينتفعون بالآيات؛ لأنّ المكابرة تصرفهم عن التّأمُّل فيها[2].

دلالةُ الاستفهامِ في سياق الآية:

عدمُ الانتفاعِ بالآياتِ الكونيَّة يستحقُّ الإنكارَ والتّوبيخَ

استعمل النّظمُ الجليل همزة الاستفهام في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ للإنكار والتّوبيخ؛ فقد أنكر عدم رؤيتهم تلك الآية؛ لأنّ دلالة الإنبات على الصّانع الواحد دلالة ظاهرة بيّنة لكلّ مَنْ يرى ذلك الإنبات، فلمّا لم ينتفعوا بذلك؛ كانت رؤيتهم كالمعدومة؛ فأنكر عليهم ذلك، والمقصود من هذا الإنكار: إنكارُ عدمِ استدلالهم به مع ظهوره[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 550، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 91، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 47، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 589.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 100.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 101.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَرَوۡاْ﴾:

النّظر التّأمُّليّ في الخَلْق يدلُّ على عَظَمَة الخالق

آثرَ النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لما فيه من دلالة على التَّجدُّد والدّوام؛ فالمراد من الرّؤية أن تكون نظرة تأمُّليَّة متتابعة؛ وليست نظرة عاجلة غير متريّثة؛ بل تَرْجِعُ البصرَ حينًا بعد حين[1]، وإنباتُ النَّبات حدثٌ يطولُ ويستغرقُ زمنًا، ورؤيته بتلك الحال تقتضي زمانًا مُتتابعًا من الرّؤية؛ فكان المضارع أنسبَ هنا.

دلالةُ التّعبير بشبه الجملة: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾:

آية إنبات الأرض ماثلة أمام المُنكرين متاحةٌ لنظرهم

علّق النّظم الجليل شبه الجملة بفعل الرُّؤية في قوله ﷻ: ﴿يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ للدّلالة على أنّ الأرض كائنةٌ بمَرْأى منهم، يُشاهدون عجائب آياتها، ومن ذلك إنبات النّبات؛ فالأرض وما فيها هي آية ظاهرة أمام أعينهم؛ فهم يروْنَها هامدةً جرداء مُقْفرةً، فإذا نزل عليها الماء ازدانت ببهيج النّبات ونافعه[2].

بلاغةُ المجاز العقليّ في ذِكْر الأرض:

رؤيةُ الأرض الّتي هي موطنُ الإنباتِ وعجائبه

عبّر النّظم الجليل بجعل الرّؤية حاصلة إلى الأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وذلك على طريقة المجاز العقليّ؛ إذ ليس المُراد رؤية الأرض لذاتها؛ بل لما حلّ فيها ويقع فيها من الإنبات والعجائب الّتي ترافقه؛ فذكر المحلَّ وأراد الحالَّ فيه.

دلالةُ موقعِ جملة كم الخبريّة:

كثرةُ الإنباتِ مفصحةٌ عن وجه الإنكار، عن انتفاء نظرهم إلى الأرض

فصَلَ النَّظْمُ الجليلُ الجملة في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ لأنّها مُستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، سيقت لبيان ما في الأرض من الآيات الباهرة الزّاجرة عن الكفر والإعراض[3]، فلمّا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5338.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10540.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 235.

أورد الإنكارَ عن عدم الرّؤية إلى الأرض؛ كأنّه قيل: ماذا يُنكر عليهم من عدم رؤيتهم إيّاه؟ فقيل: كم أنبتنا فيها، كثيرًا من النّباتات الّتي تنبت بعد أن كانت الأرض مواتًا.

معنى ﴿كَمۡ﴾ ودلالتُها في البيان المُحكَم:

قـدرةُ الخالق المُبدِع لا يُعجزها خلقٌ لكلّ رائعٍ

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿كَمۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ وهي هنا خبريّة[1] وهي اسم دالٌّ على الكثرة تستعمل للدّلالة على التّكثير في الخبر، والتّقديرُ: (أنبتنا في الأرض الكثيرَ من الأزواج النّافعة من النّباتات الرّائعة).

وجهُ تخصيصِ ذِكْرِ الإنبات دون غيره:

ذِكْـرُ الإنبات تذكيرٌ بصفتَي (القدرة) و(النّعمة)

خصّ النّظم الجليل ذِكْر الإنبات دون غيره في الإنكار على الكافرين في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وذلك لأنّ الإنبات مُختصّ بالدّلالة على قُدرة الخالق تعالى مع الدّلالة على النّعمة فيه[2]؛ فهو إيجازٌ ينطوي على صفتي الإنعام والقدرة.

دلالة ﴿مِن﴾ في السّياق الكريم:

جنسُ النّباتِ المُنبَتِ كائنٌ من الأزواج كلّها

عبّر النّظم الجليل بحرف الجَرِّ ﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ للدّلالة على البيان؛ فهي ﴿مِن﴾ البيانيّة التي تُبيِّن جنسَ الإنباتِ؛ أيْ: أنبتنا فيها من زوج؛ أيْ: شيئَيْن مُتقابلَيْن[3].

بلاغةُ الجمعِ بين الكثرة والشُّمول:

كثرةُ النّبات وكثرةُ أنواعه دليلٌ على قدرة الله وكماله

جمعَ النّظمُ الجليل بين لفظ ﴿كَمۡ﴾ الدّالّ على الكثرة، ولفظ ﴿كُلِّ﴾ الدّالّ على الشّمول في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ دون أن يقول: (كَم أَنْبَتْنا فيها مِنْ زَوْجٍ كَريم)؛ وذلك لأنّ ﴿كُلِّ﴾ يدلّ على الإحاطة بأزواج النّبات على سبيل التّفصيل،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 55.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 235.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5339.

و﴿كَمۡ﴾ تدلُّ على أنّ ذلك مُتكاثِرٌ مُفرِطُ الكثرة، وفائدتُه التَّنبيه على كمال قدرته تعالى(1).

علّة حذف تمييز ﴿كَمۡ﴾:

الحذف تعويلًا على الفهم من السّياق مفيدٌ في البيان

أوجز النَّظم الجليل بحذف تمييز ﴿كَمۡ﴾ الخبريّة في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وذلك لأنّه استُغْنيَ بذِكر الأزواج عنه، فقد عُلِم التّمييز من قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وفي هذا إيجازٌ بحذف بعض الكَلِم تعويلًا على فهمِه من السّياق(2).

عِلّة التّعبير بـ (الزّوج) دون (النّبات):

الزَّوج في الإنبات أكثر تفصيلًا وشمولًا من لفظ النّبات

آثر النّظم الجليل التّعبيرَ بلفظ الأزواج دون النَّباتات في قوله ﷻ: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ للدّلالة على سعة الأنواع؛ فهو ينصُّ على الشّمول والتّفصيل؛ فيدلّ على الأصناف والصّفات كلّها؛ فيشمل كلَّ زوجيْن متقابليْن في اللّون، أو الذّكورة والأنوثة، وغير ذلك من كلّ شيئيْن مُتقابليْن في الألوان والطُّعوم، فهو أكثر تفصيلًا ممّا لو قال: من النَّبات(3).

دلالة وصف الزَّوج بأنّه ﴿كَرِيمٍ﴾:

احتواءُ كلِّ نبتٍ على فائدةٍ جمّةٍ دالٌّ على أنّ الصَّنعة في القمّة

وصفَ النَّظم الجليل الزّوج بأنّه كريم في قوله ﷻ: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وذلك لاحتواء الفرد منها على فوائد جمّة وصفات ونِعَم كثيرة، فمعنى صفة الكريم أنّه كثير العطاء وكثير الخيرات(4)، كما أنّ في وصف النّبات بصفة الكرم في سياق الاستدلال يدلّ على الوفاء بالامتنان مع عدم فوات الاستدلال(5).

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 300،، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 101.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5339.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10542.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 101.

بلاغةُ إيجازِ القصرِ في السّياق:

حَشْدُ المعاني الكثيرة بلفظٍ يسيرٍ من معالم إعجاز القرآن

جاءتِ العبارة في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ على الغاية من الإيجاز؛ فكَثُرت المعاني على قلّة الألفاظ؛ فقد شملت هذه الجملةُ كلَّ المعاني الّتي يتضمَّنها الإنبات والزَّرع والغراس، وما تؤتيه من ثمار النّخيل والأعناب، وسائر الفواكه من كلِّ ما تشمله الألفاظ وتراه الأعين[1].

الموقع البيانيّ لجملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾:

إيراد الحجج الواضحة، آية ظاهرة مؤكّدة

فصَلَ النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا[2]؛ فهي مُساقَةٌ للجواب عن سؤال نشأ بعد سرد الآيات كأنّه قيل: هل في ذلك احتجاجٌ عليهم؟ فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾.

الغرضُ من تأكيدِ الخبرِ في السّياق:

تأكيدُ الخبر يُزيل إنكار السّامع وتوهُّمَه

أكّد النَّظم الجليل الخبر المُساقَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكّدة وبالجملة الاسميّة لأنّهم أنكروا تلك الأدلّة القائمة على توحيد الصّانع ﷻ، فجاء التّأكيد للرّدّ على ذلك الإنكار.

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

ظهرت الآيات واتّضحت، حتّى شخصَت فأشير إليها

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾، للإشارة إلى الأرض وما ذُكِر فيها من إنبات الأزواج، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة، وما تقدّم ذكره من آيات الكتاب المبين[3]، واسم الإشارة يدلّ على ظهور تلك الآيات، فهي شاخصة بحيث إنّها يشار إليها.

سِرُّ إيثار التّعبير باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعْد:

الأدلّة المُساقة ذات منزلةٍ رفيعةٍ في البيان

اختار النَّظمُ الكريم التّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البعد في

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5339.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 55.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 11.

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دون أن يقول: (إنّ في هذا لآية)؛ وذلك للإيذان بأنَّ أمرَ الإنباتِ وما في الأرض من آيات، وما في آيات الكتاب المبين من استدلالٍ على الحقِّ - ذو منزلة عالية في الفضل والعظمة(1).

دلالة (اللّام) في قوله ﴿لَآيَةً﴾:

اتِّصاف المذكورات بكونها آياتٍ أمرٌ مُؤكَّدٌ لا يُخالطه شَكٌّ

أدخل النّظمُ الجليل اللّام على الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، وهي اللّام التّوكيدية المُزَحلَقة من صدر الجملة إلى الخبر، للدّلالة على تأكيد مضمون الجملة، ومبالغة في شأن الآية وعظمتها، لأنّ مدلولها يُؤكّد على مضمونٍ هو - كما في (الهداية إلى بلوغ النّهاية) -: "إنَّ في إنباته النَّباتَ في الأرض لَدلالةً لهؤلاء المنكِرين للبعث على كونِ البعثِ، وأنّ القدرةَ الّتي أنبت اللّه بها في الأرض ذلك النّبات؛ لَيَقْدِرُ بها على نَشْر الموتى بعد مماتهم"(2).

دلالة التّعبير بلفظ ﴿لَآيَةً﴾ مفردةً:

كلُّ آيةٍ دالّةٌ على الحقِّ تكفي في الاستدلال بيقين

آثرَ النّظم الكريم التّعبير عن الحُجَجِ بلفظ الآية المفرد في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ لأنّ المذكورات علامات واضحة على ما استدلّ به؛ فهي آيات واضحة، وجيءَ بها مفردةً لإرادة الجنس، ولأنّها على كثرتها تشير إلى أنّ الحُجَجَ متساويةٌ في الدّلالة، فمَنْ صَدَقَ لمعرفة الحقِّ أَغْنَتْه واحدةٌ منها(3).

دلالة التّعبير بلفظ ﴿لَآيَةً﴾ نكرةً:

الآياتُ تعظمُ قدرًا لدلالتها على الخالق العظيم

اختار النّظم الكريم التّعبير عن الآية بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لما في التّنكير من دلالة على التّعظيم؛ فهي آيةٌ عظيمةٌ دالَّةٌ على كمالِ قُدرةِ مُنزِل الكتاب خالقِ الأرض وما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 235.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5280.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 11.

فيها من نبات، وهي بذلك موجِبةٌ للإيمانِ، دالَّةٌ على قبيح الإعراض عنها والكفر بها[1].

دلالة العطف بالواو في السّياق:

بيان أنّه مع كثرة الأدلّة لم يُؤمن إلّا قليلٌ من المُنكرين

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾، وذلك لبيان أنّهم مُصرِّون على الكفر، فمع كلّ تلك الأدلّة لم يؤمنوا إلّا القليل منهم[2].

دلالة التّعبير بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تسليط النَّفي على فعل الكون دالٌّ على الاستمرار

عبَّر النَّظْم الجليل عن انتفاء الإيمان عن أكثرهم بنفي فعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ فسلَّط النّفي على الفعل ﴿كَانَ﴾، ولم يقل: (وأَكْثَرُهُم لا يُؤْمِنونَ)؛ وذلك للدّلالة على الاستمرار، فقد استمرّ أكثرهم على غير الإيمان؛ لأنّهم لم تُدرِك عقولهم، ولم يتدبّروا ولم يتفكّروا[3].

دلالة نفي الإيمان عن (الأكثر) دون (الكلّ):

من النّاس مؤمن وكافر، ولكنّ أكثرهم لا يؤمنون

جعل النَّظْم الجليل نفي الإيمان واقعًا على أكثرهم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل: (وَما كانوا مُؤْمِنينَ)؛ وذلك لأنّ بعضهم يؤمنون حينئذٍ أو بعد حين[4]، لكنّ الغالب في كلّ العصور أنّ التّعامل مع الرِّسالات والهدايات تكون سلبيّة ذلك أنّ: "أكثر النّاس لا يلتفتون إليها، وإن التفتوا لا يروا شيئًا، وإن رأوا شيئًا أنكروه، وتأوّلوه تأويلًا فاسدًا، وهذا هو شأن هؤلاء العُتاة المُتكبِّرين المشركين"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 235.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10542.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5339.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 74.

بلاغة التّذييل في الآية الكريمة:

قدرة الله تعالى على العقاب والجزاء يقين لا مرية فيه

فصل النَّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّها مُستأنَفة[1] جيء بها تذييلًا للخبر السّابق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وذلك بوصف اللّه بالعزَّة تعبيرًا عن تمام قدرته بعقابهم ونصرة نبيِّه، وأنّه بسبب رحمته أمهلهم لعلّهم يؤمنون ويرشدون[2].

دلالةُ تواردِ المؤكّداتِ في الجملة:

حشدُ المؤكِّداتِ يُقرّر الخبر ويؤكّد مضمونه

أورد النَّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في غاية التّأكيد، فحشد المؤكّدات من كونها جملة اسميّة وافتتاحها بـ (إنّ) المؤكّدة، والمجيء بلام التّأكيد وضمير الفصل؛ وذلك لتقوية الخبر وتقريره.

إيثار التّعبير بلفظ ﴿رَبَّكَ﴾:

الرَّبُّ الّذي سبق منه الإحسان قادرٌ على نُصرة نبيّه ضدّ الكفران

آثر النّظم الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضمير المخاطب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارةً إلى معاني الحفظ والإحسان السّابق بالإرسال وتحقيق الرّعاية والقيام على الحياة[3]، فمَنْ فعل ذلك هو العزيز القادر على نصرتك، فلا يخذلك الآن وقد سبق إحسانه إليك، كما أنّ في خطابه ﷺ مزيدًا من الرّعاية والتّسلية التي سيقت الآيات لتحقيقها.

دلالةُ اجتماعِ (العزّة) و(الرّحمة):

اللهُ رحيمٌ يبعثُ البيِّناتِ قبل إنزال العقوبات

جمعَ النّظمُ الجليل بين صفتي العزّة والرّحمة في الفاصلة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للدّلالة على كمال القدرة وكمال الرّحمة؛ فإنّه قادرٌ على عقوبتهم؛ لأنّه عزيز

(1) عبدالله علوان وآخرون، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1609.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5339.

مقتدر، ومن رحمته بهم أنّه أرسل إليهم البيّنات والدّلائل ليتفكّروا ويعتبروا[1]، كما أنّ من رحمته وقدرته نَصْرَ أنبيائه، فيكون الجمع بينهما مناسبًا على وجه الكمال لسياق تسلية النّبيّ ﷺ.

نكتةُ التَّرتيب في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الآيـةُ القـاهـرةُ تُناسب العِزَّة، والـرَّحـمـةُ الظّاهرة تفخيمٌ لها

قدَّم النَّظم الجليل صفةَ العزّة على صفة الرّحمة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّه أنسب للسّياق؛ حيث قدّم ذِكر الآية القاهرة التي تُسبِّب إيمانهم جبرًا، فلمّا كان السّياق كذلك؛ قدّم ما يُناسبه من الوصف وهو صفة العزّة الدّالّة على القدرة؛ أيّ إنَّه قادرٌ على عقوبتهم بسبب إعراضهم[2]، كما أنّ تأخير الرَّحمة عن صفة العزَّة فيه تفخيم لشأن الرّحمة؛ وذلك لأنَّ الرّحمة الصّادرة عن القدرة هي أعظم موقعًا وأدلُّ على اللُّطف بالعباد[3].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 12.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 265.

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾ [الشّعراء: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبلَهُما:

ربط التّذكير بالآياتِ ببيانِ قصّةِ تكليفِ موسى بإبلاغِ قومِ فرعون

بعد أن ختم النَّظم الجليل الآية السّابقة بصفتَيْن للّه ﷻ؛ وصفه بالعزّة؛ فهو القويّ الّذي لا يُغلب، وبالرّحمة فقد وسِعت رحمتُه كلّ شيء، ويرحم عباده المؤمنين - شرع بذِكْر قصّة موسى عليه السلام، وهي تكليفه بمواجهة فرعون وقومه، فصفة العزيز تدلّ على أنّه سينصر رسله على أعدائهم، والرَّحمة على أنّه سيغفر لهم ويحفظهم، فرَبَطَ السّياق تلك الصِّفتيْن، بمهمّة الرّسل عليهم السلام، فتذكِّرُهم بقدرة اللّه ورحمته وسَنَدِه لهم، وحِفْظِهم من كيد أعدائهم؛ فهي قصّة مقرِّرة لما قبلها(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَادَىٰ﴾: (ندا): الأصل في النِّداء: الجَهْرُ بالصَّوتِ والصّياحُ به، ومنه سُمّيَ دُعاءُ الشَّخصِ شخصًا ليُقبِلَ إليه نداءً؛ لأَنَّ من شَأْنِه أَنْ يَرفَعَ الصَّوتَ به؛ ولذلكَ جعلوا له حُروفًا ممدودةً؛ مثل: (يا) و (آ) و (أَيا) و(هَيا)(2)، ونَدَى الصَّوت بُعْدُ مَذهَبِه، وفُلانٌ أَنْدى صوتًا من فلان؛ أَيْ: أَبْعَدُ مَذهبًا وأَرفَعُ صَوتًا(3)، ونادَيْتُه ونادَيْتُ بِه مُناداةً ونِداءً: صاحَ بِهِ(4)، والنداء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ هو رفْعُ الصَّوت وظُهورُهُ(5).

2) ﴿ٱئۡتِ﴾: الإتْيانُ: هو المَجيء بِسهولَةٍ؛ فهو أخَصُّ من

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 157.
(2) الرّاغب، المُفردات، والسمين، عُمدة الحُفَّاظ: (ندا)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 199.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (ندا).
(4) ابن سيدَه، المُحكَم، والزّبيدي، تاج العروس: (ندا).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (ندا).

المَجيءِ، يُقال: أَتَيْتُهُ إِتْيانًا؛ أيْ: جِئْتُهُ، وأتاهُ أَتْيًا وإِتْيانًا: إذا صارَ إلَيْه، والإِتْيانُ يُقال لِلمَجيءِ بالذّاتِ وبالأَمرِ والتَّدْبيرِ وفي الخَيْرِ والشَّرِّ[1]، والمقصودُ بالإتيانِ: حُضورُ الذّاتِ في مَوضِع من مَوْضِعٍ آخَرَ، أمّا الإتيان المأمور به موسى عليه السلام؛ فهو ذهابه لِتبليغِ الرِّسالةِ إلى قوم فرعون[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسالُ الرُّسُلِ دَليلٌ على فضْلِ اللهِ تعالى على الخَلْقِ وعنايتِهِ بهم

يحكي اللّهُ تعالى جانبًا مِن قصّةِ موسى عليه السلام، فيقولُ: واذكُرْ يا محمَّدُ وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام من جانب الطّور الأيمن، وأمرَه له بالذّهاب إلى أولئك القوم الظّالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي، والظّالمين لبني إسرائيل باستعبادِهم واضْطِهادِهم وسَومِهم سوءَ العَذابِ قَومِ فِرعونَ القِبْط؛ فقُلْ لهم: ألا تتَّقونَ اللّهَ وتخافونَ عِقابَه فتُؤمِنوا به وتَتركوا ظُلْمَ عِبادِه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) الاستئنافيّة في صدر الآية:

قصّة موسى للتّقرير والتّحذير من سوء عاقبة الكفر الخطير

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالواو الاستئنافيّة؛ فالجملة مُستأنَفَة سيقت لتقرير ما قبلها من ذِكر الإعراض عن الإيمان والتّكذيب بالدّعوة والاستهزاء بالدّين والنّبيّ صلى الله عليه وسلم[4]، مُتضمِّنةً التّحذير لهم من عواقب ذلك، بأن يصيبهم ما أصاب الأقوامَ الآتي ذِكْرُهم بسبب تكذيبهم الرُّسل.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أتي)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 284، و19/ 104.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 552، والواحديّ، الوجيز، ص: 787، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 322، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 49.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 235.

خاطبَ اللهُ تعالى موسى بلا واسطةٍ وكلَّمه تكليمًا

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿نَادَىٰ﴾ دون (أَوْحَى):

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ النّداء دون الوحي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (وَإِذْ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى موسَى)؛ للدّلالة على أنّه قد سمع خطاب اللّه تعالى بلا واسطةٍ من مَلَكٍ أو غيره[1].

اللهُ المُتفضِّلُ بالنُّبوَّة هو منجي موسى بعد مواجهة الظّالمين

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيّةِ:

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارةً إلى إحسان اللّه تعالى على الرُّسل، وأنّه كما أحسن إلى الرُّسل قبلك بالنُّبوَّة؛ فهو كذلك أحسن إليك بها، وأنّ نَصْرَه لهم على قومِهم ماضٍ مستمرٌّ مع كلِّ الرُّسل وأنت منهم.

بيانُ مضمون نداءِ اللهِ تعالى لموسى

الموقعُ البيانيُّ للجملة: ﴿أَنِ ٱئۡتِ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بالجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تفسيرًا لمضمون الجملة السّابقة؛ فقد تضمَّنت لفظ النّداء، وهو دالٌّ على الخطاب والقول؛ فجيء بهذه الجملة مُفتتَحة بحرف التّفسير لتُبيِّن وتُفسِّر بماذا ناداه اللّه تعالى[2].

الأمرُ بالإتيانِ يُخفِّفُ التَّكليفَ ويدعو للبذلِ

سِرُّ إيثار لفظ ﴿ٱئۡتِ﴾ على (اذْهَبْ):

آثر النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ عن الأمر بالإتيان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون الذّهاب؛ وذلك لأنّ الإتيان يدلّ على سهولة المجيء، فآثر التّعبير به تخفيفًا على موسى عليه السلام من شدّة الأمر والتّكليف بالذّهاب إلى ذلك الطّاغية المُخيف.

قومُ فرعون ظَلَمَةٌ أولو بأسٍ شديدٍ

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل عن جماعة فرعون بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ في قوله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 103.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5342.

جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وذلك للدّلالة على شدَّة بأسهم وقوّتهم[1]، فإنَّ لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ يدلُّ على الجماعة الذين يقومون قَوْمَةً واحدة عند داعي الخَطَرِ.

عِلَّةُ الاقتصارِ على القومِ دون ذِكْرِ فرعون:

دأبَ قومُ فرعونَ على موافقته؛ فاشتُهروا بالظُّلم

اقتصر النَّظمُ الجليل بأمر موسى عليه السلام بالتّوجُّه إلى قوم فرعون في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون ذِكْر فرعون؛ كأن يُقال: (فرعون وقومه)؛ فاقتصر على القوم للإيذان بشُهرة أنّ القومَ ظالمونَ مُتَواطِئونَ مع فرعون على ظُلْمِهِ وغيِّه، حتّى كأنَّ شأنهم واحدٌ[2].

عِلَّة وصفِ القومِ بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

صفةُ الظُّلم تُبيِّن الغَرَضَ الأساسَ من الرِّسالةِ

وصفُ النَّظْم الجليل القومَ بأنّهم ظالمونَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى علَّة الإرسال، كما أنَّ فيه توجيهًا خفيًّا لموسى عليه السلام لإثارة غضبه عليهم وتشويقه لمواجهتهم بردْعِهم عن الظُّلم؛ فينضمّ داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثالِ أمرِ اللّهِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم اشتُهروا بالظُّلم[3].

دلالةُ جملةِ: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾:

قومُ فرعونَ المذكورون هم القوم الظّالمون

أبدلَ النَّظمُ الجليل من ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قوله جلَّ شأنه: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾، والإبدال جيء به للبيان، فكأنّه قيل: أيّ قوم هؤلاء؟ قال: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾، وذلك للإشارة إلى أنّ العبارتَيْن تؤدّيان المعنى ذاته؛ لأنَّهم عريقون في الظُّلم[4]، وأفاد هذا البدل تعيين المُراد بالقوم الظّالمين.

دلالة إضافة ﴿قَوۡمَ﴾ إلى ﴿فِرۡعَوۡنَۚ﴾:

وافق القومُ فرعونَ حتّى انتسبوا إليه

أضاف النّظم الجليل لفظ ﴿قَوۡمَ﴾ إلى فرعون في قوله جلّ شأنه:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 15.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 103 - 104.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 15.

﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، وذلك لمزيد البيان ولتعيينهم، والإشارة إلى أنّهم يَقبلون ما يقول بلا تعقُّلٍ ولا تَرَوٍّ، ويُتابعونه على فعله وظلمه الفاحش.

المتَشابه اللّفظي بين آيتي الشّعراء (10 - 11)، وطه (11 - 12):

الفـرقُ في الإجـمـال والتَّفصيل حيث يقتضي السّياقُ هذا دون ذاك

عَدَلَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ عن ذِكر الآيات المذكورة في بدء قصَّة موسى كما في سورة طه، حيث قال ﷻ: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: 11 - 12]، إلى قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣﴾ [طه: 22 - 23]؛ وذلك لأنّ السّياق في سورة الشّعراء يقتضي الاقتصارَ على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتّعاظ بعاقبتهم دون التّفصيل في الآيات التي جرت على يد موسى ﵇، وأمّا سياق سورة طه فهو لبيان كرامة موسى وتفصيل الآيات التي جاء بها(1).

دلالة فصل جملة: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾:

انتفاءُ التَّقوى مع طولِ الإمهالِ أمرٌ يُثيرُ العَجَبَ

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ لأنّها مُستأنَفَة لتعجيب موسى من حالهم؛ وبيانًا للمقصود من الإرسال إليهم بتخويفهم من جلال الله تعالى وإعلامهم بعظيم سلطانه، فاستأنف للإنكار عليهم مع الإيذان بشديد الغضب عليهم والتّعجيب من حالهم، والإشارة إلى أنّه قد طال إمهاله تعالى لهم(2).

معنى الأداة ﴿أَلَا﴾ ودلالة التّعبير بها:

السِّياقُ دالٌّ على انتفاء تقواهم وتعجيب موسى من ذلك

افتتح النّظم الجليل الجملة بـ ﴿أَلَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، وقد أجاز أئمّة التّفسير أن تكون كلمة واحدة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 104.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 15.

وهي ﴿أَلَا﴾ الدّالّة على العرض والتّحضيض، والمُراد حثّهم على التّقوى[1]، ويجوز أن تكون مُركّبةً من همزة الاستفهام الدّالّة على الإنكار و(لا) النّافية؛ فأنكر انتفاء تقواهم وعجب موسى من ذلك[2].

دلالةُ حذفِ مُتعلّق ﴿يَتَّقُونَ﴾:

حذفُ المعلومِ من السّياقِ يوجِزُ التّعبيرَ

حذَفَ النَّظم الجليل مُتعلِّق فعل التّقوى في قوله جلّ شأنه: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، وذلك طلبًا للإيجاز؛ فحذف تعويلًا على العلم بالمحذوف من السّياق، والتّقدير: (ألا يتّقون عواقب ظلمهم)[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والآل:

الآلُ أخصُّ من القوم فهم الأقارب والأنصار، والقوم جماعة النّاس

الفرقُ بين قوم الرَّجل وآل الرَّجل أنَّ القوم يدلُّ على جَماعَةِ ناسٍ[4]، وهم الرّجال دون النّساء[5]؛ فيشمل جميع الرِّجال من قومه عامّة، أمّا الآل فهو معنى أَهل البيت والحاضرين من أَهل القوت والنَّفَقَة، ولا يستعمل الآل إلا فيما شَرُف، لا يقال: آل الإسكاف[6]؛ فآلُ الرَّجل: هم أهله وعياله، يقول تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقد يُتوسَّع فيه فيشمل الأعوانَ والأنصارَ أو الجنود[7].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الآل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (أول).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشُّعراء: 12 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بـعـدَ الأمـرِ بالدّعوةِ، بيانُ موقف الدّاعي من التّكليف ومخاوف المواجهة

لمّا بيّن النَّظم الجليل أنَّ الله تعالى نادى موسى عليه السلام آمرًا إيّاه بالتَّوجُّه إلى فرعون وقومه؛ حكى في هذه الآية ما أجاب به موسى وما أبداه عن هواجس نفسه تجاه هذا الأمر، فبعد أن ذَكَرَ القوم الّذين أُرسل إليهم؛ بيّن موقف موسى منهم ومعرفته بهم[1]؛ فقد قال موسى: يا ربِّ إنَّني أخافُ أن تُنبَذ رسالتي كِبْرًا وعنادًا، ويمتلئ صدري غمًّا جرّاء التَّكذيب، ولا ينطلق لساني في مُحاجَّتِهم كي أُبلِّغهم مطلوبَ الله منهم، فأرسِلْ معي أخي هارون ليؤازرني في أمري، وقد قتلت رجلًا منهم؛ فأخاف أن يقتَّصّوا منّي قبل أداء مُهمَّتي، ويزيدني ذلك خوفًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَضِيقُ﴾: (ضيق) أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف السَّعَةِ[3]، ويُقال: الضَّيْقُ أيضًا، والضَّيِّقَةُ، يُستَعمل في الفَقر والبُخل والغمّ ونحو ذلك، ويُقال في الفقر: ضاقَ، وأَضاقَ فهو مُضيقٌ، واستعمال ذلك فيه كاستعمال الوُسْع في ضدِّه[4]، ويُقال: ضاقَتْ حيلتُه وضاق بِالأَمر وضاق بِهِ ذَرْعًا، وضاق صَدره بِهِ: تألَّمَ أو ضجر منه أو شقَّ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10547.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 543.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيق).

(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ضيق).

عليه وعجز عنه[1]، والمقصود بالضّيقِ في الآية: ضِدُّ السَّعَةِ، وهو مُستعارٌ للغضَبِ والغَمِّ وانقباضِ الصَّدْرِ.

2) ﴿يَنطَلِقُ﴾: (طلق) أصلٌ يدلُّ على التَّخليةِ والإرسالِ، يُقالُ: انطلقَ الرَّجُلُ ينطلقُ انطلاقًا، ثُمَّ تَرجِعُ الفُروعُ إليه[2]، ورَجُلٌ طَلْقُ اللِّسانِ، وطُلُقٌ وطُلَقٌ وطَليق: فصيح، وقَدْ طَلُق طُلوقةً وطُلوقًا، وفيه أَربع لُغاتٍ: لسانٌ طَلْقٌ ذَلْقٌ، وطَليق ذَليق، وطُلُقٌ ذُلُقٌ، وطُلَقٌ ذُلَقٌ[3]، واستُعير الانطلاق في الآية لفصاحةِ اللِّسانِ وبيانِهِ في الكلامِ؛ أيْ: ينحبِسُ لساني فلا يُبينُ عند إرادةِ المُحاجَّةِ والاستدلالِ[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

احتماء موسى في ضعفه بربّه أخذًا بالأسباب، وتقديرًا للمخاطر

قال موسى عليه السلام: ربِّ إني أخاف تكذيبهم إيّاي؛ فيضيق صدري تأثُّرًا منه، ويَنحَبِسُ لساني عندَ مُخاطَبةِ فِرعَونَ، فلا أستطيعُ أن أُبينَ له ما أرسَلْتَني به؛ بل يتلجلجُ بسبب ذلك، كما يُرى أن كثيرًا من ذوي اللِّسْنِ والبلاغة إذا اشتدَّ بهم الغَمُّ وضاق منهم الصَّدر تلجلَجت ألسنتُهم حتَّى لا تكاد تُبِين عن مقصدهم، فأوحِ - يا رَبِّ - إلى أخي هارونَ؛ ليَكونَ رَسولًا معي فيُعينَني، ولِقَومِ فِرعَونَ دَعوى ذنْبٍ يَطلُبونَني بها؛ لِقَتْلي منهم رجُلًا؛ فأخشَى أن يقتُلوني به[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

إجابةُ القولِ بقولٍ مُستأنَفٍ من بلاغة السّياق

فصَلَ النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا وقع جوابًا في

(1) مجمع اللّغة العربيَّة، المعجم الوسيط: (ضاق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طلق).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 106.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 553، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 137، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 50.

المحاورة؛ فأغنى ارتباط التَّحاور بردّ الجواب للقول السّابق، عن الرّبط بالعطف، وقد جيء بالجملة إجابةً عن سؤالٍ أثاره التّكليف بالدّعوة، فكأنّه قيل: فماذا قال موسى؟ فقيل: قال موسى تضرُّعًا إلى الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فعبّر عن معرفته بشأنهم وما سيؤول إليه أمر الدّعوة(1).

سِرُّ الجوابِ بنداء الرَّبِّ مُضافًا للضّمير:

استحضارُ سابقِ نعمةِ الرَّبِّ اعترافٌ بوجوب الاستسلام له

حكى النّظم الجليل جواب موسى عليه السلام على ربه جل جلاله، وقد آثر التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ استحضارًا لسابق إحسانه، واعترافًا بإنعامه، كما أنّ الإضافة إلى ضمير المُتكلِّم، تَدلُّ على الاستسلام وطلب الرّفق والحنان، وفيه دلالة على الاستشعار بأنّه في كَلاءَته وحفظه سبحانه وتعالى(2).

دلالةُ تأكيدِ الجملةِ المؤكَّدةِ:

معرفةُ حالِ المدعوّين، حرصٌ على الدّعوة لربِّ العالمين

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بحرف التّأكيد (إنّ)؛ لأنّ موسى عليه السلام موقنٌ بأنّ القوم مُستكبرون عن الحقّ، فخوفه من عدم تحقيق الدّعوة لثمارها أمرٌ مُؤكَّد لا يشوبه شكٌّ، فأكّده تقويةً للخبر، لذلك قال لربّه: "إنّي من شدّة ضعفي وانفرادي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبونِ، ولا يقبلون مِنّي دعوتي ولا يلتفتون إليّ، وبذلك يَضيقُ صَدْري ويَكِلُّ خاطري عن تبليغ ما أمرتني"(3)، وهذه المناجاة بعوارف الرّبوبيّة، والاعتراف بمظاهر الضّعف، أمام جبروت فرعون وقومه؛ طَرْقٌ لبابِ الرّجاء، واحْتِماءٌ بجلال الرّبوبيّة الحانية التي مَن احتمى بها نجا.

سِرُّ إيثار التّعبير عن الخوف:

توقُّع المكروه من المُنكرين أمرٌ لا مَفَرَّ منه في كلّ حين

آثر النّظم الكريم التّعبير بالخوف في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 159.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5343.
(3) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 39.

﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾، تعبيرًا عن توقّعه ذلك لما يعلم من شأنهم، وجيء به فعلًا مضارعًا للدّلالة على أنّه خوف مُستمرٌّ مُتجدِّد.

دلالةُ تقييد الخوف بالتَّكذيب:

الحرصُ على سُموِّ الغاية يُخيف النُّفوس السّامية من الفشل

جعل النَّظمُ الجليلُ الخوفَ واقعًا على التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لأنّ موسى عليه السلام خاف تكذيبهم لما يعلم من أنّ هذه الدّعوة لا يتلقّاها هؤلاء القوم إلّا بالتَّكذيب، فعبَّر عن خوفه من ذلك؛ لأنَّه لمّا شُرِّف بتحمُّل الرّسالة من الله تعالى - وكان حريصًا على إنجاز ما يكلّف به كما عهد منه ذلك مع شعيب عليه السلام - خاف عدم نجاح رسالته مع هؤلاء القوم.

سرّ إيثار التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

الإصرارُ على الكُفر يؤدّي إلى تجدُّد التَّكذيب واحتدام الصّراع

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المُؤوَّل من أنّ والفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لما فيه من دلالة على الزّمن لا يتوفّر عليها المصدر الصّريح، فيما لو قال: (أخاف تكذيبهم)؛ فالفعل المضارع دلَّ على تجدُّد تكذيبهم؛ فالمَخوفُ ليس مُطلَقَ التّكذيب؛ بل إنّه علم أنّهم يُجدِّدون كفرهم؛ لأنّهم قومٌ مُصرّون على ضلالهم.

بلاغةُ حذفِ المفعول به في الفاصلة:

حذف المعلوم يخفّف الملفوظ ويوجز التّعبير

حَذَفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ فحذف الضّمير المنصوب - وهو ياء المتكلّم - والتّقدير: (أن يكذّبوني)؛ وذلك للتَّخفيف والاختصار، واكتفاءً بدلالة الكسرة على الياء، كما أنّ فيه مراعاةً للفاصلة القرآنية؛ فيكون نسق الفاصلة واحدًا.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَيَضِيقُ﴾:

ضيقُ الصّدر مُؤكّدٌ كتأكُّد الخوف من تكذيبهم

عَطَف النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ على الجملة الفعليّة المُصدّرة بفعل الخوف، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ

﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وذلك لأنّ ضيقَ صدره منهم وغَضَبَه عليهم مُؤكَّد مُتيقَّن؛ فعَطْفُه على خوفه المُؤكّد[1] تعبيرٌ عن تحقّق غضبه وانفعاله من تعنُّتهم.

بلاغةُ الاستعارةِ بالتَّعبيرِ بالضّيقِ:

الـغـضـبُ من تـكـذيـب الـحـقِّ كـضيقِ الـصّـدر عن التّنفّس

عبّر النّظم الجليل بلفظ الضّيق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ استعارة عن الغضب والكَمَدِ؛ فالضّيق ضدّ السّعة؛ فشبَّه انفعاله وغضبه بصدرٍ ضيّقٍ؛ لأنّ مَنْ يعتريه ذلك يحصل له انفعال، وينشأ عنه انضغاطُ الأعصاب في الصَّدر والقلْب، وذلك تعبيرًا عن الأسف والكمد، لتكذيبهم إيّاه، مع أنّه يبتغي إقناعهم بصدقه[2]؛ فالاستعارة تصريحيّةٌ للتّصريح بالمُشبَّه به.

دلالة الواو في: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾:

حبسة اللّسان عـن الإبـانـة من مُعوّقات التّبليغ الدّعويّ

عطف النّظم الجليل قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ على الخوف في الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[3]، فإنّ انحباس لسانه أمرٌ مؤكّد عنده كتأكّد خوفه من تكذيبهم، وذلك لأنّ لديه حُبْسَةً في لسانه عليه السلام، فهو يخاف من عجزه عن البلاغ المثاليّ لدعوته، خصوصًا وأنّه من أولي العزم من الرّسل، وأنّ الأنبياء تتوقُ أنفسهم للكمال عادة، فهو يعبّر عن حاله في المواجهة بالبلاغ مخافة ألّا يجري لِسانه على البيان والتّفهيم بسبب وجود اللُّكْنَةِ الجِبِلّيَّةِ في لسانه منذ الصِّغَر، وهو ما يجعل تخوّفه مُبرَّرًا؛ فيضرع إلى اللّه كي يرسل معه أخاه.

بلاغة الاستعارة في انطلاق اللّسان:

حُبْسَةُ اللّسانِ عـن الإفـصـاح الـمُـسـدَّد كـانـحـبـاس الـجـواد حين يُقيَّد

استعار النّظم الجليل لفظ الانطلاق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لفصاحة اللّسان والبيان،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 106.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 179.

وحقيقة الانطلاق الإرسال، وعدم الحبس، فشبّه اللّسان الفصيح القادر على التّعبير عمّا يريد ويُبين عن مكنون صاحبه بما يُطْلَق مرسَلًا قادرًا على فعل ما يريد، ونفي الانطلاق يدلّ على نفي الفصاحة والبيان؛ أيْ: ينحبس لساني فلا يُبين عند إرادة المُحاجَّة والاستدلال[1]؛ فالاستعارة مَكنيَّةٌ حيث حُذف المشبّه به وهو الشّيء المُرسَل؛ وأبقى لازمة من لوازمه؛ وهو الانطلاق.

توجيه القراءات في: ﴿وَيَضِيقُ﴾، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ وبلاغتها:

اختلاف الزمانين دافعٌ للتناقض الواقع بين القراءتين

قرأ يعقوب ﴿وَيَضِيقَ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقَ لِسَانِي﴾ بالنصب، وقرأ سائر القراء بالرفع، فمن رفع ردَّه على ﴿أَخَافُ﴾، فرفع بعده: ﴿وَيَضِيقُ﴾، وفيه وجهان: **أحدُهما**: أنه مستأنفٌ، أخبر بذلك، **والثاني**: أنه معطوفٌ على خبر (إنَّ)، ومن فتح الحرفين عطفهما على قوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾: (وأنْ يَضِيقَ)، (وأنْ لَا يَنْطِلقَ لِسَانِي)، كلها داخلة في حَيِّز الخوف.

قال الزمخشري: "والفرقُ بينهما - أي الرفع والنصب -: أنّ الرفعَ فيه يُفيد أنّ فيه ثلاثَ عللٍ: خوفَ التكذيبِ، وضيق الصدر، وامتناعَ انطلاقِ اللسانِ، والنصبُ على أنَّ خَوْفَه متعلقٌ بهذه الثلاثة، فإنْ قلتَ: في النصبِ تعليقُ الخوفِ بالأمور الثلاثةِ، وفي جُملتها نفيُ انطلاقِ اللسانِ، وحقيقةُ الخوف إنما هي غَمٌّ يَلْحَقُ الإنسانَ لأمرٍ سيقعُ، وذلك كان واقعًا، فكيف جازَ تعليقُ الخوفِ به؟ قلت: قد عَلَّقَ الخوفَ بتكذيبهم، وبما يَحْصُل له بسببِه من ضيقِ الصدرِ، والحَبْسَةُ في اللسانِ زائدةٌ على ما كان به، على أن تلك الحَبْسَةَ التي كانَتْ به زالَتْ بدعوتِه، وقيل: بَقِيَتْ منها بقيةٌ يسيرةٌ، فإنْ قلت: اعتذارُك هذا يَرُدُّه الرفعُ؛ لأن المعنى: إني خائفٌ ضَيِّقُ الصدرِ غيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 106.

منطلقِ اللسانِ، قلت: يجوز أن يكونَ هذا قبلَ الدعوةِ واستجابتِها، ويجوز أَنْ يريدَ القَدْرَ اليسيرَ الذي بقي"[1]، فقراءة الرفع مبنيةٌ على أن هذه القول كائنٌ قبل أن يقول: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: 27]، وقراءة النصب على أنه بعده، فاختلاف الزمانين دافعٌ للتناقض الواقع بين القراءتين.

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

الأعذارُ المُقدَّمة توطئةٌ لالتماس موسى مشاركة هارون

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ بالفاء الدّالّة على السّببيّة، فسبب الاعتذار المُقدّم، وعدم المبادرة إلى الذّهاب عند حصول الأمر، أنّي أسألك يا ربّي أن تُكلّف هارون معي بالرّسالة[2]، فالاعتذار عن المبادرة بامتثال الأمر ليس تقصيرًا أو تنصُّلًا من التّكليف؛ بل هو مُغيًّا بغاية سامية؛ وهي إشراك أخيه ومعاونه في شأن الرّسالة، وتعبيرٌ عن حرصه في إنجاح الدّعوة.

سرُّ إيثار ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ على طلب (التّكليم):

التّكليم أعلى شأنًا من الإرسال، وهو خصوصيّة من الله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الإرسال في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ دون التّكليم كما كرّم اللّه تعالى موسى به، فلم يسأل موسى ربّه أن يكلّم هارون؛ لأنّ مقامَ التَّكليم منزلةٌ اللّه تعالى يختار لها مَن يشاء، وإنّ مقام المناجاة أعلى من مقام مُطلق الإرسال[3]، ومن تمام الأدب الرّفيع ألّا يُسألَ اللّهُ تعالى ذلك.

دلالة التّعبير بحرف الغاية ﴿إِلَىٰ﴾:

طلبُ المَدَد بأخيه دليلٌ على ثِقَل الحِمل عليه

آثر النّظم الكريم تعدية الإرسال بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ دون أن يُقال: (فأرسل هارون)؛ وذلك

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 224، والزمخشري، الكشّاف: 3/ 302، وابن الجزري، النشر: 2/ 335، والسمين، الدرُّ المصون: 8/ 514.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 107.

للدّلالة على أنّ الغاية والنّهاية أن يكون التّكليف بالغًا هارون[1]، والمعنى: "فأرسل جبريل إلى أخي هارون، ليكون رسولًا مصاحبًا لي في دعوة فرعون وقومه، وكان هارون إذ ذاك بمصر، وموسى في المناجاة في الطّور"[2].

دلالة جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾:

خوفُ القتل قبل الدّعوة جديرٌ باستنصار صاحب القوّة

عبّر النّظم الجليل بالجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ للتّعريض بطلب النّصر والتّأييد، وأن يحفظه ويكفيه من شرورهم وكيدهم، فإنّ ما يشغل باله ليس الكلام والحبسة عنه؛ بل هناك سبب آخر يضطرُّه لطلب العون والنَّصر، وهو أنّه قتل منهم واحدًا عن غير قصد، وقد حكى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: 15]؛ أيْ: فأخاف أنْ يقتلوني به[3]، فخاف أن يقتلوه قبل أن يُبلِّغهم الرّسالة.

دلالة شبه الجملة: ﴿وَلَهُمۡ﴾ و﴿عَلَيَّ﴾:

ثبوتُ حقِّ الدَّم السّابق يوجب طلبَ النّصر والحماية

عبَّر النّظم الجليل بشبه الجُملتيْن في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ للدّلالة على الاعتراف باستحقاقهم ما نتج عن ذلك؛ فشِبْه الجملة في: ﴿وَلَهُمۡ﴾ تدلّ على الاستحقاق، وشبه الجملة ﴿عَلَيَّ﴾ تدلّ على أنّه في ذمّته لهم[4]، وحرف الاستعلاء (على) يدلّ على تمكّن ذلك الحقّ منه؛ لأنّ الفعل قد وقع - وإن لم يكن عن قصد - وعدم القصد لا يُسقِط حقَّ المتضرِّر.

بلاغة الإيجاز في لفظ ﴿ذَنۢبٞ﴾:

المُستَحقُّ لهم تبعةُ الذّنب بالقَوَدِ لا الذّنب ذاته

أوجز النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ بحذف المُضاف وإقامة المُضاف إليه مقامه، والتّقدير: (تبِعة ذنبٍ)،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5343.
(2) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 144.
(3) الشعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10549.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 160.

والمُراد بالذَّنب قتل القبطيِّ كما سيجيء تفصيله في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: 15]؛ فذكر ذلك لأنَّه يمكن أن يُقتل قبل أداء الرّسالة(1).

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَأَخَافُ﴾:

المـــوت قـضـاء وقـــدر، وإنّـمـا الـخـــوف مـمّـا يُصيب الرّسالة من ضررٍ

افتتح النّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ بالفاء الدّالّة على السّببيّة؛ أيْ: بسبب ذلك الذّنب، مع ما أضمّه إليه من التّعرّض لهم، فأخشى أن يقتلون فلا أتمكّن من تبليغ الدّعوة(2).

دلالة التّعبير بفعل ﴿فَأَخَافُ﴾:

مشاعرُ الأنبياء مُتعلّقة بالدّعوة لا أن تـكـون نفسه بنَجْوَةٍ

عبّر النّظم الجليل بلفظ الخوف في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾، وليس المراد منه الخوف الناتج عن الهَلَع والفَرَقِ من الموت، ولكنّه خشي من العائق عن إتمام الدّعوة، ووقوع القتل قبل إنفاذها، فإنّه لمّا أصبح في مقام الرّسالة لم يكن ليُبالي أن يموت في سبيل اللّه(3).

دلالة المصدر المُؤوَّل دون الصَّريح:

وقـــوعُ القـتـل أمـــرٌ مـشـهـودٌ ولكنّه خطأٌ غير مقصودٍ

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المُؤوَّل دون المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾؛ لأنّه لم يكن يخاف القتل عمومًا؛ بل كان يخشى من إيقاع القتل به من قِبَلِ القِبْط لوجود العلّة الحاصلة في أذهانهم بسبب قتله واحدًا منهم؛ فهو يخشى وقوع القتل منهم، وليس القتل عمومًا.

علّةُ حذف المفعول به في الفاصلة:

ظهورُ المعنى في السّياق الموجود يُغني عن إظهار اللّفظ المقصود

حذفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَخَافُ أَن

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 108.

يَقۡتُلُونِ﴾ وهو ياء المتكلّم، والتّقدير: (أَنۡ يَقۡتُلوني)؛ والغرض من ذلك التّخفيف اللّفظي، والإيجاز في التّعبير، واكتفاءً بدلالة الكسرة على الياء، وفي الحذف يتحقّق توحيد الفاصلة؛ فيتحقّق التّماثل الصّوتي في رأس الفاصلة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخوف والخشية:

الخَوْف: توقّع مكروهٍ عن أمارة مظنونةٍ أو معلومةٍ، كما أنّ الرّجاء والطّمع توقُّع محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفَ الأمنُ، ويُستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة[1]، أمّا الخشية؛ فهي خوفٌ يشوبه تعظيم[2]، فعبَّر في الآية الكريمة بالخوف؛ لأنّه يتوقَّع الأذى منهم لوجود أمارة معلومة، وهو أنّه قد قتل منهم واحدًا، وهو لا يأمن جانبهم.

الـخـوفُ تـوقّع مـكـروهٍ بسبب دليلٍ، والخشية عَظَمةُ الخوفِ

(1) الراغب، المفردات: (خوف).

(2) الراغب، المفردات: (خشى).

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشّعراء: 15 - 17]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

عرض العوائق وطلب العون يتبعه الإعلام بالأمر بمباشرة التّكليف

بعد أن حكى النّظم الجليل ما يُخيف موسى عن إتمام الدّعوة وتحقيق الرّسالة بسبب ما لديه من عوائق، ومعرفة بحال القوم والتّعريض بطلب النّصر والتّأييد، وإشراك هارون بالرّسالة؛ بيّن هنا أنّ الله تعالى استجاب إلى موسى في كلّ ما سأل، وأكّد نصرته ومعيّته لهما[1]، وأنّ مضمون البلاغ أن يأتيا فرعون فيخبراه بأنّهما رسولان من ربّ العالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾: أصلُ الآيةِ: العَلامةُ الثّابتة، مُشتقَّة مِن التَّأَيي الَّذي هو التَّثبت والإقامة على الشَّيء[2]، من قولك: تأيَّيْت بالمكان إذا أقمتَ به وثَبَتَّ فيه؛ ومن ثَمَّ يُقال: لأجعلَنَّك آية، أي: عَلامة[3]، وتُطلَقُ على المَصنوعِ المُعْجِبِ؛ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِهِ أَو عَظَمَةِ صاحِبِهِ[4]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ؛ لِأَنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبرَةِ، وهي أمرٌ وقع ومضى لكن بقي ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مثلًا[5]، والآياتُ جَمعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: عَجائِبُه[6]، والمقصود بها في الآية: العلامات الدّالة على وحدانيَّة اللّه تعالى؛ ومِنها: العَصا الَّتي انقلبَتْ حيَّةً، وكذلك بَياضُ يَدِهِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 17.
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (أي).
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 91.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيّي).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إيي - إي).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (إيي).

2) ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بِالأُذُنِ من النّاس، وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا[1]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمعُ أيضًا[2]، والجَمع أسماع، والسَماعُ: ما سَمِعْتَ بِهِ فشاع وتُكُلِّمَ بِهِ، والسَميعُ من صِفات اللّه وأسمائه[3]، والاِسْتِماعُ: الإصغاء[4]، والمقصود بالاستماع في الآية: الإصغاء، وصيغَةُ الافتعالِ، دالَّةٌ على المُبالغةِ في الفِعْلِ، وفيه من العناية بشأنهما، والرِّعاية لهما، والتَّأييد لأمرهما[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّأييد الإلهيُّ المُطمئِنُ لموسى بالأمر بالبلاغ عن الله لبني إسرائيل

قال اللّه تعالى لموسى على سبيل الإرشاد والتّعليم: كلّا، لا تخف أن يكذّبوك أو أن يضيق صدرك، أو ألّا ينطلق لسانك، أو أن يقتلوك؛ فأنا معكما برعايتي، وما دام الأمر كذلك؛ فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدّالّة على وحدانيتنا، فإنّي معكما بالتَّأييدِ والحِفظِ أسمَعُ ما ستَقولان لِفرعَونَ وقَومِه، وما سيَرُدّون به عليكما، فأْتيا - أنت وهارون - إلى فِرعَونَ فقولا له: إنّا مُرسَلانِ إليك من خالِقِ العالَمِينَ ومُدبِّرِهم، إنّا رَسولُ رَبِّ العالَمِينَ إليك بأنْ تُطلِقَ بني إسرائيلَ من قَهرِك، وتترُكَهم يسيرونَ معنا إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ؛ ليَعبُدوا اللّهَ ويُقيموا دينَه[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل الجملة عمّا قبلها:

الشّروع بالإعلام بجوابه تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام

فصَلَ النَّظْم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(2) الرّاغب، المُفردات، السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سمع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (سمع).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 237.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 553، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 92، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 137، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 237.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾، لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنّه أُثير سؤالٌ بعد طلب موسى وما عرضه من عوارض قبل الشّروع بتنفيذ الرّسالة، فكأنّه قيل: وبماذا أجابه اللّه تعالى؟ فحكى النّظم جوابه بهذه الآية، والغرض من هذا الاستئناف تسلية موسى وإبلاغه بضمان حفظه ونُصرته[1].

دلالة ﴿كَلَّآۖ﴾ في السّياق المُحكَم:

ردعٌ عن التّخوّف في سابق الكلام، وحثٌّ على المُضيّ في الدّعوة إلى الأمام

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الرَّدع والإبطال ﴿كَلَّآۖ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾، والغرض منها إفادة نفي السّابق؛ وقبلها مسائل ثلاث؛ وهي قوله: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾؛ فالنّفي يتوجّه إلى ما يتعلّق بموسى ﷺ، والمعنى أنّه يقول له ربُّه: اطمئن؛ فلن يحدث شيءٌ من هذا كلّه[2]؛ فالمُراد إبطال ما قاله موسى، وحثّه على تركه؛ فإنّهم غير قادرين على إلحاق الأذى به.

دلالةُ الفاء في جملة: ﴿فَٱذۡهَبَا﴾:

الأمرُ بالذّهاب إلى الدّعوة فرعٌ عن الرّدعِ عن الخوف

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ بالفاء الدّالّة على التّفريع[3]؛ لتفريع الأمر بالذّهاب على ما ردعه عنه من كلامه؛ فإبطال ما خافه موسى يُفضي إلى أنَّ الأمر بات بحيث يجب إنفاذه.

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾:

نجاحُ الرّسالةِ كائنٌ باصطحابِ المعجزاتِ

عدّى النّظمُ الجليلُ فعلَ الذّهاب بحرف الجرّ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾؛ وهي هنا دالَّة على المصاحبة؛ أيّ: مصاحبين لآياتنا؛ أيّ: مُحمَّلين بالآيات

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 237.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10549.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 108.

الدّالَّة على صدق الرِّسالة[1]؛ والمراد من تحميل الآيات بيان تأييده بالمعجزات الباهرة.

إيثارُ الجمعِ والإضافةِ لضميرِ التّعظيم:

آيـــاتُ الـلـه العظيمة جديرةٌ بتحقيقِ الإيمانِ العميقِ

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبير عن الآيات بلفظ الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾؛ والمُراد بها أنَّها الآيات التي زوّده اللّه تعالى بها؛ وهي العصا التي تنقلب ثعبانًا عند الإلقاء، وبياض يده، وغيرها من الآيات الّتي نزلت بآل فرعون، وأضاف هذا الآيات إلى ضمير التّعظيم، دون أن يقول: (اذْهَبا بالآياتِ)؛ للدّلالة على كونها آيات عظيمة منسوبة إلى اللّه تعالى، وأنّها جديرة بتحقيق الإيمان.

دلالةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾:

مصاحبةُ اللهِ تـعـالى لـهـم علّةٌ لـلـرَّدعِ عن الخوف

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا تعليليًّا، فسيقَتْ لتعليل الرّدع والأمر بالذّهاب بالآيات، مُتضمِّنةً مزيدًا من التّسلية والتَّثبيت[2].

دلالةُ الجملة الاسميّة المؤكّدة:

مصاحبةُ الله تعالى لكلِّ أحد حقيقةٌ راسخةٌ

آثر النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالجملة الاسميّةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ لتأكيد مضمون الخبر، وأنّ مصاحبة اللّه تعالى لهم ثابتة لا تزول بمَرِّ الزّمان، وجيء بحرف التّأكيد (إنّ) في صدر الجملة لمزيد التّأكيد وتقوية مضمون الخبر.

سِرُّ التَّعبير بضمير التَّعظيم:

اسـتـحـضـارُ عَظَمَة الله في الاصـطـحـاب تُزيل كلَّ عارضٍ للخوف

عبَّر النَّظم البليغ بضمير التّعظيم وما تبعه من صيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ دون أن يقول: (أَنا مَعَكُم مُسْتَمِعٌ)؛ وذلك لما في ضمير التّعظيم وخطاب المُفرد بصيغة الجمع من تعظيم وتفخيم لمضمون الخطاب؛ أيّ: نحن بما لنا من العظمة كائنون معكم، وبهذا يتحقّق الاطمئنان على أشدِّ ما يكون.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5344.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 161.

سِرُّ ضمير الجمع ﴿مَعَكُم﴾ دون التَّثنية:

اللَّه مع المؤمنين بالتّأييد ومع الكافرين بالهلاك الشّديد

آثر النَّظم الكريم التّعبيرَ عن المخاطبين بالمصاحبة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ بضمير الجمع دون التّثنية؛ فلم يَقُلْ: (إنّا معكما مستمعون)؛ لأنّ مصاحبة اللّه تعالى كائنة لكلِّ النّاس؛ فهو مع موسى وهارون وفرعون وقومه؛ فيكون مع أهل الحقّ بالنَّصر والحفظ، ومع أهل الباطل بالقهر والكسر[1].

دلالةُ الإخبار عن المَعيّة بعد الآيات:

معيّةُ اللّه طمأنةٌ لأوليائه وضمانٌ لهم

في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أورد النّظم الجليل الإخبار عن المعيّة بعد ذكر الآيات في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، لما في ذلك من تأكيدٍ لطمأنتهما، وزيادة في رباطة جأْشِهما[2].

سرّ إيثار ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ على (سامِعونَ):

قصدُ الاستماعِ أبلغُ في التّثبيتِ من مُجرَّدِ السّمعِ

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بصيغة (مستفعل) دون (فاعل) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، وذلك لأنّه أشدّ مبالغةً في وقوع السَّمع من (سامع)؛ فهو دالٌّ على تكلُّف السَّمع والقصد به؛ وهو أنسب هنا في سياق التَّسلية والتّطمين.

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة في السّياق:

قصد الاستماع دليل الرّعاية والاهتمام

استعار النّظم الجليل لفظ الاستماع تعبيرًا عن السَّمع في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ لما في ذلك من دلالة على الإصغاء والاهتمام، وهو استعارة تمثيليّة؛ حيث "مثَّل حالَه تعالى بحالِ ذي شَوكةٍ قد حضَر مجادلَة قوم يستمعُ ما يجري بينَهم ليمدَّ أولياءَهُ ويُظْهِرَهُم على أعدائِهم مبالغةً في الوعدِ

---

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 161.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 109.

بالإعانةِ"[1]، وكانت الاستعارة تمثيليّة لكون وجه الشّبه هيئةً مُنتَزَعَةً من عدّة أمور، والغرض هو بيانُ الاهتمام والعناية.

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَأۡتِيَا﴾:

التّصريح بالأمر بمباشرة الدّعوة بسبب الوعد بالنّصر

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالفاء الدّالّة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلمّا نفى أسباب الخوف وأبان أنّ الشّروع بالرّسالة بات خاليًا من العوارض بعد الطّمأنة والتّسلية؛ صرَّح بالأمر بالإتيان؛ فتسبَّب عن الحفظ والأمان أنّ يأتي الأمر بالذّهاب[2].

سِرُّ إيثار التّعبير بالإتيان دون الذّهاب:

أُزيلتِ العوائقُ؛ فسهُل المسير إلى الأمر الدّعويّ الكبير

آثر النّظم الكريمُ التَّعبير بالإتيان دون الذّهاب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لأنّ الإتيان دالّ على مجيء بسهولة، فلمّا زالت أسباب الخوف وما يعارض موسى في ذهابه إليهم؛ صار الذّهاب أمرًا سهلًا ومتاحًا.

دلالة الأمر بالإتيان بعد الأمر بالذّهاب:

الإتيان يدلّ على بلوغ المقصود لا مطلق التّوجّه

أورد النّظمُ الجليل الأمرَ بالإتيان في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد الأمر بالذّهاب في الآية السّابقة: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ للدّلالة على التّأكيد، وعلى أنّ المقصود ليس مجرّد التّوجُّه إلى المقصود؛ بل الوصول إليه[3].

دلالةُ التّصريحِ بفرعون دون قومه:

إيمانُ رأسِ القومِ هو السّبيل الأمثل لإيمان القوم

صرّح النّظم الجليل باسم فرعون في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكان قد ذَكَر القوم في الآية السّابقة: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾؛ فذكر القومَ أوّلًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 237.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 19.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 237.

لأنَّهم سبب طغيانه، وهم أعوانه على مُراده وظُلمه، وذكره هنا لأنّه الأصل في الظّلم ومبلغ قِمَّته، ولأنّه إذا هُزم هُزموا جميعًا، وإذا آمن آمنوا تبعًا له[1].

دلالة عطف القول بحرف (الفاء):

المبـادرة بإعلان الدّعوة فور بلوغ المدعوّ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على الأمر بالإتيان بحرف الفاء؛ وذلك للدّلالة على أنّ القول يجب أن يكون فور وصولهما إليهم بلا مُهلة أو تَلَعْثُم.

وَجْهُ إفرادِ الرّسولِ دونَ تثنيتِهِ:

بيان أنّ الأخوين في الرّسالة كانا كرسول واحد

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الرّسولَيْن موسى وهارون عليهما السلام بصيغة الإفراد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون التّثنية؛ فلم يَقُلْ: (إنّا رسولا ربّ العالمين)؛ لأنّه مصدرٌ يجري على الواحد والاثنين والجمع بلفظٍ واحدٍ، كما يُشير إلى أنّهما في تعاضدهما واتّفاقهما كالنّفس الواحدة[2].

دلالة إضافة ﴿رَسُولُ﴾ إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

كونُ المرسِلِ ربَّ الجميع تصريحٌ بضعف فرعون وأعوانه

أضاف النّظمُ الجليل لفظ ﴿رَسُولُ﴾ إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تذكيرًا لفرعون بكونه مربوبًا للّه تعالى؛ فهو ربُّك وربُّ آبائك الأوّلين والنّاس أجمعين؛ فالخطاب بالرّبوبيّة يُشعِر بوجوب الخضوع للّه تعالى من فرعون ومَنْ معه من قومه[3]، وأفادتِ الإضافةُ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إثباتَ ربوبيَّة اللّه تعالى للعالمين جميعًا؛ فهو شاملٌ جميع الكائنات؛ فيشمل فرعون وقومه وكلَّ مَنْ في الأرض، وفي ذلك إشارة إلى أنَّهما يستندان في أمر دعوتهما إلى الخالق العظيم الذي سيحميهم من كيدهم، وينصرهم على عدوّهم.

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10551.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 19.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5345.

الموقع البيانيّ لجملة ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ﴾:

جملةُ التّفسير مُزيلةٌ للإبهام، وصارفةٌ عن الإيهام

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بحرف ﴿أَنۡ﴾ التّفسيريّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ فالجملة تفسير لما تضمَّنه لفظ الـ﴿رَسُولُ﴾ من معنى القول[1]؛ أيّ: هذا هو المقول في رسالتنا إليك من اللّه تعالى؛ فالجملة تفسيريّة لما سبقها من الإبهام.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿أَرۡسِلۡ﴾:

تحريرُ القومِ من رِقِّ العبوديّة غايةٌ للدّعوة الموسويّة

عبَّر النَّظم الجليل عن إخلاء شأن بني إسرائيل بالإرسال في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ للدّلالة على أنّه كان يمنع خروجهم، ومعنى الإرسال: التّخلية والإطلاق؛ أيِّ: لا تحبسهم؛ وهو ليس بمعنى التّوجيه، وهذا الكلام يتضمّن أن موسى عليه السلام أُمر بإخراج بني إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من الاستعباد كما في قوله تعالى على لسان موسى مخاطبًا فرعون: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشّعراء: 22][2].

دلالةُ التّعبير بالمَعيَّة في: ﴿مَعَنَا﴾:

معيَّة النُّبوّة سلامٌ وتحرُّرٌ ونجاةٌ

عبّر النَّظم الجليل بالظَّرف الدّالِّ على المصاحبة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارة إلى أنَّهم طلبوا اصطحابهم من فورهم، وخلاصة طلب المعيَّة هو محتوى الرِّسالة التي جاء بها موسى وهارون، فخاطبا فرعون قائلَيْن: "فهذه هي رسالتنا التي أمرنا اللّه بتبليغها إيّاك؛ وهي أن تدع بني إسرائيل وشأنهم، لنمضي بهم إلى حيث يشاء اللّه بعيدًا عن محيط مُلكِك وسلطانك!"[3].

سرُّ إيثار لفظ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

ذِكر القوم باسم أبيهم تشريفٌ لهم بأبيهم

اختار النّظم الكريم التّعبير بلفظ بني إسرائيل في قوله جلّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 110.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 78.

شأنه: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون أن يقولا: (قومنا) تشريفًا لهم بهذا الاسم، وإشارة إلى تعيين القوم باسمهم، لبيان وقوع الظُّلم عليهم دون سواهم، ممَّن عاش في مصر(1).

بلاغة التَّلوين في القصص القرآنيّ:

تلوينُ الأساليب يوضّح جوانب من القصَّة تخدم السّياق

لوَّن النّظم الجليل أساليبَ إيراد قصّة موسى عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ حيث قال في موضع آخر: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [طه: 47]، والنَّظْم بهذا التّلوين الواقع بإيراد القصص القرآنيّ بأساليب مختلفة يهدف إلى شرح لقطاتٍ مختلفة من القصّة الواحدة، ويوضِّح بعض جوانبها بحسب الحاجة في السّياق، وإن كان ذلك يبدو تكرارًا في المعنى الإجماليّ(2).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(مُسْتَمِعونَ) و(سامِعونَ):

الاستماع طَلَبُ السّمع والإصغاء، والسّمعُ مُطلَق سماعِ الأصواتِ

الفرقُ بين صيغتي الاستفعال والفاعل أنّ الأولى تدلّ على الطّلب وقصد الفعل؛ فقوله: ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ يدلّ على طلب الإصغاء والتّكلّف به تعبيرًا عن الاهتمام والرّعاية، والسّماع والسّمع مُطلق إدراك الحروف والأصوات، أمّا الاستماع فهو طلب السَّمع بالإصغاء بالأُذُن؛ وهذا المعنى مُحالٌ عليه تعالى؛ فيكون المُرادُ من التّعبير بصيغة الاستفعال المبالغة في الاهتمام(3).

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5345.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10552.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 187.

﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشّعراء: 18 - 19]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرَّبط بين دعوة فرعون إلى الحقّ، وردّه المُتمادي في الباطل

لمّا بيّن النَّظم الجليل ما أُمر به موسى من تبليغ فرعون وقومه، وامتثالَه وأخاه هارون ﷺ لأمر اللّه؛ أَتْبَعَهُ في هذه الآية ببيان ما أجاب به فرعون على ذلك التّبليغ[1]، ممتنًّا عليه بإحسان التّربية منذ كان وليدًا قائلًا له: كيف تجيء إلينا بهذه الجرأة وتطلب إلينا هذا الطّلب الغريب من مثلك إذ هو من خاصّة شؤوننا وصلاحيّاتنا، ومن بعض سلطاننا في رعيَّتِنا؟ ثمّ كيف تُحدّثك نفسك بأن تتطاول علينا وتتجرّأ على مقامنا وتتصوّر أنّك ستحظى بالنّجاة من عقوبتنا بعدما قمتَ بارتكاب جريمة القتل الشّنعاء لأحد رعايانا؟[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرَبِّكَ﴾: (ربى) أصلٌ واحد يدلُّ على الزّيادَةُ والنَّماءُ والعُلُوُّ[3]، يُقالُ: رَبَوتُ في بَني فلان وربَيتُ؛ أيْ: نشأتُ فيهم[4]، وربَّيتُهُ تربيةً وتَربَّيتُهُ؛ أيْ: غَذَوْتُه[5]، والتَّربية: إنشاء الشَّيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام، هذا لكلِّ ما ينمي كالولد والزَّرع ونحوه[6]، والمُراد بالتَّربية في الآية الكريمة: كفالَةُ فرعون لموسى وتربيته له منذ كان رضيعًا.

2) ﴿وَلِيدٗا﴾: (ولد) أصلُ الكلِمَة من التَّوَلُّدِ؛ وهو: نشأَةُ شَيءٍ عن شيءٍ آخرَ، يُقالُ: تَولَّدَ الشَّيءُ عن الشَّيءِ؛ أيْ: نشأَ وصدرَ عنه،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 20.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 78.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ربى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربى).
(6) الرّاغب، المفردات: (رب).

الوَلَدُ: المولودُ، سواءً كان ذكَرًا أو أُنْثَى[1]، والوَليدُ يُقال لِمَنْ قرُب عهدُه بالوِلادَةِ، وإن كان في الأصل يصحُّ لِمَنْ قرُبَ عهدُهُ أو بَعُد، فإذا كَبِر الوَلَدُ سقط عنه هذا الاسم، وجمعه: وِلْدانٌ، والوَليدَةُ مختصّة بالإماء في عامّة كلامهم[2]، والوَليدُ: الطِّفْلُ مِنْ وقْتِ وِلادَتِه وما يُقارِبُها، فإذا نَمَى لَم يُسَمَّ وليدًا وسُمّي طِفْلًا، ويَعْني بذَلِكَ التِقاطَهُ مِنْ نَهْرِ النّيل[3].

3) ﴿وَلَبِثْتَ﴾: (لبث) أصلٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ وانتظارٍ واستبطاءٍ، قيلَ: اللَّبْثُ الاِسْمُ، واللُّبْثُ بالضَّمِّ المصدرُ[4]، يُقالُ: لَبِثَ بالمكانِ: أقام به مُلازمًا له، وألْبِثْ عن فلانٍ؛ أيْ: انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتِظارُكَ إيّاه خَطَأَ رَأْيِه[5]، واسْتَلْبَثَهُ إذا اسْتَبْطَأَهُ؛ وهوَ استَفْعَلَ من اللَّبْثِ؛ وهوَ الإبطاءُ والتَّأَخُّر[6]؛ والمقصود باللَّبْثِ في الآية: الإقامةُ في المكانِ مُدَّةً.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الإنْـعـامُ على المُرسَل لا يمنعه مـن مـواجـهـة الباطل وتحدّي الطّغيان

قال فِرعَونُ لموسى: ألم نَقُم بتربيتِك منذُ كنتَ صَغيرًا في المَهدِ في بيوتنا ولم نقتلك في جملة من قتلنا وأنعمنا عليك بنعمنا ردحًا من الزَّمن؟ أفتُقابل الإحسان بكفران النِّعمة وتواجهنا بمثل تلك المقالة؟ وقتَلْتَ رجُلًا منّا من القِبْطِ، والحالُ أنَّك من الجاحِدينَ لنِعمَتِنا عليك؛ حيث جازَيْتَنا على تَربيتِنا لك بقَتلِ رجُلٍ من رعايانا[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الجملة عن سابقتها:

ردُّ المدعوِّ بصَلَفٍ وطغيانٍ على ما بلَّغهم به رسولا الرّحمن

فصلَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، والرّاغب، المفردات: (ولد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 111.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (لبث).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 556، و557، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 137، والمراغيّ، تفسير المراغي: 19/ 51.

﴿فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، وصدّرها بفعل القول لحكاية ما قاله فرعون؛ لأنّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فلمّا كان من المعلوم أنّهما قد شرعا فيما أمرهما اللّه تعالى به من التّوجّه إلى فرعون وقومه؛ فأتياه وقالا له ما أُمرا به؛ تشوَّفت النَّفس إلى معرفة جوابه لهما، فكأنّه قيل: فبماذا أجابهما؟ فجاءت الآية جوابًا عن ذلك السّؤال[1]، وقد أغنى تصدير الجملة بفعل القول عن وجود العاطف؛ لأنّها واردة في محاورة يُغني ارتباطها عن حروف العطف.

دلالة الاستفهام ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ﴾:

مِـنّـة فـرعـون بـنـشـأة مـوسى بـيـنـهـم غـايـتُـه نقض دعوته

استعمل النّظم الجليل الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ للتّقرير، والمقصود الإقرار بوقوع التّربية، وذلك يقتضي المحبّة والبرّ، فكأنّه رأى بدعوته إيّاه أنّه قد جحد حقّ التّربية[2]، والتّقدير: (إنّا قد ربّيناك، بحيث إنّك لا تستطيع إنكاره، فكيف لك أن تدعونا إلى دين جديد وترمينا بالكفر؟!).

نكتة اقتصار المخاطبة على موسى:

مخاطبةُ الأصل المُرسَل بالرّسالة تـوجِـب خطاب موسى وحدَه

حكى النَّظم الجليلُ اقتصارَ فرعون على مخاطبة موسى دون هارون ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، لأنّه علم من خطابهما أنّ موسى ﷺ هو الرّسول بالأصالة، وأنّ هارون ﷺ كان وزيرًا مُعينًا له على التّبليغ، فلم يشتغل بالكلام مع هارون[3]، كما أنّ خطاب الامتنان بالتّربية يشمل موسى دون هارون.

دلالةُ الإعراض عن التَّكذيب إلى التَّذكير بالنّعمة:

تـذكيرُ الـدّاعـي بالإحسان إليه يُضعف عزيمته في التّبليغ

بيّن النّظمُ الجليل أنّ فرعون أعرض عن التّكذيب إلى التّذكير

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 111.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 110.

بالنّعمة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؛ فلم يشتغل بإبطال دعوة موسى ﷺ؛ بل عدل إلى تذكيره بإنعامهم عليه لإفحام موسى وكفّه عن الدّعوة، فلعلّه يتلعثم بتذكيره بتلك النّعمة، كما أنّ التّذكير بالنّعمة يحمل تمهيدًا لإيجاد سبب يتذرّع به إلى قصد السّوء بإعلانه كافرًا بنعمة الولاية والتّربية[1].

دلالة التّعبير بشبه الجملة ﴿فِينَا﴾:

التّربية في أكناف الملوك منحةٌ عظيمةٌ ونعمةٌ كبيرةٌ

عبّر النّظم الجليل بشبه الجملة ﴿فِينَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ للدّلالة على عظيم الإنعام؛ فالمراد أنّه قد تربّى في عائلة مَلِكِ مصر؛ فالامتنان بذلك أعظم من الامتنان بمُطلَق النّعمة.

دلالة الظَّرفيَّة المجازيّة في قوله ﴿فِينَا﴾:

اللّبث سنين في القوم مظنّة ارتباط وتعلّق بهم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (في) الدّالّ على الظّرفيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، والظّرفيّة هنا مجازيّة؛ فعبّر عن الحالَّ وأراد المحلَّ؛ والتّقدير: (في منازلنا)، وذلك بحذف المضاف[2].

سِرُّ إيثار التّعبير بـ ﴿وَلِيدٗا﴾ دون (طفل):

يشير لفظ الوليد إلى التّذكير بمرحلةِ قُربِ عهد ولادته

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الوليد دون الطّفل في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ وذلك للدّلالة على أنّ وقت التّربية لموسى ﷺ قد بدأ منذ ولادته وصغره؛ فهو قريب عهد بالولادة آنئذٍ[3].

دلالة (الواو) في: ﴿وَلَبِثۡتَ﴾:

التّرهيب بالجُرم بعد التّذكير بالنّعمة جمعٌ للتّخويف مع التّذكير

عطف النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 110.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 238.

﴿فِينَا وَلِيدًا﴾، فكلا الجملتيْن من مقوله[1]؛ فعطف تذكيره بالإقامة في منازلهم على تذكيره بنعمة التّربية، إيغالًا في تهوين شأنه وتخويفه لإحداث تلعثمه وتردّده في إتمام الدّعوة.

إقامة موسى في مصر لَبْثٌ لا مُكث

سرّ التّعبير بلفظ (اللّبث) دون (المُكث):

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ اللّبث دون المُكث في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، وذلك لما في اللّبث من دلالة الإقامة في المكان[2]، والمُكث يدلّ على الانتظار، وهو ليس المُراد في الآية.

تأكيدُ الامتنانِ بالإقامة في قصور المُلْك الحِسانِ

دلالة تكرار شِبه الجملة: ﴿فِينَا﴾:

كرّر النّظم الجليل شِبه الجملة ﴿فِينَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ لتأكيد المكان الّذي بقي فيه؛ أيْ: قد تربّيت في منازلنا لا في غيرها، وقد أقمتَ معنا وتعزّزت بنا[3].

كثرة السّنين وطولها يُظهر طول الإنعام ووفرة الامتنان

دلالةُ التّعبير بجمع ﴿سِنِينَ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل عن السِّنين بلفظ الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، للدّلالة على أنّها سنين كثيرة، والإخبار عنها بأنّها كثيرة، لبيان كثرة الامتنان، فيكون بذلك قد قرّره بأنّ له على موسى من الحقّ ما ينبغي أن يمنعه من مواجهته بمثل هذا[4].

ذِكْر الجناية بعد الإنعام دحضٌ للمَلمَح الثّاني بالأوّل

دلالة العطف بجملة: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾:

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ على جملة مقول القول[5] في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَلَمْ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبث).
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 20.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 21.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 60.

﴿نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، فبعد أن عدّد عليه ما أنعموا عليه به من التّربية والإيواء؛ وبَّخه بَما فعل من قتل المصريّ[1].

دلالة التّعبير بصيغة (فَعْلَةٌ):

الفَعْلَة المشهودة يـبـقـى صـداهـا يتردَّدُ على المدى

عبّر النّظم الجليل عن حادثة القتل بالمصدر الدّالّ على المرّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ للدّلالة على أنَّها حادثة مشهورة بحيث لا يمكن التّغاضي عنها، وأنّهم ما زالوا يطالبون بحقّهم فيها.

دلالة إضافة الفعلة إلى ضمير موسى:

موسى هو مَن قضى على القبطيّ بالوَكْز

أضاف النّظم الجليل المصدرَ الدّالّ على المرّة إلى الضّمير العائد إلى موسى في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، للدّلالة على أنّ الفعلة ثابتة عليه؛ فهي معروفة بنسبتها إليه.

دلالةُ وصفِ الفَعْلَة بالاسم الموصول:

القتلُ أمرٌ بالغ الشّناعة وخطره شنيع

عبّر النّظم الجليل عن الفَعْلَة بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ دون التّصريح بها باسمها الخاصّ؛ وذلك لما في التّعبير عنها بأسلوب الإبهام من التّفخيم والتّعظيم لشأنها، فإنّ عدم التّصريح بالاسم يدلّ على التّعظيم، والتّعبير عن المعاني بالاسم الموصول دون الاسم الصّريح كثيرٌ شائع في القرآن الكريم[2].

دلالة (الواو) على الحال في السّياق:

لا يقترِفُ الجُرمَ بعد الإنعام إلّا جاحدٌ

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للدّلالة على الحال؛ أيْ: فعلتَ ذلك، والحال أنّك من الكافرين لنعمتي وحقّ تربيتي، وذلك لأنّك قتلتَ مَنْ يُنسب إليّ[3]، وهذا الحال يُفيد - كما عبّر فرعون واعتقد - أنّ موسى عند قتله

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 238.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 192.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 21.

المصريّ لم يراعِ حقّ التّربية والإيواء؛ بل كفر بالنّعمة؛ فعبّر فرعون بذلك عن إسقاط موسى عن رتبة الإصلاح؛ وبالتّالي انتفاء صدقه في دعوته.

جحودُ النّعمةِ مَنْقَصةٌ في الخُلُق والمروءة

دلالةُ التّعبير بالكفر:

عبَّر النَّظْم الجليل بلفظ الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ والمُراد به كفر النّعمة لا كفر العقيدة؛ لأنّه يرى أنّ موسى يجب أن يستشعر نفسه من قوم فرعون، فلا ينتصر لأحدٍ من بني قومه على أحدٍ من الفراعنة[1].

الانتماء إلى فئةٍ دليلٌ على رسوخ الوصف بالمنتمي لها

دلالة التّعبير بأنّه ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (كافر):

عَدلَ النّظمُ الجليل في حكاية ما قال فرعون لموسى بأنّه قد وصف موسى بكونه واحدًا من زمرة الكافرين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون أن يقول له: وأنت كافرٌ؛ وذلك لأنّ نِسبةَ أحدٍ إلى فئةٍ يدلّ على شدّة اتّصاف الفرد بصفات تلك الفئة؛ فهو بلغ من شدّة الاتصاف مبلغًا يجعله جديرًا بأن ينتسب إليهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّبْثُ إقامةٌ في المكان، والمُكْث محض انتظار

اللَّبْث والمكْث:

المكث: أصله يدلّ على تَوَقُّفٍ وانْتِظارٍ، ومَكَث مَكْثًا ومُكْثًا، ورَجُلٌ مَكيثٌ: رَزينٌ غَيْرُ عَجولٍ، والتَّمَكُّثُ: الانْتِظارُ[2]، أمّا اللّبث فأصله يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بِالمَكانِ: أَقامَ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: 35][3]؛ فعبّر في الآية باللّبث لأنّه أقام فيهم سنين طويلة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبث).

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: 20 - 22]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من امتنانِ أهل الباطل إلى الرَّدِّ عليهم

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ ما اشتمل عليه كلامُ فرعون لموسى عليه السلام من السؤال المليء بالامتنان: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء: 18]، وألحقَهُ بالتُّهمة الخطيرة: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشعراء: 19]؛ ناسب أن يذكرَ جواب موسى عليه السلام الصَّريح الواضح: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ثم كرَّ على منَّته التي امتنَّ بها فرعون على موسى عليه السلام وهي في حقيقتها إذلالٌ لبني إسرائيل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَلْتُهَآ﴾: أصلُ (فعل) يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ، مِنْ ذلكَ: فَعَلْتُ كذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا[1]، وفَعل: اسم من فِعل الشَّيء، فَعل يَفْعَلُ فَعْلاً وفِعْلاً، فالفَعْلُ: المصدر، والفِعْل: الاسم، والفَعالُ اسمٌ للفِعل الحسَن، مثل الجود والكرم ونحوه[2]، والفِعل: أَخَصُّ من العمَل، أَو كِنايةٌ عَن كلِّ عمَلٍ، مُتَعَدٍّ أَو غيرِ مُتعَدٍّ، وهو يدلُّ على الزَّمان بصيغته، وعلى المكان بمعناه، والفِعلُ عِنْدَ النُّحاة: ما دَلَّ على معنى في نفسِه مُقترِنٍ بأحدِ الأزمنةِ الثَّلاثة[3]، والجمع: فِعال، وأمّا الفعل في الآية فمعناه: التَّأثير من جهة مُؤَثِّر، والمقصود

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فعل).
(2) الخليل، العين: (فعل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فعل).

به: الاعترافُ بالفَعْلَةِ من موسى جزاءً لتهديدِ فرعون له على طريقة القَول بالموجَبِ، أي لا أتهيَّبُ ما أَردتَ[1].

2) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: أصلُ (ضل) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذهابه في غير حقِّه[2]، والضَّلال: الغيبوبةُ والخَفاءُ والسَّترُ، يُقالُ: ضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[3]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ[4]، ورجلٌ مُضَلّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ[5]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: سُلوكُ طريقٍ غيرِ مُوَصِّلةٍ للمقصودِ خطأً، والمُرادُ به هنا: إمّا الفساد، أو الجهالة[6].

3) ﴿فَفَرَرْتُ﴾: أصلُ الفِرارِ الانكِشافُ، يُقالُ فَرَّ يَفِرُّ، والمَفَرُّ المصدرُ، والمَفَرُّ: الموضِعُ يُفَرُّ إليه، والفَرُّ: القومُ الفارّونَ، يُقالُ فَرٌّ جمعُ فارٍّ، كما يُقالُ صَحْبٌ جَمْعُ صاحِبٍ، وشَرْبٌ جَمْعُ شارِبٍ[7]، الفِرار: الرَّوَغانُ والهَرَبُ، وهو ابتعادٌ عمّا يواجهُ بخفة وإسراع، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو من الفِرار: المباعدة بخفَّة، وسرعة[8]، وهو على خمسةِ أوجهٍ: التوبة، والهرب، والكراهة، وترك التعرج، والتباعد[9]، والمقصود في الآية الهروب بإسراعٍ وخِفَّة.

4) ﴿فَوَهَبَ﴾: الهِبَةُ أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، يُقالُ: وهَبْتُهُ هِبَةً ومَوهِبَةً ومَوْهِبًا[10]، وتَقول: وهَب اللّه له الشَّيء، فهو يَهَب هِبَةً، وتواهَبَه النّاسُ بَينهم، واللّه الوهّاب الواهِب، وكلُّ ما وُهِبَ لك من ولدٍ وغيره فهو مَوْهوبٌ[11]، والمُراد به في الآية: إعطاءُ شيءٍ بلا مُقابلٍ وعوضٍ، وهو مجازٌ في التَّفضُّل والإكرام.

5) ﴿حُكْمًا﴾: أصلُ (حكم) يدلُّ على المَنْعِ، وأَوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(5) الخليل، العين: (ضلّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتحرير: 19/ 114.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرر).
(9) العسكري، الوجوه والنظائر: 372 مختصَرًا.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وهب).
(11) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 372 مختصَرًا.

وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأَحْكَمْتَهُ[1]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتُ، ويأْتي بِمَعْنى: الشَّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أَحْكامٌ، والإِحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أَحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ، أي: أَتْقَنْتُهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[2]، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْمِ والعَقْلِ، فالحكمة من اللّٰه تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات[3]؛ وسُمّيت بذلك لِأَنَّها تَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الغَلَطِ والضَّلالِ، والمقصودُ بالحُكْم في الآية: الحِكْمَةُ والعِلْمُ، وأرادَ بها النُّبوَّةَ، وهي الدَّرجةُ الأولى حين كلَّمه ربُّه تعالى[4].

6) ﴿تَمُنُّهَا﴾: أصلُ المَنِّ القَطْعُ، يُقالُ: منه يَمنه مَنًّا أَيْ قطعه، ويُطلَق المَنُّ على تَعْدادِ الصَّنائعِ كأَنْ يقول: أعطيتُك كذا وفعَلتُ بك كذا؛ لأنَّ المنَّان يقطعُ الخيرَ بكلامه[5]، والمَنُّ أيضًا: الجودُ والإحسانُ إلى الآخرينَ، يُقالُ: مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا إذا جادَ عليه وأحسَنَ إليه، والمِنَّةُ: النِّعمَةُ العظيمةُ، والمَنَّانُ: المُنعِمُ[6]، والمُرادُ بالمنِّ في الآيةِ: تذكيرُ المُنعِمِ المُنعَمَ عليه بإنعامه[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أجاب موسى ﷺ على تُهْمَتَي فرعونَ له بالإقرار المؤدّي إلى نفي إحداهما، وقلب القضية عليه في الأخرى، فقال موسى مجيبًا لفرعون: فعلتُ ما ذكرتَ من قَتْلِ القِبْطي، لكنَّه قتلٌ وقع مني خطأً، فلا مؤاخذة عليَّ فيه؛ إذ كان قبل أن يوحي اللّٰهُ إليَّ، ويبعثني رسولًا،

ليس للطاغية على مظلوميه مِنَّةٌ إنْ ضمَّنَ طغيانَهُ بعض الإحسان إليهم

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حكم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (منّ، منن).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (منّ، منن)، والمناوي، التوقيف، ص: 317.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 299.

فخرجت من بينكم فارًّا إلى مدين؛ لمّا خفت أن تقتلوني بما فعلتُ من غير عَمْد، فوهب لي ربي تفضُّلًا منه النُّبوَّة والعلم، وجعلني من المرسلين، وألقمه جوابَ الثانيةِ بقوله: أَو تلك التربيةُ في بيتك تَعُدُّها نعمةً منك عليَّ، وقد جعلتَ بني إسرائيل عبيدًا تُذَبِّح أبناءهم، وتستبقي نساءهم للخدمة والامتهان؟[1]

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى أنَّ اعتراضَ فرعونَ على موسى، اعتراضُ جاهلٍ أو متجاهلٍ، فإنَّه جعل المانع من كونه رسولًا أن جرى منه القَتْلُ، فبيَّن له موسى عليه السلام أنَّ قَتْلَهُ كان على وجه الخطأ وغير العمد، الذي لم يقصد نَفْسَ القَتْل، وترشدُ إلى جواز التذكير بالإحسان لمن أنكره، ولكن لا على سبيل الامتنان، فإنَّه محبطٌ للعمل، وإلى جواز إطلاق لفظ الضَّلال على الجهل، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضحى: 7]، وكما قال موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: الجاهلين قبل أن يعلمني ربي، وإلى مشروعيَّةِ الفِرار من خوف الظُّلم؛ إذا لم يكن في البلد قضاء عادل، وإلّا لما جاز الهربُ من وجه العدالة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملة عن سابقها:

رُبَّ ضارَّةٍ للعبد نافعةٌ له

فُصِلَتْ جملة: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، عمّا قبلها للاستئناف البياني - شبه كمال الاتِّصال - ؛ لأنَّ الثانية بمنزلة جواب عن سؤال تثيره السابقة، تقديره: وماذا كان ردُّ موسى عليه السلام ودفاعُه عن نفسه تُهمةَ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: 19] بعد السؤال المراوغ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]؟ فكان الجواب ما جاء في الآية.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 129، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 138.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 590، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 643.

بلاغةُ الرَّدِّ في جواب موسى:

جوابُ المتمكِّن يعكس القوَّةَ النفسيَّة ورباطة الجأش

ردَّ موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ على تهمة فرعون، فأجاب عن القتلِ بما لا شيء أبلغُ منه في الجواب، وقد "كانت رباطةُ جأشِ موسى عليه السلام وتوكُّله على ربِّه تعالى باعثةً له على الاعتراف بالفِعلة، وذكرِ ما نشأ عنها من خيرٍ له؛ ليدُلَّ على أنَّه حمِد أثرَها، وإن كان قد اقترفها غير مقدِّرٍ ما جرَّتْهُ إليه مِن خير، فابتدأ بالإقرار بفعلته؛ ليَعلم فرعون أنَّهُ لم يَجِد لِكلامه مدخل تأثيرٍ في نفس موسى عليه السلام"(1).

فنُّ اللَّفِّ والنَّشر في تهمتَي فرعون:

مراعاةُ فقهِ الأولويّات مهيعُ الحكماء

بين تهمتَي فرعون لموسى عليه السلام ودفاعِه عن نفسه لَفٌّ ونَشْرٌ غير مرتَّب: فالتُّهمة الأولى مضمَّنة في الاستفهام التقريري التوبيخي: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء: 18]، وجاء دفاعه عن نفسه فيها مؤخَّرًا: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

والتُّهمة الثانية: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشعراء: 19]، وجاء دفاعه عن نفسه فيها مقدَّمًا مُلحقًا بها مباشرة: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ونكتة ذلك أنَّه بدأ بردِّ ما ينبني عليه اتِّهام يؤدّي إلى العقوبة الكبرى، ثم كرَّ بردِّ المنَّة القبيحة، ففيه مراعاةٌ لفقه الأولويات.

فائدةُ تقديمِ فِعلِ القتلِ على حرف الجزاء:

بيانُ عدمِ خشيةِ موسى والاسترسال في ذكر نعم الله عليه

قُدِّمَ الإقرارُ بوقوع القتل في قوله تعالى: ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾ على حرف الجواب ﴿إِذٗا﴾ مبادرةً بالإقرار؛ ليكون كنايةً عن عدم خشيته من هذا الإقرار، وبهذا يظهر وجهُ الاسترسالِ في الجواب بقوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أي: فكان فراري قد عقبَهُ أنَّ اللّه تعالى أنعم عليَّ، فأصلح حالي، وعلَّمني، وهداني، وأرسلني، فليس ذلك من موسى عليه السلام مجرَّد إطنابٍ، بل لأنَّه يفيد معنًى أنَّ الإنسان ابنُ يومِهِ لا ابنُ أمسه، والأحوال بأواخِرها، فلا عجب فيما قصدتُ، فإنَّ اللّه تعالى أعلم حيث يجعل رسالاته(1).

بلاغةُ استعمالِ مفردة فعل الاتِّهام:

تفنيدُ التُّهمةِ بِألفاظ الاتِّهام

آثرَ النَّظمُ الكريم إيثار مفردة ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾؛ لتكونَ مطابَقةً لتهمة اللَّعين: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشعراء: 19]؛ إذ ردَّدَها ثلاثَ مرّات، يُلِحُّ على كونها جريرةً توجب العقوبةَ، فاقتضى هدمُ ذنبِها عنه عليه السلام استئصالَها بتكرار لفظها ذاته؛ لإشعار فرعونَ بعدم شعور موسى عليه السلام بأيِّ جريرة، وأنَّه يواجهها، ولا يتهرَّب منها.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي في الفعل:

انتفاءُ العَمْدِ يَمدُّ النَّفسَ بالثِّقة في البراءة

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾ مطابقةً للواقع من جهة؛ إذ قَتْلُ القبطي كان قد مضى منذ أكثر من عشر سنوات، مع ما فيه من مطابَقةٍ لصيغة التُّهمة (فعَلتَ)، فقال: (فعلتُ)، وفي ذلك أيضًا إبرازُ الثِّقة في النَّفس وعدم إظهار اكتراث بتهمة لا تبِعة فيها؛ لبراءته من ذنبها بعدم القصد وانتفاء العَمْد.

براعةُ إضمارِ لفظِ التُّهمة:

إضمارُ لفظ التُّهمة كياسةٌ وتفويتٌ لمقصد الاتِّهام

ضمير المفعول (ها) في قول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾ يرجع إلى التُّهمة التي عبَّر عنها فرعونُ بالموصول وصلتهِ: ﴿ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾، وهي قتل القبطي خطأً بوكْزةٍ ليس مِن شأنها أن تقتل، لكنَّها صادفت قدَرَ الرَّجل المحتوم.

وكان من كياسة موسى عليه السلام طيُّها في الضمير، وعدَمُ تكرارها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113 - 114.

بلفظها؛ لأنَّها اجْتُلِبَتْ من قِبَل فرعون في هذه اللَّحظة أصلًا للمراوغة، والهروب مِن مطلب موسى وهارون ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: 17].

تلوينُ الجواب بفنِّ القول بالمُوْجِب:

أقوى الحججِ ما صيغت من أفواه المبطلين

﴿إِذًا﴾ "جوابٌ وجزاءٌ معًا، وهذا الكلامُ وقع جوابًا لِفرعون، وجزاءً له؛ لأنَّ قول فرعون ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ [الشعراء: 19] معناه أنَّك جازيت نعمتي بما فعلتَ، فقال له موسى: نعم فعلتُها مُجازيًا لك - تسليمًا لقوله - لأنَّ نعمته كانت جديرة بأن تُجازَى بِنحو ذلك الجزاء"[(1)].

و"معنى الجزاء في قوله ﵇: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أنَّ قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: 19] قُصِد به إفحامُ موسى وتهديده، فجعل موسى الاعترافَ بالفَعلة جزاءً لذلك التَّهديد، على طريقة القول بالموجِب: الذي هو نوعٌ من أنواع الاعتراض على الدَّليل يُقصد به تسليم ما جعله المستدلُّ موجبًا لدليلِه، على وجهٍ لا يَلْزَمُ منه تسليم الحكم المتنازع فيه، أي: لا أتهيَّب ما أردتَ"[(2)].

نوعُ الواوِ ومعناها في الآية:

لا احتجاجَ على ما يكون مشتركًا بـين أجـنـاسِ الناس

(الواو) في جملة: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واو الحال، أي: فعلتها حالةَ كوني غيرَ عامدٍ لِفعلها، ولا داريًا لخطرها، وإنَّما وقعت مني خطأً، والخطأُ من طبيعة الجبلَّة البشرية، فلا حجَّة عليَّ فيما يشترك به أجناسُ الناس.

دلالةُ تقديمِ المسند إليه على المسند:

بيـانُ الحقائق بصدقٍ وسكينةٍ يُعين على الدِّفاع عن النَّفس

قُدِّم المسند إليه - وهو ضميرُ التكلُّم ﴿وَأَنَا۠﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ توكيدًا من موسى ﵇ لنسبةِ فعل القَتْل إليه؛

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 557.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113، ويُنظر: الرازي، المحصول: 5/ 269، وابن قدامة، روضة الناظر: 2/ 328، والآمدي، الإحكام في أصول الأحكام: 4/ 111.

لنَفْي أنْ يكون قد قَتل القبطيَّ عمدًا، فموقعُ الضَّمير هنا موقع حسَنٌ، حيث إنَّ الإقناعَ بالبراءة يكمُن في إظهار الشَّجاعة في تحمُّل المسؤولية، والسكينة في الدِّفاع بالحقِّ، والإتيان على القضية من جذورها بالهدم، وعدم المواربة المُؤذنة بالتورُّط في الجريمة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحال جملةً لا مفردًا:

الحالُ الجملةُ تَنشُر من الدلالات ما لا تُتيحه الحالُ المفردة

قد يتبادر أنَّ الإيجاز كان يقتضي إيثارَ الحال المفردة، فيقال في غير القرآن الكريم: (قال فعلتها إذًا ضالًّا، أو مخطئًا)، أو غيرهما من الأحوال المفردة، لكنَّه عليه السلام آثر في النَّظم الكريم التَّعبيرَ بجملة الحال ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولم يقل: (ضالًّا)؛ لإتاحة الجملةِ خصوصياتٍ تركيبيةً تحتَها من الدلالات الفاعلة ما لا تُتيحه الحال المفردة.

فممّا أتاحته جملةُ الحال ذِكرُ ضمير التَّكلُّم، وتقديمُه، والتقييدُ بالجار ﴿مِنَ﴾، وما يُلِحُّ عليه مِن تبعيضٍ له دلالتُه، والمجرور ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ المُبعِد وصمَهُ عليه السلام بالضَّلال المباشر.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

الضَّلالُ بِمعناه اللغويِّ وارِدٌ على كلِّ البشر

حرف ﴿مِنَ﴾ في جملة الحال ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ للتَّبعيض، وتُلمَح إلى وُرود الضلال بِمعناه اللُّغوي على أيِّ بشريٍّ، فمَن مِن البشر لا يُخطِئ؟ وهذا التبعيضُ يومئ إلى جواز وقوعِ الخطأ، وتتآزر مع بقيَّة عناصر جملة الحال في بيان العذر، والمقام هنا مقامُ مجاذبة بين الحقِّ والباطل، وأبلغهما بيانًا يَستميل إليه جمهورُ الحاضرين، ويَكْسِر حُجَّة الخصم، فيُضعف موقفه، وهذا ما تُراعيه ﴿مِنَ﴾ في القيد ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة الضَّلال:

دفْعُ التُّهمة بالكفر والخطيئة وكلاهما ممّا يُنزَّهُ عنه رسل الله

من دقَّةِ البيان القرآني إيثارُه التَّعبيرَ بـ (الضلال) دون (الخطأ)، برغم أنَّه يؤول إليه عند التَّحقيق؛ وذلك لِما في الخطيئة مَن شوب الذَّنب واحتمال الإثم، أمّا (الضلال) بمعناه المقصود في الآية الكريمة؛ فمَحْضُ اختلال في التَّصرُّف، يخلو من العَمدِ، وذلك

معناه قبل تخصيص مصطلح (الضلال) في الشَّرع بـ (الضلال) العقدي، كما أنَّه آثره على لفظ (الكفر)، وبهذا رفضَ موسى عليه السلام أمرين: التُّهمة بالخطأ، والتُّهمة بالكفر الذي جاء على لسان فرعونَ، و"برَّأ ساحته بأنْ وضع ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ موضع (الكافرين)، وربَأ بِمَحَلِّ مَن رُشِّحَ للنُّبوَّة عن تلك الصفة"[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

الضَّلالُ بمعناهُ اللُّغويِّ يخلو من الإثم

المقصودُ من لفظ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: الجاهلين، والمعنى: من الذاهلين عمّا يؤول إليه الوكْز؛ لأنَّه أرادَ به التَّأديب[2]، والتعريفُ في ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعريف الجنس، القائل بجوازه على الإنسان - أيِّ إنسان - لأنَّه الضَّلالُ اللُّغوي السلوكيُّ، لا العقديُّ المتعلِّق بالكفر وإنكار وحدانيَّة ألوهيَّة اللّه تعالى وربوبيته.

"وجعل موسى نفسَه من الضالين إن كان مرادُ كلامِه الذي حكتِ الآية معناه إلى العربية المعنى المشهورَ للضلال في العربية، وهو ضلال الفساد، فيكون مرادُه أنَّ سَوْرَةَ الغضبِ أغفلتْهُ عن مراعاة حُرمة النفس، وإن لم تكن يومئذٍ شريعةٌ، فإنَّ حفظَ النُّفوس ممّا اتَّفقت عليه شرائعُ البشر، وتوارثوه في الفِتَر، ويؤيِّد هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: 16]، وإن كان مرادُه معنى ضلال الطريق، أي: كنتُ يومئذٍ على غير معرفة بالحقِّ؛ لعدم وجود شريعة، وهو معنى الجهالةِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]، فالأمرُ ظاهر"[3].

نوعُ الفاء ومعناها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ؛ إذ وقعَ الخوفُ بعد القتلِ غيرِ المقصود، فالفرار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 135.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113.

الفرارُ إنَّما يكونُ بعد فزعٍ وخوفٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة الفرار:

استعمل النَّظمُ مفردةَ الفرار في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾، والمعنى: (خرجتُ من بينكم إلى مدين)، كما جاء في سورة القصص: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21][1]، وفي إيثار مفردة (الفرار) دونَ لفظ (الهروب) لأنّه كان فرارًا مشروعًا من الظُّلم الذي سيناله من تآمر قوم فرعونَ على قتله وتشاورهم في ذلك؛ أخْذًا بنصيحة الرجل الذي جاء من آخر المدينة يسعى، إضافة إلى ما في مادة الفرار مِن الكناية عن قسوة فرعون وشدَّة بطشه.

الأخذُ بالأسبابِ المُمكنة نجاةٌ من المهالك

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في الفرار:

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿فَفَرَرْتُ﴾ إشارةٌ إلى سرعة الفرار، وأنَّه كان فيه الأخذ بأسباب النَّجاة، من الغَشْم في ردود فعل فرعون، كما أنَّ في صيغة الماضي (فررتُ) مطابقةً لِتَسلسُل الأحداث؛ إذ كان ذلك الفرارُ من مصر إلى مدين قبل عشر سنوات من قَتْل القبطي.

تحتمل (من) السَّببيَّة والابتدائيَّة

نوعُ (مِن) ودلالتها:

تحتمل أن تكون (مِن) في قيد قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ سببيَّة، أي: فررْتُ بِسبب خوفي من ظلمكم، وبِدافع علمي طغيانَكم، وانعدام العدالة في حُكمكم، وتحتمل أن تكون ابتدائيَّة، "أي: فرارًا مبتدِئًا منكم"[2]، وعلى الاحتمالين يوجِّه ﷺ المخاطَبين إلى سبب الفرار، وأنَّه فرارٌ من ظلمٍ لا هروب من ذنبٍ.

فتقييد الفِرار بالجار والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ يُبَرِّئ ساحة موسى ﷺ من تبِعات التُّهمة، ويُكشف عن أنَّ الفرار لم يكن فرارًا وهروبًا خوفًا من عقوبةٍ عادلة ومحاكمة نزيهة، بل كان مِن تآمرٍ ظالم، وبطشٍ أعمى وتسلُّطٍ غشوم: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 95.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.

معنى ﴿لَمَّا﴾ ودلالتها:

باحتمال وقوع الخوفِ تحقَّق الفرارُ

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ هي الحينيَّة التي تُرتِّب الجزاءَ على الشرط بِلا مهلة، كما يقول الفارسي، أو هي رابطة كما يقول سيبويه[1]، وقد تُستفاد المُهلة من (الواو) حين تَدخل على ﴿لَمَّا﴾، أمّا هنا؛ فالداخلة عليها الفاء على تقدير: (فلما خفتكم فررت)، والفاء تتناغم هنا مع دلالة الحرف ﴿لَمَّا﴾، الذي يترجم السرعة الخاطفة، ويُرتِّب الجزاء ﴿فَفَرَرْتُ﴾ على الشرط ﴿خِفْتُكُمْ﴾، ويَزيدهما اتِّصالًا، وتتآزر ﴿لَمَّا﴾ مع (الفاء) في بيان غشم فرعون وملَئِه وشدة ظلمهم.

نكتةُ تقديمِ الفِرار على الخَوْف:

تقديمُ النَّتيجةِ على العلَّةِ المُفضيةِ إليها

عند النظر في سياق الآية الكريمة نجد أنَّ الخوفَ من آلِ فرعونَ هو المتحقَّق أوَّلًا، فلمّا خاف موسى عليه السلام؛ فرَّ منهم، لكنَّ النَّظم قدَّم الفرار على الخوف في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، الذي دخلت عليه ﴿لَمَّا﴾ المؤخَّرة الرابطة للمعنى، والتقدير: (فعلتها خطأً)، فلمّا خفتكم؛ فررت منكم، وذلك أنَّ الفرار مترتِّبٌ على الخوف، لكن وقع في الجملة تقديم وتأخير؛ للتنويه بِخطورة المقدَّم، وهو الفِرار الدال - بطريق اللزوم الكنائي - على بشاعة انتقام فرعون ممَّن يغضب عليه، ولأنَّ الفرارَ مأخوذ عليه عليه السلام وقد لبث فيهم من عمره سنين، فكان تقديمُهُ ضروريًا في هذا المقام المتوتر؛ لبيان عذره فيه، فهو من باب تقديم النَّتيجة على العلَّة، والفعل على سببه.

براعةُ جمع الضمائر وإفرادها في سياقٍ واحد:

الخوفُ من بطش الملأِ جميعًا، والامتنان صدر عن فرعون وحدَهُ

من دقَّة النَّظم القرآني الكريم هنا جمْعُ الضَّميرِ المجرور في ﴿مِنكُمْ﴾، والمنصوب في ﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفراد ضمير الفاعل في ﴿تَمُنُّهَا﴾، و﴿عَبَّدتَّ﴾، وذلك مراعاة لدقيق المعاني؛ إذ إنَّ "الخوفَ

---

(1) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 63.

والفرار لم يكونا منه - أي: من فرعون - وحدَهُ، ولكن منه ومِن مَلَئِه المؤتمِرين بِقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، وأمّا الامتنان؛ فمِنْهُ وحدَهُ، وكذلك التَّعبيد"(1).

بلاغةُ التعبيرِ بمفردة الخوف:

لا يُلامُ المؤمنُ على خوفه الفطري على حياته وسلامته

جاء التَّعبيرُ بمفردة الخوفِ دونَ الخشية؛ لبيان أنَّ خوفَهُ كان فطريًّا، وفي إيثار النَّظمِ الكريم التَّعبيرَ بالخوفِ إشارةٌ إلى جواز حصوله للمؤمن مِن الخلق، وهو الخوف المتعلِّق بمجرَّد الأذى، لا الخوف المتعلق بإنهاء الأجل أو فوات الرزق.

و"يجوز حملُهُ على ظاهره، وأنَّه خاف منهم على نفسِه، والفرار - عند عدم الطاقة - غيرُ مذموم عند كلِّ أحدٍ، ويقال: فررتُ منكم لمّا خفت أن تنزل بكم عقوبة من اللّه تعالى؛ لِشؤم شِركِكم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]"(2)، فهو على هذا المعنى الثاني واردٌ على ربط الخوف بغضب اللّه تعالى، وليس منهم هم.

نوعُ الفاء في فعل الوَهب ومعناها:

الفرارُ من الطُّغاة من أسباب الفرج

الفاء في جملة ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ عاطفةٌ، عطفت جملتها على قوله عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾، وفرَّعتها عليها، أي: إنَّ الفرار من طغيان الطُّغاة بمنزلة السَّبب الأكيد لِنزول الفرج، وأنَّه لو استكان للظالمين وهادنهم؛ لما وُهِب له هذا الحكم الغالي.

نكتةُ استعمالِ مفردة الهبة:

النُّبوَّة فيضُ فضلٍ ومحضُ هبة يهبها الله تعالى لمن يشاء

في اصطفاء مفردة الهبةِ في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تجرُّدٌ من الحول والقوة، ومحضُ العطاء لِفضل اللّه تعالى، ففراره عليه السلام وإن كان سببًا للفرج، غير أنَّ منحَهُ الحكم والنُّبوة من اللّه تعالى

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 9.

فيضُ فضلٍ ومحضُ هبة، وهبها اللّهُ تعالى إيّاه، ففي الاعتراف بذلك هضمٌ للذات، وتبرٌّ من استيجاب استحقاق الحُكم، وعود بالفضل إلى واهبه ﷻ كما جاء في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي»[1].

دلالةُ تقديمِ الجار والمجرور:

الامـتـنـانُ الحقيقيُّ هو لله تعالى وحدَهُ، وما دونه فمجازٌ أو كذب

في تقديم الجار والمجرور ﴿لِي﴾ في جملة ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ جميلُ امتنانٍ للكريم سبحانه وتعالى، وعظيم إحساس بأفضاله، فإذا كان هناك من امتنان؛ فهو لله الذي ربّاني، ورعاني، وصنعني، إلى ما في هذا التقديم من قَصْر القَلْب، وإرساله صريحًا بأنَّ اللّه تعالى بيده أسباب الهداية وحدَه، وأنَّه ﷺ إنَّما أوتي الهداية والحكم والنُّبوَّة بدون فرعون، وفي ذلك من طمس قدر فرعونَ أمام جلسائهِ وخلصائه ما فيه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبية:

هبةُ النُّبوة عطاء من عطاءات الربوبية

هبةُ النُّبوَّة والرسالة فيض كرمٍ واصطفاء من الربِّ الكريم، الذي يتعهَّد عبده بالتربية الروحيَّة والبدنية، ويفيض عليه من عطاءات الربوبيَّة ما يُفعم حياته بركة وسعادة؛ لذلك كان التَّعبيرُ بعنوان الربوبيَّة في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ أنسبَ للإقرار بالهبة، وإشارة إلى أنَّ عطاءات الربوبيَّة محضُ هباتٍ يَهبها سبحانه وتعالى من يشاء.

وجهُ الإضافةِ إلى لفظ الربوبيّة:

أهلُ الحقِّ لا يعتدّون بدعاوَى المفسدين

من مظاهر الامتنانِ، وعظيم الإحساسِ بالكرم الربّاني إضافةُ لفظ الربوبيَّة إلى ياء المتكلِّم في قوله: ﴿رَبِّي﴾، فموسى ﷺ يُعرِّض بِقصور فرعون عن دركِ المعالي بادِّعائه الكاذبِ باستحقاقه الربوبيَّةَ والألوهية، وأنَّه ﷺ لا يعتدُّ به ولا بدعواه الكاذبة، وذلك

(1) البخاري، صحيح البخاري، بابُ أَفْضَلِ الِاسْتِغْفارِ، الحديث رقم: (6306).

من القسوة عليه بمنزلة الذبح لغطرسته وطغيانه، وهكذا الأنبياء وأتباعهم لا يقيمون للظّالمين وزنًا.

نكتةُ استعمالِ مفردة الحُكم:

غايةُ الإرسال نشرُ الحِكمة وبسْطُ العدل

اختُلِفَ في تعيين المقصودِ بلفظ الحكم في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمًا﴾، فقيل: النُّبوَّة، وقيل: العلم والفهم[1]، وقيل: الحكمة والعقل[2]، وجميعُ الأقوال محتملةٌ، وتسمية النُّبوَّة بالحُكم فيه بيان غاية رسالته، وهي نشرُ الحِكمة وبسْطُ العدل، وضبْطُ الموازين وفْقَ الحقِّ والصواب.

دلالةُ تنكيرِ ﴿حُكۡمًا﴾:

حُكمُ النُّبوَّة تُحيطُ به المهابةُ وتتقدَّمُهُ الفخامة

نُكِّر لفظ ﴿حُكۡمًا﴾؛ للإيحاء بأنَّه حكمٌ خاصٌّ لا يعرفه فرعونُ، وأنَّه نوعٌ جديدٌ فريد يتَّكِئ على الحقِّ، ويستند إلى الهُدى، ويَتغيّا الصوابَ الموافق للفطرة السليمة والأخلاق المستقيمة، لا حكم فرعون المبني على الجهل والاستبداد، إضافةً إلى ما يضفيه تنكير ﴿حُكۡمًا﴾ عليه مِن الفخامة والمهابة والعظمة؛ لأنَّه مِن الربِّ الكريم الوهاب.

معنى الواو في الجَعل ودلالتها:

اجتماعُ الحُكم والرسالة الغاية في العطاء

الواو في جملة: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ واو العطف، التي جُمع بها بين عطاءين مَنحه اللّه تعالى إياهما أنْ وهبه اللّه تعالى الحُكم، وأنْ جعله من المرسلين، وبهما تَكامَل عليه التقويم الداخلي والمنحة الخارجية، فذلك أعظمُ عطاءين يجتمعان لإنسان، فوُهِب النُّبوَّة، وكُلِّف بالرِّسالةِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الجعل:

معالي الأمور من اللهِ تعالى وما يأتي من دونه فهو التّافِهُ السخيف

تدلُّ مفردة الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على معنى التصيير، أي: الانتقال من حالة إلى أخرى، فما فيه ﷺ من

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 552.
(2) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1821.

خير الرِّسالة، ونيل هذه الرُّتبة العليَّةِ إنَّما هو من اللّه تعالى، ففيه تعريضٌ بفرعونَ؛ إذ لم يكن منه إلّا توافهُ الأمور، أمّا أمرُ الرسالة والدَّعوة والتكليف بمعالي الأمور؛ فهو من اللّه ربِّ العالمين، وهو عطف دالٌّ على حشد للمغيظات التي تستبين في معالمها أمام فرعون وملئه.

علَّةُ التَّعبير بصيغة الماضي في فعل الجَعل:

إذا أنعمَ الله على عبدٍ؛ فلا رادَّ لفضله

التَّعبير بالماضي في قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي﴾، مطَّردٌ على نسق ﴿فَوَهَبَ لِي﴾، وكلاهما يقرِّر تحقُّقَ حصولهما، ويؤكِّد نسبة وقوعهما على نبي اللّه الكريم موسى ﷺ وأنَّه ليس مدَّعيًا، ممّا كان ينبغي له التأثير في فرعونَ وملئه، لكن هيهات لِمن تأصَّل في الضَّلال، وتمكَّن منه الكُفر أن يتأثَّر بمثله.

نوع ﴿مِنَ﴾ ومعناها:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للتبعيضِ، فهو أحد أولئك المرسلين، وأنَّه سائر على منهج اللّه تعالى كما ساروا.

دلالةُ استعمال مفردة الإرسال:

الرسالةُ شرفُ الرَّسول وإكرام المرسَلِ

جاء التَّعبيرُ بالإرسال في القيد ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للتنويهِ بِشرف مهمته، والتنبيه إلى وِجهة الحُكم الذي وهبه اللّهُ تعالى إيّاه، وأنَّه حكم الرسالة وحِكمة النُّبوة، المنزَّهة عن القصور، المصونة عن الاختلال، لعل ذلك يجدي مع فرعون[1].

فائدةُ إشارةِ الجمع في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

خطابُ الخصمِ برباطة جأشٍ يُقرِّب مسافات الصِّدام

جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع في لفظ: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فلم يقل: (وجعلني مرسلًا)؛ لبيان التواضع وهضم الذات، بإدخالها وشمولها ضمن المرسلين، وفيه إشارةٌ إلى وحدة الدعوة إلى اللّه تعالى، وأنَّ المرسلين جميعًا أولاد علّات، دينهم واحدٌ، وأمَّهاتهم شتى[2]، وهي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 228.

(2) كما ثبت في الحديث: «والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهم شَتّى، ودِينُهم واحِدٌ»، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3443)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2365).

تحمِل في طيّاتها تنبيهًا لفرعون، وتذكيرًا بِنجاة من سبق من المرسلين، وتحذيرًا بما آلت إليهم رسالاتهم من النصر على من ناوأهم، وتعريضًا ببقائها وذهابهم، وأنَّ مَن أتى على درب الحقِّ والهدى لا شكَّ منصورٌ، وأنَّ دعوته نافذةٌ ماضية بإذن اللّه تعالى.

نوعُ الواو ومعناها:

المستبدّون يرَون أخطاء غيرهم جرائمَ، وجرائمهم أخطاء

(الواو) في جملة ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ للاستئناف، حيث استأنف بها من الدفاع إلى الهجوم، ومن ردِّ التُّهمة إلى توجيهِ تُهَمٍ أنْكَى وأفظع، فإنْ كان موسى عليه السلام قد قتل نفسًا خطأً؛ فإنَّ فرعون قد قتَّل، وذبَّح الأبناء، واستحيا النساء، واستذلَّ الرجال، وأمات فيهم معانيَ القوامة والإنسانية.

بلاغةُ الاستفهامِ في اسم الإشارة بغير أداته:

الاستفهامُ المفهوم بالنَّبر أقوى وقعًا من الاستفهام اللفظي

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فيه استفهامٌ وتبكيت، على مذهب الأخفش، بتقدير أول الكلام همزة، أي: قبل ﴿وَتِلۡكَ﴾، وأصل الكلام: (أو تلك)؟ أي: ليست هذه نعمة حتى تمنَّ بها عليَّ، وهذه الهمزة للاستفهام الإنكاري المتضمِّن معنى النفي[1]؛ لإقامة الحجة على فرعون وإفحامه بها، وإقامة الدليل على فظاعة جُرْمِه في حق شعبٍ بأكمله، فهو سؤالٌ لا يَطلب جوابًا بنَعَم أو لا، بل هو إلزام حُجة وفضح جُرم وتأكيد ظُلم؛ فمِن شأنه إخزاء الخَصم وكسر جبروته، وقد أتى الاستفهام بغير أداةٍ لفظيَّة ظاهرة؛ ليكون الاستفهام نبرًا مسموعًا، وهو أشدُّ وقعًا من الاستفهام الملفوظ.

ثم هو دليلٌ على قوَّة موسى عليه السلام في بيان الحقِّ وإظهاره، وعدم اكتراثه بمكانة متجبِّرٍ، يوهم الضعفاء بأنَّه إلهٌ لا يُسأل عمّا يفعل، فالكلام "خرجَ مخرج التبكيت، والتبكيت يكون باستفهام وبغير

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 517، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 63/ 7.

استفهام، والمعنى: (لو لم تَقتل بني إسرائيل؛ لربّاني أبَواي، فأيُّ نعمة لك عليَّ؟ فأنت تَمُنُّ عليَّ بما لا يجب أن تَمُنَّ به)، وقيل: معناه (كيف تَمُنُّ بالتربية، وقد أهنتَ قومي؟) ومَن أُهين قومُه؛ ذَلَّ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالإشارة:

تعبيدُ الناس واستذلالُهم جريمةٌ توجب الذمَّ لا المدح

ترجِع الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ﴾ "إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18]"[2]، أي: وهل تمتنُّ عليَّ بتربيتك إيّاي، وتسمي تلك نعمة، وفي التَّعبير بهذه الإشارة التي للبعيد: (تلك) إشعارٌ بِبُعدِها في باب الظُّلم، وبُعدها عن ساحة الحقِّ، وإضفاءٌ لِمعنى القُبح عليها، وأنَّها لا مكان لها بين أهلِ الحقِّ - وهم هنا موسى وأخوه هارون عليهما السلام - ولا ثالث لهما في هذا المقام.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿نِعۡمَةٞ﴾:

يُؤذي المـمتنَّ تبكيتُه بألفاظ الامتنانِ الَّتي يَحوم حولها ويتحاشاها

من أقوى العناصر التركيبيَّةِ - كَسْرًا لفرعون في هذا الحوار - رميُهُ بِمفردة ﴿نِعۡمَةٞ﴾ في مقام التبكيت هذا، وهي مع صفتها ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أشدُّ ما قَرع به موسى عليه السلام جبروت فرعون وهَيْلمانه في هذا المقام؛ ذلك أنَّ النِّعمة المباشِرة هي أقوى ما يُمكن أن يَمتنَّ بها مُنعِمٌ على فقيرِه، فكأنَّ موسى عليه السلام قد طرقَ فرعونَ بمطرقةٍ ثقيلة، وأتى عليه بالضَّربة القاضية، فتركه حيران، لا يجد بُدًّا من التحوُّل بالحوار عن هذا الطريق المسدود إلى طريق آخر يمكن أن يجاريَه فيه، فتحول مجبَرًا إلى أحلى المُرَّيْن، وهو المحاورة حول ما يتعلَّق بِأخبار ربِّ موسى وهارون الذي أرسلهما: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة:

كشْفُ الحقائق بالبيان الصّادق من أشدِّ ما يؤلم المفتري الكاذب

استُعْمِلَت مفردة الامتنان هنا، والامتنان يكون بِنعمة حقيقية خالية من الأذى، ويكون المُمْتَنُّ قد أولاها فقيرَهُ الآخذ، والواقع هنا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 96.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 148.

عكس ذلك؛ إذ لم يولِ فرعونُ بني إسرائيل نعمةً؛ ليمتنَّ بها على موسى عليه السلام بل المنَّةُ لبني إسرائيل على فرعون؛ لأنَّهم خُدّامه وزارعو أرضه وحالبو ضَرْعه، وهو الذي يقابل تلك المِنَنَ - منهم عليه - بالنُّكران والتعبيد والقهر والإذلال، ففي مفردة ﴿نِعۡمَةٞ﴾ و(مِنَّة) إذًا استعارتان تَهكُّميَّتان لاذِعتان، مؤلمتان أشدَّ الإيلام، بما فيهما من استهزاء بالمخاطَب، المرادُ به التوبيخُ؛ لما فيهما من كشف الكذب، وبيان البهتان، ورفض الاستخفاف.

نكتةُ تنكيرِ مفردة ﴿نِعۡمَةٞ﴾:

الملوكُ هي التي تـولي النِّعَـم، والمِنَّـةُ عليهم من أتباعهم عارٌ وشَنار

نُكِّرت لفظة ﴿نِعۡمَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ لمزيد الإهانة؛ إذ إنَّ تنكيرها يُهَوِّلُ من شأنها، ويُعظِّم قدرها، مع أنَّها افتراضية تهكُّمية غير موجودة، فتلك مفارَقة تزيد فرعون إيلامًا، وتَصبُّ عليه الصَّغار صَبًّا، وهو الذي يزعم لنفسِه الربوبية والألوهية، وليس الملك عليهم فحسبُ، ومع ذلك يتخذ من ذلك مِنَّة يمتنُّ بها عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في الامتنان:

استـحـضـارُ الظُّلمِ في مقام التبكيت إنكارٌ لدعوى الخصم

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿تَمُنُّهَا﴾؛ لزيادة التبكيت والتشنيع على فرعون، ولتزيد المقامَ على فرعون التهابًا وتأجُّجًا؛ لأنَّها تستحضر الجرائم، وتفضح الظُّلم، وتَعرض امتنان فرعون على موسى عليه السلام في معرض التجدُّدِ الماثِل المقيت، والاستمرار الحاضر المخزي.

معنى حرفِ الاستعلاء (على):

كـلُّ مُحبٍّ مخلص لأهله يؤذيه ما يُؤذيهم

دلَّ حرفُ الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ على الاستنكار الصّادر عن موسى عليه السلام، فإنَّ امتنان فرعون كان على موسى عليه السلام على وجه الخصوص، فإيرادُ حرف الاستعلاء بهذا الاعتبار يزيدُ من استنكاره، وليكون كذلك مقدِّمةً لبقيَّة الجملة وهو ذكره لقومِه، فإنَّ المنَّة المبنيَّة على استعباد قوم الممنون عليه ليست بمنَّةٍ.

نوع ﴿أَنۡ﴾ ودلالتها:

التَّعبيرُ بالجملة المصدريَّة يتيح دلالاتٍ لا يتيحها المصدر الصريح

﴿أَنۡ﴾ في جملة ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مصدريَّةٌ، وتقدير الكلام بعد سبكها مع ما بعدها في مصدر: (هل تَعُدُّ تعبيدَك بني إسرائيل وقهرَهم وإذلالهم مِنَّةً تَمتنُّ بها ﴿عَلَيَّ﴾؟) فالتَّعبير بالجملة المصدرية يتيح من الدلالات والإشارات ما لا يتيحه المصدر الصَّريح، ومن المقرَّر أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، ويجوز أن يكون ﴿أَنۡ﴾ في موضع نصب، والمعنى: إنَّما صارت نعمةً ﴿عَلَيَّ﴾؛ لأنَّكَ عبَّدت بني إسرائيل، أي: لو لم تفعل ذلك؛ لَكَفَلَني أهلي، ولم يُلْقوني في اليمِّ[1].

وعلى كلٍّ ففي هذه العبارة نقضٌ لامتنان فرعونَ بقلب النِّعمة نقمةً بتذكيره أنَّ نعمةَ تربيته ما كانت إلّا بسبب إذلالِه بني إسرائيل، وفيه أنَّ الإحسانَ إليه مع الإساءة إلى قومِه لا يزيد إحسانًا ولا منَّة[2].

لطافةُ التعبيرِ بتعبيد بني إسرائيل:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّعبيدَ لا يكون إلّا للهِ، وما كان لغيرِه فباطلٌ

جاء التَّعبيرُ بالتعبيد في قوله تعالى: ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون ذكرِ الإذلال أو الإهانة؛ لأنَّ التعبيد يعني: الحبس والإذلال، أو الاسترقاق؛ سُمّي بذلك لما فيه من الإذلال، مأخوذ من قولهم طريق معبَّد[3]، والعَبْدُ: هو المملوك، والجماعة العبيدُ، وهم العباد، إلّا أن عامَّة أهل العربيَّة اجتمعوا على التَّفرقة ما بين: عباد اللّه، والعبيد المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمعهم يشتقّوا منه فعلًا، ولو اشتُقَّ؛ لقيل: (عَبُدَ)، أي: صار عبدًا، وأَقَرَّ بالعُبودية، ولكنَّه أُميتَ الفِعْلُ، فلم يستعمل، وأمّا عَبَدَ يَعْبُدُ عبادةً؛ فلا يقال إلّا لمن يعبد اللّه تعالى[4]، وتعبيدُ الإنسان للإنسان ذُلٌّ، يأباه اللّه

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 168.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).

تعالى لعباده، وتأباه النُّفوس القويمة، وإنَّما تكون العبوديَّة شرفًا؛ إذا كانت لله سبحانه وتعالى؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالتَّعبيد جامعًا للذل النفسيِّ والجسدي والفكري، مع الإشارة إلى أنَّ هذا التعبيدَ لا يكون إلّا لله تعالى.

نكتةُ التَّصريح ببني إسرائيل بعنوان النَّسب:

في ذِكْـرِ القوم مـضافـين إلى نـبيّـهـم شـرفٌ لـهـم، وإيـجـاب لإكرامهم

عرَّف موسى قومَهُ حين استدعى المقامُ ذِكرَهم أمام فرعون بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون التَّعريف بالإضافةِ (قومي)؛ وذلك للتَّنويه بِشرفهم حينئذٍ؛ فَهُم من سلالة نبيِّ الله تعالى يعقوب عليه السلام وتلك مكرمة تَستوجب إكرامهم وتكريمَهم لا إذلالهم وتعبيدهم، وإلّا لكان تعريفهم بالإضافة (قومي) أوفَى بِحقِّ العصبَةِ، وأنسب وجهًا للدِّفاع عنهم؛ لو كان الأمر في غير نبوَّة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

الفعل أعمُّ من العمل ويكثر في سجايا الإنسان

العمل إيجادُ الأثر في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعمل الطين خزفًا، والأديم سِقاء، ولا يُقال: يفعل ذلك، فالفعل عبارة عمّا وُجد في حالٍ كان قبلها مقدورًا سواء كان عن سببٍ أم لا، وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: 96]، أي: خلَقكم وخلَق ما تُؤثرون فيه بِنَحتِكُم إياه أو صَوْغِكم له، وأصل العمل في اللُّغة الدُّؤوب، ومنه سُمّيَتِ الراحلة يَعْمَلَة[1]، وهي من الإبِل: البَعيرُ القوي على الأَسْفار والأحمال، والذَّكرُ والأُنْثَى فيه سَواء، والهاء فيها للمُبالَغَة، وهي الَّتي يختارها الرجل لمركبه ورَحْله؛ للنَّجابة وتَمام الخِلقَة وحسن المنظر، فَإذا كانَت في جماعَة الإبِل؛ عُرِفت[2]، والفعل أعمُّ من العمل، ويكون في السُّلوك المختار، وفي الأفعال التي هي سجايا الإنسان.

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 377.

(2) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 21/ 310.

الخوف والخشية:

الخوف عامٌّ فيهما، والخشيةُ خوفٌ مخصوص

الخشيةُ أعظمُ من الخوف، والدليل على ذلك قولُه تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]؛ "حيث ذكر الخشية في جانبه سبحانه والخوف في جانب الحساب"[1]، و"الخوف فراغٌ باطنٍ قريبٌ من الرُعب والفَرَق، أمّا الخشية؛ ففيها استشعار النفس حِدَّة تقع لا مَهرَبَ منها؛ إذا اسْتوجبَتْ، وفيها - مع ذلك - استيحاشٌ وجَفْوةٌ وخُشونة قد يعبِّر عنها التوتُّرُ الحادُّ"[2].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 217.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خش).

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء: 23 - 24]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من توجيه الاتِّهام إلى توجيه الاستفهام

لّما كلَّم اللئيمُ الذَّميمُ الكليمَ العظيمَ بما رجا أن يَكُفَّه عن مواجهته بما يَكره، ويُرجعه إلى مداراته فلم يفعل، وفَهِم ما في جوابه هذا الأخير من الذَّمِّ له والتعجيز، وإثبات القدرة التّامَّة والعلم الشامل للّه تعالى بما دبَّر في أمر موسى ﵇ وأنَّه لا ينهض لذلك بجوابٍ، ولا يُحمَد له فيه قولٌ؛ عَدَل عنه إلى جوابه عن الرسالة بِما يُموِّه به أيضًا على قومه؛ لئلّا يرجعوا عنه، فأخبر تعالى عن محاورته: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ حائدًا عن جواب موسى ﵇ لِما فيه من تأنيبه وتعجيزه[1]، فهو انتقالٌ من جواب موسى ﵇ على اتِّهام فرعون، إلى ذكر حوارٍ آخرَ فرَّ إليه فرعون؛ لِما فهمه من فحوى إجابات كليم اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّوقِنِينَ﴾: (يقن) أصل الكلمةِ يدُلُّ على السُّكون والظُّهور، أو الثُّبوت والاستقرار والدَّوام، ومنه: أمر يقين، أي: ثابت مستقر[2]، واليقين: الجزمُ والقَطْعُ، يُقالُ: أيقَنَ فلانٌ بالأمر، يوقن، يقينًا وإيقانًا: إذا جزم به[3]، ويأتي بمعنى التَّحقُّق والعِلْم الَّذي لا شكَّ معه، يُقالُ: يقن الأمر، يقنًا، وأيقنه وأيقن به، وتيقَّنه: إذا عَلِمه وتحقَّقه كلّه[4]، وضِدُّه: الشَّكُّ والرَّيب، ويأتي اليقين بمعنى التَّأكد، يُقال: أيقن الخبَر، أي: تأكد منه، ومن معانيه أيضًا: الاطمئنانُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 23.
(2) الراغب، المفردات: (يقن).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 259، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 68.

والوضوحُ[1]، والموقِنُ في الآية معناه: العالِمُ عِلْمًا لا يقبلُ الشَّكَّ، وهو الإيقانُ، وسُمّيَ العِلْمُ بذلك لأنَّ شأْنَ اليقينِ بأنَّ خالقَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما هو الإله لا يُشاركه غيرُه[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الـربُّ الحـقُّ خالقُ السماوات والأرض وما فيهنَّ لا المتغطرس فيهنَّ

حين افتُضِحَ عجْزُ فرعون أمام قوَّة بيان موسى ﵇؛ رجع إلى القضية الأساس التي جاء بها موسى ﵇، وكان قد تهرَّب منها، فقال: وأيُّ شيءٍ ربُّ العالمين الذي أنت وأخوك جئتما لِتُبَلِّغا رسالته لي، وما صفته؟[3].

فأجابه موسى ﵇ بما يدلُّ على اللّه سبحانه وتعالى دلالة بيِّنة، وتثبت أنَّه المستحقُّ للرُّبوبية لا اللعين العاجز، فقال ﵇: ربُّ العالمين هو ربُّ السموات وما فيهن من الكواكب الثوابت، والسيارات النيِّرات، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بينهما من الهواء والطَّير، وما سوى ذلك ممّا لا نشاهده، ولا ندركه، كلُّ ذلك مربوبٌ للّه تعالى خاضعٌ لسلطانه، إن كانت لكم قلوب صالحةٌ لليقين، وبصائرُ نيرةٌ تهدي إلى الصراط المستقيم، أو إنْ كنتم موقنين بشيءٍ من الأشياء، فهذا أوْلى بالإيقان لِظُهوره ووضوح دليله[4].

وترشد الآيتان إلى أنَّ تقريرَ الربوبية المقتضيةِ للألوهيَّة من طريق هذا الحوار؛ ليسمع ذلك المشركون، وليعلموا أنَّهم مسبوقون بالشرك والكفر وأنَّهم ضالون، فما يدَّعيه فرعونُ من الألوهيَّة محضُ كذب وافتراء، فليس في قدرتِه أن يخلق شيئًا[5].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يقن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 118.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 240.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1564.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1564، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 645.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ صدرِ الآية عن سابقِها:

إثارةُ ذهن المتلقّي من مقاصد النَّظم الكريم

فُصِلت جملة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البياني؛ إذ يترقَّب المتلقي ردَّ فرعون على إفحام موسى عليه السلام له في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟ فجاء ردُّه سؤالًا لا جوابًا لِسؤال موسى عليه السلام.

سببُ العدولِ عن الجواب إلى السؤال:

فرارُ فرعونَ من الجواب أشدُّ من فرار موسى عليه السلام من القتل

كان مقتضى سؤالِ موسى عليه السلام الإنكاريِّ التوبيخيِّ أنْ يَدفع فرعون عن نفسه التُّهمة، وأنْ يتبرَّأ منها، لكنه عجَز، وافتُضح، ورجع صاغرًا إلى ما كان قد هرَب منه في أول الحوار، من قول الرسولين الكريمين: موسى وهارون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعراء: 16]؛ فلمّا "أخبر موسى عليه السلام فرعونَ بأنَّه رسولُ ربِّ العالمين؛ لم يسأل إذ ذاك، فيقول: وما ربُّ العالمين؟ بل أخذ في المداهاة وتذكار التربية، والتقبيح لِما فعله مِن قتل القبطي، فلمّا أجابَهُ عن ذلك؛ انقطعَتْ حُجَّتُهُ في التربية والقتل"(1).

سببُ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

قطْعُ الاحتمالاتِ يُعين على تأمُّل الحوار دون اضطراب الأذهان

آثر النَّظمُ الكريم التصريحَ بذكر ﴿فِرْعَوْنُ﴾، فخلت منه الجمل السّابقة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 16 - 18]، فلم يُذكَرْ لفظُ (فرعون)، "وإظهار اسم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ مع أنَّ طريقة حِكاية المقاولات والمحاورة يُكتفى فيها بضمير القائلين بِطريقة قال قال، أو قال فقال، فَعُدِلَ عن تلك الطريقة إلى إظهار اسمه لإيضاح صاحب هذه المقالة؛ لِبُعد ما بين قوله هذا وقوله الآخر"(2)، وهو وإن كان مفهومًا من النَّظم، إلّا أنَّ التصريح به يقطع الاحتمالات.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 8/ 149.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 116.

المراوغون يأتونَ بما يدلُّ على ترابط كلامهم

نوعُ الواو ودلالتها في ﴿وَمَا رَبُّ﴾:

الواو في جملة ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عاطفةٌ هذا الاستفهامَ على الاستفهام الأوَّل الذي وقع كلام موسى فاصلًا بينه وبين ما عُطف عليه[1]، أي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء: 18]، فالعطف على جملةٍ سابقةٍ دلَّ على هروبه الصريح والتحول إلى باب جديد من الجدال، والواو توحي بأنَّ فرعونَ ربط بين السُّؤالين؛ ليدلَّ على أنَّه لم ينقطع عن جواب موسى عليه السلام، بل تابع ما ابتدأه من السؤال الأوَّل.

الموفَّقُ في المناظرة يتجاهلُ تجاهُلَ خصمه ويمضي في بيان المقاصد

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُهُ في ﴿وَمَا رَبُّ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ "مشوبٌ بِتعجُّبٍ وإنكارٍ على طريق الكناية، ومِن دقائق هذه المجادلة أنَّ الاستفسار مقدَّمٌ في المناظرات، ولذلك ابتدَأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أَرسَل موسى عليه السلام"[2]، وإلى ذلك ففي هذا السؤال: "تجاهلٌ عَن عارفٍ أنَّه عبدٌ مربوب بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102]"[3]، ومع ذلك فتجاهَلَ موسى عليه السلام تجاهلَهُ، وأفحمه بالجواب الوافي الشافي، الذي يَزيده صغارًا: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لما في سؤاله من التَّعريض بأن يعبد موسى عليه السلام إلهًا سواه، كأنَّه قال: "ومن هذا الذي تزعم أنَّه ربُّ العالمين غيري"[4].

يتجاهلُ أهلُ الفهاهة والجِدال حقائقَ يعلمونها للحيدِ عن الحقِّ

نكتةُ الاستفهامِ بأداة ﴿وَمَا﴾:

آثر النَّظمُ استعمالَ اسم الاستفهام ﴿وَمَا﴾ دون (مَن)؛ لبيانِ خُبْث طويَّة فرعونَ، ومَكْر نَفْسِهِ الشرّيرة؛ إذ لم يَسأل: مَن ربُّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 117.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 18.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 138.

العالمين؟ وكأنَّه لا يَدري عن أيِّ شيء يسأل؟ و"يستوصفه إلهَهُ الذي أرسله إليه، أي: (ما إلهك هذا؟) فأجابه موسى بما يدلُّ عليه مِن خلقه ما يعجز المخلوقون على أن يأتوا بمثله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنَّه خلَق ذلك"[1].

علَّةُ إيرادِ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في سؤال فرعون:

المحاجِجُ القويُّ يُلْجِئُ خَصمه إلى ما يريد من إثبات الحجج

التَّعبيرُ بـ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لَم يَرِد في السياق إلّا في تكليف اللّه تعالى لِموسى وأخيه هارون عليهما السلام قبل هذا الموقفِ بثماني آياتٍ: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعراء: 16]، ثم انتقلَ السياق إلى مَشهدِ حِوار موسى عليه السلام وفرعون؛ لبيان محاولة فرعونَ إنكار كلامِ موسى عليه السلام وتجاهُلِه بذكر تربيته موسى عليه السلام: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18]؟ كأنَّه يقول: (نحن ربَّيناك، فكيف يكون لك ربٌّ آخر؟) ثم يعود فرعون إلى السؤال عن ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، الذي حاول تمويهه على الملَأ بالامتنان على موسى عليه السلام، ومن توفيق اللّه لنبيِّه الكليم في هذه المناظرة أنِ اضطرَّه إلى الرجوع إلى ما هرب منه.

فائدةُ فصلِ الجملة عن سابقِها:

فُصِلَت جملة ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البياني؛ لِتَرَقُّبِ المتلقّي جواب موسى عليه السلام، فجاء الردُّ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

بلاغةُ العدولِ في الجواب عن ظاهر اللّفظ إلى معناه:

الإســـــاءةُ في الـــســـؤالِ لا تقتضي تصويبه في اللّفظ بل في الجواب

"لَمّا عَلِم موسى عليه السلام خَطَأَ فرعونَ في السؤال؛ أجابه على مراده لا على لفظه، فقال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾"[2]؛ فأتى موسى عليه السلام "بالصِّفات الدالة على اللّه تعالى من مخلوقاتِه التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعونُ عن الجنس، ولا جنس للّه تعالى؛ لأنَّ

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 352.

(2) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية: 1/ 468.

الأجناس محدَثَةٌ، فَعَلم موسى ﷺ جهلَهُ فأضرب عن سؤاله، وأعلمه بِعظيم قُدرة اللّه تعالى التي تُبَيِّن للسامع أنَّه لا مشاركة لِفرعون فيها"[1]، أي: "كما توقنون هذه الأشياء التي تعايِنونها، فأيقنوا أن إله الخلقِ هو اللّه تعالى الذي خلَقها، وأوجدها"[2].

فتضمَّنَ جواب موسى ﷺ تنبيهًا على أنَّ الاستدلال على ثبات الخالق الواحد يَحصل بالنظر في السماوات والأرض وما بينهما نظرًا يؤدّي إلى العِلم بحقيقة الربِّ الواحد المتازة عن حقائقِ المخلوقات؛ ولهذا أتبعَ بيانَهُ بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إنْ كنتم مستعدّين للإيقان، طالبين لِمعرفة الحقائق غير مكابرين[3].

دلالةُ اختيارِ عنوان الربوبية في جواب موسى:

ما أعجَب حالَ مَن يَتقلَّب في نِعم الله تعالى ويجحد إنعامَه!

في إضافة ﴿رَبُّ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ بعنوان الربوبيَّة إلى عطاءاته سبحانه وتعالى وبركاته على كل مَن في السماوات، وكل من في الأرض، ومنهم فرعونُ وملَؤُهُ، وأنَّه سبحانه ربُّهم الذي به تقوم حيواتهم، برغم ما هم فيه وعليه مِن ضلال واستبداد، وتعبيد لبني إسرائيل، وفي ذلك فضْحٌ لتناقُضهم، كيف يتمرَّغون في نِعم اللّه تعالى، وينكرون فضله.

فذَكَر موسى ﷺ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سبحانه بعنوان الربوبيَّة دون الألوهيَّة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ امتنانٍ بخلْق وإنشاء، وتدبير ورعاية ورزق، وما إليها ممّا ينال فرعون نفسَهُ وملأَه.

نكتةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

عُطِفت ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما يرونه في الأرضِ هو تابعٌ لما في السماوات، وأنَّ السماوات التي لا يعلمون عن حقائقها شيئًا أعظمُ ممّا يشاهدون.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 98.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 117.

علَّةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

شَرفُ السماواتِ وعلوها وفخامتها يقتضي تقديمها على الأرض

في تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى فضلِها عليها، وتبيان إلى ما في السماوات من عظمة الخلق والأمر، وإلماحٌ إلى ضآلة المخاطَب بالنسبة إلى عظمة ملكوت اللّه تعالى، ملكوته تعالى في الملَأ الأعلى أعظم وأجل.

هذا، وقد دَرَجَ الذِّكر الحكيمُ والسنة الشريفة على تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلّا في مواضعَ محدودة، قُدِّمت فيها الأرض لإشارات مهمَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]، وذلك لتوهُّم الناس أنَّ عِلْمَ اللّه تعالى بما في السماء أقرب إليه، وأيسر عليه مِن علمه ﷻ ما في الأرض، فبدأ بالأرض معالجةً لذلك الوَهْم.

معنى تعريف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعريف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادة شمول الجنس، وأنَّ ربوبيَّة اللّه تعالى مطلقةٌ، لا يندُّ عنها مخلوق، فلا أحدَ إلّا ينضوي تحت مظلَّة الربوبيَّة العظيمة.

نوعُ واوِ البينيَّة ودلالتها:

ما بين الجهتَين تابعٌ للسَّماوات والأرض في الخلق والتَّصرُّفِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ عاطفةٌ، والمعنى: ما بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ داخلٌ في مربوبيَّة الربِّ العظيم سبحانه "من الكواكب الثوابت، والسيارات النيرات، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بينهما من الهواء والطير، وما سوى ذلك ممّا لا نشاهده، ولا ندركه، كلُّ ذلك مربوبٌ للّه تعالى خاضعٌ لسلطانِهِ"[1]، فتكون الواو قد أفادت إحاطةَ اللّه تعالى لمخلوقاته.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1564.

نكتةُ استعمالِ ﴿وَمَا﴾ الموصولة دون (مَن):

(ما) في قيد ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ موصولة، ودلالتها أوسعُ من (مَن)؛ إذ تختصُّ (مَن) بالعقلاء، أمّا (ما)؛ فتعمُّهم وغيرهم، فتفيد عمومَ ربوبيَّة الربِّ العظيم سبحانه وتعالى جميعَ المخلوقات، التي منها المخاطَب - فرعون وملَؤُهُ - وممّا يعلمه، وممّا لا يعلمُهُ.

المجهولُ من الخلقِ أكثرُ وأوسعُ من المعلومِ

فائدةُ تقييدِ لفظ (الرّبّ) بالظرف:

التقييدُ بالظَّرف في متعلَّق جملة الصِّلة ﴿بَيْنَهُمَآ﴾ يُلمِح إلى بَسْط اللّه تعالى سلطانه على كلِّ مخلوقٍ، وأنَّ ربوبيَّتَه محيطةٌ بكل شيء إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف، ولا ريب أنَّ نبيَّ اللّه تعالى موسى عليه السلام يَعلم، ويوقن بأنَّ سلطان اللّه تعالى وربوبيَّته محيطانِ بما وراء السَّماوات والأرض، ولكنَّ هؤلاءِ لا يعلمون أنَّ ثَمَّ شيئًا وراء السَّماوات والأرض؛ فاكتفى بهما وما بينهما ممّا يعلمون، وما لا يعلمون، ولا شكَّ أنَّ المجهول للخَلْق منه أكثر من المعلوم.

ربوبيَّتُهُ تعالى محيطةٌ بكلِّ شيءٍ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف

نكتةُ تثنيةِ الضَّميرِ العائد:

السماوات جمعٌ، "فإن قلتَ: كيف قيل: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التثنية، والمرجوعُ إليه مجموعٌ؟ قلتُ: أُرِيد: (وما بين الجنسين)، فُعِل بالمضمر ما فعل بالظاهر"[1].

دلالةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ في الآية دون (إذا):

استعمال أداة ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يُلمح إلى استبعاد ذلك منهم، وأنَّ الضلالَ خيَّمَ على نفوسِهم، ولَفَّهم لَفًّا يَصعب معه حصولُ اليقين لهم، أمّا (إذا)؛ فلا تناسب حالهم؛ لما توحي به مِن القَطْعِ لهم باليقين، أو الطَّمعِ فيه وغلبة الظن بوقوعه منهم، وحصوله لهم.

مَن لَفَّهُ الضَّلالُ يُستبعَد منه اليقين الحق

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 307.

دلالةُ ذِكرِ ﴿كُنتُم﴾:

السَّماواتُ والأرض وما بينهما دليلٌ على الخالق المالك المتصرِّف

في التَّعبيرِ بصيغة الماضي في ﴿كُنتُم﴾ في جملة الشَّرط ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ مع أنَّ طلَبَ الإيقانِ يكون للمستقبل، هو التَّنبيهُ إلى أنَّ ذلك اليقين كان حقُّه أن يُقطَع به، وأن يكون قد تحقَّق منذ زمن؛ لِما تَحمله دلائل القدرة الإلهية في الكون مِن حولهم مِن الدَّلالة على وجود ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ورعايتِه لهم، وفيضه عليهم من أنواع النَّعيم الذي يتقلبون فيه من الخيرات والطَّيِّبات، فـ "إنْ كنتم تعرفون الأشياء بالدَّليل؛ فكفَى السَّماواتُ والأرض وما بينهما دليلًا بأنَّ اللّه سبحانه خالقُها، ومالكُها ومدبِّرها، وقيل: إن كنتم موقنين بأنَّ السَّماوات لا بدَّ لها من ربٍّ، فالذي أدعوكم إليه ذلك هو الرَّبُّ، وقيل: إن أيقنتم أن ما تعاينونه، هو كما تعاينونه، فأيقنوا أنَّ ربَّنا ربُّ السماوات"[1].

وجهُ الخطابِ في ضمير الجمع:

مؤاخذةُ القائل لا تقعُ إلا بعد اتِّضاح مرادِهِ من مقالته

ضميرُ الجمع في ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، يُرادُ به "جميعُ حاضري مجلس فرعون، وأراد موسى عليه السلام تشريكهم في الدعوة؛ تقصّيًا لِكمال الدعوة، وأنَّ مؤاخذةَ القائل لا تقع إلّا بعد اتِّضاح مراده من مقاله؛ إذ لا يُؤاخذ بالمجملات"[2].

دلالةُ استعمالِ مفردةِ اليقين دونَ الإيمانِ:

النَّظرُ الصَّحيح يؤدّي إلى اليقين بالله تعالى ربًّا وإلهًا

اليقينُ مرحلةٌ في ثبات العقيدةِ أقوى من مرحلة حصولِ الإيمان، فالإيمانُ اعتقادُ الشَّيء، واليقينُ رسوخُ الإيمانِ وثبوته وعدم قابليَّتِهِ للتزلزُل، "فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وأين عن فرعون وملَئِه الإيقانُ؟ قلت: معناه إن كان يُرجى منكم الإيقانُ الَّذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفَعَكم هذا الجواب، وإلّا لم ينفع، أو إن كنتم موقنين بشيء قطُّ؛ فهذا أولى ما توقنون به؛ لِظهوره وإنارة

(1) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1822.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 118.

دليله"[1]، أو "إن كنتم موقنين الأشياءَ محقِّقين لها؛ عَلِمتم أنَّ هذهِ الأجرامَ المحسوسة ممكنةٌ لتركُّبها وتعدُّدها وتغيُّر أحوالها، فلها مبدأٌ واجبٌ لذاته"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الفاعلِ دون فعل اليقين:

اليـقـينُ أنـسـبُ للرُّسوخ والدَّوام

في إيثار اسم الفاعل ﴿مُّوقِنِينَ﴾ دون الفعل (توقنون) إشارةٌ إلى ما ينبغي أن يكون عليه العقلاءُ مِن رسوخ اليقين، أمّا الفعل؛ فيشير إلى مرحلة التكوين والتجدُّد والتذبذُب، وتغيُّر أحواله في نفس العبدِ بين الشدَّة والضعف، والاكتمال والنقصان، وما إلى ذلك من مظاهر تغيُّر أحواله في النَّفس، والذي يدعو إليه موسى ﷺ فرعونَ وملأَهُ هو اليقين الراسخ، الذي لا يعتريه تغيير، مع ما فيه مناسبة لفعل ﴿كُنتُم﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العلم واليقين:

العـلـم اعـتـقـادُ الشَّيء، واليقين اعـتـقـاده مع دليلٍ راسخٍ

الفرقُ بين العلم واليقين "أنَّ العلم اعتقادُ الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، واليقين: سكونُ النَّفس وثَلَج الصدر بما عَلِمَ؛ ولهذا لا يجوز أن يوصفَ اللّهُ تعالى باليقين، ويقال: ثلجُ اليقينِ وبَرْدُ اليقينِ، ولا يقال: ثلجُ العلم وبردُ العلم، وقيل: الموقنُ العالم بالشَّيء بعد حَيْرة الشَّك، والشاهد أنَّهم يجعلونه ضدَّ الشكِّ، فيقولون: شكٌّ ويقينٌ، وقلَّما يُقال: شكٌّ وعلمٌ، فاليقينُ ما يُزيل الشكَّ دون غيرِه مِن أضداد العلوم"[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 136.

(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 374.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ [الشعراء: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من حوار العقل إلى الهُزْءِ بالمخاطَب

لمّا وقَعَ عند فرعون أنَّ موسى عليه السلام؛ حادَ عن جواب ما سأله؛ لأنَّه إنَّما سأله عن ماهيَّته سبحانه، فأجابه عن قهره وربوبيَّته، فظنَّ أنَّه حائدٌ عن جواب ما سأله؛ لذلك قال لِقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى ما يقول موسى؟ تعجُّبًا منه أنّي أسألُه عن شيءٍ، وهو يجيبني عن شيء آخر[1]، فهو انتقالٌ من توجيه الاستفهام الذي يظهر منه أنَّه طالبٌ للحقِّ، إلى التَّمهيد للكلامِ البذيءِ الذي يَنِمُّ على الباطن اللئيم.

ولمّا كان ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قد استوعب به الخلائق كلَّها، فكان ذِكرُهم وذِكرُ آبائهم بعد ذلك؛ ليكون قد عمَّمَ أوَّلًا، ثمَّ خصَّص من العام للبيان أنفسَهم وآباءهم؛ لأنَّ أقربَ المنظور فيه مِن العاقل نفسُهُ ومَن وُلِد منه، وما شاهَدَ وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل مِن هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقتِ ميلادهِ إلى وقت وفاته[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْتَمِعُونَ﴾: أصلُ (سمع) يدلُّ على إيناس الشَّيء بالأُذُن من النّاس وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تقولُ: سمعتُ الشَّيء سمعًا[3]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرَك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا[4]، والجَمع أسماع، والسَّمْعُ أيضًا: الذِّكْرُ الجميلُ، والمِسْمَعُ: الأُذُن، والمَسْمَع:

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 55.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سمع).

المَوضع الَّذي يُسمع منه، من قولهم: هو منّي بمرأًى ومَسْمَع، أَي: حيثُ أراهُ وأسمع كلامه[1]، والسَّماعُ: اسم ما استلذَّت الأُذُنُ من صوتٍ حسَنٍ، والسماعُ أَيْضًا: ما سمِعتَ به فشاع وتُكُلِّمَ به، والسَّميعُ من صفات الله وأسمائه[2]، والاستماعُ: الإصغاء، نحو: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: 47][3]، والمقصود بالسَّمْع في الآية: الإحساسُ الَّذي به إدراكُ الأصواتِ الَّذي آلتُه الصِّماخُ[4].

2) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أصلُ (أول) يدلُ على ابْتِداءِ الأَمْر، فالأَوَّلُ، وهوَ مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، والـمُؤَنَّثَةُ الأولَى[5]، يقال: أَوَّلُ المطر قَطْرَةٌ، أي: بِدايَتُه، والأَوَّليَّةُ: ابتداءُ الشَّيءِ، ويُطلق الأَوَّل أيضًا على الواحِدِ، يُقالُ: جاءَ النّاسُ أَوَّلًا فأَوَّل، أي: بالتَّرتيبِ الواحِدِ بَعْدَ الآخَر، ويُستَعْمَلُ الأَوَّلُ بمعنى القَديم، كقَولِ: ما تَرَكَ لَهُ أَوَّلًا ولا آخرًا، أي: قَديمًا ولا حديثًا[6]، والمرادُ بالأَوَّلينَ في الآية: السّابقونَ المُتقدِّمون مِن الآباء والأجداد.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الحجَّةُ المتينةُ أقوى في العقل من السيوف الصقيلة

تُبيِّن الآيتان حيرةَ فرعون بعد جواب موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ فانصرف فرعون إلى الملأ الجلوسِ، وقال: ألا تستمعون إلى مقالة موسى العجيبة؟ أهناك ربٌّ سواي؟ فلم يُمْهلهم موسى عليه السلام، بل عاجلهم بالدليل العقلي الأوضح لديهم، الذي لا يمكن الامتراء فيه؛ "ليَضع فرعون بكلِّ جبروته وصَلَفِه في موضعه الصحيح، ويُنزِله من مرتبة الألوهية التي ادَّعاها لنفسه إلى مرتبته الحقيقية، مرتبةِ العبودية التي يتساوى فيها مع الناس جميعًا، قائلًا: اللهُ ربُّكم يا فرعونُ ومن معك، وربُّ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سمع).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية: (سمع).
(3) الراغب، المفردات: (سمع).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 232.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أول).

آبائكم الأقدمين، فلا سبيل لك إلى ادِّعاء الربوبيَّة لأحدٍ من خلق اللّه، فما أنتم إلّا عبادٌ له سبحانه كسائر عباده"[1]، فكيف تعبدونَ مَن هو مخلوقٌ مثلكم، وله آباءٌ قد فَنَوا كآبائكم؟

وترشد الآيتان الكريمتان إلى أنَّ من عادة أهل التَّكبُّر ازدراءَ أهل الحقِّ، ومحاولةَ تسفيه ما يقولونه، ويرشدون الناس إليه، وإلى أنَّ وجودَ الإنسان وآبائه أظهرُ الأدلَّة عند العقلاء، وأعظم البراهين، فإنَّ أنفسَهم أقربُ الأشياء إليهم، فيستدلون بها على وجود خالقِهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

يـزداد المتلقّي تَشوُّقًا إلى متابعة النصِّ بِتصاعُد نبرة المناظرة

فَصل النَّظمُ الكريم جملة ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّ هذا جوابُ فرعونَ، وما قبله كلام موسى عليه السلام فهو بمنزلة جواب سؤالٍ يثيرُه كلامُ موسى عليه السلام في نفس المتلقّي، يقول: وماذا كان جواب فرعون؟ فالحوارُ بينهما يشتدُّ، والمعركة الكلامية تحتدُّ، والمتلقّي مترقِّبٌ، متطلِّع إلى نهاية التجاذبات، وإلى أيِّهما تكون الغلبة؟ ومن منهما سيكون المنكسِرَ المهزوم؟ فالفصْل هنا للاستئناف البياني.

غرضُ حذفِ المسند إليه، وهو فاعل ﴿قَالَ﴾:

الضمائرُ في الكلام قرائنُ توجِّه إلى مرجعها

حُذِف المسند إليه وهو فاعل ﴿قَالَ﴾ في جملة: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؛ للعلم بِهِ لِقُرب ذِكْرِهِ قبل آية واحدة، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويقضي سَنَن الحوار بأنَّ الفعل ﴿قَالَ﴾ أداة فصلِ كلام طرفٍ عن كلام الطرف السابق كلامه.

ثم إنَّ في الجملة ما يقضي بأنَّ هذا كلام فرعون قطعًا، فالقيد

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1565.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 90/ 2.

﴿لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾ يَخُصُّه؛ لأنَّ موسى ﷺ ليس معه إلّا أخوه، وليس حوله فريقُ أتباعٍ، فيخاطبهم بواو الجماعة في الاستفهام ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾؟ فالضَّمائر إذًا قرائنُ توجِّه إلى مرجعها في السياق.

نكتةُ تقديمِ الجار والمجرور في الآية:

تصويرُ غضب فرعون واضطرابه

في تقديم النَّظمِ الكريم القيدَ بالجار والمجرور ﴿لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾ على مقول قول فرعون: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾؟ تصويرٌ لحالةِ فرعون، وهو يبدأ بتحريك جسمه نحو الملَأ، فدلَّ هذا القيد على خروج فرعون عن منطق الكلام، إلى استعمال لغة الجسد في إقناع المخاطَبين، وهو ما يدلُّ على التوتُّر والاضطراب.

معنى (اللام) ودلالتها:

ثقةُ الظّالمين لا تكون إلّا بأعوانهم

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾ لام الاختصاص؛ فقد اختصَّهم فرعون بذلك القول؛ لِما يَعلمه مِن ولائهم المطلق له، فيستعين بهم، ويستغيثهم؛ كنايةً عن خزيه وصَغاره أمام صولةِ الحقِّ المتمثِّلة في مهاجمة موسى ﷺ إيّاه، وتفزيعه بالحُجَّة الساطعة والبراهين القاطعة.

براعةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

يتيحُ الموصولُ إشاراتٍ؛ تُسهم في تجلية المقصود

المقصودُ بمن حول فرعون "أشرافُ قومه، قيل: كانوا خمسمئةِ رجلٍ، عليهم الأساور، وكانت الملوك خاصَّة"[1]، وقد آثر النظم الكريم التعبيرَ عن حاشية فرعون بالموصول ﴿لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾؛ لِما في الموصول وصلته مِن إشارات بارعة، تُسهم في بيان خزايتِه، وتفضح أحاسيسه، وتجلّي مدى احتقاره وذُلِّه في استعانته بِمن يَردُّ عنه هَجمة الحقِّ، ويَصُدُّ عنه صولة النَّبي موسى ﷺ.

لطيفةُ التَّعبيرِ عن الملأ بالظرف:

في تعبير الذِّكر الحكيم بالظرف ﴿حَوۡلَهُۥٓ﴾ في متعلِّق جملة

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.

الطاغيةُ بلا حاشيةٍ ضعيفٌ لا قيمة له

الصِّلة: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾، فضَحٌ لِخَوَرِ فرعونَ وجُبْنِهِ؛ إذ لا يستقلُّ بنفسه في المناظرة، وإنَّما يُقيم ملكه الكاذب على مَن يتسلَّح بهم، ويتقوَّى بهم، ويقيمهم حوله مسانِدَ يستند إليها، وأذرعَ تُعاضده، وعطاء القيد هذا من أهم دواعي ترجيح القرآن الكريم التعبير بجملة الصلة ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ دون وصفهم الصريح (حاشيته) أو (ملئه)، ففي ذِكرهم بالصِّلة ومتعلِّق جملتها ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ ملاءَمةٌ لتحوُّله إليهم واستدعائه إيّاهم؛ لمشاركته الدفاع عند الانهزام، وللإشارة إلى أنَّهم رصفاءُ حولَهُ على الدَّوام.

غرضُ صيغةِ الاستفهام ودلالتها:

تعجُّبُ فرعونَ تعجُّبُ مكذّبٍ متحامل، لا تعجُّب جاهلٍ متحامق

الاستفهام الواقع من فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جاء تَهييجًا لِنفوس قومه؛ "كي لا تتمكَّن منهم حُجَّةُ موسى عليه السلام، فسلَّط الاستفهام على نفي استماعهم، وهذا التعجُّب من حال استماعهم وسكوتهم يقتضي التعجُّبَ من كلام موسى عليه السلام بطريق فحوى الخطاب، فهو كنايةٌ عن تعجُّبٍ آخر.

ومرجع التعجُّبَيْنِ أنَّ إثبات ربٍّ واحد لِجميع المخلوقات منكَرٌ عند فرعون؛ لأنَّه كان مشركًا، فيرى توحيدَ الإلهِ لا يَصحُّ السُّكوت عليه، ولكون خطاب فرعون لِمن حوله يتضمَّن جوابًا عن كلام موسى عليه السلام حُكيَ كلامُ فرعونَ بالصيغة التي اعتيدَتْ في القرآن حكايةُ المقاولات بها"[1]، كذلك في الاستفهام من التَّهكُّم والاستهزاء والتكذيب لموسى عليه السلام فيما قاله[2] ما فيه، وهذا مآل التعجُّب الصادر عنه، فهو تعجُّبُ مكذِّبٍ مفترٍ لا تعجُّبُ جاهلٍ غِرٍّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

الطاغيةُ يحثُّ ذيولَهُ بِترصُّد أخبار خصومِهِ؛ لوأدها أوَّلًا بأوَّل

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿تَسْتَمِعُونَ﴾ توجيهٌ للملأ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 118.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 138.

بإيقاظ السَّمع، وترقُّب المسموع، ومحاولة وأْدِه كلَّما تجدَّد صدوره؛ حتى لا يَنتشرَ، فيعود عليه وعلى ملكه ظلمًا وزورًا بالدَّمار، فهو يُنكر عليهم الاستماعَ والسُّكوت، كأنَّه قال: ما لكم تصمتون، وأنتم تستمعون؟

الاستماعُ لِما كان بقصْدٍ، والسَّمع لِما كان بقصدٍ وبدونه

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الاستماع دون السماع:

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿تَسۡتَمِعُونَ﴾ دون أن يُقال: (تسمعون)؛ وذلك أنَّه "يقال: (استمَع)؛ لِما كان بِقَصْدٍ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بالإصغاء - وهو الميل - و(سمِع) يكون بِقَصْدٍ وبِدونه، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 204] إشارةً إلى قصدهم إلى ذلك، وميلهم إلى السَّماع الخالي عن القصد"[1].

تكذيبُ المفترين يتَّسم بالمبالغةِ والتَّهويلِ

علَّةُ حذفِ متعلِّق فعل الاستماع:

جاء الفعلُ ﴿تَسۡتَمِعُونَ﴾ مطلقًا غير مقيَّدٍ بمفعول مخصوص، وذلك للمبالغة في عدم اعتداده بجواب موسى عليه السلام ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ "حيث أوهَم اللَّعينُ أنَّ مجرَّد استماعهم له كافٍ في ردِّه، وعدم قبوله"[2]، ولأنَّ الاستماع مختصٌّ بما قيل في المجلس من التعريف بربِّ العالمين، فهو ممّا يُعلم، ومع الإطلاق وقع الإطلاق في التَّعجُّب والتَّكذيب، كأنَّه قال: كلُّ ما تستمعون إليه كذبٌ عجيب.

المناظرُ البارعُ يُلاحق خصمَهُ أينما يَمَّمَ، فيفضحُ عجزَه

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جواب موسى:

فُصِلتْ جملةُ ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البياني، فكأنَّ سائلًا قد سأل، فبماذا أجابه موسى عليه السلام؟ فكان أن "أورد عليه حُجَّة أُخرى هي مندرجة تحت الحُجَّة الأولى، ولكنَّها أقرب إلى فهم السامعين له، قال: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فأوضح لهم أنَّ فرعون مربوبٌ لا ربَّ كما يدَّعيه، والمعنى: أنَّ هذا الربَّ الذي أدعوكم إليه هو الَّذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم،

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 49.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.

فكيف تَعبدون مَن هو واحد منكم، مخلوقٌ كَخَلْقِكُمْ، وله آباء قد فَنَوا كآبائكم"[1].

فـ"لا يكاد القوم يتجهون بعقولهم إلى ما يدعوهم إليه فرعون، حتى يَلقاهم موسى بالجواب الذي كان ينبغي أنْ يَلقوا به هذا السُّؤال الذي ألقاه إليهم فرعون، في عجَبٍ ودَهَش: ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هذا هو الربُّ الذي ينكره فرعون، ويعجَب من أمره، أفتنكرونه أنتم كذلك؟ فأين عقولُكم حتى تنقادوا إلى هذا الضلال؟"[2].

دلالةُ التعبير بالربوبية في الآية:

لمّا كان السياق حديثًا عن الرُّبوبيَّة وإثباتها لله ربِّ العالمين، وهي الأوضح في بيان الحقِّ، والأفضح للباطل المزعوم، كان إيرادُها الأنسبَ بالمقام، والأليق بالكلام.

علَّةُ إضافةِ الرَّبِّ إلى الضَّمائر:

الإشــعــارُ بـخـصـوصـيَّـةِ أنَّهـم مربوبون لله تعالى وحده

في إضافة لفظ (رب) إلى ضمير الحضورِ مرَّةً ﴿رَبُّكُمۡ﴾، ومضافًا إلى آبائهم مرَّةً أخرى ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ تأكيدُ عُمومِ ربوبيَّته ﷻ جَميع خلقه منذُ الأزلِ، ولإشعارِهم بخصوص الخطاب، فكأنَّ موسى عليه السلام قال لهم: هو ربُّكم وربُّ آبائكم لا سواه، فالتفتوا إلى أنفسكم، واعلموا أثر الرُّبوبيَّة فيكم.

فائدةُ ذكرِ الآباء:

ذكـرُ الآبــاءِ يـسـتـمـيـلُ قناعةَ الأبناء، ويهيِّئهم لقبولِ كلامِ الرَّسول

ذِكرُ الآباء في جملة ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من قبيل الاستقصاء بغرضِ الاستدلال، فإنَّ "فرعونَ كان يدَّعي الربوبية على أهل عصره دون مَن تقدَّمهم"[3]، فاتَّخذ موسى عليه السلام من ذلك

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 114.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 82.

(3) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1823.

دليلَ علَّةِ كذبه في دعواه الألوهيَّة، و"لمّا لَمْ يشاهد فرعونُ حدوثَ السماوات والأرض وفناءهما، ولَمْ يَتقرَّر ذلك عنده؛ لِما يقع عنده أنَّهما كذلك كانا، ويكونان أبدًا؛ فعند ذلك احتاج إلى أن يَذكر له ما يشاهدُ حدوثهما وفناءهما، وهو ما قال: ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فذكر له ما شاهد حدوثه وفناءه، فإذا عَرف حدوث ما ذكر وفناءه؛ يعرف أنَّه إذًا لم يكن بنفسه، ولا كان نفسه، ولكن بمحدثٍ أحدثه وبمدبِّرٍ دبَّره"[1]، "فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه قد كان لهم آباء، وأنَّهم قد فنَوا، وأنَّه لا بدَّ لهم من مغيِّر، وأنَّهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنَّهم لا بدَّ لهم من مكوِّن"[2].

كذلك في ذكرهم "إعطاء لِمنصب الإرشاد حقَّه حسب الإمكان؛ لِتَعَذُّر الوقوف على الحقيقة - حقيقةِ الربِّ - سبحانه وتعالى، فإنَّ الحُدوثَ والافتقار إلى واجبٍ مصوِّرٍ حكيم في المخاطَبين وآبائهم الذين ذهبوا، وعُدِموا، أظهرُ، والنَّظر في الأنفس أقربُ وأوضح من النَّظر في الآفاق"[3].

نكتةُ وصفِ الآباء بصفة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

الوصفُ يشملُ عمومَ المتقدِّمين لا خصـــوص المباشرين

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين)، وذلك ممّا يَدعم قصدَ إطلاق العموم في تعميم الربوبيَّة الحقَّة، حتى يَبلُغَ أباهم آدم عليه السلام وصْفُ آبائهم بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فإنَّ وصْفَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَتَقادَمُ حتى يبلغ نوحًا وأجداده حتى آدم عليه السلام، وإلّا فوصفُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لا ينطبِق على جيل آبائهم المباشرين، ولا أجدادهم الأقربين، فدلَّ الوصف على العموم الشمولي، ولو قال: (السابقين)؛ لاقتصر على المباشرين.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 55.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستماع والإنصات:

الاسْـتِـمـاعُ الإِصْـغـاءُ عن فهمٍ، والإِنْصاتُ صَـمْـتٌ معينٌ على ذلك

"الاسْتِماعُ هو الإِصْغاءُ بِسَمْعِهِ إِلى الشَّيْءِ، والإِنْصاتُ الصَّمْت، وهو السُّكوت، وفي الحديث: «إِذا قُلْتَ لصاحِبِك يوم الجُمعة والإِمام يَخْطبُ: أَنْصِتْ»[1]، وفي الحديث: «أَوْ لِيَصْمُت»"[2]، فالاستماع هو التَّلقي عن وعي، والإنصات عامل مساعد للاستماع، فلن يستمع المستمع على الدَّوام؛ إذا لم يصاحب ذلك إنصاتٌ.

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (934)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (851).

(2) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَن كانَ حالِفًا، فَلْيَحْلِفْ باللَّهِ أوْ لِيَصْمُتْ»، البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2679)، ومسلم، صحيح مسلم برقم: (1646)، ينظر: ابن المبرِّد، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي: 2/ 225، الحديث رقم: (380).

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الشعراء: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من الحوار إلى الاتِّهام دَيْدنُ الأفّاكين

لمّا أجابَ موسى عليه السلام سؤالَ فرعون عن ربِّ العالمين، وكان جوابُه مقنعًا لكلِّ عاقلٍ، وقع فرعون في الحرج، فانتقل إلى بابٍ آخر من أبواب الهروب، فلم يملك أكثر من الاتِّهام المباشر، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾.

فلمّا أساء فرعون الأدبَ؛ "اشتد تَشَوُّفُ السامع إلى معرفة جوابه عليه السلام عنه، فاستأنف الإخبار بذلك، فحَكى أنَّه ذَكر له ما لا يُمكنه أن يدَّعي فرعونُ طاعتَه له، وهو أكثر تَغيُّرًا، وأعجبُ تنقُّلًا بأن ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾: أصلُ (جن) يدلُّ على السَّترِ والتَّستُّرِ[2]، الجُنون: حائلٌ بين النَّفس والعقل، والجِنَّةُ: الجُنونُ؛ وسُمّي بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطّيه، وهو ذهاب العقل[3]، والمجنون اسمُ مفعولٍ مُشتَقٌّ من الفِعْلِ المبنيِّ للمجهولِ، وهو من الأفعالِ الَّتي لم ترِد إلّا مُسندةً للمجهولِ، ومعناه في الآية: الَّذي جُنَّ، أي أصابه فسادٌ في العقلِ من أثر مسِّ الجِنِّ إيّاهُ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حَسْمُ المناظرة بما هو خارج إمكانات المستبدِّ لينقطعَ

تُبيّن الآيتان حالَ فرعون بعد بيان موسى عليه السلام للحُجج، كيف انتقل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 26.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 89، ورضا، معجم متن اللغة: (جنن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 17.

من السُّؤال إلى اتِّهامه بذهاب العقل، والجنون، وأنَّه يتكلَّم كلامًا لا يُعْقَل، فَأَلْقَمَهُ موسى ﷺ الدَّليلَ الثالث، وهو أنَّه سبحانه "هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيّاراتها، مع هذا النظام الذي سخَّرها فيه، وقدَّرَها، فإنْ كان هذا الذي يزعُم أنَّه ربُّكم وإلهُكم صادقًا؛ فلْيَعْكِس الأمر، وليَجْعَل المشرقَ مغربًا، والمغرب مشرقًا"[1].

وترشد الآيتان إلى الإيماء والتَّنبيه على أنَّ الذي رَمَيْتم به موسى من الجنون، أنَّه داؤكم، فرميتم أزكى الخلقِ عقلًا، وأكملهم علمًا بالجنون، والحالُ أنَّكم أنتم المجانينُ؛ إذ ذهبت عقولُكم لإنكار أظهر الموجوداتِ، خالق الأرض والسَّماوات وما بينهما، وهذا الجوابُ أنكأُ لهم جميعًا مع أنَّه ألطفُ، وأوضحُ مع أنَّه أسترُ وأشرف[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عمّا سبقها:

لا صمودَ لباطلٍ أمام صولة الحقِّ، ومصيره الهروب بالمغالطة

فُصِلت جملة: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البياني؛ إذ يترقَّب المتلقّي من فرعون جواب سؤالٍ يثيره في ذهنه هجوم موسى ﷺ إذ قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فيجيء ردُّ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذه مغالطةٌ في الحوار، وتُهمة جديدة ليست ردًّا يقتضيه كلام موسى - ﷺ، وهروب آخرُ وقع من فرعون المهزوم.

بلاغةُ التَّوكيد في الخبر:

عدمُ توفُّرِ داعٍ لتوكيدِ الخبَر دليلُ كذب المخبِر

في تأكيد فرعونَ الخبر في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ ... ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ دليلُ شعوره بالكذب؛ إذ لا مقتضى للتَّوكيد هنا من إنكار من حوله، أو شكِّهم في الرمي بالجنون، والتأكيد في هذا المقام يُعطي نتيجةً

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 139.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 27، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.

عكسية، فتأكيد الخبر يزعزع الثِّقة فيه؛ إذ لا يستند إلى مقدِّمات ودواعٍ أصلًا، وإلّا فمن أين أخذ فرعونُ تلك التُّهمةَ؟ فـ "أكَّد كلامه بحرفَي التأكيد إنَّ، واللام؛ لأنَّ حالة موسى عليه السلام لا تُؤذِن بِجنونه، فكان وصفه بالمجنون مُعرَّضًا للشكِّ، فلذلك أكَّد فرعونُ أنَّه مجنون، يعني: أنَّه علم من حال موسى عليه السلام ما عسى ألّا يعلمه السامعون"[1].

وما قال موسى عليه السلام سوى ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ دون توكيد، لكنَّه قولٌ أزعجَ فرعون؛ لأنَّه يزعم أنَّه ربُّ هؤلاء، ففوجِئ بقوله: ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾، التي قرعت ذهنه، وحقَّقت عليه كذبه؛ إذ وضعته في مأزق الإجابة عن سؤال في أذهان مَن حوله: إذا كنتَ أنت - يا فرعونُ - ربَّنا، فمَن ربُّ آبائنا الأولين قبل وجودك؟

نكتةُ وصف فرعون موسى بالرسول:

في وصف فرعون لموسى عليه السلام بالرَّسول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ إطلاقٌ للوصفيَّة على سبيل التهكُّم بموسى عليه السلام، ويكون "سمّاه رسولًا بِطريق الاستهزاء"[2].

غرضُ الإضافةِ إلى ضمير المخاطَبين:

أخـــلاقُ الـكِـبْر تظهر في فلتات اللسان

وفي إضافة فرعون وصفَهُ موسى عليه السلام بـ(رسول) إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿رَسُولَكُمُ﴾، إقرارٌ منه بمضمون أخبار موسى عليه السلام السابقة مِن أنَّ المرسِل سبحانه وتعالى ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

"وأضاف الرَّسولُ إلى المخاطَبين: ﴿رَسُولَكُمُ﴾ رَبْئًا بنفسه عن أن يكون مقصودًا بالخطاب"[3]، و"ترفُّعًا مِن أن يكون مرسلًا إلى نفسِه، وفيه إثارة لِغَضَبِهم، واستدعاءٌ لإنكارهم رسالتَه بعد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 119.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

سماع الخبر؛ ترفُّعًا بأنفسهم عن أنْ يكونوا أهلًا لِأنْ يُرسل إليهم مجنون"[1]، مع ما فيه من زيادة التَّهكُّم.

دلالةُ الوصفِ بالموصوليَّة:

من أدلَّـةِ كـذِبِ فرعونَ تناقضاتُهُ التي يَسقط فيها

لم يقل فرعون: إنَّ رسولكم هذا، أو إنَّ هذا، وإنَّما وصفه بجملة صلة ﴿ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، فنصَّ فيه ذاهلًا عن صِدق موسى عليه السلام وصدق رسالته، كما أنَّ في الموصول وصلتِه إشادةً بموسى الرسول، وهذا يتناقض مع الخبر الآتي: ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾، وما ذلك إلّا تخبُّط بعد تهرُّب حيث توجَّه إليهم مبعِدًا عن المواجهة: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾.

كذلك جاءت جملة الصلة "كالتأكيد، وتنصيصًا على المقصود لزيادة تهييج السامعين؛ كيلا يتأثَّروا، أو يتأثَّرَ بعضهم بِصِدْق موسى عليه السلام لأنَّ فرعونَ يتهيَّأ لإعداد العُدَّة لِمقاومة موسى عليه السلام لِعلمه بأنَّ له قومًا في مصر ربَّما يَستنصر بهم"[2].

فائدةُ بناء الفعل للمفعول:

الـكـاذبُ يحاول طـيَّ الحقيقة وشَغْلَ الناس بغيرها

في بناء الفعل ﴿أُرۡسِلَ﴾ للمفعول شَغْلٌ بالمرسَل لا المرسِل، وإلى ذلك فيه محاولةٌ لإنكار المرسِل سبحانه وتعالى؛ لأنَّه فرعونُ يزعم أنَّه الرَّبُّ فيقول تارةً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، وتارة يذهب إلى دعوى الألوهيَّة، فيقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]؛ فكان طيُّهُ فاعلَ ﴿أُرۡسِلَ﴾ متَّسِقًا مع تلك الادِّعاءات الكاذبة بأنَّه الرَّبُّ والإله.

نكتةُ توجيه الخطابِ للملأ:

التَّمويهُ بقصد إثــــارةِ المـلأ أداةُ المجرمين التَّحريضيَّة

في تقييد فرعونَ إرسالَ موسى عليه السلام بالجار والمجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ خَلْعٌ لِما هوله إلى ملَئِه، فموسى عليه السلام ما أُرسِل إليهم ابتداء، وإنَّما أرسِلَ إليه هو أصالةً عن قومه جميعًا، لكنَّه تحوَّل بذلك إليهم، وقال: ﴿إِنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

﴿رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ تمويهًا وتضليلًا، ولإثارتهم عليه، وتحريكهم ضدَّه.

معنى (اللام) ودلالتها:

شعورُ المفتري الكاذب يدفعُهُ لتوكيد افترائه

اللام في الخبر ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾ لامُ التوكيد، وقد تآزرت معاضدةً خطابه لأشراف قومه مع ﴿إِنَّ﴾ في أوَّل الجملة، واسميَّة الجملة؛ لتوكيد ما أخبر به فرعون، لعلمه بكذبِهِ وافترائه على موسى عليه السلام، وأنَّه في حيِّز الإحراج، فكان توكيدُ المعاني أدعى للإقناعِ فيما يرى.

علَّةُ اختيارِ صفة الجنون:

يعدُّ الظّالمون من يُخالفهم في الرأي مجنونًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيار فرعون صفةَ الجنون بحقِّ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾؟ دون صفة الكذب أو الافتراء؛ ذلك أنَّه "كان عندهم أنَّ من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقلٍ"[1]، فالمجنون عندهم هو الذي يعترض على السّائد الموجود - ولو كان باطلًا - فيُخالفه، وهذا ديدن الظالمين في كلِّ عصر، وعليه أتباع الظّالمين، وغايته بذلك الوصف شَغْلُ موسى عن قضيته، وإدخاله في دوّامة الدفاع عن نفسه، "وهذا شأن المبطلين المتحكِّمين، عندما يُسقَط في أيديهم يلجَؤون إلى نعتِ صاحب الحق بالجنون أو غيره؛ لأنَّهم لا يملكون الدليل على معارضته"[2].

كما أنَّه "رماه بالجنون ليكون أبلغَ في صَدِّ الناس وصَرْفهم عن اتِّباعه، فكأنَّه يقول لهم: كيف يَليق بكم - وأنتم العقلاءُ - أن تُصَدِّقوا مَعْتوهًا وتتَّبعوا مجنونًا؟ إنَّ فرعون يريد من وراء هذا إثارةَ غضبهم على موسى عليه السلام واحتقارهم له"[3].

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 324.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 65.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1565.

دلالةُ صيغةِ (مَفْعول) في الجُنون:

المجنونُ هو من تمكّنت منه الجِنَّة فأوغلت فيه

التَّعبير بصيغة (مفعول) في الصفة التي أطلقها فرعون: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ تسهم في شَغْل خصمه ﷺ عن تنفيذ مهمَّته؛ لأنَّها صيغةٌ تُفصح عن تسلُّط الجِنَّة عليه، وهم أحياءُ عقلاء موجودون لا يُرَوْن، فاعلون بالإرادة، بكونهم استَجَنّوا عن الأبصار، وأنَّه المفعول به الجنون؛ لأنَّ هذه الوصمةَ هي استتار العقل أو غيابه، وأنَّ تلك اللَّوثة هي التي أثرت في عقله حتى جاء ينازعنا سلطاننا، ويزعم أنَّه رسولٌ مرسل، وذلك لم يشغل موسى ﷺ، ولم يصرفه عن طريقه الواضح - طريق الدَّعوة إلى الله تعالى ربِّهم وربِّ آبائهم الأولين.

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

ثقةُ المطمئنِّ وطُمأنينة الواثق تقودان إلى الثَّبات

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من المواضع الأكثر جذبًا لذهن المتلقّي؛ ليَتَرقّب ردَّ موسى ﷺ على تُهمة فرعون إياه بالجنون، فإذا بموسى ﷺ لا يكترث بها، ولا يُعقِّب عليها، بل يَمضي واثقًا في طريقه، ضاربًا بها عرض الحائط، فيقول: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

سرُّ تكرارِ لفظ الربوبيَّة:

حَقُّ الخالق سبحانه إذاعةُ توحيدِه وصَفْع المنكرين

في ذكر ربوبيَّته تعالى المشرق والمغرب تعميمٌ لسُلطانه، "أي: ليس ملكُهُ كَمُلكِك؛ لأنَّك إنَّما تملك بلدًا واحدًا لا يجوزُ أمرُك في غيره، ويموت مَن لا تُحبُّ أنْ يموت، والذي أرسلني يَملك المَشرق والمغرب"[1].

مناسبةُ ذِكر ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بعد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الاستدلالُ بالشُّمولِ الحسيِّ أقوى دلالةً من المعقولِ الذِّهني

في إضافة اسم الربِّ سبحانه وتعالى إلى ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بعد إضافته إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلالةٌ على بَسط عظمته وقدرته وعطاءاته على كلِّ الجهات رأسيًّا وأفقيًّا، وهذه "صفات تُظهر نَقص

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 98.

فرعون، وتُبيِّن له وللسامعين أنَّه في غاية البُعْد عن القدرة عليها، وهي ربوبيَّة ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، ولم يكن لفرعونَ إلّا ملكُ مصرَ من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية"[1]، فيَبلغ الغضبُ بِفرعون مَبلغه، ويفقِده صوابه؛ حتّى يذهب إلى البديل العاجز، وهو توعُّد الخصم، وترهيبه بالانتقام، عند تحدّيه بهذا الشُّمول الحسيِّ الذي لا يخفى على عاقلٍ أو مجنون.

توجيهُ تخصيصِ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالذِّكر:

الاستدلالُ بأبرز المظاهر الكونيَّة طريقٌ مختصر لإفحام الخصم

خصَّ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالذِّكر من بين المخلوقات الأرضيَّة؛ "لأنَّ طلوعَ الشَّمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقديرٍ مستقيم في فصول السَّنة وحسابٍ مستوٍ - من أظهر ما استدلَّ به"[2]، وبِذِكر ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ "انتقل موسى إلى ما لا قِبَلَ لهم بِجَحْدِهِ ولا التباسه، وهو التصرُّف العجيب المشاهَدُ كلَّ يوم مرتين"[3]، "فإن كان هذا الذي يزعم أنَّه ربُّكم وإلهكم صادقًا؛ فليعكِس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا"[4]، ففرعون "لا يجرؤ، ولا يملك ادِّعاء تصريفهما، أو التحكُّم فيهما على تلك الصورة البديعة المطَّردة، والتي لا اختلال فيها ولا اضطراب"[5].

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ على ﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

بدأ بالأصلِ وهو الشُّروق لِحاظًا للسُّنَّة الكونيَّة

في تقديم ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ على ﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ تنويهٌ بسبب انبعاث الحياة، وتنفُّس الصبح بحركات الإحياء في الكون، فـ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ متعلَّقُ الإبكار ومتطلع الآمال، ومبعث الحياة، ومبسم السرور، فناسب ذلك تقديمه على ﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، كما أنَّ تقديم المشرق باعتباره الأصل، فطلوعُ الشمس قبل غروبها، وفيه ردٌّ ضمنيٌّ على

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 229.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1565.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 242.

فرعون أن يأتي بالشمس من المغرب، فإذا كان ربًّا؛ فليُغيِّرْ هذا القانون وتلك السنَّة الكونيَّة التي أوجدها الخالق الحقيق بالعبادة سبحانه وتعالى.

براعةُ فنِّ الطباق:

في الطباق وجهُ إحاطةٍ بالأشياء

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ طباقٌ؛ إذ فيه الجمعُ بين متضادّين مع مراعاة التَّقابل، ولم يكتفِ بأحدهما "ليتأمَّلوا في أنفسهم؛ لأنَّ أقرب المنظور فيه مِن العاقل نفسه ومَن وُلِد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته.

وطابق بين ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾؛ لأنَّ طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر - على تقدير مستقيم ونظام ثابت لا خلل فيه في فصول السنة وحسابٍ مستقيم أيضًا مِنْ أظهرِ ما يمكن الاستدلال به"[1].

معنى العطفِ في الآية وفائدته:

تقريرُ الرُّبوبيَّةِ بالإحاطةِ لا بالجزء

كما جمع موسى ﵇ إلى ربوبيَّة اللّه تعالى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ربوبيته ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ بالعطف عليهما؛ لتقرير عموم ربوبيته ﷻ على كلِّ شيء يحيط به خيال الإنسان، بل إنَّ ربوبيته عزَّ وعلا تشمل كلَّ ما يخرج عن خيال الإنسان من مخلوقات لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، وإنَّما كلَّم فرعونَ وملَأَهُ بما يفهمون، ويرون ممّا يحيط به خيالهم، ويدركه تصوُّرهم.

دلالةُ استعمالِ أداةِ ﴿إِن﴾:

همزُ النُّفوسِ بقصد تحريك العقول غايةٌ جليلة ومقصد نبيل

استعملَ النَّظمُ الكريم أداةَ ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك أنَّ حصولَ العقلِ السَّديد لهم مستبعَدٌ غيرُ مطموعٍ فيه، وقد ثبتوا على ضلالهم، ولم يؤثِّر فيهم ما ألقاه إليهم مِن إشارات تحملُها تلك العبارات الواضحات.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 67.

ثم إنَّ الشَّكَّ في حصول العقل لهم في قوله عليه السلام: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، من شأنه أن يثير فيهم التفكُّر فيما قال، وكأنَّه يقول لهم: إن كنتُ أنا مجنونًا - كما يدَّعي زعيمكم - فأين عقولُكم أنتم؟ إنَّها مهملةٌ، وغيرُ وارد حضورُها وانتفاعُكم بها؛ فكيف تتَّهمونني أنا بالجنون، وهذه حالكم؟ وفي ذلك "زيادةٌ في إغاظته والتَّدليل على إسفافه"[(1)].

نكتةُ تَكرارِ فعل الكَون:

قلَّما يهتدي مَن تجذَّرت الضلالة في نفسه زمانًا طويلًا

يُلْمِح النَّظمُ الكريم إلى استبعاد حصول العقل لَهم بِتكرار الفعل ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، كما قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وكأنَّ فوات حصول العقلِ لهم في الماضي بدلالة ﴿كُنتُمۡ﴾ يُرْهِص بِعدم حصوله لهم في المستقبل بدلالة ﴿إِن﴾، ففي "الكلام تلميحٌ إلى أنَّهم لا عقل لهم، فكأنَّ موسى قال لهم: أنتم أولى بما وصفتموني به من جنون، وما رميتموني به من عَتَهٍ"[(2)].

لطيفةُ حذفِ المفعول:

توفيرُ عنايةِ المخاطَبين على تدبُّر فعل التعقُّلِ

أطلق فعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ عن التقييد بمفعول مخصوص، فلم يقل: (إن كنتم تعقلون الحقَّ من شواهده)؛ زيادةً في إلهابهم بُغية رجوعهم إلى عقولهم للتفكُّر فيما يقول؛ لعلهم يؤمنون بالله تعالى، فغايةُ إطلاق الفعل توفيرُ عناية المخاطَبين على تدبُّر الفعل بقطع النظر عن مفعوله.

بلاغةُ التعريضِ بجُنون قوم فرعون:

الأليقُ بالجنونِ من فقد النَّظر الصحيح وضاع عن دليله

ومن البراعة الجليَّة في كلام موسى عليه السلام هنا التحوُّلُ إلى استعمال مفردة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾؛ ذلك أنَّهم اتَّهموه بالجنون؛ فاقتضى ذلك منه التعريضُ بكلام يفهم به السامعُ مرادَ المتكلِّم من غير تصريح؛ وذلك بالإلماح لهم بضحالة عقولهم، وأنَّ الذي حقُّه أنْ يوصَف

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 65.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1566.

بالجنون وغياب العقل هم لا هو، وكأنَّه بذلك يستفزُّهم للرجوع إلى عقولهم، وتدبُّرِ دعوته، ويوحي إليهم بأن ذلك - إنْ حدث - كفيلٌ بإيصالهم إلى الحقيقة، ومساعدتهم على سلوك السَّبيل الصحيح، وفيه تعريضٌ بأنَّ الأليق بالجنون فرعونُ لا موسى ﷺ.

براعةُ نفي العقل بعد نفي الإيقان:

تحسُنُ اللّيونةُ في موضعها والخشونة في مقامها

يقول الزمخشريُّ: "إنْ قلتَ: كيفَ قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وأخيرًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ قلت: لايَن أوَّلًا، فلمّا رأى منهم شِدَّة الشكيمة في العِناد وقِلَّةِ الإصغاء إلى عَرْض الحُجَج؛ خاشَن، وعارَض"[1].

ثم إنَّه ﷺ "قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ لأنَّ المقام مقام تدليل وإقناع، ثم لمّا يئسَ، واشتدَّ اللَّجاج؛ غالظهم، وقابل لَجاجتهم ونسبتهم إيّاه إلى الجنون بمثلها، فنفى عنهم العقلَ الَّذي يمكِّنهم من التمييز بين الأمور"[2]، فاليقين هو المناسِب للثُّبوت والرسوخ والدوام، أمّا المناسبُ للمعنى هنا؛ فهو الفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ عمل العقل متجدِّد، ولا يليق أن يتجمَّد عند فكر، ولا أن يتوقَّف عند حدٍّ، وهذه طبيعةُ عمل العقل؛ ولذلك لم يعبِّر عنه القرآن الكريم قطُّ بالاسم (عاقلون)، وإنَّما يعبِّر عنه بالفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ و﴿يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176] و﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: 82] ونحوها.

بلاغةُ التَّذييلِ في ختام الآية:

من المنطق في المناظرةِ إلزامُ الخصم بما يطالِبُ به خصمَهُ

التَّذييلُ بجملة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، هو إتيانٌ بعد تمام الكلام بكلام مستقلٍّ في معنى الأوَّل؛ تحقيقًا لدلالة منطوقهِ أو مفهومهِ؛ ليكونَ معه كالدَّليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمُلَ عند مَن فهمَهُ، وفي هذا الأسلوب البلاغيِّ "تنبيهٌ لنظرهِم العقلي؛ ليعاودوا النَّظرَ، فيدركوا وجْهَ الاستدلالِ، أي: إن كنتم تُعمِلون عقولَكم، ومن اللَّطائف جَعْلُ ذلك مقابلَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 66.

قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ ... ﴿لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّ الجنون يقابله العقل، فكان موسى يقول لهم قولًا ليّنًا ابتداءً، فلمّا رأى منهم المكابرةَ، ووصفوه بالجنون؛ خاشَنَهُم في القول، وعارض قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، أي: إن كنتم أنتم العقلاء، أي: فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا كقول أبي تمام للَّذَيْنِ قالا له: "لِمَ تقول ما لا يُفهَم؟" فقال: "لِمَ لا تَفهمان ما يُقال؟"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العقل والعلم:

العقل الامتناعُ عن القبيحِ، والعلم إدراكُ الحقيقةِ

"العقل هو العلم الأوَّلُ الذي يزجر عن القبائح، وكل مَن كان زاجره أقوى؛ كان أعقل، وقال بعضهم: العقلُ يمنع صاحبه عن الوقوع في القبيح، وهو من قولك: عقلَ البعيرُ؛ إذا شدَّهُ، فمنعه من أن يثورَ، وقيل: العاقلُ يفيد معنى الحصر والحبس، وخلاف العقل الحُمق وخلاف العلم الجهل، وقيل لعاقلة الرجل: عاقلة؛ لأنَّهم يحبسون عليه حياته، والعِقال ما يحبس الناقة عن الانبعاث"[2].

و"العِلْمُ: إدراكُ الشيء بحقيقته، إدراكُ ذات الشيء، والحكم على الشيء بوجود شيءٍ هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه، والعلم من وجهٍ ضربان: نظريٌّ وعمليٌّ، فالنَّظريُّ: ما إذا علم؛ فقد كمل، نحو: العلم بموجودات العالَم، والعمليُّ: ما لا يتمُّ إلّا بأن يعمل كالعلم بالعبادات، ومن وجه آخر ضربان: عقليٌّ وسمعيٌّ، وأَعْلَمْتُهُ، وعَلَّمْتُهُ في الأصل واحد، إلّا أنَّ الإعلام اختصَّ بما كان بإخبار سريع، والتَّعْليمُ اختصَّ بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثرٌ في نفس المُتَعَلِّمِ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 366.
(3) الراغب، المفردات: (علم).

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء: 29 - 33]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مَن قهرته الحُجَّة؛ فرَّ إلى التهديد

"لمّا علِمَ فرعونُ أنَّه ﷺ قد قطعه بما أوضح من الأمر، ووصل معه في الغِلظة إلى ما إنْ سكت عنه أوهنَ من حاله، وفتَّر من عزائم رجاله؛ تكلَّم بما السكوت أَولى منه، فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ﴾ عادلًا عن الحجاج بَعد الخوض فيه إلى المغالبة التي هي أبين علامات الانقطاع: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾"[1]، وهذا شأن مَن قهرته الحُجَّة، وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذْتَ﴾: (أخذ) أصلُ الأَخْذِ حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، قال الخليلُ: هو خِلافُ العطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والاتِّخاذُ: جَعْلُ شيءٍ لفائدةِ الجاعلِ؛ لِأَنَّ المُتَّخِذَ يأخُذُ الشَّيءَ الَّذي يصطفيه، وهو مُبالغةٌ في الأخذِ[4]، والاتِّخاذُ أيضًا: الاقْتِناءُ، يُقال: أخَذَ الشَّيْءَ، يأخُذُهُ، أخْذاً، أي: اقْتَناهُ، ويُطلَقُ على الاكْتِساب، يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالًا، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ[5]، والمقصود بالاتِّخاذِ في الآية: جَعْلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 299، و30/ 55.
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 37.

الشَّخص الشَّيءَ لنفْسِه، وفعلُه ﴿ٱتَّخَذۡتَ﴾ للاستمرارِ، أي: أصررْتَ على أنَّ لك إلهًا أرسلكَ وأن تبقى جاحدًا للإله فرعونَ[1].

2) ﴿فَأۡتِ﴾: أصلُ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، والإتيان قد يقال للمجيء بالذّات، وبالأَمر، والتَّدبير[2]، وتقول: آتيته على ذلك الأمر مواتاة، إذا وافقتَه وطاوعته، والعامَّة تقول: واتَيْتُه، وآتاه إيتاء، أي أعطاه، وآتاهُ أيضًا، أي أتى به، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: 62]، أي ائتنا به[3]، فالإتيان في الآية معناه: الإحضار.

3) ﴿فَأَلۡقَىٰ﴾: أصل (لقي) يدُلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[4]، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذ[5]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[6]، ويُطلَقُ على الإِفْضاءِ بالكلام ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أَي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: 64]، والمُراد بالإلقاء في الآية: رَمْي شَيءٍ في اليَدِ إلى الأرضِ[7].

4) ﴿ثُعۡبَانٞ﴾: أصلُ (ثعب) يدُلُّ على امتدادِ الشَّيءِ وانبساطِه[8]، ومنه الثُّعبانُ: الحيَّةُ الضَّخمةُ الطَّويلةُ، وهو من القياسِ، في انبساطِه وامتدادِه خَلْقًا وحركةً[9].

5) ﴿وَنَزَعَ﴾: أصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلْعِ شيءٍ وإزالته[10]، النَّزْعُ: الإزالةُ بعُنفٍ؛ لئلّا يبقى اتِّصالٌ بيْن المُزالِ وبيْن ما كانَ مُتَّصلًا به، ومنه ونزعُ اليَدِ: إخراجُها من القميصِ، ونزعُ العداوة والمحبَّة من القَلْب، والنَّزْعُ عن الشَّيء: الكفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياق الشَّديد[11]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أتي)، والفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 43.

(3) الجوهري، الصحاح: (أتي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقي).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 123، و19/ 123.

(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).

(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).

(11) الراغب، المفردات: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 193.

والمَنْزَعة، قوَّة عزم الرَّأي والهمَّة، ويُقالُ للرَّجُل الجيِّد الرَّأي: إنَّه لجيِّد المَنْزَعة[1]، وأمّا النَّزع في الآية فمقصود به: سلُّ شيءٍ ممّا يُحيطُ به، ومعناه: أخرجَ يده من جيب قميصه[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

آيــةُ الـطُّـغـاة تقديمُ الانتقام عـــلى دحـــض البرهان

تُبيّن الآياتُ ما قاله "فرعون لموسى عليه السلام بِثورة وغضب: لئِن اتَّخذت إلهًا غيري – يا موسى – ليكون معبودًا لك مِن دوني؛ لأجعلنَّك واحدًا من جملة المسجونين في سِجني، فهذا شأني مع كلِّ مَن يتمرَّد على عبادتي، ويخالف أمري"[3].

فردَّ عليه موسى عليه السلام: "أتجعلني من المسجونين الذين تعذِّبهم، وتعاملني معاملتهم، حتى لو جئتُكَ بشيء هائلٍ عظيم موضِّحٍ لصدق دعوتي، مؤيِّد لرسالتي؟ فتحدّاهُ فرعونُ قائلًا: فائتِ بهذا الشيء؛ إن كنتَ صادقًا في دعواك أنَّك رسولُ ربِّ العالمين، وما أظنُّك إلّا كاذبًا فيما تدَّعيه"[4].

فجاء ردُّ موسى عليه السلام فرمى عصاه التي يحملها في يده، فتفاجأ فرعونُ وملَؤُه بتحوُّلها ثعبانًا ضخمًا مرعبًا، ولمّا سأله فرعون مزيدًا من الآيات؛ أدخل يده مِن فتحة قميصِه المفتوحةِ إلى الصَّدْرِ، أو من تحت إبطه، ثم أخرجَها، فإذا هي بيضاءُ كالثَّلج من غير بَرَصٍ، مشعَّةٌ مثل الشمس، تجذب الأنظار إليها؛ لِشدَّة ما ينبعث منها من بَياض ونور.

وترشدُ الآياتُ إلى أنَّ أهلَ الكِبْرِ والعلو في الأرض، إذا أعيَتْهم الحُجج؛ لجؤوا إلى التهديد والوعيد واستخدام القوة، وترشد إلى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نزع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 242.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1566.

إثبات المعجزات للأنبياء كمعجزة العصا واليد لموسى ، وإلى زعم فرعون أنَّه قد طمع في إضلال موسى ، وألّا يتخذ إلهًا غيره، وإلّا فقد تقرَّر أنَّ فرعون ومن معه، على بصيرة من أمرهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في التهديد الفِرْعوني:

تثويرُ الأذهانِ لسماعِ جوابِ أهل البرهان

فصلت جملة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البياني، حيث تثير جملة ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ في ذهن المتلقي سؤالًا: ما رَدُّ فرعونَ على تعريض موسى لهم بعدم العقل في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؟ فتأتي جملة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ وافيةً بحقِّ هذا السُّؤال، الذي يُلِحُّ بقوة في هذا المقام المتوتر.

معنى اللام ودلالتها:

مِن المقامات والأحوال المقتضية للتوكيد حالُ المتكلِّم نفسِه

(اللام) في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾ لامُ التوكيد المؤذنة بِقَسَم، "والمعنى: أنَّ فرعون أكَّد وعيده بما يساوي اليمين المجملة، كأن يكون فرعون قال: عليَّ يمين، أو بالأيمان، أو أُقسم"[2]، وتكشف (اللام) عمّا يعتلج في نفسه من الغيظ الناتج عن انتصار موسى في مقام إثبات حُجَّة نبوَّته، التي شُهودُها جلساءُ فرعون، فـ (اللام) هنا دليلٌ على أنَّ مِن المقامات والأحول المقتضية للتوكيد حالَ المتكلِّم نفسه.

دلالةُ استعمال (إنْ):

عندَ الاستبدادِ يقعُ قانون الاستعباد

استُعمِلت أداة (إن) في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾ بغرض تجاهلِ دَعوى موسى ، وإيحاء من فرعون بأنَّه يَعُدُّ ذلك كأنْ لم يكن؛ وذلك جريًا على عادة الطُّغاة

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 590، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 645.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.

حين يتغابَون؛ لتفويت الفرصة على خصومهم، وكذلك إنكارٌ للواقع واستبعادٌ له؛ لأنَّ موسى ﵇ اتَّخذ إلهًا غيره فعلًا، وقد تحقَّق ذلك وفرعون يراه، ولم يعُدَّ في حيِّز المستبعَد المشكوك، لكنَّها حالة الإنكار التي تَلفُّ الطُّغاة، حين يستبدّون بالعباد، ويعتادون إذلالَ العباد، فلا يستطيعون تصوُّرَ حصول ذلك مجرَّدَ تصوُّرٍ.

لطيفةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ:

الاتِّخاذ يختصُّ بالاستمراريَّة

استعمل النظم الكريم الاتِّخاذ دون التَّعبيرِ بالأخذ في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾، فإذا كان الأخذُ هو "التَّناوُل"[1]، والاتِّخاذُ الاستمرار على الشيء، "مثل الدار يتَّخذها مسكنًا، والدابة يتَّخذها قِعدةً"[2]، فإنَّ المقام هنا للاتِّخاذ لا للأخذ؛ إذ لا يَقصد فرعون تناوُل موسى ﵇ بيده إلهًا غيرَه، بل المقصود عبادة غيره، والاستمرار على ما يَغيظه، ويزعجه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

حين يُداهم الحقُّ أهلَ الباطل تَختلُّ موازينهم

جاء التعبير بالماضي ﴿ٱتَّخَذۡتَ﴾ لبيانِ أنَّه قاصدٌ إلى توقُّف حصول الجزاء ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ على تحقُّق حصول الشَّرط ﴿ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾، فيكون في ذلك إيحاءٌ بتغاضي فرعون عمّا حدث من موسى ﵇ وأنَّه سيؤاخذه، ويحاسبُهُ بدءًا من اللحظة، وأنَّه متى وقع منه اتِّخاذ إلهٍ غيره بعد ذلك؛ تَرتَّب عليه السَّجنُ والمعاقبة.

علَّةُ التَّعبيرِ بالألوهيَّةِ:

لمّا فهم فرعون مقصدَ تقريرِ الربوبيَّة لله تعالى؛ أعلن الألوهيَّة لنفسه

لمّا كان المقامُ مقامَ تقريرِ الألوهيَّة والعبودية سواء من موسى ﵇ لربِّه سبحانه وتعالى، أو من فرعون لنفسه المستعلية بزهوها وتكبُّرها، فالمقام مقامُ عبادةٍ وطاعة وخضوع؛ فناسب ذلك ذِكر

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).

(2) العسكري، معجم الفروق، ص: 29.

الألوهيَّة على لسان فرعون، بعد تقرير الربوبيَّة على لسان موسى عليه السلام، ففُهِمَ أنَّه يثبت الربوبيَّة ليصل إلى الطّاعة والخضوع، فسبقهُ بما فُهِمَ، فصرَّح بالألوهيَّة.

غرضُ تنكير ﴿إِلَٰهًا﴾:

إفادةُ عمومِ الآلهة التي تقع تحت خيال البشر

في تنكير المفعول ﴿إِلَٰهًا﴾ في جملة الاتِّخاذ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ مزيدُ تحذيرٍ لموسى عليه السلام مِن اتِّخاذ أيِّ إلهٍ سوى فرعون، سواءٌ كان ذلك الإلهُ عظيمًا أم غير عظيم، جديرًا بالألوهية أم غير جديرٍ، فالتَّنكير إذًا يُفيد العموم؛ لأنَّ فرعونَ متوهِّم أنَّه إلهٌ، بل الإله الذي لا يُشارَك، وإلى ذلك فتنكيرهُ المفعولَ ﴿إِلَٰهًا﴾ يوحي بتعظيمه، وأنَّه - في زعمه - الإلهُ الوحيدُ الذي لا يسمح لأحد بالإشراكِ به - والعياذ باللّه من الكفر وأهله.

لطيفة التقييد بلفظ ﴿غَيْرِى﴾:

قيَّد النَّظمُ الكريم تحذيرَ فرعون بلفظ ﴿غَيْرِى﴾؛ لبيانِ مدى غطرسة فرعون ووقوعه في الطُّغيان، فهو يرى ذاتَه وحدَها، وكلُّ ما سواها؛ فيدخل في حيِّز الأغيار.

بلاغةُ الإطنابِ في السِّجن:

شعورُ الطُّغاة بقوَّة أهل الحقِّ يَنضح في مخاصمتهم إياهم

آثر النَّظمُ الإطنابَ على الإيجاز في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، فلم يقل: (لأسجنَّنك)، مع أنَّها أوجز لفظًا في تأدية المراد، بل سلك طريقَ الإتيان بعبارات وألفاظ مترادفة زائدة على الأصل المراد لفائدة؛ إذ فيه الإيماءُ إلى حرية موسى عليه السلام التي هو عليها، فإنَّ الجعْلَ تصييرٌ من حالةٍ إلى أخرى، مع لَمْحِ الحالتين، بينما لو ذكر فرعونُ السِّجنَ مباشرة؛ لما فُهِمَ منه الإشعار بحالة حرية موسى عليه السلام السابقة للسجن، ففيه إشعارٌ بأنَّ رجوعَ موسى عليه السلام عن اتِّخاذ إله سواه قد ينقذه من السِّجن المُهَدَّد به.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في فعل الجَعْلِ:

ممّا يُقرِّرُ أنَّ الجعلَ يستلزم معالجةَ التَّعبير بالمضارع: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ﴾؛ ممّا يدلُّ على أنَّه يستفرغ فيه جهدًا، ويستغرق وقتًا يتجدَّد فيما سيكون في المستقبل القريب.

دلالةُ التَّوكيد في فعل الجعل:

غيظُ فرعونَ يَبْرُزُ في ثنايا النَّظم

ممّا يقرِّر المعنى السابق دعْمُ المضارعة بنون التوكيد الثَّقيلة في فعل جزاء ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ﴾؛ فهي تحكي تلك المعاناة التي يتوعَّد بها فرعونُ خصمَهُ موسى عليه السلام وأنَّ سجنه لن يكون جعْلًا يسيرًا، بل سيكون جعْلًا أليمًا شديدًا، يوازي تَوَرُّكَهُ على ألوهيَّة الفرعون، ويكافئه، وأنَّه مؤكَّد لا شكَّ فيه، ولا تراجُع عنه ولا تنازُل.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

المسجونون كثُرٌ والموعودُ سجنٌ

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ حرفُ تبعيضٍ، يُلمِح به فرعون لموسى عليه السلام بيُسر جَعله إياه ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، وأنَّه عليه السلام لا يعدو أن يكون واحدًا يَطويه السِّجن ضِمن كثيرين، أي: "لأجعلنَّك واحدًا ممَّن عرفت حالهم في سجوني"[1]، فـ"سلك فيه طريقة الإطناب؛ لأنَّه أنسبُ بمقام التهديد"[2].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾:

"اللام في ﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ للعهد، أي: مِمَّن عرفت حالهم في سجوني، فإنَّه كان يَطرحهم في هوَّة عميقة حتى يموتوا"[3]، مع وجازة الأخير عنه.

غرضُ التَّعبير بلفظ السِّجن:

رُبَّ قاتلٍ أرحمُ من حابس

في التَّعبيرِ بمفردةِ (السجن) تلويحٌ بما سيلقاه موسى عليه السلام في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 136.

غياهب الحبسِ من معاناة وعذاب، ممّا يُشعر بتفضُّلِه عليه بتركه يتنفَّس الحريَّة، ويتقلَّب في الأرض دون إذلالٍ، ففي ذِكر السجن إذًا تشديدُ التَّرهيبِ، وتذكيرٌ بصنوف العذاب التي هي من لوازم سجون الظالمين في كل جيل وقبيل، وبخاصَّة مَن يَبلغ بهم الخيال الجامح حدَّ ادِّعاء الألوهيَّة، كفرعون موسى عليه السلام ولذلك "قال ابن عباس: وكان سجنه أشدَّ من القتل"[1].

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

من البراعة استدراجُ الخصمِ إلى ما يُريدُ المُحاجِج

لا بدَّ من أنَّ تهديد فرعون السابق ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ أثارَ في نفس المتلقّي سؤالًا ملحًّا - وقد أغلق فرعونُ بابَ الحوار، وهربَ إلى التَّهديد والوعيد - فحواه: وبماذا ردَّ موسى عليه السلام على هذا التَّحوُّل المفاجئ من الحوار إلى التَّهديد؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾؛ فلمّا كانت الجملةُ الثانية هذه بمنزلة جوابٍ عن ذلك السؤال الثّائر في نفس المتلقّي؛ فُصِلت الثانية عن الأولى فصلًا لفظيًّا لِشبه اتِّصالهما معنويًّا، وذلك ما يسمّى بالاستئناف البياني.

بلاغةُ الاستفهام الداخل على واو الحال:

من أساليب الاستدراج في المناظرة استعمالُ السُّؤال المشوِّق

الهمزةُ في جملة مقول القول ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ للاستفهام، المشوِّقة إلى ما لديه عليه السلام من أمارات صِدقِهِ، وبها استطاع عليه السلام استدراجَ فرعونَ إلى الاستماع إليه من جديد، بعد أن أغلقَ باب الحوار بالتهديد والوعيد، فالاستفهامُ عنصرُ إثارةٍ وتشويق، ومفتاح حوار جديد، يوارب بابًا كاد أن يغلقَ تمامًا، فاستَفْهَمَهُ "استفهامًا مشوبًا بإنكار واستغراب، على تقدير عدم اجتزاء فرعون بالشَّيء المبين، وأنَّه ساجِنُه لا محالة إنْ لم يعترف بإلهيَّة فرعون؛ قطعًا لمعذرته من قَبل الوقوع، وهذا التقدير دلَّتْ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 553.

عليه (لو) الوصليَّة التي هي لِفرض حالةٍ خاصَّة"[1]؛ لذلك يرى بعضُ المفسِّرين أنَّ "الاستفهام للإنكار"[2].

معنى الواو ودلالتها:

الــواوُ لـلـحـالِ لبيانِ قوَّة الإبانة في كـلام موسى عليه السلام

(الواو) في السؤال ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ واو الحال، والتَّقدير: (أتجعلني من المسجونين حتى في حال إتياني إيّاك بدليل واضح على صدقي؟)، وليست الواو مؤخَّرة عن همزة الاستفهام؛ لأنَّ لحرف الاستفهام الصدارةَ بل هي لعطف الاستفهام، والعاملُ في الحال وصاحب الحال مقدَّران دلَّ عليهما قوله: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ﴾، أي: (أتجعلني من المسجونين)[3]، وبهذا يقوّي موسى عليه السلام أسبابَ الاستدراج والإثارةِ وفتّح إطار جديد للكلام.

نوعُ (لو) ومعناها:

الــصَّــبرُ على الخصْمِ حكمةُ العقلِ

توحي كلمة (لو) - لكونها حَرْفَ تمنٍّ يدلُّ على امْتِناعِ الفِعْلِ الثّاني مِن أَجْلِ امْتِناعِ الفِعْلِ الأَوَّلِ - باستحالة قبولِ فرعون نتيجة الدليل مهما يكن؛ لذلك لَم يَتمالك فرعونُ إزاء هذا الإلهاب إلّا الخضوع: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾، وذهب ابن عجيبةَ إلى أنَّ (لو) "ليست امتناعيَّة، بل إغيائيَّةً؛ فلا جواب لها، أي: تفعل بي هذا على كلِّ حال، ولو جئتك بشيء مبين؟"[4].

دلالةُ التَّعبير بمفردة المجيء:

الألفاظُ المبهَمَةُ في الاسـتـدراج للمناظَرة تُلهِب فضولَ الخصم

إذا كان المجيء في اللغة يُستعمل "في الأَعْيان والمعاني، وما يكون المجيءُ منه بِذاتِه وبأمرٍ"[5]؛ فإنَّ تعبيرَ موسى عليه السلام عن إحضاره - دليلُ صدقِهِ بـ (المجيء) - من شأنِهِ بثُّ مزيدٍ من التشويق إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 131.
(5) أبو البقاء، الكليات، ص: 34.

معرفته في نفس الخصم؛ وذلك لِما في دلالة مادة المجيء من احتمال أن يكون الشَّيء المبين جوهرًا أو معنى، واحتمال أنَّهُ يجيء بنفسه أو يؤمَر به، وواضح أنَّ ذلك ممّا أسهم في أسر نفس فرعون، وإخضاعه للاستمرار في المناظرة، إذ قال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

لطيفةُ تعدية فعل المجيء بنفسِه:

توريطُ فرعون في قبول مواصلة المناظرة

في تعدية الفعل (جئت) بنفسه - من قوله: ﴿جِئْتُكَ﴾ بدون حرف تعدية - مزيدُ توريطٍ لفرعون في قبول مواصلة المناظرة؛ إذ في ﴿جِئْتُكَ﴾ تصريحٌ بأنَّه هو المعنيُّ بهذا المجيء.

معنى الباء ودلالتها:

يجبُ أن يكونَ الدَّليلُ مصاحبًا للحجَّة

(الباء) في القيد بالجار والمجرور من قوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾ هي باء المصاحَبة أو الاستعانة، أي: أولو جئتك مصطحبًا الدَّليلَ القاطع بصدق دعواي؟ أو أستعين به على تصديقك وإقناعك؟ أو أَثنيك به عن قرارك القاضي بجَعْلي من المسجونين؟ أو أبَيِّن به خطأك في التقدير والحُكم؟

نكتةُ استعمال ﴿بِشَيْءٍ﴾ وتنكيره:

التشويقُ بالإبهام من عوامل استدراج الفضوليّين

جاء التعبيرُ في سياق المناظرة بمفردة ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ لِما فيها من إبهامَين: إبهام الشيئيَّة المطلَقة، وإبهام تَنكيرها ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ إذ المنتَظر حينئذٍ أنْ يقول - مثلًا - أولو جئتك بدليلٍ مُبين؟ أو حُجَّة قاطعة؟ أو معجزة بيِّنة؟، وما إلى ذلك، لكن آثر "التَّعبير عنه بالـ (شيء) للتَّهويل"[1]، وفي ذلك الإبهام "تفخيمٌ مِن أمرها، ولعلَّ مقصد موسى ﷺ بهذا الكلام، أن يجرَّ فرعون مرَّةً أخرى إلى الحديث في شأن الرسالة التي جاءه من أجلها، بعد أن رآه يريد أن يُحوِّل مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد، وأن يَسُدَّ منافذ الهروب عليه أمام قومه"[2].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 132.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.

الجمعُ بين إبهام الشَّيء وصفةِ الإبانة يقود فرعونَ إلى الإذعان

نكتةُ وصف الشَّيء بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم وصف (شيء) بلفظ ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: "يبيّن ربوبيَّةَ اللّه وألوهيَّته، أو ما يبيّن أنّي رسولُ اللّه"[1]، ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: "ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة"[2]، فصفةُ ﴿مُّبِينٍ﴾ تُسهم في جذب انتباهِ الخصم نحو الشَّيء، فهو جمعٌ بين إبهام الشيء، ووصفه بالإبانة؛ ليكون أدعى لمعرفته، ويقلِّل من احتماليَّة رفض مجيئه أمام الملأ، فإنَّ ذلك سيُحدث عليه جَلَبَةً، وسيُثير النّاس عليه؛ بسبب ما سيظهر عليه من مظهر الضعفِ والخور، فكان لا بدَّ من الإذعان.

السَّرد القرآنيُّ يجمع أطراف المحاورة كأنَّها جملة واحدة

علَّةُ فصل جملة مقول فرعون:

فُصِلت جملة: ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لما تثيره الجملة السابقة من أسئلةٍ عن موقف فرعونَ من عرض موسى عليه السلام، فتتصاعد حِدَّة المُناظرة، ويَتجاذب الطرفان طرفَيْها، وبينما يترقَّب المتلقّي، ويتطلع أثَرَ كلِّ مجاذَبةٍ بِسؤال يترتَّب عليها، ويثور في نفسه، حتى لَكأنَّ تلك المحاورةَ كلَّها جملةٌ واحدة، ونَفَسٌ واحد، ففرعونُ "قد عرف أنَّه رسول، وأنَّه ليس بإلهٍ على ما ادَّعى، وأنَّ الإله غيرُه حيث طلب هذه الآية"[3].

حشْدُ عناصر الإثارة يقود الخصم إلى مقصدِ خصمه

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

يأتي ردُّ فرعونَ على عرْضِ موسى عليه السلام بِفاء التفريع "الفصيحة، أي: إنْ كنت صادقًا في دعواك؛ فائْتِ"[4]، والفاءُ الفصيحة هيَ التي تقع بعد كلام يفيد غرضًا من الأغراض، فتوزَن بشيء مقدَّر كشرطٍ، فتكون تلك الفاءُ رابطةً لجوابِه لقصد الإيجاز، وقد يكون المقدَّر غيرَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 139.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 66.

شرط في كلام آخر[1]، والفاءُ هنا على سبيل المطالبة الفورية ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾؛ ممّا يدُلُّ على نجاح عناصر التشويق في عبارة موسى عليه السلام ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ يدلُّ على نجاحها في كسر عناد فرعون، وتطويعهِ نحو رغبة موسى عليه السلام في إنهاء الحوار إلى أقصاه.

غرضُ الأمر في ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾:

لا يمكنُ لطاغيةٍ أن يتجرَّد مِن هواه في مناظرته أهلَ الحقِّ

برغم انجذاب فرعونَ واستجابة وعيه الداخلي لِعَرْض موسى عليه السلام: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾، وطلب فرعون ذلك على وجه الفورية ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾، "أي: إنّا لن نسجنك حينئذٍ"[2]، فبرغم ذلك يُظهر فرعونُ في مطلبهِ ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾ معنى التَّعجيز لِموسى عليه السلام فقوله: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾ أمرٌ غرَضُهُ التعجيز، وبيان ضحالة الشَّيء المبين ذاك، وأنَّه لن يُجدي بيانًا ودليلًا، وبهذا يُرهص فرعونُ بتكذيبهِ موسى عليه السلام مبكِّرًا، قبل أن يَرى المعجزة، أو يعرف نوعها، وتلك شِنشنةُ أهل الباطل إزاء أدلَّة أهل الحق، وفعلًا تحقَّق تكذيبُه بعد أن رأى تلك المعجزات، ولم يُذعِن للحقِّ في معجزتَي العصا ولا اليد، فـ "فرعونُ لا يملك أمام موسى عليه السلام إلا أنْ يقول له: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾"[3].

دلالةُ استعمال لفظ الإتيان بعد لفظ المجيء:

اخـتـلافُ الاستعمال يُشير إلى تباين النّاس

لّما كان الفعل "(يأتي) أخفَّ مِن (يجيء)، وكذا الأمر: ﴿فَأۡتِ﴾، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأۡتُواْ﴾ [القصص: 49]؛ لأنَّ إسكانَ الهمزة ثقيلٌ لتحريك حروف المدِّ واللين، تقول: جِئْ أثقل من ائْتِ"[4]؛ جاءَ التعبيرُ بمفردة الإتيان، وفي ذلك كنايةٌ عن الرغبة في سرعة الإتيان بذلك بالشيء المبين، وهكذا يوزِّع النظم الكريم مفردتَي (المجيء) و(الإتيان)

(1) ابن عاشور، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: 1/ 64.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 324.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.

بين موسى عليه السلام واللَّعين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ ... ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾؛ ليترجمَ في التعبير بهما ما وراء كلٍّ منهما من إشارات مقصودة.

نكتةُ استعمال أداة ﴿إِن﴾:

كفَّةُ التشكيك في صدق الرسول تقابلها كفَّةُ احتمال الصدق

استُعملت أداة ﴿إِن﴾ في جملة الشرط ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، والمعنى: (إنَّ صدقك في الإتيان بشيء مبين أمرٌ مستبعد، مشكوك فيه)، وفي ذلك حكم سابق على نبيٍّ مؤيَّد من ربِّه، يفضح الطبيعة البشرية المختلة عند المتكبِّر المغرور، "وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع والنزول؛ ليتأتَّى إنكارُه إنِ احتاج إليه"[1]، فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يُفيد أنَّه لا يأتي "بالمعجزة إلّا الصادق في دعواه؛ لأنَّ المعجزةَ تصديقٌ من اللّه تعالى لِمُدَّعي النبوَّة، والحكيم لا يُصَدِّق الكاذب"[2]، وهذا قد جعله فرعونُ في معرض الشكِّ، وهو لا يدري أنَّه أعطى في المقابل احتمال الصدق.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

التَّقليلُ من شأن صدق موسى عليه السلام

﴿مِنَ﴾ في جملة: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، ترمي إلى التقليل من شأن صدق موسى عليه السلام، وأنَّه عليه السلام إنْ صدق في الإتيان بشيء مُبينٍ؛ لا يعدو أن يكون فردًا من كثيرين يصدقون.

بلاغةُ استعمال مفردة الصدق:

التشكيكُ في صِدق الخصم دون بيِّنةٍ حجَّةٌ مُفْلِسة

لمّا كان غرضُ فرعونَ هدْمَ دعوةِ موسى عليه السلام من أساسها؛ سلَّط التشكيك على أهمِّ ما يضمن لها النجاح، وهو (صدقه)، فقال: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، فنفث أمام الملأ تشكيكه في ثبوت صدقه، ثم شكَّك في أصالة صدقه عليه السلام وقِدَمه فيه إن ثبت هذه المرة - وذلك من صبِّ التشكيك بـ ﴿إِن﴾ على ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ مادَّةً لغوية وصيغةً صرفية، أخزاه اللّه تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 309.

لطيفةُ حذف جواب الشرط:

لم يُذكر للشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جوابٌ؛ "لأنَّ الأمر بالإتيان به يدلُّ عليه"[1]، فـ"جواب الشَّرط مقدَّر، أي: فأحضره"[2]، فممّا يُلمِح إليه حذفُ جواب الشَّرط هنا توفيرُ عناية الحضورِ - جلسائِهِ - على إشارةِ التشكيك في صدق موسى عليه السلام، وعدم شَغْلهم عن ذلك التشكيك الخبيث بجوابٍ يُغني عنه الأمر ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

توجيهُ المتلقّي إلى مضمون الشَّرطِ

نوعُ الفاءِ في الإلقاء ودلالتها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ للتَّفريع، فكان بإمكان موسى عليه السلام إلقاء عصاه ابتداءً، وترويع فرعون بالثُّعبان، لكنَّه كان سيغلق باب الحوار ابتداءً قبل فتحه، وليس ذلك من الفطانة التي يتحلَّى بها رُسُل الله تعالى، فعالج موسى عليه السلام المقامَ، وروَّض شراسة فرعون وهيَّأه، حتى استنطقه بِطلب المعجزة بنفسه ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، فبادر بعد ذلك بأن ألقى عصاه تفريعًا على أمر فرعون.

إذا هبَّت رياحُ البيان؛ فاقتنص عقولَ المخاطَبين

دلالةُ التَّعبيرِ بالإلقاء:

في التعبيرِ بمفردة الإلقاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ دون لفظ الرمي أو القذف، إيماءٌ إلى اعتناء موسى عليه السلام بأمر العصا؛ فإنَّه ألقاها بلطفٍ، ولم يَرْمِها، أو يَقذفها؛ فالقَذْفُ الرَّمْيُ بقوَّة، والرمي بالحجارة[3]، والرَّمْيُ فيه معنى الاستهانة بالمَرْميِّ، فجاء التعبير بالإلقاء لملاحظة اللُّطف والعناية عند الإلقاء.

اعتناءُ المناظِر بأدواتِهِ ضروريٌّ لإنجاح مهمَّته

نكتةُ استعمال لفظ العصا:

في التَّعبير بمفردة (العصا) في جملة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ إيحاءٌ بِصغر حجمها، حتى إذا انقلبت ثعبانًا؛ ظهرتِ الفوارقُ غيرُ المتوقَّعة

انقلابُ العصا ثعبانًا وقعةُ مهولٌ في أعين المبصرين

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.
(2) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1824.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قذف).

للخصوم المتربِّصين، وكلَّما كانت المفاجآت أعظمَ؛ كان تأثيرها أبلغَ، ذلك عند الأسوياء الباحثين عن الحقِّ والحقيقة، أمّا أمثالُ فرعونَ ومَلَئِه؛ فقد أَرْهصَ حُكمُه السابقُ بالشكِّ في صِدق موسى عليه السلام بقراره، مهما رأى مِن عظمة الدَّليل والمعجزة.

فائدةُ التَّعريف بالإضافة:

نصرُ المؤمنين بسبب عظمةِ النّاصر لا عظمة أداة النَّصر

في التعريف بالإضافة في ﴿عَصَاهُ﴾ بيانٌ لدلالةِ صِغَرها والتَّهوين من أمرها في الظاهر، أما التَّعريف بـ(أل) - لو قيل في غير القرآن الكريم: (فألقى العصا) - فإنَّه يضفي عليها فخامة، وكمالًا وعِظمًا غير مقصود في هذا المقام، كأنَّه قال: ألقى أمرًا يسيرًا؛ لا يعدو أن يكون عصاه.

معنى (الفاء) مع (إذا) الفجائيَّة ودلالتها:

ممّا يُسهِم في بيان تَلاحُق الأحداث وسُرعة المفاجآت استعمالُ النَّظم الكريم مع (إذا) الفجائيَّة (الفاءَ) التي هي للتَّعقيب والعطف(1)؛ لانقلاب صورةِ العصا الجديدة في صورة ﴿ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ عن حالتها الأولى المتمثِّلة في ﴿عَصَاهُ﴾ المعهودة في استعمالاتها المعتادة.

دلالة (إذا) الفجائيَّة:

الفرارُ إلى ملجأٍ منقذٍ لأهل الباطل يُثير شكوك النّاس حولهم

ممّا يسهم في سرعة المفاجآت ضميمة (إذا) الفجائيَّة إلى الفاء التعقيبيَّة في جملة: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾، ممّا يترجم بدقَّة عالية واضحة سرعةَ الحدث، وأَخْذةَ المفاجأة التي شُدِهتْ فيه أنظار الحاضرين ودهشت.

وقد زَلزلهم هولُ المفاجأة من دواخلهم زَلزلة لم تدع لهم فرصة التَّدبير والكيد، ممّا ألجأهم إلى فَضِّ هذا المجلس الضاغط؛ هروبًا إلى الأمام بِطلب تحديد موعد آخر للمنازلة في إطار ما نبَّههم إليه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/ 421.

زعيمهم فرعون من السِّحر، وريثما يتدبَّرون أمرهم، ويجمعون كيدهم، لكنها الفرصة التي فيها العنايةُ الإلهية، التي دبَّرها الله تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام.

نكتةُ تقديمِ ضمير الفَصْل:

مهما تجلَّى الحقُّ للطغاة؛ غالَطوا فيه، وكابَروا

من مقتضيات (إذا) الفجائيَّة تقديمُ ضمير الفَصْل ﴿هِيَ﴾ - الذي يقعُ مرفوعًا مطابقًا لما قبله تكلُّمًا، وخطابًا، وغيبة، وإفرادًا - على الخبر ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ حيث إنَّ المفاجأة تتعلَّق بِتحوُّل ذاتِ العصا إلى ذاتٍ أخرى، وذلك لا يكون بِقُدرة موسى عليه السلام، وكانوا يعيشون زمانَ السِّحر والسَّحَرة، والسّاحر مبجَّل مقدَّم فيهم، ويَدرون أنَّ هذا التحوُّل خارج تلك الحدود بمراحل، لكنَّه الكذِب والمغالَطة والمكابَرة، التي تأبى لِمثل فرعون أنْ يُقِرَّ لموسى عليه السلام بِصدقٍ، ويقرُّ بِصدق معجزته، فيحملُهُ الطغيان على النُّكران.

علَّةُ تنكيرِ ﴿ثُعْبَانٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ ليُضفي عليه عِظمًا وخُطورة ومهابة، ويوحي بأنَّه ﴿ثُعْبَانٌ﴾ من صنفٍ لا عهد لهم بِهَوْلِه وفظاعته، وحُقَّ له ذلك، فهو معجزة نبيٍّ.

إيحاءُ الإيقاع في لفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾:

لِلَفظ (ثعبان) إيحاءاتٌ مرعبة مزعجة

لِلفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ إيحاؤهُ المعنويُّ، فهو من أصل يدلُّ على امتداد الشيء وانبساطه، يكون ذلك في ماء وغيره، من ثعبتُ الماءَ، وأنا أثعبه؛ إذا فجَّرتَه؛ فانثعب، كانثعاب الدَّم من الأنف، ومنه اشتُقَّ مثعب المطر، وممّا يصلح حمله على هذا، الثُّعبان: الحيَّةُ الضخم الطويل، وهو من القياس، في انبساطه وامتدادِهِ خَلْقًا وحركةً[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).

وله دلالتُه المخيفة، وعند تتبُّع اشتقاقات المادَّة اللغوية التي تجمع حرفَي الثاء والعين، يثبت أنَّهما يشيران إلى معاني التحيُّل والروغان؛ إذا اجتمعا، فلِلثّاء مع العَين خاصَّة التلوُّن والتحيُّل والإرهان(1)، يقال: ثعَّ يثِعُّ - من باب (ضرَب) ثعًّا، أي: قاء ما أكله، وانثعَّ الأكلُ من فمِهِ، والدَّمُ من أنفهِ أو جُرحهِ، أي: انصبَّ، وثَعَبَ عليهم الغارة: شنَّها، وثَعَبَ البعيرُ شقشقته: أخرجها، وثَعَلت أسنانه تَثْعَل - من باب فَتَح - ثَعَلًا: تراكبت إحداها على الأخرى، فهو أثعلُ، وفيه معنى التلوُّن والتحيُّل، وأثعلَ الأمرُ: عظُم وتفاقم، والثُّعْل - بضمِّ الثاء المشددة - دوَيِّبة تظهر في السِّقاء؛ إذا خبُثت ريحُهُ، وثُعالة: علمٌ على أنثى الثَّعلب لا ينصرف، وثَعْلب وتثعلب: راغَ، أو تشبَّهَ بالثَّعلب في روغانه، والثَّعْلب حيوان مشهور بالتحيل والرَّوغان، يتساقط شعرُهُ كلَّ سنة، وبالجملة فهذه المادةُ ظاهرة الثعلبة والثعبانية(2).

نكتةُ وصفِ ﴿ثُعۡبَانٌ﴾ بـ﴿مُّبِينٌ﴾:

وصفُ ﴿ثُعۡبَانٌ﴾ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾ يَنفي عنه شُبهة التَّخييل، ويُقرِّر ثعبانيَّته الحقيقية، ويؤكِّد يقينَهم بأنَّهُ حقًّا ﴿ثُعۡبَانٌ﴾ لا خيالات ولا شعوذات، ووصف ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: "ظاهر الثعبانيَّة، لا شيء يشبه الثُّعبان، كما تكون الأشياء المزوَّرة بالشعوذة والسِّحر"(3).

دلالةُ صيغةِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

دفعُ توهُّمِ المجاز في لفظ ثعبان

توحي صيغة ﴿مُّبِينٌ﴾ بتألُّق الثُّعبان، وأنَّه مِن تلقائه كاشِفٌ عن خصائص الإعجاز فيه، وأنَّه قد أراهم ما يَستدلون به على صدق المعجزة، وصدق رسالة موسى عليه السلام وهو "اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان، بمعنى ظهر، فـ﴿مُّبِينٌ﴾ دالٌّ على شدة الظهور، من

(1) "يقال: أرهنُ أولاده، أي: أخطرُهم"، يُنظر: اليمني، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: 4/ 2661، "وإرهانُ الشَّيْءِ إثباتُهُ وإدامتهُ"، يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة: (رهن).

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 68.

(3) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 3/ 310.

أجل أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، أي: ثعبانٌ ظاهرٌ، أنَّه ثعبانٌ لا لبس فيه ولا تخييل"[1].

نكتةُ تقديمِ إلقاء العصا على نزع اليد:

معجزةُ العصا أعجَبُ، فكانت بالتقديم أليقَ

لا ريب أنَّ كلتا المعجزتين: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ خارقتان للعادة، غير أنَّ انقلاب العصا كائنًا حيًّا مهيبًا خطيرًا - وهي قطعة مِن خشب ميت، أو قضيب جافٍّ من قضبان شجرة - آخذٌ للألباب، وأنَّه المعجزة الأعظم لِما فيه مِن خصيصة التخويف، ومضارِّ التسميم، فذلك ما أهَّلَ تلك المعجزة العظيمة للتَّقديم على معجزة ابيضاض اليد وإشعاعها مع عظمة الأخرى، وتقديم المعجزة المنفصلة على المعجزة المتَّصلة أولى بالمقام؛ لدفع تهمة التَّلاعب باليد.

بلاغةُ العطف بالواو في فعل النَّزع:

تداخُلُ المتعاطِفَين حتى لَكَأنَّهما وقَعا دُفْعةً واحدة

(الواو) في جملة ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ للعطف، حيث تَجْمَعُ لموسى عليه السلام معجزتين عظيمتين، وسياق الأحداث هنا يمنح الفعلين ترتيبًا؛ إذ إلقاءُ العصا كان أوَّلًا، على إثر طلب فرعونَ، ثم نزْع اليد، فالواو هنا تتضمَّن فورية (الفاء) إلى درجة أنَّها تُداخل الحدَثَيْن، كأنَّهما وقعا من موسى عليه السلام معًا.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ النَّزْع:

تصويرُ مشهدِ المعجزة كأنَّها حاضرةٌ أمامَ المخاطَب

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة النَّزْع في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، والنزع: سلُّ شيءٍ ممّا يحيط به، ونزعُ اليد: إخراجُها مِن القميص، فلِذلك استغنى عن ذكر المنزوعِ منه، وهو مكان النَّزع لِظهوره، أي: أخرجَ يده مِن فتحة قميصِه المفتوحة إلى الصَّدْرِ، أو من تحت إبطه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123، ونخبة من العلماء، التفسير الميسّر، ص: 368.

فالتَّعبيرُ بمفردة النَّزع يوحي بجلال الحدَثِ، حتى لكأنَّ إخراجَ يدِهِ مِن تحت إبطهِ أو من جيب قميصهِ نَزْعٌ شديدٌ بقوَّة؛ أضفى على ذلك الحدث تفخيمًا وتعظيمًا؛ لأنَّه ليس حدثًا اعتياديًّا، بل معجزة كبرى، وقد كان موسى عليه السلام رجلًا أسمرَ اللون(1)، فإذا خرجت يَدُهُ بيضاء مشرقة؛ كانت المفارقةُ كبيرةً، والمعجزة عظيمة.

معنى الفاء ودلالتها:

التَّعقيبُ والعطفُ المتضمِّنُ السرعة والمفاجأة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ مع أداة المفاجأة (إذا) توازي في عطائها ودلالتها (الفاء) مع (إذا) في الجملة السابقة: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾، فكلتا المعجزتين مفاجأتان كُبريان، تأخذان بالعقول والقلوب؛ لذا كان عُنصرُ السُّرعة والمفاجأة فيهما وبهما آسرًا.

دلالةُ (إذا) الفجائيَّةِ:

التَّهرُّبُ من مقارعة الدَّليلِ بالدَّليل من صفات الفراعين المهزومين

ممّا يُسهم في بيان سرعة المفاجآت ضميمةُ (إذا) الفجائية إلى (الفاء) التعقيبية في جملة ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾؛ لأنَّها دلَّتْ "على سرعة انقلاب لون يده بياضًا"(2)، ممّا يترجم بدقَّةٍ ظاهرة واضحةٍ سُرعةَ الحدَث، وأَخْذ المفاجأة الَّتي شَدَهَتْهُم.

وكما زلزلهم هولُ المفاجأةِ حين انقلبت العصا حيَّةً، كذلك أذهلهم انقلابُ سواد بشرة يده عليه السلام بياضًا مشعًّا كالشمس، ممّا أكَّد لجوءَهُم إلى فَضِّ المجلس فورًا، والهروب إلى تحديد موعد آخرَ للمقارعة، ريثما يتدبَّرون أمرهم، ويجمعون كيدهم، لكنَّها الفرصة الَّتي دبَّرها اللّٰه تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام.

---

(1) إذ وصفه النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء بقوله: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي مُوسى رَجُلًا آدَمَ طُوالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ»، أخرجه البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (3239)، ومسلم، الصحيح، الحديث رقم: (165)، فهو عليه السلام أسمر، طويلٌ، غيرُ مسترسل الشعر، يشبه رجال شنوءة من قبيلة الأزد القحطانية.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.

دلالةُ تقديمِ ضمير الفَصْل:

دلَّ تقديمُ ضمير الفصل ﴿هِيَ﴾، المرادُ به اليدُ في جملة ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ على التَّنويه بشدَّة أسرها لِمن رآها، وعظمة عطاء المعجزة فيها، ولا شكَّ أنَّه ليس مَن رآها كمن سمع بها.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

التعديةُ أو الظرفيَّةُ متعلِّقان للّام

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يجوز أن تكون لامَ التَّعدية، أي: اتِّصال متعلّقها بِمجرورِها، ويجوز أن تكون اللّامُ ظرفيَّةً بمعنى (عند)، ويكون الجار والمجرور ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ حالًا[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة النَّظر:

شأنُ معجزاتِ الأنبياء أن تكون خارقةً؛ لا عهد للمدعوّين بمثلها

التَّعبيرُ بـ (النظر) دون (البصر) - في قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ مع صياغته باسم الفاعل - يوحي بأنَّ بياضَ يدهِ عليه السلام كان يَجذب الأنظارَ بقوَّةٍ؛ لخروجه عن الإلْفِ والعادة، ويشدُّ من يراه، فيديم النظر لهذا التحوُّل اللوني، ويطيل التدبُّر فيه، وذلك من عطاء صيغة (الفاعل) في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ "بياضها ممّا يقصدُه الناظرون لأعجوبتِه"[2]؛ ممّا يوحي بتفرُّده وتمايزه عن كلِّ بياض؛ ذلك أنَّه بياضُ إعجازٍ، فلا شكَّ أنَّه ممّا لا عهد ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ برؤية مثله، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه "دليل على أنَّ بياضَها كان شيئًا يَجتمع النَّظّارة على النظر إليه؛ لِخروجه عن العادة، وكان بياضًا نوريًّا"[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

المجيء والإتيان:

المجيءُ للجواهر والأعيان، والإتيانُ للمعاني والأزمان

"(جاء) يقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) يقال في المعاني والأزمان، ولهذا ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.

﴿بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ [يوسف: 18]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]، وأتى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ [يونس: 24]"(1).

و(أتى): تُستخدم في الشَّيء الذي فيه يُسْرٌ وسهولة، و(جاء): تُستخدم في الشيء الذي فيه مَشَقَّةٌ وصُعوبة، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾ [النازعات: 34]، و﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾ [عبس: 33]، عبَّرت الآياتُ السابقة عن يوم القيامة وحضوره بـ (جاءت)، أمّا في ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1]؛ فعَبَّرت الآية عن الكلام: حول يوم القيامة، والكلام يسير، ولم تُعبَّر عن الحضور، أو الوقوع، ولذلك عَبَّرت بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾ [الغاشية: 1]"(2).

الإلقاء والرَّمي:

الإلقاءُ خاصٌّ بالمحسوسات، والرَّمي عامٌّ فيها وفي المعنويات

"الإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثم صار في التَّعارف اسمًا لكلِّ طرحٍ، قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه: 87]"(3)، و"الرَّمْيُ يقال في الأعيان كالسَّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ويقال في المقال، كنايةً عن الشَّتم كالقذف، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: 6]"(4).

السِّجن والحبس:

السِّجنُ الحصرُ في ضيق، والحبسُ مطلق المنع عن الوِجهة

السِّجْنُ المَكانُ يُسْجَنُ فيهِ الإِنْسانُ، والسَّجْنُ: المَصْدَرُ، سَجَنَهُ يَسْجُنُهُ سَجْنًا، أَي: حَبَسَهُ، والسَّجّانُ: صاحبُ السِّجْنِ، ورَجُلٌ سَجِينٌ: مَسْجون، والسِّجِّينُ: الصُّلب الشَّديدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾ [المطففين: 7] قيلَ: المَعْنَى:

(1) عقيلة، محمد بن أحمد، الزيادة والإحسان في علوم القرآن: 8/ 214.
(2) فهد سالم الكندري وآخرين، أول مرة أتدبر القرآن، ص: 293.
(3) الراغب، المفردات: (لقى).
(4) الراغب، المفردات: (رمى).

أَنَّ كِتابَهُمْ في حَبْسٍ لِخَساسَةِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّه ﷻ وقيلَ: في سِجّينٍ في حَجَرٍ تَحْتَ الأَرضِ السّابِعَةِ[1].

و"الحَبْسُ: ضدُّ التخلية"[2]، قال ابن تيمية رحمه اللّه: "الحَبْسُ الشَّرْعيُّ لَيْسَ هوَ السِّجْن في مَكانٍ ضَيِّقٍ، وإِنَّما هوَ تَعْويقُ الشَّخْصِ ومَنْعُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شاءَ، سَواءٌ كانَ في بَيْتٍ، أَوْ في مَسْجِدٍ، أَوْ كانَ يَتَوَكَّلُ نَفْسَ الغَريمِ أَوْ وكيلُهُ عليْهِ، ومُلازَمَتُهُ لَهُ"[3].

الثعبان والحية:

الثُّعْبان الحيَّةُ الضخمُ الذَّكرُ، والحيَّة عامَّة تطلق على جميع الأفاعي

"الحَيَّةُ الأَفْعَى تُذَكَّرُ، وتُؤَنَّثُ، فَيُقالُ: هوَ الحَيَّةُ، وهيَ الحَيَّةُ"[4]، و"الحَيَّةُ: اشْتِقاقُها من الحَياةِ، وأَصْلُها: حَيْوَةٌ، وسُمّيَتْ حيَّةً؛ لأَنَّها تَتَحَوّى في التِوائها، وأَرْضٌ مَحْواةٌ ومَحْياةٌ: كثيرةُ الحَيّاتِ، والحَيّوتُ: ذَكَرُ الحَيّاتِ، والحَيَواتُ: جَمْعُ الحَيَّةِ"[5]، والثُّعْبانُ: الحيَّةُ الضَّخم، الطَّويل، الذَّكرُ، الأَصْفَرُ، الأَشْقَر، وهوَ من أعظم الحيّات، قالَ بَعضهم: الثعبان من الحيّات ضخم عَظيم أَحْمَرُ يصيد الفأرَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سجن).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (حبس).
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 35/ 398.
(4) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (حيي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (حيي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثعب).

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾

[الشعراء: 34 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيان المعجزاتِ إلى بيان التَّصدي لها

لَمّا ذكرَ النَّظمُ الكريم في الآيتين السابقتين إجراءَ اللّٰه تعالى على يدَي موسى عليه السلام معجزتَي العصا واليد؛ أتْبَعَهُ هنا ببيان أنَّ فرعونَ لمّا "هاله ذلك، ولم يكن له فيه مدفع؛ فزع إلى رَمْيِه عليه السلام بالسِّحر، وطمع - لِغلبة علم السِّحر في ذلك الزَّمان - أن يكونَ ثَمَّ مَن يُقاومه، أو أنَّه كان عَلِم صحَّة المعجزة، وعَمَّى تلك الحُجَّة على قومه بِرَمْيِه بالسحر"[1].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿لِلْمَلَإِ﴾: أصلُ (ملأ) يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ[2]، ومنه المَلَأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواء ومنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا[3]، وهم أيضًا: الرُّؤساء، سُمّوا بذلك لأنَهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه، وهم كذلك الَّذين يُرجَع إلى قولهم، والجَمعُ أملاء، والواحِدُ مَليءٌ[4]، وقيل هم الأَغنياءُ المُتَموِّلونَ ذَوو الأَموال في إعطاء الدَّين وتسليمه لطالِبه ومُتقاضيه بلا مشقَّةٍ، ولو لم يكونوا في الحقيقة أغنياءَ[5]، وأمّا المُرادُ بهم في الآية: فالجماعة من عِلْيَةِ القوم[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (ملأ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 35.

2) ﴿أَرْجِهْ﴾: أصلُ (رجأ) يدُلُّ على التَّأخير والتَّأجيل[1]، يُقالُ: أرجأْتُ الأمر وأرجيته إذا أخَّرته وأجَّلته، يُهمَز ولا يُهمَز، وإذا وصَفْتَ به قلتَ: رَجُلٌ مُرْجٍ وقومٌ مُرْجية، وإذا نسبتَ إليه قلت: رَجُلٌ مُرْجيٌّ، بالتَّشْديدِ[2]، ويأتي بمعنى الإمهال، وإعطاء الرَّجاء، وهو: الأمل[3]. والإرجاءُ في الآية معناه: الإمهال والتَّأخير إلى وقت مُستقبلٍ.

3) ﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾: أصلُ (مدن) مُشتَقٌّ مِنْ مَدَنَ بالمكان إذا أقام[4]، ومنه المدينة: البلدةُ الَّتي كثُر سكانها[5]، وهي فَعيلة، وتُجمعُ على مدائن، بالهمز، ومُدْنٍ ومُدُن بالتَّخفيف والتَّثقيلِ[6]، وذكَر بعض أهل اللُّغة أَنَّ فِعل (المَدْن) مُمات وأنَّه من قَوْلهم: مَدَنَ بالمكانِ، إذا أَقامَ به، وبه سُمّيت المدينة في لُغَة هؤلاءِ، وأنكر ذلك قوم فقالوا: مدينة مَفْعِلَة من قَوْلهم: دينَتْ، أَي مُلِكَتْ، والأَمَة يُقالُ لها مَدينة لأَنَّها مملوكَة[7]. والمراد بالمدائن هنا: جَمعُ مدينةٍ، أي البلدُ العظيمُ، ومدائنُ القُطْرِ المِصريِّ يومئذٍ كثيرةٌ[8].

4) ﴿حَٰشِرِينَ﴾: أصلُ (حشر) يدلُّ على الجَمْعِ والسَّوقِ والبعث والانبعاثِ، وأهلُ اللُّغة يقولون: الحَشْرُ الجَمع مع سَوْقٍ، وكلُّ جَمعٍ حَشْرٌ[9]، والحَشْرُ: جَمع النّاس يومَ القيامة، والمَحْشَرُ: المَجمعُ الَّذي يُحشر إليه القَوم، وكذلك إذا حُشِروا إلى بلدٍ أو مُعسكرٍ أو نحوِه[10]، ومنه سُمّيَت الحَشراتُ بذلك؛ لاجتماعها وكَثرتها، ويأتي الحَشْرُ بمعنى السَّوْقِ، فيُقال: حَشَرَ إبله، أي: ساقها[11]، والمقصودُ بالحَشْرِ في الآية: اجتماع النّاسِ مِن مواضِعَ مُتفرِّقةٍ إلى مكانٍ واحِدٍ[12]، والمُرادُ: رجالًا يجمعون السَّحرة إليك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رجا).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (رجا).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مدن).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مدن).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (مدن).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 217.

التَّمويهُ على العامَّة باتِّهام المصلحين مسلك المفسدين

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

لمّا رأى فرعونُ معجزتَي موسى ﵇؛ علِم أنَّ الأمر خطيرٌ عليه وعلى مُلكه، فسارع إلى تهمته ﵇ بالسِّحْر؛ صرْفًا لِجُلسائه عمّا بَدا لهم مِن قوَّة المعجزتين، فذلك زمانُ السِّحر والسحرة، ومن اليسير إقناعُهم بتلك التُّهمة الجاهزة.

ولم يكتفِ الملعون بتُهمة موسى ﵇ بالسِّحر، بل بنى عليها تَهييجَهم بِتُهمةٍ أخطر، بحيث يَضمن صرفَهم عن موسى ﵇ صرفًا تامًّا، بل ويضمن معاداتهم إيّاه ومحاربتهم له بكلِّ ما يستطيعون، فاتَّهمه بالعزم على إزالة حكمهم عن مصر، وبإخراجهم مِن وطنهم إخراجًا.

فكان أن أجمعوا على ألّا يقتله فرعونُ، بل يُمهِله ريثما يتهيَّأ لُمناظرته بِسَحَرَة مثلِه، وأن يَبُثَّ شُرَطَته في الأمصار لِجمع حُذّاق السَّحرة والمَهَرَة منهم في صنْعة السِّحر؛ لِملاقاته ﵇.

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى أنَّ صنيع فرعونَ هذا من تسخير اللّٰه تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمعَ الناسُ في صعيد واحد، وتظهرَ آيات اللّٰه وحججه وبراهينه على الناس في النَّهار جهرة، وإلى مشروعية استشارة الأمير رجاله في الأمور ذات البال، وإلى ثبوت السِّحر، وأنَّه فنٌّ من فنون المعرفة، وإن كان تعلُّمُه وتعليمه محرَّمين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

فُصِلت جملة ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البيانيِّ، حيث يتساءل المتلقّي: وماذا كانتْ ردَّة فعل فرعون إزاء هاتين المعجزتين العظيمتين؟ فيأتي الجواب: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 322، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 647.

عنايةُ الفراعين بخواصِّهم المقربين من أهل الولاء

نوعُ (اللام) ودلالتها:

أفادت (اللام) في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ الاختصاص؛ إذ (الملأ) أهل مشورته، وإن يكن منه من تقدير لأحدٍ من شعبهِ، فلهم بخاصَّة، أمّا عوامُّ الشعب؛ فلا وزنَ لهم عند الفراعين؛ لذلك اختصَّ فرعونُ ملأَهُ بأن يأمروه، أو يشيروا عليه في شأن هذا الخطر المحدق به.

ملأُ فرعونَ هم خواصُّه الموثوق بهم

معنى تعريف المَلَإِ:

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَإِ﴾ لامُ العهدِ، التي تخصِّص الملأ، وتعيِّنهم، وإلّا ففرعون لن يخاطبَ أيَّ ملَأٍ في أمرٍ خطير مثل هذا، ولا بدَّ من أن يكون الملأُ هو الموثوق به، الذي يسانده بالباطل من جهةٍ، ويزيِّنُ له الأمور، ويحظى بالعطايا والمزايا من الجهة الأخرى.

الملأُ أخصُّ من القوم وألصق بالحكم

نكتةُ استعمالِ لفظ المَلإِ:

الملأُ هم الرؤساء والأشراف، وملَأُ "قوم فرعون هم سادتهم، وهم أهلُ مجلس فرعون ومشورته"[1]، وآثر النَّظمُ الكريم في جملة ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ وصْفَ حاشيةِ فرعونَ وجلسائه وخلصائه بالملأِ دون (القوم)؛ لأنَّهم الذين يعاونونه، ويُمالِئونه، فهُم أهل مِلاء بما يُحتاج إليه، وهم الكبار من قومه الذين يُخلصون له، ويتضامن لهم، ويستريح إليهم، أمّا القومُ؛ فوصْفٌ يُطلق على عامَّة الشعب، فالقومُ أعمُّ من الملأ، والملأُ بالنسبة للرئيس خواصُّه، وهم الذين يثبِّتون أركانَ حكمِه، ويُحامون عنه في المدلهمّات، وهذا المفهوم ينطبقُ على أغلب مواضع الملأ والقوم في الذِّكر الحكيم.

الفرعونُ بدون حاشيةٍ خوّارٌ، لا بقاء له ولا استقرار

لطيفةُ تَكرارِ لفظ ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾:

كرَّر النظم الكريم كلمةَ ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ بعد ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾؛ وهو بذلك يَلْفتُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 41.

إلى تحصُّنه بهم، واتِّخاذهم سياجًا مِن حوله، وهو يتوسَّطُهم، إشارة إلى ضعفهِ بدونهم، وأنَّ الذين يُمالِئون الطاغية شركاؤُهُ في الجرم، وإلّا فكان يكفي أن يُقال: (فقال للملأ: إنَّ هذا لساحر) دون ذكر ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾، فلمّا ذَكَرَهُ؛ دلَّ على قصدهِ لَفْتَ المتلقّي إلى إشاراته ودلالاته.

دلالةُ التَّوكيدِ في السياق:

إحساسُ الطُّغاةِ بِكَذِبِهم يَنضحُ على ألسنتهم توكيدًا

آثرَ النَّظمُ الكريم بيانَ حالِ فرعونَ بذكر ما يدلُّ على زعزعته بأسلوب التوكيد، برغم عدم وجود منكِر مِن ملئه، فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، بعد أن أكَّد لهم أيضًا في قوله تعالى على لسان المأفون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذه طبائعُ الكاذبين، يجتهدون في ترويج أكاذيبهم باليمين والتَّوكيد، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإشارة:

التَّعبيرُ بإشارة القُرب لِمعلوم أسلوبُ تَجاهُلٍ يَحطُّ مِن شأنِهِ

جرْيًا على طبيعة الطُّغاة يَبعث فرعونُ في ثنايا تهمته بالكذب لموسى عليه السلام بإشارة تحقيرٍ، في محاولة للحطِّ من شأنه - عليه السلام - ويتجاهل اسمه، ويشير إليه بأداة القريب: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، دون أن يقول: (إن موسى لساحر)، ومن طبْعِ إشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ أن تتلوَّن مع المقامات، فهنا تُلمح إلى محاولة تحقيرِ فرعون لموسى عليه السلام، على حَذوِ الإشارة في قول المشركين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: 41].

نوعُ (اللام) ودلالتُها في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

حين تلوحُ دلائلُ صدقِ المصلحِ يسارعُ المفسدُ إلى تكذيبها

(اللام) في قول جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ لامُ التوكيد، ولا مقتضى لها هنا إلّا محاولةُ فرعونَ إضفاءَ الصِّدقِ على تهمته الكاذبةِ، لا مقتضى لها إلّا هذا؛ لأنَّ ملأه لم يكذِّبوه، ولم يُبدوا تشكُّكًا في تهمتِه، بل كانوا على طريقته مِن الاستبداد الأعمى والكذب البَواح، إلّا أن يكون فرعونُ قد رأى في أعينهم بعض أمارات تصديق موسى عليه السلام،

وذلك غير مُستبعَدٍ، بدليل ذهوله عن تقاليد الفرعنةِ، فاستأمرَهم، وأمَروه بإرجاء موسى وأخيه ﴿عليهما السلام﴾؛ فيكون التوكيدُ مسارعةً منه إلى انتزاع هذا الشعور منهم.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

في نزوع فرعونَ إلى تُهمة موسى ﴿عليه السلام﴾ بالسِّحر في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ دلالةٌ على تَشبُّع فرعونَ بِفكرة السِّحر، وأنَّهُ كان يُقيم ملكه على سحر الناس، ويتَّخذ من السِّحر وألاعيب السَّحَرَةِ وسائل غير أخلاقيَّة؛ لأنَّ أوَّل ما قفز إلى ذهنه الخبيث الرَّبْطُ بين معجزتَي موسى ﴿عليه السلام﴾ والسِّحرِ، وكأنَّها كانت تهمةً جاهزة، يتَّخذها تهمةً لكلِّ من أراد التورك عليه بأدلَّةٍ قويَّةٍ، لا تَروقه، وعلى حَذوِهِ اتَّهم كفّارُ قريش رسولَ اللّه ﷺ بالسّاحر والكاهن وغيرهما.

السِّحرُ إذا كان أداةً لفرعونَ؛ فحقٌّ، وإن كان لغيرِه فباطل

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

صيغ اسمُ الفاعل ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ لتأكيد رسوخ قدم موسى ﴿عليه السلام﴾ في صنعةِ السِّحر، وقيامه عليها وقِدَمه فيها، وأنَّها له دَيدنٌ لازِم.

زعْمُهم رسوخَ قَدمِ موسى ﴿عليه السلام﴾ في السِّحرِ

نكتةُ الوصفِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مادة وصيغة:

وصفُ لفظ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بصفة ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لبيان أنَّ فرعونَ أراد أن يقرِّرَ للملأ أنَّه ما أتى بهذه الخوارقِ إلّا وقد بلغَ في السِّحر ذلك المبلغ تعلُّمًا ومراسًا وإتقانًا، وأنَّه بلغَ في صنعة السِّحر مبلغَ العالمِ، بل الـ﴿عَلِيمٌ﴾، ولا يزال فرعون بسوء نيَّةٍ وخُبْث طويةٍ يَكيد لِموسى ﴿عليه السلام﴾ فيُبالغ في وصفه برسوخِ قدمه ﴿عليه السلام﴾ في العلم بالسِّحر، فيصوغُ وصْفهِ بالعلم به في صيغة مبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليضمن لتُهمته التصديقَ عند الملأ، ويبدو أنَّ ذلك قد انطلى عليهم فعلًا، وصدَّقوه، فبحثوا، فأشاروا بمنح نفسِه متنفَّسًا من الوقت، ريثما يتدبَّر مخرجًا من هذا المأزق الشديد، فوجَّهوه إلى إرجاء موسى وأخيه ﴿عليهما السلام﴾ إلى حين.

مِن ظُلمِ الطواغيت تهمةُ المصلحين بالفسادِ العريض

علَّةُ فصل جملة ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾ عمّا قبلها:

صنعةُ المستبدّين تمتينُ دعاويهم بأباطيل ضدَّ المصلحين

جملة ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾ "إغراءٌ وتحريش منه لِقومه على موسى ﷺ؛ لِئلا ينظروا إليه بعين التعظيم؛ لِعَظيم ما أتاهم من الآية، وأراهم، حيث قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾، وموسى ﷺ كان لم يُرِد إخراجهم من أرضهم، ولكن ذلك إغراءٌ منه لهم عليه لئلّا يتَّبعوه"[(1)].

وقد فُصِلَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم﴾ عن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصال؛ إذ الثانيةُ بمنزلة بيانٍ للأولى، وأنَّ موسى ﷺ إنَّما اتَّخذ السِّحر - كما يزعم فرعون - وسيلةً لِغاية خبيثة، وأنَّه ﷺ يتذرَّع بالسحر لتحقيقها، وهي إخراجهم من أرضهم.

وكأنَّ فرعونَ لِفرط دهائهِ لمح ما لم يَلْمحوه، وفَهِمَ ما لم يفهموه، وسبقهم بِثاقب وعيه إلى مأرب موسى ﷺ مِن سِحره - على حدِّ زعم الملعون - وهكذا هي حُجَجُ المستبدين لتأليب أعوانهم ودهمائهم، وتحريشهم ضدَّ الصالحين المصلحين في كل جيل وقبيل.

دلالةُ استعمالِ لفظ الإرادة:

يتظاهرُ الفراعينُ بنفاذ البصيرة إلى مآرب المصلحين

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ الإرادة ﴿يُرِيدُ﴾؛ لبيانِ أنَّ فرعون يتَّهم موسى ﷺ، بأنَّه يُرتِّب، ويدبِّر، ويتعمَّد، ويتَّخِذ لذلك التدابير، وتلك أقرب التُّهم التي يلجأ إليها الطُّغاةُ لتحريض العوام ضدَّ المصلحين، وهي تُهمة تخريب الحياة عليهم وتشريدهم.

فاصطفاء مفردة (الإرادة) مظهرٌ لصبِّ الحقد في قلوب الملأ على موسى ﷺ وهو الأدخل في التحريض ضدَّهُ؛ حتى ينطلق الملأُ بعزيمة يحدوها اعتقادُ السوءِ في أنَّ موسى ﷺ شِرّيرٌ خطير.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.

نكتةُ التَّعبيرِ بمضارع الإرادة:

صيغةُ المضارعةِ عنصرُ إلهابٍ للأحاسيسِ

إيثارُ صيغة المضارع ﴿يُرِيدُ﴾ لبيان أنَّ فرعونَ يُلمِّح إلى الملأ بأنَّ تلك الإرادة لدى موسى عليه السلام نشطةٌ مُتجدِّدة، وأنَّ عزيمته عليه السلام على إخراجهم من أرضِهم متصاعدة لا تخبو، ولا تتراجع، ولا تَهاوُن منه في تنفيذها.

وهكذا تسهم صيغةُ المضارعةِ في تحريشِ الملأِ وإلهابِ أحاسيسهم واستفزازهم، كما تستفزُّهم مادَّتُها اللُّغويَّة نحو تأكيد معاداة موسى عليه السلام والتربُّص لِهزيمته.

نوع ﴿أَن﴾ ومعناها:

﴿أَن﴾ في جملة المفعول ﴿أَن يُخۡرِجَكُم﴾ مصدريَّةٌ، تمثِّلُ مع الفعل بعدها مصدرًا، والتَّقدير: (يريد إخراجكم)، والجملةُ المصدريَّةُ تتيح إشاراتٍ لا يوفِّرها المصدرُ المباشر.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالمفعول جملة مصدرية:

تحريضُ فرعونَ للملأِ بدوره يُسهم في تحريض مع دونهم

جاء التَّعبيرُ بالجملة المصدريَّة دون المفردِ؛ لِما لا يوفِّرُه المصدرُ الصَّريح من الدَّلالاتِ، مع التَّعبيرِ بالفعل المضارع بعد ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يُخۡرِجَكُم﴾، لبيان تجدُّدِ عزم موسى عليه السلام على إخراجهم، ممّا يزيد المخاطَبين حنقًا وغيظًا، وزيادة المبنى في جملة ﴿أَن يُخۡرِجَكُم﴾ على المصدر الصَّريح (إخراجكم) تزيدُ في المعنى، فتُسهِم في استفزازِ الملأِ، الذي سيَستفِزُّ بِدوره مَن تحتَهُ من عوام الناس.

بلاغةُ المجاز في الإخراج:

المستبدّون يُخوِّفون الملأَ من ذَهاب وجههم ووجودهم

قوله: ﴿يُخۡرِجَكُم﴾ مجازٌ، وذلك على تأويلِ معنى ﴿يُخۡرِجَكُم﴾: بأنَّه "يُخرج خدمَكم وعبيدَكم - يعني بني إسرائيل - لأنَّه جاء يَطلبهم بقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]، أو: يوقع العداوةَ بينكم بِأنْ يستميلَ بعضكم، فيقع الخِصام والمحارَبة، فيصير سببًا لِخروجِكم مِن دياركم"(1).

(1) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1825.

أو: "يريد موسى أن يستولي على قلوب الناس، ويميلها معه بِسحره هذا حتى يَكْثُرَ أعوانُه وأنصارُه، ويغلِبَكم على دولتكم، فيأخذَ البلاد منكم، ويستعبدَكم، فتذهبَ عزَّتُكم، ويزولَ سلطانُكم، وتكونوا أتباعًا وخَدَمًا بعد أن كنتم سادةً أعِزَّةً"[1].

تهويلُ شأنِ المُصلحين يهيِّئ للاستماتةِ في ردِّهم

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

حرفُ ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ابتدائيَّةٌ، فهي تصوِّرُ للملأِ إخراجَ موسى لهم - بِحسب زعمِ فرعونَ - وكأنَّه اقتلاعُ أصولٍ مِن مغارِسِها، فيزيد بذلك حقدَ القوم على موسى عليه السلام ويبعث فيهم الهمَّةَ على التأهُّب لِلاستماتة في مُحاربته في الجولة القادمة.

عند ضعف الطاغيةِ تظهر معالمُ الحقائقِ الخاوية

دلالةُ الإضافةِ إلى ضمير الملأِ وبلاغتها:

ممّا يؤجِّج غضبَ الملأِ على موسى عليه السلام، ويؤكِّد كرهه في قلوبهم إضافةُ لفظ (أرض) إلى ضميرِهم: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾؛ لأنَّ الأرضَ على أصحابها غاليةٌ عزيزة، بل دونها القتلُ وبَذْلُ الأرواح، و"هذه نهايةُ ما يفعله المبطل في التَّنفير عن المحق"[2]، فهكذا تكون المفردات كاشفةً عن مدى خوفه من موسى عليه السلام ومدى تعويلِه على ملَئِه في استنقاذه ممّا ينتظرهُ من المصير المظلم المجهول، ثُمَّ إنَّ فرعونَ "يستسلم للملَأ حوله، ويُسَلِّم بأنَّ الأرض أرضُهم، وقد كانوا منذ قليلٍ هم والأرض مِلكًا خالصًا ليدِه، وإذا كانت الأرضُ أرضَهم، وموسى عليه السلام يريد أن يخرجَهم مِن أرضِهم هذه بسحرِهِ؛ فالأمرُ إذًا أمرُهم، فماذا يرون"[3].

تعريف السِّحر بخصوصيَّةٍ غير معهودة

فائدةُ إضافةِ لفظ السِّحر إلى الضَّمير:

في إضافة لفظِ السِّحر إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ مزيدُ ترهيبٍ للقوم منه عليه السلام، ومزيدُ استفزازٍ لهم ضدَّهُ؛ لأنَّ التَّعريفَ

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1568.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 501.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 84.

بالإضافة يوهم أنَّ لِموسى ﷺ سحرًا خاصًّا به، غير معهودٍ لأحد من السَّحرة، وأنَّه لا قبل لهم - إن لم يتكاتفوا على دحضِهِ - بصدِّه ودفعه.

براعةُ تقديمِ ﴿مِّنۡ أَرۡضِكُم﴾ على ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلة هو الأسلوبُ الأقوى في الإشعار بالخطر

من براعة النَّظمِ القرآني دِقَّةُ نقل دخيلة فرعون الخبيثة، الحريصة على إشعال النار في قلوب المخاطَبين، وإفعامهم لِموسى ﷺ كُرهًا وحِقدًا، فمن براعة القرآن في ذلك تقديمُ القيد ﴿مِّنۡ أَرۡضِكُم﴾ - المتعلِّق بالفعل ﴿يُخۡرِجَكُم﴾؛ غايةً له - على القيد ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ المتعلِّق بالفعل نفسِهِ وسيلةً له؛ إذ المهمُّ في هذا المقام والمؤثِّر الأهمُّ في إلهاب هؤلاء هو تهديدُهم بطردِهم من أرضهم لا وسيلة طردهم.

نوعُ (الفاء) في اسم الاستفهامِ ومعناها:

استشارةُ المستبدِّ أشبهُ بجبروت المتغطرس

(الفاء) في جملة الاستفهام ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ تفريعيَّةٌ، فبعدَ أن بيَّن غاية موسى ﷺ، وذكر وسيلتَهُ لتحقيق غايته؛ فرَّع على ذلك أخْذَ المشورة بصيغة الاستفهام، ففَهِمَ عليه الملأُ، فقالوا: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، وهكذا المبطلون يساندُ بعضُهم بعضًا؛ بُغيةَ البقاء ما أمكنَهُم.

غرضُ الاستفهامِ ودلالته الكنائيَّة:

الإلهُ الحقُّ عونُ العبادِ لا مُعانُهم

الاستفهامُ في جملة ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ يحتملُ الحقيقةَ من طلب الفَهم، ويحتمل الاستنصاحَ وأخذ المشورة، وإلى ذلك فهو كنايةٌ عن ضعف فرعون، وعدم استغنائِهِ عن مساعدة أتباعه، ممّا تترتَّب عليه حقيقةُ كذبِهِ في دعواه الألوهيَّة؛ إذ يقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38] وكذبه في دعوةِ الربوبيَّة حيث يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]؛ إذ الإلهُ الحقُّ والربُّ الصِّدق مستغنٍ عمّا سواه.

عند ما تضيقُ الحُجَجُ بالمفترين يتذلَّلون صاغرين

بلاغةُ استعمال مفردةِ ﴿تَأْمُرُونَ﴾:

في استعمال مفردة ﴿تَأْمُرُونَ﴾ دلالةٌ على ضعف فرعونَ أن يكونَ إلهًا أو ربًّا كما يزعمُ، فها هو ينتظرُ من أتباعهِ الأمر ﴿تَأْمُرُونَ﴾، وكأنَّهم صاروا سادتَهُ، وهو عبدُهم المستأمِرُ، ولا أشنع من ذلك في حقِّ ذلك المدَّعي.

و"هذا يبيِّن أنَّه كان قد عرَفَ أنَّه ليس بإله، فبيَّن دناءَتَهُ وقلَّة معرفتهِ؛ لأنَّه لا يقولُ مَلِكٌ من الملوك لقومه: ماذا تأمرون، وخاصَّة من يدَّعي لنفسه الألوهيَّة بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]؛ فدلَّ أنَّه كان خسيسَ الهمَّة في الرأي والبال"[1].

قال الزمخشريُّ: "ولقد تحيَّرَ فرعونُ؛ لَمّا أبصرَ الآيتين، وبقي لا يدري: أيُّ طرَفَيهِ أطولُ؟ حتى زلَّ عنه ذِكرُ دعوى الإلهية، وحطَّ عن مِنكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصُهُ، وانتفخ سَحَره[2] خوفًا وفَرَقًا، وبلغت به الاستكانة لِقومه - الذين هم بزعمه عبيدُه، وهو إلههم - أن طفق يؤامرهم، ويعترفُ لهم بما حذَّر منه، وتوقَّعه، وأحسَّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على مُلكه وأرضه ... جعل العبيدَ آمرين وربَّهم مأمورًا؛ لِما استولَى عليه من فَرْطِ الدَّهش والحيرة"[3].

و"مثل هذا الكلام يوجب جَذْب القلوب، وانصرافَها عن العدو"[4]، ثم إنَّه قد "أظهر لهم الميلَ إلى ما يقولونه تألُّفًا لهم، واستجلابًا لِمَوَدَّتِهم؛ لأنَّه قد أشرفَ ما كان فيه من دعوى الربوبيَّة على الزَّوال، وقارب ما كان يُغَرِّر بِهِ عليهم الاضمحلالَ، وإلّا فهو أكبرُ تيهًا وأعظم كِبرًا من أن يخاطبَهم مثلَ هذه المخاطَبةِ المشعرة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 57.
(2) السَّحر: الرئة، ويقال للجبان: قد انتفخ سحرُهُ.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 501.

بأنَّه فردٌ من أفرادهم وواحدٌ منهم، مع كونِهِ قبلَ هذا الوقت يدِّعي أنَّهُ إلهُهم، ويذعنون له بذلك، ويصدِّقونه في دعواه"(1).

"وهكذا الطُّغاة عند ما يضيق الخناق حول رقابهم يتذلَّلون، ويتباكَون، فإذا ما انفكَّ الخناقُ مِن حول رقابهم؛ عادوا إلى طُغْيانهم وفجورهم"(2).

أيُّ رأيٍ يُعين على الخلاصِ من الحرج؛ فهو المنقذُ من الضَّياع

نكتةُ حذفِ مفعولِ الأمر:

الفعل ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ لم يتعدَّ لمفعولٍ، فإمّا أن يكونَ مفعولُهُ محذوفًا، وإمّا أن يكون عومِلَ معاملةَ الفعل اللازم، وإذا حُمل على معنى المشاورة - أي: فماذا تُشيرون؟ - فبيِّنٌ واضح معاملة الفعل معاملة اللازم، ويكون قد أطلق طلب المشاورة، أي: أشيروا بأيِّ شيءٍ يُعين على الخلاصِ من هذا الازدحام المحرج المقلق.

من شأن القصصِ الحقِّ جذبُ انتباه المتلقي حتى نهايته

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

فُصِلت جملة ردِّ الملأ على فرعون ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ للاستئناف البياني؛ إذ لا زال المتلقي متحفِّزًا لِمعرفة جوابهم، ومُتابعة هذا السياق المتوتِّر، متطلِّعًا إلى الوقوف على مَرمى تلك الأحداث المتلاحقة.

الآراءُ التي تأتي عن اجتماع تُنقذ الأقوال الَّتي تصدر عن انفراد

بلاغةُ اجتماع الحقيقة والمجاز باعتبارين:

أُسْنِد القول في جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ إلى جميع الحاضرين من ملأِ فرعون، بينما قاله بعضهم، وفي حقيقة الأمر هو صادر عن الجميع بالقوَّة؛ لأنَّهم رضوا بهذا الرأي، ولعلَّه صدر عنهم بعد تشاورٍ وتدارس، وعن البعض بالفعل؛ لأنَّ القول يصدر عن شخص باسم الجميع، وفي ذلك إيحاءٌ بإجماعِهم على هذه الفكرة، وأنَّ فرعون قد انكسر أمامهم جميعًا، وصار كلٌّ منهم كالسَّيِّد أو المستشار المسموع في هذا المقام الحرِج.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 244.

نكتةُ إيثارِ مفردةِ الإرجاء:

الإرجاءُ تأخير بقصد تحقيق غاية من ورائه

معنى ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾: احبسهما، وأخِّرهما، وجاء التَّعبيرُ بمفردة ﴿أَرۡجِهۡ﴾ دون التأخير، وذلك لأنَّ معنى التَّأخير غير وارد هنا؛ إذ التَّأخير يوحي بالتعطيل، بخلاف الإرجاء الذي يوحي بمعنى التأجيل فقط، ولا مجال هنا للتعطيل بقصد الهرب؛ لأنَّهم يقصدون إلى عقد المنافسة وإجرائها إجراء واقعيًّا حقيقيًّا، ولم يأمر الملأ بقتل موسى وهارون عليهما السلام مخافةَ افتتان النّاس بهما؛ "لأنَّ حُجَّتَهُ نيِّرة، وضلالَتَهم في ربوبيةِ فرعون مُبينة؛ فخشوا الفتنة، وطمعوا أن يَغلب بِحُجَّةٍ تُقنع العوامَّ"[1].

غرضُ الأمرِ في الإرجاء والبعث ودلالتُه:

لا يتجاوز أمرُ الملأ أن يكون إشارةً أو مشورة

الأمرُ في قول الملأِ لِموسى ﴿أَرۡجِهۡ﴾، ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ خارجٌ عن أصل معناه من الاستعلاء والقهر إلى النُّصح والإرشاد؛ لأنَّ فرعونَ زعيمُهم، وذلك لا يمنع من شعورهم بنَشْوة النِّدّيَّة، وقد استأمرهم بنفسه: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾؟ ولعلهم قالوا ذلك لِفرط الدَّهشة، أو تَجلُّدًا ومداهنةً لفرعون، وإلّا فكيف يُمكن لفرعون أن يحبِس موسى عليه السلام مع ما شاهد منه مِنَ الآيات؟[2]

دلالةُ ذِكر ﴿وَأَخَاهُ﴾:

مقتضى الحكمة إرجاء الاثنين وعدم إطلاق أحدهما

من الملحوظ في السياق السّابق أنَّه لَمْ يَرِدْ لِهارون عليه السلام ذِكرٌ، وأنَّ أوّل إشارةٍ له هنا جاءت في نصيحة الملأِ فرعونَ: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾، وجاء ذكره في هذا الموضع باعتبار أنَّ الإرجاءَ يجب أن يكون للاثنين، فإرجاءُ أحدهما وإطلاق الآخر يخلو من الحكمة من وراء الإرجاء.

معنى واو البعث ودلالتها:

(الواو) في جملة ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ واو العطف،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 230.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 76.

لإضافة الملأ نصحًا إضافيًّا إلى النُّصح الأول ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ والربط بينهما، لا الإرجاء فقط، فلا ضرورة لإرجاء لا يعاضده بَعثٌ في المدائن لِحَشْد نجوم السحر، بل إنَّ الإرجاء بِدون حشدٍ يكون خطره أشدَّ؛ إذ يتجهَّز موسى عليه السلام فيقوَى ويضعفون، فالمطلوب الجمعُ بين الإرجاء والبعث معًا بدون فاصلٍ زمني.

تجهيزاتُ الطُّغاة لِمُلاقاة المصلحين تَتَلاحَقُ كأنْ لا وقتَ بينها

نكتةُ استعمالِ مفردة البعث:

جاء التَّعبيرُ بِفعل الإرسال ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾ [الأعراف: 111] في سورة الأعراف، والتعبير بفعل البعث ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ في هذه السورة؛ وذلك للجمع بين أمرين، وهما الإشعار بالعلوِّ في فعل الإرسال، والإشعار بسرعة الانتشار وكثافته في فعل البعث، وأتى بكلِّ لفظ بما يلائم السياق الوارد فيه.

الإيماءُ إلى معنى الانتشارِ وكثافته وسرعة الإبلاغ

دلالةُ التَّعدية بحرف الظرفية:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ حرف الظرفية ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ دون حرف الغاية (إلى)، فلم يقل: (وابعثْ إلى المدائنِ حاشرين)؛ "لأنَّ الفعل هنا غيرُ مقصودٍ تعديتُهُ إلى المرسَل إليهم، بل المقصود منه المرسَلون خاصَّة، وهو المفعول الأوَّل؛ إذ المعنى: وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسَّحرة، فعَلِمَ أنَّهم مرسَلون للبحث والجلب، لا للإبلاغ"[1]، ولبيان حرصهم على التنقيب في المدائن عن المَهَرَة مِن السَّحرة؛ لِملاقاة موسى وأخيه عليهما السلام.

أهلُ الباطل حريصون على التنقيب عن أسباب إنجاحِ باطلهم

نكتةُ استعمالِ لفظ المدائن:

المدائن: جمع مدينة، وهي بوزنِ فَعيلة، مشتقَّة من مَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام، ولعل (مدن) هو المشتقُّ من المدينة لا العكس؛ بناء على أنَّ أصل المشتقّات هو المصدر[2]، ومدائنُ مصرَ في ذلك الزمن

المدائنُ مواطنُ التنوُّع الاجتماعي والثقافي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 43.
(2) وهو رأي البصريين الذين يقولون: إنَّ المصدر هو أصل الاشتقاق، لأنَّه يدلُّ على شيء واحد، وهو الحَدَث، مثل كلمة: الكتابة، نشتقُّ منها: كتب، يكتب، اكتب، مكتوب، كتاب، والمصدر اسم، أمّا الفعلُ، فإنَّهُ يدلُّ على حدث وزمن، والذي يدلُّ على شيء واحد، يعد هو الأصل في كل شيء.

كثيرةٌ[1]، وفي التعبير بـ ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ توجيهٌ ولَفْتٌ إلى حواضِر مصرَ ومُدُنِها الكبيرة، التي تضجُّ بالعُمران، ويتزاحم فيها الناس، وتتنوَّع فيها الثقافات، وتَضُمُّ صفوةَ السَّحَرَة، فتلك حواضن الخبراء في كافَّة التخصُّصات بِخلاف القُرى، التي تكاد يُجمع أهلوها على حِرفةٍ واحدة أو دين واحد.

دلالةُ جمع ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ وتعريفها:

دلَّ جمْعُ ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ وتعريفُها على تغطية كل مُدن مصر بالبحث والتَّنقيب؛ لاستقطاب خبراء السَّحَرَةِ، بحيث يضمنون الغلبة، ويظفرون بالنَّصر.

بلاغةُ استعمالِ لفظ ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

الاستبدادُ قرينُ القهر والإلزام

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ وهو جمع حاشر، وهو مَن يجمع السحرة من المدائن[2]، أي: "شُرطًا يَحشرون السَّحرة"[3]، ويجمعونهم؛ لما توحي به هذه اللَّفظة من الجمع المنتظم الذي لا يخالف فيه أحدٌ أمرَ الحاشرين، ففيها معنى القهر والإلزام.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

عند احتدامِ الأمور تقوى العزائم

التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يَشي بوفرة العزيمةِ القويَّة على تنفيذ الحشر، والتصميم الموفور والهمَّة الثابتة الجادَّة على إنجاح المهمَّة، أمّا الفعل (يحشرون)؛ ففيه دلالةٌ على التجدُّد، الذي لا يُناسب المقام المحكوم بوقتٍ لا سَعَةِ فيه لرفاهية التجدُّد والتبدُّل.

دلالةُ الجمع في ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

جمعُ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ للدَّلالة على وفرة عَددهم، ومؤازرة بعضهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.
(2) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1827.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 561.

بعضًا؛ بحيث تتحقَّق الغايةُ على الوجه الأكمل، وبهذا يتجلَّى إخلاصُ الملأ لِفرعون، ويتأكَّد الولاء.

موقعُ جملةِ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾:

تمامُ النَّصيحة شَفْعُها بغايتها

جملة ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ جوابُ الأمر في جملة ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ "للدَّلالة على شدَّة اتِّصال السببيَّة بين الإرسال والإتيان، فالتَّقدير: (إن ترسل، يأتوك)، وقد قيل في مثله: إنَّه مجزومٌ بلام الأمر المحذوفة، على أنَّ الجملة بدلٌ من أرسل بدلَ اشتمالٍ، أي: أرسِلْهم آمرًا لهم؛ فليأتوك بكلِّ ساحر عليم"[1]، فهي موضِّحةٌ ومبيِّنة لجملة الأمر ببعث الحاشرين؛ فغرضُ البعث في المدائن حاشرين أنْ يأتوه بكل سحّار عليم، وأن تكون مُهمَّتُهم فرْزَ السَّحرة وانتقاءَ خُبرائهم؛ بدلالة صيغة ﴿سَحَّارٍ﴾ ووصفه بـ ﴿عَلِيمٍ﴾.

غرضُ تقييدِ الفعل بالمفعول:

أكملُ نفاقِ الأتْباع قصرُهم خوفَهم على مصلحة متبوعهم

من لطائف التَّركيب في قول الملأِ لفرعون: ﴿يَأۡتُوكَ﴾ تخصيصُ الفعل (يأتوا) بمفعول مخصوصٍ هو كافُ الخطاب المعنيُّ بها فرعون؛ ذلك أنَّ الحاشية التي تشير بهذا الرَّأي يُبالغون في إظهار حرصِهم على نصرة كبيرهم، وأنَّهم إنَّما يجتهدون في تمحيص الرأي والمشورة لأجله هو لا لأجلهم هم، وفي ذلك امتنانٌ كبير عليه، وإلّا لاكتفَوا بفعل علَّةِ بعْثِ الحاشرين مطلقًا بدون مفعولٍ، فقيل: (يأتوا بكلِّ سحّار عليم).

نوعُ الباءِ ودلالتها:

الباءُ في القيد ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ باء المصاحبة، أي: ابعث في المدائن حاشرين يصطحبوا إليك مَهَرَةَ السِّحرة وحُذّاقهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.

دلالةُ استعمال لفظ العموم:

دلَّ استعمالُ لفظ العموم (كل) في قوله: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ على الحثِّ على جلْب جميع مَن يمتلك المَهارة في السِّحر، فـ(كل) "مستعملٌ في معنى الكثرة، أي: بجمْعٍ عظيم من السَّحَرَة يشبه أن يكون جميعَ ذلك النوع"[1]، وبهذا "جاؤوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة؛ ليُطيِّبوا قلبَهُ، وليُسَكِّنوا بعضَ قلقِهِ"[2]، وإنجاح مهمَّة التصدّي لموسى وأخيه عليهما السلام.

نصائحُ الأتباعِ ضررُها أكبرُ من نفعها لسوء منبتها

وهذا نُصحٌ أضرَّ بفرعون من حيثُ ظنوه نافعَهُ؛ إذ كانت الإحاطة بأصحاب المهارة جميعًا حاسمةً في انهيار منظومة السِّحر التي يحكم بها البلاد، ويسوس بها العباد دُفعَةً واحدة، وقد عَموا عن النُّصح الرشيد؛ لأنَّه نُصحٌ مبنيٌّ على النِّفاق.

سببُ استنجادِ الملأِ بالسَّحرة:

الشَّأنُ أنْ يكون ملأ الحكّام عقلاءَ وأهلَ سياسةٍ

"كان السَّحَرَةُ في القديم هُم الطبقة المثقَّفة، ولهم مكانتهم عند الملوك والجبابرة"[3]؛ وبناء عليه تنشأ لهم المكانةُ في نفوس الناس؛ لذلك وجَّه الملأُ بالاستعانة بالسَّحرةِ دون سواهم، "والشَّأن أن يكون ملأُ فرعونَ عقلاءَ وأهلَ سياسةٍ، فعلموا أنَّ أمر دعوة موسى عليه السلام لا يكاد يخفى، وأنَّ فرعونَ إنْ سجنه، أو عاند؛ تحقَّق الناس أن حُجَّة موسى عليه السلام غلبَتْ؛ فصار ذلك ذريعةً للشكِّ في دين فرعون، فرَأَوا أنْ يُلاينوا موسى عليه السلام وطمِعوا أنْ يوجَدَ في سَحَرَةِ مصرَ مَن يُدافع آياتِ موسى، فتكون الحُجَّة عليه ظاهرةً للناس"[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة في السِّحر:

كشفُ الحالةِ النَّفسيَّة للملأِ وفرعون

صيغةُ المبالغة في ﴿سَحَّارٍ﴾ تفيد أنَّ كلَّ واحدٍ منهم "كثيرُ العمل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 45.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 752.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.

بالسِّحر، عليمٌ فائقٌ في عِلمه، ولِكَوْنِ المهمِّ هنا هو العمل؛ أتَوا بما يدلُّ على التَّفضيل فيه"[1]، فَهُم قد "عارَضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾، بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، فجاؤوا بكلمة الإحاطةِ وصفة المبالغة؛ ليُطامِنوا من نفسه، ويُسَكِّنوا بعض قلقِه"[2]، وفي التَّعبير بصيغة المبالغة (فَعّال) في ﴿سَحَّارٍ﴾ تأكيدُ انتقاءِ ذَوي المهارة العالية والخبرة الكبيرة والمراس الطَّويل؛ ظنًّا منهم بأنَّ ذلك هو الضامن الأكيد لِهزيمة موسى وأخيه - عليهما السلام - وذلك كنايةٌ عن تأثير معجزتَي موسى عليه السلام في الملأ، فقد رأوا ما لم يرَوا مثله مِن قبل، ومثل هذا لا يُجدي في دحضه - فيما يظنّون - إلّا مهَرَةُ السَّحَرَةِ وصفوة خبرائهم.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

انتقاءُ الصّيغِ يفي بمقتضيات السياقات والأحوال

"اتَّفق القُرّاءُ العشرة على قراءته ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزن (فعّال) للمبالغة؛ لأنَّه جوابٌ لِقول فرعونَ فيما استشارهم فيه مِن أمْر موسى عليه السلام بعد قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فأجابوه بما هو أبلغُ من قوله رعايةً لِمُراده، بِخلاف الذي في الأعراف، فإنَّ ذلك جوابٌ لقولهم، فتناسب اللَّفظان، وأمّا الذي في يونس؛ فهو أيضًا جوابٌ مِن فرعون لهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦﴾ [يونس: 76]"[3].

نكتةُ الوصف بلفظ ﴿عَلِيمٍ﴾:

على قَدْرِ قوَّة حُجَج الصالحين يَحشد المبطلون أدواتهم

اشترطَ الملأُ في أولئك السَّحرة الذين يُجْلَبون لِمواجهة موسى وأخيه - عليهما السلام - الاتِّصافَ بِالعلم في قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، والعليمُ: الفائقُ في معرفة السِّحْر وصنعته[4]، وذلك أنَّ فرعون خوَّفهم بِأنَّ موسى (ساحر عليم)، ولا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ؛ فلا يَلقَى العليمَ بالسِّحر إلّا العليمُ به.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 76.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 311.

(3) محيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 2/ 243.

(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.

وكأنَّهم يقولون: إنَّ حشْدَ عُمومِ السَّحرة لا يُغني عن فرعونَ شيئًا، وإنَّما الذي يُجدي عليه نفعًا، ويضمن له النَّصر هو حشدُ الخبراء المتمرِّسين مِن السَّحرة؛ لما رأوا في معجزتَي موسى ﷺ مِن الخِبرة الكبيرة في السِّحْر.

دلالةُ صياغة ﴿عَلِيمٍ﴾ في السَّحرة:

يتلقَّفُ الأتباعُ كلماتِ متبوعيهم

كما حذَّر فرعون ملأه، وخوَّفهم من موسى ﷺ بوصف ﴿عَلِيمٌ﴾ بصيغة المبالغة (فعيل) في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، كذلك وجَّه ملَؤُه باجتذاب خبراء السَّحرة الذين يتَّصف كلٌّ منهم أيضًا بصفة ﴿عَلِيمٍ﴾، فقالوا: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

دلالةُ حذفِ متعلّق ﴿عَلِيمٍ﴾:

لم يذكرِ النَّظْمُ الكريم متعلِّق ﴿عَلِيمٍ﴾، فلم يذكر معلومًا معيَّنًا، وذلك "لأنَّه صار بِمنزلة أفعال السَّجايا، والمقام يدلُّ على أنَّ المراد قوَّةُ عِلم السِّحر له"(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والملأ:

القومُ جماعةُ الناس عامة، والملأ خواصُّ الملوك ونحوهم

تُستعمل كلمةُ (قوم) في الأصل لجماعةِ الناس عامَّةً وعشيرة الرجل، كأنَّها اسمُ جمعِ "قائم"، وهم مظاهِرون (مُقَوّون) لمن هو منهم، ثم خُصِّصت بعدُ بالرجال، باعتبار أنَّهم كانوا هم الذين يُعْتَدُّ بهم في الحروب وما إليها، ولأنَّهم القادة والذادةُ، أي: القائمون بالأمر: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: 11]، ويُلتفت إلى أنَّ موسى ﷺ قال: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ [الصف: 5]، في حين أنَّ عيسى ﷺ قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الصف: 6]، ولم يقل: يا قومي؛ إذ لم يكن له أبٌ منهم(2).

(1) الراغب، مفردات غريب القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 45.

بينما تُستعمل كلمة (الملأ) للتَّعبير عن خواصِّ المُلوك والأمراء.

الحشر والجمع:

الحشرُ جمعٌ مع سَوْق، والجمع مطلق

"الحشر: هو الجمع مع السَّوْق، والشاهد قوله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، أي: ابعث مَن يجمع السَّحَرةَ، ويَسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر؛ لأنَّ الخلقَ يُجمعون فيه، ويُساقون إلى الموقف"[1].

والجمعُ أعمُّ منه؛ لأنَّه يطلقُ على مطلق الاجتماع.

المدائن والقرى:

مجتمعُ المدينةِ متنوِّعٌ، ومجتمع القرية متوافق

يُطلِق القرآنُ الكريم اسمَ (القرية) على كلِّ مجتمعٍ متَّفق في عاداته، أو أخلاقه، أو عقيدته، أو حرفته، أمّا إذا اختلفتْ طبائعُ المجتمعِ في شيء من ذلك؛ أطلق عليها القرآنُ الكريم وصف (المدينة)، كما أطلق على يثربَ اسمَ (المدينة)؛ وذلك لاختلاف طبائعِ أهلها بعد الهجرة وافتراقهم إلى منافقين وصحابة مخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: 101].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 188.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾ [الشعراء: 38 - 39]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد الاقتراحِ يأتي ذكرُ الأفعال

لمّا أشار الملأُ على فرعون بتأخير مُحاجَّة موسى وأخيه عليهما السلام إلى موعد لاحقٍ؛ ليتجهَّز لهم بِجمع السَّحرة؛ ناسب أن يذكر النَّظم ما كان منهم بعد أن أنفذوا وعدهم في جمع السَّحرة، فهو انتقال من بيان الاستعداد لجمع السَّحرة، إلى بيانِ الاجتماع الفعلي.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَجُمِعَ﴾: أصلُ (جمع) يدُلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ[1]، يُقال: جَمَعَ الشَّيء عن تفرقة يَجمعُه جمعًا، وجَمَّعَه وأَجْمَعَه فاجتَمع، وكذلكَ تجمَّع واسْتَجمَعَ، والمجموعُ: الَّذي جُمِع من هاهنا وهاهنا، وإن لم يُجعَل كالشَّيء الواحِد، وجَمَع أمره، وأجمَعَه، وأجمع عليه: عزَم، كأنَّه جمَعَ نفسه له[2]، والجمْعُ: المجتمعون، وجَمْعُه جُموع[3]، والمراد بالجمع في الآية: ضمُّ السَّحرة بعضهم إلى بعضٍ في صعيدٍ واحد.

2) ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِهِ[4]، ومنه السِّحْرُ: وهو تَخْييلُ ما ليس بكائنٍ كائنًا، ورَجلٌ ساحرٌ من قوم سحرةٍ، والسّاحرُ: العالِمُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: 49]، يعني العالِم الفَهِم[5]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إِلى غَيْرِهِ، وقد سحر الشَّيء عن وجْهِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

أَي صرفه[1]، والمقصود بالسَّحرة في الآية: المعروفون ببراعتهم في السِّحر.

3) ﴿لِمِيقَٰتِ﴾: أصلُ (وقت) يدلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ[2]، الميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوعد الذي جعل له وقْتٌ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ﴾ [الدخان: 40][3]، وأصلُه اسمُ آلةِ التَّوقيتِ؛ سُمّي به الوقت المُعيَّنُ تشْبيهًا له بالآلةِ[4]، وقد يُقالُ: الميقاتُ للمكان الَّذي يُجعل وقْتًا للشَّيء، كميقاتِ الحجِّ"[5]، والمراد به هنا: الوقتُ، أي: القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيتان الكريمتان ما قام به فرعونُ من جمع السحرة من جميع مدائن مملكته لِوقت معينٍ، وهو الوقت الذي حدَّده موسى عليه السلام حين واعَدَهم، وهو الضُّحَى مِن يومٍ معلوم هو يوم الزينة، الذي يتفرَّغون فيه من أشغالهم، ويجتمعون، ويتزيَّنون، وقد اقترحه موسى عليه السلام لإظهار كمال قوَّته، وكونه على ثقةٍ من أمره، وعدم مبالاته بِهم؛ ليكون ظهورُ الحقِّ وزهوقُ الباطل في يومٍ مشهود[6].

الواثقُ مِن نصر الله تعالى له لا يَرْهَبُ كَيْدَ خُصومِه

وقد استبطأ رجالُ فرعونَ اجتماعَ النّاس، واستحثّوهم إلى الحضور سريعًا، ومشاهدةِ هزيمة موسى - فيما يتوقَّعون - وقالوا لهم: اجتمعوا، وانتبهوا لِما سيحصل مِن انتصار السَّحرة على موسى؛ وذلك كنايةٌ عن تمام ثقة فرعون وملئه بانتصارهم على موسى عليه السلام بما جهَّز له من السحرة.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وقت).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وقت).
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1569، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 368.

وترشدُ الآيتان إلى أنَّ من لطفِ اللّٰه أن يُريَ العبادَ بطلانَ ما موَّه به فرعونُ أنَّ ما جاء به موسى سحرٌ، فسَّخره وجنوده إلى أن جمعوا أهلَ المهارة بالسحر؛ لينعقدَ المجلس في حضرة حشدٍ عظيم من قومه، فيَظهرَ الحقُّ على الباطل، ويقرَّ أهلُ العلم وأهل الصناعة، بصحَّة ما جاء به موسى عليه السلام، وأنَّه ليس بسحرٍ، وترشد إلى أنَّ إثارة العامة ضدَّ أهل الدين أسلوبُ الطغاة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتها:

سرعةُ الاجتماع بعد البعث المعلوم من السياق

(الفاء) في جملة ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ "عاطفةٌ على مقدَّر"[2]، أي: "فبَعثَ، فَجُمِعَ السَّحرة"[3]، وما قبلها كلامُ الملأِ، وجملتُها كلام اللّٰه تعالى، وهي إلى ذلك مؤذِنة بسرعة وقوع الحدث ﴿فَجُمِعَ﴾، وفوريَّةِ حشْدِ فرعونَ لِلقاء خِصمه موسى عليه السلام وأنَّه لم يُفَوِّت لحظةً دون تجهيز وترتيب؛ "حرصًا مِن الحاشرين والمحشورين على تنفيذ أمر فرعونَ"[4].

دلالةُ بناءِ فعلَي الجمع والقول للمفعول:

احتشدَ أهلُ الباطل على جمعِ السَّحرة وحشرهم

بُني فعلا ﴿فَجُمِعَ﴾ و﴿وَقِيلَ﴾ لنائب الفاعل؛ "لِعَدَم تعيُّن جامعين وقائلين، أي: جَمع من يَجمع، وقال القائلون"[5]، وهو ممّا يُسهم في الإبانة عن سرعة الحشدِ والتَّجهُّز لِلقاء موسى عليه السلام بالسحرة؛ إذ المقام لا يسمح بتعديد الجامِعين الحاشدين، فالجميعُ يَحشد، ويَجمع، والجميع يتأهَّب، ويستعدُّ.

وبهذا التصوُّر يمكن القولُ: إنَّ الجامعين والحاشدين كانوا بدْءًا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 322، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 590، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 368.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 71.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 89.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.

من فرعون، ونزولًا إلى حاشيته المقرَّبين، ثم مَن تحتهم، ثم مَن تحتهم إلى آخر تحتٍ؛ إذ إنَّ ذلك اللِّقاء هو الفيصل بين أن يكونوا، أو ألّا يكونوا.

نكتةُ استعمالِ مفردة الجمع:

تحقُّقُ الحشرِ، ولم يفلت منه ساحر واحد

اختيرت مُفردةُ (الجمع) في الفعل ﴿فَجُمِعَ﴾؛ لتصوِّر ذلك الحشد القوي، وتُبيِّن أنَّ البعثَ والحشر كان للجمع في مكانٍ واحد، وقد تحقَّقتِ الغاية من ذلك، فأتت مفردةُ الجمع لبيان أنَّ الحشر قد وقع، وأنَّ الجمع لم يفلت منه ساحرٌ واحدٌ.

إشارةُ صيغة جمع ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

خِفَّةُ حركاتِ الضبط توحي بسرعةِ إنجازِ العمل

في اصطفاء صيغةِ (الفَعلة) في جمع ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ مؤازرةٌ لِسُرعة الجمْع، وذلك لِما فيها مِن خِفَّة الفتحات المتتالية، بخلاف ما يَرمي إليه اصطفاء المفردة ﴿سَحَّارٍ﴾، والاستعاضة عن جمعهِ بلفظ العموم (كل) هناك في قولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾؛ ذلك أنَّ المقام هناك اقتضى منهم تأكيد الاستعدادِ بطبقة السَّحرة المجيدين المتمرِّسين، الذين يوصَف الواحدُ منهم بصيغة المبالغة (فعّال).

نوعُ (اللام) ومعناها:

اللامُ في قوله تعالى: ﴿لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ لامُ الظَّرف، "بمعنى (عند)، كاللام في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]"[(1)].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لِمِيقَٰتِ﴾:

يوحي لفظُ الميقات بخصوصيَّة في الحدث الواقع فيه

"الميقات: الوقت، وأصلُه اسمُ آلةِ التوقيت، سُمّي به الوقتُ المعيَّن؛ تشبيهًا لهُ بالآلة"[(2)]، وهو هنا "وقتُ الضحى مِن يوم الزينة، وهو يومُ عيدٍ لهم، كانوا يَتزيَّنون، ويجتمعون فيه كلَّ سنة"[(3)]، وقد جاء صريحًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 272.

في قوله: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه: 59]، ومن الميقات "مواقيتُ الإحرام"[1] المعلومة في جهات الحرم المختلفة، وتلك مواقيت مكانيَّةٌ، وما في الآية هنا من المواقيت الزمانيَّة، والأصل منهما المواقيت الزمانيَّةُ؛ لأنَّها مأخوذةٌ من الوقت.

والتَّعبيرُ بمفردة الميقات دون الميعاد؛ يُضفي على هذا الموعد المضروب خصوصيَّةً، ويَمنحه أهميَّةً تجعل منه حَدَثًا كبيرًا - وقد كان كذلك فعلًا - فحَشْدُ اللعينِ الحشودَ من الخاصة والدَّهماء مِن شأنه توجيهُ دفَّة الأمور لصالحه - فيما يترقَّب - فكلٌّ مِن الخَصمين يُعوِّل على قناعات هؤلاء، ويَخطب وُدَّ رِضاهم.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

يوم الزينةِ ابتداءً هو اليوم المعلوم انتهاءً

من توفيق اللّه لموسى عليه السلام ومن تمام فطنته وذَكائه أنِ اختار الميقات يومًا لا ليلة، ثم حدَّده بـ ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: 59]؛ وذلك لأنَّ الحشدَ يكون فيه أوفرَ، ومشاهدةُ الحدث وانتشار أخباره يكون أوسعَ، فـ "يظهر الحقُّ، ويَزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويَشيع ذلك في الأقطار"[2]، ووافق عليه فرعون؛ ليَظهر كذِبُ موسى عليه السلام بِمحضَرِ الجمع العظيم.

وقد عبَّر النظمُ الكريم هنا بـ ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ لأنَّه حكايةُ خبرٍ مِن قيل اللّه تعالى، وفي الموضع الآخر عبَّر بـ ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: 59]؛ لأنَّه الموعدُ الذي ضَرَبَه موسى عليه السلام ميقاتًا بينَه وبينهم.

معنى العطفِ بحرف (الواو):

الواو في جملة: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ عاطفةٌ، أي: حُشِدَ النّاسُ، واجتمعوا، واطمأنَّ فرعون، واستثار حماسَهم بقوله: هل أنتم مجتمعون؟

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 311.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 272.

دلالةُ بناءِ فعل القول للمفعول:

في بناء الفعل ﴿وَقِيلَ﴾ في جملة: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ للمفعول إشارةٌ إلى تواصي الجميع للجميع بالترقُّب؛ حتى يروا لحظةَ انكسارِ موسى - فيما يترقَّبون - وكذلك في حَذْفِ فاعل ﴿وَقِيلَ﴾ إشارةٌ إلى عدم تعلُّق الغرض بالقائل، والتَّنبيهُ على تعلُّق الغرض بالقول؛ إذ مِن تمام التجهيزات الاطمئنانُ إلى يَقظةِ النُّفوس؛ ليكون فضحُ موسى عليه السلام فيما يتوقَّع فرعون وملؤه - مدوّيًا، وقائل ذلك هم "دعاةُ فرعون، ينطلقون بين الناس، يغرونهم بالاحتشاد لِهذا اليوم، وبِشُهود تلك المعركة بين السَّحَرَة وبين الساحر، وهذا الحشد للناس غايتُه شَدُّ ظهر هؤلاء السَّحرة، وإلقاء الرُّعب في قلبِ موسى عليه السلام بهذه الحشود التي تتربَّص به، وتنتظر الهزيمة له، لِتسخرَ منه، أو تفتكَ به"[1].

لـحـشـد المناصِرين أثَرٌ فاعلٌ في إلهاب السَّحرة

نوعُ اللامِ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ ومعناها:

(اللام) في الجار والمجرور ﴿لِلنَّاسِ﴾ لامُ الاختصاص، فقد اختصَّ فرعونُ، أو مَن قالوا هذا القول: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ أهلَ مصر المجتمعين، يستثير حماسَهم، ويُحفِّز تركيزهم لِمتابعة أحداث ذلك اليوم المشهود.

عوامُّ الناس يُثَقِّلون ميزان أحدِ المتخاصمَيْن

فكَسْبُ تأييدِ الناس إذ ذاك غايةُ فرعون؛ فإنَّه بِهم، ولن يكون بدونهم، وهكذا عوامُّ الناسِ في كلِّ زمانٍ ومكان يُثَقِّلون موازين أحد المتخاصمَيْن على ضَعْفِهم.

دلالةُ التَّعريفِ في لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

المقصودُ بلفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أهلُ مصر، وتعريفُهم "للاستغراق العُرفي، وهم ناسُ بلدة فرعون"[2]، وهو يوحي بكثرتهم الكاثرة،

استعمالُ النّاس كنايةٌ عن كثرة العدد وقوة الحشد

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 85.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 125.

وتوافُدِهم الهادر إلى أرض التحدّي في ذلك اليوم المشهود، وتعريف ﴿لِلنَّاسِ﴾ يفيد أيضًا عموم جنسهم من كافَّة الطبقات والأصناف؛ كناية عن قوَّة الحشد، وعموم الدعوة، وكثرة العَدَد.

غرضُ الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾:

الخصمُ الغاضب يُتابع بقلقٍ يظهر في ثنايا النظم

الاستفهامُ في جملة ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ خرج عن أصل معناه - مِن طَلَب الجواب بِـ (نعم) أو (لا) - إلى غرضِ الإثارة، والإيقاظ، والحَفْز، والتحريض على التربُّص بموسى عليه السلام وكَسْره بإظهار ضعف ما يعتقدونه مِن السِّحر في معجزته.

وهو استفهام معناه الأمرُ أيضًا، أي: "اجتمِعوا"[1] على نُصْرة قضيتكم، وتأهَّبوا للإيقاع بموسى وأخيه حين ينهزمون، ويُفتضَح أمرهم، كما أنَّ فيه "استبطاءً لهم في الاجتماع، فالمراد منه: استعجالُهم واستحثاثُهم"[2]، و"المراد أنَّهم بُعِثوا على الحضور؛ ليُشاهدوا ما يكون من الجانبين"[3]، وهو ما يُترجم قلق فرعون وحالته النفسيَّة.

بلاغة التعبير بالجملة الاسميَّة:

التناسُبُ بين المعاني دليلُ التعاضد اللفظي

بُنِيَ المنادَى به على الناس ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ جملةً اسميَّة، لا فعلية، مثل: هل اجتمعتم؟ وقُدِّم فيها الاسم ﴿أَنتُم﴾؛ لِما في الاسمية مِن دلالة الثبوت والرسوخ في الاجتماع، والتَّماسُك والتعاضد ضدَّ موسى عليه السلام.

دلالةُ تقديم المسند إليه ﴿أَنتُم﴾:

عند العَوَز يلجأُ المستبدون للضعفاء

بُنِيَتْ جملة ﴿أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ على تقديم ضمير المخاطَبين ﴿أَنتُم﴾ - وهم (الناس) - تنويهًا بِدَوْرِهم، وانعقادِ الأمل على نُصرتهم قضيةَ فرعون المأزومِ في هذا اليوم المشهود، وإشعارًا لَهُم

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 562.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 311.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502.

بأنَّ لهم يومئذٍ عنده مكانة، ففرعون يَخطب وُدَّهم، ويرجو ثَباتهم على متابعته، ويرسل لهم رسائل تُذْكي فيهم ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

يستمرُّ مُلكُ الطواغيت بقدر نجاحهم في خداع أتْباعهم وتضليلهم

في صياغة الخبر - ﴿مُجْتَمِعُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل - دعوةٌ إلى الاجتماع المعنوي، إضافة إلى الاجتماع الحسّيِّ، فالمطلوب - وإن كانت أجسامهم مجتمعة في هذا المكان والزمان - أن تجتمع أرواحهم وأفكارهم على نُصرة طاغوتهم، وألّا ينفرطَ عقدُ رابطتهم، وكثيرًا ما حاول فرعون إيهامهم بِحرصه على ما فيه مصلحتهم ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29]، وبهذا يستمرُّ ملكُ الطواغيت مدَّةً أطول.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السِّحر والكهانة:

السِّحر تأثيرٌ مُؤْذٍ في أمر خارجٍ، والكهانة إخبارٌ بقوَّة نفسانيَّة عن أمور كائنة

"الكاهن يتميَّز عن المنجِّم بكون ما يخبرُ به من الأمور الكائنةِ إنَّما هو عن قوَّة نفسانيَّة له، والظاهر أنَّ ذلك أدْعى إلى فساد أذهانِ الخلق وإغوائهم إلى زيادة اعتقادهم فيه على المنجِّم، وأما الساحر فيتميَّز عن الكاهن بأن له قوَّةً على التأثير في أمر خارج عن بدنه آثارًا خارجةً عن الشريعة مؤذية للخلق، كالتفريق بين الزوجين ونحوه، وتلك زيادةُ شرٍّ آخرَ على الكاهن أدعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتقادهم"[1].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 273.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طال في الضَّلال مكثهم؛ فانطمست بصيرتهم، وضلَّ سعيهم

لمّا رَسخ الضَّلال في أذهانهم، وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم، وامتلأت بحبِّ الموروث الفاسد قلوبُهم؛ أصرّوا على كفرهم؛ فدعَوا أمهر سحرتهم، وطلبوا إلى الكليم موسى ﷺ مناظرتهم، وحثّوا على شهودها أشياعهم، وترجَّوا أن يَغلِبَ السَّحرة موسى ﷺ؛ ليبقوا بعدها على منهجهم، وذا لسوء طويَّتهم، وانطماس البصيرة لديهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّحَرَةَ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على خِدَع وشِبْهه[2]، والسِّحْر: الخديعة، يقال: سَحَره يَسْحَره سِحْرًا؛ أي: خدعه، وسحَّره، ورجلٌ ساحِر من قوم سَحَرَة وسُحّار، وسَحّار من قوم سَحّارين[3]، والسَّحَر: القطعة من اللّيل، يقال: لقيته سُحْرة وسُحَرة، وسَحَرًا وسَحَرَ، ولقيته بالسَّحر الأعلى[4]، وأسحَرْنا: سِرنا وقتَ السَّحَر، وكذلك: صِرنا في السَّحَر[5].

والسِّحْر: عمل يُقرَب فيه إلى الشَّيطان وبمعونة منه، كلُّ ذلك الأمر كينونَتُه السِّحْر.

ومن السِّحْر الأُخْذَةُ التي تأخذ العينَ حتى تظنَّ أنَّ الأمر كما ترى، وليس هو كما ترى، والجمع: أَسْحار وسُحور[6]، والسِّحْر أيضًا:

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 312، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 137، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/ 562، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 154، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 31، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 242.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).

(5) الجوهري، الصحاح: (سحر).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

صرف الشَّيء عن حقيقته إلى غيره[1]، والعرب تُسمِّي السِّحْرَ سِحرًا؛ لأنَّه يُزيل الصِّحَّة إلى المرض؛ لِما فيه من صرف الشَّيء عن جهته، ويقال: سحره؛ أي: أزاله عن البغض إلى الحبِّ[2]، وكلُّ ما لَطُفَ مأخذه ودقَّ فهو سِحْر[3]، والمُسَحَّر - كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾ [الشعراء: 185] - أي: سُحِر مرة بعد مرة، والسّاحر لمّا أظهر الباطل في صورة الحقِّ، وخَيَّل الشَّيء على غير حقيقته سُمِّي ساحرًا؛ لأنَّه فيه صَرْفَ الشَّيء عن وجهه[4].

2) ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوَّة وقَهْر وشِدَّة[5]، الغَلَبَة: القَهْر، يقال: غَلَبَ يَغْلِب غَلَبًا وغَلَبَة: قَهَر، وهو غالب؛ أي: قاهر[6]، وقد غالَبَه مُغالَبَة وغِلابًا، والغِلاب: المغالبة[7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾؛ أي: غالبين لموسى[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

حُـجَّـة الـلـه هـي الـغـالـبة، وحجَّة الكافرين داحضة

يحكي المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة ما قاله أشرافُ قوم فرعون على سبيل الترجِّي والطَّمع في نصرة السَّحرة على موسى وقومه؛ لعِلَّة هي الثَّبات على دينهم والانتصار لعقيدتهم، فيقول: لتنظروا أيُّها النّاس إلى ما يفعل الفريقان، ولمن ستكون النُّصرة والغلبة، لموسى أم للسَّحرة؟ فلعلَّنا نتَّبع هؤلاء السَّحرة إن كانوا هم المنتصرين على موسى وقومه[9].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(3) الجوهري، الصحاح: (سحر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غلب).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 137، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 562.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 567، والهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 197.

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ المبطِل لا ينفع معه سوى قيام الحجة عليه؛ فلو وُفِّق أشرافُ قوم فرعون للحقِّ، لقالوا: لعلنا نتبع المُحقَّ منهم، ولنعرف الصواب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

حُشر النّاس لشهود المناظَرَة، وحُثّوا على اتّباع السَّحَرة

فُصِل قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾ [الشعراء: 39]، فكأنَّ سائلًا سأل: لماذا طُلِب إلى النّاس اجتماعهم؟ فقيل: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾[2]، فهذا تعليلٌ للأمر المفهوم من الجملة الاستفهاميَّة في الآية السّابقة[3].

معنى (لعلَّ) ودلالتها في الآية:

رامَ فرعونُ صرْفَ النّاس عن الدِّين، فطمَّعهم في اتّباع السَّحّارين

الأصل في (لعلَّ) أنَّه حرف مشبَّه بالفعل، يستخدَم لتوقُّع مرجوٍّ أو مَخوفٍ، وتوقُّع المرجوِّ المحبوب يُسمَّى ترجِّيًا وإطماعًا، وتوقُّع المخوف المكروه يُسمَّى إشفاقًا[4].

وهو هنا بمعنى: (كَيْ)[5]، والمعنى: (كيْ نتَّبع السَّحَرة إن كانوا هم الغالبينَ موسَى)؛ ذلك أنَّ قوم فرعون كانوا على دين فرعون، فغيرُ معقول أن يقول مَن كان على دين: أنظرُ إلى حُجَّة مَن هو على خِلافي لعلِّي أتَّبعُ ديني، وإنَّما يُقال: أنظرُ إليها كي أزداد بصيرةً بديني، فأقيم عليه، وكذلك قال قوم فرعون، فإيّاها عَنَوْا بقيلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾[6].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 70.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 565.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 400، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 304.
(5) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 112.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 347.

فالمراد باتِّباع السَّحَرة في دينهم: هو البقاء والثَّبات على ما كانوا عليه؛ لأنَّه دين السَّحَرة إذ ذاك، والمقصود: المخالفة لِما دعاهم إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

أو يكون (لعلَّ) على بابه في إفادة معنى الرَّجاء، وهو يدلُّ على أنَّهم كانوا غير متأكدين من علمهم[2]، فالمراد من قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ إنّا نرجو أن تكون الغَلَبة لهم فنتَّبعهم[3].

فالتَّرجِّي باعتبار الغلبة المقتضية للاتِّباع لا باعتبار الاتِّباع نفسه[4]، والمقصود به حضُّ السَّحَرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلَّبوا على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكأنَّهم يقولون لهم: ابذُلوا قُصارى جهدكم في حسن إعداد سِحْركم؛ فنحن نرجو أن تكون الغَلَبة لكم، فنكون معكم لا مع موسى[5].

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿نَتَّبِعُ﴾:

يدلُّ المضارع على الحال، وبالقرينة يُصرَف للاستقبال

يؤتَى بالمضارع للتَّعبير عن الحال أو الاستقبال بدلالة القرينة، ولمّا كان قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ مقولًا قبل بدء المناظرة بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والسَّحَرَة، فقد ناسَب أن يُعبَّر بالمضارع للدَّلالة على الاستقبال؛ أي: إن غلبوا فسوف نتَّبِعُهم.

كما يدلُّ المضارع على التَّجدُّد والاستمرار، فقوله: ﴿نَتَّبِعُ﴾ يوحي بأنَّ هذا الاتِّباع سيكون دائمًا، وإنَّما قال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ لأنَّ السَّحَرة لم يكونوا متبوعين، وإنَّما كانوا سحرةً حُشِروا إليهم من مدائن صعيد مصر، فقالوا: إن غلبوا موسى اتَّبعناهم[6].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 77، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5352.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502، وابن عادل، اللباب: 15/ 24.
(4) البروسوي، روح البيان: 6/ 273.
(5) طنطاوي، الوسيط: 10/ 245.
(6) الواحدي، البسيط: 17/ 48.

خَشر فرعونُ كلَّ سحَرَته؛ ليستعين بهم في تأييد باطله

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّحَرَةَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّحَرَةَ﴾ للاستغراق العُرفيِّ؛ أي: سَحَرة مملكته، لا كلّ سَحَرة العالَم، والمراد بهم: سَحَرة فرعون الذين حُشِروا له من مدائن مصر[1].

وقيل: إنَّما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسَّحَرَة موسى وهارون عليهما السلام وقومهما[2]، فتكون للعَهد الحضوريِّ.

لا يرى المغرور إلّا نفسه الدَّنيَّة، فيحسبها فاضلة عليَّة

سرُّ الاقتصار على ذكر جانب السَّحرة:

في قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ إهمالٌ لجانب الطَّرف الآخر من طرفي المناظرة، وهو موسى عليه السلام.

وزيَّن لهم هذا القائل البقاء على ما كانوا عليه مِن الباطل بذِكر جانب السَّحَرة وإنْ كان شرط فيه الغَلَبة، ولم يسمح بذِكر جانب موسى عليه السلام فقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ لأنَّ مَن امتثل أمر المَلِك كان حالُه حالَ مَن يُرجى منه اتِّباع حزبه[3].

كان السَّحَرة جمعًا كثيرا، وجمًّا غفيرًا

نكتةُ إيثار صيغة الجمع ﴿ٱلسَّحَرَةَ﴾:

الجمع قسمان؛ جمع قلَّة: وهو ما يُطلق للعشَرة فما دونها، وجمع كثرة: وهو ما يطلق لأحدَ عشرَ فصاعدًا إلى ما لا نهاية له، وجمع القلَّة منحصر في نوعين: **أحدهما:** جموع التَّصحيح وهو: ما سلم فيها بناء الواحد، سواء كانت لمذكَّر، نحو: (مسلمين) أو مؤنَّث نحو: (مسلمات)، وعلَّل النُّحاة ذلك في جمع التَّصحيح بأنَّه على حدِّ المثنَّى، فوجب قلَّته وحصره، وهذا ما لم يكن معرَّفًا بـ(أل) التي تفيد الاستغراق.

والآخر: ما كان على وزن (أَفْعُل)، و(أَفْعال)، و(أَفعِلَة)، و(فِعْلَة)[4].

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 339.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 112.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31.

(4) الفيومي، المصباح المنير: 2/ 695، والبرماوي، الفوائد السنية في شرح الألفية في أصول الفقه: 1/ 1476.

وممّا سبق يتبيَّن أنَّ إيثار لفظ ﴿ٱلسَّحَرَةَ﴾ دون (السّاحرين) كان للدَّلالة على كثرة أعدادهم، فقد كان السَّحَرة جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا، قيل: كانوا اثنَيْ عشرَ ألفًا، وقيل: خمسةَ عشرَ ألفًا، وقيل: سبعةَ عشرَ ألفًا، وقيل: تسعةَ عشرَ ألفًا، وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا، وقيل: ثمانين ألفًا، وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدَّتهم[1].

ولو عُبِّر بـ(السّاحرين) لما أفاد هذا التَّكثير، ذلك أنَّ التَّعريف فيه ليس لأجل الاستغراق، بل هو للعهد الحضوريِّ.

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف في قوله: ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾:

النّاس على دين ملوكهم، وأتباعٌ لهوى حُكّامهم

قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ أي: في دينهم إنْ غلبوا موسى، ولا نتَّبع موسى في دينه[2].

فالمضاف المحذوف هاهنا تقديره: (دينَ السَّحَرةِ)، وليس معناه نتَّبعهم في السِّحر، إنَّما أراد نتَّبعهم في نُصرَة دينِنا وملَّتنا والإبطال على معارضتنا[3].

ولم يقولوا: نتَّبع الحقَّ سواء كان مِن السَّحَرة أم مِن موسى، بل الرَّعيَّة على دين مَلِكهم[4].

براعة الكناية في قوله: ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾:

أراد فرعون صرْفَ النّاس عن موسى وهارون

المراد من قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ صرفُ النّاس عن اتِّباع موسى ؛ ولذلك أهملوا ذِكرَه، وذكروا جانب السَّحَرة فقط، فليس غرضهم اتِّباع السَّحَرة، وإنَّما الغرض الكُلِّيُّ: أن لا يتَّبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساقَ الكناية؛ لأنَّهم إذا اتَّبعوا السَّحَرة لم يكونوا متَّبعين لموسى [5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 140.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 311.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 230.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 140.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 312، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154، والطيبي، فتوح الغيب: 11/ 355، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.

وإنَّما قالوا ذلك حملًا للسَّحَرة على الاهتمام والجِدِّ في المغالَبَة[1]، وترجيةً للنّاس المجتمعين لأجْل شهود المناظرة لتأييد السَّحَرةِ وفِرعون في إنكار رسالة موسى ﷺ فلا يتَّبعونه، وليس المقصود أن يصير السَّحَرة أئمَّة لهم؛ لأنَّ فرعون هو المتَّبَع[2].

أو يقال: إنَّ فرعون لدهشته وغلَبَة ذُلِّ العَجْز عليه جوَّز اتِّباعَهم، كما طلبَ الأمر ممَّن حوله في قوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾ [الشعراء: 35][3].

حثُّ فرعونَ السَّحَرَة على الغَلَب، ليحصل له خبيثَ ما طَلَب

نكتة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ يفيد بناء الجواب على الشَّرط بناءَ المسبَّب على السَّبب والنَّتيجة على المقدِّمة، وهاهنا جعل اتِّباع السَّحَرة مشروطًا بغلبتهم نبيَّ اللّه موسى ﷺ.

وبمفهوم المخالفة نفي اتِّباعهم حالة خسارتهم وهزيمتهم، وفي هذا حثٌّ لهم على الجدِّ وإخراج كلِّ مهارة تعلَّموها في السِّحر، حتَّى يغلبوا موسى ﷺ؛ ليفوزوا بالحُظْوَة واتِّباع النّاس إيّاهم.

علَّة إيثار التَّعبير بـ﴿إِن﴾ دون (إذا):

حاول القوم إظهار الإنصاف، وإخفاء ما لبسوا من الاعتساف

جيء في شَرط ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ بحرف ﴿إِن﴾؛ لأنَّها أصل أدوات الشَّرط، ولم يكن لهم شكٌّ في أنَّ السَّحرة غالبون، وهذا شأن المغرورين بهواهم، العُمْيِ عن النَّظر في تقلُّبات الأحوال أنَّهم لا يفرضون من الاحتمالات إلّا ما يوافق هواهم، ولا يأخذون العُدَّة لاحتمال نقيضه[4]، ومع ذلك حاولوا إظهار الإنصاف استجلابًا للنّاس وإلهابًا للسَّحرة، مع تقديرهم لقطعهم بظَفَر السَّحَرَة؛ لِما رسخ في أذهانهم في الأزمنة المتطاولة من الضَّلال الذي لا غفلة لإبليس عن تزيينه، مع أنَّ تغيير المألوف أمرٌ في غاية العسر[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 126.
(3) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي: 7/ 11.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 126.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.

ويجوز أن يكون استخدام ﴿إِن﴾ على بابها في الدَّلالة على الشَّكِّ، لتصوير أنَّ القوم كانوا غير متأكِّدين من علمهم[1]؛ لأنَّ ما رآه فرعون ومَلَؤه من موسى عليه السلام يختلف اختلافًا تامًّا عن ما يعرفونه مِن أمرِ السَّحَرة، وما استغاث فرعون بالسَّحَرة إلّا حفظًا لما بقي من ركام هيبته التي هدمها الحقُّ الذي نطق به موسى عليه السلام ساعة ناظرَهُ، وقصَّه اللّه تعالى في أوَّل السّورة، وقد حاول فرعون جهدَه أن يُلبِس هذا الشَّكَّ ثوب التَّحقُّق بذِكر الفعل الماضي بعده والجملة الاسميَّة.

دلالة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا بعد المضارع ﴿نَتَّبِعُ﴾:

كـان القـوم مِن غَلَبة السَّحَرة على ثقة، فعبَّروا بكلمات واثقة

يفيد التَّعبير بالماضي الدَّلالة على التَّحقُّق والتَّوكيد، وإذا كان هذا الفعل هو فعل الكون، كما في قوله تعالى هنا: ﴿كَانُواْ﴾ فإنَّ دلالته على التَّحقُّق تكون آكَدَ من غيره؛ ذلك أنَّه مختصٌّ بالجملة الاسميَّة فهو مِن نواسخها، والجملة الاسميَّة تدلُّ على الثُّبوت.

وهذا القدر من التَّوكيدات المستفادة من التَّعبير بالمُضيِّ والجملة الاسميَّة يدلُّ على أنَّ القوم كانوا على ثقة مِن غلبة السَّحَرة؛ إمّا لسبق معرفتهم بهم، وإمّا لكثرة عددهم.

وقد يكونون على وجل مِن هزيمة هذا الجمع أمام موسى وأخيه هارون عليهما السلام، فعملوا على تثبيت أنفسهم، وإلهاب السَّحَرَة للظَّفَر، واستحثاث النّاس على التَّشجيع، فقالوا مقالة مَن يوقن بمحالفة الفوز له: ﴿كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

نكتة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾:

التَّعبير بضمير الفصل في قوله: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أفاد التَّخصيص والتَّوكيد؛ أي: إن كانوا هم خاصَّة الغالبين، فكأنَّ الغَلَبَة مقصورة عليهم، فلن ينالها غيرُهم[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5352.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31.

حصر القوم الغَلَب في السَّحَرة وتخييلهم، فنضح ذلك من قيلهم

معنى (أل) في ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أفادت استغراق صفات الجنس مجازًا على سبيل المبالغة؛ كما يقال لمن يراد الثناء عليه باستجماعه صفات الرُّجولة الكاملة: (أنتَ الرَّجُل).

فقوله: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ أي: هم الغالبون غَلَبَةً لا يُشَكُّ في أنَّها ناشئة عن مُكنَةٍ[1].

في التَّعبير بالاسميَّة ثبوت وتحقيق، وهو بتأكيد المعنى حقيق

غرضُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة دون الفعليَّة:

الجملة الاسميَّة تدل على التَّحقُّق والثُّبوت والتَّأكيد[2]، وقد أوثر التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ دون الفعليَّة (إنْ غَلَبوا)؛ مبالغة في التَّحقُّق من غَلَبة السَّحَرة عتوًّا وغرورًا، وإلهابًا لحميَّة السَّحَرة لاستخراج كلِّ مهاراتهم في مغالبة موسى عليه السلام، وحثًّا للنّاس على اتِّخاذ صفِّ الأقوى في التَّأييد.

وكلُّ هذا مرادٌ منه إضعاف موسى عليه السلام، وزعزعة ثقته، وأنَّى لهم ذلك وهو المؤيَّد من السَّماء، المنصور على كلِّ الأعداء!.

في الغَلَب قهر واستيلاء، وقوَّة واستعلاء

دلالة التَّعبير بالغَلَب مادَّة وصيغة:

تدور مادَّة الغلب حول القوَّة والقَهْر والشِّدَّة، يقال: غَلَبَه إذا قهَرَه، وأصلُه أن يُصيبَ القاهِر غَلَبَ رقبةِ المَقهور، والأَغْلَبُ: الغَليظُ الرَّقبة[3].

ومن هنا يُفهَم أنَّ في الغَلَبة نوعَ استيلاء واستعلاء، فالغَلَبة: الاستعلاء بالقوَّة[4]، وهذا هو المراد هاهنا، أن يكون السَّحَرة هم أصحاب السَّطوة والعلوِّ؛ ليكون ذلك مصحِّحًا للنّاس أن يتَّبعوهم كما نُصَّ عليه في صَدرِ الآية.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31.
(2) القزويني، الإيضاح: 2/ 133، وأحمد مطلوب، أساليب بلاغية: 1/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 380.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الغَلَبة والهَزْم:

الغَـلَـبـة قَـهـرٌ، والهَزْمُ كَسرٌ

الغين واللام والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوَّةٍ وقَهرٍ وشِدَّة[1]، والغَلَبة: القهر[2]، وممّا يدور حوله المعنى المحوريّ للجذر: الشِّدَّة مع العلوّ؛ والغَلَبة من ذلك، فيقال: غلبَه؛ أي: قهرَه، أي: قاواه فقويَ عليه وعَلاه بقوَّته[3].

والهاء والزّاء والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على غَمزٍ وكَسرٍ[4]، وأصل الهَزْم: غَمزُ الشيء اليابس حتى ينحطم، كَهَزْم القِثّاء والبِطّيخ[5]، ومنه الهزيمة[6]؛ لأنَّه كما يُعبَّر عنه بذلك يُعبَّر عنه بالحَطْم والكَسْر[7]، قال اللّه ﷻ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251]؛ أي: فكسروهم[8].

والمعنى المحوريّ للجذر: تراجعٌ عن النتوء المعتاد غُؤورًا إلى داخل الشيء، والهَزْم يدور حول ذلك؛ فيقال: هزَمنا جيشَ العدوِّ؛ أي: كسرناه، وفي هذا يكون العدوُّ قد رجع إلى الخلف فصار في صفوفه تجوّفٌ وكُسور، والرجوعُ إلى الخلف من الغُؤور في الجوف[9].

الاتِّباع والاقتفاء:

اتِّـبـاع الـشَّيء أشدُّ وأقوى من اقتفائه

المعنى المحوريُّ لجذر الاقتفاء: اللَّحاق بخلف الشيء من أعلاه؛ فالاقتفاء اتّباعٌ من الخلف[10]، وأصله من القفا لأنَّ المتَّبِعَ للشخص غالبًا يصير خلفه وتابعًا لقفاه[11]، ويدلُّ ما سبق على أنَّ الاتباعَ أعمُّ من الاقتفاء.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هزم).
(5) الراغب، المفردات: (هزم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هزم).
(7) الراغب، المفردات: (هزم).
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 4/ 340، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/ 256.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هزم).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قفو).
(11) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قفو).

وأمّا المعنى المحوريّ لجذر الاتباع فهو: لُحوقُ الشيء بمتقدِّم أو سابق بلا فصل، ومن ذلك التَّبيع: وهو ولد البقرة في أوَّل سنة، وذلك لأنَّه يتَّبع أمَّه بعدوٍ ولا يفارقها[1].

ويقال: تابَعَ فلانٌ بين الصلاة وبين القراءة إذا والى بينهما، ففعل هذا على أثر هذا بلا مهلة بينهما[2].

ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ اتّباعَ الشيء أشدُّ وأقوى من اقتفائه؛ لِما في الاتّباعِ من الالتصاق وعدم الانفصال والمفارقة، ولأنَّه أدلُّ على شدَّةِ تعلُّقِ المتَّبِع بالمتبَّع.

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (تبع).

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ [الشعراء: 41 - 42]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من كانت غايته خسيسة؛ عَميَت عينه عن كلِّ غاية نفسية

لمّا أرسل فرعونُ في طلب السَّحرة المهرة من كلِّ مكان؛ حُشروا إليه سراعًا معلنين له الخضوع والإذعان؛ إشارةً إلى ضخامة ما أوتي من الملك والسلطان، ولمّا كان سعيهم لغير الحقِّ، وكان استمساكهم بما اختلق من شرار الخلق؛ جاء من كان لهم معقد الرجاء، ساعيًا للجاه وطالبًا للجزاء؛ وفي هذا دليل على أنَّهم لم يكونوا أصحاب قضيَّة، بل أصحاب أغراض دنيَّة، ولمّا كان احتياج فرعون إلى السحرة شديدًا، كان البذل منه سخيًّا وأكيدًا؛ ومن لا يكون له ناصر إلا بضمان الجِعالة وبذل الرِّشوة فعمّا قريب يُخذل ويُهزم، وكل ما سعى لبنائه يُحطم ويُهدم[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأَجۡرًا﴾: (أجر) أصلٌ يدلُّ على الكِراء على العمل، ومنه الأجر والأجرة[2]، الأَجْر والأُجْرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [العنكبوت: 27]، وقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [يوسف: 57]، وجمع الأجر: أُجور[3].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 11، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502، والبقاعي، نظم الدّرر: 14/ 31، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 60، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أجر).

والأُجْرة في الثَّواب الدُّنيويّ، مثل الكِراء[1]، ولا يقال الأجر إلا فيما كان نفعًا، فلا يقال في الضُّرِّ، بخلاف الجزاء، فإنَّه يقال في النَّافع والضَّار[2].

ويقال: أَجَر زيدٌ عمرًا يأجُرُه أجرًا؛ أي: أعطاه الشَّيء بأجرة، وآجَر زيدٌ عمرًا: أعطاه الأجرة، وأثابه[3]، وأَجَر المملوكَ يأجُرُه أجرًا، فهو مأجور، وآجَرَه يُؤجِره إيجارًا ومؤاجرة، وآجرت عبدي أوجِره إيجارًا، فهو مُؤجَر[4]، والاستئجار: طلب الشَّيء بالأجرة، نحو: استأجَرْتُ الرَّجل فهو يأْجُرني ثمانيَ حِجَجٍ؛ أي: صار أجيري[5]، ومنه قول الله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القصص: 27]، ومعناه: أن تُثيبَني على الإجارة[6]، ويُعبَّر به أيضًا عن تناوله بأجرة؛ نحو: الاستيجاب في معنى الإيجاب[7].

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: أصل (قرب) يدلُّ على خلاف البُعْد[8]، والقُرْب ضدُّ البعد، يقال: قَرُب الشَّيء يقرُب قُربًا؛ أي: دنا، فهو قريب، الواحد والاثنان والجمع سواء في ذلك[9]، وقَرِبْتُه أقرَبُه قُرْبانًا؛ أي: دنوت منه، وقرَبت أقرُب قِرابة، مثل: كَتَبْتُ أكتُب كِتابة، إذا سِرتَ إلى الماء وبينك وبينه ليلة، والاسم القَرَب[10].

ويُستَعْمَل الدُّنوُّ أيضًا في معنى الحُظْوَة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114][11]، ويقال الحُظْوَة القُرْبَة كما في قوله تعالى: ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ [التوبة: 99][12].

والتَّقارُب ضِدُّ التَّباعُد، وشيء مُقارِب: وسَط بين الجَيِّد والرَّديء، وكذلك إذا كان

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أجر).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (أجر).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرب).
(12) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرب).

رخيصًا[1]، ويقال للشَّيء إذا ولَّى وأدبر: تَقارَب[2]، والتَّقرُّب: التَّدنِّي إلى الشَّيء والتَّوصُّل إلى الإنسان بقُربة أو بحقٍّ أو بما يقتضي حُظْوَةً[3].

والقُرْبان: ما تَقرَّبتَ به إلى الله ﷻ تبتغي بذلك قُربةً ووسيلة، يقال: قرَّبتُ لله قُرباناً، وصار في العرف اسمًا للنَّسيكة التي هي الذَّبيحة، وجمعه: قرابين[4]، والقربان أيضًا: واحد قرابين المَلِك، وهم وزراؤه وجلساؤه وخاصَّته الذين يتَقرَّبون إليه[5].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

إغـراء فرعـون للسحرة بالمال، كان إلى زوال

يعرض السِّياق القرآنيُّ في هاتين الآيتين ما دار بين السَّحرة وفرعون حين جاؤوا للموعد والاجتماع المحدَّد بينه وبين موسى ﵇؛ إذ يقول: فلمّا جاء هؤلاء السَّحرة مجلس فرعون قالوا مؤمِّلين طالبين: أَئِنَّ لنا لثوابًا وجزاءً عظيمًا مِنْ مال ونحوه إن كنّا نحن المتغلِّبين على موسى وقومه؟ قال: نعم لكم الأجر العظيم والفضل الجزيل، وإنَّكم حينئذٍ مع حصولكم على كل الأجر لَمِنَ المقرَّبين لدينا؛ لأنكم نصرتموني على عدوي الذي أخشاه على مُلْكي[6].

وترشد الآيتان إلى إعطاء المكافأة للفائزين في المباراة وغيرها، ومن ذلك السِّباق في الإسلام[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾:

لـم يـتـوانَ الـسَّـحـرة في الاسـتـجـابـة لـلـحـاشـرين، فجاؤوا مسرعين

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ بالفاء الدّالّة على التَّرتيب

---

(1) الجوهري، الصحاح: (قرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (قرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 127، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 245.
(7) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 647.

والتَّعقيب والسُّرعة؛ إيذانًا بسرعة حشر السَّحَرة، وفي هذا إشارة إلى ضخامة ملك فرعون ووفور عظمته[1]، ذلك أنَّ جنوده الحاشرين قد انتشروا في ربوع مملكته، واستوعبوها أمرًا وحشرًا، ولم يتأخَّر السَّحرة رَغَبًا ورَهَبًا.

دلالة التَّعبير بـ(لَمّا) الحينيَّة:

اشترط السَّحَرة الأجر فور مجيئهم؛ ضمانًا لحقوقهم

(لمّا) ظرفُ زمانٍ إذا وقع بعدَه الماضي، نحو: (جئتُ لمّا جئتَ)، ومعناه معنى (حين)، وهو الزَّمان المبهَم، وهو مبنيٌّ لإبهامه واحتياجه إلى جملةٍ بعدَه، كبناءِ (إذْ) و(إذا)[2]، فيقتضي جملتين وُجِدت ثانيتُهما عند وجود أولاهما، نحو: لمّا جاءني أكرمتُه، ويقال فيه: حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب[3]؛ أي أنَّه يتطلَّب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشَّرط بجوابه[4]، فالحاصل أنَّ (لمّا) ظرفٌ بمعنى (حين) متضمِّنٌ معنى الشَّرط[5].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ يعني: إلى الميقات[6]، لوعد لموسى عليه السلام وموعد فرعون[7] ﴿قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾؛ أي أنَّهم قالوا ما قالوه بمجرَّد مجيئهم؛ ضمانًا لحقِّهم باشتراطهم الأجر، وتحسُّبًا مِن إزراء فرعون بهم بإمساك العطاء عنهم.

وقد أفادت (لمّا) ربط اشتراط الأجر بلحظة المجيء، وبيان حين حدوث ذلك.

سرُّ إيثار التَّعبير بالمجيء دون الإتيان:

في المجيء معنى القصد والحصول لتحقُّق حضورهم

الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ[8]، والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 136.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 369.
(4) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 565.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 554.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 347.
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، البصائر: (أتى).

بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال اللّه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]؛ أي: قصدوا الكلام وتعمَّدوه، فاستُعمل فيه المجيء كما استُعمِل فيه القصد[1].

فممّا سبق يتبيَّن أن المجيء فيه معنى القصد، والحصول، والظُّهور، وفيه كذلك معنى الانحدار إلى حيِّز أو تجوُّف سفليٍّ مهيَّأ جامع؛ كالماء في الهبطة والحُفرة[2].

وهذا هو سرُّ إيثار المجيء دون الإتيان في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ لأنَّ مجيئهم كان عن طريق حشر جنود فرعون لهم، فلم يكن ملحوظًا فيه معنى السُّهولة، ثمَّ إنَّه كان مجيئًا مقصودًا لعلَّة مقصودة ولمكان مقصود، وكان فيه أيضًا معنى الحصول لتحقُّق حضورهم، ومعنى الظُّهور؛ نظرًا لكثرة أعدادهم، ومعنى الانحدار إلى حيِّز جامعٍ؛ لكونهم أقبلوا مِن كلِّ مدائنِ مصر منحدرين إلى عاصمة المُلك مجتمعين فيها، وهذا كلُّه لا يؤدِّيه لفظ الإتيان، فلله درُّ التَّنزيل!.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ تفيد معنى الاستغراقِ العرفيِّ، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾

لا يعني كلَّ سَحَرَة العالَم، بل سَحَرة مملكته؛ أي: الذين كانوا في جميع بلاد مصر[3].

دلالة التَّعبير بالماضي في المجيء والقول:

في التَّعبير بالمُضيِّ تحقيق للأخبار، وتصديق للنَّبيِّ المختار

في التَّعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿جَآءَ﴾، و﴿قَالُوٓاْ﴾ معنى التَّحقيق والتَّأكيد، فالآيات تحكي قصَّة وقعت قُصِد منها تسلية

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، البصائر: (جاء).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جاء).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 31.

النَّبيِّ ﷺ، وإعلام الكفّار بصدق الوحي؛ إذ يخبِر بما لم يشهده النَّبيُّ ﷺ، ولم يعلمه هو ولا قومُه من قبل هذا.

معنى اللّام ودلالتها في قوله تعالى: ﴿لِفِرۡعَوۡنَ﴾:

خصّوه بقيلهم؛ لأنَّه المقصود بمضمون شرطهم

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه حرف موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ﴾، فكأنَّهم خصّوه بقيلهم؛ لأنَّه المقصود بمضمون شرطهم، فهو المرجوُّ حصولُ ولائه، المطموع في عطائه.

كما أفاد اللّام تعدية الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ للمقول له (فِرۡعَوۡنَ)؛ تحقيقًا لمعنى التَّخصيص.

نكتة التَّعبير بالاسم العلَم: (فِرۡعَوۡنَ):

جاء التَّعريف بالعلميَّة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ﴾ لعلَّة استحضاره في الذِّهن، وتعيينًا للمَقول له ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾، وتمهيدًا لما بعده مِن تعيين القائل في قوله: ﴿قَالَ نَعَمۡ﴾.

غرض الاستفهام في: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾:

الاستفهام للتَّقرير، لضمان الحصول على الأجر الكثير

جاء الاستفهام في قول السَّحَرة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ مسوقًا لغرض التَّقرير[2]، وإنَّما ساقوا طلبهم مساقَ الاستفهام أدبًا معه[3].

وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلالٌ بخبرتهم وبالحاجة إليهم؛ إذ علموا أنَّ فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين، وخافوا أن يسخِّرهم فرعون بدون أجر، فشرطوا أجرَهم مِن قبل الشُّروع في العمل ليقيِّدوه بوعده[4]، وسألوه لتكون الإجابة منه هو إقرارًا على نفسه، توكيدًا للوعد، وضمانًا للأجر.

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 66.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 126.

وقرئ في الشاذّ: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ بغير استفهام، ومعناه: إنّك ممن يحبّنا ويبرّنا[1].

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿لَنَا﴾:

(اللّام) حرف موضوع في الأصل للدَّلالة على الاختصاص[2]، وهو في قول السَّحَرة: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ دالٌّ على الاختصاص أيضًا؛ أي: أجرًا خاصًّا لنا لا يشاركنا فيه غيرنا.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الخبر ﴿لَأَجْرًا﴾:

أراد السَّحَرة وفور الجزاء، والاستئثار بالعطاء

أفاد تقديم شبه الجملة الواقع خبرًا على المسند إليه في قول السَّحَرة ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ معنى التَّخصيص وقصر المسنَد ﴿لَنَا﴾ على المسنَد إليه ﴿لَأَجْرًا﴾، فلا يكون لغيره.

وقد أفاد هذا التَّخصيصُ معنى التَّوكيد.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿لَأَجْرًا﴾:

(اللام) في قوله: ﴿لَأَجْرًا﴾ هي لام الابتداء المزحلَقَة المفيدة للتَّوكيد[3].

نكتة تنكير ﴿لَأَجْرًا﴾:

طلب السَّحَرَة أجرًا كثيرًا، وعطاءً وفيرًا

التَّنكير في قول السَّحَرَة: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ مقصود به التكثير[4]؛ لأنَّهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به، وهو إبطال دعوة موسى ﵇، والإبقاء على دين فرعون[5].

ولمّا كان التَّنكير يُشعِر بعدم الإحاطة بالمنكَّر فقد دلَّ - بمعاونة القرائن - على أنَّه كثيرٌ بالغُ الكثرة، ومن هنا كانت إفادة التَّنكير للتَّكثير[6].

---

(1) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 123.

(2) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 185.

(4) المراغي، علوم البلاغة، ص: 127.

(5) محمد قاسم، علوم البلاغة، ص: 332.

(6) جامعة المدينة، البلاغة - المعاني: 2/ 226.

ولا يبعد أن يكون المقصود بالتَّنكيرِ التَّعظيمُ؛ أي أنَّهم طلبوا أجرًا كثيرًا، وهو مع كثرته عظيم[1].

فائدة طلب السَّحَرة أجرًا من فرعون:

لو قدَر السَّحَرة على قلب الأعيان لأحالوا التُّراب تِبْرًا

في قول السَّحَرة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ الخَلْق كانوا عالمين بأنَّ فرعون كان عبدًا ذليلًا مَهينًا عاجزًا، وإلّا لما احتاج إلى الاستعانة بالسَّحرة، ودليلٌ ثانٍ على أنَّ السَّحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، وإلّا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال مِن فرعون؛ لأنَّهم لو قدروا على قلب الأعيان لقلبوا التُّراب ذهبًا، ولنقلوا ملك فرعون لأنفسهم، ولجعلوا أنفسَهم ملوك العالم ورؤساءه، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدَّقائق، وأن لا يغترَّ بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب[2].

وفيها دليل ثالث على بُخل فرعون، وأنَّ السَّحَرة كانوا لا يثقون بإنجازه وعدَه، بدليل أنَّهم طلبوا منه أجرًا على عملهم قبل مزاولتهم إيّاه، وكانوا عدولًا في طلبهم؛ لأنَّهم حدَّدوا الأجرَ بالوصول إلى الغاية كالطَّبيب الذي يطالِب بالأجر على الشِّفاء لا على العلاج والعمل[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ عن سابقه:

وثق السَّحرة بأنَّهم سيغلبون، فطلبوا أجرًا على ما سيقدِّمون

فُصِلت جملة: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتِّصال، ذلك أنَّها استئناف بيانيٌّ[4] ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، فكأنَّ فرعون سأل: وعلامَ تطلبون أجرًا؟ فقالوا: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾؛ أي: لأنَّنا سنغلب.

نكتة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

تتركَّب الجملة الشَّرطيَّة من فعلين يقع الآخر منهما بوقوع الأوَّل؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 242، والبروسوي، روح البيان: 6/ 273.

(2) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 566.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71.

أي أنَّهما مرتبطان ارتباط المسبَّب بالسَّبب، والنَّتيجة بالمقدِّمة؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]، فالنَّصر على الأعداء مشروط بنصر دين الله سبحانه، وهو متحقِّق بتحقُّقه، ففي التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة نوع توكيد مستفاد مِن تحقُّق الجواب بتحقُّق الشَّرط.

طلبوا إليه الإحسان إنْ هُم غلبوا، فأجابهم إلى ما طلبوا

وفي قول السَّحَرة: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ اشتراط لنَيل الأجر في حال الحاجة إلى الفعل ليكون ذلك أجدر بحُسن الوعد ومجاز القصد[1]، فكأنَّهم قالوا: إنْ غلبْنا نِلنا الأجر الكثير، وإنَّ غَلَبَنا لَمتحقِّقٌ، فهل أنت منجزٌ وعدَك؟

علَّة التَّعبير بـ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عُبِّر في حكاية قول السَّحَرة: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ بأداة الشَّرط المفيدة للشَّكِّ ﴿إِن﴾، مع أنَّهم جازمون بالغلبة، ولكنَّهم ساقوا الكلام مساق الشّاكِّ في الأمر؛ تخويفًا لفرعون بأنَّه إنْ لم يحسن في وعدهم لم ينصحوا له[2]!.

أرادوا تخويفه كي يحسن في وعدهم، ويبادر في تحقيق مرادهم

فكأنَّهم لمّا أظهروا التَّشكُّكَ قال لهم فرعون: بل لا بدَّ أن تكونوا أنتم الغالبين! فأجابوه: ولكنَّ هذا يتطلَّب جهودًا مُعرِقة، ومهارة حاذقة! يلوِّحون بالزِّيادة، ويطمعون في الاستزادة! فأجابهم الملهوفُ الذَّليل، ووعدهم بالعطاء الجزيل! وقد انتهزوا حاجته، ليمتاحوا نعمته!.

نكتة التَّعبير بالكون الماضي ﴿كُنَّا﴾:

التَّعبير بالكون الماضي في قول السَّحَرة ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ يدلُّ على الكينونة الثّابتة المستمرَّة التي تكون بعد المعركة والمغالَبَة[3]؛ أي كونًا نحن راسخون فيه[4]، ففيه معنى التَّوكيد، والوثوق من الغَلَب لرسوخ قدمهم في السِّحر عياذًا بالله.

كانوا في الغَلَب واثقين، لكونهم في السِّحر راسخين

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 11.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.

نكتة التَّعبير بضمير الفصل ﴿نَحۡنُ﴾:

الضَّمير المنفصل ﴿نَحۡنُ﴾ في قول السَّحرة: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ضمير فصل للتَّخصيص والتَّوكيد، فقولهم: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ﴾؛ يعني: خاصَّة ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾[1].

بلاغة الموازنة بين ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، و﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ قبلها:

واف‍قوا قيل فرعون ليُذكِّروه، وأعادوا كلامه ليُلزِموه

لّما كان قول فرعون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ مخرِجًا الكلامَ على صورة الشَّكِّ إلهابًا لطاقتهم، وإثارةً لحَميَّتهم، جاء سؤالهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ مخرجين الشَّرط على أسلوب ما وقع في كلام فرعون ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ موافقةً له، وتذكيرًا لفرعون بما قاله، وإلّا فلا يناسب حالَهم إظهارُ الشَّكِّ في غَلَبَتهم[2].

فأعادوا على فرعون ما قاله مع إعادة توجيه الضَّمائر تمسُّكًا بحقِّهم، وإلزامًا له بوعده، وانتهازًا لهذه الفرصة.

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

شكُّ السَّحرة في وفاء فرعون فاستوثقوا، وحشدوا المؤكِّدات ليتحقَّقوا

حَفَل قول السَّحَرة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ بعدد مِن المؤكِّدات، منها:

الاستفهامُ التَّقريريُّ بالهمزة التي هي لطلب التَّصديق؛ إذ التَّقرير ضرب مِن التَّوكيد، والحرفُ النّاسخ المشبَّه بالفعل (إنَّ)، وهو مفيد للتَّوكيد لقيامه مقام تكرير الجملة، وتقديم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على المسند إليه ﴿لَأَجۡرًا﴾ المفيد للاختصاص والتَّوكيد، ولامُ التَّوكيد الدّاخلة على اسم (إنَّ) المؤخَّر ﴿لَأَجۡرًا﴾، والجملةُ الاسميَّة الدّالَّة بأصل وضعها على الثُّبوت والتَّوكيد، والتَّعبيرُ بالكون الماضي ﴿كُنَّا﴾؛ لأنَّ (كان) تدلُّ على الكينونة الثّابتة المستمرَّة التي تكون بعد المعركة والمغالَبة، وضميرُ الفصل ﴿نَحۡنُ﴾، فهو تأكيد للضَّمير

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.

في ﴿كُنَّا﴾، وذِكرُ ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بالوصف والتَّعريف؛ لاستغراق صفات الجنس مجازًا[1].

وهذا الحشد من المؤكِّدات يدلُّ على أنَّ السَّحَرَة لم يكونوا مؤمنين بفرعون الإيمان كلَّه[2]، بل كانوا يشكّون في أنَّه سيعطيهم أجرًا على صنيعهم، فنزَّلوه منزلة المنكِر، وأرادوا الاستيثاق من وعده إيّاهم بالأجر، فساقوا هذه المؤكِّدات لإفادة هذا الغرض.

وجهُ فصل قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ عن سابقه:

أجـاب فرعـونُ سَحَرَتَه إلى ما يوطّد به سُلطته

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ عن سابقه؛ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصال، فجملة: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قول السَّحَرَة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾[3]، فكأنَّ سائلًا سأل عن جواب فرعون عن قيلهم، فجاء الجواب: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ مجيبًا إلى ما سألوه[4].

نكتة التَّعبير بحرف الجواب ﴿نَعَمْ﴾:

فـي التَّعبير بحرف الجواب اختصار، وإجابة للطَّلب وإقرار

﴿نَعَمْ﴾ حرفُ جواب يسُدُّ مسدَّ جُملته، ويكون لتصديق المخبِر، أو إعلام المستخبِر، أو وعد الطّالب، فقوله: ﴿نَعَمْ﴾؛ أي: إنَّ لكم لأجرًا، فـ﴿نَعَمْ﴾ سدَّ مسدَّ هذه الجملة إيجازًا واختصارًا[5].

وقد التزم فرعونُ لهم الأجر[6]؛ لأنَّه إجابة لما طلبوا إليه[7]، فقد أقرَّ طلبَهم أوَّلًا بقوله: ﴿نَعَمْ﴾ الدّالَّة على استحقاقهم، وعدالة طلبهم[8].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.
(5) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 566.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 138.
(7) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 11.
(8) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.

وقرأ الكسائي: ﴿نَعِمْ﴾ بكسر العين، والباقون: بنصبها، وهما لغتان في المعنى نفسه[1].

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَإِنَّكُمْ﴾:

ما يعدُ فرعونُ السَّحرةَ إلّا غرورًا، وما تزيده الآيات إلّا نفورًا

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ حرف عطف[2]، حيث عطفت جملتَها على جملة مقول القول المقدَّرة المدلول عليها بحرف الجواب ﴿نَعَمْ﴾؛ أي: إنَّ لكم لأجرًا، وإنَّكم لمن المقرَّبين[3]؛ أي: لكم مع أُجرَتِكم وجزائكم على غلبتكم موسى إنْ غلبتموه مع الفائدة ما هو زيادة عليه، وهو القُربَى عندي والزُّلفَى لديَّ[4].

فهُم ابتدؤوا بطلب الجزاء: وهو إمّا المال وإمّا الجاه؛ لأنَّ نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة، فبذل لهم كلا الأمريْن[5]، وقرَّر لهم جزاءين:

الجزاء الأوَّل: الأجر، وقال: إنَّ لكم لأجرًا، مؤكِّدًا الأجرَ بأنَّه لهم، وإنَّه أجرٌ كثير عظيم لا يقادَرُ قدرُه.

والجزاء الثّاني: الذي يُعدُّ جزاءً كبيرًا عند الملوك والطُّغاة، وهو أن يكونوا مقرَّبين، وهذا التَّقريب إليه يتضمَّن مزايا معنويَّةً في نظرهم، وهو الرِّضا السّامي، ويتضمَّن مزايا أخرى بأنَّهم ينالون جزاءً ممّا يسلَّط على العباد بتسليطهم، ويتضمَّن مكاسبَ ماديَّة من السَّعاية والإفساد، والعلوِّ في البلاد[6].

دلالة التَّعبير بـ﴿إِذًا﴾:

جعل فرعون أجر السَّحرة مشروطًا بغلبهم، ونتيجة لمهارتهم في تخييلهم

﴿إِذًا﴾ مختَلَفٌ في حرفيَّتها واسميَّتها[7]، وهي جواب وجزاء،

---

(1) الداني، التيسير، ص: 110، وابن الجزري، النشر: 2/269، والخطيب، معجم القراءات القرآنية: 4/ 311.

(2) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 66.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71.

(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 89، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.

(7) ابن هشام، المغني، ص: 30.

يقول الرَّجُل: أنا آتيك، فتقول: إذنْ أُكرمَك، فهذا الكلام قد أجبتَه به وصيَّرت إكرامَك جزاءً له على إتيانه، وقال الزَّجّاج: تأويلُها: إنْ كان الأمرُ كما ذكرتَ فإنِّي أُكرمُك[1].

وقد دخلت ﴿إِذٗا﴾ - في الآية الكريمة - بين اسم إنَّ وخبرها في قوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ - وهي جواب وجزاء كما تقدَّم - زيادةً في التَّأكيد[2]؛ ذلك أنَّه لمّا كان قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ في معنى جزاء الشَّرط لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفًا عليه ومُدخَلًا في حكمه، دخلت ﴿إِذٗا﴾ قارَّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء[3].

فكأنَّهم لمّا قالوا: ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ فهل لنا مِن أجر؟ أجابهم بقوله: ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾[4]؛ أي: وإنَّكم إذْ تَغلِبون لمن المقرَّبين[5].

فوعدهم بالإحسان إليهم بشرط غلبتهم موسى عليه السلام[6]، وبيَّن أنَّ ذلك نتيجة عملهم، وذلك بالتعبير بـ﴿إِذٗا﴾؛ أي أنَّه نتيجة عملكم؛ حثًّا لهم على الجدِّ والعناية[7].

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ هي لام الابتداء المزحلَقَة المفيدة للتَّوكيد[8].

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

حَفَل قولُه: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ بعدَّة مؤكِّدات، وهي:

حرفُ الجواب ﴿نَعَمۡ﴾، والحرفُ المشبَّه بالفعل (إنَّ) الدّالُّ على التَّوكيد لقيامه مقام تكرير الجملة، ولامُ التَّوكيد المزحلَقَة الدّاخلة على خبر (إنَّ)، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة بأصل وضعها على الثُّبوت، والحكمُ بأنَّهم يكونون مِن ذوي الزُّلفى المحيطين به، فيكونون في ظلامه وظُلمه[9].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 13/ 12، والزمخشري، المفصل، ص: 443، وابن يعيش، شرح المفصل: 5/ 127.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 312.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 355.
(5) محمد حجازي، التفسير الواضح: 2/ 752.
(6) العليمي، فتح الرحمن: 5/ 60.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.
(8) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 71، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 186.
(9) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5353.

أكَّد فرعون وعده لسَحَرته؛ ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكلِّ مقدورهم

والغرض من هذه المؤكِّدات هو إزالة الشَّكِّ من قلوب السَّحَرة في إنجاز فرعون وعده، وتثبيتًا لقلوبهم، وحثًّا لهم على بذل قصارى جهدهم لغلبة موسى عليه السلام، فلقد رأى فرعون من موسى عليه السلام آيات باهرات تهدم الباطل وتُزهِقه، وتنسف الكفر وتَمحَقه، ولقد زلزلت قوائم عرش فرعون زلزالًا، ولم تَدَعْ في أمر ذهاب ملكه شكًّا ولا احتمالًا، فأراد أن ينفق كلَّ ما لديه، ويستعين بملئه ومَن حواليه؛ لتدعيم سلطانه، وسَتْرِ سوأةِ خيبتِه وخسرانه، والله غالب على أمره.

فتأكيده هذا يدلُّ على حرصه على التَّغلُّب على موسى عليه السلام وقهره، وكأنَّه يقول: اغلبوه ولكم ما تريدون! ويريد أن يشجِّعهم ويغريهم لكي لا يدَّخروا وُسعًا في هذه المعركة مع موسى عليه السلام؛ خوفًا على سلطانه، وتثبيتًا لصولجانه[1]!.

معنى (مِن) ودلالتها في قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

أغرى فرعون سحرته بالمقرَّبين أن يكونوا من جُملتهم، ويُعَدّوا في زمرتهم

الأصل في معنى (مِن) أنَّه حرفٌ موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]، وهذا هو معناه في قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: ستكونون في زمرة المقرَّبين مِن بداية مَن يقال فيهم مقرَّبون إلى نهايتهم؛ أي: لن تكونوا في طبقة أقلَّ مِن طبقتهم، ولا معزولين عنهم، بل ستكونون من جملتهم، معدودين في زمرتهم.

معنى (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

وعد فرعونُ سحرتَه بالدُّخول في زمرته، وأن يكونوا مِن حاشيته وسُلطته

(أل) في ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ هي العهديَّة؛ أي: تكونون مِن جملة مَن عهدتم مِن جلسائي وخاصَّة بطانتي[3]، والمصاحبين معي، فلكُم التَّرقِّي في المراتب والمناصب، والزِّيادة في الإنعام والإحسان في كلِّ حينٍ وأوان يومًا فيومًا[4].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/ 102.
(2) الزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(3) المراغي، تفسير القرآن: 19/ 60.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 42.

فالتَّقريب الذي وعدهم به فرعون هو الجاه الزّائد على العطاء الذي طلبوه، والقرب من المَلِك الذي كان عندهم إلههم[1].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

القصَّة في الأعراف مبنيَّة على الاختصار، وفي الشُّعراء على البسط والإكثار

هنا مع قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 113-114]، وأوجه الاختلاف بين الآيتين، هي:

أولًا: ذِكر (لَمّا) الحينيَّة مسبوقة بحرف العطف قبل فعل المجيء في الشُّعراء دون الأعراف: ففي الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 113]، وفي الشُّعراء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾.

ثانيًا: تأخير ذِكر فرعون في الشُّعراء وتقديمه في الأعراف، ففي الشُّعراء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ﴾، وفي الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ﴾ [الأعراف: 113].

ثالثًا: ذِكر الاستفهام عن حصول الأجر في الشُّعراء دون الأعراف، ففي الشُّعراء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾، وفي الأعراف: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الأعراف: 113].

رابعًا: ذكر حرف الجزاء والجواب ﴿إِذٗا﴾ في الشُّعراء دون الأعراف، ففي الشعراء: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وفي الأعراف: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114].

فهذه سؤالات أربعة يحتاج كلٌّ منها إلى جوابٍ شافٍ.

ولكن ممّا تنبغي ملاحظته - بداية - أنَّ بسطَ القصَّة في سورة الشُّعراء أوسع، ولفظُها فيه أكثر، أمّا لفظُها في سورة الأعراف فهو أوجز وأخصر[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 230.

(2) الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 659، والكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص: 127.

دليل ذلك أنَّ المحاورة والمناظرة بين نبيِّ اللّه موسى عليه السلام وفرعون طويت في الأعراف في ثلاث آيات: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ [الأعراف: 104 - 106]، ثمَّ ذُكر أمر العصا واليد، أمّا في سورة الشُّعراء فقد استغرقت المناظرة ثلاث عشرة آية من الآية التّاسعة عشرة إلى الحادية والثَّلاثين، ثمَّ ذُكر أمر العصا واليد.

أمّا **الإجابة عن السُّؤال الأوَّل** عن سرِّ مجيء ﴿فَلَمَّا﴾ في الشُّعراء دون الأعراف؛ فإنَّه لمّا كانت القصَّة في الأعراف مبنيَّة على الاختصار، وكانت الآية السّابقة لقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 113] هي قوله: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]، وكان مفهومًا لدى العقلاء ما طويَ ذِكرُه بين الجملتين مِن إرسال الحاشرين، وجمع السَّحَرة وإحضارهم، ومثولهم أمام فرعون، وتجمُّع النّاس ليشهدوا تلك المناظرة، لمّا كان ذلك كذلك ناسب أن يُعطَف قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 113] على سابقه بالواو عطف قصَّة على قصَّة.

ولمّا كانت القصَّة في الشُّعراء مبنيَّة على البَسط، وكانت الآيات السّابقة لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ هي قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: 38 - 40] فلم يُطوَ ما بين اقتراح الملأ بحشر السَّحَرَة من المدائن وبين مثول السَّحَرَة أمام فرعون، لمّا كان ذلك كذلك ناسب أن يؤتَى بالفاء العاطفة التَّعقيبيَّة، و(لمّا) الحينيَّة.

وأمّا **الإجابة عن السُّؤال الثّاني** عن سرِّ تقديم ذِكر فرعون في الأعراف وتأخيره في الشُّعراء، فإنَّه لمّا كان الدّاعي لحشر السَّحرة في موضع الأعراف هم الملأ، وجاء فيه قبلَ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 109 - 112]، فنسب الكلامَ للملأ، فهُم القائلون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]، لمّا كان ذلك كذلك فقد ناسب أن يُذكَر أنَّ هؤلاء السَّحرة قد جاؤوا مع الحاشرين مِن كلِّ المدائن قاصدين فرعون، مُقبلين إليه، مجيبين أمرَه، فجاء النَّظم في

الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الأعراف: 113]؛ لأنَّه لو قيل: (وجاء السَّحَرة فقالوا...)، لربَّما تُوُهِّم أنَّهم قالوا ما قالوه للملأ الذين دعَوْهم، فجاءت الآية مزيلة هذا الوهم، مبيِّنة أنَّ محاورتهم كانت مع فرعون بلا واسطة مِن ملئه وجنده.

ولمّا كان الدّاعي لحشر السَّحرة في موضع الشُّعراء هو فرعون نفسه، وجاء قبلَ الآية قولُه سبحانه: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾ [الشعراء: 34]، فجعل الكلام لفرعون نفسه، فناسب أن يُطوَى ذِكر فرعون بعد فعل المجيء؛ لأنَّه معلوم أنَّ هؤلاء السَّحرة إنَّما جاؤوا فرعون؛ لأنَّه هو الذي دعاهم، لكنَّها بيَّنت أن مقالة السَّحَرة كانت لفرعون لا لغيره مِن ملئه، فجاء النَّظم في الشُّعراء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ﴾.

وأمّا **الإجابة عن السُّؤال الثّالث** عن سرِّ ذِكر الاستفهام في الشُّعراء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ وذكر التَّحقيق في الأعراف: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الأعراف: 113]؛ فإنَّ ذلك يُستلهم ممّا أجاب به السَّحرةُ فرعونَ لمّا توعَّدهم بالصَّلْب والتَّقطيع في الموضعين.

فقد جاء ردُّهم في الموضع الأوَّل: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: 125 - 126] فوجَّهوا كلامهم لفرعون مخاطِبين إيّاه: ﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ [الأعراف: 126] مجترئين غير خائفين.

وأيضًا في خطابهم نبيَّ الله موسى عليه السلام متحدِّين إيّاه قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: 115]، وما وصف الله تعالى به سحرهم في هذه السّورة فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]، فناسب هذا ما جاء في بدء محاورتهم فرعون من قولهم جازمين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الأعراف: 113] بالتَّحقيق والتَّوكيد.

وأمّا ردُّهم في الموضع الثّاني فقد جاء فيه: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلم يكن فيه ما في سابقه، بل جاء قبله قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، على قول مَن ذهب إلى أنَّ فرعون تشكَّك في غلبة السَّحرة[1]، فناسب ما جاء في بدء المحاورة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ بالسُّؤال الدّالِّ على الشَّكِّ.

وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلالٌ بخبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أنَّ فرعون شديد

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5352.

الحرص على أن يكونوا غالبين، وخافوا أن يسخِّرهم فرعون بدون أجر؛ فشرطوا أجرهم من قبل الشُّروع في العمل ليقيِّدوه بوعده[1].

فالحاصل أنَّه في الأعراف حتميَّة، وفي الشُّعراء استفهاميَّة؛ للدَّلالة على اليقين في الأعراف، والظَّنِّ والشَّكِّ في الشُّعراء[2].

وللإجابة عن السُّؤال الرّابع عن سِرِّ ذكر ﴿إِذًا﴾ في الشُّعراء دون الأعراف؛ فإنَّه لمّا كان موضع الشُّعراء متضمِّنًا استفهامًا، وهو قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، وكان هذا القول في معنى جزاء الشَّرط لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفًا عليه ومُدخَلًا في حكمه، دخلت ﴿إِذًا﴾ قارَّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء[3].

ولمّا خلا موضع الأعراف مِن الاستفهام خلا أيضًا من (إذًا)، فجاء في كلِّ موضع بما يناسبه ويشاكله، فلله درُّ التَّنزيل الجليل!.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأجْر والخَرْج:

الخَرْجُ أعَمُّ من الأجْر

الفرق بينهما أنَّ الخَرْجَ مأخوذ مِن النَّفاذِ عن الشيء أو النَّفاذ من الحيِّز؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجه المُعطي[4]، وقد يكون هذا تبرُّعًا[5]؛ لأنَّ الخرجَ: ما تبرعتَ به أيضًا، وكلّ ما استخرج من ضريبة وجزية وغَلَّة فهو خَراجٌ وخَرْج، وسُمّي خَراجًا وخَرْجًا لأنَّ المؤدّي يُخرجه، والآخذ يستخرجه[6]، والخَرْج بإزاء الدَّخْل، يقال لكلِّ ما يخرجه الإنسانُ إلى غيره[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 126.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/ 102.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 312.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خرج).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 142.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 145.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 92.

أمّا الأَجر فجذره أصلان؛ **الأصل الأول:** الكِراء على العمل[1]؛ فالأجر: الجزاء على العمل، والأُجرة والإجارة والأُجارة: ما أَعطيتَ من أجرٍ في عمَلٍ[2]، والمعنى المحوريّ للجذر: أثرٌ أو حصيلةٌ لجُهدٍ ماديّ[3].

والأصل الثاني: جَبرُ العَظم الكسير[4]؛ يقال: أُجِرَت يدُه، أي: جُبِرت[5].

ويمكن الجمع بين هذين الأصلين بالمعنى، فيكون المعنى الجامع بينهما أنَّ أُجرةَ العامِل كأنَّها شيءٌ يُجبَر به حالُه في ما لَحِقَه من كَدٍّ فيما عمِلَه[6].

ويدلُّ ما سبق على أنَّ الأجرَ يكون لَمن عمِل، والخَرْجَ لَمن عمِل ولَمن لَم يعمل؛ لأنَّ الخرجَ قد يكون ما تبرَّعَ به الإنسان ويشمل كلَّ ما يخرجه إلى غيره أيضًا؛ فيكون الخَرجُ أعمَّ من الأجر مِن هذا الوجه.

ولمّا رأى السحرةُ أنَّهم سيقومون بعمل يستحقون عليه جائزةً ومالًا[7]، طلبوا في مَساق الاستفهام أجرًا من فرعون إن غلبوا[8]؛ لذا أوثر لفظ الأجر في الآية.

وفي قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾ [المؤمنون: 72] جاء اللفظ ﴿خَرۡجٗا﴾ [المؤمنون: 72]؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لَم يسألهم أيَّ شيءٍ ممّا يخرجه الإنسانُ إلى غيره.

وفي قول اللّه ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ [الكهف: 94 - 95] جاء اللفظ ﴿خَرۡجًا﴾ [الكهف: 94]؛ لأنَّ ذا القرنين أبَى أن يُخرجوا إليه أيَّ شيءٍ ممّا يستطيعون إخراجَه له على عمله.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللسان: (أجر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (أجر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/ 258.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 26.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: 43 - 44]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

جعل الكليم الابتداء لهم في المناظرة؛ ليدحض ما ادَّعوه أثناء المحاورة

لمّا جاء موعدُ المبارزة وحُشِر المبارزون؛ وفرعون وملؤه في طغيناهم يعمهون، وسحرتهم لا يتردَّدون أنَّهم هم الغالبون؛ وكان لابدَّ من بادئ بالإلقاء فقال موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ استخفافًا بعددهم وبما سَيُلقون، وتوسُّلًا إلى إظهار الحق وإبطال الباطل؛ ليرى الراؤون، ويسمع السّامعون، ولمَّا كان عرضُ فرعون للسَّحرة مغريًا، وكان تمكُّنهم من السِّحر عاليًا؛ أقسموا على الغَلَبَة بِعزَّته؛ إرضاءً لشهوته، وإظهارًا لسطوته، وطمعًا في مكافأته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلْقُوا۟﴾: (لقي) له أصول يدلُّ أحدها على طرح الشَّيء[2]، واللِّقاء: مقابلة الشَّيء ومصادفته معًا، وقد يعبَّر به عن كلِّ واحد منهما[3]، يقال لَقيَه يَلْقاه لقاء ولُقًى ولُقيًّا ولُقْيَةً[4].

وملاقاة اللّه ﷻ عبارة عن القيامة والمصير إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ﴾ [البقرة: 223][5]، واللِّقاء: الملاقاة[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 503، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 138، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 154، وابن عادل، اللّباب: 15/ 24، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 32، 33، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 242، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

(6) ابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات: (لقي).

والإلقاء: طرحُ الشَّيء حيث تلقاه؛ أي: تراه، ثم صار في العرف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ، تقول: أَلْقِهُ من يدك، وأَلْقِ به من يدك[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾.

ويقال ألقيتُ إليك قولًا وسلامًا وكلامًا ومودةً، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: 86]، وألقيت إليك بالمودة، كما في قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1][2].

وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: 70]، فإنَّما قال ذلك تنبيهًا على أنَّه دهمهم السجود، وجعلهم في حكم غير المختارين[3].

2) ﴿حِبَالَهُمْ﴾: أصل (حبل) يدلُّ على امتداد الشَّيء[4]، والحبل: معروف، وهو الرِّباط، وجمعه: حِبال وأحبال وأحبُل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾[5].

والحبل: العهد، واستعير الحبلُ للوِصال، ولكلِّ ما يُتَوَصَّل به إلى شيء، ويقال للرَّمل المستطيل: حبل[6]، وحبل العاتق: عصب، وحبل الوريد: عِرق في العُنُق[7]، والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفُرقة واتِّباع القرآن[8].

3) ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾: (عصو) يدلُّ على أصل معنويّ: هو التَّجَمُّع والائتلاف، ومنه العصا؛ سميت بذلك لاشتمال يد ممسكها عليها، ثم قيس ذلك فقيل للجماعة: عصا[9]، والعصا: العود، مؤنثة[10]، وفي كتاب الله ﷻ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 18]، وفلان يَعتَصي بالعصا: يَتَوَكَّأُ عليها، ويَعتَصي بالسَّيف: يجعله عصًا[11].

ومنه قيل للخوارج: قد شَقّوا عصا المسلمين، أي: فرَّقوا جماعتهم، وتُضرَب العصا

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبل).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (حبل).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبل).
(7) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبل).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حبل).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عصو).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عصو).
(11) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).

مثلًا للاجتماع، ويُضرَب انشقاقُها مثلًا للافتراق[1]، ويقال للرجل الرَّفيقِ حسنِ السِّياسة فيما يتولاه: إنَّه ليِّنُ العصا[2]، وعصاه بالعصا، يَعصوه عَصْوًا إذا ضربه بالعصا[3]، وجمع العصا: عُصيٌّ وعِصيٌّ ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾[4]، ويقال للراعي إذا كان قَويًّا على إبله ضابطا لها: صُلب العصا وشديد العصا[5]، ويقال في تشبيه الرَّجل بأبيه: العصا من العُصَيَّة، أي: بعض الأمر من بعض[6].

وقولهم: لا تَرفَعْ عصاكَ عن أهلكَ، يُراد به الأدب، وليس الضربَ[7]، والعِصيان: خلاف الطّاعة، عصى العبدُ ربَّه يعصيه، إذا خالف أمره، وعصى فلانٌ أميرَه يعصيه عَصْيًا وعِصيانًا ومعصية: إذا لم يُطِعْه وخرج عن الطّاعة، فهو عاصٍ وعَصيٌّ، وأصله من أنَّه يمتنع بعصاه[8].

4) ﴿بِعِزَّةِ﴾: أصل (عزز) يدلُّ على شِدَّة وقوَّة وما ضاهاها[9]، والعزَّة: خلاف الذُّلِّ[10]، وهي الحالة المانعة للإنسان من أن يُغلَب، وهي القوَّة والشِّدَّة والغلبة، من قولهم: أرض عَزاز؛ أي: صُلبة[11].

وتعزَّزَ اللَّحم: اشتد وعزَّ، كأنَّه حصل في عَزاز يصعب الوصول إليه[12]، وعزَّ الشَّيء يَعِزُّ عِزًا وعِزَّةً: إذا قلَّ لا يكاد يوجد، فهو عزيز[13]، وعزَّ الشَّيء يَعِزُّ عِزًا وعِزَّةً: صار عزيزًا؛ أي: قَوِي بعد ذِلَّة[14].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عصو).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عصو).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عصو)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عصى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزز).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (عزز).
(13) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (عزز).

والعزيز: الذي يَقْهر ولا يُقهَر، وجمعه: عِزاز وأعِزَّة وأعِزّاء، وقد يُمدح بالعزَّة تارة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، ويُذَمُّ بها تارة كما في عِزَّة الكفار، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: 2]، ووجه ذلك أنَّ العزَّة التي للّه ولرسوله وللمؤمنين هي الدّائمة الباقية، وهي العِزَّة الحقيقيِّة، والعِزَّة التي للكافرين، فهي التَّعزُّز وتكلُّف العِزَّة، وهي ليست باقية ولا دائمة، وهي في الحقيقة ذلٌّ؛ لأنَّ كل عِزٍّ ليس باللّه فهو ذُلٌّ[1].

وقد تُستَعار العِزَّة للحَميَّة والأَنَفَة المذمومة، كما في قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206][2]، ويقال: عزَّ علَيَّ كذا؛ أي: صَعُب، ويقال: عزَّه كذا يعُزُّه عَزًا؛ أي: غلبه[3].

ومعنى العِزَّة في قول السَّحَرة: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: بعظمة فرعون[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاعــتــزاز بغير الـلـه خـسـران، والـثَّـبـات على الحقِّ هداية من الرَّحمن

استأنف البيان القرآنيُّ في هاتين الآيتين ذِكْرَ الحديث الَّذي دار بين موسى عليه السلام والسَّحرة - بعد تشجيع فرعون لهم بالغلبة والنَّصر - فقال لهم موسى - مريدًا إبطال سحرهم وإظهار أن ما جاء به ليس سحرًا -: ألقوا ما تريدون إلقاءه ممّا ترونه حجَّة لكم على إبطال ما أنا مؤيَّد به من المعجزات، فأَلْقَوا ما كان في أيديهم من الحبال والعصيِّ مُقْسِمين بقوَّة فرعون وشدَّته قائلين: إنّا لنحن المنتصرون لا موسى وقومه[5].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عزز).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عزز).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(4) الخازن، لباب التأويل: 3/ 325.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 569، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 60 - 61.

وترشد الآيتان إلى أنَّ موسى عليه السلام لم يبادر بإلقاء عصاه أولاً؛ لأنَّ المسألة مسألةُ علم لا مسألة حرب، ففي الحرب تنفع المبادرة بافتكاك زمام المعركة، وأمّا في العلم فيحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كرَّ عليه بالحُجج والبراهين فأبطله، وظهر الحقُّ وانتصر على الباطل، وهذا الأسلوب الذي اتبعه موسى عليه السلام بإلهام من ربه تعالى.

وترشد إلى أنَّ معارضةَ الحق الذي جاء عن اللّه ستؤول إلى هلاك وخُسران، مهما بلغ الطغيان؛ لذا قال لهم موسى عليه السلام: ألقوا كلَّ ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به.

وترشد إلى أنَّ الاعتزازَ بالضعيف العاجز هَبَّة جاهلية، فكلُّ من حَلَف بغير اللّه - كأن يقول: وحياةِ فلان، وحقِّ رأسه، ونحو ذلك من أنواع القَسَم - فهو تابع لهذه الجاهلية.

وترشد إلى أنَّ السحرةَ أرادوا بذكر الغَلبة على موسى إلقاءَ الخوف في نفسه عليه السلام؛ ليكون ما سيُلقيه في نَوْبته عن خَوَرِ نفسٍ، ولأنهم يعلمون أنَّ العزيمةَ من أكبر أسباب نجاح السِّحر، وتأثيره في الناظرين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

مِـــن شـــأن الاســتــئــنــاف البيانيِّ أن يُفصَل عن سابقه، وأن يُمهِّد للاحقه

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ عن سابقه لما بينهما مِن شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ﴾.

فكأنَّ سائلًا سأل عمّا دار بين السَّحرة ونبيِّ اللّه موسى عليه السلام

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32 - 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 649.

بعدما ذُكِر ما دار بينهم وبين فرعون، فلمّا تشوَّف السّامع إلى جواب نبيِّ اللّه تعالى موسى ﵇ أُجيب بقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾[1].

وقد حُكي كلامُ موسى ﵇ في ذلك الجمع بإعادة فعل ﴿قَالَ﴾ مفصولًا بطريقة حكاية المحاورات؛ لأنَّه كان المقصودَ بالمحاورة؛ إذْ إنَّهم حضروا لأجله[2].

نكتة تعدية فعل القول باللّام:

في الـلّام معنى الاختصاص، ودلالة على قصد السَّحرة بالقول من دون النّاس

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[3]، وفائدته هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أنَّ نبيَّ اللّه موسى ﵇ قد خصَّ السَّحرة بالقول دون غيرهم، وبلَّغهم القول إلى مسامعهم، ممّا يدلُّ على ثباته ﵇، وتحدِّيه لهم، فقد آذنهم جميعًا على سواء، لم يستثنِ أحدًا، ولم يخافت بنداء، أو يناجِ بخطاب.

تعيين المراد بالضَّمير ﴿لَهُم﴾:

أُريد السَّحَرةُ بالإضمار بعد تقدُّم ذِكرهم بالإظهار

المراد بضمير الغَيْبَة في ﴿لَهُم﴾ هم السَّحَرة الذين حُشِروا من كلِّ المدائن، وجُمِعوا لتحدِّي الحقِّ الذي جاء به موسى الكليم عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم﴾؛ أي: قال موسى ﵇ للسَّحرة على سبيل الجرأة وعدم المبالاة بهم وبِسِحْرِهم[4].

وقد ذُكروا هاهنا بالإضمار بعد إظهارهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ جريًا على الأصل في ذِكر الإضمار بعد الإظهار.

غرض الأمر في قوله: ﴿أَلۡقُواْ﴾:

الأمر للإذن أو للتَّهديد أو للتَّحقير، وأريد به دحض الشُّبهة بعد التَّقرير

الأمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ﴾ لم يُرِد به أمرَهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 126.

(3) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 42، ومحمد الخطيب، أوضح التفاسير: 1/ 447.

بالسِّحر والتَّمويه، بل الإذنَ في تقديم ما هُم فاعلوه لا محالة توسُّلًا به إلى إظهار الحقِّ[1]؛ ولذلك زاد قوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فإنَّ قوله: ﴿أَلْقُواْ﴾ كان كافيًا في جوابهم حين قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: 115][2].

فلمّا تعيَّن ذلك طريقًا إلى كشف الشُّبهة صار جائزًا[3]، وهذا كما يؤمَر الزِّنديق بتقرير حجَّته لتُردَّ[4]، وكما يقول صاحبُ الجَدَل في عِلم الكلام للمُلحِد: قرِّر شُبهتَك، وهو يريد أن يدحضها له[5].

فأراد نبيُّ اللّه موسى ﷺ أن يقهرهم بالحجَّة ويُظهِر لهم أنَّ الذي جاء به ليس هو مِن الجنس الذي أرادوا معارضتَه به[6].

فالحاصل أنَّ صيغة الأمر ليست على حقيقتها، بل هي مجاز عن الإذن[7].

أو يقال: هو للتَّهديد؛ أي: إن فعلتم ذلك أتينا بما يبطله، كقول القائل: لئن رميتني لأفعلنَّ ولأصنعنَّ[8].

أو للتَّحقير؛ أي: لتحقير سِحرهم في مقابلة المعجزة، فليس مِن باب الطَّلَب في شيء[9].

وإنَّما مكَّنهم مِن أن يكون بدء الرَّمي لهم ليسترهبوا النّاس الحاشدين المجتمعين، ويكتسبوا مِن ذلك حماسةً وقوَّةَ اندفاع، وهو يعلم أنَّ اللّه معه، وهو غالِبُهم بنصر اللّه تعالى وقوَّة الحقِّ الذي لا يمكِّن اللّهُ تعالى منه الباطلَ أبدًا[10].

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتها في السياق:

(ما): تقع في الأصل على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل[11]، وتأتي موصولةً

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 138.
(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 381.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 503.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 197.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 503.
(9) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 67.
(10) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5354.
(11) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.

بمعنى (الذي)، ولكنَّها أعمُّ من (الذي) وأشمَل، وهي بهذا المعنى في قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: ألقوا كلَّ ما في خواطركم إلقاؤه كائنًا ما كان، ولم يقيِّده بشيء دون شيء؛ لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحقِّ، ازدراءً له بالنِّسبة إلى أمر اللّٰه[1].

موصولة تفيد العموم، لتشمل كلَّ ما يُلقي السَّحرة من الإفك

ففي كلام موسى ﷺ استخفافٌ بما سيُلْقونه لأنَّه عبَّر عنه بصيغة العُموم؛ أي: ما تستطيعون إلقاءَه[2]، وحذف العائد لاسم الفاعل ﴿مُّلْقُونَ﴾، والتَّقدير: (ما أنتم ملقونه) تعميمًا[3].

نكتة التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿أَنتُم﴾:

تعيين المخاطَب في المناظرة، والثَّبات أمام عتوِّ الجبابرة

جيء بالضَّمير المنفصل ﴿أَنتُم﴾ في قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ مخاطَبة، وقد دلَّ هذا على شدَّة ثبات نبيِّ اللّٰه موسى ﷺ وتحدِّيه القويِّ للسَّحَرة؛ إذ وجَّه الخطاب إليهم جميعًا بقوله ﴿أَنتُم﴾، ومن شأن هذا الثَّبات أن يزعزع ثقة الخصوم في المناظرات.

علةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تفيد الجملة الاسميَّة بأصل وضعها ثبوتَ شيء لشيء ليس غيرُ، بدون نظر إلى تجدُّد ولا استمرار[4].

ثبوت الإلقاء - وحده - للسَّحرة، وإفادة أنَّها آخر مرَّة

والتَّعبير بها هنا في قوله: ﴿أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ قد جاء لنكتة بديعة، وهي ثبوت الإلقاء - وحده - للسَّحَرة، ففِعلُهم لن يعدو الإلقاء، فلن يُحيوا ميّتًا، ولن يَقلِبوا عينًا، وقد خبر نبيُّ اللّٰه موسى ﷺ حالَهم، وعلم مآل أمرهم، فمهما فعلوا فإنَّ فِعلَهم لا يعدو كونه تخييلًا وتمويهًا لأعين النّاس بإلقائهم حبالَهم وعِصيَّهم، فهذا هو دَيْدَنهم، وتلك هي عادتهم، لا جديد فيها، ولا حدوث فيها، فإنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.

(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 187.

(4) القزويني، الإيضاح: 2/ 133، والهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

الحبال والعِصيَّ لن تتحرَّك بحياة، بل هي جمادات صمّاء على هيئتها قارَّة.

وفي التَّعبير بالاسميَّة إشارة أيضًا إلى أنَّ هذه الإلقاءة هي الإلقاءة الأخيرة، ولن يتجدَّد لهم إلقاء بعدها؛ فإنَّ الحيَّة ستلتقم كلَّ هذا، وستدرك رحمةُ اللّٰه سبحانه هؤلاء السَّحرة فيؤمنون، وهذا يناسبه التَّعبير بالاسميَّة دون الفعليَّة.

بلاغة الإيجاز بالحذف في السياق:

الحــــذف للاختـصـار ودلالـة المذكور على المحذوف

بين قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ كلامٌ محذوف، وهو ما ثبت في الأعراف مِن تخييرهم إيّاه في البداءة مَن يُلقي، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ١١٥ قَالَ أَلْقُواْۖ﴾ [الأعراف: 115 - 116][1].

فقد نصَّ اللّٰه تعالى عليه هناك ولم يحذفه لأجل الإفهام، وحُذِف هاهنا اختصارًا وإيجازًا، ولما دلَّ عليه مِن الكلام[2].

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾:

إفـادة التَّرتيب والتَّعـقـيب، ولـلـدَّلالـة عـلى مسارعة السَّحَرة بالإلقاء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ﴾ للعطف والتَّعقيب، وترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ أي: فتسبَّب عن قول موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُواْ﴾ وتعقَّبه أنَّهم سارَعوا بإلقاء حبالهم وعصيِّهم التي أعدّوها للسِّحر، وكان لهم أثر شديد في نفوس المجتمعين[3].

معنى عطف العِصيّ على الحبال:

حـصـر أدوات الـسَّـحَـرة فـي الـحـبـال والـعـصيّ، ومجانسة صنيع موسى

أفاد عطفُ العِصيِّ على الحِبال في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ - أفاد حصرَ أدوات السَّحَرة الذين حُشِروا من المدائن لمناظرة موسى عليه السلام في هاتين الوسيلتين: (العِصيِّ والحِبال).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 347، ومكي، الهداية: 8/ 5295.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 32، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5354.

وقد أوحى هذا بأنَّ الحاشرين الذين حشروا السَّحّارين من المدائن قد أخبروهم بما كان من أمر موسى عليه السلام، وأنَّه ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين! فجاؤوا بجنس ما يدحضه في زعمهم، ويدلُّ عليه قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ [طه: 58].

دلالة إضافة الضَّمير الغائب إلى العِصيِّ والحبال:

تعريفُ العصيِّ والحِبال وامتلاكها، والإعداد السّابِقُ لها

الإضافة في قوله تعالى: ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ هي إضافة معنويَّة محضة أفادت تعريف المضاف عن طريق إضافته للضَّمير[1]، والحرف المقدَّر فيها هنا هو اللّام؛ أي: حِبالٌ لهم، وعصيٌّ لهم، ويدلُّ على تملُّكهم هذه الحبال والعِصيِّ، وأنَّهم شكَّلوها على صفات خاصَّة، حتى إذا ألقوا بها اضطربت اضطراب الأفاعي والحيّات[2].

معنى الواو ودلالتها في فعل القول:

عاطفة على مذكور فصريحة، أو عاطفة على مقدَّر ففصيحة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ إمّا أن تكون عاطفة على مذكور، حيث عطفت جملتَها على جملة ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾؛ أي: (فألقَوْا وقالوا ما قالوا)[3].

وإمّا أن تكون الواوَ الفصيحة؛ حيث عطفت جملتها على مقدَّر؛ أي: (فألقَوْا، وسحروا أعين النّاس، واسترهبوهم، وجاؤوا بسحرٍ عظيم، وقالوا ما قالوا)[4].

وإنَّما قُرنت حكاية قول السَّحَرة بالواو خلافًا للحكايات التي سبقتها؛ لأنَّ هذا قولٌ لم يقصد به المحاورة، وإنَّما هو قولٌ ابتدؤوا به عند الشُّروع في السِّحر استعانةً وتيمُّنًا بعزَّة فرعون[5]؛ أي: وقد قالوا عند الإلقاء حالفين ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، قالوا

(1) ابن هشام، شرح قطر الندى، ص: 251، وعباس حسن، النحو الوافي: 3/ 3.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 10/ 86.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 72، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 72.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 381.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.

ذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يُؤتى به مِن السِّحر[1].

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِعِزَّةِ﴾:

لـلـقَـسَـم أو لـلاسـتـعـانـة، ومعنى الإلصاق فيهما بيِّنٌ

الأصل في معنى (الباء) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الإلصاق، ويدخلها معنى الاستعانة والمصاحبة، غير أنَّ الملازمَ لها هو الإلصاقُ[2].

والباء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ تَحْتَمِلُ وجهين[3]:

الأوَّل: أن تكون للقَسَم، وجوابُه: ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؛ أي أنَّهم أقسموا بعزَّة فرعون على أنَّهم يغلبون ثقةً منهم باعتقاد ضلالهم أنَّ إرادةَ فرعونَ لا يغلبها أحدٌ لأنَّها إرادةُ آلهتهم[4]، وخصّوها بالقسَم هنا لمناسبتها للغلَبة، وقَسَمُهم على ذلك لِفَرْطِ اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يُؤتَى به مِن السِّحْر[5]، فغُلِبوا وانقلبوا صاغرين، وكان قسَمُهم بعزَّة فرعون غيرَ مبرور.

والثَّاني: أن تكون الباء للسَّببيَّة؛ أي: نَغلب بسبب عِزَّة فرعون، والمرادُ بالعزَّة العظمةُ، وإنَّما قالوا ذلك تعظيمًا لفرعون - إذ كانوا يعبدونه - وتبرُّكًا باسمه! "فاستعانوا بعزَّة عبدٍ ضعيفٍ عاجز مِن كلِّ وجه، إلّا أنَّه قد تجبَّر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرَّتهم تلك الأُبَّهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر"[6].

ومعنى الإلصاق بارز في كلا الوجهين كما هو بيِّن.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 242، والبروسوي، روح البيان: 6/ 273.

(2) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 230، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.

بلاغة الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبَة:

الالتفات لإفادة التَّعظيم، وما الذي عُظِّم إلّا ذميم

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبَة؛ إذ مقتضى الظّاهر أن يقال: (وقالوا بعزَّتِك)، وإنَّما عدَلوا عن الخِطاب إلى اسم الغيبة تعظيمًا لفرعون، كما يقال للملوك: أَمَروا رضي الله عنهم بكذا، فيخبِرُ عنه إخبارَ الغائب(1).

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ عن سابقه:

استئناف بيانيٌّ يـروي تشوُّف السّامعين، وينبِّه الغافلين

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ عن سابقتها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾، فكأنَّ السّامع وهو موسى عليه السلام أو غيرُه يقول في نفسِه: ماذا يؤثِّر قولُهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾؟ فيقولون: ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وأرادوا بذلك إلقاءَ الخوفِ في نفس موسى عليه السلام؛ ليكون ما سيُلقيه في نوْبته عن خَوَر نَفْسٍ، لأنَّهم يعلمون أنَّ العزيمة مِن أكبر أسباب نجاح السِّحر وتأثيرِه في النّاظرين(2).

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

مواجهة الخصم المنكِر لغلَبِهم، وتأكيد لمضمون قيلِهم

حَفَلَ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ بعدد من المؤكِّدات، وهي:

القَسَمُ في: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وما أَخْيَبَه من قسَم! والحرفُ المشبَّه بالفعل (إنَّ)، وهو مفيد للتَّوكيد لقيامه مقام تكرير الجملة، واللّامُ الدّاخلة على ضمير الفصل في ﴿لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وهي مفيدة للتَّوكيد، والضَّميرُ المنفصل (نَحْنُ) المؤكِّد للضَّمير المتَّصل في ﴿إِنَّا﴾ تأكيدًا لفظيًّا، وقَصرُ الغَلَب عليهم بتعريف الطَّرفَين في ﴿لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؛ أي: أنَّهم وحدَهم الغالبون دون غيرهم، ولن يَغْلِبَ موسى، وقد قالوا ذلك بعد التَّأكُّد من الأجر الكبير المقدَّم لهم، والتَّقريب لهم إلى البلاط الفِرْعوني(3).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5355.

فأظهروا ما يجري مجرى القطع على أنَّهم يغلبون، ذلك أنَّهم رأوا كثرة تمويهاتهم وقلَّة العصا، فنظروا إليها بنظر الحقارة، وظنّوا غلبة الكثير على القليل، وما علموا أنَّ القليل من الحقِّ يبطل كثيرًا من الباطل، كما أنَّ قليلًا من النّور يمحو كثيرًا من الظُّلمة[1]، فكلُّ ذلك لمّا ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام[2].

وقد أفادت جملة: ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ بما فيها مِن المؤكِّدات مفاد القَسَم[3]، وكأنَّهم لمّا رأوا من موسى عليه السلام تحدِّيًا لهم، وإنكارًا واستبعادًا لإمكانيَّة غلبهم أرادوا أن يردّوا عليه بما يواجه إنكاره، فأقسموا على كلامهم، وأكَّدوه بأكثر من مؤكِّد، فجاءت الحيَّة تُرهِبُ القلوبَ، وتُدهِش العيون، وتُخرِس الأفواه، وتلك آية اللّه في نصرة نبيه وكليمه الكريم.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾:

استغراق صفات الجنس مجازًا للمبالغة، للدّلالة على التّمكّن من المغالبة

(أل) في ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هي التي لاستغراق صفات الجنس مجازًا على سبيل المبالغة؛ وذلك كما يُقال لمن يُراد الثَّناء عليه باستجماعه صفات الرُّجولة الكاملة: (أنت الرَّجُل)؛ أي: أنت المستغرِق في صفاتك صفاتِ جنس الرِّجال.

والمعنى هنا: نحن المستجمِعون صفات الغَلَبة، المستغرِقون في صفاتنا صفات جنس الغالبين، فهذا القولُ "قول واثقٍ من نفسه مُزمِعٍ على أن لا يَدَع بابًا من السِّحر يعرفه إلّا أتى به"[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَبْل والسَّبَب:

السَّببُ أخصُّ من الحَبْل

الفرق بينهما أنَّ السببَ في الأصل: هو الحَبل الذي يُصعَد به إلى

(1) البروسوي، روح البيان: 6/ 273.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 503.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 127.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33.

النَّخل[1]، ولا يُسمَّى الحبلُ سببًا حتى يُصعَد به ويُنحَدَر به[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج: 15]؛ فهو على ذلك أخَصُّ من الحَبل.

العزَّة والقوَّة:

في العِزَّة تماسُك وصلابة، وفي القوَّة التئام وشدَّة

العِزَّة: حالةٌ مانعةٌ للإنسان من أن يُغلَب، مِن قولهم: أرضٌ عَزاز، أي: صُلبة[3]، والمعنى المحوريّ للجذر: تماسُك الجِرم الرّخو أو المتسيّب حتى يبلغ الشِّدَّة والصَّلابة التامَّة[4]؛ يقال: تعزَّز لحمُ النّاقة، أي: اشتدّ وصَلُب[5]، واستعَزَّ الرَّملُ وغيرُه، أي: تماسَك فلم يَنْهَل[6].

والعِزَّةُ من معنوي ذلك، وهي خلاف الذُّلّ، وفي الذُّلِّ لينٌ ورخاوة[7].

والمعنى المحوريّ لجذر القوَّة: شِدَّة في الأثناء بالالتئام أو الالتواء مع امتداد[8].

كالقوَّة التي بمعنى الطّاقة الواحدة من طاقات الحَبْل[9] وجمعها: قوًى وقِوًى[10]؛ فهي تلتوي على ذاتها عند الفتل مع امتدادها فتشتدّ أثناؤها وذلك مع التوائها على الطّاقة الأخرى[11].

ومن هذا الأصل: القوَّةُ[12] وهي خلاف الضّعف[13]؛ فإنّها شِدَّةُ البدن والتئامُ الأثناء[14].

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبب).
(2) الأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبب).
(3) الراغب، المفردات: (عزز).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(5) الأزهري، التهذيب، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزز).
(6) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزز).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوي).
(9) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوي).
(10) ابن منظور، اللسان: (قوي).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوي).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوي).
(13) الجوهري، الصحاح: (قوي).
(14) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوي).

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء: 45 - 48]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

قوَّة الإيمان تنزع سطوة السلطان

لَمّا استفرغ السَّحرة وُسْعَهُم، وبذلوا أقصى ما عندهم، وكانوا أَسحَرَ النّاس وأَصْنَعَهم؛ ألقى موسى عصاه فالتقمت حبالهم وعصيَّهم؛ ليُعلم أنَّ من تعلَّق بخالق الوجود، وكان عن دعوة الحقِّ يذود، أظهره اللّه على مَن هم كثار وحشود؛ ولمّا أيقن السَّحرة أنَّ ما ألقاه موسى لم يكن من جنسِ سحرٍ معهودٍ؛ نَسوا المنصب الموعود، والثراء المنشود، وخرّوا سجَّدًا للعليِّ المعبود[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَلْقَفُ﴾: أصل (لقف) يدلُّ على ضمِّ الفم ما يُلقَى إليه بمرَّة[2]، ولَقِفْتُ الشيءَ ألقفُه لَقفًا، وتَلَقَّفْتُه أيضًا: تناولت الشَّيء إذا رُمي به إليَّ بحذق وسرعة باليد أو باللِّسان، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[3]، ولقِفَ الشَّيءَ يلقَفُه لَقْفًا: أخذه فأكله أو ابتلعه[4]، ورجل لَقِفٌ ثَقِفٌ؛ أي: سريعُ الفهم لما يُرمى إليه من كلام اللِّسان، وسريع الأخذ لما يُرمى إليه باليد[5]، وأيضًا هو الضّابط لما يحويه قائما به[6].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 140، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، 34، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 59، والدُّرَّة، تفسير القرآن وبيانه: 6/ 569.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقف).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقف).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (لقف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (لقف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقف).

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: تبتلع وتلتقم[1].

2) ﴿يَأْفِكُونَ﴾: أصل (أفك) يدلُّ على قَلْبِ الشَّيء وصَرْفِه عن جهتِه[2]، الإفك: أشدُّ الكذب والإثم، وكذلك الأَفيكَةُ، والجمع الأَفائِكُ[3]، وكلُّ مصروفٍ عن وجهه الذي يحقُّ أن يكون عليه، يقال: أَفَكَه وأفِكه يأفِكُه إفكًا وأَفْكًا وأُفوكًا؛ أي: قَلَبَه وصَرَفَهُ عن الشَّيء[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30]؛ أي: يُصْرَفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، وأفِك يُؤْفَك: صُرِف عقلُه، ورجلٌ مأفوكُ العقلِ: المأفونُ، وهو ضعيفُ العقل والرَّأي[6].

ويقال: رجل أفّاكٌ: كذّابٌ، وكذلك: الذي يأفِك النّاسَ؛ أي: يصدُّهم عن الحقِّ بباطله، وكَذَب النّاسَ وحدَّثهم بالباطل، فيكون أَفَكَ وأفَكْتُه مثل: كَذَب وكَذَبتُه[7]، ويقال رجل مأفوك: لا يصيب خيرًا[8].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يكذبون من التخاييل[9]، ويُزَوِّرونه بقلب الشَّيء وصرفه عن وجهه[10].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

في هذا السِّياق القرآنيِّ المبارك بيان لردِّ فعل النبيِّ الكريم موسى عليه السلام بعد إلقاء السَّحَرة حبالَهم وعِصيَّهم لخداع النّاس وسحرهم؛ حيث يقول معبِّرًا بصيغة التَّعقيب السَّريع: فألقى موسى عصاه فإذا هي حيَّة عظيمة تبتلع ما يقلبون ويزوِّرون، فلما شاهد السحرةُ ذلك، وعلموا أنه ليس من تمويه السَّحَرَةِ؛ إذا بهم يخرّون للّه خاضعين ذليلين،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقف)، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(8) الجوهري، الصحاح: (أفك).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 264، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/ 260.
(10) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 138.

معلنين إيمانَهم بالله ربِّ العالمين؛ لعلمهم أنَّ هذا ليس بسحر، بل هو معجزة وآية من ربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون[1].

معجزاتُ الله لأنبيائه البررة، أخضعت له السَّحرةَ المهرة

وترشد الآياتُ الكريمة إلى مظهر من مظاهر الهداية الإلهيةِ، وهي هدايةُ السحرة المُرتزقة المناوئين للحق، المؤلِّبين عليه الباطل؛ إذ كانوا في أول النهار سحرةً كفرة، فهداهم الله للصواب فإذا هم في آخره مؤمنون بررة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾:

العطفُ للتعقيب والترتيب؛ لدحض ما جاؤوا به من كيد وألاعيب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ عاطفة تفيد التَّعقيب والتَّرتيب[3]؛ أي أنَّه بعد إلقاء السَّحرة لحبالهم وعصيِّهم وإبراز مهاراتهم وتمكُّنهم من السِّحر، ألقى نبيُّ الله موسى عليه السلام عصاه؛ ليدحض ادعاءاتهم، ويكشف زيف زعمهم.

وقد تعبِّر الفاء هنا عن السُّرعة والمبادرة؛ لإفادة أنَّ الكليم عليه السلام ألقى عصاه من غير مهلة؛ ممّا يدلُّ على ثبات جَنانه، ورسوخ إيمانه عليه السلام.

دلالة التَّعبير بالماضي في الإلقاء:

إفادةُ التحقيق، وهو بتوكيد المعنى حقيق

جاء التَّعبير بالفعل الماضي في قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ جريًا على الظّاهر في حكاية ما مضى من الأخبار، وهو مع ذلك يفيد التَّحقيق، ومقابلة إلقائهم حبالَهم وعصيَّهم بإلقائه عليه السلام عصاه.

نكتة التعبير بالاسم العلم موسى:

التَّصريح بالعلميَّة لإزالة الإلباس، وتخصيص المُلقي من دون النّاس

جاء التعبير باسم موسى عليه السلام العلم في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾؛ لنفي اللُّبْسِ؛ فالسَّحرة ختموا كلامهم قبل أن يلقي موسى عليه السلام عصاه بذكر فرعون وعزَّته، فجاء التَّصريح باسم موسى عليه السلام؛

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 138.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 650.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 73.

لإفادة أنَّه هو من ألقى العصا وليس غيره، وإنَّما قُدِّم إضمار اسم موسى ﵇ في الإلقاء الأوَّل؛ لأنَّ الكلام كان معه، فلم يكن إلباس في أنَّه ﵇ هو الفاعل[1].

دلالة إضافة العصا إلى ضمير الغائب:

جاء لفظ العصا مضافًا إلى ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾؛ لإفادة أنَّ العصا التي ألقاها موسى ﵇ هي العصا المعهودة لسامع القصَّة؛ لتقدُّم ذِكرها في آيات سورة طه، ومِن قبلها الأعراف، والمعهودة كذلك لشهود الواقعة الذين رأوا العصا بيد موسى ﵇ يتوكَّأ عليها في ذهابه وإيابه، وأنَّها هي هي لم تتبدَّل ولم تتغيَّر، فلم يُنزِل الله تعالى على موسى ﵇ عصًا من السَّماء، بل جعل الآية في عصاه التي يعرفها هو، ويعرفها كذلك مَن كانوا حوله، فهذا آكَد في إثبات الآية؛ ولذا جاء التَّعبير معها بالفعل الماضي ليفيد ثبوت حالتها.

العصا هي المعهودة للسّامعين، والمعروفة للشّاهدين

معنى الفاء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا﴾:

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ عاطفةً تفيد التعقيب وسرعة المفاجأة؛ فحين ألقى موسى ﵇ عصاه تسبَّب عن إلقائه إيّاها أنَّها بعد أن صارت حيَّة، أخذت تبتلع كلَّ ما صنعوا من التَّخييلات والتَّمويهات بمجرَّد إلقائها في الحال بسرعة ونَهَمَة[2].

تعقيبُ ما بعدها على ما قبلها؛ لبيان سرعة تحوُّل العصا وانقلابها

نكتة التَّعبير بـ(إذا) الفجائيَّة في السياق:

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ للمفاجأة، وهي حدوث الحادث عن غير ترقُّب؛ أي أنَّ موسى ﵇ حين ألقى عصاه صارت ثعبانًا عظيمًا يبتلع كلَّ ما ألقَوْه بسُرعة ونَهَمَةٍ، وهذا ما لم يكن في حسبانهم، أو ما لم يتوقَّعوه.

الدَّلالة على وقوع الحدث من غير ترقُّب، والمفاجأة دون تحسُّب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49، والدُّرَّة، تفسير القرآن وبيانه: 6/ 569.

إفادة التَّعيين والتَّأكيد، ونفي توهُّم غير ما أُريد

علةُ التَّعبير بالضَّمير المنفصل: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾:

عُبِّر بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ للتَّعيين والتَّوكيد، ونفي توهُّم غير المراد؛ أي أنَّ الذي تلقَّف ما خيَّله السَّحرةُ وزوَّروه لم يكن سيلًا، ولا خَسْفًا، ولا طيرًا أبابيل، ولا جِنًّا زهاليل، لم تكن إلّا عصا موسى عليه السلام التي ألقاها فقلبها اللّه تعالى بقدرته ثعبانًا مبينًا، عظيمًا متينًا.

التَّعبير بالمضارع لأجل الاستحضار، والدَّلالة على الاستمرار

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَلْقَفُ﴾ بعد الماضي: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾:

أفاد التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿تَلْقَفُ﴾ - بخروجه عن مقتضى الظّاهر في التَّعبير بالماضي - أفاد الدَّلالة على التَّجديد والتَّكرير، مع استحضار الصّورة العجيبة[1]، فكأنَّها تحدث الآن، نراها وهي تتحرَّك هنا وهناك، وتلقَف كلَّ ما تلقَى ممّا موَّه السّاحر وألقى، وإذا جدَّدوا سِحرًا وإيهاما جدَّدت تلقُّفًا وإعدامًا، وتسمية سحرهم إفكًا دليل على أن السحر لا معمول له، وأنه مجرد تخييلات وتمويهات.

التَّشديد يفيد التكلُّف والمبالغة، وليس كذا في التَّخفيف

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في قوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ﴾:

قرأ حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ بإسكان اللّام وتخفيف القاف، وقرأ البزِّيُّ - بخُلْفه - بتشديد التّاء قبل اللّام في حال الوصل على أصله: ﴿تَّلَقَّفُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿تَلَقَّفُ﴾ بفتح اللّام وتشديد القاف[2]، وأصله (تتلقَّف)، أي تبالغ وتتكلَّف اللَّقف ما استطاعت[3]؛ إذ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة في المعنى، وليس هذا التعبير والتصوير في قراءة التَّخفيف.

حذف المعلوم جائزٌ صحيح، وهو بليغ فصيح

بلاغة الإيجاز بحذف ما تحوَّلت إليه العصا:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 78.

(2) أبو علي الفارسي، الحجة: 5/ 357، وابن الجزري، النشر: 2/ 271، والبنا، الإتحاف، ص: 421.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49.

﴿يَأۡفِكُونَ﴾ حذفٌ دلَّ السِّياقُ فيه على جملة محذوفة؛ إذ التَّقدير: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ فدبَّتْ فيها الحياةُ، وانقلبتْ ثعبانًا مبينًا أو حيَّة عظيمة تسعى بخفَّة وسرعة نحو ما ألقاه السَّحرة مِن الحبال والعصيِّ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾، وقد دَلَّ عليها التَّلَقُّفُ، وآثرَ السياقُ الاكتفاء به؛ لأنَّه من شأن الحيوان، والعصا إذا دبَّتْ فيها الحياةُ صارتْ ثعبانًا بدون تبديلِ شَكلٍ[1].

نكتةُ إفرادِ ما ألقاه موسى في مقابلة جمع ما ألقاه السَّحَرة:

مقابلةُ الجمع بالإفراد دليلٌ على عظم الآية، وصدق الدِّعاية

في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ تعبير بصيغة الجمع مضافًا إلى ضمير الغائب، أي: ألقى كلُّ واحد من السَّحرة المُجتَلبين حبله أو عصاه، أو ألقى أصحاب الحبال حبالهم، وألقى أصحاب العِصيِّ عِصيَّهم، وهذا الجمع للدَّلالة على التَّكثير، ثمَّ قابَل جماعةَ ما ألقَوْه بمفرد ما ألقى نبيُّ اللهِ الكريم بقوله: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾؛ لأنَّ ذلك أدلُّ على المعجزة[2]، حيث هَزمَتْ عصاهُ المفردةُ جيشَ حبالِهم وعِصيِّهم دون أن تترك منها شيئًا، وهكذا في لمحة خاطفة، يتبدَّد هذا السَّراب، وتختفي أشباح هذا الضَّلال، فإنَّ ذلك كلَّه باطل لا يقوم للحقِّ ولا يقاومه[3].

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾:

موصولة، أو موصوفة، أو مصدريَّة

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ يحتمل أن تكون موصولةً والعائد محذوف، أو مصدريَّة، أو موصوفة، ولكلٍّ من الثلاثة المعاني تأويل[4].

فعلى التَّأويل بالموصوليَّة يكون المعنى: تَلۡقَفُ الذي يَأۡفِكونَه، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 10/ 87.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 78، والدُّرَّة، تفسير القرآن وبيانه: 6/ 569.

أفاعيُّهم المتخيَّلة، التي سحروا بها أعين النّاس واسترهبوهم، فقد التهمتها العصا المنقلبة ثعبانًا وأعدمتها فلم تُبقِ منها شيئًا.

وعلى التَّأويل بالمصدريَّة فإنَّها تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلِّ نصب مفعول به، والتقدير: (تلقف إفكَهم)؛ تسميةً للمأفوكِ به مبالغةً، أي: التهمت العِصيَّ والحبال، والتهمت معها الزَّيف والخداع والتَّزوير والضَّلال، فلم تُبقِ إلّا الحقَّ في جلائه، وأَخرجَتْ كلَّ ساحر من عَمائِه! "وتسميةُ سِحْرِهم إفكًا دليلٌ على أنَّ السِّحرَ لا معمولَ له، وأنَّه مجرَّدُ تخييلاتٍ وتمويهاتٍ"(1).

وعلى التَّأويل بالموصوفية يكون المعنى: تلقف شيئًا عظيمًا يَأْفِكونَه، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ [الأعراف: 116 - 117]؛ أي: تلقف هذا السِّحر العظيم الذي جاؤوا به.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَأۡفِكُونَ﴾ مادَّة وصيغَةً:

الإفــك صــرفٌ وقلـبٌ وتغييرٌ، والمضارع للدّلالة عـلى الـتَّـجـدُّد والتَّكرير

الأصل في الإفك أنَّه قلب الشَّيء وصرفه عن وجهه الذي يحقُّ أن يكون عليه، فيتغيَّر حاله(2)، ويسمَّى الزّورُ إفكًا، والكذبُ المصنوع إفكًا؛ لأنَّ فيه صرفًا عن الحقِّ وإخفاءً للواقع، فلا يسمَّى إفكًا إلّا الكذب المصطنع المموَّه، وإنَّما جُعل السِّحر إفكًا؛ لأنَّ ما يظهر منه مخالفٌ للواقع فشُبِّهَ بالخبر الكاذب(3).

والتَّعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار مع استحضار الصّورة؛ "أي: فإذا هي يتجدَّد تلقُّفُها لما يتجدَّد ويتكرَّرُ من إفكهم"(4).

وأَلمحتْ صيغة المضارع أنَّ العصا بعد انقلابها ثعبانًا قد التهمت - فوق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (أفك).

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 381، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 569.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49.

الحبال والعِصيِّ - انبهارَ النّاس بهذه الحبال والعصيِّ بعد أن سُحِرَت بها أعينُهم، وكان السَّحرة إذ ذاك يحاولون - بتمويهاتهم - المحافظةَ على جذوة السِّحر هذه متَّقدةً، فتارة ينفخون، وتارة يوارون، وتارة يزوِّرون.

أي أنَّهم لم يكتفوا بالإلقاء، بل حاولوا جهدهم لإضفاء الحياة على ما ألقَوْا من جمادات، فبَنَوْا صرحًا من زور، فانهال على رؤوس بانيه بضربة واحدة من ضربات الحقِّ وعزماته.

ولموافقة المضارع في ﴿تَلْقَفُ﴾ جيء بأخيه الصّيغي والزماني في ﴿يَأْفِكُونَ﴾؛ لتكتمل الصّورة بأبعادها النّابضة حياةً وحركة، فكأنَّنا نرى الآن حركة العصا بالحياة الحقيقيَّة، وحركة الحبال والعِصيِّ بالخداعات التَّخييليَّة.

نكتة حذف متعلّق الفعل ﴿يَأْفِكُونَ﴾:

الحذف للعلم بالمحذوف، ومراعاة الفاصلة

في قوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ حُذف متعلَّق الفعل ﴿يَأْفِكُونَ﴾، وهو عائد الصِّلة - على تأويل ﴿مَا﴾ بالموصوليَّة - وهو ضمير منصوب محلًّا؛ لأنَّه مفعول به، والتَّقدير: (ما يأفكونه)[1]، وحُذف للعلم به، وقد حسَّن الحذفَ هنا وقوعُه في فاصلة الآية[2].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأُلْقِيَ﴾:

التَّرتيبُ والتَّعقيب، وفيها كذلك معنى التَّسبيب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ عاطفة تفيد التَّرتيب والتَّعقيب والسُّرعة، وفيها معنى السَّببيَّة[3]؛ يعني أنَّ السحرة لمّا رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رمَوْا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنَّهم أُخِذوا فطُرِحوا طرحًا، فلم يتمهَّلوا أو يتردَّدوا؛ لعلمهم بأنَّ مثل ما صنع موسى عليه السلام لا يتأتَّى بالسِّحر، فأدَّى ذلك إلى أن طُرِحوا على وجوههم[4].

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 188.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 78.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 188.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، وثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 67.

غرضُ بناء الفعل ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

العِلم بمُلهِم الإلقاء، وإبرازُ الفعل لإظهار المفارقة بين حالَيْ السَّحّارين

جاء فعل الإلقاء في قوله: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعله؛ للعلم بفاعل الإلقاء ومُلهمه، وهو الله سبحانه بما خوَّلهم من التَّوفيق بمعاينة المعجزات الباهرة التي جعلتهم يسجدون ذلًّا وتعظيمًا[1].

ودلَّت الصِّيغة على أنَّه كأنَّ مُلقيًا ألقاهم بغير اختيارهم مِن قوَّة إسراعِهم، علمًا منهم بأنَّ هذا مِن عند الله.

فالتَّركيز كان على حدث الإلقاء نفسه لإبراز المفارقة العجيبة بين إلقائهم حبالَهم وعِصيَّهم قبل قليل، وبين خرورهم سجَّدًا للربِّ العليِّ الجليل، فقد أمسَوا أتقياءَ بَرَرَة، بعدما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سَحَرة[2].

بلاغة المشاكلة في إطلاق الإلقاء على الخُرور:

التَّعبير بالإلقاء للمشاكَلَة، وإظهار المفارقة

إطلاق الإلقاء على الخُرور في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ جاء بطريق المشاكلة، وهو مراعاة لفظ الإلقاء الذي جاء في فعل موسى عند مواجهة السحرة من قوله سبحانه: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾؛ فالشَّيء الملقَى يقع على الأرض، فكأنَّ وقوعَ العصا على الأرض وظهورَ الحقِّ جاءا مقترنَيْن متزامنَيْن، وفي هذا التعبير تصوير وبيان لسرعة انقياد السحرة العُتُلِ لدعوة الحقِّ التي جاء بها موسى عليه السلام، فكأنَّهم أُخِذوا فطُرِحوا طرحًا[3].

دلالة التَّعبير بالحال: ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

الدَّلالة على الإفراط في الخضوع للواحد القهّار، فالسُّجود نهاية الذُّلِّ والانكسار

جاء التَّعبير بالحال في قوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ للدَّلالة على الإفراط في الخضوع والتَّعظيم لهذا الإله العظيم الذي عرفوه

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 78، والدُّرَّة، تفسير القرآن وبيانه: 6/ 569.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 78، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 73، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.

حينئذ بظهور معجزة موسى ، فخرّوا على وجوههم سجَّدًا للّه قبل أن يعلنوا إسلامهم وإيمانهم، وبعد أن خرّوا أعلنوا إيمانهم، والأصل أن يعلنوا إيمانهم أوَّلًا، ثمَّ يخرّوا سجَّدًا للّه، ولكنَّهم فعلوا العكس من شدَّة دهشتهم وتأثُّرهم بما حدث، إذ وصل نور الإيمان إلى قلوبهم قبل أن يصل إلى ألسنتهم[1]».

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾:

بيان سرعة خضوعهم لربِّ البريَّة

في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ استعارة مكنيَّة، فكأنَّ السحرة أُخِذوا فطُرِحوا على وجوههم، وقد زاد هذه الاستعارة جمالًا المشاكلةُ؛ ذلك أنَّه عُبِّر بالإلقاء عن الخُرور، فلم يقل: فخرّوا ساجدين؛ وذلك لمشاكلة الإلقاءات المتقدِّمة[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ من الآية:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ للعهد الذِّكريِّ، فالمعنى في: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: الذين كان يُقال لهم سَحَرة، وذُكِروا بهذا الاسم؛ ليدلَّ على أنَّهم المذكورون قبلُ[3].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عن سابقه:

كمالُ الاتِّصال، لكونه بدلَ اشتمال، أو استئنافَ بيان

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عن سابقه لما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ ذلك أنَّ جملة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ فالهويُّ للسُّجود اشتمل على ذلك القول ودلَّ عليه، وهم قصدوا مِن قولهم ذلك الإعلان بإيمانهم باللّه؛ لئلّا يظنَّ النّاس أنَّهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السُّجودَ لِفراعِنَتِهم، ولذلك وصَفَ السَّحرةُ اللّهَ تعالى بأنَّه ربُّ العالمين؛ بالعنوان الذي دعا به موسى [4].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/ 104.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 78، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 73، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(3) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 123.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 53، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74.

ويَحْتَمِل أن يكون استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: فما قالوا عند سجودهم؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1].

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الإلصاق المجازيُّ لاتِّصال إيمانهم بكلِّ متعلِّق بالله العليِّ

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وهذا الأخير هو المراد هنا، فالباء في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للإلصاق المجازيِّ، فكأنَّهم ألصقوا إيمانهم بكلِّ ما يتعلَّق بالله العليِّ العظيم من ألوهيَّة وربوبيَّة، وفي هذا الإلصاق إلماح إلى دوام الإيمان وعدم انقطاعه أو انفصاله.

نكتة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

إثبات استحقاق ربِّ العالمين لها، وإبطال لما ادَّعاه فرعون اللَّعين

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وصفٌ للّه تعالى بأنَّه ربُّ العالمين، وهو العنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، وناظر به فرعون، وقد تقدَّم في أوَّل السّورة عند قوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء: 23]، وقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ [الشعراء: 24]، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ [الشعراء: 26]، وقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ [الشعراء: 28].

فلمّا تقدَّم ذلك ناسب أن يُذكَر هنا، وفيه دلالة على أنَّ ما يدعو إليه نبيُّ اللّه موسى عليه السلام قد انتشر على ألسنة النّاس كسبب مِن الأسباب الدّاعية لحضور النّاس؛ للمناظرة بين مَن يدَّعي الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، وبين مَن يدعو إلى عبادة ربِّ العالمين.

والتَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة كان موطِّئًا لذِكرِ كلمة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لتعمَّ كلَّ عالَم مخلوق، وكلَّ نفس منفوسة، ومنها هذه النَّفس الخبيثة الظّالمة الطّاغية نفس فرعون، التي ادَّعت لنفسها ما لم يجرؤ إبليس أن يدَّعيه لنفسه!

---

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 12، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 79.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

"وقد عُلِم بذلك أنَّهم كفروا بإلهيَّة فرعون"[1]، وهي دعوة أيضًا للنّاس أن يؤمنوا كما آمن السَّحَرة.

علّة فصل قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

فُصِل قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عن سابقه لوقوعه منه موقع البدل، أو عطف البيان[2]، فبينهما كمال اتِّصال، وهو من المواضع الموجبة للفصل.

فائدة البدليَّة في ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

زيادة بيان المقصود، وتعيين الرَّبِّ المعبود

وقوع قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ موقع البدل مِن قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاء لزيادة بيان مقصود السَّحَرة من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لتعيين مرادهم من الإيمان، وللإيماء إلى عزل فرعون عن الرُّبوبيَّة تبكيتًا له، فإنَّه ليس بربٍّ، وإنَّ الرَّبَّ في الحقيقة هو هذا الذي دعا إليه موسى وهارون عليهما السلام، فهو المستحقُّ للرُّبوبيَّة بكونه سبحانه ربًّا للعالمين، لئلّا يظنَّ النّاس أنَّهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السُّجودَ لِفَراعِنَتِهم، ولذلك وصَف السَّحرةُ اللّهَ تعالى بأنَّه ربُّ العالمين؛ بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام[3]، ولو وقفوا على قولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، دون تأكيد ربوبيته بأنه ربُّ النَّبيَّيْنِ المبعوثَيْنِ فيهم؛ لقال فرعون: أنا ربُّ العالمين، فإيّاي عَنَوا، فزادوا التقريرَ بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فارتفع الاشكال، ودُفِع توهُّم غير المراد[4].

دلالة إضافة الرَّسولَيْنِ إلى لفظ الرُّبوبيَّة:

أخصَرُ طريق للتَّعريف بالحقِّ وأوضَحُه، وأبيَنُ سبيل للإيمان وأصرَحُه

تعيَّن في تعريف البدل في قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ طريقُ

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 73، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 53، والقنوجي، فتح البيان: 9/ 378، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 62، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74.
(4) البروسوي، روح البيان: 6/ 274.

تعريف الإضافة؛ لأنَّها أخصرُ طريق وأوضحه هنا، لا سيَّما إذا لم يكونوا يعرفون اسمًا علمًا على الذّات العَليَّة[1]، فأقرّوا بأنَّهم إنَّما آمنوا بهذا الرَّبِّ الذي يدعو إليه هذان الرَّسولان موسى وهارون عليهما السلام، والذي أجرى على أيديهما ما أجرى ممّا لا يَقْدِر على أمثاله بشر[2]، وقد جيء بهذه الإضافة المعرِّفة لدفع توهُّم إرادة فرعون؛ إذ كان قومُه الجهلة يسمّونه بذلك، وللإشعار بأنَّ الموجِب لإيمان هؤلاء السحرة به تعالى ما أجراه سبحانه على أيدي هذين الرسولين الكريمين مِن المعجزة القاهرة.

وتأكيد السحرة لمعنى كونه تعالى ربَّهما أنَّه ﷻ خالِقُهما ومالكُ أمرهما[3]؛ فقد نصرهما علينا ونحن أرباب الصِّناعة، فليس ثَمَّ مَن هو أعلم منّا بالسِّحر، وأنت يا فرعون لم تنصرنا، بل رُمتَ أن تستنصر بنا، وأعلنتَ اتِّباعَك لنا إن نحن غَلَبْنا، فكيف تدَّعي الرُّبوبيَّة؟!.

نكتة عطف ﴿وَهَٰرُونَ﴾ على ﴿مُوسَىٰ﴾:

الجمعُ بين الرَّسولين الكريمَيْن؛ إذ هما القائمان بالدَّعوة إلى التَّوحيد والإيمان

عُطِف هارون على موسى في قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لأنَّهما هما القائمان بالدَّعوة إلى اللّه وتوحيده في تلك الحال[4]، فهما اللذان أحسَنا إلينا بالتَّنبيه على الإيمان باللّه ربِّ العالمين، والهداية إليه، وصدَّقهما بما أجرى على أيديهما من الآيات الباهرة[5]، ولكون موسى طلب إلى ربه أن يرسل معه أخاه هارون وزيرًا ونصيرًا له، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾ [طه: 29]، وأخوه هارون كذلك هو أفصح منه نطقًا، فأرسله اللّه تعالى عونًا يصدقِّه في دعوته، ويبين لأهل مصر ما يخاطبهم موسى به، ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 53.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 79.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 116.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 34.

﴿لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص: 34]، فعُرف واشتهر ﷺ بأوصاف النُّصرة والمؤازرة وفصيح المقال والبيان بين هاتيك البقاع.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

دلالة دخول الفاء على لفظ ﴿فَأُلۡقِيَ﴾:

ذكر فعل الإلقاء مسبوقًا بالواو في الأعراف: ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ [الأعراف: 120]، دون الموضعين الآخرين - في طه والشعراء - حيث ذُكر بالفاء: ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ [طه: 70]، ووَجْهُه أنَّه لمّا تقدَّم في الأعراف ذِكرُ فاء التَّرتيب والتَّعقيب مع قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 118 - 119]؛ لترتيب وقوع الحقِّ وغَلَبةِ السَّحَرة وانقلابهم صاغرين على إلقاء نبيِّ اللّه موسى ﷺ عصاه، ولَقْفِها حبالَ السَّحَرة وعصيَّهم - ناسب أن يُعطف عليه بالواو قوله تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: 120]؛ لتقدُّم العطف بالفاء فيما قبله.

ولمّا لم يكن ذلك في الشعراء ولا في طه فقد ناسب أن تباشر الفاء فعل الإلقاء، حيث ورد في الشعراء قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فقد رتَّب الخُرورَ هنا على الإلقاء، فعُطِف عليه بالفاء، وكذا الأمر في سورة طه، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 69 - 70]، فعطف الخرور على الإلقاء بالفاء كذلك.

دلالة الصيغة الصرفية في لفظ ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

ورد لفظ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في الأعراف والشُّعراء، و﴿سُجَّدٗا﴾ [طه: 70] في طه، ووجهه أنّ الصِّفة (اسم الفاعل) ألصقُ بالفعل من جمع التَّكسير، ولا سيَّما إذا جُمِعت جَمع سلامة؛ ذلك أنَّ الصِّفة تشابه الفعلَ من وجوه:

أحدها: افتقارها إلى تقدُّم موصوف قبلها، كافتقار الفعل إلى الفاعل.

والثّاني: أنَّ الصِّفة مشتقَّة من المصدر، كما أنَّ الفعل كذلك.

والثالث: أنَّ قياس الصِّفة ألّا تُجمَع جمع تكسير، كما أنَّ الأفعال لا تُجمَع[1].

فنخلص مِن ذلك إلى أنَّ الصِّفة المجموعة جمع سلامة ألصق بفعلها من جمع التَّكسير، فإنَّ الفعلَيْن (يقومون)، و(يضربون) أشبهُ بالصِّفتين (قائمون)، و(ضاربون)، وجرى جمعُ السَّلامة في الصِّفة مجرى جمع الضَّمير في الفعل؛ لأنَّه يكون على سلامة الفعل، فكلُّ ما كان أقربَ إلى الفعل، كان من جمع التَّكسير أبعدَ، وكان البابُ فيه أن يُجمع جمعَ السَّلامة، من حيثُ سلامةُ الواحد في كلِّ واحد منهما، وأنَّ الواو للجمع والتَّذكير كما كانت في الفعل كذلك، وقد تُكسَّر الصِّفة على ضعف لغلبة الاسميَّة[2].

ممّا سبق يتبيَّن أنَّ قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فيه معنى الفعل المضارع من حيث تجدُّده وحدوثُه، فكأنَّه قيل: (يسجدون) استحضارًا للصّورة، وأنَّه ما إنْ لامَسَت جباهُ فريق منهم الأرض حتَّى أعقبتْها جباهُ فريق آخر، كأنَّهم موجٌ هادِرٌ متدفِّق تَطامَنوا جميعًا في خضوع ذليل، وخشوع جليل.

أمّا جمع التَّكسير فإنَّه يدلُّ على أصل الصِّفة دون تعلُّق بزمن، لبُعد ذلك عن الفعل، فقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: 70] لا يدلُّ على ما دلَّت عليه لفظة ﴿سَٰجِدِينَ﴾ مِن تجدُّد وحدوث، بل دلَّت على أصل صفة السُّجود.

فرادة النظم في استعمال لفظ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ صيغة في السياق:

إنَّ سياق القصَّة في الأعراف والشُّعراء ذُكر فيه إرسال الحاشرين إلى المدائن لجمع كلِّ ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]، و﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾ [الشعراء: 37]، فالوصف بالعلم في الموضعين مع اختصاص موضع الشُّعراء بالمبالغة يدلُّ على أنَّ الحشر كان اصطفائيًّا وانتقائيًّا لأولي الحِذْقِ والمهارة والعلم بالسِّحر دون غيرهم، وذلك لتقدُّم ذِكر إلقاء نبيِّ اللّه موسى عليه السلام عصاه وانقلابِها ثعبانًا مبينًا، وإخراج يده بيضاء للنّاظرين جميعًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 107 - 108] [الشعراء: 32 - 33] في الموضعين، فزَعَمُ فرعونَ أنَّ ما جاء به موسى عليه السلام سحرٌ عظيمٌ، لا يَفُلُّه إلّا سحرٌ مثله؛ فلذلك اشترط المهارة والحِذْق والعلم.

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 250.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 250.

وهذا الذي تقدَّم لم يُذكر في سورة طه، بل إنَّ ما ورد فيها هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [طه: 56 - 58]، فلم يُذكر فيها إلقاء العصا، ولا إخراج اليد.

كما أنَّه في الموضعين من سورة الأعراف والشُّعراء قد وُصِف ما اخۡتَلَقَهُ السَّحرةُ بالإفك معبَّرًا عنه بصيغة المضارع: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾، أمّا في سورة طه فقد وُصِف ذلك بالصُّنع معبَّرًا عنه بصيغة الماضي: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: 69].

فلمّا كان ذلك كذلك ناسب أن يُعبَّر في الموضع الذي ذُكر فيه حشد الحُذّاق من السَّحَرة لشهود المناظرة، والذي أقسموا فيه بعزَّة فرعون أنَّهم هم الغالبون، والذي عُبِّر فيه بالمضارع ﴿يَأۡفِكُونَ﴾، ناسب أن يُعَبَّر فيه بأقرب اللَّفظين للفعل، وهو ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ للدَّلالة على حدوث السُّجود وتكرُّره إظهارًا للمفارقة بين حال حُذّاق السَّحرة الذين اجتمعوا مُقۡسِمين بعزَّة فرعون أنَّهم هم الغالبون نبيَّ اللّه موسى عليه السلام، وبين صورتهم وهم يسجدون فريقًا بعد فريق.

وناسب أيضًا أن يعبَّر في الموضع الذي لم يذكر فيه إرسال الحاشرين لحشد السَّحرة، بل ذُكر فيه أمرُ السَّحَرة بأن يتَّحدوا ولا يفترقوا، وأن يَحضروا متظاهرين متساعدين متناصرين متَّفِقًا رأيهم وكلمتُهم، وأن يُظهِروا ما عندهم دُفعة واحدة - ناسب فيه أن يُعبَّر بما هو ألصق بالصِّفة منه بالفعل، وهو قوله تعالى: ﴿سُجَّدٗا﴾ [طه: 70]؛ ليقابِل تظاهرَهم واتِّحاد كلمتهم.

فالحاصل أنَّ موضع القصَّة من الأعراف والشُّعراء صوِّر فيه حَدَثُ سجودِهم، وموضعها من سورة طه صوِّر فيه ما انتهوا إليه، مع ما في كلِّ موضع من الرِّعاية على الفاصلة.

سرُّ تقديم ذِكر موسى على هارون عليهما السلام:

حيث تقّدم ذكر موسى عليه السلام في الأعراف والشُّعراء، وتأخر ذكره عنه في سورة طه، فإنَّه لمّا لم يتقدَّم في الأعراف ذِكرٌ لهارون عليه السلام بل افتُتِحت القصَّة في هذا الموضع بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: 103]،

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [الأعراف: 104] ناسب أن يقدَّم موسى على هارون عليهما السلام؛ جريًا على الظّاهر في تقديم صاحب الدَّعوة والرِّسالة.

وكذا الأمر في سورة الشُّعراء، إلّا أنَّه قد ذُكِر هارون عليه السلام في قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ [الشعراء: 13]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعراء: 15 - 16]، لكنَّ المناظرة - كما في هذه السورة - كانت مع موسى عليه السلام وحده، وذُكِر فيها ما حدث له دون أخيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١﴾ [الشعراء: 18 - 21]، فلمّا كان ذلك كذلك ناسب أيضًا أن يُقدَّم موسى على هارون عليهما السلام.

أمّا في سورة طه فقد تقدَّم كذلك ذِكر هارون عليه السلام في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥﴾ [طه: 29 - 35].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 42 - 47]، غير أنَّ المناظرة - كما في هذه السّورة - كانت مع موسى وهارون عليهما السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ [طه: 48]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: 49]، بل ورمي هارون عليه السلام كذلك بالسِّحر في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63]، على خلافِ مَوْضِعَيِ الأعراف والشُّعراء بإلصاق تُهمة السحر بموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109] [الشعراء: 34]، مع ما جاء في الشُّعراء من إفراد لفظ الرَّسول: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعراء: 16]، وتثنيته في طه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47].

فلمّا كان ذلك كلّه كذلك، وكان ذِكر هارون عليه السلام في هذه السّورة أكثر من أختَيْها ناسب

- هنا - أن يقدَّم ذِكره على موسى عليه السلام، ولا سيَّما أنَّه رُمي أوَّلًا بالسِّحر مع أخيه موسى عليه السلام، برغم أنَّه لم يزاول إلقاء العصا ولا إخراج اليد.

فكان تقديمه في الذِّكر مناسبًا لتأكيد صِدق إيمان السَّحَرة أنَّهم قدَّموا في الذِّكر مَن لم يتحدَّهم، ولم يزاول إلقاء العصا ولا إخراج اليد؛ تنبيهًا بطريق الأَولى، أي: أنَّهم أكثرُ إيمانًا ويقينًا بمَن تحدّاهم وألقى عصاه، فلقِفَت ما كادوا وما صنعوا من السِّحر.

وهذا ما يؤكِّده - بعدُ - ردُّهم على وعيد فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل وبالتَّصليب في جذوع النَّخل، وذلك إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 72 - 73].

وفيه مع ما سبق تفصيله رعايةُ الفاصلة، التي جاءت في كلِّ موضع بما يناسبه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّلقُّف والأخذ:

التلقُّف أخصُّ من الأخذ، وسرعةُ الأخذ ملازِمةٌ للتلقُّف

المعنى المحوريُّ لجذر التلقُّف: الأخذ بخفَّة وسرعة وخطف[2]؛ يقال: لقِفَ الشيءَ وتلقَّفه، أي: تناوله بسرعة وحِذْق، سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد[3]، اللَّقْف: سرعةُ أخذِ ما يُرمَى إليك باليدِ أو اللسان[4]، واللَّقْف: مصدر لقِفت الشيءَ ألقَفُه لَقْفًا، إذا أخذتَه فابتلعتَه بسرعة[5]، والتلقُّف: الابتلاع بسرعة[6].

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 664، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 187، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 356.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقف).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (لقف).
(4) ابن منظور، اللسان: (لقف).
(5) الأزهري، التهذيب: (لقف).
(6) ابن سيده، المحكم: (لقف).

والأخذ: حَوْزُ الشيء وتحصيلُه[1]، وهذا ما يدور حوله المعنى المحوريّ لجذره[2]، يقال: أخذَ الشيء، أي: تناولَه[3]، ودلَّ مما سبق على أنَّ اللَّقفَ والتلقُّف أخصُّ من الأخذ؛ لأنَّ اللَّقْفَ يلازمه معنى الأخذ بسرعة، وهذه السُّرعة هي قيدٌ جعلَته أخصَّ من الأخذ الذي يشمل ما كان بسرعة وما كان بغيرها، ولمّا كان ذلك، فإنَّ مَن قال: "أخذت الطَّعام" وأراد بذلك أنَّه قد أكله، لا يُفهَم من قولِه أنَّه ابتلعَ الطعامَ بسرعةٍ ونَهَم، وإنَّما يُفهَم هذا إذا قال: "لقِفتُ الطَّعام" أو "تلقَّفت الطعام".

لذا أوثِر لفظُ اللَّقْف في قول الله سبحانه تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: تَبتلع في الحال بسرعة[4].

الإفك والكذب والزّور:

الإفك كذبٌ شديد بصرف الشَّيء عن وجهه، والزّورُ كذبٌ بالمَيلِ عن الحقّ

الإفك: أشدُّ الكذب[5]، وأصله من قَلْبِ الشَّيء وصَرفِه عن جهته[6]؛ فالإفكُ: صرف الشيء عن وجهه الذي يحقُّ أن يكون عليه[7].

وقيل للكذب: إِفْكٌ؛ لأنَّه مقلوبٌ عن وجهه[8]، ولأنَّ فيه صرفًا عن الحق[9].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30]؛ أي: يُصرَفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).
(3) الجوهري، الصحاح: (أخذ).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك)، وينظر: العسكري، الفروق اللغوية، ص: 46.
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 9/ 283.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 49.
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك)، وينظر: العسكري، الفروق اللغوية، ص: 46.

وتُسمَّى الرياح المُؤْتَفِكاتِ؛ لأنّها تَقلِبُ الأرض فتصرفها عما عُهِدَتْ عليه، أو لأنّها مصروفة عن مهابِّها، وسُمِّيت ديار قوم لوط المؤتفِكات: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]؛ لأنَّ اللّه ﷻ قلبَها على قوم لوط، عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

ويُفَرَّق بين الكذب والإفك بأنَّ الكذب يكون فاحشَ القُبْحِ وقد لا يكون فاحش القبح، أمّا الإفك فهو كذبٌ فاحشُ القُبْحِ مثل الكذب على اللّه ﷻ ورسوله ﷺ، ومثل قذف المحصنة، وغير ذلك ممّا يَفحش قُبْحُه، وقد جاء في القرآن على هذا الوجه، قال اللّه ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ [الجاثية: 7]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11]، ويقال للرَّجُل إذا أخبر عن كون زيد في الدّار وزيد في السّوق: إنَّه كذب، ولا يقال إفك حتّى يكذب كذبة يفحش قبحها[2].

أمّا الزّور فجذره يدلُّ على المَيل والعُدول؛ يقال: ازورَّ عن كذا، أي: مال عنه[3]، وعنق أَزْوَر، أي: مائل[4]، وبئر زَوراء: مائلة الحفر[5]، قال اللّه ﷻ: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: 17]، أي: تميل عنه[6].

ومن ذلك الأصل الزّور؛ لأنَّه مائلٌ عن طريقة الحقّ[7]، فقيل للكذب: زورٌ؛ لِمَيله عن وجه الصَّواب[8].

وأصل الزّورِ تحسين الشَّيء، ووصفه بخلاف صفته، حتّى يُخيَّل إلى مَن يسمعه أو يراه أنَّه خلافُ ما هو به، والشِّرك قد يدخل في ذلك؛ لأنَّه محسَّنٌ لأهله، حتى قد ظنّوا أنَّه حقٌّ وهو باطل، ويدخل فيه الغناء؛ لأنَّه أيضًا مما يحسِّنه ترجيع الصوت، حتّى يستحلي سامعُه سماعَه، والكذب أيضًا يدخل فيه؛ لِتحسين صاحبه إيّاه، حتى يُحسَب أنّه صِدق، فكلُّ ذلك ممّا يدخل في معنى الزور[9].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (أفك)، وينظر: العسكري، الفروق اللغوية، ص: 46.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 450.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).
(4) ابن منظور، اللسان: (زور).
(5) الراغب، المفردات: (زور).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 157، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زور).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 523، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الباطل دائمًا أمام الحقِّ ضعيف، وآلته التَّزييف والتَّخويف

لَمّا رأى السَّحرة قبح ما كانوا عليه من الكفر والتَّضليل؛ خرّوا سجَّدًا للعليِّ الجليل؛ فأسرع فرعونُ إلى اتِّهامهم بالتَّواطؤ والتَّخذيل، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع التَّعذيب والتَّقتيل؛ لينفِّر النّاس عنهم ويصدَّهم عن سواء السَّبيل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَنَ﴾: أصل (أذن) يدلُّ على العلم[2]، أذِن للشَّيء آذَن له أَذَنًا: استمع له، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾ [الانشقاق: 2][3]، والأُذن: الجارحة، جمعها آذان[4]، ويستعمل كذلك في العلم الذي يُتَوصَّل إليه بالسَّماع، يقال: آذَنْتُه بكذا أوذنه إيذانًا، إذا أعلمه؛ وقد أذِن به يأذَن إذا علِم، نحو قوله تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279][5].

والأذان: الإعلام، وأذان الصلاة: إعلام بها وبوقتها، والمؤذِّن: كلُّ من يُعلِم بشيء نداءً[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504، وابن عادل، اللُّباب: 15/ 26، 27، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 34، 35، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 12، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 116، وصديق حسن خان، فتح البيان: 9/ 378.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (أذن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (أذن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (أذن).

والإذن في الشَّيء: الإعلام بإجازته والرُّخصة فيه، والإعلام برفع الحَرَج في فعله، يقال أَذِنْتُ لفلان في أمر كذا وكذا آذَن له إذنًا[1]، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: قبل أن آمركم به، وآذن لكم فيه[2].

2) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾: أصل (قطع) يدلُّ على صَرْم وإبانة شيء من شيء[3]، وقَطَعْتُ الشَّيء أقطعه قَطْعًا وقَطيعَة وقُطوعًا[4]، والقَطْع: فصلُ الشَّيء مُدْرَكًا بالبصر، وإبانة بعض الأجزاء من بعض كالأجسام، أو مُدْرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة[5].

وقَطَّعت الشَّيء، شُدِّد للكثرة، فتقطَّع[6]، ومنه تقطيع الثَّوب، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: 19]، بمعنى: خيطَتْ وسوِّيت، وجُعِلَتْ لَبوسًا لهم[7] ومن ذلك قطع الأعضاء، نحو قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾[8].

3) ﴿خِلَٰفٍ﴾: أصل (خلف) يدلُّ على كون أو بقيَّة بعد ذاهب أو وراءه في ظهره[9]، والخَلْف: ظرف مكان مثل وراء، وهو ضدُّ القُدّام، وخَلَف ضِدُّ تقدَّم وسَلَف، والمتأخِّر لقصور منزلته يقال له: خَلْف، والخَلْف: الظَّهْر[10]، والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كلُّ واحد من الخصمين طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله أو فعله، والخِلاف: أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[11]، واختلاف الليل والنهار؛ أي: مجيء كلِّ واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: 6][12].

ومعنى الخلاف في قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: أن

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن).
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/ 237، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قطع).
(6) الجوهري، الصحاح: (قطع).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قطع).
(8) الراغب، المفردات: (قطع).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(10) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلف).
(12) الراغب، المفردات: (خلف).

يَقْطَع من كلِّ شقٍّ طرفًا، فيقطع اليد اليمنى والرِّجل اليسرى، أو الرِّجل اليمنى واليد اليسرى[1].

4) ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: أصل (صلب) يدلُّ على الشِّدة والقوَّة[2]، وقد صَلُبَ الشَّيء يصلُب صَلابة، وصلَّبته أنا؛ فهو صُلب وصَليب؛ أي: شديد، وباعتبار الصَّلابة والشِّدة سُمِّي الظَّهر صُلْبًا وصَلَبًا، وهو العظم ما بين الكاهل والعَجُب، وجمعه: أصلُبٌ وأَصْلابٌ[3].

والصَّلَبُ والاصْطِلابُ: استخراجُ الوَدَك من العظم ليُؤتَدَمَ به[4].

والصُّلْب من الأرض: المكان الغليظ المنقاد، والجمع: الصِّلَبَة[5].

والصَّلْب: هو تعليق الإنسان للقتل بشَدِّ صُلْبِه على خَشَب، والصَّليب: أصله الخَشَب الذي يُصلَب عليه، وكذا ما يَتَقَرَّب به النَّصارى، ويتَّخذونه قِبلَة لهم، وجمعه: صُلُب وصُلبان[6]، يقال: صَلَبَه يصلبُه صَلْبًا، وصلَّبه بالتَّشديد أيضًا كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[7].

المَعنى الإجماليُّ:

أنكر الطّاغية عليهم الإيمان، رغم ظهور الحُجَّة ووضوح البيان

يكشف لنا السِّياق القرآنيُّ في هذه الآية الكريمة عنْ موقف هذا الطّاغية فرعون بعد أنْ آمنَ قومُه من السَّحَرة واستسلموا للّه ربِّ العالمين؛ حيث هدَّدهم وتوعَّدهم بالعذاب فقال في جرأةٍ شديدةٍ وحدَّةٍ عجيبةٍ: أآمنتم أيُّها السَّحرةُ لموسى وصدَّقتم به دون إذن لَّكم من جانبي على الإيمان، وقال موهمًا أنَّ فِعْلَ موسى سحرٌ: إنَّه لَعالِمُكُم

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 266، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/ 261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلب).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صلب).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلب).

وأستاذكم الَّذي علَّمكُم السِّحْرَ وفنونَه، فلسوف تعلمون عاقبة فعلكم، وعظيم جُرمِكم هذا بتقطيع أكفِّكم وأقدامكم مِنْ عكسٍ؛ وذلك بقطع اليد اليمنى مع الرِّجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرِّجل اليمنى، ثمَّ بصلبكم جميعًا على جذوع النَّخل بعد ذلك على رؤوس الأشهاد[1].

وترشد الآية الكريمةُ إلى عِظَم معاندة فرعون ومكابرته التي يعلم كلُّ أحدٍ بطلانها؛ فإنَّ السحرة المؤمنين لم يجتمعوا بموسى قبل هذا اليوم، وإلى أنَّ أصحابَ العقول السليمة يؤمنون بالحق الواضح، والآياتِ الباهرة إذا ظهرت لهم وتبيَّن لهم صِدْقُها، وأنَّ ما سلكه فرعون مع السحرة كلَّه من باب المناورات السياسية الفاشلة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ﴾ عن سابقه:

الاستئنافُ البيانيُّ يُفصَل عن سابقه، ويمهِّد للاحقه

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل عمّا أجاب به فرعونُ، فأُجيب: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ﴾، ففُصِل لهذا، ولوقوعه في طريق المحاورة[3].

سرُّ إضمار فاعل القول وعدم التَّصريح به:

جوازُ حذفِ المعلوم عند أمن اللَّبْس، لاستقرار معرفته في النَّفس

الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ﴾ هو فرعون لعنه اللّه، ولمّا تقدَّم ما يُعرف به أنَّ المنكِر على السَّحَرة سجودَهم هو فرعون نفسه؛ أُضمِر ذكره لأمن اللَّبْس، ومقصود السّورة غير مقتضٍ للتَّصريح كما في الأعراف، بل ملائم للإعراض عنه، والإراحة منه[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 128، والهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 201 - 203.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 128، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 650.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 53.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 34.

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في قوله: ﴿ءَامَنتُمْ﴾:

اختلف القُرّاء في قراءة قوله: ﴿ءَامَنتُمْ﴾[1]:

قــراءةُ الإخبـار فـيـهـا إنـكـار وتنديد، وقراءة الاستفهام تقرير وتهديد

فقرأها بهمزة واحدة على الخبر: حفصٌ، ورُوَيس، والأصبهانيُّ عن ورشٍ، وقرأها بهمزة محقَّقة فمسهَّلة ثمَّ ألِف: قالونُ، والأزرقُ، وابنُ كثير، وأبو عمرٍو، وابنُ ذكوان، وهشامٌ بخُلْفه، وأبو جعفر، وقرأها هشام - في وجهه الثّاني - وأبو بكر، وحمزةُ، والكسائيُّ، ورَوْح، وخَلَفٌ بهمزتين محقَّقتين ثمَّ ألِف على الاستفهام.

ووجه الخبر فيه أنَّ فرعون يخبر السَّحَرة بإيمانهم على وجه التَّقريع لهم بإيمانهم والإنكار له عليهم، ووجه الاستفهام أنَّه استفهام على وجه التَّقرير المضمَّن للتَّهديد، يوبِّخهم به وينكره عليهم[2].

ففي الإخبار إنكار وتقريع، وفي الاستفهام توبيخ وتهديد، مجازًا مرسَلًا مركَّبًا لظهور أنَّه لا يقصد حقيقةَ الاستفهام ولا حقيقة الإخبار؛ لأنَّ المخاطَبين صرَّحوا بذلك وعلِموه[3].

وهذا شأن كلِّ جبّار متحكِّم، كأنَّه مَلَك الأفئدة والعقول والأجساد ونوازع النُّفوس؛ لأنَّ الذين حوله يوعِزون له بذلك وبأنَّ هذا حقٌّ له فرضَتْه الطّاعة، ثمَّ الألوهيَّة الباطلة[4].

نكتة تعدية فعل الإيمان باللّام دون الباء:

التعدية هنا فيها معنى الانقياد والاستسلام

الإيمان في الأصل متعدٍّ بنفسه ثم شاع تعدِّيه بالباء لِما فيه من التصديق حتى صار حقيقةً، وإذا ضُمِّن معنى الانقياد عُدِّي باللام؛ يقال: انقاد له[5].

(1) ابن الجزري، النشر: 1/ 368، والبنا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 421، والمعصراوي، الكامل المفصل، ص: 369.
(2) أبو علي الفارسي، الحجة: 4/ 70 - 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 53.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356، والهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 202.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 541، 542.

وعُدِّي فعل الإيمان باللّام في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾؛ لتضمينه معنى استسلمتم وانقدتم[1]، فقوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾؛ أي: آمنتم للذي يدعو إليه موسى وهارون مذعنين خاضعين[2]، والغالب في الاستعمال القرآنيِّ تعدية (آمن) بالباء إذا كان مقصودًا به الإيمان باللّه تعالى، مثل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: 8]، و﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136]، وتعديته باللام إذا كان لغيره، مثل: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]، و ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ [العنكبوت: 26][3].

وهذا يدلُّ على أنَّ فرعون لا يقرُّ أصلًا بوجود إله في السَّماء، بل يرى أنَّ الألوهيَّة متحقِّقة في البشر، في الأشراف منهم، ولمّا لم يرَ مَن هو أشرف منه فقد ادَّعاها لنفسه ورأى أنَّه بها أحقُّ.

فلمّا ناظَرَ نبيُّ اللّه موسى عليه السلام السَّحَرةَ وغُلِبوا وانقلبوا صاغرين، ظنَّ اللَّعين فرعونُ أنَّهم إنَّما آمنوا بموسى عليه السلام لا بربِّه، رغم نصِّهم على خلافه في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فعدَّى فعل الإيمان - هنا - باللّام دون الباء.

فحقيقة الكلام: "أأَوْقعتم التَّصديق بما أخبر به؛ لأجله إعظامًا له بذلك"[4]؟!.

دلالة الإشارة إلى موسى عليه السلام بالضَّمير:

في التَّعبير - دون العلم - بالضَّمير إلمـاح بالتَّقليل والتَّحقير

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ إشارة لنبيِّ اللّه موسى عليه السلام بالإضمار بعد الإظهار في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ جريًا على الظّاهر، إذ الأصل في ذلك:

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 74.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 463، والزمخشري، الكشاف: 3/ 76، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 358.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 34.

أن يؤتى بالإظهار ثمَّ بالإضمار؛ ولأنَّ فرعون كان يخاطِب سَحَرَته الذين فُجِع بسجودهم لله ربِّ العالمين.

ويُلمَح فيه - مع ما تقدَّم - إرادةٌ من الذَّليل اللَّئيم لاحتقار الشَّريف الكليم عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم، فلم يذكره باسمه العلم، وإنَّما بضمير الغائب كأنَّه غير موجود؛ مبالغةً في صرف النّاس عنه، فكان غير ما أراد؛ فبين يدي الله قلوب العباد!.

سرُّ التَّعبير بالضمير المفرد بعد تقدُّم المثنَّى:

أُفرِد موسى عليه السلام بالضَّمير؛ لأنَّه صاحب الرِّسالة والتنظير

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ خروج عن مقتضى الظّاهر؛ إذ الظّاهر أن يُعبَّر بالمثنَّى بعد قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فيقال: (آمنتم لهما)، ولكن قوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ أُريد به موسى عليه السلام فقط، وإنَّما أفرده بالضَّمير لأنَّه الأصل في هذه الرِّسالة، وهو المُناظِر، وهو الغالب السَّحَرَةَ[1].

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّة الزَّمانيَّة القَبْلية:

المقصود بالقَبْليَّة مطلق الاستئذان، لا أنَّ وقوع الإذن في الإمكان

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإنْ أذنتُ لكم فعلتم[2]، فهو ترقٍّ في موجب التَّوبيخ؛ أي: لم يكفكم أنَّكم آمنتم بغيري حتى فعلتم ذلك عن غير استئذان[3]!.

والمقصود بالقَبْليَّة هنا هو مطلق الاستئذان، لا إمكان وقوع الإذن، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: 109] والشَّرط لا يدلُّ على وقوع الشَّيء، ولا إمكان وقوعه، وهذه الآية من هذا المعنى؛ لأنَّ فرعون عليه اللَّعنة لم يقصد الإذن لهم بوجهٍ، لا قبلَ الإيمان ولا بعدَه[4]، فليس المقصود أنَّ إذن الإيمان من فرعون ممكن أو متوقَّع[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 34.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 141.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 54.

(4) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 244.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243، والبروسوي، روح البيان: 6/ 274، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 79.

سرُّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

الدلالة على الزَّمن ومجرَّد معنى الحدث

يفيد المصدر المؤوَّل الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصين مِن الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، كما أنَّ (أَنْ) والفعل قد تفيد الإباحة، ولا تفيد القطع بحصول الفعل، بخلاف المصدر الصَّريح، فليس فيه شيء من هذا[1].

فلأجل ما تقدَّم أوثر التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ لاشتماله على الفعل المضارع ﴿ءَاذَنَ﴾ الدّالِّ على حدوث الفعل في الحال أو الاستقبال؛ لتحصل - بالتَّعبير به - المقارنة بين الماضي في ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ الدّالِّ على تحقُّق إيمان السَّحَرة الذي أكَّده سجودُهم لربِّ العالمين، وبين المضارع غيرِ المقطوع بحصوله في ﴿ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾، بل إنَّ مجيئه بعد القبليَّة الزَّمانيَّة: ﴿قَبۡلَ﴾ يدلُّ على الشَّكِّ في إمكان حدوثه أصلًا، وهذا ما لا يؤدِّيه المصدر الصَّريح.

ثمَّ إنَّ فيه ملمحًا آخر، وهو أنَّ المصدر الصَّريح: (قبل إذني لكم) أسرعُ في الأداء الصَّوتيِّ من المصدر الوارد في الآية: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ ممّا يوحي ببطء حصول الإذن أو عدم حصوله ألبتَّة.

نكتة حذف متعلِّق الفعل ﴿ءَاذَنَ﴾:

حذف المتعلّق للعلم به، ولتقدُّم ما يدلُّ عليه

في قوله: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿ءَاذَنَ﴾ للعلم به لتقدُّمه قبله، وهو قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾، فالتَّقدير: (قبل أن آذن لكم وآمرَكم بالإيمان به)[2].

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَكُمۡۖ﴾:

الاختصاص، وجيء بها للتَّعدية

اللّام في قوله: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ هي لتعدية الفعل ﴿ءَاذَنَ﴾، وهي دالَّة بأصل وضعها على معنى الاختصاص[3]؛ أي:

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 33.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

آمنتم لموسى مستسلمين له خاضعين لِما جاء به، قبل أن أخصَّكم بإذن منِّي!.

فالذي يعني فرعونَ مِن أمر السَّحَرة في هذا الموقف هو خروجُهم عن أمرِه، ومتابعة موسى ﷺ مِن غير إذنٍ منه يخصُّهم به؛ إذ كيف يكون لهم وجود خاصٌّ، وكيف يكون لعقولهم ومشاعرهم سلطان عليهم مع سلطانه؟ إنَّه يملكهم ويملك وجودهم الخارجيَّ والداخليَّ جميعًا[1].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ عن سابقه:

وقـــع مــوقـع الـتَّـعـلـيـل لـســابــقـه، والـتَّـمـهـيـد للاحقه

فُصِل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ عن سابقه؛ لكونه واقعًا موقع التَّعليل لما قبله، وإجابة عن سؤال مقدَّر، وهو: لماذا آمنتم له قبل أن آذن لكم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾، حيث علَّل فِعلهم بما يقتضي أنَّه عن مكرٍ وخداع، لا عن حسن اتِّباع[2]؛ وذلك لئلّا يعتقد النّاس أنَّ السَّحَرة آمنوا على بصيرة وظهور حقٍّ[3].

نكتة توكيد الجملة بـ(إنَّ):

أُكِّد قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ بـ(إنَّ) النّائب منابَ تكرير الجملة مرَّتين[4]، وذلك لإفادة معنى التَّحقيق، وإزالة الشَّكِّ والتَّردُّد.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾:

يـحـسُـن ســوقُ الكلام مؤكَّدًا أو مـكـرَّرًا إذا كـان المخاطَب شاكًّا أو منكِرًا

اللّام في قوله: ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ هي اللّام المزحَلَقة المفيدة للتَّوكيد[5]، وإنّما أُكِّد الكلام بـ(إنَّ) واللّام؛ لأنَّ فرعون كان يعلم من نفسه أنَّ موسى ﷺ ليس بساحر ولا تعلَّم السِّحر، فضلًا عن أن يكون كبيرَ السَّحَرة، وإذا كان فرعونُ يعلم ذلك من نفسه فجميع مَن حضر

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 88.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 34.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74.
(4) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(5) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 572.

المناظَرة يعلم هذا أيضًا، فلذلك لجأ فرعون إلى تأكيد الكلام بأكثر مِن مؤكِّد؛ لأنَّ المخاطَبين منكِرون.

دلالة التَّعبير بالكِبَر مادَّة وصيغة:

الكِبَر خلاف الصِّغر، ويطلق على العظَمَة والكبرياء، وأصل معناه: نمو حجم الشَّيء مادِّيًّا أو معنويًّا بالنِّسبة لحجمه أو لحجم غيره[1].

الــكِــبَرُ فيه معنى العَظَمَة وأُريــد بــه هنا الأســتــاذيَّــة، واستُفيد الثُّبوت من الاسميَّة

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾؛ أي: أستاذُكم وأعلمُكم في فنِّكم[2]، والاسميَّة فيها لإفادة معنى الثُّبوت، والمعنى: (إنَّما غَلَبكم؛ لأنَّه أحذقُ بالسِّحر منكم)[3].

وإنَّما اعترف له بكونه كبيرَهم مع كونه لا يحبُّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى عليه السلام؛ لأنَّه قد علِم كلُّ مَن حضر أنَّ ما جاء به موسى عليه السلام أَبْهَرُ ممّا جاء به السَّحَرة، فأراد أن يشكِّكَ على النّاس بأنَّ هذا الذي شاهدتم - وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السَّحَرة - فهو فِعلُ كبيرِهم وأستاذِهم الذي أخذوا عنه هذه الصِّناعة، فلا تظنّوا أنَّه فِعلٌ لا يقدر عليه البشر، وإنَّه مِن فِعلِ الرَّبِّ الذي يدعو إليه موسى عليه السلام[4].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ﴾:

أُريد الوصف بما تضمَّنته صلة الموصول ليكون الكلام أمكن في العقول

عُبِّر بالاسم الموصول وصلته في: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ لإرادة وصف المُسْنَد ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ بما تضمَّنته جملة الصِّلة وهو تعليم السِّحر؛ ذلك أنَّه لمّا كان قوله: ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ مشعِرًا بنسبته نبيَّ اللّٰه موسى عليه السلام إلى السِّحر، وأنَّه أعلم منهم به، فلذلك غلبهم - أَوْضَحَهُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾؛ أي: فأنتم تتَّبعون معلِّمَكم ولا تتَّبعونني، بل تواعدتم معه على هذا الفعل لتنزعوا المُلْك مِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 402.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 571.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 116.

أربابه! هذا وكلُّ مَن سَمِعه يعلم كَذِبَه قطعًا، فإنَّ موسى عليه السلام ما رُبِّي إلّا في بيته، واستمرَّ حتى فرَّ منهم إلى مدين، لا يعلم سحرًا، ولا ألمَّ بساحر، ولا سافر إلّا إلى مدين، ثمَّ لم يرجع إلّا داعيًا إلى اللّٰه[1].

دلالة التَّعبير بالماضي في: ﴿عَلَّمَكُمُ﴾:

فيه معنى التَّحقيق، وهو بإفادة التَّوكيد حقيق

يفيد التَّعبير بالماضي نوعَ توكيدٍ من حيثُ دلالتُه على تحقُّق وقوع الفعل قبل زمن التَّكلُّم، وهذا ما أراده فرعون برمي نبيِّ اللّٰه موسى عليه السلام بالسِّحر، وأكَّد ذلك بالتَّعبير بالماضي؛ لينفي عن نفسه كذِبًا هو يعلمه مِن نفسه فضلًا عن النّاس!

وإنَّما أراد بهذه الفريةِ أن يُلبِّس على قومِه كيلا يعتقدوا أنَّ السَّحَرة آمنوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقٍّ؛ ذلك أنَّ السَّحَرة لمّا آمنوا بأجمعهم لم يأمنْ فرعونُ أن يقول النّاسُ إنَّ هؤلاء السَّحَرة على كثرتهم وتظاهُرهم لم يؤمنوا إلّا عن معرفةٍ بصِحَّة أمر موسى عليه السلام فيسلُكون مِثلَ طريقهم، فلَبَّس على القوم وبالغ في التَّنفير عن موسى عليه السلام[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾:

التَّعريف المفيد للعهد

(أل) في ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾ هي العهديَّة، فقوله: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ أي: هذا السِّحر الذي غلبكم فيه، ويمنع من كونها للجنس أنَّ مراد فرعون بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ أي: علَّمكم شيئًا دون شيءٍ؛ فلذلك غلبَكم، وواعدَكم ذلك، وتواطأتم عليه[3].

معنى فاء التسويف ودلالتها:

الفاء مفصِحة عن مقدَّر محذوف، ومعناها في التَّرتيب والتَّعقيب معروف

الفاء في قوله: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ﴾: هي الفاء الفصيحة، ومدخولُها مرتبِطٌ بمحذوفٍ، وهو على ما ذُكر في سورة الأعراف:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 35، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: 123]؛ أي: إن استمررتم في فعلكم فلسوف تعلمون[1].

وهي تُرتِّب ما بعدها على ما قبلها انتقالًا من التَّضليل إلى التَّهديد، كشأن الطُّغاة دائمًا إذا ما حلَّ بهم الدَّليل يسترون عجزهم بالتَّهديد[2]؛ أي فتسبَّب عمّا فعلتم أنِّي أعاقبكم عقوبة محقَّقة عظيمة[3].

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ﴾:

الابتداء تأكيدًا، أو القَسَم تهديدًا

في اللّام الدّاخلة على قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ وجهان:

أحدهما: أنَّها للابتداء، دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف؛ أي: فلأنتم سوف تعلمون، وليست للقسم؛ لأنَّها لا تدخل على المضارع إلّا مع النّون المؤكَّدة، وجمعُها مع (سوف) للدَّلالة على أنَّ العِلْم كائن لا محالة، وإن تأخَّر لداعٍ، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد[4].

والآخر: هي لام القَسَم، وقاعدة التَّلازم بينها وبين النّون فيما عدا صورة الفصل بينها وبين الفعل بحرف التَّنفيس وصورة الفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: 158].

فاللّام واقعة في جواب قَسَم محذوف، ونابَت (سوف) عن إحدى نونَي التَّأكيد، فكأنَّه قيل: وعِزَّتي لتعلمُنَّ[5].

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 382، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 572، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 35.
(4) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 90، والبروسوي، روح البيان: 6/ 275، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 128، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 572.

دلالة التَّعبير بحرف التَّنفيس (سَوْفَ):

بيان تأكيد العِلم في المستقبل، واحتراز عن العجز والفوت

جيء بأداة التَّنفيس في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾؛ لبيان تأكيد العلم في المستقبل، وهو علمُ معاينة لا علم إخبار[1].

وإنَّما لم يؤكَّد في الحال احترازًا من أن لا يقدر عليهم، فيعلم الجميع عجزه فيؤمنوا، مع ما فيها في الحقيقة على السَّحَرة من التَّأكيد في الوعيد الذي لم يؤثِّر عندهم في جنب ما أشهدهم اللّه من الآية التي مكَّنتهم في مقام الخضوع[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿تَعْلَمُونَۚ﴾:

يـدلُّ المضارع على الاستمرار والتَّجدُّد، ليدوم التَّهديد والتَّوعُّد

يفيد التَّعبير بالمضارع الدَّلالة على تجدُّد الفعل واستمراريَّته في زمن التَّكلُّم ممتدًّا بدلالة القرينة إلى المستقبل.

وقوله: ﴿تَعْلَمُونَۚ﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد زاد من شدَّته أنَّه سيقع متجدِّدًا مستمرًّا، فكلَّما وقع شيء ممّا هدَّد فرعونُ به المؤمنين توقَّعوا شيئًا آخر، وهكذا، وهذا أخوَف لهم، وأقسى عليهم.

نكتة حذف متعلِّق الفعل: ﴿تَعْلَمُونَۚ﴾:

حُذِف المفعول به تعميمًا، ليكون إطلاق التَّهديد مخوفًا عظيمًا

قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾؛ أي: ستعلمون عند عقابي إيّاكم وبالَ ما فعلتم، وخطأ ما صنعتم من الإيمان بموسى[3]، فمفعول ﴿تَعْلَمُونَۚ﴾ محذوف للتَّعميم إجمالًا في الوعيد لقصد إدخال الرُّعب[4]، فهو وعيدٌ مطلَق وتهديدٌ شديد[5].

علَّة فصل قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ عن سابقه:

كمال الاتِّصال من مواضع الفصل، وموانع الوصل

فُصِل قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ عمّا قبله؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، ذلك أنَّ جملة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ لا محلَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 35.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 348، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 572.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 54.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504.

لها، عطفُ بيانٍ على جملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾[1]، فما ذُكِر مِن تقطيع الأيدي والأرجل مِن خلاف مع الصَّلب هو بيانٌ لما أوعد فرعونُ به المؤمنين في قوله: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

بلاغة الإطناب بالتَّفصيل بعد الإجمال في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

تمكين المعنى في النُّفوس توكيدًا للتَّهديد، وتقريرًا للوعيد

في قوله: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ إجمالٌ للتَّهديد أوَّلًا لقصد التَّهويل، وفي قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ تفصيل لما أُجمِل، وتفسير لما أُبهِم[3].

وسرُّ جمال هذا الأسلوب أنَّه يقدِّم المعنى الواحد في صورتين مختلفتين: إحداهما مبهمة، والأخرى موضَّحة، كما يفيد تمكين المعنى في نَفْسِ المُتَلَقِّي تمكينًا زائدًا لوقوعه بعد استشراف النَّفس إليه بالإبهام، وهو من ضروب التَّوكيد التي حشدها فرعون لتوكيد تهديده، وتقرير وعيده.

نكتة استخدام صيغة التَّفعيل في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

التَّفعيل لتكثير القطع والمقطوعين، وتعظيم تهديد المؤمنين

أوثر إيراد الفعل بصيغة التَّفعيل في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ للدَّلالة على كثرة القطع والمقطوعين[4]، أي لأقطعنَّ يدَ كلِّ واحدٍ منكم؛ تعظيمًا للتَّهديد، وإنفاذًا للوعيد.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

اللّام موطِّئة لقَسَم مقدَّر؛ لتأكيد ما تَوَعَّد به فرعونُ وأنذر

اللّام في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ هي الموطِّئة القَسَم[5]، أي: يقول فرعونُ: أقسمت لكم بقهري وسلطاني لأقطعنَّ منكم أَكُفَّكم وأقدامكم حالةَ كونِها مِن خلاف؛ أي: متخالفات مِن كلِّ شقٍّ طرفًا، وهو أن يقطع اليد اليمنى والرِّجل اليسرى أو عكس ذلك[6].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 35، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 116، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 79.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 35، والبروسوي، روح البيان: 6/ 275.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 74، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 573.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 202.

نكتة توكيد الفعل بنون التّوكيد الثّقيلة:

أُكِّد فعل ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ بنون التّوكيد الثّقيلة المباشرة لوقوعه في جواب القَسَم، مثبَتًا، متّصلًا باللّام، دالًّا على الحال والاستقبال.

وهذا كلّه لتأكيد تهديده، وتحقيق وعيده؛ إذ نزَّل القوم المؤمنين منزلة المنكِرين لِما يتوعّدهم به؛ لمّا رآهم كفروا به وآمنوا بالله العليِّ العظيم.

أُكِّد الفعل بالنّون؛ لتأكيد ما توعّد به المأفون

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

في التّعبير بالمضارع دلالة على تجدُّد الحدوث وتكرُّره، وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ يفيد أنَّ فرعون اللّعين يتوعَّد المؤمنين باستمرار التّقطيع آنًا بعد آنٍ، وحينًا بعد حينٍ، فلا يَسْكُنُ لُعافاهم وجيبٌ، ولا يَقِرُّ لمقطوعِهم قرارٌ ولا يهدأ له نَحيبٌ.

أُريد بالمضارع الدّلالة على كون التّقطيع مستمرًّا، ووقوعه متجدِّدًا متكرِّرًا

سرُّ جمع الأيدي والأرجل وإضافتها لضمير المخاطَبين:

وقوع الجمع معرَّفًا بالإضافة لضمير المخاطَبين في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ يكسبه العموم، فيعمُّ كلَّ يد وكلّ رِجل من أيدي السَّحَرة وأرجلهم[1].

وقوع الجمع معرَّفًا بالإضافة يُكسِبه العموم

أي أنَّ فرعون توعَّدهم جميعًا دون أن يستثني منهم أحدًا، وهذا ما أكّده بقوله في آخر الآية: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، وقولُه بعدُ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، فكانتْ غضبةً لكبريائه، فأرداه الله من عليائه، وجعله صاغرًا ذليلًا، وأخذه أخذًا وبيلًا!.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها في الآية:

﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ ابتدائيَّة لبيان موضع القطع بالنِّسبة إلى العضو الثّاني، فهي قيد للقَطع؛ أي أنَّ القطع يبتدئ في حال التَّخالف، وقد عُلِم أنَّ المقطوع هو العضو المخالِف، فتعيَّن

ابتدائيَّة لبيان موضع قطع العضو الثّاني من الأوّل، وعلى ذلك المعوَّل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 54.

أنَّه مخالِفٌ لمقطوعٍ آخَر، وإلّا لم تُتَصوَّر المخالَفَة، فإذا لم يكن عضوٌ مقطوعٌ سابقٌ فقد تعذَّر التَّخالف، فيكون القطعُ للعضو الأوَّل آنفًا ثمَّ تجري المخالَفة فيما بعد[1]، وقيل: ﴿مِّنْ﴾ تعليليَّة؛ أي: مِن أجلِ خلافٍ ظهر منكم[2]، والأوَّل أولَى.

نكتة تنكير ﴿خِلَٰفٍ﴾:

التَّنكير لإرادة النَّوع المخصوص من الخلاف

الغرض من تنكير قوله: ﴿خِلَٰفٍ﴾ هو إرادة النَّوع، ذلك أنَّ الخلاف المقصود في قطع الأيدي والأرجل هو أن يُقطَعَ مِن كلِّ شِقٍّ طرفًا، فتُقطَع اليد اليمنى مع الرِّجل اليُسرى، والعكس، وليس في الإهلاك أقوى مِن ذلك[3].

وهذه الطَّريقةُ في السِّياسة على الحكمة؛ فإنَّه حينئذٍ لا ييأس الجاني عن الحياة والتَّعيُّش، فيكون القتلُ بعدَه سياسةً أخرى، بخلافِ ما إذا قُطِعا مِن شِقٍّ واحدٍ، فإنَّه حينئذٍ يكون القتلُ راحةً وإزاحةً للعذابِ المَحْضِ[4].

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾:

الواو عاطفة على ما سبق لتعظيم التَّرهيب؛ بتنويع صور التَّعذيب

الواو في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ حرف عطف حيث عَطَفتْ جملتَها على ما قبلها[5]، فكأنَّ فرعون هدَّدهم بأمور ثلاثة: أوَّلها: التَّعذيب بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وثانيها: القتل، وثالثها: التَّصليب؛ ليكونوا عبرةً لغيرهم، إذ هم أوَّل من شَقّوا عصا الطّاعة، ونبذوا ألوهيَّته الباطلة وراء ظهورهم[6].

وقد حسَّن الوصلَ هنا دون الفصل كونُ الجملتين متَّفقتين في الإنشائيَّة، ولقصد تشريك الجملة الثّانية للأولى في محلِّها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 183، و: 9/ 55.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 135.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 383.
(5) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 573.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5356 - 5357.

الإعرابيِّ، ولما بينهما من التَّلاؤم الفكريِّ؛ إذ التَّقطيع والصَّلب نوعا تعذيبٍ وتنكيلٍ مع حدوث المغايرة بينهما.

دلالة التَّعبير بمضارع التصليب:

الـدلالـة على الـتَّـجـدُّد والاسـتـمـرار، لإفادة استدامة الصَّلب ليلَ نهار

يؤتى بالمضارع للدَّلالة على تجدُّد حدوث الفعل واستمراره، والتَّعبير به في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ يفيد أنَّ فرعون لم يكتف بتهديد المؤمنين بصلبهم مرَّة واحدة، بل إنَّه سيكرِّر ذلك معهم متَّخِذًا الصَّلب سُنَّة له فيهم، إمّا بتكرار صلب الأفراد بلا فوت، وإمّا باستمرار تعليقهم حتَّى الموت.

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

تـوالي المؤكِّـدات زيـادة في معنى التَّهديد، وإنفاذًا للوعيد

في هذه الآية حشد كبير من المؤكِّدات، خلاصتها ما يلي:

الفعلُ الماضي ﴿ءَامَنتُمْ﴾ المفيد للتَّحقيق، وهو خبر في لازم الفائدة أُريد به التَّقريع، والحرفُ المشبَّه بالفعل (إنَّ) المفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة؛ لنيابته منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أَوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض من التَّأكيد[1]، ودخولُ لام التَّوكيد على خبر (إنَّ) في ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ القائم مقام تكرير الجملة ثلاث مرّات[2]، والتَّعبيرُ بالموصول وصلته لتأكيد مضمون الصِّلة في: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، واللّامُ الدّاخلة على حرف التَّنفيس، وهي للتَّوكيد أو القسَم، والقسَم نوع توكيد، والتَّفصيلُ بعد الإجمال في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ إذ التَّفصيل توكيد لمضمون الإجمال لكونه كالتَّكرار له مع زيادة توضيح، واللّامُ الموطِّئة للقسَم في: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾، و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، ونونُ التَّوكيد الثَّقيلة المتَّصلة في: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾، و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، وجمعُ الأيدي والأرجل وإضافتهما لضمير المخاطبين؛ أي: أعمُّ كلَّ

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.

يد ورجل منكم، والتَّوكيدُ المعنويُّ ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ولأصلِّبنَّ كل واحد منكم بدون استثناء لواحد فيكم(1).

وهذا الحشد من المؤكِّدات أراد به فرعونُ توكيد تهديده، وإنفاذ وعيده، وقتلًا للشَّكِّ في نفس أيِّ متشكِّك في توعُّده إنذاره، فقد سقطت هيبتُه، وبَطَلَتْ ألوهيَّتُه، واهتزَّ ركنُه، وضاق عَطَنُه، فنوَّع صنوفَ التَّعذيب لتحصل بذلك غاية التَّرهيب.

وكأنَّه أراد به ترهيب العامَّة لئلّا يتَّبعوا السَّحَرة في الإيمان(2).

توجيه المتشابه اللفظي:

ذِكر فاعل القول في موضع الأعراف ظاهرًا: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [الأعراف: 123] دون موضِعَيّ سورة طه والشعراء.

ووجهه أنَّه لمّا طال الفصل في سورة الأعراف بين أقرب ذِكرٍ للضَّمير العائد على فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: 114]، وبين ذكره اسمًا ظاهرًا في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 123]، مع ما بين الآيتين من اختلاف القائلين، والضَّمائر العائدة على المختلفين، فلو لم يتكرَّر ذِكر فرعون بالاسم الظّاهر، لحَصَل إلباس في تعيين هذا القائل، فناسب أن يُعاد ذِكر فرعون بالاسم الظّاهر بعد ذِكرِه سابقًا بالضَّمير لمَنع وقوع الالتباس.

أمّا في سورة طه، فقد تقدَّم ذِكر فرعون في جملة قومه فقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: 57]، ولم يأتِ ذِكرُه منفصلًا عنهم كما في الأعراف، ولم يَفصِل بين كلامه لموسى عليه السلام في ضمن قومه وبين قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: 71] بحوار مختلف مستقلٍّ بينه وبين غيره كما في سورة الأعراف، فلم يُخَف اللَّبْسُ كما خيفَ في الأعراف، فلم يُذكر اسمُ فرعون ظاهرًا، واكتُفي بالضَّمير العائد عليه.

وأمّا في سورة الشُّعراء، فكان آخر ذكرٍ لفرعون مستقلًّا في قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

(1) طنطاوي، الوسيط: 10/ 248.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 563.

﴿إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ ثمَّ لم يفصل بحوار مستقلٍّ بينه وبين غيره، فلم يُخَف اللُّبسُ مِن عدم ذكر اسم فرعون ظاهرًا، واكتُفي بالضَّمير العائد عليه فقال: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾.

هذا وجه، وثَمَّ وجهان آخران، **أحدهما:** أنَّ الذي اتَّهم موسى عليه السلام بالسِّحر في سورتي طه والشُّعراء هو فرعون نفسه، فجاء في طه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧﴾ [طه: 57]، وجاء في الشُّعراء قوله سبحانه: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾ [الشعراء: 34]، فناسب أن يُذكر بعد ذلك مضمَرًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ لاتِّحاد القائل المتَّهِم بالسِّحر في الجملتين، وهو فرعون.

أمّا في سورة الأعراف فإنَّ مَن رمى نبيَّ الله موسى عليه السلام بالسِّحر هم الملأ من قوم فرعون، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]، فناسب أن يُذكر فرعون بعد ذلك باسمه ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ [الأعراف: 123]؛ لاختلاف القائل في الجملتين بين المتَّهِم بالسِّحر (وهم الملأ الكافرون) والمتَّهِم بالمكر (وهو فرعون الملعون).

والوجه الآخر أنَّ ذِكر فرعون في الأعراف أكثر، حيث ذُكر فيها تسع مرّات في الآيات: [103، 104، 109، 113، 123، 127، 130، 137، 141]، أمّا في سورة طه فقد ذُكر فيها خمس مرّات في الآيات: [24، 43، 60، 78، 79]، وأمّا في الشُّعراء فقد ذُكر ستَّ مرّات في الآيات: [11، 16، 23، 41، 44، 53]، فلمّا كان دوران ذِكره في الأعراف أكثر من السّورتين الأخريَيْن ذُكِر فيها باسمه ظاهرًا؛ ذلك أنَّ الله جلَّ شأنه قد قال في أوَّل الأعراف: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: 6].

سر تعدية فعل الإيمان باللام ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾:

مع أنّه في موضع الأعراف عُدّي بالباء: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123]، والأصل في تعدية الفعل (آمن) أن يكون بالباء، وهو الغالب في الاستعمال القرآنيِّ، ولا سيَّما إذا كان مقصودًا به الإيمان بالله تعالى، ويُقصد به التَّصديق والإقرار[1].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 463، والزمخشري، الكشاف: 3/ 76، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 358.

وأمّا تعديته باللّام فلتضمينه معنى الانقياد والاستسلام، ويكون مجرورها حينئذ غيرَ اللّه تعالى[1]، نحو قوله سبحانه: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: 26][2].

ولمّا لم يُفصَل بين فعل إلقاء العصا وبين إلقاء السَّحرة ساجدين بفاصل، ناسَب أن يُعدَّى فعل الإيمان باللّام فيه، لتضمنه معنى الخضوع والانقياد والاستسلام، وكان ذلك في موضع الشُّعراء وطه، فقال سبحانه في طه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: 69 - 70] بلا فاصل بين إلقاء العصا وخُرورِ السَّحرة، فجاء عَقيبها قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [طه: 71] معدًّى باللّام، وقال سبحانه في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ بلا فاصل أيضًا بين إلقاء العصا وخرور السَّحرة، فجاء عقيبها قوله ﷻ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ معدًّى باللّام كذلك.

أمّا في الأعراف فقد فُصِل بين الفعلين بفاصل يوحي بوقوع بُرْهَةٍ بينهما لتفكُّر السَّحرة في أمرهم، وإقرارهم بالإيمان بما جاء به موسى عليه السلام قبل إعلانهم انقيادَهم، حيث جاء في الأعراف قوله تعالى: ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠﴾ [الأعراف: 117 - 120]، ففصل بين الإلقاء والخرور، فجاء فعل الإيمان معدًّى بالباء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123].

وممّا حَسَّن هذه المناسبةَ أنَّ التَّصديق والإقرار يأتيان في الواقع أوّلًا قبل الانقياد والاستسلام، فجاء التَّنزيل على وفْقِ هذا التَّرتيب، حيث جاء التَّصديق والإقرار (المستفادان من تعدية فعل الإيمان بالباء) في الأعراف لأنَّها سابقة لِسورَتَيْ طه والشُّعراء في التَّرتيبين النُّزوليِّ والمصحفيِّ، وجاء الانقياد والاستسلام (المستفادان من تعدية فعل الإيمان باللّام) بعدها في طه والشُّعراء.

فالحاصل أنَّ الهاء التي في ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123] تعود إلى ربِّ العالمين، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ [الأعراف:

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 215، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 103.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 125.

104]، وأمّا الهاء في قوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ تعود إلى موسى عليه السلام، والدَّليل على ذلك أنَّه جاء في السّورتين بعدها: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ فالهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ هي التي في ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ فلا خلاف أنَّ هذه لموسى عليه السلام(1).

فائدة اللام في ﴿فَلَسَوۡفَ﴾:

إنَّ في زيادة اللّام في ﴿فَلَسَوۡفَ﴾ زيادةَ توكيد ليست في ﴿فَسَوۡفَ﴾ [الأعراف: 123]، وفيها كذلك معنى إدناء الفعل وتقريب حصوله هذا الوعيد الذي خوَّفهم منه حتَّى كأنَّه موجود في الحال، فالجمع بين اللّام وبين (سوف) التي للاستقبال يفيد تقريب وتحقيق وقوع هذا الفعل.

وأمّا سورة طه، فقد قال: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]، فاللّام والنّون في ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ [طه: 71] للقَسَم، وهما لتحقيق الفعل وتوكيده، كما أنَّ اللّام في قوله: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ﴾ لإدناء الفعل وتقريبه(2).

ومن هنا يتبيَّن أنَّ قوله في الشُّعراء: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ﴾، وكذا في طه: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ [طه: 71] أوكدُ وأقربُ في الحصول من قوله في الأعراف: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾ [الأعراف: 123] محذوفة اللّام.

وممّا يؤكِّد ذلك أنَّه قد جاء في ردِّ السَّحَرة الذين منَّ الله تعالى عليهم بالإيمان على تهديد فرعون في طه والشُّعراء زيادةٌ ليست في الأعراف، حيث جاء في طه قوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه: 72]، على قولٍ بأنَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ [طه: 72] قَسَمٌ(3)، وجاء في الشُّعراء قوله: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

بينما جاء في الأعراف قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾ [الأعراف: 125] فجاء في طه بالقَسَم: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ [طه: 72] لمقابلة القَسَم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ [طه: 71] وزاد في الشُّعراء التَّوكيد بتعميم النَّفي: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾؛ لمقابلة التَّوكيد في ﴿فَلَسَوۡفَ﴾ ولم يأت ذلك في الأعراف

---

(1) الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل: 2/ 670، 672.

(2) الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل: 2/ 674، 677.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 414.

لخلوِّها منهما؛ ولذلك جيء بحرف المُهْلة ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف: 124] في جملة التَّوعُّد في الأعراف دون طه والشُّعراء، حيث قال في الأعراف: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 124]، بينما قال في طه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ [طه: 71]، وقال في الشُّعراء: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ بدون حرف المُهْلة فيهما؛ لأنَّ توكيدَ التَّهديد وتقريبَ حصوله لا يناسبه المُهْلَةُ، فلذلك لم تأتِ (ثُمَّ) في طه، ولا في الشُّعراء، ولكنَّها جاءت في الأعراف؛ لأنَّ التَّهديد فيها لم يكن مؤكَّدًا كما هو فيهما.

سرِّ إيثار سورتي طه والشُّعراء بتوكيد التَّهديد وعدم توكيده في الأعراف:

مناسبة السياق لمحور السورة العام

قد ورد في تضاعيف القصَّة في سورة الأعراف ما يناسب قوله: ﴿فَسَوۡفَ﴾ [الأعراف: 123]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ [الأعراف: 124]، حيث ورد في مطلعها اقتراح فرعون أن يأتي موسى عليه السلام بآية تدلُّ على صدقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ [الأعراف: 106].

على خلاف القصَّة في الشُّعراء حيث ورد فيها قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء: 29] فتهدَّد وتوعَّد، وأقسم وأكَّد.

فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [الشعراء: 30] فكان اقتراح الآية هنا من موسى عليه السلام حتى قال له فرعون: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ [الشعراء: 31]، فالخطاب التَّهديديُّ في الشُّعراء أبرز منه في الأعراف، فجاء في كلٍّ بما يناسبه.

وأيضًا ما جاء في الأعراف من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾

[الأعراف: 127]، فكأنَّه لم ينشط لذلك إلّا بإيعاز من مَلَئِه، فردَّ عليهم قائلًا: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]، على خلاف سورة الشُّعراء فقد جاء فيها: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، فالتَّهديد هنا آكد، والوعيد أشدُّ.

أمّا في طه فقد ورد ما يدلُّ على شدَّة بطش فرعون، حيث قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: 43 - 46]، فالخوف من بطش فرعون يناسبه تأكيد التَّهديد فيها.

وثَمَّ وجه آخر، حيث إنَّه قد ورد في سورة طه والشُّعراء النَّصُّ على حشد النّاس لشهود المناظرة، حيث جاء في طه قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: 59]، وفي الشعراء: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء: 39] ولم يَرِدْ ذِكْرُ ذلك في الأعراف، وهذا ما جعل وطأة الصَّدمة على فرعون شديدة جدًّا، وجعل حرجه منها بالغًا؛ لأنَّها وقعت أمام هذا الحشد الكبير من النّاس الذين تجمَّعوا ليشهدوا غَلَبَةَ السَّحرةِ نبيَّ الله موسى عليه السلام تأكيدًا لألوهيَّة فرعون المدَّعاة؛ فلذلك جاء السِّياق في السّورتين مناسبًا لذلك بتأكيد الوعيد تخويفًا للنّاس الذين شهدوا سجود الحُذّاق من السَّحرة لله ربِّ العالمين، وشهدوا تداعي صرح ألوهيَّة فرعون الواهي!

فجاء الوعيد في طه مؤكَّدًا بالقَسَم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ [طه: 71]، وفي الشُّعراء: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، دون الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: 123]؛ لأنَّه لم يُذكر فيها حشد النّاس.

وأخيرًا فإنَّ مِن شأن التَّهديد أن يُلقى ثمَّ يؤكَّد، وهو ما جاء في ترتيب القرآن، فقد ورد في الأعراف أوَّلًا، ثمَّ أُكِّد بعد ذلك في طه والشُّعراء.

فائدة استعمال الواو في ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ دون (ثمّ):

وقد ذُكِر (ثمّ) للتَّرتيب والمُهْلَة بين تقطيع الأيدي والأرجُل من خلاف وبين الصَّلب في موضع الأعراف: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: 124] وذكر الواو في موضعي طه والشعراء، ووجهه أنه لمّا نُصَّ في سورتي طه والشُّعراء على حشد النّاس لشهود المناظرة

وكانت هزيمةُ السَّحرة أمامهم وسجودُهم للّٰه ربِّ العالمين أعظمَ ورطةٍ حصلت لفرعون ولما يدَّعيه، وأدهى مصيبة حلَّت به وببلاطه، فقد ناسبه أن يكون التَّهديد شديدًا، والوعيد أكيدًا لتخويف النّاس أن يتَّبعوا السَّحرة فيسجدوا للّٰه تعالى، فلذلك خلا الوعيد في طه والشُّعراء من حرف المهلة والتَّراخي، حيث قال في طه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ [طه: 71]، وقال في الشُّعراء: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ بدون حرف التَّراخي والمهلة فيهما؛ لأنَّ توكيد التَّهديد وتقريب حصوله لا يناسبه التَّراخي ولا المهلة؛ فلذلك لم تأتِ (ثُمَّ) في طه، ولا في الشُّعراء، ولكنَّها جاءت في الأعراف في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 124]؛ لأنَّ التَّهديد فيها لم يكن مؤكَّدًا كما هو في السّورتين الأخريين.

توجيه المتشابه في قوله ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾:

ذُكِر الصَّلب فيه في سورة طه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: 71] دون الموضعين الآخرَين، وذكر التَّوكيد المعنويِّ فيهما: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، ووجهه أنَّه لمّا كان سياق سورة طه قد صُرِّح فيه بذكر طغيان فرعون مكرَّرًا ومؤكَّدًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24]، وقوله سبحانه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣﴾ [طه: 43]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [طه: 45] كان ممّا يليق بهذا السِّياق ذِكرُ مزيد تفصيل للعقوبة التي توعَّد فرعونُ بها مَن آمن، ومنها الصَّلْبُ الذي ذُكِر في هذ السّورة تفصيلُه وكيفيَّتُه بما لم يُذكر في السّورتين الأخريين، وأنَّه سوف يصلِّبهم في جذوع النَّخل كما جاء في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]، بخلاف موضع الشُّعراء وموضع الأعراف؛ فإنَّه لم يأتِ فيهما ذِكرٌ لذلك.

وثَمَّ وجه آخر، وهو أنَّ ذِكر جذوع النَّخل يتناسب مع ما ذكره اللّٰه ﷻ قبل ذلك من تعداد النِّعم التي أنعم اللّٰه بها على فرعون وقومه، مِن جعلِ الأرض مهدًا، وإنزال الماء مِن السَّماء، وإخراج أزواج شتَّى به مِن نبات الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 53 - 54]، فكان مِن ضمن هذه

النِّعم - التي هي آيات لأولي النُّهى - النَّخلُ الذي كان فرضُ فرعون وقومه أن يشكروا اللّه تعالى عليها، لا أنْ يعذِّبوا بها المؤمنين بتصليبهم عليها، فحَصَلتْ بهذا المفارقةُ العجيبةُ بين حال مَن كان واجبه أن يشكر النِّعمة فراح يستعملها في تعذيب المؤمنين بمَن أنعم بها! وهذا يتناسب مع ذكر طغيان فرعون المتكرِّر آنفًا.

وأمّا التَّأكيد بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في سورتي الأعراف والشُّعراء؛ فلأنَّ كلتا السّورتَيْن قد جاء فيهما ذِكرٌ لاحتشاد السَّحَرة، والحشر لهم من المدائن، وذكر الإتيان بـ(كلِّ) ساحر عليم، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 111 - 112]، وكذلك في سورة الشُّعراء، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ [الشعراء: 36 - 37].

على خلاف سورة طه حيث ورد فيها أنَّ فرعون هو مَن تولَّى جمعهم بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾ [طه: 60]، فليس فيها لفظ الحشر، ولا التَّوكيد بـ(كُلِّ).

ووجه آخر، وهو أنَّه قد ورد في السّورتين (الأعراف والشُّعراء) اشتراطُ السَّحرةِ الأجرَ إنْ هُم غلبوا موسى عليه السلام، فجاء في الأعراف قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 113 - 114]، وكذلك في الشُّعراء حيث قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾.

فجاء - بناء على ما تقدَّم في الوجهين السّابقين - التَّوكيدُ بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في الموضعين - الأعراف والشُّعراء - مناسبًا لما ذكره ملأ فرعون من حشد السَّحّارين، والتَّوكيد بلفظ العموم فيهما (كلِّ)؛ لتكون العقوبة المتوعَّد بها لهم شاملة لكلِّ ساحر دعاه - أوَّلًا - لمبارزة موسى عليه السلام، ووعده - ثانيًا - بالأجر الجزيل إن غلب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَطع والبَتر والبَتْك:

البَتْرُ أخصُّ من القطع؛ لأنَّ البترَ يُستعمَل في قَطع ذَنَب الدّابة ثُمَّ أُجري قَطعُ العَقِب

البترُ أخصُّ من القطع، والبَتك قطعٌ خاصّ

مجراه؛ فقيل: فلانٌ أبتَر، أي: لا عَقِبَ له يخلفه ولا نسل[1]، وهو أخصُّ منه مِن وجهٍ آخر، ذلك بأنَّ البَترَ هو القَطعُ قبل الإتمام؛ يقال: بترت الشيءَ بَترًا: قطعته قبل الإتمام[2].

والبَتْكُ: قَطعٌ خاصّ[3]، يُستعمَل في قَطعِ الأذنِ والشَّعر، والبَتْكُ: هو القَبض على الشيء، على شَعر أو ريش أو نحو ذلك، ثم تجذبه إليك فيَنْبَتِكُ من أصله، أي: ينقطع وينتتف، والبَتك: قَطعُ الأُذُنِ من أصلها، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: 118 - 119][4].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بتر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (بتر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بتك).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (بتك).

﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ [الشعراء: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من آمن بالواحد الدَّيّان؛ لا يُخْضِعه تهديد، ولا يَقْهَرُه سلطان

لمّا أذعن السَّحرة للواحد الدَّيّان، وخالطت قلوبَهم بشاشةُ الإيمان؛ زال عنهم خوف فرعون ذي الجبروت والطُّغيان؛ فلم يعبؤوا بهيبة الملك وأُبَّهة السلطان، وبعدما كانوا يُقسمون بعزَّة فرعون، ويطمعون في أجره ونَواله، صاروا طامعين في مغفرة الحقّ سبحانه، ويسعون إلى جنَّته ورضوانه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾: أصل (ضير) يدلُّ على كلمة واحدة هو من الضَّير والمضَرَّة[2]، والضَّير: المضرَّة والضَّرُّ والضَّرَرُ، يقال: ضارَه يَضورُه ويَضيرُه ضَوۡرًا وضَيۡرًا، وضارَّه وضرَّه، يقال: لا ضَيۡرَ ولا ضَوۡرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ بمعنى واحد[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: لا ضَرَّ[4].

2) ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أصل (قلب) يدلُّ على ردِّ شيء من جهة إلى جهة[5]، وقلَبَه يقلِبُه قلبًا، وقَلۡبُ الشَّيء: تصريفُه وصرفُه وتحويلُه عن وجه إلى وجه، كقَلۡب الثَّوب، وقَلۡب الإنسان؛ أي: صَرۡفُه عن طريقته، وعن وجهه الذي يريده[6]، والقَلۡبُ: مُضۡغَةٌ من الفؤاد معلَّقةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 155، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 36، 37، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضير).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضير).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).

بالنِّياط، وقد يعبَّر به عن العقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]؛ أي: لمن كان له عقل[1]، وسُمّيَ القلبُ قلبًا لتَقَلُّبِه[2].

وتقليبُ الشَّيء: تغييرُه من حال إلى حال[3]، وقَلَّبَ الأمورَ: بَحَثَها، ونَظر في عواقبها[4]، وتقليبُ اللّهِ القلوبَ والبصائرَ: صرفُها من رأيٍ إلى رأيٍ، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: 110][5]، وتقليبُ اليدِ: عبارةٌ عن النَّدم ذِكرًا لحالِ ما يوجَد عليه النّادِمُ[6].

والانقلاب: الانصراف والرُّجوع مطلقًا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون في الآخرة[7]، والمُنْقَلَب يكون مكانًا ويكون مصدرًا؛ مثل: المُنْصَرَف، فيكون المُنْقَلَب: مصير العباد في الآخرة[8].

3) ﴿نَطْمَعُ﴾: طَمِعْتُ أَطْمَعُ طَمَعًا وطَماعيَةً، فهو طَمِعٌ وطامِعٌ: إذا حَرَص عليه ورجاه، وأَطعمه فيه غيرُه، والطَّمَعُ: ضدُّ اليأس، وهو نزوعُ النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له[9]، ولمّا كان أكثرُ الطَّمَع من أجل الهوى، قيل: الطَّمَع طَبْعٌ ثانٍ، والطَّمَع يُدَنِّسُ الإهاب[10]، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا﴾؛ أي: نَطمعُ في مغفرتِه، ونرجو رحمته[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يزال القرآن الكريم بأسلوبه الماتع وسياقه المتفرِّد يعرض لنا أحداث هذه القصَّة بشكل سريع متتابع؛ حيث يقصُّ علينا في هاتين الآيتين موقف هؤلاء السَّحَرةِ المؤمنين بعد هذا التَّهديد الشَّديد والوعيد الأكيد من فرعون العتيد فيقول - حكاية عنهم، حين وجدوا حلاوةَ الإيمان وذاقوا لذتَه -: لا حرجَ علينا ولا ضررَ من تهديدك ووعيدك فيما يَلحقُنا

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب)، وينظر: البغوي، معالم التنزيل: 3/ 266.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طمع).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طمع).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طمع)، وينظر: النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 563.

مَنْ وقَر في قلبه الإيمان لم يَخَفْ سوءَ العاقبة من أهل الطُّغيان

من عقاب الدنيا، فعذابك يزول؛ لأنّا إلى ربنا راجعون، وهو المجازي لنا على صبرنا؛ فنحن نأمُل أن يصفح ربُّنا عن ذنوبنا وخطيئاتنا من الكفر والسِّحر؛ إذ كنّا أوَّل المصدِّقين بعبده ونبيِّه موسى عليه السلام في زماننا هذا[1].

وترشدُ الآيتان الكريمتان إلى أنَّ مَن يَعْبُدُ الله أو يدعوه مستشعرًا الخوفَ منه والطمعَ في ثوابِه وما عندَه من الخير كان الخوفُ والطمعُ جَناحَيْنِ يطيرُ بهما إلى الاستقامةِ وإلى ما ينبغي، وأنَّ قوةَ الإيمان مصدرُ شجاعة خارقة للعادة، بحيث يفرح المؤمن بالموت؛ لأنه يوصله إلى ربه، وترشدُ إلى حُسْنِ الرجاء في الله والطمعِ في رحمته، وفضلِ الأسبقية في الخير[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

شِبْهُ كمال الاتِّصال بين الآيات، ووقوعُ الجملة في سياق المحاورات

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها هو ما بين الآيتين من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، فكأنَّما قيل: فما كان جواب السَّحرة لمّا قال لهم فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟ فقيل: قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾.

ولمّا كانت هذه الجملة السّامية واقعةً في سياق المحاورة حسُنَ أن تُفصَلَ عن سابقتها كما هو الشَّأن في المحاورات أن تُبنَى جُمَلُها على الفصل دون الوصل[3].

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتها في الآية:

نَفَوْا جنس الضَّرر؛ فما كان وجوده كالعدم فلا خطر

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ هي التي لنفي الجنس؛ أي أنَّها تنفي خبرها عن جميع أفراد جِنسِ اسمها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 570 - 571، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المنتخب، ص: 547.
(2) الشنقيطي، العذب النمير: 3/ 407، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 652.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 55.

ومعنى نفي الضَّير هنا مع توقُّعهم بطش فرعون بهم: أنَّهم يَعْنون أنَّه مهما فعل فرعون بهم من التَّنكيل، فإنَّه لا يعدو أن يكون ضُرَّ لحظة يحصل عَقِبَه النَّعيم الدّائم، فهو بالنِّسبة لما تَعْقُبُه بمنزلة العَدَم، وهذه طريقة في النَّفي إذا قامت عليها قرينة، دلَّت على الإغراق في نفي المذكور وشمول أفراده، ومنها قولهم: هذا ليس بشيء، أي ليس بموجود، وإنَّما المقصود أنَّ وجوده كالعدم[1].

وهذا يصوِّر ما انطوت عليه قلوب هؤلاء المؤمنين بعدما خالطتْها بشاشةُ الإيمان بالله الواحد الدَّيّان.

دلالة التَّعبير بالضَّير مادَّة وصيغة:

الضَّير الضَّرر وهو نقص يلزم من التَّضييق

الضَّير: المضرَّة والضَّرر الذي هو سوء الحال، يقال: ضارَه الأمرُ يضوره ويضيره ضورًا وضيرًا؛ أي: ضرَّه[2]، والضَّير أيضًا: الضَّور الذي هو شدَّة الجوع، ومنه التضوُّر: التَّلوّي والصِّياح عند الجوع، يكون من الذِّئب والكلب والأسد والثَّعلب، والضّورة بالضَّمِّ مِن الرِّجال: القصير الحقير الشَّأن، ومعناه المحوريُّ: فراغُ جوفِ الشَّيء الغضِّ؛ كجوع الأحياء المذكورة وغيرها، ويلزمُه النَّقص وصِغَرُ الجِرْمِ[3].

والتَّعبير بالاسم لإفادة معنى الثُّبوت دون نظر إلى زمن، فمتى ما توجَّه إليه نفيٌ فإنَّه ينسحب على جميع أجزاء الزَّمن؛ مبالغةً في النَّفي وتوكيدًا له.

ففي نفي الضَّير في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ على هذه المعاني مناسبةٌ لمقابلة ما توعَّدَهم به فرعون من الانتقاص منهم بتقطيع الأيدي والأرجل مِن خلاف، ومن التَّضييق بالصَّلب على جذوع النَّخل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ضير).
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 574، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضير).

بلاغة الإيجاز بحذف الخبر في: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾:

في حذف الخبر تعميمٌ لنفيِ الضَّرر

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ﴾ إيجاز بحذف خبر ﴿لَا﴾ النّافية للجنس للعلم به من سياق الآية؛ لأنَّ التقدير: (لا ضيرَ علينا)؛ وحكمه واضح في الآية السّابقة، فلمّا أُمِن اللُّبْسُ، وفُهِم المراد جاز حذفُه، بل حسُنَ في مثل هذا السِّياق؛ إذ فيه معنى التَّعميم، فكأنَّهم لم ينفوا الضُّرَّ الواقع عليهم من فرعون فحسب، بل نفوا أن يكون لفرعون ضُرٌّ أصلًا، وفي هذا ما فيه من تبكيته برميه بالعجز، واعتزازهم بربِّهم الذي سجدوا له مؤمنين خاضعين.

فلذلك أجابوه بعد ما سمعوا قعقعة هذا الوعيد بقولهم: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ وأرادوا لا ضير علينا في قتلك، وحذفوا الخبر ليبقى الجواب كلمة واحدة نافذة، كالسَّهم يَصْمي نَفّاجَةَ فرعون وحُمقَه، ويردُّ عليه إرعادَهُ وإبراقَهُ[1].

وقد ورد النَّفي الشّامل للضَّير عن طريق ﴿لَا﴾ النّافية للجنس، وحُذف الخبر في هذه السّورة؛ إيذانًا بأنَّه لم يَقدر فرعون على عذابهم، تحقيقًا لما في أوَّل القصَّة من الإشارة إلى ذلك بـ﴿كَلَّاۖ﴾ [الشعراء: 15] و﴿مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾ [الشعراء: 15][2].

أمّا إذا جُهِل الخبر ولم يظهر المراد مع سقوطه تعيَّن إثباته، نحو: لا أحد أغيَرُ من اللّه[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ عن سابقه:

تعليل لنفي الضَّرر، وإجابة عن سؤال مقدَّر

علَّة فصل الآية عن سابقتها هو ما بين الآيتين من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، فكأنَّما قيل: فما علَّة عدم مبالاتهم بالموت، وقولهم: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ بعد وعيد فرعون

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.
(3) أبو حيان، ارتشاف الضرب: 3/ 1298.

لهم بالقتل والعذاب؟ قيل: هو ما عَرفوه من دار الجزاء وما عند اللّٰه من نعيم يهون أمامه كلُّ بلاء.

فقولُه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ تعليلٌ لعدم الضَّيرِ؛ أي: لا ضيرَ في ذلك، بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لما يحصلُ لنا في الصَّبرِ عليه لوجهِ اللّٰه تعالى من تكفيرِ الخَطايا والثَّوابِ العظيم.

أو: لا ضيرَ علينا فيما تتوعَّدنا به من القتلِ لأنَّه لا بُدَّ لنا من الانقلابِ إلى ربِّنا بسببٍ من أسبابِ الموت، والقتلُ أهونُها وأرجاها[1].

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في الآية:

الدَّلالة على انتهاء الغاية، بعد شمول العناية

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[2]، وقد أفاد التَّعبير به هنا من قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ نكتة شريفة جليلة، وهي أنَّهم قد بلغوا في حبِّ اللّٰه تعالى أنَّهم ما أرادوا شيئًا سوى الوصول إلى حضرته، وأنَّه سبحانه وتعالى غايةُ أملهم، ومنتهى رغبتهم، وهذا من شمول عناية اللّٰه تعالى بهم بعد ما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأذهبت أنوارُه ظلامَهم.

دلالة التعبير بالرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾:

إظهار الافتقار لما عند القدير القهّار لمواجهة بطش الجبّار

من لوازم الرُّبوبيَّة: الخلْقُ، والرِّزق، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[3]، فالتَّعبير بالرَّبِّ في هذا المقام أنسب للدَّلالة على ما استشعره القوم من عظيم منَّة اللّٰه تعالى عليهم إذ لم يأخذهم على كفرهم، بل بعث إليهم مَن استنقذهم به مِن ضلالهم، وحطَم به أصفاد غيِّهم، فهداهم إلى رحابة الإيمان، ورحمة المنّان.

ولمّا كان في قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ معنى الدُّعاء الذي

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.

(3) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.

يستدفعون به أذى فرعون الذي توعَّدهم بصنوف منه مِن تقطيع وصلب وتقتيل - فقد ناسب كذلك أن يُعبَّر بالرَّبِّ؛ إظهارًا للافتقار لما عند القدير القهّار لمواجهة بطش الجبّار.

نكتة إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين:

تدرُّج في مراتب الإيمان، واحتماء بالرَّبِّ من الظُّلم والطُّغيان

في إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾ بيانٌ لكمال إيمانهم، وحُسن خلُقِهم؛ إذ أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم لا إلى ضمير المخاطَب كما فعلت بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام لضعف إيمانهم وسوء أدبهم مع الله تعالى إذ قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68]، وقالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: 24].

وفي هذه الإضافة أيضًا بيان لزيادة يقينهم وتدرُّج انتقالهم من ضيق الكفر إلى رحابة الإيمان، ومن تعظيم الإنسان إلى توحيد عبادة الدَّيّان؛ ذلك أنَّهم - قبل أن يؤمنوا - أضافوا العزَّةَ إلى فرعون بقولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾، ثمَّ لمّا آمنوا أضافوا الرَّبَّ إلى الرَّسولِ المبلِّغ عنه بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ثُمَّ لمّا وصلوا إلى ذروة الإيمان أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم فقالوا: ﴿رَبِّنَا﴾.

نكتة تقديم شبه الجملة على الخبر:

الاختصاص والاهتمام، وبيان لمصير الأنام

قُدِّم شبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على الخبر ﴿مُنقَلِبُونَ﴾؛ للاهتمام وإفادة الاختصاص والحصر، وأنَّ المصير إنَّما يكون إلى اللّه وحده، وفيه إيماء إلى أنَّهم لا يبالون بما يفعله فرعون بهم في الدُّنيا؛ لأنَّه لا سلطان له عليهم في الآخرة التي هي خير وأبقى، والمنقَلَب فيها إلى اللّه وحده، فكان تقديمه لبيان الاختصاص وأنَّهم يرجعون إلى ربِّهم، لا إلى غيره من أشباه فرعون[1].

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

حَفَلَتِ الآية الكريمة بعدَّة مؤكِّدات منها:

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357.

تـوالي المؤكِّدات يقتضيه حال المخاطَب المنكِر للمسلَّمات

دخولُ الحرف المشبَّه بالفعل (إنَّ) على ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّآ﴾، وهو مفيد للتَّوكيد لنيابته منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أَوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض[1]، وتقديمُ شبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على متعلَّقه ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ لإفادة الاختصاص والحصر، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوت والدَّوام، ومن ثمَّ كانت آكَدَ من أختها[2].

وتوالي هذه المؤكِّدات فيه مراعاةٌ لحال المخاطَب - وهو فرعون - إذ كان منكِرًا لما آمنوا به من البعث والجزاء، فردّوا على إنكاره بالتَّأكيد.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ عن سابقه:

كمال الاتِّصال أو شبهه بزيادة البيان والتَّفصيل

فُصِل قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ عن سابقه لما بين الجملتين الكريمتين من كمال الاتِّصال أو شبهه؛ إذ إنَّ الثّانية واقعة موقع التَّعليل الثّاني أو البدل من جملة التَّعليل[3].

فجملة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ بيانٌ للمقصود مِن جملة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وتعليل لها[4]؛ أي: إنَّك إنْ قتلتنا انقلبنا إلى ربِّنا انقلاب مَن يطمع في مغفرته ويرجو رحمته؛ لما رزقنا من السَّبق إلى الإيمان[5].

فإذا كان المرجع إلى الله ﷻ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أتمَّ الجزاء فـ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، ولكوننا نؤمِّل أن يغفر لنا ربُّنا هذه الخطايا وما فعلناه من السِّحر، واعتقدناه من الكفر فإنَّه ﴿لَا ضَيْرَ﴾ علينا، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72][6].

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(2) جامعة المدينة، البلاغة، المعاني: 1/ 305.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 128.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313.
(6) المراغي، تفسير القرآن: 19/ 63.

في المضارع تصوير للحال واستحضار، وإفادة للتَّجدُّد والاستمرار

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿نَطۡمَعُ﴾:

يفيد التَّعبير بالمضارع الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، وقول المؤمنين: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ﴾، يُفيد مع استحضار الحال تجدُّد حدوث الطَّمع مرَّة بعد مرَّة؛ أي: إنَّ طمعهم في مغفرة الله تعالى أمر متجدِّد غير منقطع إلى يوم القيامة.

فكأنَّهم خافوا أن يتجدَّد منهم ذنب، فعبَّروا بما يفيد تجدُّد الطَّمع لتكون التَّوبة - التي ذاقوا حلاوتها - مصاحِبة لهم وملازِمة.

إطلاق الطَّمع على الرَّجاء تأدُّب مع ربِّ الأرض والسَّماء

فائدة التَّعبير عن رجاء المغفرة بالطَّمع:

الطَّمَع: نزوع النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له، ورجاء في القلب له قويٌّ مع رغبة شديدة في ضمِّه[1].

ويُطلق الطَّمع كذلك على الظَّنِّ الضَّعيف، وعُرِف بطلب ما فيه عُسر، ويُطلق ويُراد به الظَّنُّ كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: 82]، فهذا الإطلاق تأدُّب مع الله تعالى لأنَّه يفعل ما يريد[2].

وفي قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ ذَكَر المؤمنون طمعَهم في غفران ربِّ العالمين، ولم يذكروا تأكُّدَهم منه؛ لأنَّ شأن المؤمن الذي يذكر سيئاته أن يرجو ولا يطمع، ويخاف ولا يتأكَّد.

ولتذكُّرهم ما أخطؤوا به في جنب الله سبحانه لم يذكروا في طمعهم إلّا أن يغفر لهم خطاياهم، وهي الآثام التي استغرقت النَّفسَ حتى امتلأت بالباطل!

وأيُّ خطيئةٍ أعظمُ مِن أن يعبدوا فرعون وهو الجبّار حتَّى طمِع فيهم وأذلَّهم، وأذلَّ أرض مصر ومَن فيها[3]؟!.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طمع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357.

كما أنَّ في التَّعبير بالطَّمع إشارةً إلى أنَّ جميع أسباب السَّعادة إنَّما هي من اللّه تعالى، فكأنَّه لا سبب منهم أصلًا[1].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ﴾:

توكيد الحكم بتكرار الإسناد لتقويته بيانًا لشدَّة طمع المؤمنين في مغفرة الله

أفاد التَّعبير بالمسنَد الفعليِّ في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ﴾ تقوية المعنى وتوكيده، وذلك لما فيه مِن تكرار الإسناد، فإنَّ الفعل ﴿نَطۡمَعُ﴾ مسنَدٌ إلى ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّا﴾، ثمَّ إنَّ فيه ضميرًا مستترًا يعود أيضًا على المسند إليه الذي هو ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّا﴾.

وفي تَكْرار الإسناد توكيد له؛ فكأنَّه ذكر الفعل مرَّتين، مرَّة عند إسناده إلى ضمير المتكلِّمين، ومرَّةً عند إسناده لفاعله[2].

وتقوية الحكم هنا وتوكيده ممّا يناسب المقام الشَّريف الذي يقرُّ فيه المؤمنون بشدَّة طمعهم ورجائهم لمغفرة ربِّهم، فجاء الحكم فيه مقوًّى مؤكَّدًا.

غرضُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

الإيماء إلى تجدُّد المغفرة احترازًا مِن غلبَة النَّوازع

يفيد المصدر المؤوَّل الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصين مِن الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، وليس في المصدر الصَّريح من هذا شيء[3].

وعُبِّر بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح في قوله: ﴿أَن يَغۡفِرَ﴾ للإيماء إلى ما يقتضيه ذكر الفعل المضارع مِن الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، فكأنَّهم قالوا: إنّا نطمع في حصول مغفرةٍ مِن اللّه تعالى تتجدَّد كلَّما أحدثْنا توبةً بعد حدوث ذنب، وهذا احتراز بديع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.

(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَنَا﴾:

الاختصاص؛ إشعارًا باستعظامهم ذنبَهم، وتشوُّقهم لمغفرة ربِّهم

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهو المراد هنا فكأنَّهم طلبوا أن يخصَّهم اللّه تعالى بمغفرة عظيمة تُذهب ما تقدَّم مِن خطاياهم التي وقعوا فيها قبل الإيمان، كعبادة فرعون، وكتعاطي السِّحر الذي أكرههم عليه الملعون[2]، وفي قولهم ﴿لَنَا﴾ تبكيت لفرعون بذكر اختصاصهم بالمغفرة دونه، وأنَّه محروم منها.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الفاعل:

الاهتمام، طمعًا في مغفرة ربِّ الأنام

قدِّم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الفاعل ﴿رَبُّنَا﴾ في جواب السَّحَرة في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ لأجل الاهتمام بحصول المغفرة لهم إيماءً باستعظامهم جُرْمَهُم، واستشناعهم خطأَهم، فكأنَّهم مِن فرْطِ خوفهم من أن يَحِلَّ عليهم سخطُ ربِّهم، وخجلِهم مِن حِلمه سبحانه عليهم لم يعودوا يرون إلّا جَريرَتَهم في عبادة غيرِ اللّه العظيم شاخصةً أمام أعينهم، آخذةً في التَّعاظم، وكأنَّما هم في عَرَصات القيامة مساقون للحساب، فقدَّموا ضميرهم إذ الموقف موقف أَثَرَةٍ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: 34 - 37].

عِلَّةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ وإعادته:

في الإضافة اعتزاز واهتمام بمعيَّة ذي الجلال والإكرام

أُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَآ﴾؛ لبيان كمال درجة الإيمان مع إظهار الافتقار للكريم المنّان؛ إذ أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم؛ اعتزازًا بإيمانهم، وتلذُّذًا بطيب نشوته، واعتصامًا بقدرة اللّه وعزَّته، بعدما أقسموا بعزَّة اللَّعين

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

(2) طنطاوي، الوسيط: 10/ 248.

في مواجهة رسول ربِّ العالمين، ففي إعادة تلك الإضافة الشَّريفة - بعدما تقدَّمت آنفًا في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ - توكيدٌ لذلك المعنى وبيانٌ لما هم عليه من الاعتزاز بتلك الإضافة، والاستئناس بهذا القُرْب، فما شيءٌ كذوق لذَّة الإيمان من بعد عَلْقَمِ الكُفْران!.

سرُّ التَّعبير بالخطايا دون غيرها ممّا قاربها:

دلالة على عدم تعمُّد ما يَشين، فقد كانوا على ممارسة السِّحر مكرَهين

الذُّنوب تكون فيما له تبِعة؛ لأنَّها مأخوذة مِن ذَنَب الشَّيء؛ أي: ذيله ومؤخَّره[1]، **والخطايا** تكون فيما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه؛ لأنَّها مأخوذة من الخطأ الذي هو وقوع خلاف ما أُريد له أن يقع[2]، **والمعاصي** تكون لما فيه خروج عن الطّاعة بتمنُّع وعدم انقياد؛ لأنَّها مأخوذة من العصا، وهي العود[3]، **والسَّيِّئات** تكون فيما فحُش وقَبُحَ؛ لأنَّها مأخوذة من السّوء، وهو العيب والنَّقص وكلُّ ما يغمُّ الإنسان مِن الأمور الأخرويَّة والدُّنيويَّة[4]، **والآثام** تكون فيما أبطأ بصاحبه عن الثَّواب وفعل الخيرات؛ لأنَّها مأخوذة من قولهم: (ناقة آثِمَة)؛ أي: بطيئة متأخِّرة[5].

فيُستفاد ممّا سبق أنَّ الخطيئة تغلب فيما يُقصد بالعَرَض؛ لأنَّه من الخطأ[6]؛ ومن ثَمَّ فالسِّرُّ في التَّعبير بالخطايا دون غيرها في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أنَّه الأنسب لحال السَّحرة؛ إذ في لفظ الخطيئة دلالة على عدم القصد للفعل بذاته، وأنَّهم كانوا مكرَهين عليه لا مختارين له، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في موضع سورة طه: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ [طه: 73].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 90.

ولم يعبَّر بالذُّنوب؛ لأنَّ تبعة إتقانهم فنَّ السِّحر هي وقوفهم على صدق الآية التي جاء بها نبيُّ اللّه موسى عليه السلام؛ إذ علموا أنَّها ليست مِن جنس سحرهم الذي أتقنوه.

ولم يعبَّر بالمعاصي لأنَّهم كانوا مؤمنين بفرعون منقادين له، ولم يشقّوا عصا طاعته، ولم يكونوا يعرفون ربَّ العالمين، فيقال إنَّهم عصَوْا أمره إليهم.

ولم يُعبَّر بالآثام؛ لأنَّ ممارستهم السِّحرَ لم تُبْطِئْهم عن الإيمان باللّه ربِّ العالمين، بل كانت سببًا في أن يؤمنوا إذ وقفوا بهذا العِلم على صدق نبيِّ اللّه موسى عليه السلام.

ولم يعبَّر بالسَّيِّئات لأنَّهم لم يكونوا يرون فِعْلَهم عيبًا يُتوارَى منه، بل كانوا يرونه مصدر فخر لهم، بل كان ذريعة لأنْ يَعِدُهم فرعون بالإدناء، وجزيل العطاء، فكان أنسب تعبير هو ما قيل، فللّه درُّ التَّنزيل!.

نكتة مجيء الخطايا جمع تكسير:

أغلب صيغ جموع التَّكسير تفيد معنى التَّكثير

أوثِر التَّعبير بجمع التَّكسير في قوله: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ لأنَّها من صيغ جموع الكثرة[1]، ولم يقولوا: (خطيئاتنا) التي تدلُّ على القِلَّة[2]؛ إيماءً باعترافهم بكثرة أخطائهم، وإقرارهم بعظيم ذنبهم، الذي يلزم منه عظيم الطَّمع في مغفرة الرَّبِّ الكريم.

وجهُ إضافة الخطايا إلى ضمير المتكلِّمين:

التَّعريف والإقرار، وهو أوَّل معارج التَّوبة والاستغفار

أُضيفت الخطايا إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾ - وهي إضافة محضة - لإفادة التَّعريف[3]، وفيها بيان اعترافهم بالذَّنب، ونسبتِه إلى أنفسهم، وأنَّه ممّا كَسَبَتْه أيديهم، وهذا الإقرار هو أوَّل معارج التَّوبة.

(1) الحملاوي، شذا العرف، ص: 92.
(2) الرضي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/ 183.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الجرُّ بحرف محذوف، أو النَّصب على نزع الخافض، أو على المفعول له

﴿أَن﴾ وما في حيِّزها في تأويل مصدر في موضع جرٍّ باللّام المحذوفة متعلِّق بـ﴿يَغۡفِرَ﴾، وتقدير القول: لِأَنْ كنّا أوَّل المؤمنين؛ أي: لكونِنا أوَّلَ المؤمنين[1]، ويجوز أن يقدَّر باء السَّبب: بأن كنّا؛ أي: بسبب أن كنّا[2].

ويجوز أن يكون النَّصب على نزع الخافض[3]، أو حملًا على المفعول لأجله، والتَّقدير: (كونَنا أوَّل المؤمنين؛ بمعنى: لأجل كوننا أوَّل المؤمنين)[4].

و(كان)، واسمها، و﴿أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خبرها؛ أي: أوَّل مَن آمَن مِن رعيَّة فرعون[5]، وجملة ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صلة الموصول الحرفيِّ ﴿أَن﴾ لا محلَّ لها[6].

والحاصل أنَّهم علَّلوا طمعَهم في مغفرة ربِّهم بأنَّهم كانوا أوَّلَ المؤمنين باللّٰه بتصديق موسى عليه السلام، وفي هذا دلالة على رسوخِ إيمانهم باللّٰه ووعده[7].

دلالة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

توكيد الإيمان برسوخه في الجَنان؛ للثَّبات في مواجهة الطُّغيان

أفاد التَّعبير بفعل الكون ماضيًا في قوله: ﴿كُنَّآ﴾ دلالة التَّوكيد بأنَّ الإيمان صار كونًا مثبتًا راسخًا فيهم، حتَّى صار لهم كالجِبِلَّة[8].

وفيه إشارة إلى أنَّ الكفر الذي كانوا عليه لم يكن طبعًا لهم، وإنَّما أكرههم عليه فرعون إكراهًا، فلمّا عرضت لهم أنوار الإيمان أجْلت من قلوبهم صدأ الكفر وصداه.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 75.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 191.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(6) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 191.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.

معنى التَّعبير بالأوَّليَّة في قوله: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الأوَّليَّة مقيَّدة بأهل الزَّمان أو المشهد أو صناعة السِّحر

الأوليَّة في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أوليَّة مقيَّدة؛ إذ كانوا أوَّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، أو من رعيَّة فرعون، أو من أهل المشهد[1]، أو مِنَ السَّحَرة خاصَّةً[2]، أو أوَّل المؤمنين عند ظهور الآية ممَّن كان في جانب فرعون[3]، أو أوَّل مَن أظهر الإيمان باللّه تعالى وبرسوله عند فرعون كِفاحًا بعد الدَّعوة وظهور الآية[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

(أل) عهديَّة؛ نظرًا لتقييد الأوَّليَّة

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للعهد؛ وذلك لأنَّ الأوَّليَّة في الآية أوَّليَّة مقيَّدة، ولا يصحُّ أن تكون للجنس لأنَّهم مسبوقون بمؤمنين كُثُر.

بل كيف تكون للجنس وفيهم نبيُّ اللّه موسى ونبيُّ اللّه هارون عليهما السلام، وقبلهم خلْق من الأنبياء والمرسلين، ومَن تبعهم من المؤمنين الصّالحين؟!.

سرُّ التَّعبير بالإيمان دون الإسلام:

الإيمان إسلام وزيادة، إذ هو تصديق وعبادة

يدور الإيمان حول معنى التَّصديق والاطمئنان، ويدور الإسلام حول معنى الانقياد والاستسلام.

فالتَّعبير بالإيمان يدلُّ على خضوع القلب مع انقياد القالَب؛ ولذا كانت مرتبته أعلى من مرتبة الإسلام الذي يغلب أن يكون منصبًّا على أفعال الجوارح، فالإيمان إسلام وزيادة.

ومن ثمَّ كان التَّعبير بلفظ الإيمان هنا أنسب؛ لدفع توهُّم أن يكون السَّحرة قد أُكرِهوا على الخضوع لموسى عليه السلام كما أُكرِهوا على ممارسة السِّحر من فرعون، دون أن يحصل منهم رضا قلبيٌّ بذلك،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 99.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 80.

بل إنَّهم خضعوا للّه ربِّ العالمين بقوالبهم عندما خرّوا ساجدين، وآمنوا بقلوبهم عندما واجهوا طاغيتهم بإظهار تصديقهم باللّه تعالى وأسمائه وصفاته.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

في الآية مع كلٍّ من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 14].

قبل توجيه المتشابه يَحْسُنُ بنا الوقوف عند المواطن التي اختلف فيها التَّعبير بين آيات المواضع الثَّلاث، وهي على النَّحو التّالي:

أولًا: ذكر لفظ ﴿لَا ضَيْرَ﴾ في الشُّعراء دون الأعراف.

ثانيًا: ذكر الانقلاب مسبوقًا بلام التَّوكيد في الزخرف: ﴿لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 14] دون الموضعَيْن الآخرَين.

فهذان سؤالان يحتاج كلٌّ منهما إلى جوابٍ شافٍ.

أمّا **الإجابة عن السُّؤال الأوّل** فإنَّه لمّا كان الوعيد في الشُّعراء أشدَّ؛ ناسب مقابلتهم له بعدم التَّأثُّر به في مقابلة ما يرجونه عند اللّه تعالى(1).

ودليل ذلك أنَّه جاء في الأعراف قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 123 - 124]، أمّا الشُّعراء فإنَّه قد جاء فيها قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فجاء بلام التَّوكيد أو القسَم - وجهان - في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ﴾، دون الأعراف، كما جيء في الأعراف بحرف المُهلة بعد التَّقطيع وقبل الصَّلب: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: 124]، أمّا في الشُّعراء فقد عطف فيها بالواو بين التَّقطيع والصَّلب: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، وهذا آكد في الوعيد من سابقه.

كما أنَّ السّورة التي ذُكِر فيها قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ - وهي الشُّعراء - لم يرد فيها ذِكرٌ لتعذيب فرعون بني إسرائيل، أمّا السّورة التي خلت من ذلك - وهي الأعراف - فقد ذُكِر فيها قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 188.

﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 128 - 129].

والحاصل أنَّه لمّا خلت إحدى السّورتين من قوله: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ ذُكِر فيها شيء مِن الضَّرر الواقع بالمؤمنين مِن تعذيب الكافرين إيّاهم، ولمّا ذُكرت في الأخرى جملة ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ وافقها نظم السّورة فلم يُذكَر فيها شيء مِن الضَّرر الذي أوقعه الكافرون بالمؤمنين.

ويبقى وجه أخير، وهو أنَّه لمّا كانت القصَّة في الأعراف أخصر، وفي الشُّعَراء أكثر بسطًا، حيث ذكر فيها أوَّل أحوال موسى عليه السلام مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18]، وختم بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء: 66]؛ ومن ثمَّ وقع في هذه السّورة زوائد لم تقع في سورتي الأعراف وطه، فقد ناسبت الزِّيادةُ موضعَ البسط[1].

أمّا **الإجابة عن السؤال الثّاني** عن سرِّ زيادة اللّام في الزخرف: ﴿لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 14] دون الموضعين الآخَرين، فإنَّه لمّا كان قول السَّحرة: ﴿لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ جوابًا لفرعون لمّا توعَّدهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾؛ أي: لا ضرر علينا؛ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: إذا فعلتَ بنا ذلك فإنّا منقلبون إلى ربِّنا، ومُجازون على صبرنا، فجاوبوه مُعَزِّينَ أنفسَهم ومتناسين بما ينتظرون من الثَّواب وعظيم الجزاء؛ بسَبْقِهم إلى الإيمان وصبرِهم أنْ فُعل بهم ذلك الامتحان، فليس موضِعَ قسَم ولا تأكيد بما هو إخبار عن رجائهم وما ينتظرونه ثوابًا على إيمانهم، فلا مدخل للام التَّأكيد هنا.

وأمّا آية الزُّخرف فمبنيَّة على ما تقدَّمها من الإخبار عن مشركي العَرَب في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9]، والمراد بذلك إقامة الحجَّة عليهم في إنكار البعث، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 13 - 14]، فأكَّد هذا وضمَّن معنى القسَم[2].

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 129.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 375.

وأيضًا لأنَّ كلام السَّحرة حين آمنوا لا عمومَ فيه فناسب عدم التَّأكيد، وأمّا ما في الزخرف فعامٌّ لِمَن ركب سفينةً أو دابَّةً، فناسبَه التَّأكيدُ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانقلاب والرُّجوع:

الرُّجوع مصيرٌ إلى الحال الأولى، والانقلابُ مصيرٌ إلى حالٍ مختلفة

الفرق بينهما أنَّ الرجوع هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبل، أو إلى الحالة الأولى التي كان عليها قبل الحدث؛ أي: نفسها، ويقال: امرأة راجع، أي: مات زوجُها فرجَعت إلى أهلها، والانقلاب: هو المصير إلى نقيض ما كان فيه قبل، أو إلى حالة مختلفة لا تشابه الحالة الأولى التي كان عليها قبل الحدث، ويوضح ذلك قولك: انقلب الطين خَزَفًا، فأما رجوعه خزفًا فلا يصحّ؛ لأنه لم يكن قبل خزفًا[2].

الطَّمع والرَّجاء:

الطَّمعُ أشدُّ من الرَّجاء

الرَّجاء: هو الظنُّ بوقوع الشيء الذي يعتري صاحبه الشكّ فيه، إلا أنَّ ظنَّه فيه أغلب وليس هو من قبيل العِلم.

ولا يقال: أرجو أن يَدخل النبيُّ ﷺ الجَنَّة، لكون ذلك مُتيَقَّنًا، ويقال: أرجو أن يدخل فلانٌ الجنَّة إذا لم يعلم ذلك[3].

والرَّجاء في اللغة: الأمل نفسه، وفي الاصطلاح: توقُّع حصول محبوبٍ في المستقبل[4]، ويكون بمعنى الخوف، من حيث إنَّ الرَّجاءَ ظنٌّ لا يقين معه، قد يصدق ويكذب، كما هو حال الخوف، فاقترب من معناه[5].

---

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 411.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 249، والهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/ 507.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 244.
(4) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: 109.
(5) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 208.

والرجاء وإن كان بمعنى الخوف إلا أنّه لا يخرج عن أصل معناه، مِن حيث إنَّه خوف من فوات محبوب[1].

ووجه ذلك أنَّ الرجاءَ والخوف يتلازمان[2]، فرجاءُ لقاء اللّه سبحانه وتعالى هو خوفٌ من عدم تحصيله، ومِن ذلك الآيات الواردة في رجاء رحمة اللّه تعالى، فالرجاء فيها خوفٌ من عدم تحصيلها.

وممّا يدلُّ على ذلك قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9]، فاقتران الحذر مع الرجاء يدلُّ على حالة التأهُّب التي عليها الإنسان، والخوفِ من فوات تلك الرحمة المبتغاة.

ومِن هنا افترق الرَّجاء والطَّمع؛ لِما في الطَّمعِ من اطمئنانٍ أشدّ؛ فهو على درجة أعلى في حسنِ الظَّنِّ باللّه سبحانه وتعالى؛ لذا جاء في القرآن الكريم في طمع المؤمنين بغفران الخطايا؛ لأنَّهم وصلوا إلى درجةٍ عاليةٍ من حُسنِ الظَّنِّ باللّه ﷻ[3].

والطَّمعُ أشدُّ من الرَّجاء؛ لأنَّ الطَّمعَ تعلُّقُ النَّفْس بإدراك مطلوب تعلُّقًا قويًّا، ولا يَحدث إلا عن قوَّةِ رغبة وشِدَّةِ إرادة[4].

الخطايا والذُّنوب والمعاصي:

الذَّنْبُ من الأخذ بِذَنَبِ الشَّيء، والخَطيئةُ من المجاوزة، والمعصيةُ من عدم الانقياد

الذَّنب في الأصل: الأخذُ بذَنَب الشَّيء؛ يقال: ذَنَبْتُه، أي: أصبتُ ذَنَبه؛ أي: مؤخَّره، ويستعمل في كلِّ ما يُستوخَم عُقباه اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْب تَبِعةً، اعتبارًا بما يَحْصُل من عاقبته[5].

أمّا الخطيئة فيدور المعنى المحوريّ لجذرها حول تجاوز الشيء وتعدِّيه وتخطِّيه[6]؛ يقال: خَطِئَ السَّهمُ، أي: لَم يُصِب، أي: تخطَّى

(1) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 209.
(2) الراغب، المفردات: (رجو).
(3) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 209.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 434، والألوسي، روح المعاني: 1/ 298.
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).

الهدفَ وتجاوزه مبتعدًا عنه[1]، والخطيئة من هذا لأنَّها مجاوزة الصواب[2]، وأمّا المعصية فهي مأخوذة مِن: عصى إذا اشتدَّ[3]، والعِصيان أصلُه الصّلابة وعدم الانثناء أو الانقياد[4].

وأكثر ما تقال فيه الخطيئة ما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه، بل يكون القصد سببًا لتولّد ذلك منه؛ كمَن يرمي صيدًا فأصاب إنسانًا، أو شرب مُسكِرًا فجنى جناية في سكره، والسبب سببان: سببٌ محظورٌ فِعْلُه، كَشُرب المسكِر وما يتولَّد عنه من الخطأِ غير متجافٍ عنه، وسببٌ غير محظور، كرمي الصَّيد[5].

(1) ابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطأ).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 261.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو).

(5) الراغب، المفردات: (خطأ)، والعسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 221.

﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾

[الشعراء: 52 - 56]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

يستخفُّ الطُّغاة الدَّهماء، ويزدَرون المؤمنين، والأمور لله يصرِّفها كيف يشاء

لمّا أقام الكليمُ على آل فرعون الحجَّةَ، وأَسقط هيبةَ فرعون وهدم له بُرْجَه، ولبث فيهم عُمُرًا ليُصلح ما فسد ويقيم معوجَّه، بيّن سبحانه أنَّ فرعون ومَلَأه كانوا مصرّين على الكفر والعناد؛ مكثرين من الفساد والاستبداد، ولم يبقَ لهم إلّا اللَّعن والإبعاد؛ فأمر كليمَه بالخروج من تلك البلاد؛ فأسرع الطاغية العنيد، إلى التَّعبئة والتحشيد؛ طالبًا الدَّعم والتَّأييد؛ متناولًا قوم موسى بالتَّرهيب والتَّهديد، واصفًا إيّاهم بالشَّراذم الرَّعاديد؛ ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97][1].

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿أَسۡرِ﴾: أصل (سري) يدلُّ على نفاذ الشَّيءِ الدَّقيق الممتدِّ في أثناء محوطة بقوَّة، ومن ذلك السُّرى[2]، والسُّرَى: سَيْرُ عامَّة اللَّيل، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: 1][3]، يقال: سَرَيْتُ سُرَىً

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 505، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 37، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 244، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 80.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سري).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سري).

ومَسْرًى وأَسريتُ، بمعنًى واحد؛ إذا سِرْتَ ليلًا[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: سِرْ بهم ليلًا[2].

2) ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: جمعُ المدينة، وهي: كلُّ أرض يُبنى في وسطها حِصْنٌ[3]، وكذلك البلدة التي كَثُر سكانها[4]، ومَدَن بالمكان، أقام به، ومنه سُمّيت المدينة على وزن فعيلة، وجمعها: مدائن.

ومعناها المحوري: "المِصر الجامع المحصن، وتعريف المدينة بالحصن يُذَكِّرنا باتخاذ القدماء قِلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصُّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تَجَمُّعٌ لبيوت لم يُلحَظ فيه التحصُّن"[5]، والمدينة: اسم لمدينة رسول الله ﷺ خاصَّة، والنِّسبة إليها: مدَني[6].

3) ﴿حَٰشِرِينَ﴾: أصل (حشر) يدلُّ على السَّوْقِ والبعث والانبعاث[7]، وحَشَرْتُ النَّاس أحشُرُهُم حَشْرًا، إذا جَمَعْتَهم[8]، والحشر: إخراج الجماعة عن مَقَرِّهم وإزعاجهم عنه إلى حرب ونحوها[9].

ولا يقال الحشر إلا في الجماعة، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36][10]، وسُمّي يومُ القيامة يومَ الحشر، كما سُمّي يومَ البعث والنَّشر[11].

والمَحْشَر: المَجْمَع الذي يُحشَر إليه القوم، وكذلك إذا حُشِروا إلى بلد أو معسكر ونحوه[12]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: جامعين للنّاس بعُنْفٍ[13].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سري).
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 563.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(8) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حشر).
(9) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حشر).
(10) الراغب، المفردات: (حشر).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حشر).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(13) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 564، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 76.

4) ﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾: أصل (شَرْذَم) يدلُّ على كون الشَّيء قطعةً منفردةً أو متسبَّبة من شيء بال[1]، والشِّرذمة: جماعة قليلة منقطعة من النّاس، والقطعة من الشَّيء، والجمع: شَراذم، وهو من قولهم: ثيابٌ شَراذِمُ؛ أي: أَخْلاقٌ متقطِّعة[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[3].

5) ﴿لَغَآئِظُونَ﴾: أصل (غيظ) يدلُّ على كَرْبٍ يلحق الإنسان من غيره[4]، والغيظ: غضبٌ كامنٌ للعاجز، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، يقال: غِظتُ فلانًا أغيظه غيظًا فهو مَغيظ، وقد غاظه فاغتاظ وغيَّظه فتغيَّظ[5].

وقد دعا اللّه الناس إلى إمساك النَّفس عند اعْتِراءِ الغيظِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134][6]، والتَّغيُّظ: الاغتياظ وهو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع، كما قال تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ١٢﴾ [الفرقان: 12][7]، وغايَظَه فاغتاظ وتغيَّظ بمعنًى[8].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، أي: أنّهم يفعلون أفعالًا تُغيظنا وتُضيق صدورَنا[9].

6) ﴿حَٰذِرُونَ﴾: أصل (حذر) يدلُّ على التَّحرُّز والتَّيقُّظ، والحَذَرُ والحِذْر: احتراز من مُخيف، حَذِر يَحْذَر حَذَرًا، وحذَّرْتُه، فهو حاذِرٌ وحَذِرٌ؛ أي: مُتَيقِّظ مُتَحَرِّز، والجمع حَذِرون وحَذارى[10]، وحَذارِ يا فلان: احْذَرْ[11]، والتَّحذير: التَّخويف[12].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾؛ أي: مستعدُّون ومتأهِّبون[13].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شرذم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرذم).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرذم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيظ).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غيظ).
(6) الراغب، المفردات: (غيظ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (غيظ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (غيظ).
(9) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 564.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (حذر).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (حذر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (حذر).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حذر).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الهجرة من بلاد الكفر والعصيان خير سبيل للحفاظ على سلامة الإيمان

في هذا البيان القرآنيِّ ختامٌ لقصة نبيِّ اللّه موسى ﵇، وبيانٌ لما أمره اللّه به من الخروج من أرض مصر، وما كان من موقف فرعون وقومه إزاءَ هذا الخروج؛ وذلك حيث يقول ربُّنا سبحانه: وأوحينا إلى موسى بعد انتصاره العظيم على فرعون وسَحَرَتِه أنْ يسير بعباد اللّه المؤمنين من بني إسرائيل ليلًا إلى جهة البحر؛ وذلك لاتِّباع فرعون وجنده لهم؛ حتى لا يدركوهم قبل وصولهم إلى البحر، ولإرساله لجمع جيشه من مدائن مملكته، بعد علمه بخبرهم، ولقوله كذلك بعد اكتمال عدد النّاس مهوِّنًا مِنْ شأنهم: إنَّ بني إسرائيل الذين فرّوا مع موسى لطائفة قليلة العَدد مُستَضْعَفَةٌ حقيرةٌ، وإنَّهم لفاعلون ما يُغضِبُنا بمخالفتهم دينَنا، وخرجِهم بغير إِذْنِنا، وإنّا لجميعٌ مستعدّون لِمَكْرِهم متيقِّظون لكيدهم، ممسكون بزمام أمرهم خشية خداعهم[1].

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى مشروعية التعبئة العامَّة، واستعمالِ أسلوب خاص في الحرب يهدِّئُ من مخاوف الأمَّة حكومةً وشعباً، وإلى أصلٍ عظيم من أصول السياسة، وهو سدُّ ذرائع الفساد، ولو كان احتمالُ إفضائها إلى الفساد ضعيفاً[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

الواو بين العطف والاستئناف دائرة، لبيان آيات الله الباهرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ هي العاطفة، جيء بها لعطف هذه القصَّة على سابقتها، ولا تُفيد قُرْبَها منها، فقد لبث نبيُّ اللّه موسى ﵇ زمنًا يطالِب فرعونَ بإطلاق بني إسرائيل ليخرجوا مِن مصر، وفرعونُ يماطل في ذلك حتى رأى الآياتِ التِّسعَ كما هو مذكور في سورة الأعراف[3].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 113 - 114، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 248 - 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 752.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 37، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.

وقيل: الواو استئنافيَّة، وهي استئناف لبقيَّة القصَّة، والجملة مستأنَفة للشُّروع في الأمر الموجَّه إلى موسى عليه السلام بأن يسير بقومه إلى جهة البحر ليلًا، وذلك بعد أمدٍ من الحوادث الآنفة الذِّكر[1].

وهذه سُنَّة اللّه تعالى في التَّوطئة لإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين بعد رضاه سبحانه عن منهاج فئة الإيمان، وبلاغ حجَّة الرَّحمن، حجَّة الوحي البالغة[2].

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

موافقة الظّاهر في حكاية ما مضى بلفظ فعلٍ تمَّ وانقضى

عُبِّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ جريًا على الظّاهر في حكاية ما وقع من الأحداث بأفعال ماضية لمناسبة زمن وقوع هذه الأحداث، وهو مع ذلك يفيد التَّحقيق والتَّوكيد.

نكتة إسناد فعل الإيحاء إلى ضمير العَظَمَة:

الإسناد إلى العظيم يفيد الإجلال والتَّعظيم

أُسند فعل الإيحاء إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ لإفادة تعظيم هذا الوحي: موحٍ، وموحًى إليه، وموحًى به، فقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ "أي بما لنا من العظمة حين أردنا فصل الأمر وإنجاز الموعود"[3].

فإنجاء اللّه تعالى لبني إسرائيل على ما فُصِّل في السّورة هو أمر عظيم جليل؛ لما فيه مِن إنجاء المؤمنين، وإهلاك الطُّغاة الجبّارين، وإحقاق الحقِّ الأبلَج، وإزهاق الباطل اللَّجْلَج؛ فلذلك أسنده اللّه تعالى إلى نفسه العليَّة تعظيمًا له.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في الآية:

انتهاء غاية الإيحاء، وبيان عِظَم شأن اتِّصال الأرض بالسَّماء

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[4]، والتَّعبير به هنا من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على انتهاء

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5358، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 77.
(2) مأمون حموش، التفسير المأمون: 5/ 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 37.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.

غاية الإيحاء، وبيان إيصاله إلى الموحَى إليه بلا نقص ولا اضطراب، ولبيان عظيم منزلة النُّبوَّة والرِّسالة وأنَّها اتِّصال الأرض بالسَّماء.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾:

جملة مفسِّرة للوحي دالَّة على أنَّ إسراء موسى كان بوحي من ذي العلياء

قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ جملة فعليَّة لا محلَّ لها؛ مفسِّرة للإيحاء في قوله تعالى: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ لأنَّ في الإيحاء معنى القول دون حروفه[1].

وقد أوثر التَّعبير هنا بـ﴿أَنۡ﴾ المفسِّرة والجملة بعدها دون المصدر مثلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: 73] لِما أفادَتْه ﴿أَنۡ﴾ من الدَّلالة على تضمُّن الوحي معنى الكلام؛ أي أنَّه لم يكن مجرَّد إلهام أُلهم به موسى عليه السلام، بل وحيٌ بتكليم، أو بإرسال جبريل عليه السلام.

ولِما في التَّعبير بالأمر من الدَّلالة على طلب حصول الشَّيء بعد زمن التَّكلُّم[2]، بخلاف المصدر الخالي من الدَّلالة على الزَّمن، وهذا يدلُّ على أنَّ إسراء نبيِّ اللّه موسى عليه السلام بقومه كان استجابةً لأمر اللّه تعالى، تاليًا له.

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في قوله: ﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾:

إمّا من الإسراء للسَّير في أوَّل اللَّيل، وإمّا من السُّرى للسَّير في آخره

قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن كثير بوصل الألف وكسر النّون لالتقاء السّاكنَيْن، هكذا: ﴿أَنِ ٱسۡرِ﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحمزة، وعاصم، ويعقوب، وخلف العاشر بقطع الألف وإسكان النون هكذا: ﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾، والقراءتان لغتان، يقال سرى، ويقال: أسرى: لمن سار ليلًا، وقيل بالفرقِ بينهما، وهو أنَّ (أسرى) لأوَّل اللَّيل، (وسرى) لآخره، وأمّا (سار) فمختصٌّ بالنَّهار[3].

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 576، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 77.

(2) الحملاوي، شذا العرف، ص: 18.

(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها، ص: 314، وابن الجزري، النشر: 2/290، والبنا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 325.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإسراء كان ليلًا؛ كي لا يمنعهم فرعون عليه لعنة اللّه مِن استكمال مرادهم، وكي لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فيهابوهم، وكذا ليجنِّبهم اللّه تعالى عذاب فرعون ونكاله.

الغرض من الأمر في قوله تعالى: ﴿أَسْرِ﴾:

الأمر وجوبيٌّ للنُّصح والإرشاد؛ لحثِّ الكليم على النَّجاة بالعباد

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أمر وجوبيٌّ لصدوره من الأعلى سبحانه[1]، والغرض منه النُّصح والإرشاد؛ لحثِّ نبيِّ اللّه موسى ﵇ على الإسراع بقومه.

معنى الباء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾:

الإلصاق، وأفادت معنى المصاحبَة؛ تدليلًا على كمال عناية نبيِّهم بهم

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وجيء به هنا في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾: لإفادة معنى المصاحبة، أي: أسرِ مصاحبًا لهم[3]، وفيه معنى الإلصاق، وهذا دليل على كمال العناية وشمول الرِّعاية، فلم يتقدَّمهم نبيُّ اللّه موسى ﵇ ولم يتخلَّف عنهم، بل كان سيرُه ملاصقًا لسَيْرهم مصاحبًا لهم.

نكتة إضافة العباد إلى ضمير المتكلِّم الأعظم:

التشريف والتفخيم، والتبجيل والتكريم، وذِكر العبوديَّة مقامٌ عظيم

في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ إضافة العباد إلى ضمير المتكلِّم الأعظم سبحانه وبحمده، والمقصود بهم بنو إسرائيل الذين كرَّمهم اللّه بالإيمان[4]، وسمّاهم عباده لأنَّهم آمنوا بموسى ﵇، وبما جاء به[5]، وأضافهم إلى نفسه تلطُّفًا بهم بعد أن ظلّوا تحت ظلم فرعون مدَّة طويلة[6]، والإضافة إلى العظيم فيها تشريف وتبجيل، وتفخيم، وتكريم، وذِكر العبوديَّة مقامٌ عظيم[7].

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 43.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 37، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 76.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 37.

(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 117.

(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 249.

(7) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 384، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 576.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ عن سابقه:

تعليل للأمر بالإسراء؛ لأنَّه سبب في هلاك الأعداء

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ عن سابقه كونه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال مقدَّر بعد الأمر بالإسراء، فكأنَّه سُئل عن العلَّة، فقيل: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: لا تظنَّ أنَّهم لكثرة ما رأوا مِن الآيات يكفّون عن اتِّباعكم، فأسرِعْ بالخروج لتبعدوا عنهم، حتَّى إذا اتَّبعوكم مُصْبِحين، كان لكم تقدُّم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر، بل يكونون على إثركم حيث تَلِجون البحر، فيدخلون مداخلَكم ويسلكون مسالككم مِن طريق البحر، فأُطبقه عليهم وأغرقُهم فأهلكهم[1].

فهو تعليل للأمر بالإسراء باتِّباع فرعون وجنوده آثارَهم؛ لأنه سبب هلاك الأعداء[2].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

الثُّبوت وتقريب الحصول، لتعجيل المسير وعدم النُّكول

في التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إفادةٌ للدِّلالتَيْن: دلالة الاسم ودلالة الفعل، أمّا دلالة الاسم فظاهرة، وأمّا دلالة الفعل فمستفادة من اسم المفعول ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾؛ ذلك أنَّ الصِّفة إذا كانت جاريةً على الفعل - وهو اسم الفاعل واسم المفعول؛ كالضّارب والمضروب - أفادت الحدوث[3].

فمعنى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: يتَّبعكم فرعون وقومُه ليَرُدّوكُم، وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أنَّ الله ينجِّيهم منهم[4].

وإنَّما جاء التَّعبير بالجملة الاسميَّة لإفادة الدِّلالتين، لتدلَّ الصِّفة على معنى الحدوث، وكأنَّنا نرى الحدث أمام أعيننا آخذةً جلالتُه بمجامع القلوب، ولتدلَّ باسميَّتها على معنى الثُّبوت، وتقريب

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 37، والقِنَّوجي، فتح البيان: 9/ 380.
(2) الإيجي، جامع البيان: 3/ 180، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 384.
(3) ابن عادل، اللباب: 15/ 32.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 339، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 100.

الحصول كأنَّه واقع حالًا، فلو قال: (إنَّكم ستُتَّبعون) لربَّما تُوُهِّم تَأَخُّرُ التّابعين عن المتبوعين.

أمّا التَّعبير بالاسم فإنَّه يفيد أنَّ الاتِّباع كائن، وكأنَّه حاصل بَدْءًا من زمن التَّكلُّم؛ لئلّا يتكاسل القوم أو ينكُلوا، "وأن يخرجوا مِن مصر في خِفْيةٍ وحَذَرٍ، فإنَّ عيون فرعون تَرَقُّبهم، ولهذا جاء الأمر بأن يكون خروجهم ليلًا من غير أن يراهم أحد"[1]، والقصد من إعلام نبيِّ اللّه موسى ﷺ بذلك: تشجيعُه[2].

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَرۡسَلَ﴾:

الفاء فصيحة للتَّقريب، أو عاطفة للتَّعقيب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ﴾ هي الفاء الفصيحة المنبئة عن محذوف مقدَّر؛ أي: ففعل موسى ﷺ ما أمره اللّه تعالى به، فخرجوا، فأُخبِر بذلك فرعونُ فأرسل في المدائن حاشرين جامعين للعساكر ليتَّبعوهم[3].

وقيل: الفاء للتَّرتيب والتَّعقيب على جملة: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، وأنَّ بين الجملتين محذوفًا[4]، والمعنى سارَعَ فوْرَ انفصالِهم وأَرْسَلَ جامعين للنّاس مِن كلِّ مدائن مصر، وذلك ليلاحقهم بالأذى والقتل[5].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَأَرۡسَلَ﴾:

إفادة للتَّحقيق، وهو بالتَّوكيد حقيق

عُبِّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ﴾ جريًا على الظّاهر في حكاية ما وقع من الأحداث بأفعال ماضية لمناسبة زمن وقوعها، وهو مع ذلك يفيد التَّحقيق والتَّوكيد.

سِرُّ التَّعبير بالإرسال دون البعث في الآية:

أصل البعث: إثارةُ الشَّيء الحيِّ وتوجيهُه، ففي البعث إنهاضٌ

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 92.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 384، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5359.

بقوَّة[1]، أمّا الإرسال فأصله: الانبعاث على التُّؤدة، ففيه معنى الرِّفق والامتداد، ويتضمَّن الإرسال مرسِلًا، ومرسَلًا، ومرسَلًا إليه، ورسالة[2].

الإرسال بلاغ وامتداد، لمناسبة توجيه الحاشرين إلى البلاد

ولمّا كان المقصود مِن إرسال الحاشرين إلى المدائن هو أن يقولوا لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ - زعموا - فقد ناسبه التَّعبير بالإرسال في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ لأنَّ فرعون أرسلهم برسالة موجَّهة إلى أهل المدائن.

وفيه دليل على أنَّ الحاشرين أطاعوا أمره مسرعين، فكأنَّ أمره وافق هواهم فنشطوا لتنفيذه، أو كأنَّهم اعتادوا طاعته فلم يخالفوه قطُّ، فلم يكن بعثُه إيّاهم بقوَّة ولا بإنهاض، بل كانت القوَّة والإنهاض لأهل المدائن لا للحاشرين.

نكتة تعدية فعل الإرسال بالحرف ﴿فِي﴾:

الظرفية التامَّة للتَّنبيه على الاستعجال، وسرعة الامتثال

عُدِّي الفعل ﴿فَأَرۡسَلَ﴾ بـ﴿فِي﴾ دون (إلى) في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ للتَّنبيه على الاستعجال منه، وسرعة الامتثال من الرُّسُل، ولبيان الظرفية التامَّة على أنَّ مُلْك مصر كان معمورًا في عهده، بحيث سار الرُّسل كما خرجوا من عنده في المدائن[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾:

الاستغراق العرفيّ، ويقصد بها مدائن القُطر المصريّ

التَّعريف في المدائن للاستغراق؛ أي: في مدائن القُطر المصريِّ، وهو استغراق عرفيٌّ؛ أي: المدائن التي لحكم فرعون، أو المظنون وقوعها قرب طريقهم[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رسل).
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 385.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 384، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 80، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 130.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ على المفعول به:

الاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويق للمتأخِّر، ورعاية الفاصلة

قُدِّم شِبه الجملة ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ على المفعول به ﴿حَٰشِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، للإفادة بأنَّ إرسال فرعون قد عمَّ كلَّ مدائن مصر قبل معرفة ماهيَّة المرسَل، وفيه - مع ذلك - تشويق للمتأخِّر، ورعاية الفاصلة.

دلالة التَّعبير بـ﴿حَٰشِرِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

الحشر جمع بسَوق وإزعاج، وفي اسم الفاعل معنى الحدوث والثبوت

يدلُّ الحشر على جمعٍ مع سَوْقٍ، وهو إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوها[1]، فقوله تعالى: ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: رجالًا يجمعون الجنود بقوَّة وسطوة وعُنف وإنْ كرهوا[2]؛ كي لا يتركوا بني إسرائيل يخرجون مِن ديارهم أو يهاجرون، أو للحثِّ على التَّطوُّع للتَّصدِّي لبني إسرائيل حين خروجهم[3].

وإيثار التَّعبير بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على الحدوث؛ لقربها من الفعل المضارع (يحشرون)؛ أي يجمعون النّاس جماعة بعد جماعة، وفوجًا بعد فوج، ويستفاد من اسميَّتها معنى الثُّبوت.

بلاغة الإيجاز بحذف متعلِّق المشتقِّ ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

الحذف للعلم بالمحذوف، أو لتعميم المحشور

قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: رجالًا يجمعون النّاس بقوَّة وسطوة وعُنف[4]، لكنَّ جَمعَ هذه المرَّة للجنود لا للسَّحَرة؛ لأنَّهم هُزموا في مباراة السَّحَرة، فأرادوا أن يستخدموا سلاحًا آخر هو سلاح الجبروت والتَّسلُّط والحرب العسكريَّة، فإن فشلت الأولى فلعلَّ الأخرى تفلح[5].

وحُذف المتعلِّق إيجازًا للعِلم به، وللتَّركيز على معنى الحشر لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حشر).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 564، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 13.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/ 108.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 564، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 13.
(5) الشعراوي، الخواطر الإيمانية: 17/ 10576.

على المحشورين، فكأنَّه حشر لجميع النّاس تجييشًا لهم وتأليبًا على موسى ومَن معه، مع ما فيه مِن رعاية الفاصلة.

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾:

علّة الانفصال هي شبه كمال الاتِّصال

فصل قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ عن سابقه لما بينهما مِن شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، فكأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾، فهو معمولٌ لقولٍ مضمَر؛ لأنَّ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يتضمَّن معنى النِّداء، أي: يقولون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾.

وهذا القول يجوز أن يكون حالًا، أي: أرسلهم قائلًا ذلك، ويجوز أن يكون مفسِّرًا لـ﴿فَأَرۡسَلَ﴾[1].

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

إفادة معنى تحقير شأنهم، وتقريب مكانهم؛ استحثاثًا للجُند على اللُّحوق بهم

أُشير إلى بني إسرائيل بأداة القُرب في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾؛ تحقيرًا لهم، وللإيماء إلى أنَّهم في القبضة - وإن بَعُدوا - لما بهم مِن العجز، ولما بآل فرعون من القوَّة، فليسوا بحيث يُخاف قوَّتُهم ولا ممانعتُهم، وفي هذا استحثاث للنّاس والجند على اللُّحوق بهم[2]، وقد أكَّد معنى التَّحقيرِ التَّصريحُ بأنَّهم ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾[3].

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

نفي الشَّكِّ في قلَّة أعداد بني إسرائيل، ليلاحقهم الجنود من كلِّ سبيل

تضمَّنت الآية الكريمة جملة من المؤكِّدات، وهي:

الحرفُ المشبَّه بالفعل ﴿إِنَّ﴾ الذي ينوب منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض من التَّأكيد[4]،

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 53، وابن عادل، اللباب: 15/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 130.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 38.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 130.

(4) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.

واللامُ المزحلَقة الدّاخلة على خبر النّاسخ: ﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾[1]، ووصفُ الشِّرذمة - وهي الطّائفة القليلة - بالقلَّة في صيغة جمع السَّلامة ﴿قَلِيلُونَ﴾، والجملةُ الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوت.

والغرض من توالي المؤكِّدات نزع الشَّكِّ أو الاضطراب من نفوس المحشورين حتى لا يتقاعسوا عن اللُّحوق ببني إسرائيل، فقلَّلهم فرعون في نفوسهم، وحقَّر من شأنهم، وقرَّب من مكانهم استعجالًا للمخاطَبين للُّحوق بهم.

(شرذمة) تقليل لهم باعتبار الكيفيَّة، و(قليلون) باعتبار الكميَّة

نكتة وصف الشِّرذمَة بالقلَّة:

وصفَ فرعونُ قومَ موسى عليه السلام بالذَّمِّ، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشِّرذمة الطّائفة القليلة، فذكرهم بالاسم الدّالِّ على القلَّة، ثمَّ جعلهم قليلًا بالوصف، ثمَّ جمع القليلَ فجَعَل كلَّ حزب منهم قليلًا، واختار جمع السَّلامة الذي هو للقلَّة[2].

أي أنَّه قلَّلهم من أربعة أوجهٍ:

عبَّر عنهم بـ﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾، ووصفهم بالقلَّة، وجمع وصفهم ليعلم أنَّ كل حزبٍ منهم قليل، واختار جمع السَّلامة المفيد للقلَّة، وفيه وجهٌ خامسٌ: جمع الصِّفةِ والموصوفُ مفردٌ، وهو قد يكون مبالغةً لِلُصوقِ الصِّفة بالموصوف وتناهيهِ فيها[3]، أي: أنهم لِقِلَّتِهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعُلوُّهم[4].

وقيل: إنَّ قوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ، لا صِفَة[5]؛ إذ الشِّرذمة: الطّائفة القليلة من النّاس، فإتْباعه بوصف ﴿قَلِيلُونَ﴾ للتَّأكيد

---

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 578.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 350، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 505، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 157.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 360، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 80.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 315.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 38.

لدفع احتمال استعمالها في تحقير الشَّأن، أو بالنِّسبة إلى جنود فرعون، فهو خبر ثانٍ عن اسم الإشارة، فهو وصفٌ في المعنى لمدلول ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وليس وصفًا لـ﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾، ولكنَّه مؤكِّد لمعناها؛ ولهذا جيء به بصيغة جمع السَّلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة[1].

وجهُ إيثار التَّعبير بصيغة جمع السَّلامة ﴿قَلِيلُونَ﴾:

الـدلالـةُ على القلَّة، وجيء به لتأكيد معناها بعد إفادة معنى الذِّلَّة

كان الظّاهر أن يقال: (شرذمة قليلة)، كما يقال: عصبة قليلة، ويجوز فيه الجمع، وإنَّما أوثر الجمع هنا باعتبار أنَّ الشِّرذمة مشتملة على الأسباط؛ أي: الفِرَق والقبائل من بني إسرائيل، وكلٌّ منهم قليل[2]، وأوثر التَّعبير بجمع السَّلامة الذي هو للقلَّة تأكيدًا لمعنى القِلَّة في ﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾[3].

ذلك أنَّه لّما كانت قلَّة بني إسرائيل إنَّما هي بالنِّسبة إلى كثرة آل فرعون وقوَّتهم وما لهم عليهم مِن هيبة الاستعباد، وكان التَّعبير بالشِّرذمة موهِمًا لأنَّهم في غاية القلَّة، أزال هذا الوهم بالتَّعبير بالجمع دون المفرد ليفيد أنَّه خبر بعد خبر، لا صفة، وأنَّ التَّعبير بالشِّرذمة إنَّما هو للإشارة إلى تفرُّق القلوب، والجمعُ - ولا سيما ما للسَّلامة مع كونه أيضًا للقلَّة - أدلُّ على أنَّهم أَوْزاعٌ، وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّهم مع ضَعْفِهم بقلَّة العدد آيسون من إسعافٍ بمَدَدٍ، وليس لهم أُهْبَةٌ لقتال لعدم العُدَّة[4].

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾:

العطفُ لبيان ما ذمَّ به فرعونُ بني إسرائيل، فذكر الإغاظة بعد التَّقليل

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ عاطفة أو حاليَّة[5]، وقد أوثر الوصل هنا على الفصل؛ لاتِّحادِ الجملتين الكريمتين في الخبريَّة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 130.
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 51، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 13.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 38.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78.

وعدم وجود ما يقتضي الفصل بينهما، وهو ما يسمِّيه البلاغيّون بالتَّوسُّط بين الكمالَيْن.

وقد حَسَّن الوصلَ هنا اتِّفاقُ الجملتين في الاسميَّة، إضافة إلى ما بينهما من التَّغاير مع وجود التَّلاؤم الفكري بينهما؛ إذ الجملتان مَسوقتان لبيان ما ذمَّ به فرعونُ بني إسرائيل، فكلتاهما تضمَّنت وصف ذمٍّ أراد به الخبيثُ احتقارَهم به، وتأليبَ النّاس عليهم، فوصفهم في الجملة الأولى بالقلَّة والذِّلَّة؛ أي أنَّهم لقلَّتهم لا يبالي بهم ولا يتوقَّع غلبَتَهم وعلوَّهم، ووصفهم في الثّانية بأنَّهم يفعلون أفعالًا تغيظه وتضيِّق صدره، فقال عاطفًا على الأولى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾[1].

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَنَا﴾:

الاختصاص أو التَّقوية، لمساعدة المشتقِّ على التَّعدية

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[2]، وهو المراد هنا، فقوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا﴾؛ أي: لنا خاصَّة ﴿لَغَآئِظُونَ﴾[3]، وفيه دليل على الكِبر والاستعلاء؛ إذ لم يشكُ أحدٌ من قوم فرعون من بني إسرائيل أو يتغيَّظ عليهم، بل كان ذلك مِن فرعون وحده.

وقيل اللّام لام التَّقوية[4]، وهي المزيدة لتقوية عاملٍ ضعُفَ إمّا بتأخُّره؛ نحو: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف: 154]، أو بكونه فرعًا في العمل؛ نحو: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة: 91][5].

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الخبر:

إفادةُ الحصر، للدَّلالة على تعاظم الكِبْر

قُدِّم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الخبر ﴿لَغَآئِظُونَ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾؛ لأجل الحصر ورعاية الفاصلة[6]، وفي هذا الحصر

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 506.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/ 109.

(4) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 13، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 131.

(5) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 286.

(6) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 13، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 81، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 131.

دليل على تعاظم الكِبر، وكأنَّه لم يتغيَّظ على بني إسرائيل إلا فرعون، وذلك لتداعي صرح ألوهيَّته الواهي، فأراد أن يتغيَّظ النّاس كما تغيَّظ هو، فاستخفَّ قومه فأطاعوه، فأغرقهم الله تعالى عقوبةً ونكالًا، وإهلاكًا واستئصالًا.

معنى اللّام، ودلالة اسم الفاعل في قوله: ﴿لَغَآئِظُونَ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لَغَآئِظُونَ﴾ هي لام الابتداء المزحلقة للتَّوكيد[1]، ومعنى اسم الفاعل ﴿لَغَآئِظُونَ﴾ أنَّهم أصحاب غيظ وعداوة لنا؛ يعني: مُبغِضون لنا، أو المعنى: أنَّهم لَفاعلون بنا ما يغيظنا[2].

اللّام للتَّوكيد، واسم الفاعل لتهييج كلِّ قريب وبعيد

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ جملةٌ من المؤكِّدات التي جيء بها لدفع الشَّكِّ ونفي الإنكار، وهي:

توالت المؤكِّدات نفيًا لشكِّ المتشكِّكين، ودفعًا لإنكار المنكِرين

الحرفُ المشبَّه بالفعل (إنَّ) الذي ينوب منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض من التَّأكيد[3]، واللّامُ المزيدة للتَّقوية في قوله: ﴿لَنَا﴾، ولامُ التَّوكيد المزحلقة في قوله: ﴿لَغَآئِظُونَ﴾، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة التي تفيد الثُّبوت؛ أي: غائظون لنا دائمًا وباستمرار[4].

والغرض من توالي هذه المؤكِّدات استثارةُ حميَّة النّاس وإلهابُ غضبهم على بني إسرائيل، ودفع شكِّ المتشكِّكين، وقتل إنكار المنكِرين.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَإِنَّا﴾:

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ عاطفة أو حاليَّة[5]، وقد

العطفُ، وأوثر الوصل بين الجملتيْن لتوسُّطهما بين الكماليْن

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 131، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78، ومحمود صافي، الجدول: 10/ 77.

(2) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 68.

(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.

(4) الهلال، الثري الجامع: 8/ 109.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78.

أوثر الوصل هنا على الفصل لما بين الجملتين الكريمتين من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ ذلك أنَّهما متَّحدتان في الخبريَّة، وليس ثَمَّ ما يقتضي الفصلَ بينهما، وقد حَسَّن الوصلَ هنا اتِّفاقُ الجملتين في الاسميَّة، إضافة إلى ما بينهما من التَّغاير مع وجود التَّلاؤم الفكري بينهما؛ إذ الجملتان مسوقتان لبيان ما قاله فرعون أو الحاشرون لتأليب النّاس على بني إسرائيل.

فذكر في السّابقة ما يمنع الخوف مِن اتِّباعهم، وذكر ما يوجب الحثَّ عليه ويحذِّر من التَّقاعس عنه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، فدلَّ على أنَّ في اتِّباعهم شفاءَ الغُلَل، وعطف عليه ما ينفي عن المتقاعد العِلَل، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[1].

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَجَمِيعٌ﴾:

التَّوكيدُ، لإفادة معنى الاتِّحاد والتَّهديد

اللّام في قوله: ﴿لَجَمِيعٌ﴾ هي لام الابتداء المزحلقة المفيدة للتَّوكيد[2]، أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده، في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلَّف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجز[3].

نكتة تنكير ﴿لَجَمِيعٌ﴾:

التَّكثير، ليقابل بـه التَّقليل والتَّحقير

(جميع) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ على جميع المعاني بمعنى الجمع، وليست التي يؤكَّد بها، ولو كانت هذه المؤكِّدة لنصبت[4]، والتَّنكير فيها للتَّكثير بقرينة مقابلته للتَّقليل في وصف بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾؛ لإبراز المفارقة بين الفريقين.

بلاغة الطِّباق بين ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾، و﴿لَجَمِيعٌ﴾:

يـؤكِّد الطِّباق المعنى بتوضيح وجلاء، فبضدِّها تتميَّز الأشياء

بين قوله ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾ طباق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 39.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 194.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 592.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 82.

إيجاب بين لفظة ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾، ولفظة ﴿لَجَمِيعٌ﴾ يبرز المفارقة، ويوضِّح المعنى ويؤكِّده.

ذلك أنَّه لمّا كان مدار مادة (شَرْذم) على التَّقطُّع، فكان في التَّعبير بها إشارة إلى أنَّهم مع القِلَّة متفرِّقون ليسوا على قلبٍ واحد، وذكر أنَّ في اتِّباعهم شفاءَ الغُلَل - أتبعه ما ينفي عن المتقاعد العِلَل، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾؛ أي: أنا وأنتم جماعة واحدة مجتمعون على قلب واحد، فأشار بهذا الخبر إلى ضدِّ ما عليه بنو إسرائيل مع قلَّتهم ممّا هو سبب للجرأة عليهم[1].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾:

كناية عن وجوب الاقتداء، وتأكيد الاقتفاء

في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ حثٌّ لأهل المدائن على أن يكونوا حَذِرين على أبلغ وجه؛ إذ جعل نفْسَه معهم في ذلك بقوله: ﴿لَجَمِيعٌ﴾ وذلك كناية عن وجوب الاقتداء به في سياسة المملكة، أي: إنّا كلّنا حَذِرون[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في قوله: ﴿حَٰذِرُونَ﴾:

الأصل أنَّ معنى (فَعِل) للطَّبع، و(فاعل) للتَّكلُّف

اختلف القرَّاء في قراءة ﴿حَٰذِرُونَ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، فقرأه الكوفيون وابن ذكوان، وأَحَدُ وَجْهَي هشام عن ابن عامر الشامي: ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بألِف بعد الحاء؛ بمعنى: أنَّهم معدُّون مؤْدُون ذوو أداة وقوَّة وسلاح، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وأحد وجهي هشام عن ابن عامر الشامي: ﴿حَذِرُونَ﴾ بغير أَلِف[3].

فالحاذِر الذي يحذرك الآن، والحَذِر المخلوقُ حَذِرًا لا تلقاه إلا حَذِرًا[4]، فالحاذِر المستعدُّ، والحذِرُ المُتيَقِّظُ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 39.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 131.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 335.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/ 280، والطبري، جامع البيان: 19/ 352، والسمرقندي، بحر العلوم: 2/ 555.
(5) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 92.

والصِّفة إذا كانت جاريةً على الفعل وهي اسم الفاعل واسم المفعول كالضَّارِب والمضروبِ أفادت الحدوثَ، وإذا لمْ تكن كذلك وهي المُشَبَّهةُ أفادتِ الثُّبوتَ.

فمَن قرأ ﴿حَذِرُونَ﴾ ذهب إلى إنَّا قومٌ مِن عادتنا الحذَر واستعمالُ الحَزْم، ومَن قرأ ﴿حَٰذِرُونَ﴾ فكأنَّه ذهب إلى معنى إنَّا قومٌ ما عَهِدنَا أن نحذر إلَّا عَصْرَنا هذا[1].

فائدة التَّعبير بالحذر في قوله: ﴿حَٰذِرُونَ﴾:

مهما دبَّر الكافرون ضدَّ المؤمنين، فالعاقبة للمتَّقين

قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾؛ يعني: نحن قوم من عادتنا التَّيقُّظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارجٌ سارعنا إلى حَسْم فساده، فلا بدَّ لذوي الحزم والعزم من الضَّبط والاحتياط في عموم الأحوال.

وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلّا يُظَنَّ به ما يكسر مِن قهره وسلطانه أو العجز والفتور[2]؛ يعني أنَّه اعتذر مِن إرساله لهم بأنَّهم ليسوا بشيء يخاف منه، وإنَّما يُكْثِر الجيوشَ لحزمه وإراءة قوَّته لهم[3]، وأراد فرعون بهذا القول ألّا تضعف حُرْمَتُه وهيبتُه عند الرَّعايا بما جرى له مع موسى من العصا واليد البيضاء[4].

غير أنَّ كلامه هذا يوحي بهَلَعه وخوفه ممّا فعله موسى عليه السلام، إلّا أنَّه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتَّهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه، وبتحريض قومه على اللِّحاقِ بهم وتأديبهم، وبالظُّهور بمظهر المستعدِّ هو وقومه لمجابهة الأخطار والتَّمرُّد بكلِّ قوَّة وحزم[5].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 506.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 315، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 386، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 43.
(3) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 13.
(4) السخاوي، تفسير القرآن: 1/ 659.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 250.

تأكيد فرعون شكيمتَه، ورَأْبَ الصَّدع الذي شقَّ هيبتَه

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

في الآية الكريمة جملة من المؤكِّدات التي سيقت لأجل تأكيد المعنى ونفي الشَّكِّ، وهي:

الحرفُ المشبَّه بالفعل (إنَّ) الذي ينوب منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض من التَّأكيد[1]، ولامُ التَّوكيد المزحلقة في قوله: ﴿لَجَمِيعٌ﴾، والتَّعبيرُ باسم الفاعل الدّالِّ على الحدوث: ﴿حَٰذِرُونَ﴾، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة التي تفيد الثُّبوت.

والغرض مِن توالي هذه المؤكِّدات نفيُ شكِّ المتشكِّك، وقَتْلُ إنكار المنكِر، وتدعيمُ وجهة نظره التي أراد بها أن يغطيَ الصَّدع الذي أصاب هيبته، فوصف نفسه ورهطه بأبلغ الأوصاف الدّالَّة على أصالة المنزلة وقوة الشَّكيمة[2].

سرّ ذِكر الأمر بالإسراء مسبوقًا بحرف التَّفسير ﴿أَنْ﴾:

ذُكِر الأمر بالإسراء مسبوقًا بحرف التَّفسير في طه والشُّعراء: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، وذِكر ذلك مسبوقًا بحرف العطف والتَّرتيب في الدُّخان: ﴿فَأَسْرِ﴾ [الدخان: 23]؛ ووجهه أنَّه لمّا ذُكر فعل الإيحاء في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: 77]، والشُّعراء: ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، فقد ناسب أن يُذكر معها حرف التَّفسير ﴿أَنْ﴾ لبيان الموحَى به، ولمّا لم يَرِدْ فعلُ الإيحاء في الدُّخان لم يَرِدْ فيها كذلك حرفُ التَّفسير لعدم وجود ما يقتضيه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المدينةُ مِن الإقامة، والقريةُ مِن الجَمع والتجمُّع

المدائن والقُرى:

المدينة مشتقَّة مِن: مَدَن بالمكان، أي: أقام به[3]، أمّا القرية

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78.
(3) الجوهري، الصحاح: (مدن)، والواحدي، البسيط: 9/ 270، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 24.

فهي مشتقَّة مِن: قَرَيتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعته[1]، وجذرها يدلُّ على جمع واجتماع، ومن ذلك القرية، سُمِّيت قريةً لاجتماعِ النّاس فيها[2].

وكلُّ أرضٍ يُبنَى بها حِصنٌ في أُصطمَّتها فهي مدينة[3] (الأُصْطُمَّة والأُسْطُمَّة: وسط الشَّيء أو معظمه ومجتمعه)[4]، وفي ذلك فرق بين المدينة والقرية التي هي تجمُّعٌ لبيوتٍ لَم يُلحَظ فيه التحصُّن[5].

ويُضاف إلى ما سبقَ أنَّ القريةَ: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس المجتمعين أيضًا، ويستعمل في كلٍّ واحد منهما[6]، أمّا المدينة فليست اسمًا للناس المجتمعين.

الحَشْر والجَمع:

الحَشر جَمعٌ مع سَوق

الفرق بينهما أنَّ الحَشرَ هو الجَمع مع السَّوق، والشاهدُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ [الأعراف: 111]، أي: ابعث مَن يجمع السَّحرةَ ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحَشر؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمَعون فيه ويُساقون إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 21]، إذ تأتي كلُّ نفس يومَ القيامة معها مَلَكان، أحدُهما يسوقها إلى المَحْشر، والآخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا، ويقال: القياس جَمعٌ بين مشتبهين يدلُّ الأوَّل على صحَّة الثاني، ولا يقال في ذلك حَشر، وإنَّما الحشر في ما يصحُّ فيه السَّوق كما ذُكِر[7].

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قري)، وأبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 735.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(3) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (مدن).
(4) ابن منظور، اللسان: (سطم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).
(6) الراغب، المفردات، والفيروزابادي، البصائر: (قري).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

الخوف والحَذَر:

الفرق بينهما أنَّ الخَوفَ هو توقُّع الضَّرر المَشكوك في وقوعه، أمّا الحَذَر فهو تَوَقّي الضَّرر سواء كان مظنونًا أو متيقَّنًا[1].

الـخـوفُ ذُعـرٌ وفَـزَع، والـحَذَر تحرُّزٌ وتيقُّظ

وجِذر الخوف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الذُّعر والفَزَع[2]، أمّا جِذر الحَذَر فهو أصلٌ واحدٌ مِن التحرُّز والتيقُّظ[3]؛ ولهذا يقال: خُذ حذرَك، ولا يقال خُذ خوفَك[4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حذر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨
كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾

[الشعراء: 57 - 60]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

من أطاع اللهَ عزَّ في الأرض وساد، ومن كفر أمهله وهو له بالمرصاد

لمّا استخفَّ فرعونُ قومَه فأطاعوه، بيَّن سبحانه أنَّ إرادته هي الغالبة، وأنَّ مشيئته هي القاهرة؛ فلمّا عادى فرعونُ وملؤه أولياءَ اللّٰه وكانوا لهم بالمرصاد، خلق سبحانه فيهم داعية الإقصاء والإبعاد، والحرمان ممّا عاشوا لأجله وكانوا يبغون فيه الازدياد، وجازاهم بما أرادوا أن يجازوا به المؤمنين؛ ليكونوا عبرة لمن بعدهم من المعتدين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكُنُوزٖ﴾: أصل (كنز) يدلُّ على تجمُّع في شيء[2]، وهو من كنَزتُ التَّمر في الوعاء[3]، والكَنْزُ: جعلُ المالِ بعضَه على بعض وحفظُه كالمال المدفون وغيره إذا أُحرِز في وعاء، وقد كنَزَ الإنسانُ مالًا يكنِزه وأكنزَتُه[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: 34]؛ يَدَّخِرونها[5]، واكْتَنَزَ الشَّيءُ: اجتمع وامتلأ[6]، ومعنى قول اللّٰه تعالى: ﴿وَكُنُوزٖ﴾؛ أي: الأموال الظّاهرة من الذَّهَب والفِضَّة[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 41، 42، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 67، والهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 210.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنز).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كنز).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كنز).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كنز).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كنز).
(7) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 114، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 565.

2) ﴿وَمَقَامٍ﴾: أصل (قَوَم) يدور حول معنى الانتصاب أو العزم على الشَّيء[1]، وقام يقوم قيامًا، فهو قائم، وجمعه قيام[2].

والقيام: نقيض الجلوس[3]، وأقام بالمكان إقامة ومُقامًا: لَبِث[4]، وأقام الشَّيءَ: أدامه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][5].

"وكلُّ من ثَبَتَ على شيء وتمسَّك به فهو قائم عليه"[6]، ويقال لمن لم يُطِق فعل شيء، ولم يَقْدِر عليه: لم يَقُم به[7].

وقِوام الأمر: نِظامُه وعِمادُه، وقِوام كلِّ شيء ما يقوم به الشَّيء، أي: يَثْبُت، كالعِماد والسِّناد: لِما يُعْمَد ويُسْنَد به[8]، ومنه قِوام الحقِّ، وقِوام الدّين[9].

والمُقام يكون مصدرًا، واسمَ مكانِ القيام وزمانه، وممّا هو اسم مكان القيام ما جاء بمعنى موضع القدمين[10]، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: مجلس حسن، أراد مجالس الأمراء والرُّؤساء التي كانت تحفُّها الأتباع[11]؛ فيكون مقام في هذا الموضع اسم مكان.

3) ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾: الوِرْث والوِراثةُ: انتقال قِنْيةٍ إليك عن غيرك من غير عَقد، ولا ما يجري مجرى العقد[12]، وهو أن يكون الشَّيء لقوم ثُمَّ يصير إلى آخرين بنَسَبٍ أو سَببٍ[13]، ثمَّ تُطْلَق الوراثة والإرث على نفس المال المنتَقِل عن الميت، فيقال للقِنْية الموروثة: إرث وميراث، وأصله: مِوْراث، وقلبت الواو ياء، وتراث أصله وُراث، وقُلِبَتِ الواو تاء، ومنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قوم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(5) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قوم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قوم).
(9) ابن فارس، المجمل: (قوم).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قوم).
(11) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 114.
(12) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورث).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).

قوله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ [الفجر: 19][1]، ويقال: ورِثْتُ الشَّيء من أبي، وعنه، أَرِثه وِرثًا ووِراثَة وإِرْثًا، وأورثني الميتُ كذا، وأورثني اللّه كذا[2]، وأيضًا: يقال لكلِّ ما حصل من غير تعب: قد ورث كذا، ويقال: لمن خوِّل شيئا مُهَنِّئًا: أورث، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72][3].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أراد أنَّ جميع ما ذكره اللّه مِنَ الجنّات والعيون والمقام الكريم أورثه اللّه بني إسرائيل لمّا أرجعهم إلى مصر بعد هلاك فرعون، وما استعاروه من حُليّ آل فرعون بأمر اللّه[4].

4) ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾: أصل (شرق) يدلُّ على إضاءة وفتح[5]، وشَرَقَتِ الشَّمس تشرُق شُروقًا: طَلَعَتْ، وأشرقَتْ: أضاءَتْ، قال اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص: 18][6].

والمَشرِق والمَغرِب إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتَي الشَّرق والغرب[7]، وإذا قيلا بلفظ التَّثْنيَة، فإشارة إلى مَطْلَعي ومَغْرِبَي الشِّتاء والصَّيف[8]، وإذا قيلا بلفظ الجمع، فاعتبار بمطلع كلِّ يوم ومغربه[9].

وأشرق الرَّجُلُ؛ أي: دخل في شروق الشَّمس، وأَشْرَقَ وجْهُه: أضاء وتلألأ[10]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾؛ أي: لَحِقوهم وقتَ شروقِ الشَّمس[11].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

في هذه الآيات الكريمات بيانٌ لما حلَّ بفرعون وقومه من هلاك بسبب كفرهم وبغيهم، وبيانٌ لما اقتضته إرادة اللّه ومشيئته فيهم؛ حيث يقول سبحانه: فأخرجنا فرعون وقومَه

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورث).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ورث).

(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورث).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 100.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).

(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرق).

(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرق).

(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرق).

(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرق).

(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شرق).

(11) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 115.

من أرض مصر ذات البساتين التي كانوا يعيشون فيها، وأنهار عذبة كانوا يشربون منها، وأموال ظاهرة من ذهب وفضَّة كانوا لا يؤدّون حقَّها، ومجالسَ حسنةٍ كانوا منعَّمين بجمالها، كذلك كان الإخراج لهم كما وصفنا لكم أيُّها المعتبرون، ثمَّ ملَّكنا بعد ذلك تلك الديار والنِّعم لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون وقومه، فلحقَ فرعونُ وجندُه موسى ومَن معه وقتَ شروق الشمس؛ ليردّوهم ويَحولوا بينهم وبين الخروجِ من البلاد[1].

دمار الظّالمين وهلاك المسرفين فيه كبير آية من قدرة الله رب العالمين

وترشدُ الآياتُ الكريمة إلى أنَّ المُلك للّه سبحانه يؤتيه من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء، ويُعِزُّ من يشاء بطاعته، ويُذِلُّ من يشاء بمعصيته، وإلى هوانِ الخلق على اللّه إذا هم عصَوْه، وإلى أنَّ دمار الظالمين وهلاك المسرفين سببه الكفر والشر والفساد[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾:

العطف للتّعقيب؛ لإفادة أنَّ الأمر كلّه بيد الحسيب الرَّقيب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾ عاطفة[3] تفيد التَّرتيب والتَّعقيب، أي أنَّه سبحانه بعد هذا الفزع بيَّن مآل أمرهم، وقد يقال: يكون إغراقهم معقِّبًا لقول فرعون مع أنَّ بينهما حوادث، والجواب عن ذلك: الإشارة إلى أنَّ اللّه تعالى قدَّر ذلك واقعًا وتكوينًا، عندما أخذ فرعون الطّاغية ومعه ذلك الذُّعر، فكأنَّه وقع عقبه، لتأكُّد وقوعه[4].

دلالة التَّعبير بالماضي في: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾:

الماضي لإفادة التحقُّق، وأنَّ كلَّ شيء بأمر الله محقَّق

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾ ماضيًا؛ لإفادة تحقُّق وقوع هذا الإخراج لهم، وأنَّه شيء وقع وانقضى، وجريًا على الظّاهر في حكاية خبرٍ مضى، مع عدم وجود داعٍ للعدول عن هذا الظّاهر.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 578 - 580.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 652 .

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 41، وأبو زهرة، زهرة التفسير: 10/ 360.

(4) أبو زهرة، زهرة التفسير: 10/ 360.

نكتة إسناد الفعل لنون العَظَمَة:

بيان القوّة والاقتدار، وخلق الباعث على مفارقة الدّيار

أُسنِد الفعل لنون العظمة في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾؛ لأنَّ المُراد: إنّا جعلنا في قلوبهم ما يدعوهم ويحملهم ويدفعهم إلى الخروج، فاستوجبت هذه الدّاعية الفعلَ الذي هو الخروج، فكان الفعل مضافًا إلى اللّه تعالى لا محالة، وكانت هذه القدرةُ العظيمة على جعل الدّاعية القائمة في نفوس هؤلاء المُخرَجين تحملهم على الخروج؛ مناسبةً لاستعمال نون العظمة[1].

توجيه المراد بالضَّمير الغائب في فعل الخروج:

الإخراج دليل التَّمايز والتَّمحيص، بإبقاء المؤمن وإخراج الكافر الخبيث

ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾، يعود إلى فرعون وجنده من القبط[2]، وإنّما لم يأتِ بالاسم الظّاهر، فيقول: (أخرجنا فرعونَ وجندَه)؛ لأمن اللُّبْسِ، ومعرفة المقصود من عود ضمير الغائب، ولظهور التَّمايُز بين المؤمنين والكافرين؛ إذ اللّه ﷻ قد أعزَّ بني إسرائيل لإيمانهم به، وأخرج فرعون وجنوده من نعيمهم لكفرهم به.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في الآية:

(مِن) لابتداء الغاية؛ إشارة لأوَّل طريق الغَواية

الأصل في معنى (مِن) أنَّها موضوعة للدَّلالة على ابتداء الغاية؛ كقولك: سِرتُ من البصرة إلى الكوفة[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾؛ أي: جعلنا ابتداءَ إخراجهم من موضع الجنّات والعيون، وهي بساتين أرض مصر؛ إبرازًا للمفارقة بين المُخرَج منه والمخرَج إليه، وتشنيعًا من جرم الكفر، وتهويلًا لعاقبته.

نكتة تنكير ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ ومعنى الجمع فيهما:

أوثر التَّنكير لإفادة التَّعظيم والتَّكثير

جاءت كلمة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ نكرةً للتَّعظيم، وكلمة ﴿وَعُيُونٖ﴾ للتَّكثير،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 506، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 139.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 132.
(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

وجاء هذا التَّنوُّع في معاني التَّنكير بين المتعاطفَيْن من اختلاف صيغة الجمع في كلٍّ، فكلمة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ مجموعة جمع مؤنَّث سالم الذي يفيد القِلَّة، فناسب معنى التَّعظيم، فهي جنّات عظيمة، وإن لم تكن كثيرة، فقِلَّتُها دليل عَظَمَتِها من حيثُ تَفَرُّدها وقِلَّةُ نظيرها، وهو الأليق في وصف الجَنّات.

وكلمة ﴿وَعُيُونٖ﴾ مجموعة جمع تكسير على صيغة من صيغ جمع الكثرة، فأفادت مع التَّنكير معنى الكثرة؛ أي عيون كثيرة، وكثرة العيون من الأمور المرغوب فيها؛ لتكثير المشارب وتنوُّعها، فيأْمَن الشّارب مِنَ التَّدافُع والتَّزاحُم عليها.

دلالة عطف العيون على الجنّات:

الجنّات تحتاج للعيون؛ لأنَّ بقاءها إنَّما بالماء يكون

أفاد عطف العيون على الجَنّات في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ الإشارة إلى أنَّ الجَنّات لا تكون إلا مع مادَّة حياتها وبقائها من العيون النّابع منها الماء، الذي تحتاج إليه الجَنّات للنُّموِّ والبقاء؛ فتمام الإنعام بالجَنّات لا يكون إلا بوجود مصدر دائم للماء، الذي هو العيون، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، وأيضًا، فإنَّ الجَنّات مصدر للطَّعام الطَّيب، والعيون منبع للشَّراب العذب الرّائق، فالجمع بينهما وعطف العيون على الجَنّات جَمَعَ للممتَنِّ عليهم بهذه النِّعمة أصنافَ النِّعَم الضَّروريَّة للعيش الطَّيب، فيكون إخراجُهم منها، وسلبُهم إياها حسرةً وندامة، وعقوبة شديدة بقدر حاجتهم لها، وتنعُّمهم بها قبل الإخراج منها.

علَّة وصل قوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ بسابقه:

وصل للتّفرقة والتمييز، وبيان حرمانهم من كلِّ ما هو عزيز

وُصِل قوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ بسابقه؛ للإشعار بأنَّه يوجد تغاير بين الجملتين مع اتِّحادهما في مسألة الحرمان؛ يعني أنَّهم كما حُرموا من الجنّات والعيون والنَّعيم، حُرِموا أيضًا من مجالسهم الفاخرة ومنازلهم الباهرة وكنوزهم المتكاثرة؛ فأُخرِجوا

من النَّعيم إلى الجحيم بعد أن تمتَّعوا دهرًا طويلًا وقضوا بلذَّته عمرًا مديدًا، مصرِّين على الكفر والفساد، والتَّكبُّر على العباد، فتزداد بذلك الحسرة والنَّكال، ويُعلم أنَّ الأمر بيد الله الكبير المتعال[1].

سرُّ تخصيص المُخرَج منه وترتيبه بدءًا بالجنّات، وانتهاء بالمقام الكريم:

التَّرتيب حسب الأهميَّة، وما له في قلوبهم منزلة عليَّة

جاء التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ حَسَب الأهميَّة بالنِّسبة لهم؛ فجاءت الجنّاتُ أوَّلًا، حيث إنَّ بَساتينهم كانَت ممتدَّة على حافتيِ النِّيل من أَعْلاهُ إِلَى آخِره، وفيه إشارة إلى نيلها السَّعيد.

وجاءت العيون ثانيًا، حيث إنَّهم كانوا يملكون واحدًا من أعظم أنهار الدُّنيا وهو نهر النِّيل، وقد كانت الآبار بين مصر وليبيا، تجري فيها عيون الماء، فتخصب الأرض[2].

وجاءت الكنوز ثالثًا، حيث إنَّ أرضها كانت مملوءة في باطنها بالمعادن والفلزّات، وكنوز مَن سبقوهم مِن الفراعنة، كما لا تزال آثار من قبل فرعون موسى، مملوءة بالآثار الدّالَّة على قوَّة سلطانهم وثرائهم[3].

وجاء المقام الكريم رابعًا، حيث إنَّهم - نتيجة الثَّراء الكثير، والخير الوفير كانت منازلهم مشيَّدة، ومجالسهم فخمة[4].

نكتة تنكير ﴿وَكُنُوزٍ﴾ ومعنى الجمع فيها:

حسرة مريرة لضياع الكنوز الكثيرة

جاءت كلمة ﴿وَكُنُوزٍ﴾ مُنَكَّرة لإفادة التَّكثير؛ لأنَّ أرض مصر كانت فيها كنوز كثيرة، وممّا يؤيِّد ذلك ويؤكِّده مجيء الكلمة جمعًا على صيغة الكثرة[5].

---

(1) المراغي، تفسير القرآن: 19/ 67، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 48.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 360.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 360.
(5) البروسوي، روح البيان: 6/ 277.

دلالة تسمية متروك آل فرعون بالكنوز:

إطلاق كنوز على ما تركوه؛ لما فيه من حقٍّ لله لم يعرفوه

سُمّي ما تركه آل فرعون، وما خلَّفوه وراءهم كَنْزًا، وهي الأموال الظّاهرة - وإن لم تكن مكنوزة ومدفونة - لأنَّه لم يُؤَدَّ حقُّ اللّه فيها، وكلُّ ما لم يُعطَ حقُّه، ولم يؤدَّ حقُّ اللّه منه، فهو كنز وإن كان ظاهرًا[1].

نكتة تنكير ﴿وَمَقَامٍ﴾، ودلالة وصفه بـ﴿كَرِيمٍ﴾:

تنكير مقام للتَّعظيم بدلالة وصفه بالكريم

جاءت كلمة ﴿وَمَقَامٍ﴾ نكرةً لإفادة التَّعظيم؛ لأنَّ المراد من هذا المقام هي المنازلُ الحسنة، والمجالسُ البهيَّة[2]، ولهذا جاء وصفه بـ﴿كَرِيمٍ﴾ مناسبًا لإفادة التَّعظيم الذي دلَّ عليه التَّنكير.

معنى التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾:

تشبيه الشَّيء بنفسه دليل عظمته، وبرهان رفعته

معنى التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾؛ أي: أخرجناهم مثلَ ذلك الإخراج الذي وصفناه[3]؛ وذلك لإفادة تعظيم المشبَّه، وبيان أنَّه قد بلغ الغاية في علوِّ الشَّأن بحيث إنَّه لو أُريد تشبيهُهُ بشيء، لشُبِّه بنفسه، ووجه ذلك التَّعظيم أنَّ إخراج فرعون وجنده من بساتينهم وأنهارهم وكنوزهم مع تملُّكهم لها، وشدَّة تمكُّنهم منها، ما كان يَقْدِرُ على إخراجهم منها إلّا مَن بيده ملكوت كلِّ شيء، وإليه يرجعون، فكان إخراجًا عظيمًا جُعِل مثالًا لما تلاه، وبرهانًا على شدَّة أخذ اللّه.

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾:

الإشارة في سياق المدح للبعيد تفيد معاني التَّعظيم والتَّمجيد

جاء التَّعبير باسم الإشارة للبعيد؛ لإفادة التَّعظيم، حيث إنَّ كاف التَّشبيه جاءت لتشبيه الخروج بذلك الإخراج المذكور، فيكون المعنى: مثلَ ذلك الإخراج العظيم أخرجناهم، وفيه إشارة إلى أنَّ فرعون وجنوده بتجبُّرهم ما كان يقدر على إخراجهم إلّا ربُّ الأرباب الجبّار القهّار، المُخرِج له ولجنوده هذا الإخراج العظيم.

---

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 325، والطِّيبي، فتوح الغيب: 11/ 364.

(2) البروسوي، روح البيان: 6/ 277.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 364، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 82.

معنى الواو ودلالتها في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾:

اعتراضيَّة بين المعطوفتيْن لإفادةِ هلاكِهم بقضاء العليِّ الكبير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ اعتراضيَّة[1]، تفيد أنَّ جملة ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جملة اعتراضيَّة بين المعطوف عليه ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾ والمعطوف ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾[2]، وقد أفاد هذا الاعتراض بيانَ أنَّ قوم فرعون لن يعودوا بعد خروجهم هذا، أي أنَّهم بمجرَّد خروجهم قضى اللّه أن يكون ما تركوه ميراثًا لغيرهم من أهل مصر، وأنَّهم سيَهْلِكون فلا يرجعون.

دلالة التَّعبير بالماضي في فعل الإيراث:

إفادةُ تحقُّق الوقوع، فخروجهم ليس بعده رجوع

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ ماضيًا؛ لإفادة تحقُّق وقوعِ هذا الإيراثِ لبني إسرائيل، مصداقًا لوعده سبحانه إيّاهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 128 - 129]، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعراف: 137]، وأنَّه شيء وقع وانقضى، وجريًا على الظّاهر في حكاية خبر مضى، مع عدم وجود داعٍ للعدول عن هذا الظّاهر.

نكتة إسناد الفعل لنون العَظَمَة:

بيانُ قدرته بالإقصاء والإبعاد، وإيراث النَّعيم لمن شاء من العباد

أُسنِد الفعل ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ إلى نون العظمة؛ تنبيهًا على أنَّ تحويل حال بني إسرائيل من الاستعباد إلى وراثة هذا النَّعيم وتملُّكِه إنَّما هو من آثار عظمة هذا الرَّبِّ الجليل القادر ومقتضيات قدرته، الذي

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 11/ 364، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.

هو كلَّ يوم في شأن، فناسب أن يُسنَد الفعل إلى نون العظمة تنبيهًا على ذلك.

توجيه عَوْدِ ضمير الغائب في: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾:

عـائـد إلى الأجنـاس المذكورات من الكنوز والعيون والجنّات

ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ عائد إلى أجناس الأشياء المعدودة، أي: أعطيناهم من جنس الجَنّات والعيون والكنوز مثلَ ما كان لفرعون وقومه، من جنّات وعيون، وكنوز الكنعانيين حتَّى سلَّط اللّه عليهم بني إسرائيل، فغلبوهم على أرض فلسطين والشّام[1].

نكتة التَّعبير بالإيراث:

التَّعبير بالإيراث؛ لسرعة التَّملُّك والانبعاث

أوثِر التَّعبير بالإيراث للدَّلالة على التَّملُّك في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ الوارثين لم يتملَّكوا تلك الجَنّات والعيون والكنوز بالفعل بمجرَّد خروج فرعون وجنوده منها، بل مُكِّنت لهم، فالمعنى: مكَّنّا تلك الجَنّات والعيون والكنوز والمقام الكريمَ إيّاهم على طريقة مال المُوَرِّث للوارث؛ لأنَّ الوارثَ ينتَقِل المالُ لملكه بمجرد موت مورِّثِه، لا بقبضه للمال بالفعل، فشابهت صورةُ التَّمكُّن للجَنّات والعيون والكنوز بمجرد إخراج فرعون وجنوده منها، دون تملُّك لها بالفعل، بصورة تمكُّن الوارث من مال مورِّثِه بمُجَرَّد موته، وإن لم تكن يده على ذلك المال بالفعل؛ كأنَّهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسَلَّموها[2].

وفيه إشارة إلى أنَّ إخراجهم منها لا عودة بعده إليها مرَّة أخرى، فهو خروج باتٌّ لصلتهم بهذه الجَنّات والعيون والكنوز، كما هو الحال في الموت، لا عودة منه إلى الحياة، ولا سبيل إلى استرجاع المال الموروث.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.
(2) البروسوي، روح البيان: 6/ 278.

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾:

الفاء عاطفة للتَّفريع؛ لزيادة التَّوبيخ والتَّقريع

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾ عاطفة تفيد التَّفريع[1]، عطفت جملة ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾ على جملة ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾، والتَّقديرُ: (فَأَخْرَجْناهم فأَتْبَعوهم)، وما بينهما اعتراض؛ فالإتْباع عقب الإخراج لا الإيراث[2]، ولمّا وصف سبحانه الإخراج، وصف أثَرَه فقال مُرَتِّبًا عليه بالفعل وعلى الإيراث بالقوَّة: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾، أي: جعلوا أنفسهم تابعة لهم[3].

توجيه عود الضَّمائر في: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾:

التَّعبير بالضَّمير؛ للاختصار، وشدَّة الوضوح والإظهار

يعود ضمير الفاعلين في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾ على فرعون وجنوده، ويعود ضمير الغائبين على نبيِّ اللّٰه موسى عليه السلام وبني إسرائيل، ولم يُعَبَّر بالاسم الظّاهر في كلا الضَّميرين، فيقال: (فأتبع فرعونُ وجنودُه موسى وبني إسرائيل)؛ لأمن اللَّبْسِ وتبادُر العود المقصود إلى الذِّهن، مع كون الإضمار أخْصَر من الإظهار، وهو ما يتناسب مع مراد الآية في تصوير سرعة ملاحقتهم لموسى عليه السلام وبني إسرائيل.

دلالة التَّعبير بالماضي في فعل الإتباع:

إبرازُ معنى التَّحقيق، وهو بإفادة التَّوكيد حقيق

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾ ماضيًا؛ لإفادة تحقُّق وقوع إتباع فرعون وجنوده لموسى عليه السلام وقومه وملاحقتهم لهم، وأنَّه شيء وقع وانقضى، وجريًا على الظّاهر في حكاية خبر مضى، مع عدم وجود داعٍ للعدول عن هذا الظّاهر.

توجيه المراد بقوله تعالى: ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾ بين الزَّمان والمكان:

وقت الشُّروق على الزَّمانيَّة، أو جهة الشَّرق على المكانيَّة

﴿مُّشۡرِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ حال من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 134، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 78.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 364، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 82.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 42.

الضَّمير المرفوع، يجوز أن يكون معناه قاصدين جهة الشَّرق، يقال: أشرق، إذا دخل في أرض الشَّرق، كما يقال: أَنْجَد وأَتْهَم وأَعْرَق وأَشْأَم للدُّخول في هذه المناطق المذكورة، ويُعلَم من هذا أنَّ بني إسرائيل توجَّهوا صوب الشَّرق، وهو صوب بحر (القُلْزُم)، وهو البحر الأحمر، وسُمّي يومئذ بحر (سوْف) وهو شرقيُّ مصر[1].

ويجوز أن يكون المعنى داخلينَ في وقت الشُّروق من أشرقت الشَّمس شروقًا إذا طلعت؛ أي: أدركوهم عند شروق الشَّمس بعد أن قضَوْا ليلة أو ليالي مشيًا، فما بَصُرَ بعضُهم ببعض إلا عند شروق الشَّمس بعد ليالي السَّفَر[2]، ومنه قول العرب في الجاهليَّة: (أَشْرِقْ ثَبيرُ، كَيْما نُغيرُ)[3]؛ أي: ادْخُلْ في شُروقِ الشَّمس[4].

فرادة استعمال مادّة الإخراج في السياق:

جاء هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، وقد جاء في الدخان قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 25]، لأنّ سيقا سورة الشعراء يتضمّن ذِكر فرعون وما كان فيه من الملك الذي خضعت له به المدائن، وذلَّ له به النّاس، وما جمع من أموال، وجند، وعزَّة، ولأنّ الإخراج أشدُّ من التَّرك؛ إذ التَّرك يكون اختيارًا أو إكراهًا، أمّا الإخراج فيقتضي مخرِجًا يكون منه الفعل، ومخرَجًا يقع عليه الفعل، ومخرَجًا منه وهو ظرف الفعل، ودلالته على الإلجاء والإكراه أكثر.

فلمّا أُريد إبرازُ المفارَقة بين حال العزَّة وحال الذِّلّة، والتَّوكيد على عِظَم الآية وجلال المِنَّة، في إهلاك الله تعالى الكافرين، وإنجائِه عبادَهُ المؤمنين - ناسب أن يكون التَّعبير بما فيه دلالة على الإلجاء والإكراه؛ إذلالًا للأنوف وإخضاعًا للجباه، ولمّا خرج فرعون بِقَضِّه وقَضيضِه، وجنده لإنفاذ وعيدِه، فقد ناسب أن يعبَّر عن إهلاكهم بالإخراج، فقيل: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 134.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 134، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 506، وأبو حيّان، البحر المحيط في التفسير: 8/ 159، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 83.

(3) كما ورد في الحديث عن عمر ﷺ، قال: «كان أهلُ الجاهليَّةِ لا يُفيضونَ مِن جَمْعٍ، حتى يَرَوُا الشمسَ على ثَبِيرٍ، وكانوا يقولونَ: أشرِقْ ثَبيرُ كيما نُغيرُ، فأفاضَ رسولُ اللهِ ﷺ قبلَ طلوعِ الشمسِ»، أخرجه البخاري، صحيحه: (1684)، وأبو داود، سننه: (1938)، والترمذي، جامعه: (896)، والنسائي، سننه: (3047)، وابن ماجه، سننه: (3022)، وأحمد، مسنده: (295) واللفظ له.

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن: 317.

أمّا في سورة الدُّخان فلم يتقدَّم فيها شيء من ذلك، بل جاء فيها قول اللّه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾ [الدخان: 24]، فأوحي إلى موسى عليه السلام أنَّ مصير فرعون وجنده هو الغرق المحتوم؛ فلذلك قال اللّه تعالى بعده: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٢٥﴾ [الدخان: 25]، والتَّرك هنا مستعمل في معنى ترك الشَّيء غلبةً دون اختيار؛ كما يقال: (ترك الميّت مالًا)[1].

فتحصَّل ممّا سبق مشهدان:

أحدهما: مشهدُ إخراجِ فرعونَ وجنده من مُلكِهم وكنوزِهم وبساتينهم، وكان هذا قبل الإغراق؛ لأنَّ الإغراق مذكور بعده في سورة الشُّعراء، حيث قال اللّه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، ثمَّ قال بعدها بثماني آيات: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء: 66].

والآخر: مشهد موت فرعون وجنده غرقًا وتركِهمُ الزُّروعَ والجنّاتِ والعيونَ، وهو المذكور في الدُّخان: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٢٥﴾ [الدخان: 24 - 25]، وبين الآيتين محذوف مفهوم من القصَّة[2].

فمشهد الإخراج سابق لمشهد الإغراق، فخُصَّت به السّورة السّابقة في ترتيب النُّزول وترتيب المصحف، وهي الشُّعراء، وخُصَّت الأخرى بالمشهد الأخير، مع ما بين الأمر بترك البحر رهوًا وبين ذِكر ترك الجنّات والعيون (في الدُّخان) من المشاكلة.

اختصاصُ موضع سورة الشُّعراء بذِكْرِ الكنوز:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ استعمال مفردة الكنوز، وذلك لمناسبة السياق، وذلك أنَّه تقدَّمها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، فذُكِرَ فيها الأجرُ، وذِكرُ الأجرِ يناسبه ذكر الكنوز.

وأمّا موضع سورة الدُّخان اختصّ بذكر الزُّروع - وهو الأنسبُ لموضوعها وسياقاتها - ، ذلك لأنَّه قد تقدَّم فيها ذِكر ما عذَّب اللّه تعالى به قريشًا من الجَدْب والقَحْط حتَّى إنَّ الرَّجل منهم كان يرى كهيئة دخان في السَّماء من الجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ [الدخان: 10][3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 301.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 301.

(3) متَّفق عليه، أخرجه البخاريُّ، كتاب التَّفسير، سورة حم الدُّخان، الحديث رقم: (4821)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنَّة والنّار، الحديث رقم: (2798).

ثُمَّ ذُكرتْ من بعد ذلك قصَّةُ نبيِّ اللّٰه موسى عليه السلام مع فرعون وقومه لتكون مثَلًا لحال المشركين مع النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين به، وجعل ما حلَّ ببني إسرائيل إنذارًا بما سيحلُّ بالمشركين من القحط والبطشة مع تقريب حصول ذلك وإمكانِه ويُسره[1].

فالحاصل أنَّه لمّا ذُكر الوعد بالأجر الجزيل في الشُّعراء ناسبه ذِكر الكنوز؛ إذ كلاهما مال، ولمّا ذُكر العذاب بالقحط والجدب في الدُّخان ناسبه أن يُذكر مثيلُه ممّا حدث مع قوم فرعون الذين تركوا الزُّروع والمقام الكريم.

فكلا الأمرين تركوه؛ لأنَّ مصر ذات زروع، والكنوز هي ما كانوا يدَّخرونه من الأموال على قول[2]، غير أنَّ الكنوز أبلغ فيما فات على فرعون، فناسب أن يعبَّر بها في الموضع الذي بُسِط فيه ذكرُه وملكه وتسلُّطه[3]؛ ليكون ذلك أبرز في المفارقة بين الحالين.

فائدة تخصيص ذكر ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في الشُّعراء:

وقد جاء في سورة الدخان: ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 28] في الدُّخان؛ فلأنَّه لما تقدَّم في الشُّعراء ذِكرُ بني إسرائيل ونعمة اللّٰه عليهم بغرق عدوِّهم ونجاتهم منه؛ ناسبَ ذِكر نعمته عليهم بأن أورثهم النِّعم المذكورة من الجنّات والعيون والكنوز والمقام الكريم؛ أي: أورثهم إيّاها أو أمثالها في الشّام لا في مصر، فقال: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

ومناسبة ذلك أنَّ القَوْمَيْن (بني إسرائيل وقوم فرعون) أُخرِجا ممّا كانا فيه، فسُلِب أحدُ الفريقين ما كان له دون إعادة؛ لأنَّهم هلكوا (وهم قوم فرعون)، وأعطي الفريق الآخر أمثال ذلك في أرض فلسطين (وهم بنو إسرائيل)، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ تشبيه بليغ[4].

أمّا قوله تعالى في الدُّخان: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 28] فهُم قومٌ ملَكوا مصر بعد هلاك فرعون وقومه؛ فإنَّه لم يُنقل قطُّ أنَّ بني إسرائيل بعد غرق فرعون رجعوا إلى مصر، بل الوارد أنَّهم دخلوا في التِّيه، ثمَّ دخلوا الأرض المقدَّسة[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 294.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 278.
(3) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 335.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 279 و335، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 303.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 279.

والحاصل أنَّ سورة الشُّعراء خَصَّتْ إيراثَ بني إسرائيل أمثالَ كنوز قوم فرعون؛ لأنَّ سياق السّورة دائرٌ في فلَك إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين كما دلَّت عليه القصص الواردة فيها.

أمّا سورة الدُّخان فقد خُصَّت بإيراث الأرض والزُّروع لقوم آخرين دون قوم فرعون الهالكين؛ لأنَّها - مع بيانها إنجاءَ المؤمنين - قد عرَّضت بأهل مكَّة المكذِّبين، فكأنَّه قيل لهم: إن لم تتوبوا وتؤمنوا فسوف نسلِّط عليكم مَن يقاتلكم، ويرث أرضكم ودياركم وأموالكم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَقام والمُستَقَرّ:

في المَـقـام انـتـصـاب، وفي المستقَرّ ثَبات

المَقام في اللغة يكون موضع القيام ويكون مَصدرًا مِن: قام يقوم[1]، وممّا يدلُّ عليه الجذر: الانتصاب[2]، والمعنى المحوريّ له: انتصاب الشيء إلى أعلى ثابتًا، كقامة الإنسان وقيامِه[3].

أمّا المعنى المحوريّ لجذر المستقَرّ فيدور حول الثَّبات، وبهذا المعنى كلُّ مُستقَرّ، وذلك في حال كَونه مَصدرًا أو مكانَ استقرار[4].

الكنز والذُّخْر:

الـكَـنـز يَـلـزمـه الامتلاء والذُّخْر لا يَلزمه

الكَنْز: جَعلُ المال بعضه على بعض وحفظه، وأصله مِن: كنزتُ التَّمرَ في الوعاء[5]، والكَنز: اسم للمال المدفون تحت الأرض[6]، وهو اسم للمال إذا أُحرِز في وعاء ولِما يُحرَز فيه[7]، وكلُّ شيء غمزتَهُ بيدك أو برِجْلِكَ في وعاء أو أرض فقد كَنَزْتَه[8].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 105.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرر).
(5) الراغب، المفردات: (كنز).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (كنز).
(7) ابن منظور، اللسان: (كنز).
(8) الفيروزآبادي، البصائر: (كنز).

وجذر الكنز أُصَيلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ في شيء[1]، ومعناه المحوري: حِفظُ الشَّيء في باطنٍ يُمسِكه ويستره، ويلزمه امتلاءُ الباطن[2].

والذُّخْر: خَبْءُ الشيء لوقت الحاجة[3]، يقال: ذَخَرَ الشَّيءَ ذُخرًا، أي: خَبَأَهُ لوقت حاجته[4]، وجِذر الذُّخْر أصلٌ يدلُّ على إحرازِ شيءٍ يحفظُه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كنز).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ذخر).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ذخر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذخر).

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾

[الشُّعراء: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من مَشهَدِ الفِرارِ إلى مَشهَدِ اللّقاء

لمّا ذَكَرَت الآياتُ السابقةُ خروجَ فِرعونَ وجنودِه لِمُلاحَقة موسى عليه السلام ومن معه مِن بني إسرائيل، فلَحِقوهم عند شروق الشَّمس صباحًا على خليج البحر، وصارا بحيث يَرى كُلٌّ منهما الآخَر[1]، ناسب ذِكرُ المَوقِف الذي حصل عند المُلاقاة، وبيانُ موقِفِ أصحاب موسى عليه السلام ممّا شاهدوه، فهو انتقالٌ من بيان مشهد الفرار، إلى بيان مشهد اللّقاء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرَٰٓءَا﴾: (رأى) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ[2]. (تَفاعل) من (رَأَى) التي أصلها: (رأي)، لقولِهم: (رُؤْية)، كما في قول الشّاعر:

وكلُّ خليلٍ راءَني فهو قائلٌ *** مِنَ اجْلِكِ هذا هامَةُ اليوم أَوغدِ[3]

وتُحذَفُ الهمزةُ من مُستَقْبَلِه[4]، يُقال: تَرَى ويَرَى ونَرَى، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ [مريم: 26].

والرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيّ، نحو قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التَّكاثر: 6 - 7][5]، وقولُه تعالى: ﴿تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ تفاعُلٌ من الرُّؤية، أي: تقابَلا بحيث يَرى كلُّ فريقٍ صاحبَه[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 135، وحجازي، التَّفسير الواضح: 2/ 754.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) هذا البيت لكثيّر عزَّة في ديوانه: ص: 435، وساقه ابن الأنباري في الأضداد، ص: 325.
(4) سيبويه، الكتاب: 2/ 165، وقال: "وممّا حُذِف في التَّخفيف - لأنَّ ما قبلَه ساكن - قوله: أرى وترى ونرى".
(5) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 135.

2) ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: (جمع) أصلٌ يدلّ على ضمِّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضِه من بعض، يُقال: جَمَعَ الشَّيءَ المتفرِّقَ فاجْتمَع، قال ﷻ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾ [القيامة: 9]، وقال تعالى: ﴿جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [الهمزة: 2][1].

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: جمعُ موسى ﷺ وجمعُ فرعون[2].

3) ﴿لَمُدۡرَكُونَ﴾: (درك) أصلٌ واحد، وهو لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ ووصولُه إليه، يُقال: أدركتُ الشَّيءَ أُدْرِكُه إدْراكًا، ويُقال: أَدْرَكَ الغلامُ والجاريةُ: إذا بَلَغا، وتدارك القومُ: لحقَ آخِرُهم أوَّلَهم، ويُقال لِما يَلحَقُ الإنسانَ من تَبِعَةٍ: دَرَكَ، قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77][3].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾: أي: سيُدرِكُنا جَمعُ فرعون هذا الكثير، ولا طاقةَ لنا بهم[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

تُخبِرُ الآيةُ عن وقت مراءاة الجَمعَين، أي: لمّا صارَ جَمعُ موسى ﷺ وجمعُ فرعونَ بحيث يرى كلٌّ منهما الآخَر، قال أصحابُ موسى: إنَّ جمعَ فرعونَ وجنودِه قد وصلوا ولا طريقَ لنا، وقد صِرْنا بين سَدَّيْنِ من حديدٍ وماءٍ، العدوُّ وراءَنا والماءُ أمامَنا[5].

المَوقِفُ الصّعب يكشِف القلوبَ الرِّخْوَة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا﴾ هي الفصيحة عن شرطٍ

الفاءُ فصيحةٌ تُظهِر شرطًا محذوفًا

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (جمع).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 83.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (درك).
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 92.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 43.

مقدَّرٍ، تقديره: (فإذا تقاربا)[1]، أي: عند اقتراب جيش فرعون من أصحاب موسى عليه السلام، رأى كُلُّ جَمعٍ من الجمعين الآخَر، قال أصحاب موسى حينَها: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[2].

دلالةُ لفظِ التّرائي مادَّةً وصيغةً:

تحقُّقُ الرُّؤية من الجانِبَين في وقتٍ واحد

التّرائي: تَفاعُلٌ ويدُلّ على حصول الفعل من الجانبين[3]، فالفريقان تقاربا بحيث رأى كُلُّ واحدٍ منهما الآخَر[4]، ولذلك عُبِّرَ بالفعل الماضي ﴿تَرَٰٓءَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ قد حَدَثت وحصلت من الفريقين، ودلَّ هذا الاستعمال على أنَّ الترائيَ حصل في وقتٍ واحدٍ من الفريقين، بحيث رأى كلُّ فريقٍ الفريقَ الآخَر من جهته.

بلاغة التَّعبير بالتَّرائي بين المجاز والكناية:

لفظ التّرائي جمعٌ بين الكناية عن التّداني وتحقيق الرُّؤية

يرى بعض المُفسِّرين أنّ في لفظ التَّرائي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا﴾ استعارةٌ، وأنّ معناه التَّقارب والتَّداني، وأنَّ كُلًّا من الفريقين لم ير الآخَر، وعلَّلوا استعارة اللَّفظ للتَّقارب هُنا بأنَّه قد يحسُن أن يوصف به الجمعان وإنْ لم ير بعضهم بعضًا بالموانع من مثار العجاج ورهَج الطِّراد أو أنَّ اللّه تعالى قد أرسل غيمًا أبيض، فحال بينهما حتَّى منع الرُّؤية[5]، فكان المُراد تقاربَ الأشخاص لا تلاحقَ الأحداق[6] وأُطلق التَّرائي لمطلق التَّقارب ولو لم تقع رؤية كُلٍّ لِلآخَر، أو وقعت من واحدٍ للآخر فقط، وأصحاب موسى قالوا ما قالوا لعلمهم بأنَّ فرعون على إثرهم، ولو لم يروا قومه، أي: يُدركنا فرعون وقومه، فقالوا هذا تَحَزُّنًا و طلبًا للتَّدبير، والأَولى حَملُ اللَّفظِ على الكِناية

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5360.
(2) معارج التَّفكُّر: 8/ 615.
(3) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 91.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 118.
(5) زكريا الأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 209.
(6) الشريف الرضي، تلخيص البيان، ص: 256.

في إرادة معنى اللَّفظين جميعًا في الرُّؤية حقيقةً مع التَّقابل، أي: تقابَل الجمعان بحيث يرى كُلُّ فريقٍ صاحبَه[1]، لأنَّ قرينةَ الكناية هُنا لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقيِّ، وهو حصول الرُّؤية من الفريقين على وجه الحقيقة، فالتَّرائي هنا كنايةٌ عن التَّقارب والتَّداني بينهم مع إمكان رؤية كُلِّ جَمعٍ للآخَر[2].

معنى تعريف ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

إفـادةُ العهدِ العلميِّ في إرادةِ جَمعِ موسى وفرعون

الجمعان في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ هم جَمعُ موسَى وهم بَنو إِسْرائيلَ، وجَمعُ فِرْعَوْنَ وهم القِبْطُ[3] واللّام في لفظ ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، لامُ العهد العِلميِّ، لأنَّ المعلوم من سياق القِصَّة والأحداث أنَّهما جَمعُ موسى وجَمعُ فرعون، وهذا من معهود السّياق الوارد فيه أحداثُ القِصَّة.

علَّة فصْلِ الجُملة عن سابقتها:

ترقُّبُ المواقف الصَّعبة يزيد من فضولِ المعرفةِ

جُملةُ ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب لأنَّها جواب (لمّا)، ولها حكمُ الاستئناف البيانيِّ، فهي تجيب عن سؤالٍ فُهِمَ من الجُملة التي قبلها ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، والتَّقدير: فماذا قال أصحابُ موسى لمّا رأوا فرعونَ وجُنودَه؟ فقيل: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿قَالَ﴾:

النُّفوسُ الضَّعيفةُ تتحقَّق منها الأقوالُ الضَّعيفة

جاء التَّعبير بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ للإيماءِ إلى أنَّ ما قالوه هو بمثابة المُتحقِّق، فقد قالوا هذا القول ضعفًا منهم وعَجْزًا، واستصحابًا لِما كانوا عليه من الذُّلّ، ولِشِدَّة خوفهم منهم؛ فقد نَشَأوا أرقّاء عندهم وتوطَّنَت نفوسُهم على الذُّلِّ واشرَأَبَّت قلوبُهم من سَطْوَتِهم فيه وغَشيَهُم الهوان[4].

(1) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 106، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 7/ 165.
(2) فوزية المطيري، سورة الشعراء (دراسة بلاغيَّة تحليلية): 60 - 61.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 580.
(4) ملا حويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 1/ 266.

الأصحابُ هم ألصقُ الأتباعِ بالرُّسُل

بلاغة استعمال مُفرَدَة الأصحاب:

آثر النَّظمُ استعمالَ لفظِ الأصحاب في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ دون أن يقول: (قال بنو إسرائيل)، لبيانِ أنَّ الذين صدر عنهم القولُ هم المؤمنون الذين صاحبوا موسى عليه السلام من بني إسرائيل ممَّن يستحقُّ وصفَ الصُّحبة، وللإيماءِ إلى أنَّ هناك من آمن بموسى عليه السلام من غير بني إسرائيل، وللإشارة إلى الفَرْق بين أصحاب موسى عليه السلام، وأصحاب محمّد ﷺ، فإنَّ الصُّحبة شرفٌ عظيمٌ يحظى به أتباعُ الرسل.

تشريفُ الصّاحبِ بمُلازمةِ الرُّسُل

دلالةُ التَّعريفِ بالإضافة في قوله ﴿أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ للتَّخصيص، أي: قال المُؤمنون به، والمُسلمون له، والملازِمون مُرافَقَته، والمُحيطون به كالهالة، الذين استخلصهم لصحبته في حِلِّه وترحاله، مع ما تُضيفه هذه الإضافة من التّشريف لهم؛ بأنْ صحبوا كليمَ اللّه تعالى، فإنَّ العتابَ يزدادُ بموقفِهم وما صدر عنهم من موقفٍ يدلُّ على الضَّعف.

الجمعُ بين معنَيَي اللَّحاق وتأكيدِه، والهلاكِ ووقوعِه

بلاغةُ التَّعبير بِلَفْظِ الإدراك:

معنى (مُدۡرَكونَ) في قوله تعالى: ﴿لَمُدۡرَكُونَ﴾ مأخوذٌ من الإدْراك وهو اللَّحاق، مِن أَدْرَك الشَّيءَ إذا لَحِقَه[1]، فيكون المعنى لَمُلْحَقون،[2] وفي اللَّحاق إشارةٌ إلى قرب الهلاك، وقُرئ شاذًّا: (لَمُدَّرِكونَ)[3] بتشديد الدّال وكسر الرّاء - مأخوذٌ من الادِّراك وهو الفناء والهلاك،[4] فيكون المعنى: إنّا لَمُتتابِعون في الهلاك على أيديهم حتَّى لا يبقى منّا أحدٌ؛ لكون فرعون وجُنده مُجتهدين في

(1) الزَّمخشري، أساس البلاغة، ص: 129.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 84.
(3) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 4/ 140.
(4) الألوسي، روح المعاني: 19/ 84.

لحاقنا[1]، وهو تأكيدٌ لحكم الهلاك، فجمع اللّفظ بين معنى اللَّحاق وتحقُّقِه، والهلاك ووقوعه، وهذا غاية ما يكون عليه العجزُ والذُّلُّ.

غرَضُ التَّوكيد:

تصويرُ الحالة النَّفسيَّة التي عاشها أصحاب موسى عليه السلام

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ بأداة (إنّ) واللّامِ واسميَّة الجُملة، والمعنى: مُدركون يقينًا؛ وذلك لأنّ البحرَ أمامَهم وآلَ فرعون خلفَهم، فلا بدّ أن يدركوهم، فأين يذهبون؟ فليس أمامهم إلّا البحر؛ إن خاضوا البحر غرقوا، وهم لن يخوضوه بحسب اعتقادهم في تلك السّاعة؛ فما بقي إلّا أن يدركهم آل فرعون[2]، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ بالجملة الاسميّة المؤكَّدَة بـ(إنّ) واللّام، وهذا التّوكيد يصوِّرُ الحالةَ النَّفسيّة التي كان عليها أصحابُ موسى عليه السلام من الجزَع والخوف، وإظهار الشَّكوى والفَزَع[3]؛ فمَجيءُ الجُملة الاسميَّة مُؤكَّدةً بحرفَي التَّأكيد للدّلالة على تَحَقُّق الإدراك واللَّحاق وتَنَجُّزِهما[4].

نكتةُ التعبير بالاسميَّة:

ظاهرُ الخبرِ يحوي معانيَ الفزعِ والهلع

جاء التَّعبير بالاسميَّة ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ دون الفعليَّة (إنَّهم سيدركوننا) للدّلالةِ على الاستمرار الثُّبوتيّ طلبًا للتَّدبير والمَخرَج؛ لأنَّهم رأوا أنَّ هلاكهم ثابتٌ لا محالة[5]، وهي جُملةٌ خبريَّةٌ في ظاهرها، وفي حقيقتها كَشْفٌ عن هَلَعهم وفَزَعهم[6]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ يبيِّن شدَّة الاهتمام بهذا الخبر، وهو مستعمَلٌ في معنى الجزع[7].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 316، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 579.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 132.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 245.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.
(6) زهرة التفاسير محمد أبو زهرة: 10/ 5360.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 135.

دلالةُ التَّعبير باسم المَفعول:

المُعايَنة والتَّجربةُ أقوى في نفوس البشر، وقلوبُهم إليها أشدُّ طُمأنينةً

رأت بنو إسرائيل العددَ القويَّ وراءَهم والبحرَ أمامَهم فساءت ظنونُهم، وقالوا لموسى ﵇ على جهة التَّوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، فاليومَ يُدرِكنا فرعونُ فيقتُلنا، فالبحرُ من بين أيدينا، وفرعونُ من خَلْفِنا[1]، كيف لا وقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جِئْتَنا، فقد كانوا يُذبِّحون أبناءَنا من قبل أن تأتيَنا، ومن بعد ما جئتنا، فإنَّهم لا محالةَ يُدركوننا ويقتلوننا، فاسم المفعول يجعلهم في حيِّز الاستهداف المقصود، وهذا في الغاية القصوى في بيانِ استسلامهم وعجزهم وضعفهم.

ففي التَّعبير باسم المفعول دلالةٌ على أنَّ المعاينة والتَّجربة أقوى في نفوس البشر، وقلوبُهم إليها أشدُّ طمأنينةً - صالحةً كانت النَّفسُ أو طالحةً - ؛ لأنَّها على ذلك مجبولةٌ، لا تقدر أن تُغيِّره من أنفسها؛ فإنّ موسى خافَ عصاهُ حين تحوّلت ثعبانًا في بُدوِّ أمره، وخاف حبالَ السَّحرة وعصيَّهم يومَ ألقَوها[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصَّاحِب والصَّديق:

الصُّحبة تدلُّ على الملازمة زمانًا أو مكانًا، والصَّداقةُ اتِّفاقُ الضَّمائرِ وصِدْقُ المَشاعِرِ

الصَّاحِبُ مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تَكونُ صُحْبَتُهُ مُؤَقَّتَةً في الطَّريقِ مِثْلَ العَبْدِ الصَّالِحِ مَع موسى ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ [الكَهْفُ: 76]، أَوْ في مَكانٍ مِثْل يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجنِ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسُف: 39]، وقَدْ تَكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً مِثْلَ الوالِدَيْنِ قال تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لُقْمان: 15] ومِثْلَ الزَّوْجَةِ التي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طيلَةَ عُمُرِه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عَبَسَ: 34 - 36].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 232، ومكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 8/ 5309.
(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 3/ 526.

أَمّا الصَّديقُ فمِنَ الصَّداقَةِ، وهيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتقادِ على المَوَدَّةِ[1]، وفي التَّنْزيلِ جَوازُ الأَكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ واعْتِباره ضِمنَ الأَقارِبِ، قال تَعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النّورُ: 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْرِكينَ وهُم في النّارِ يَصْطَرِخونَ ويتَحَسَّرونَ على فقْدِ الأَصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَراءُ: 100 - 101]، فمُصْطَلَحُ الصّاحِبِ أَعَمُّ مِنَ الصَّديقِ والصَّداقَةُ مِنْ دَرجاتِ الصُّحْبَةِ.

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (صدق)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 285.

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المفارقة بين القائد الباهر والتّابع الخائر

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ مَوقِفَ أصحابِ موسى عليه السلام، ناسب أن يُذكرَ عَقِبَها مباشرةً موقفُ الرَّسول عليه السلام من كلامهم، إذ ناسبَ الرَّدُّ بالزَّجر والرَّدع لمن ضَعُفَ وذلَّ، مع بيان الثِّقة بالله تعالى ونصره المبين، فهو انتقالٌ من بيان موقف الأتباع إلى بيان موقف المتبوع؛ لتَظهرَ المفارقةُ بين القائد المستيقن، والتّابع الخائر.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَهۡدِينِ﴾: هَدَى يَهْدي هدايةً، من أصل (هدي) الدالِّ على تبيّن الوجهة بالتقدّم أو الكشف، يُقالُ: هَدَيتُه الطَّريقَ هدايةً، أي: تَقدَّمتُه لِأُرشدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلك هادٍ، والهُدَى: خلافُ الضَّلالة[1]، والهدايةُ: دَلالةٌ بلُطفٍ، ومنه: الهديَّةُ، وخُصَّ ما كان دَلالةً بهَدَيْت، وما كان إعطاءً بأَهْدَيت، نحو: أهديتُ الهديَّة، وهَدَيتُ إلى البيت، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: 24][2].

وقولُه تعالى: ﴿مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيدُلُّني على طريقِ النَّجاة[3].

المَعنى الإجماليُّ:

تمامُ الثِّقةِ بموعودِ الله تعالى تورِّث النَّجاةَ

تُبيِّن الآيةُ ما قالَه موسى عليه السلام لأصحابه: بأن يرتدعوا عمّا يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، فإنَّه لن يَصِلَ إليكم شيءٌ ممّا تَحذَرون؛ فإنَّ اللّهَ هو الّذي أمرَني أن أسيرَ ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يُخلِفُ الميعاد، وهو معنا بالنَّصرِ والهداية، وسيدلُّني على طريقِ النَّجاة[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدى).

(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 316، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل الجُملة عن سابقتها:

المحاورةُ طريقُ الإيجازِ واختزال المعاني

قالَ موسَى عليه السلام لِقَوْمِهِ - لمّا سمع مقالتهم -: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، أي: لَيْسَ الأَمرُ كَما ذَكَرْتُم، كَلّا لَنْ تُدْرَكوا[1]، فقال ذلك رَدْعًا لهم عن سوء الظَّنِّ باللّه وإرشادًا إلى أنَّ تدبيرَ اللّه تعالى يُغني عن تدبير موسى[2]، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا[3]، ولذلك فُصلت عمّا قبلها لأنّها جاءت على طريقة المُحاورة.

معنى ﴿كَلَّآۖ﴾ ودلالتُها:

إذا وقعت الإساءةُ حسُن الرَّدُّ الزّاجر

حرفُ ﴿كَلَّآۖ﴾: حَرْفُ جوابٍ بمعنى الرَّدع والزَّجر، وهي للنَّهي عن كلامٍ سابقٍ، ومعناها في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾: لن يُدرِكوكم؛ لأنَّ اللّه تعالى وعدكم النَّصر والخلاص منهم؛ فتكون زجرًا لهم ورَدعًا[4] عن قيلهم الذي تعجّلوه قبل رؤية اليقين.

علَّة فصلِ الجملة:

تعليلُ الرَّدعِ بيانٌ للمستقبلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ تعليلٌ لمقول القولِ المقدَّر أي: (كلّا لن يدركونا)[5]، لأنَّ اللّه معي، وهو سيُنقذني؛ فالجُملة تعليلٌ للرَّدع المُتقدِّم أي: إنَّ معي ربّي بالحفظ والنُّصرة ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ قريبًا إلى ما فيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم[6]، وفي هذا التَّعليل إرشادٌ إلى أنّ تدبير اللّه تعالى يُغني عن تدبير موسى[7]، وهذا التَّعليلُ بيانٌ للرَّدع.

غرض تقديم ﴿مَعِيَ﴾:

الاهتمامُ بأمر المعيَّة التي هي مدار النَّجاة المطلوبة

تقديمُ متعلَّق الخَبَرِ المحذوفِ ﴿مَعِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 581.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 79.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 135، وبهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 8/ 197.

(5) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 79، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 79.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.

رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ لأجل الاهتمام بأمر المعيَّة التي هي مدارُ النَّجاة المطلوبة[1] وتوكيدُ حُكْمِها، فلمّا تمكَّن نبيُّ اللّه موسى ﵇ في النُّبوَّة، وكَثُرَتْ آياتُ اللّه الجميلة عنده، وعاينَها منه وقتًا بعد وقت؛ أيقن أنَّه لا يُسلمه لشدَّة، وقد سلَّمه منها مرّةً بعْدَ أخرى؛ فقال ما قال ثقةً بِرَبِّه، وتوكّلًا عليه[2].

غرضُ إفرادِ موسَى ﵇ بالذِّكر:

إذا وقعت النَّجاةُ للقائد المؤمنِ لَحِقت الأتباعَ رحماتُ الإنجاء

قصر النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ موسَى ﵇ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾؛ فلم يقل: (إنّ معنا ربَّنا سيهدينا)؛ لأنَّهم لم يَكونوا عالِمينَ بما ضَمِنَ اللّهُ له مِن مَعيَّةِ العناية؛ فإذا عَلِموا ذلك عَلِموا أنَّ هِدايتَه تَنفَعُهم؛ لأنَّه قائِدُهم، والمُرسَلُ لفائِدتِهم، ووجْهُ الاقتِصارِ أيضًا: أنَّ طريقَ نَجاتِهم بعدَ أنْ أدركَهُم فِرعونُ وجُنْدُه لا يَحصُلُ إلّا بفِعلٍ يَقطَعُ دابِرَ العدوِّ، وهذا الفعلُ خارِقٌ للعادةِ؛ فلا يَقَعُ إلّا على يَدِ الرَّسولِ، وهذا وجْهُ اختِلافِ المَعيَّةِ بيْنَ ما في هذه الآيةِ وبيْنَ ما في قَولِه تعالى في قِصَّةِ الغارِ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التَّوبة: 40]؛ لأنَّ تلك مَعيَّةُ حِفظِهما كِلَيْهِما بصرْفِ أعيُنِ الأعداءِ عنهما[3].

وقد أشار النَّظمُ أيضًا إلى ضعف قومه في اليقين حيث قال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، فقَطَعَهُم عن الشَّركة، وأفرد نفسه بالذِّكر؛ لأنَّ مُكاشفة سِرِّ المعيَّة؛ إنَّما كانت له لا لِقَومِه، فلم يستحقّوا النُّصرة والهداية إلّا بمتابعة موسى، فإنَّه منصورٌ البتَّة بالوعد الإلهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51][4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 85.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالة على البيان: 3/ 526.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 135.
(4) إسماعيل حقّي، مرآة الحقائق في تفسير بعض الآيات والأحاديث والواردات واللَّطائف: 1/ 297.

نكتةُ إسنادِ المَعيَّة إلى الرَّبِّ:

أُسندت المَعيَّةُ إلى الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾؛ لاستصحاب لطف اللّه به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عَدوِّه[1]، والمُراد بالمعيَّة هُنا المعيَّةُ الخاصَّةُ التي تقتضي النَّصرَ والتَّأييدَ[2].

استصحابُ لُطْفِ اللّه وعنايتِه بتقدير أسباب نجاته

دلالة توالي المؤكِّدات:

لمّا جاء التَّوكيدُ في جملة: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قوبل بتأكيد أنّهم لن يُدركوا، وتأكيدُ ذلك أوَّلًا بذِكرِ معيَّة اللّه سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وتأكيده ثانيًا بقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ لأنَّ السّين تدلُّ على التَّحقيق والقُرْب، وقد حصل ما تيقّنه موسى ﷺ من أنَّ اللّه سُبحانه سيهديه طريق النَّجاة[3].

لا يدفع تأكيدَ الضَّعيف في أوهامه مثلُ تأكيدِ المُتيَقِّن في فهومه

دلالة التَّعبير بالمُضارع:

التَّعبيرُ بالفعل المُضارع ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيه دلالةٌ على تَجَدُّدِ الهداية واستمرارها في المستقبَل القريب، بما يَدْفَعُ هذه المواقفَ العصيبة، التي يلجأ فيها الإنسانُ إلى ربِّه، وهي هدايةٌ لما فيه نجاتهم ونصرهم على عَدوِّهم، وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللّه سُبحانه وتعالى كما يهدي إلى الطَّريق المعنويِّ يهدي أيضًا إلى الطَّريق الحِسّيِّ[4].

كُلَّما تجدَّدت أسبابُ الغِواية نَسَخَتْها أسبابُ الهداية

دلالةُ استعمال حرف السّين:

السّينُ في قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ تدلُّ على التَّحقيق والقُرب، والمعنى: (سيدلّني على طريقٍ أنجو به)، وموسى لم يكن عالمًا بهذا الطّريقِ حينَ صدور قوله، ولكنَّه واثقٌ من النَّجاة، ولهذا أتى بالسّين الدّالّة على التَّحقيق والقرب؛ لأنَّ المقام يقتضي ذلك، فحرفُ الاستقبال (السّين) يُشعِرُ بسُرعة حدوث الهداية وتوكيد حصولها[5].

الإشعار بسُرعة حدوث الهداية وقربها وتوكيد حصولها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 135.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 133.
(3) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 132، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5361.
(4) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 133.
(5) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 133، وبهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 8/ 197.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهداية والإرشاد:

تكون الهداية في المحبوب والمكروه ولا يكون الإرشاد إلّا في المحبوب

الهِدايةُ أَعمُّ مِنَ الإرشادِ مِنْ وجهٍ وأَخَصُّ من وجهٍ؛ لأنَّ الهدايةَ تكون في المحبوب وفي المكروه، فالأوَّلُ كآيةِ الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، والثّاني كقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصّافّات: 23]، والإرشادُ لا يكون إلّا في المحبوب، فالهدايةُ بهذا الاعتبارِ أعَمُّ.

وأمّا خصوصيَّةُ الهدايةِ؛ فلأنَّ الهدايةَ هي الدِّلالةُ الموصِلَةُ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ منه ذَلِكَ(1).

(1) يُنظر: أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 42، وجمال الدّين الفَتَّني، مجمع بحار الأنوار: 5/ 146، ومحمَّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: 2/ 804.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيان الثِّقةِ بالله إلى تحقيقها

لَمّا حَكَى سُبحانَه عن موسَى عليه السلام قولَه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، بَيَّنَ تعالى بَعْدَه كيف هَداه ونجّاه، وأهلَكَ أعداءَه بذلك التَّدبيرِ الجامعِ لِنعَمِ الدّينِ والدُّنيا، فقال: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾[1]، فهو انتقالٌ من مَشهَدِ الثّقة باللّه تعالى إلى تحقيقها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَحۡرَۖ﴾: بَحَرَ يُبحِرُ بَحْرًا، وأَصْلُ البَحر: كلُّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثير، وسمَّوا كلَّ متوسِّعٍ في شيءٍ بَحْرًا، حتَّى قالوا: فرَسٌ بحرٌ، باعْتبارِ سَعَةِ جَرْيه، وللمتوسِّعِ في عِلْمِه: بَحْر[2]، وسُمّيَ البَحرُ بَحْرًا لاسْتبحارِه، وهو انْبساطُه وسَعَتُه[3]، وتبحَّرَ الرّاعي في رِعْيٍ كثير، واسْتُعيرَ للسَّخاء، يقال: رَجُلٌ بَحْرٌ: إذا كان سَخيًّا، سَمَّوْهُ لفَيْضِ كفِّه بالعطاءِ كما يفيضُ القوم[4].

والمراد من لفظ: ﴿ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) الَّذي يتوصَّلُ أهلُ مصر منه إلى الطّور وإلى مكَّةَ المشرَّفة وما والاها[5].

2) ﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أصله (فلق) بمعنى شقِّ الشّيء وإبانةِ بعضِه عن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 507.
(2) الرّاغب، المفردات: (بحر).
(3) الخليل، العين: (بحر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بحر).
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 44.

بعض، يُقال: في رِجلِه فُلوقٌ، أي: شُقوقٌ، وقالَ اللّه تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: 96](1).

وقولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فانْشقَّ ماءُ البَحْرِ اثْنَي عَشَرَ طريقًا يابِسًا بعدَدِ الأَسْباط، وقامَ الماءُ على يمينِ الطَّريق، وعن يساره(2).

3) ﴿فِرۡقٖ﴾: أصل (فرق) يدل على تمييزٍ بين شيئين؛ والفَرْقُ يُقاربُ الفَلْق، لكنَّ الفَلْقَ يُقالُ اعْتبارًا بالانْشقاق، والفَرْقُ يقالُ اعْتبارًا بالانْفصال، قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، والفِرْقُ: القطعةُ المنْفَصلة، ومنه الفِرقةُ للجماعةِ المتفرِّدةِ من النّاس(3)، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ﴾ أي: كلُّ جزءٍ تفرَّقَ منه(4).

4) ﴿كَٱلطَّوۡدِ﴾: (طود) أصْلٌ صحيحٌ، وفيه كلمةٌ واحدة؛ فالطَّوْدُ: الجَبَلُ العظيم، ويقولون: طَوَّدَ في الجَبَل، إذا طوَّفَ، كأنَّه فِعْلٌ مُشتقٌّ من الطَّوْدِ، وجَمعُه أطْوادٌ(5)، ومنه قولُ الأَسْود:

ماءُ الفراتِ يَجيءُ من أطْواد(6)

ومعنى الطَّوْد في قولِه تعالى: ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، أي: كالجَبلِ العظيم(7).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قدرةُ الله تعالى تَجْعَلُ البَحْرَ مُنجيًا لبني إسرائيل ومُغْرِقًا لقوم فرعون

تُبيِّن الآيةُ إيحاءَ اللّه سبحانه وتعالى إلى رسولِه موسى ﵇ أنِ اضْربْ بعصاكَ البحرَ الَّذي أمامَكم، وهو بحرُ القُلْزُم - البحر

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (فلق).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 316، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 92.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 317، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طود).
(6) وصدره: حَلُّوا بأنقرةَ يَجيشُ عليهم، وهو للأسْود بن يعفر، ينظر: ديوانه في ملحق ديوان الأعشى، ص: 296، وأنشده أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 86.
(7) عن ابن عباس ﵄، ينظر: ابن حجر، فتح الباري: 8/ 496، وابن جرير، جامع البيان: 19/ 80.

الأحمر - الَّذي يتوصّلُ أهلُ مصرَ منه إلى الطّورِ وإلى مكَّة المكرَّمة وما والاها، فضرَبَه عليه السلام فانْشقَّ امتثالًا لأمرِ اللّهِ تعالى، وصار اثْنَي عشَرَ فِرقًا على عددِ أسباطِهم، فكانَ كلُّ جزءٍ وقِسْمٍ عظيمٍ منه كالجبَلِ العظيمِ في إشرافِه وطولِه وصلابتِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في قوله ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

ثمرةُ يقين الرَّسول إيحاءٌ يعقبُه إنجاء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾ عاطفة لتعقيب الإيحاء على قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ فأعقب ذلك بقوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾، أي: كان عَقِبَ طلب الاستهداء الإيحاءُ استجابةً لموسى عليه السلام، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الهداية التي في قوله تعالى: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ كانت بوحيٍ من اللّه تعالى[2].

غرضُ إسنادِ فعلِ الإيحاءِ إلى ضمير العظمة:

استدعاءُ العَظَمَة والوقار لِعَظَمَة المقام

أُسند فعلُ الإيحاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى ضمير العظمة، والمعنى: (بما لنا من العظمة والكبرياء)، فجاء بصيغَةِ التَّعْظيم مع صيغَةِ التَّكَلُّم الدّالَّةِ عَلى العَظَمَةِ، وهوَ يُناسِبُ المَقامَ العظيمَ في إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين الظّالمين.

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

التَّنويهُ باسم موسى عليه السلام وبَيانِ عُلوِّ شَأْنِه

آثر النَّظمُ الكريمُ إظهارَ اسم موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ دون أن يقول: (فأوحينا إليه)، تشريفًا له وإكرامًا لمكانته، لاسيَّما أنَّ المقامَ مقامُ إيحاءٍ، وتخصيصًا له بتلك الهداية التي كانت عن طريق الوحي، مع ما فيه من التعظيم له، فنوَّه باسمه الكريم جزاءً له على ثقته به سبحانه[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 44.

(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 1/ 267، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5361.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 43.

تفسيرُ الإيحاءِ يلفتُ الأنظارَ إلى عجيبِ معناه

نوعُ ﴿أَنِ﴾ ودلالتُها:

جاء النَّظمُ الكريمُ بأداة ﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ إذ فيه معنى القول فهي بمعنى (أي)[1]، فإنَّ الإيحاءَ مُبْهَمٌ مضمونُه بالنّسبةِ للمخاطَب، فجاء تفسيرُه بأن يَضرِب موسى عليه السلام البحرَ بعصاه لينشقَّ، وليكون لهم في قاع البحر طريقٌ يابسٌ جافٌّ، فإذا عَبَر هو وقومُه فيه فإنّهم لا يخشون أن يُدْرِكَهم عَدوُّهم، ولا يخشَون فيه غرقًا.

ضربُ البحرِ وسيلةٌ ظاهرةٌ، من ورائها المُعجزةُ العظيمةُ

غرضُ الأمر ودلالتُه في قوله ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾:

دلَّ الأمرُ ﴿ٱضْرِب﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ على أنّ معجزةَ انفلاق البحر كانت بأمر اللّه القادر على كلِّ شيء، أمرَ به موسى عليه السلام فحصل بهذا الأمر ما حصل، وتوجيهُ الأمر له بالضَّرب جاء ليكون مُعجزةً ظاهرةً له يُجريها اللّه تعالى على يديه، مع اليقين بأنّ الضَّربَ بالعصا ليس مؤثِّرًا حقيقيًّا، وإنَّما هو سببٌ ظاهريٌّ؛ إذ لو كان حقيقيًّا ما كان في ذلك آية لموسى عليه السلام[2].

الاهتمامُ بشأن العصا، والتَّشويقُ إلى المؤَخَّر

غرض تقديم شبه الجملة ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

قُدِّمَ شبه الجُملة الجارُّ والمجرور ﴿بِّعَصَاكَ﴾ على المفعولِ ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ في قوله تعالى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ للاهتمامِ بالمُقدَّم وهو العصا التي كان يحملها دائمًا يتوكّأ عليها، ويهشُّ بها على غنمه، وله فيها مآرب، فيكون في هذه العصا مصالح عظيمة، و فيها من آيات اللّه ثلاث آيات، هذه إحداها؛ كما فيه التَّشويقُ إلى المُؤخَّر[3].

انقلابُ العصا معجزةٌ تشريفٌ لصاحبها

نكتةُ إضافة لفظ العصا إلى كاف الخطاب في قوله ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

أُضيفت العصا إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿بِّعَصَاكَ﴾؛

---

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 7/ 69، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 20/ 213.

(2) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 19/ 3796، والخضري، من أسرار حروف العطف في الذِّكر الحكيم، ص: 75 - 76.

(3) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 135.

للدّلالة على أنَّ لِكُلِّ شيء سببًا؛ فلَمْ يَنْفلق البحر إلّا بعد أن أوحى إلى موسى أن اضرب البحر بالعصا، فضربه فانفلق، فأراد تعالى أن يجعل هذه الآية مُتَّصِلَةً بموسى، ومُتَعَلِّقَةً بفعله، ولكنَّه بقدرة الله؛ إذ ضَرْبُ البحر بالعصا لا يوجب انفلاق البحر بذاته، ولو شاء تعالى لفلقه دون ضربه بالعِصا[1]، وفي هذه الإضافة من التَّشريف لكليم الله ما فيها.

معنى التعريف في لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَۖ﴾:

الإشارة إلى البحر المعهود للنّاس في ذلك الزّمان

البحر المذكور في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ يُراد به بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) أو النّيل أو بحرٌ من وراء مصر يُقال له أساف[2]، وعلى ذلك يكون التَّعريف فيه للعهد على اختلاف المفسِّرين فيه؛ لأنَّه بحرٌ معهودٌ حصلت فيه تلك الآية وقد عاينها النّاس، وشاع أمرها فيهم[3].

بلاغة المجاز المرسل في لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَۖ﴾:

بيانٌ لهذه المعجزة وتعظيمٌ لشأنها

المراد بالبحر المضروب بعصا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ الجزء القريب منه، لا كلُّ البحر، فهو من باب المجاز المرسل، وعلاقتُه الكُلّيَّة، وفيه إشارةٌ إلى جنس ما حصل منه الانفلاقُ، وبها تتحقّق كمال المعجزة، وتمام النّعمة، إذ البحر بعيدُ الأطراف، عظيمُ المخاطر، كثيرُ الماء، فإنّ اشتقاقَه اللّغويَّ يدلّ على التوسّع والكثرة، ومع ذلك انفلق إلى فِرقين عظيمين لطفًا لأولياء الله وعذابًا لأعدائه.

نوعُ الفاء ودلالتُها في لفظ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾:

الفاءُ الفصيحةُ تكشف عن مضامينَ محذوفةٍ ومعانٍ مقدَّرةٍ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ مُفْصِحَةٌ عن سببٍ محذوفٍ[4]،

---

(1) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 142، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 3/ 317، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 19/ 542، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 245.

(3) الزَّمخشري، الكَشّاف: 3/ 317، والسيواسي، عيون التَّفاسير: 3/ 200.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 86، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 20.

إذ انفلاقُه يستلزمُ سببًا وهو الضَّرْبُ المأمورُ به، أي: (فَضَرَبَ فانفلق)، والفاء في ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ هي فاء (ضَرَبَ)، فأُبقي مِنْ كُلٍّ ما يدلُّ على المحذوف، أُبقيَتِ الفاءُ من (فضرب) واتّصلت بـ(انفلق)، ليدلَّ على (ضَرَبَ) المحذوفة، وأُبْقيَ (انفلق) ليدلَّ على الفاء المحذوفة منه[1]، فموسى عليه السلام أُمِر بالضَّرب فضَرب، وتَرَّتب الانفلاق عليه إعظامًا لموسى عليه السلام بجعل هذه الآية العظيمة مُرتَّبَةً على فِعْلِه، ولو شاء اللّه تعالى لَفَلَقَه بدون ضرْبِه بالعصا[2].

دلالة الحذف البلاغيّ في قوله ﴿فَٱنفَلَقَ﴾:

الإشعار بأنّ انفلاق البحر كان مطاوَعَةً لأمر الله تعالى لا تأثّرًا بضرب العصا

في الآية إيجازٌ بالحذف؛ إذ الأصل (فضرب فانفلق) حيث طوت الفاءُ الضَّرْبَ الواقع من موسى عليه السلام، فحُذِفت هذه الجملةُ ثقةً بفهم السّامع، فلا يحتاج أن يطول الكلامُ بها، وسِرُّ هذا الحذف هو الإشعارُ بأنَّ انفلاق البحر كان في حقيقته مُطاوَعَةً لأمر اللّه تعالى لا تَأثُّرًا بضرب العصا، فليس في عصا موسى قُدرةٌ ذاتيَّةٌ تتميَّز بها عن غيرها من العِصيِّ، وإنَّما كانت سببًا ظاهرًا تَربطُ فيه الأعينُ والعقولُ بين الأسباب ومسبَّباتها[3]، وفي هذا الحذف دفعٌ لما قد يُتوَهَّمُ من أنّه في عصا موسى يقبع الإعجاز، والحَقُّ أنَّه بأمر الآمر كان الانفلاق[4]، وهذا الحذف يُشير إلى سُرعة امتثال موسى عليه السلام لأمر ربِّه وتلبيته له[5]، وفي طيّات ذلك يظهر معنى الطّاعة وحُسْنِ الاستجابة من موسى عليه السلام، مع ما يوحي به من رغبة موسى الشَّديدة في إيقاع هذا الفعل الذي حقَّق له ما ضرع به إلى اللّه تعالى[6].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 20، والسَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 5/ 275.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 86، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 233.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160، والقِنَّوجي، فتح البيان: 5/ 77.
(4) الخضري، من أسرار حروف العطف، ص: 76.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 86.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 245، والخضري، من أسرار حروف العطف، ص: 76.

بلاغةُ استعمال مفردة الانفلاق والافتراق:

انفلاق البحر فافترقت بعض أجزائه

الانفلاق في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ هو انشقاق الشَّيء، والمعنى: (فانفلق البحر ووقف الماء بين الطُّرق التي شقَّها الله منه كالجبال الشّامخات لعُمقِ الماء، وظهرت الأرض يابسةً بينها كأنْ لم يكن فيها ماء)[1]، وهذا الانشقاق جُزْئيٌّ للمكان الذي سيعبر منه موسى ، فالبحر انفلق جزءٌ منه، فكان الجزء الواحد فِرْقًا، بانفلاق البحر جملةً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ فِرۡقٖ﴾ أي: كُلُّ طائفةٍ من البحر لمّا ضَرَبَهُ موسى كالجبل العظيم بينها مسالك سلكوها لم يبتلَّ منها سرجُ الرّاكب ولا لِبْدُه[2]، وفي هذا تأكيدٌ للانفصال والإبانة لكلِّ فِرْقٍ دون البحر كلِّه؛ فالافتراقُ يدلُّ على الانفصال، بخلاف الانفلاق فيدلُّ على الانشقاق.

بلاغة تشبيه فِرْقِ الماء بالطَّود العظيم:

تقريب الصّورة وتمكينها في النُّفوس بإخراج ما لم تَجْرِ بِهِ العادة إلى ما جرت به العادة

في قوله تعالى: ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تصويرٌ للآية المعجزة؛ فبعد أن حَدَثَتْ وانفلق البحرُ جاء النَّظمُ القرآنيُّ مصوِّرًا عِظَمَ تلك المُعجزة ليقرِّبَها للعُقول ويصوِّرها للعيون، فكان التَّشبيه خير طريق لتصوير المعنى وتمكين الصّورة في النُّفوس.

حيث شَبَّه النظم القرآني الفِرْقَ المنفصل عن البحر بالطَّود العظيم في عِظَمه وارتفاعه وثباته، والطَّود هو الجبل العظيم المُنطاد في السَّماء[3].

فلمّا كانت صورة انفلاق البحر وجعْلُ كلِّ فرق منه كالطَّود العظيم صورةً لا يمكن فهمها أو تصوُّرها إلّا بضربٍ من التصوير،

(1) ملا حويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 1/ 267.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 357، والجلالان، تفسير الجلالين، ص: 373.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 316، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل، ص: 271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 160، والمُنطاد: المُرتفع من الأشياء الذّاهب في الهواء: يُنظر الرّاغب، المُفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (طود).

جاء التَّشبيه لبيان إمكان حصولها وصيرورة وقوعها، مع بيان قدرة اللّه تعالى، وذلك هو غرض التَّشبيه، وهو تشبيهٌ مجملٌ مرسَل، حيث ذُكِرت الأداةُ (الكاف) وحُذف وجه الشَّبه، من تشبيه المحسوس بالمحسوس.

فلمّا كان المشبَّه به مدرَكًا بالحواسّ، كانت الصّورةُ أكثرَ وضوحًا وبيانًا وتمكينًا في النُّفوس حيث أخرج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، وفيه أعظم آية لمن فكّر في مقدورات اللّه تعالى.

ووجه الشَّبه شديد الارتباط بين المشبَّه والمشبَّه به، قريب الصِّلة منهما؛ فالمراد من هذا التَّشبيه هو وصف كلِّ فِرْقٍ في ثباته وعِظَمِه وارتفاعه بالجبل في صفاته تلك، ولذلك حُذف وجه الشَّبه هنا لظهوره في المشبَّه به، وهو وجهٌ تحقيقيٌّ فيه.

ومن الأسرار الجماليَّة في هذا التَّشبيه بُعْدُ ما بين طرفيه، فالمشبَّه فِرْقُ البحر، والمشبّه به الجبلُ الشّامخُ المرتفع؛ الأوّل من ماء، والثّاني من حجارةٍ صمّاء، وكلّما بعد ما بين طرفي التَّشبيه كان ذلك أمكنَ وأدخل في البلاغة والبيان[1].

بلاغةُ استعمال مفردة الطَّود:

الـدّلالـةُ على العَـظَـمَـةِ والإشـعـارُ بالخوف والرَّهبة الـدّالَّـة على القُدرة

استعمل النَّظم الكريم مفردة الطَّود دون الجبل، في قوله تعالى: ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لِما يوحي به من معنى الاختلاف عن غيره من الجبال في العِظَم والارتفاع[2]، كما أنَّ انفلاق البحر بحيث أصبح فِرقَين بينهما أرضٌ يابسةٌ هو أمرٌ في غاية الغرابة والبعد عن المألوف، ولذلك ناسبَ أن يُشَبَّه بكلمةٍ يوحي لفظُها بالغرابة والبعد عن المألوف، فجاءت كلمة "الطَّوْد" - وهي كلمةٌ قلَّما يستعملها

(1) فوزية المطيري، سورة الشعراء (دراسة بلاغيَّة تحليلية)، ص: 188.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 44، والرّاغب، المُفردات: (طود).

الكُتّاب والشعراء ؛ بل إنَّ العامَّة لا يعرفون معناها - [1]، وهذا اللّفظ يُشعر بالرَّهبة والخوف، مع ما يدلُّ عليه من قدرة اللّه تعالى.

سِرُّ تقييد المُشبَّه به ﴿كَٱلطَّوۡدِ﴾ بالوصف ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

عظمةُ الطَّود بين أفراد نوعه لا بين عموم الجبال

وُصِفَ الطَّودُ بالعِظَم لكونه فيما بين الأطواد عظيمًا لا لكونه عظيمًا فيما بين سائر الجبال[2]، فكِبرُه وارتفاعُه لأنّ قاع البحر عميقٌ، فيراه الماشي في قاعه كالطّود العظيم للكبر وللارتفاع، وظاهره أنَّه عريض؛ لأنّ الطود العظيم يتناول الكِبَرَ والارتفاع والعرض[3]، وقد جاء تقييد المشبّه به بصفة ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ لتكون الصّورةُ دقيقةً واضحةً أخّاذةً، وهذا من خصائص التَّشبيه في القرآن[4]، فوَصْفُ الطَّود بالعظمة في الآية تأكيدٌ آخَرُ على معناه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَلْقُ والفِرْقُ:

الـفِـرْقُ يُـراعـى فـيـه مـعـنـى الانـفـصـال، والـفـلـق يُـراعـى فـيـه مـعـنـى الانشقاق

الفِرْقُ هو الجزء المفروق من الشَّيء أو المُنفصل عنه[5]، وهو في قوله تعالى: ﴿كُلُّ فِرۡقٖ﴾ قطعةٌ من الماء انفصلت وارتفعت فأشبهت الجبل في عظمه وارتفاعه وثباته[6]، والفِرْقُ يُقارب الفَلْقَ لكنَّ الفَلْقَ يُقال اعتبارًا بالانشقاق، والفِرْقُ يُقال اعتبارًا بالانفصال ومنه الفرقة للجماعة المُنفردة من النّاس[7]، ولذا تُطلق الفرقة والفِرَق على القطعة أو الجماعة التي انفصلت عن البقيَّة.

(1) عودة الله القيسي، الإعجاز اللغوي في قصص نوح ﷺ، ص: 122.
(2) الرّاغب، المُفردات: (طود).
(3) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 135.
(4) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 199.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 20، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 136.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 86.
(7) الرّاغب، المُفردات: (فرق)، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 87.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء: 64 - 66]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

العبرة بالنِّهايات المُشرِقَة

بعد سَرْد أحداث القِصَّة ناسبَ ختمُها ببيان نهاية الظّالمين، بإهلاكهم، وإنجاء المؤمنين ومن معهم، فهو انتقالٌ من أحداث القصَّة إلى نهايتها، ومن عناصرها المختلفة إلى نهايتها الواضحة البيِّنة، فتظهر المناسبة في توجيه الأنظار صوب النّهايات، لا البدايات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: (زلف) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على انْدفاعٍ وتقدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيء، يُقالُ من ذلك: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تقدَّمَ[1]، وكذلك سُمّيتْ مُزْدَلِفَةُ بمكَّة؛ لاقْترابِ النّاسِ إلى مِنًى بعدَ الإفاضةِ من عَرَفات، ويُقالُ: لفُلانٍ عندَ فُلانٍ زُلْفَى، أي: قُرْبَى، قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: 25]، والزَّلَفُ والزُّلْفةُ: الدَّرَجَةُ والمنزلَة[2]، ومعنى ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: وقرَّبْنا هناك فرعونَ وقومَه حتى اجتمعوا داخل البحر فأغرقناهم.

2) ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾: جمع (آخَر)، وهو الذي يُقابَلُ به الواحد، وأمّا آخِرُ فيُقابَلُ به الأوَّل، وكلاهما من أصل (أخر) الدالّ على تخلّف الشيء عن قرينه، فالآخَرُ: أَحَدُ الشَّيئَيْن، وهو اسْمٌ على أَفْعَل من التأخّر، والأُنْثَى أُخْرَى، وهو بمعنى (غير)، كقولك: رجلٌ آخَر، وثوبٌ آخَر[3]، ومعنى ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زلف).
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (أخر).

غير موسى وقومه، أي: المتأخِّرين عنهم في الذّكر، وهُم فرعونُ وقومُه، لِوقوعهم في مقابلة فريق بني إسرائيل.

3) ﴿وَأَنجَيۡنَا﴾: (نجو) أَصْلٌ يدلّ على الانْفصالِ من الشَّيء، ومنه نَجا فُلانٌ من فُلانٍ أي خَلَص منه ومِن خَطَره، وأَنْجَيْتُه ونَجَّيْتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53]، ومنه النَّجْوةُ أي المكان المُرتفِع المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، ونَجَّيْتُه: تركتُه بِنَجْوَةٍ، ومعنى ﴿وَأَنجَيۡنَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: وأنقذْنا موسى ومَن معه مِن الخطر، فلم يهلك منهم أحد.

4) ﴿أَجۡمَعِينَ﴾: (جمع) أَصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ[1]، والجمعُ: ضمُّ الشَّيء بتقريبِ بعضِه من بعض، يقالُ: جمعتُه فاجْتمع، قال تعالى: ﴿جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [الهُمَزة: 2]، وجَميعٌ وأَجْمَعُ وأَجْمَعونَ يُستعمَلُ لتأكيدِ الاجْتماعِ على الأمر[2]، ومعناه في قوله تعالى ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: لم يتخلّف أحدٌ من بني إسرائيل عن الإنجاء والخلاص من الهلاك.

5) ﴿أَغۡرَقۡنَا﴾: (غرق) أصلٌ يدُلُّ على انتهاءٍ في شيءٍ يبلغ أقصاه، والغَرَقُ: الرُّسوبُ بعمقٍ في الماءِ والبلاء، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90]، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾، أي: أغرقَهُمُ اللهُ بإطْباقِ البحرِ عليهم بعد أن دخَلوا فيه متَّبعينَ موسى عليه السلام وقومه[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيات الكريمة كيف أنَّ الله تعالى قد قرَّب وجَمع فِرعونَ وجنودَه أجمعينَ فأهلكَهم بإغراقِهم في البحر[4] وأَنْجَى موسى عليه السلام ومَن

في ذهابِ الظّالمين انكشافُ الحقِّ المبين

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5362.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.

معهُ من بني إسرائيلَ من الغَرَقِ في البحر، وذلك بمرورِهم في البحرِ بعد أنْ جعلَه اللّهُ طُرُقًا يمشونَ فيها[1]، وبعد أنْ أَنْجَى موسى ومن معه من المؤمنين، أَغْرَق فِرعونَ وجُنودَه فلم يَبْقَ منهم رجلٌ إلّا هَلَكَ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾:

بيان حال فرعون وجنوده بعد انفلاق البحر

الواو في ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ عاطفةٌ، فإمّا أن تكون قد عَطَفَت قولَه تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ على قوله ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾[3]، أو على محذوفٍ يقتضيه السّياقُ، تقديره (فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق من البحر)[4]، فعُطِفت هذه الجملة لبيان حال فرعون وجنوده بعد دخول بني إسرائيل في البحر.

دلالة التَّعبير بمفردة ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾:

التَّهكُّم بفرعون وجنده حين الإقدام على الهلاك

معنى قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: قرَّبنا فرعون وجنوده إلى البحر وقدَّمناهم إلى الهلاك، والزُّلفى عند العرب هي المنزلة والقُربى والحُظوة، وقد استُعملت هذه المادَّة في منزلة العذاب كاستعمال البِشارة وغيرها فيه[5]؛ ففي تقريبهم بصورةٍ يظنّون معها نيلَ المنزلة والحظوة تهكُّمٌ بهم ونوعُ مُجاراةٍ لهم، فكان إزلافهم هذا وتقريبهم وبالًا عليهم وعذابًا لهم[6].

فائدة إسناد الفعل لضمير العظمة:

إزلافٌ خاصٌّ بالله تعالى لا يستطيعه البشر

أُسند فعل (أزلف) إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾، والمعنى: (قرَّبناهم بعظمتنا من قوم موسى عليه السلام)[7]، وجاء الفعل

---

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 136.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 316.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 87.
(4) اطفيش، تيسير التَّفسير: 10/ 253، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 87.
(5) الرَّاغب، المفردات: (زلف)، والخازن، تفسير الخازن: 3/ 326، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 147.
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 340، والرَّسعني، رموز الكنوز: 5/ 388.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 44.

مُضافًا إلى نون العَظَمة، لأنَّ مثل هذا الإزلاف والتَّقريب لا يقدر عليه إلّا القادر سُبحانه وتعالى، ولبيان أنَّ الله تعالى هو من تولَّى إهلاك الطُّغاة بقدرته ورعايته وعنايته.

دلالة التَّعبير بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾:

﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان للبُعد يُراد به هُنا حيث انفلق البحر، ولمّا كان هذا الجمع في غاية العظمة والكثرة وعُلوِّ الرُّتبة في البطش، أشار إلى ذلك بأداة البعد فقال: ﴿ثَمَّ﴾[1].

غرض تقديم الظَّرف على المفعول:

الاهتمام بالإشارة إلى موضع هلاك الظّالمين ونجاة المؤمنين

قُدِّم الظَّرف ﴿ثَمَّ﴾ على المفعول ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم وهو موضع التَّقريب الذي سيكون هلاكهم عنده، حيث جرَّأهم حتى أرادوا اقتحامَ طُرق البحر عند رؤية بني إسرائيل فيه، يظنّون أنَّه ماءٌ غير عميق، ثُمَّ أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سُيولته وقانون استطراقه، وهكذا يُنجي الله ويُهلك بالشَّيء الواحد[2].

دلالةُ التّعبير عن قوم فرعون بلفظِ ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾:

جاء التَّعبير عن فرعون وجيشه بعبارة ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ استهانةً بهم، وتحقيرًا لهم، إذ الناس يومئذٍ إمّا موسى عليه السلام ومن معه، وإمّا الآخرون.

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَأَنجَيْنَا﴾:

تَتِمَّة أحداث القِصَّة ومجرياتها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ تقديرُه: فانطبق عليهم البحر وأنجينا موسى وبني إسرائيل ومَن اتَّبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحدٌ[3]، بمرورهم في فجوة الفِرْق فلم يمسّ أحدًا منهم السّوء[4]؛ فالعطف هُنا تَتِمَّةٌ لأحداث القِصَّة ومجرياتها.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 44، وابن جزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 91، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 161.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 136، والشعراوي، تفسير الشَّعراوي: 17/ 10580.

(3) بهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 222، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 6/ 131.

(4) مدرس، مواهب الرحمن، ص: 105.

دلالة التَّعبير بصيغة (أنجى):

على قدرِ سرعةِ الأخذ تكون سرعةُ الإنجاء

آثر النَّظم الكريم استعمال الفعل (أنجى) دون (نجَّى) للدّلالة على الإسراع في النَّجاة، مع ما فيه من الدّلالة على قدرة اللّه تعالى؛ فهذا الإنجاء كان بسرعةٍ وبقدرةٍ عظيمةٍ لا يقدر عليها إلّا الواحدُ القهّارُ، ولم يَدُم طويلًا وقتُ النَّجاة، والقرآن الكريم كثيرًا ما يستعمل (نجّى) للتَّلبُّث والتَّمهُّل في التَّنجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، وبناءً على هذا فإنّه لّما كانت النَّجاة من البحر لم تستغرق وقتًا طويلًا ولا مُكثًا، استعمل النَّظم الكريم (أنجى)[1].

دلالةُ إسناد الفعل ﴿وَأَنجَيۡنَا﴾ لضمير العظمة:

إنجاءٌ عظيمٌ لا يقدر عليه إلّا العظيم سبحانه

أُسنِدَ فعلُ الإنجاء في قوله تعالى ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ إلى نون العظمة، لأنّ هذا الفعل لا يقدر عليه إلّا اللّه تعالى ولأنَّ هذا الإنجاء من أعظم المنن[2].

غرضُ ذِكْر اسم المفعول ﴿مُوسَىٰ﴾ علمًا:

من شأن المقابلةِ رفعُ أقوامٍ وخفضُ آخرين

في ذكر اسم موسى عليه السلام علمًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ تنويهٌ بشأنه وتعظيمٌ لأمره بحصول تلك المِنَّة العظيمة التي أجراها اللّه على يديه بتلك المُعجزة الباهرة، ولبناء العطف عليه، ولتقوى المقابلةُ بذكر فرعون ومن معه بلفظ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ تحقيرًا لهم.

بلاغة الاحتراس في قوله ﴿وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾:

من تمسّك بهدي الأنبياء حظي بالإنجاء

في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ احتراسٌ لئلا يُتوهَّم أنَّ النَّجاة كانت مقصورةً على موسى عليه السلام، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّ نجاتهم كانت بسبب معيَّتهم لموسى عليه السلام[3].

(1) السّامرائي، بلاغة الكلمة في التَّعبير القرآني، ص: 72.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 144.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 89.

فائدةُ ذِكْرِ المعيَّة:

الإشارة إلى أنَّ إنجاء المؤمنين كان ببركة مَعيَّة المرسلين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ المعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ دون التّصريح ببني إسرائيل، أو لفظ (قومه)، للإشارة إلى أنّ إنجاءهم كان ببركة هذه المعيَّة ومُصاحبة موسى عليه السلام لهم، وقيل: ليشمل من آمن به عليه السلام من القبط إذ لو قيل: (وقومَهُ) لتبادر إلى الذِّهن بنو إسرائيل دون من سواهم[1].

فائدة التَّقييد بالتَّوكيد المعنويِّ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

تأكيد نجاة جميع المؤمنين

في كلمة ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ من قوله تعالى ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ توكيدٌ للاحتراس فوق ما لِلَّفْظِ من التَّناسب الإيقاعيّ مع الفاصلة، أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتَّبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحدٌ[2].

دلالةُ استعمال حرف ﴿ثُمَّ﴾:

إغراقُ فرعون كان بَعْدَ مُهلةٍ وتَراخٍ من نجاة موسى عليه السلام

لمّا خرج أصحاب موسى عليه السلام جميعُهم، وتكاملَ أصحاب فرعون جميعُهم انطبق عليهم البحر[3]، فتُرِكَ البحرُ على حاله المفروق مُدَّةً من الزَّمن، حتّى يكون فرعونُ وجيشُه كُلُّهم في وسط الطَّريق اليَبَس في البحر، فجاء النَّظمُ الكريمُ بأداة ﴿ثُمَّ﴾ المُفيدة للتَّراخي الزَّمانيّ؛ لأنَّ إغراقهم كان بَعْدَ مُهلةٍ وتَراخٍ من نجاة موسى عليه السلام، وقد تَدُلُّ على التَّراخي المعنويّ؛ وذلك لِما بَيْنَ المُتعاطفَين من المُباعدة المعنويَّة[4].

دلالةُ إسناد فعل الإغراق إلى الضّمير:

إغراقٌ عظيمٌ في إهلاكِه، لعظمة الخالق وشدّة انتقامِه

أُسند فعلُ الإغراق إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَغۡرَقۡنَا﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 89، واطفيش، تيسير التَّفسير: 10/ 253.
(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 6/ 131.
(3) صالح بهجت، إعراب القرآن الكريم، ص: 222.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 89.

أي: إغراقًا هو على حسب عظمتنا[1]، حيث أمر اللّه البحرَ بأن ينضمّ ماؤه عليهم، فسالت الجبال المائيّة عليهم مُتدفِّقَةً بشِدَّةٍ وعُنفٍ في منظرٍ رهيبٍ مهيبٍ عجيبٍ، فعذّبتهم وأعرقتهم أجمعين.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 45.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء: 67 - 68]

مُناسَبَة الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهما:

بعد بيان الأحداث يقع الاعتبارُ وتعظُّمُ المِنَّة

لمّا قام عُذرُ موسى عليه السلام فيما استدفعه أوّل القِصَّة من كيد فرعون بما ثبت له من العظمة والمُكنة في كثرة الجند وعظيم الطّاعة منهم له في سرعة الاجتماع الدّالّة على مُكنتهم في أنفسهم، وعظمته في قلوبهم، رغبةً ورهبةً، وظهر مجدُ اللّه في تحقيق ما وعد به سُبحانه من الحراسة، وزاد ما أقرَّ به العيون، وشرح به الصُّدور، وكان ذلك أمرًا يَهُزُّ القوى سماعُه، ويروع الأسماعَ تصوُّرُه وذِكْرُه، قال مُنبِّهًا على ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفرَدات:

1) ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: الآيةُ: العلامةُ الظّاهرةُ، والعِبْرَةُ، وأصلُ آيةٍ أَأْيَةٌ بِوَزْنِ أَعْيَةٍ، مهموز هَمزَتَيْن، فخُفِّفتِ الأخيرةُ فامتدَّتْ، وآيةُ الرَّجُلِ: شَخْصُه، تقول: تَأَيَّيْتُه، إذا قصدتَ آيَتَهُ وتعَمَّدْتَهُ، وهذه آيةٌ مَأياةٌ، كقولِك: عَلامةٌ مَعْلَمَةٌ، وإيايَةُ الشَّمسِ: ضَوْءُها، وهو من ذاك؛ لأنَّه كالعلامةِ لها، وقيلَ للبناءِ العالي آية، نحو قولِه تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشُّعراء: 128].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ أي: علامةً عظيمةً لا توصَف، وقد عايَنَها النّاسُ وشاعَ أمرُها فيهم[2].

2) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: (عزّ) أَصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 45.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 115.

وما ضاهاهُما مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ[1]، ويدلّ على تماسُكِ الجِرم الرِّخْو حتّى يَبلُغ الشِّدَّةَ والصَّلابة التامَّة، عزَّ يَعِزُّ عِزًّا وعَزازةً فهو عَزيزٌ؛ أي: قويٌّ، وأعزَّه الله، قالَ تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: 14]، أي: قوَّينا وشَدَّدْنا، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ من أن يُغلَب، من قولِهم أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبَةٌ، قالَ تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾ [النِّساء: 139]، والعزيزُ: الَّذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فهو المنتقمُ من أعدائه، الرَّحيمُ بأوليائه[3].

❁ المعنَى الإجْماليّ:

مع عظمةِ آيةِ فلْقِ البَحرِ ما آمنَ أكثرُ النّاس

يُشيرُ النَّظمُ القرآنيُّ إلى ما تقدَّمَ ذكرُه ممّا صدرَ بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية، ففي ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحُجَّةٌ قاطعةٌ وحكمةٌ بالغةٌ دالَّةٌ على قدرةِ اللّهِ تعالى وعظيم سلطانه، وما تنبَّه إليها أكثرُ من شاهد هذه الآيات ولا آمنَ باللّه[4]، ثُمَّ إنَّه تعالى كان عزيزًا قادرًا على أن يُهلِكَهم، فما أهلَكَهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدلَّ ذلك على كمال رَحمته و سعة جوده و فضله[5].

❁ الإيضاح اللُّغويّ والبلاغيّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

الإشـارة إلى مواطن العبرة والعظة من القَصَصِ القرآنيّ

لمّا كان الحديثُ عن انفلاق البحر لموسى عليه السلام، ونجاته، وغرق فرعون، وتلك آيةٌ من أكبر دلائل قدرته سُبحانه، فهي جَديرةٌ بتسجيلها والإشارة إليها، أي: إنَّ في ذلك الذي قصصناه عليك - أيُّها الرَّسول الكريم - من قِصَّة موسى وفرعون، لَآيَةً عظيمةً تدعو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزّ).
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (عزز).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 116.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 115 - 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 137.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 509.

إلى إخلاص العبادة والطّاعة لنا، فالجُملة استئنافٌ بيانيٌّ فيه إشارةٌ إلى مواطن العبرة والعظة من القَصَصِ القرآنيِّ[1].

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الاهتمامُ بالمُقدَّم المُشار إليه، والتَّشويق إلى المُؤخَّر

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ للاهتمام بالمُقدَّم المُشار إليه وتشويقًا إلى المُؤَخَّر اللّازم من العِبرة بعد معرفة ما وقع والإيمان به، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جميع ما فصَّل مِمّا صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المُعجزات القاهرة، وممّا فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال، وما فُعِل به وبجنوده من العذاب والنَّكال[2].

بلاغةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد:

تعظيمُ نجاةِ موسى وتهويلُ غرقِ فرعون

في اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ من معنى البُعْدِ ما يُهوِّل أمرَ المُشار إليه، وذلك بتعظيم أمر نجاة موسى ومن معه، وتهويل أمر إغراق فرعون وجنوده، أي الأمر العظيم العالي الرُّتبة من قصَّة موسى وفرعون وما فيها من العظات، أو إنَّ فيما فُصِّل من القصَّةِ من حيثُ حكايتُه صلى الله عليه وسلم إيّاها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحدٍ لآيَةً عظيمةً دالَّةً على أنَّ ذلك بطريقِ الوحي الصّادقِ موجبةً للإيمانِ باللّه تعالى وحْدَهُ وطاعةِ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم[3].

معنى اللّامِ في اسم ﴿إِنَّ﴾ ودلالتُه:

التَّأكيدُ على عِظَمِ المُعجزة بقصد التّدبُّر والتَّأمُّل

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ للتَّوكيد، أي: إنَّها مُعجزةٌ خارقةٌ للعادة، وعبرةٌ تدلُّ على عظمة اللّه تعالى وقدرته ووحدانيّته وتوجب الإيمان به، وتدلُّ على صِدْقِ رسالة موسى عليه السلام؛ وهي آيةٌ لموسى ولقومه ولكلِّ مُؤمن يقرأ كتابَ اللّه تعالى[4].

---

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 252، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 80.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 246، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 165.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 45، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 246.

(4) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 146.

تعظيمُ شأنِ هذه الآيةِ العجيبة وتفخيمُ أمرِها

غرضُ تنكير ﴿لَآيَةً﴾:

نُكِّر لفظُ (آية) في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ للتَّعظيم أي: (أيَّة آية)، أو: آيةٌ عظيمةٌ لا تكاد توصف، موجبةٌ لأن يَعتَبِر بها المُعتَبِرون، ويقيسوا شأن النَّبيّ عليه الصَّلاة و السَّلام بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسهم بحال أولئك المُهلَكين، فيجتنبوا تعاطيَ ما كانوا يتعاطَونَه من الكفر والمعاصي ومُخالَفة الرَّسول، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسوله كيلا يحِلَّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك[1]، فالذي حدث في البحر آيةٌ عجيبةٌ من الآيات العظام الدّالّة على قدرة الله تعالى؛ لأنَّ أَحَدًا من البشر لا يقدر عليه، وعلى حكمته وكَونِ وقوعه مصلحةً في الدّين والدُّنيا، وعلى صِدّقِ موسى لكونه معجزةً له[2].

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ عند عدم إيمانِ قومه

دلالةُ التَّعبير بالأكثريَّة:

جاء ذكر لفظ (أكثر) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ لبيان أنَّ الإيمان كان من القلَّة القليلة، فتعقيب القول المذكور بكلّ قصّةٍ من هذه القصص يدلُّ على أنَّ المراد بالأكثر هو من لم يؤمن من قوم كُلِّ نبيٍّ من الأنبياء المذكورين، وقد ثبت في غير هذه المواضع أيضًا أنَّ أكثر النّاس مِنْ كُلِّ أمّةٍ هم الكافرون[3]، وفي نفي إيمان الأكثريَّة تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السلام؛ لأنَّه قد يغتمُّ بتكذيب قومه مع ظهور المُعجزات عليه، فنبَّهه اللّهُ تعالى بهذا الذِّكر على أنَّ له أُسوةً بموسى وغيره[4].

دلالة التَّعبير بالاسميَّة:

إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِقرارِهم على عدَمِ الإيمانِ، واستِمرارِهم عليه[5]،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 246.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 37.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 280.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 37.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 246.

ومعنى قوله تعالى: ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: مؤمنين للّه، أي: مُتَّصفين بالإيمان الثّابت(1).

معنى الواو ودلالتها:

التَّقابلُ بين المعاني وإظهارُ الفروق بين الدّلالات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عطفٌ على ما تقدَّم(2)، فإنّ ما سَبَق ذِكْرُه من كفر الجاحدين واعتداء المجرمين رغم ظهور الآيات البّينات كما قصّها علينا ربُّ العالمين، وما تبع ذلك من هلاكهم ونصر المؤمنين المستضعفين، دلالةً على أنَّ اللّه مُتَّصفٌ بالعِزَّة والرَّحمة، فمن عِزَّته أن يُقهر أعداءَه، ومن رحمته أن ينصر أولياءَه، فالتَّعقيبُ بِذِكْرِ عِزَّة اللّه ورحمته تأكيدٌ على قوَّة اللّه وقهرِه لأعدائه، ورحمتِه بأوليائه، وهو تعقيبٌ معهودٌ في السّورة بعد عرض الآيات والتَّكذيب.

مناسبة ذكر عنوان الرُّبوبيَّة:

الإيماء إلى الوعدِ بالرِّعاية والتَّربية والإحسان

ناسب سياق الآية ذكر عنوان الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، أي: المُحسن إليك بإعلاء أمرك، واستنقاذ النّاس من ظَلام الجهل على يَديك(3)، فهو الذي خلقك، وقام برُبوبيَّته لحمايتك، وهو الحيُّ القيّوم، العزيز، الغالب، الرَّحيم، فيما يعمل ممّا يسوء الظّالمين ويكافئُ المحسنين(4).

دلالة إضافة لفظ الرُّبوبيّة إلى الضَّمير:

أُضيف لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير المخاطَب المقصود به رسول اللّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ لِتَشريفِه والعِدَةِ الخَفيَّةِ بالانتقامِ مِن الكفَرةِ(5).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 45.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 46.
(4) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5362.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 235، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 150.

غَرَضُ توالي المُؤَكِّدات:

الاعتناءُ بشأن الخبرِ وتأكيد الوعيدِ المفهوم منه

جاء النظم القرآني في ذِكْر عِزَّة اللّه ورحمته بِعِدَّة مُؤَكِّداتٍ وهي: (إنّ)، واللّام، وضمير الفصل، فإن قال قائلٌ: الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ، وحالُه لا تقتضي التَّأكيد؛ لأنّه مُقِرٌّ، ومن قواعد البلاغة أنّه لا يؤكّد الكلام إلّا للمُتردِّد أو للمُنْكِرِ؛ فإن كان للمُتردِّد فهو استحسانٌ، وإن كان للمنكِر فهو وجوبٌ، فكيف أُكِّد الكلام بِكُلِّ هذه المُؤكِّدات مع أنَّ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ وهو مُقِرٌّ بذلك؟ **فالجواب**: أنَّ الشَّيء يؤكَّد باعتبار حال المخاطَب كما يؤكَّد باعتبار أهمِّيَّته، فإذا كان الكلام موضعَ اهتمامٍ فإنَّه يُؤكَّد - وإن كان المُخاطَب مقرًّا به -، لبيان اعتناء المتكلِّم به، والآية ذُكِرَت تسليةً للرَّسول ﷺ وتهديدًا للكُفّار، والكفّار قد يشكّون - أو ينكرون - في عِزّة اللّه ورحمته، فلهذا جمع بينهما مؤكّدًا[1].

نكتةُ تقديمِ صِفَةِ العِزَّةِ على صِفةِ الرَّحمةِ:

ترتيبُ الصّفات ملحوظٌ فيه معنى السّياق والارتباطُ بالمقام

قُدِّمت صفةُ العزيز على صفةِ الرّحيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ومعنى الآيةِ أنَّه سبحانه الغالب على كُلِّ ما يُريده من الأمور التي من جُملتها الانتقام من المُكذِّبين[2]؛ فلمّا كان المَوضِعُ موضعَ بَيانِ القُدرةِ، قدَّمَ صِفةَ العِزَّةِ على صِفةِ الرَّحمةِ؛ فالرَّحمةُ إذا كانت عن قُدرةٍ كانت أعظَمَ وقْعًا[3]، ولأنَّه لو لم يُقَدِّمْهُ لكان رُبَّما قيلَ: إنَّه رَحِمَهم لِعَجْزِه عن عقوبتِهم! فأزال هذا الوهمَ بذِكْرِ العزيزِ[4] ابتداءً، ثمَّ ثنَّى بذكر الرَّحيم.

سِرُّ اقتران الاسمين الجَليلَين:

الجمعُ بين التَّرغيب والتَّرهيب في أفعاله سُبحانه وتعالى

خَتَمَ اللّهُ تعالى بعِزَّتِه ورحمتِه في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ

(1) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 148.
(2) المغراوي، التَّدبُّر والبيان: 24/ 341.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 492.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ليَجمعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ فالتَّرهيبُ بالعِزَّةِ، والتَّرغيبُ بالرَّحمةِ؛ والجمعُ هُنا بينَ هاتينِ الصِّفتينِ للتَّناسُبِ البالغِ؛ لأنَّ مِن اجتماعِهما يحصلُ الكمالُ، فهو بعِزَّته ذو رحمةٍ؛ فلو قارنّا بينَ العزّةِ والرّحمةِ في صفاتِ المخلوقينَ لوجَدْنا أنَّهما لا يجتمعان في الغالبِ؛ وأنَّ العزيزَ الذي يَرى نفْسَه قاهرًا: في الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصِّفتينِ يحصلُ بهما كمالٌ على الكمالِ، عِزَّةٌ ورحمةٌ، ثم اجتماعُهما كمالٌ، فيكونُ مع العِزَّةِ رحيمًا لا يُؤاخِذُ ولا يَنتقِمُ؛ ولهذا لم يُعَجِّلِ اللّٰهُ سبحانه وتعالى العقوبةَ للظّالمِ، ولكنَّه بحكمتِه يُملي له حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه، فإهلاكُ فرعون يقتضي أن يقابَل بالعزّة، وإنجاءُ موسى يقتضي أن يُقابَل بالرَّحمة لأنَّه من مُقتضاه[1].

(1) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 37.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ [الشعراء: 69 - 71]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

ذِكرُ سيرة الأب حاملٌ على الاقتداء به

لمّا أتمَّ سُبحانه وتعالى ما أراد من قِصَّة موسى عليه السلام ليعرف نبيَّنا محمَّدٌ ﷺ أنَّ تلك المِحَن التي أصابته كانت حاصلةً لموسى كذلك، أتبعه قَصَّة إبراهيم عليه السلام، دلالةً على رحمتِه بنبيّه وزيادةً في تسليته ﷺ[1]، ولأنّه أعظم آباء العرب، فيكون ذِكْرُ سيرتِه حاملًا لكفّار قريشٍ على تقليده في التَّوحيد إن كانوا لا ينفكّون عن التّقليد، وزاجرًا عن استعظام تسفيه آبائهم في عبادتها[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَٱتۡلُ﴾: (تلو) أصلٌ يدلّ على الاتّباع، تَلَوْتُ الرَّجُلَ أتْلوه تلاوةً: تبعتُه، ومنه تلاوةُ القرآن؛ لأنَّه يُتبِعُ آيةً بعدَ آية، وجاءتِ الخَيلُ تتاليًا، أي: مُتتابعةً[3]، والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباعِ كتُبِ اللّهِ المنزَّلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارْتسامِ لما فيها من أمرٍ ونَهْيٍ، وتَرغيبٍ وترهيبٍ، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: اقْصُصْ عليهم[5].

2) ﴿نَبَأَ﴾: (نبأ) أصلٌ يدُلُّ على الإتْيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ، يقالُ للَّذي يَنْبَأُ من أرضٍ إلى أرضٍ نابئٌ، وسَيْلٌ نابئٌ: أتَى من بَلَدٍ إلى بلدٍ، ومن هذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى

(1) الشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تلو).
(4) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 138، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5365.

مكان، والمُنبِئُ: المُخبِرُ، والنَّبْأَةُ: الصَّوتُ، لأنَّه يَجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ[1]، والنَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أوْ غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثة[2].

وقولُه تعالى: ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: الخبرَ الخطيرَ ذا الشَّأنِ العظيم، وهو أمرُ إبراهيمَ عليه السلام إذْ جاءَ قومَه فرآهم يعبُدونَ الأصنام[3].

3) ﴿أَصْنَامًا﴾: (صنم) كلمةٌ واحدةٌ لا فرْعَ لها، وهي الصَّنمُ، وكان شيئًا يُتَّخذُ من خَشَبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ فيُعبَد، وجَمعُه: أصنامٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74][4]، وقولُه تعالى: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ أي: حجارةً نُحِتَتْ تماثيلَ ليعبُدوها[5].

4) ﴿فَنَظَلُّ﴾: (ظلل) أصلٌ يدلّ على ستر شيءٍ لشيءٍ، يُقال: ظَلِلْت وظِلْتُ بحذفِ إحدَى اللّامَيْن، ليُعبَّرَ به عمّا يُفعَلُ بالنَّهار، ويَجْري مَجْرَى صِرْت، وذلك لأنّ الظِّلّ لا يكون إلّا بالنّهار، قالَ تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾ [الروم: 51]، وقال سُبحانه: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ﴾ [طه: 97][6]، وقولُه تعالى: ﴿أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا﴾ أي: نقومُ على عبادتِها نهارًا دون اللَّيل[7] على قولٍ، وعلى الدَّوام على قولٍ آخر.

5) ﴿عَٰكِفِينَ﴾: (عكف) أصْلٌ يدُلُّ على مقابلةٍ وحَبْسٍ، يُقالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عُكوفًا، وذلك إقبالُه على الشَّيءِ لا ينصرِفُ عنه، فهو عاكِفٌ ومعتَكِفٌ، ومن الباب قولُهم للنَّظم إذا نُظِمَ فيه الجَوْهَرُ: عُكِّفَ تعكيفًا، والمعكوفُ: المحبوسُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [الفتح: 25][8]، وقولُه تعالى: ﴿عَٰكِفِينَ﴾ أي: مستمرّين في عبادتِها لا نَني عن ذلك ليلًا ولا نهارًا[9]، لا نَعْدِلُ بها شيئًا[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نبأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5365.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (صنم).
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5365.
(6) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(7) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 116، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 138.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عكف).
(9) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5365.
(10) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 93.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكار إبراهيمَ عليه السلام على أبيه وقومِه عبادةَ الأصنام وإصرارهم في الاستمرار على عبادتها

هذا إخبارٌ عظيمُ الشَّأنِ من اللهِ تعالى عن عبدِه ورسولِه وخليلِه إبراهيمَ عليه السلام إمامِ الحُنفاء، أمرَ اللهُ تعالى رسولَه محمَّدًا ﷺ أن يَتلوَه على أُمَّتِه ليقتدوا به في الإخلاصِ والتَّوكُّل[1]، فيخبرُ اللهُ تعالى عن خليلِه إبراهيمَ عليه السلام أنَّه قال لأبيه وقومِه مُنكرًا عليهم: ما هذه التَّماثيلُ الَّتي تقومون على عبادتِها من دونِ الله[2]؟! فأجابوه بأنَّهم يعبُدون أصنامًا ويقومون على عبادتِها ودعائها مستمرِّين لا يَعدِلون بها شيئًا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ القِصّة على القِصّة:

فِقهُ الأولويّات مُراعًى في ترتيب قصص القرآن

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على ما سبق، والعطفُ هُنا من قبيل عَطْفِ القِصَّة على القصَّة، وقد قُدِّمت قِصّة موسى على قِصّة إبراهيم عليهما السلام مع تأخُّرها عنها زمانيًّا، باعتبار أنَّ موسى أُرسل إلى فرعون الطّاغية الّذي قال للملأ: أنّا ربُّكم الأعلى، وهذا قِمَّة الكُفر والشّرك، وإبراهيم أُرسل إلى قوم يعبدون الأصنام فهؤلاء أقلُّ سفاهةً وضلالًا وجهلًا من قوم فرعون، فهؤلاء كانوا يظنّون أنّ هذه الأصنام تُقرِّبهم عند الله زُلفى أو تشفع لهم، بينما قوم فرعون يعبدون الآلهة ويعبدون فرعون نفسه، فلذلك كان نبأ موسى مُقدّمًا على نبأ إبراهيم بالنّسبة للدّعوة إلى التّوحيد والتَّحدّي[4].

بلاغة استعمال مفردة التِّلاوة:

التِّلاوة تَتابُع القِراءةِ، والإشارةُ إلى أنَّ الموعظة والعِبرة تكون بالقرآن

آثر النَّظمُ الكريمُ فِعْلَ التِّلاوة في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون القراءة، ذلك أنَّ التلاوة تعني: القراءة على سبيل التَّتابع وهي

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 317.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 317.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 83، والواحدي، الوسيط: 3/ 355.
(4) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 237، والخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 10/ 134.

مُختصَّة بالقرآن، ولذلك كانت كُلُّ تلاوةٍ قراءةً وليس كُلُّ قراءةٍ تلاوةً[1]، فالمعنى: اقرأ عليهم على الدّوام ممّا أوحي إليك خَبرَ إبراهيم العظيم ليتأكّد عندك عدم تأثُّرهم بما فيه، وذلك لشدَّة عنادهم[2]، لأنَّ تلاوة القُرآن لها أثرٌ عجيب في القلوب لمن كان له قلب.

بلاغة تغيير أسلوب بدءِ القِصَّة:

نظمُ القرآنِ مُراعًى فيه أحوالُ المخاطَبين

بُدئت القِصَّة بأمر النَّبي ﷺ أن يتلوَ هذه القِصَّة على قومه، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على خلاف قِصَّة موسى حيث بُدئت بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعراء: 10]، ولعلَّ تغيير الأسلوب هُنا جاء لمزيد الاعتناء بهذه القِصَّة؛ لأنَّ عَدَم إيمان كُفّار قريشٍ بعد وقوفهم على ما تضمَّنته هذه القِصَّة فيه أقوى دليلٍ على عنادهم، وذلك لأنَّ إبراهيم عليه السلام له خصوصيّةٌ عندهم[3]، فهو جدُّهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه[4]، فالأحرى بهم بعد ذكر قِصّته أن يتَّقوا اللّٰه ويؤمنوا.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

تذكيرُ مُشركي قريشٍ بإبراهيم لاختصاصهم بالانتساب إليه

يَرجِع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى المشركين، دلالةً على أنَّ القصد من إيراد القِصَّة هو التَّذكيرُ وضربُ المثل[5]، فلَمّا كانت العَرَبُ لها خُصوصيَّةٌ بإبراهيمَ عليه السلام؛ أمَرَ اللّٰهُ نبيَّه ﷺ أن يتلوَ عليهم قَصَصَه، وما جرَى له مع قَومِه، ولم يأتِ في قِصَّةٍ مِن قِصَصِ هذه السّورةِ أمرُه عليه السلام بتلاوةِ قِصَّةٍ عليهم إلّا في هذه[6].

دلالةُ إضافة لفظ النّبأ إلى العلم:

إبرازُ موضع العبرة والقُدوة والأسوة

في إضافة النَّبأ إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ دون ذكر إشراك قومه معه، وظاهرُ القِصَّة حديثٌ عنه وعنهم،

(1) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: 71، والبروسوي، روح البيان: 6/ 281.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 93.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 93، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 22.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 93.
(5) محمّد دروزة، التَّفسير الحديث: 3/ 249.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 162.

إشارةٌ إلى أنَّ المنظور إليه هو إبراهيم ﷺ، وأنَّه هو الذي يجب أن يكون مَوْضِعَ القُدوة والأسوة للمؤمنين، ولأصحاب الرِّسالات الطَّيِّبة الدّاعية إلى الخير، وعلى رأس أصحاب هذه الرِّسالات النَّبيُّ محمَّدٌ صلوات اللّه وسلامه عليه، حيث اجتمع في قومه كِبْرُ فرعون واستعلاؤه، وصَغارُ قوم إبراهيم وحماقتهم[1].

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُها:

الإشارةُ إلى تمام رُشد إبراهيم مُذ صغر سِنِّه

الظَّرف في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بمعنى: وقت أن قال إبراهيم ﷺ لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟ وقد أوتي الرُّشد من صغره، فهو من حين نشأ وترعرع أنكر على قومه عبادة الأصنام، وهو مشاهِدٌ راءٍ له، ليُعلمَهم أنّ ما يعبدونه لا يستحقُّ العبادة في شرعٍ ولا عقلٍ[2].

دلالة اللّام وغَرَضُ تقديم ﴿لِأَبِيهِ﴾:

الدَّعـوةُ تبـدأُ بالأقرب فالأبعد عنايةً ورعايةً

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾: لام الاختصاص، وقدَّم النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ (أبيه) على قومه؛ لأنَّ أب الشَّخص أو عَمَّه هم أقرب النّاس إليه، والدَّعوةُ عادةً تبدأ بالأقرب فالأقرب، فلأنَّه كان حريصًا على هدايته قدَّمه اهتمامًا به، ولذلك سأل ربَّه ألّا يُخزيَهُ يومَ يبعثون كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾ [الشُّعراء: 87].

غرضُ الإطناب في قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ للاعتناء بالأب

عطف القوم على الأب في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ من عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ أباه داخلٌ في قومه ضمنًا، وذِكْرُ العامِّ بعد الخاصِّ إطنابٌ، والغرَضُ منه الاعتناء بشأن

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 10/ 134.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 131، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 69، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 253.

أبيه مع ما فيه من إفادة العموم، وإبراز مكانة الأب، وأنَّه الأصل في الدَّعوة إلى اللّه تعالى.

غرضُ الاستفهامِ في ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وبلاغتُه:

الإنكارُ على قوم إبراهيم وتوبيخُهم وتقريرُهم للاعتراف بجُرمهم

تُستعمل ﴿مَا﴾ للسُّؤال عن ذات غير العاقل، وقد تُستعمل لصفات العقلاء وللسّؤال عن حقيقة الشَّيء، وإبراهيم عليه السلام يعلم ما يعبد قومه، فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ ليس حقيقيًّا، بل هو استفهامٌ إنكاريٌّ للتّوبيخ، ويدلّ على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾ [الصّافات: 86]، فسؤال إبراهيم، هو من تَجاهُلِ العارف، الذي يسأل عن الشّيء وهو يعرف الجواب، ولكنَّه يُريد بهذا السُّؤال أن يأخذ الجواب عن هذا الجُرْم، من فم المُجرمين أنفسهم، ليكون ذلك موضعًا للمُساءلة والمُحاسبة على ما نطقت به ألسنتهم، ولهذا كان تعقيب إبراهيم على هذا الجواب، بأن سألهم قائلًا: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾؟[1]، فالاسِتفهامُ هنا بمعنَى التَّحقيرِ والتَّقريرِ[2].

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ في استعمال ﴿مَا﴾ و﴿مَاذَا﴾:

المبالغة في التَّوبيخِ والإنكارِ تقتضي استعمال (ماذا)

جاءَ الاستفهام في قَوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ بدونِ ذِكرِ (ذا)، ووجْهُه: أنَّ ﴿مَا﴾ لُمجرَّدِ الاستفهام، فأجابوا بقَولِهم: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾، وفي (الصّافّات) بذِكرِه: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥﴾ [الصّافّات: 85]؛ و﴿مَاذَا﴾ [الصافات: 85] فيه مُبالَغةٌ؛ لتَضمنه معنَى التَّوبيخِ، فلمّا وبَّخهم ولم يُجيبوه، زادَ على التَّوبيخ فقال: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [الصّافّات: 86 - 87]؛ فذَكَر في كلِّ سورةٍ ما يُناسِبُ ما ذُكِر فيها[3]، وقيل:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 10/ 134.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 138، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 162.

(3) الأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 412.

هذه هي المُحاجَّةُ الأولى في مَلأِ أبيه وقَومِه أَلْقى فيها دَعْوتَه في صورةِ سؤالِ استِفسارٍ غَيرِ إنكارٍ؛ استِنزالًا لطائرِ نُفورِهم، وأمّا قَولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾ [الصّافات 85 - 86] فذلك مَقامٌ آخَرُ له في قَومِه كان بعْدَ الدَّعوةِ الأولى المَحكيَّةِ في سورةِ الشُّعراء؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترِنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم بزيادةِ كَلِمةِ (ذا) بعدَ (ما) الاستِفهاميَّةِ في سورةِ (الصّافّات)، وكَلِمةُ (ذا) إذا وقعَتْ بعدَ (ما) تَؤولُ إلى معنَى اسمِ المَوصولِ؛ فصارَ المعنى في سورةِ (الصّافّات): ما هذا الَّذي تَعْبُدونه؛ فصارَ الإنكارُ مُسلَّطًا إلى كَونِ تلك الأصنامِ تُعبَدُ[1].

دلالة التّعبير بصيغة المُضارع:

استحضارُ معنى التَّوبيخِ حين السُّؤال

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ دون أن يقول: (عبدتم)، وذلك باعتبار أنَّ العبادةَ واقعةٌ منهم الآن، ولاستحضار الاستنكار على عبادتهم الأصنام حين السّؤال، فهو أرسخ في الإنكار والتَّوبيخ.

بلاغةُ تكرير الفعل في جملة الجواب:

تكرير التَّصريح بـه ابتـهاجًا بعبادة الأصنام، وافتخارًا وعنادًا

أظهَر النَّظم فعل ﴿نَعْبُدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ مع أنَّ الظّاهر الاستِغناءُ عنِ التَّصريحِ؛ إذْ كان جَوابُهم عن سُؤالٍ فيه: ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ فلا حاجةَ إلى تعيينِ جِنسِ المَعبوداتِ، فلو قالوا: ﴿أَصْنَامًا﴾، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219]، وقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: 23] لَكفى؛ لكنَّهم عَدَلوا عن سُنَّةِ الجَوابِ إلى تَكريرِ الفِعلِ الواقِعِ في السُّؤالِ؛ ابتِهاجًا بهذا الفِعلِ، وافتِخارًا به[2]، فجاء الجوابُ بصيغة المُحاورة

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 138.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 317، 318، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 162، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 89.

الجارية في سياقات قَصَصِ القُرآن الكريم، فقولهم: ﴿نَعۡبُدُ﴾ يدلُّ على توكيد عبادتهم والافتخار بها، مع نكادةٍ وعنادٍ في الجواب.

غرضُ تنكير المفعول ﴿أَصۡنَامٗا﴾:

بيان تعظيمهم لأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة

التَّنْوينُ في ﴿أَصۡنَامٗا﴾ للتَّعظيم؛ ولذا عُدِلَ عن تَعريفِها، وهُم يَعْلَمون أنَّ إبراهيمَ يَعرِفُها، ويَعلَمُ أنَّهم يَعبُدونها، واسمُ (الأصنام) عِندَهم اسمٌ عظيمٌ؛ فهُم يَفتَخِرونَ به، على عَكسِ أهلِ التَّوحيدِ، فتنكير ﴿أَصۡنَامٗا﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّ المقامَ مقام افتخارٍ وابتهاجٍ بعبادتها، فناسب أن يكون كذلك[1].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَنَظَلُّ﴾:

قصدُ إبرازِ ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار

لمّا كان قوم إبراهيم عليه السلام يُريدون إظهار ما في نفوسهم من التَّعظيم لأصنامهم والافتخار بعبادتها، عطفوا دوام عكوفهم عليها في قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك[2].

بلاغة الإطناب:

الإطالة في الجواب افتخارًا واعتزازًا

في قوله تعالى: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ إطنابٌ، إذ الجملة زائدةٌ على الجواب، إظهارًا للتَّحدّي، وكأنَّهم فرِحون بما هم عليه[3]، فزادوا بهذا العطفِ فعلَ العبادة تأكيدًا[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿فَنَظَلُّ﴾:

الكناية عن دوام العبادةِ في الأوقات كلِّها أو في النَّهار وحده

المُراد بالظُّلول في قوله تعالى: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ الدَّوامُ أو فِعلُ الشَّيء نهارًا[5]، فعلى المعنى الأول تكون (ظَلَّ) تامَّةً، وعلى المعنى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 139.
(2) المغراوي، التَّدبر والبيان: 24/ 344.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 247، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 317.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 150.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظل).

الثاني تكون ناقصةً[1] وقد اختار كثيرٌ من المفسِّرين المعنى الأوَّل[2]، ووَجْهُ كونِه أبلغَ عندهم هو مُناسبته لمقام الافتخار والابتهاج، وما يَزيدُ فِعل العبادةِ تأكيدًا بقولِهم فنَظَلُّ لَها عاكِفينَ، وفي فِعلِ ﴿فَنَظَلُّ﴾ دلالةُ الاستِمرارِ جَميعَ النَّهارِ[3].

واختار الزَّمخشريّ المعنى الثّاني[4] لأنّهم كانوا يعبدونها نهارًا، ووجه كونه أبلغَ هو أنَّه مُناسبٌ للمقام أيضًا، فهو يدلُّ على إعلانهم الفعلَ لافتخارهم به[5].

نكتةُ استعمال اللّام ومعناها:

تخصيصُ الأصنام بالعبادةِ بقصدِ إظهارِ مكانتها

آثرَ النَّظمُ استعمالَ اللّام في قوله تعالى: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا﴾، فلم يَقُل: (فنَظلُّ عليها)، وإنَّما أَورَدَه باللّام لإفادةِ معنًى زائدٍ، كأنَّهم قالوا: فنَظَلُّ لأجْلِها مُقْبِلين على عبادتِها، أو مُستَديرينَ حَوْلَها، وهذا أيضًا من جملةِ إطنابِهم، أو عَدَّى العُكوفَ باللّامِ؛ لأنَّ المعنى: (لها قانِتون)[6]، كما أنَّ اللّام هُنا جاءت لمعنًى مقصودٍ هو الاختصاص، ولذلك عُدِّيَ باللّام لبيان اختصاصهم بالعُكوف على عبادة أصنامهم، وهذا أنسب للمقام وأبلغ في الدّلالة.

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل:

ثباتُ عُبّادِ الأصنامِ عليها وملازمتُها

العكوف يعني مُلازمة الشَّيء على سبيل التَّعظيم، وجاء التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾؛ لأنَّه أبلغ؛

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 93.

(2) كابن عطيَّة والبيضاوي وأبي السعود وغيرهم، يُنظر: ابن عطية الأندلسي، المُحرَّر الوجيز: 4/ 234، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 19/ 543، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 19/ 247.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 317، 318، وأبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط: 8/ 162، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 89.

(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 318.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 93.

(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 317، 318، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 162.

وذلك لدلالته على الثُّبوت والدَّوام، ولأنَّه أنسب للمقام، وفيه كنايةٌ[1] عن دوامِ عبادتهم لأصنامهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الصَّنم والوَثَن:

الصَّنمُ ما كانَ مُصَوَّرًا من حجرٍ أَو نحاسٍ أو فضَّةٍ أَو نَحْو ذَلِك، والوثنُ ما كانَ من غير صورةٍ[2]، فما اتَّخَذَهُ النّاس من آلهةٍ فكان من غير صورةٍ فهوَ وثَنٌ، فإذا كانَ لَهُ صورَةٌ فهوَ صَنَمٌ[3]، وفرَّق بَيْنَهُما هِشامٌ الكَلْبيُّ في كِتابِ الأَصْنام بِأَنَّ المَعْمولَ من الخَشَبِ أَو الذَّهَبِ والفِضَّة أَو غَيْرِها من جَواهِرِ الأَرْضِ صَنَم، وإِذا كانَ من حِجارةٍ فهوَ وثَنٌ[4]، وقيل: الصَّنمُ ما كانَ على صورَة خِلْقَة البَشَر خاصَّة، والوَثَن: ما كانَ على غَيْرِها[5].

الصَّنم ما كان من المَعبودات الباطلة على صورة، والوثن يَعُمُّ كلَّ معبودٍ من دون الله

ويُطْلَق الوَثَنُ على الصَّليب، وعلى القبر إذا عُبد من دون اللّٰه وعلى كلِّ معبودٍ من دون اللّٰه، فالوثن أعمُّ سواء كان شيئًا مجسّدًا على صورةٍ أو غير ذلك، وقد جاء في القرآن ما يدلّ على هذا، ففي قصة إبراهيم: مرّةً سُمّيَت أصنامًا ومرّةً سُمّيت أوثانًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [العنكبوت: 25]، وقال تعالى ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فهذا يدلُّ على أنَّها تُطلق على هذا مرّةً وتُطلق على هذا مرّةً أخرى.

---

(1) المطعني، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 99.

(2) ابن عزيز السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 66.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).

(4) الكلبي، كتاب الأصنام، ص: 53.

(5) مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (صنم).

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ [الشعراء: 72 - 73]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال من السُّؤال العامّ إلى السُّؤال التَّفصيليّ

لمّا بيَّنت الآيات السّابقة تمسُّكَ قوم إبراهيم بأصنامهم والتَّعلّقَ بمعبوداتهم الباطلة بالتزامهم العكوفَ على عبادتها، ناسبَ بيان موقف إبراهيم ﷺ من ذلك، فأخذ يُزهِّدُهم فيها، فقال تعالى مُخبِرًا عنه: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾[1]، فهو انتقالٌ من السُّؤال العامّ إلى السؤال عن التفاصيل بغرض الإقناع.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾: (سمع) أصلٌ يدُلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ، من النّاسِ وكلِّ ذي أُذُن، تقول: سمعتُ الشّيءَ سَمعًا[2]، ويأتي السَّمعُ بمعنَى الإجابة، يقالُ: سَمِعَ، أي: أجابَ؛ لأَنَّ من سَمِعَ أجاب[3]، وقولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ أي: هل يسمعونَ دعاءكم، فحذفَ المضاف[4]، وبمعنَى: هل يجيبونَكم[5].

2) ﴿تَدۡعُونَ﴾: (دعو) أَصْلٌ يدلّ على أن تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلام يكونُ منك، تقول: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً، ويُحمَلُ على الباب مجازًا أَنْ يقال: دَعا فُلانًا مكانُ كذا، إذا قصدَ ذلك المكان، كأنَّ المكانَ دعاه، وهذا من فصيحِ الكلام[6].

والدُّعاءُ كالنِّداء، والدُّعاءُ لا يكادُ يقالُ إلّا إذا كان معه الاسْم،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 48.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمع).
(3) ابن الأنباري، الزّاهر: 1/ 59.
(4) أبو علي الفارسي، المسائل الحلبيّات، ص: 83، والأخفش، معاني القرآن: 2/ 646، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 87.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 84، وابن الأنباري، الزّاهر: 1/ 59.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دعو).

نحو: يا فُلان، قالَ تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: 56]، ودعَوْتَه: إذا سألتَه، وإذا استغثْتَه، قالَ تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68]، ومنه قولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾[1].

3) ﴿يَنفَعُونَكُمۡ﴾: (نفع) كلمةٌ تدُلُّ على خلافِ الضُّرّ[2]، والنَّفعُ: ما يُسْتعانُ به في الوصولِ إلى الخَيْرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخيرِ فهو خيرٌ، فالنَّفعُ خيرٌ، وضدُّه الضُّرّ، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ [هود: 34][3]، وقولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾ أي: يَرْزقونَكم[4]، أو يَنْفعونَكم بوَجْهٍ من وجوهِ النَّفع[5].

4) ﴿يَضُرُّونَ﴾: (ضرّ) ثَلاثَةُ أُصولٍ: الأَوَّلُ خِلافَ النَّفْعِ، والثّاني: اجْتِماعُ الشَّيْءِ، والثّالِثُ القوَّةُ[6]، وضارَّه بالتَّشديدِ بمعنى ضَرَّهُ، والاسْمُ: الضَّرَر، والضُّرُّ: بالضَّمِّ الهُزالُ وسوءُ الحال، إمّا في النَّفْس، أو في البَدَن، أو في المالِ والجاه، والضَّرُّ: ضدُّ النَّفْعِ، والضَّرّاءُ: الشِّدَّةُ، اسْمٌ مؤنَّثٌ من غيرِ تذكير[7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ أي: يملِكونَ لكم ضرًّا[8]، أو يضرّونكم إذا تركتُم عبادتَكم لها[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحوار المقنِع هو طريق أبي الأنبياء في إيصال الحقِّ للمدعوّين

تُبَيّن الآية طريقة إبراهيم عليه السلام في إقامة الحجَّة على قومه الَّذين

---

(1) الرّاغب، المفردات: (دعا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفع).
(3) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(4) الواحدي، الوسيط: 3/ 355 عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.
(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 138.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضر).
(7) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (ضرر).
(8) الواحدي، الوسيط: 3/ 355.
(9) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 92.

يعبُدونَ الأصنام، فيقولُ لهم: هل يسمعونَ أصواتَكم وقتَ دُعائكم لهم[1]؟! وهل هذه الأصنامُ الَّتي تُقيمونَ على عبادتِها مُستَمرّين، ينفعونكم بسببِ عبادتِكم لها، أو يَضُرّونكم بترككم لعبادتِهم؟ إذْ لا بدَّ للعبادةِ لا سيَّما عند كونِها على ما وصفتُم من المبالغةِ فيها من جَلْبِ نفعٍ، أو دَفعِ ضُرٍّ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجُملة عمّا قبلها:

طريقةُ المحاورات تقتضي الفصل بين الأقوال

لمّا سأل إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، فأجاب قومه: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، وأراد أن يُبيّن عيبَ فعلِهم مُنبِّهًا على فساد معتقدهم قالَ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾، ففُصِلت الآية لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ مَبْنيٌّ على سؤالٍ نَشأَ مِن تَفصيلِ جَوابِهم[3].

غرضُ الاستفهامِ ودلالتُه:

افتتاحُ المجادلةِ بالاستفهام مقترنًا بالتَّعجُّب

الاستِفهامُ في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ لافتِتاح المُجادَلةِ معهم؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترِنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم[4]، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ، وهو أقوى من الهمزة في الاستفهام، كما لو قيل: (أيسمعونكم).

بلاغةُ المجاز بالحذف:

المنفيُّ عن الأصنام مطلقُ السَّماع وخصوصُ الإجابة

جُعِل مفعولُ ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ضَميرَ المُخاطَبينَ، تَوسُّعًا بحَذفِ مُضافٍ، تقديرُه: (هل يَسمَعون دُعاءَكم؟)، أو يكون التَّقديرُ: (يسْمَعونَكم تَدْعون)؛ حُذِفَ لدَلالةِ قَولِه: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه[5]، وما جاء عليه النَّظم أبلغُ من

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 138.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 92.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 510، وأبو السُّعود: 6/ 247.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 138، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 20/ 219.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 318، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 163.

التَّقدير، ذلك أنَّ فيه تشويقًا لِما بعده، لأنَّ السَّماعَ عامٌّ، فجاء ما بعده تخصيصًا بالدُّعاء، فيكون نفَى عنهم السَّماعَ مُطْلقًا، ثم نفَى عنهم الاستجابة لدعائهم.

وعليه فيحتمل قوله: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ السَّماعَ نفْسَه، أي: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعونهم؛ كقوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ [فاطر: 14]، ويحتمل معنى: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ أي: هل يُجيبونكم إذ تدعونهم[1]؛ وكِلا المعنَيَين سائغٌ في هذا المقام، فالتَّقدير: (هل يسمعون دعاءكم حين دعوتموهم وهل يجيبونه)[2].

نكتةُ تقييد المضارع بالظَّرف:

حِكايةُ الحالِ الماضيةِ أبلغ في التَّبكيت

قُيِّد الفعل المُضارِع ﴿يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ بالظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ، لاستِحضارِ صورتِها؛ كأنَّه قيل لهم: استَحضِروا الأحوالَ الماضيةَ الَّتي كنتُم تَدْعونها فيها، وأَجيبوا: هل سمِعوا أو أَسْمعوا قطُّ؟! وهذا أَبلَغُ في التَّبكيتِ[3]، أي: استحضروا أحوالَكم معهم من أوَّل عبادتكم لهم وإلى الآن: هل سمعوكم وقتًا ما؟ ليكون ذلك مَرجّيًا لكم لحصول نفعٍ منهم في وقتٍ ما[4]؛ فجيء بالمُضارع لبيان استمرار أحوالهم في دعاء أصنامهم وعبادتها مع عدم سماعها وإجابتها لهم.

نكتةُ تقديم ذِكْرِ النَّفع على الضُّرّ:

أهلُ الأهواءِ يُهرولون نحو جلبِ نفعهم

لَمّا كان شأنُ الرَّبِّ تعالى أنْ يُلجَأَ إليه في الحاجةِ، وأن يَنفَعَ أو يَضُرَّ؛ أَلْقَى إبراهيمُ عليهمُ استِفهامًا عن حالِ هذه الأصنام: هل تَسمَعُ دُعاءَ الدّاعينَ؟ وهل تَنفَعُ أو تَضُرُّ؟ تَنبيهًا على دليلِ انتِفاءِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 63.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 2/ 150.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 318، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 163.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 49.

الإلهيَّةِ عنها[1]، إذ لا بدّ للعبادة من مقصدٍ من هذه المقاصد، حيث كانت على ما وصفتُم من المُبالغة فيها والحفاوة بها والإقامة عليها، فهل لأصنامكم التي آثرتموها بالعبادة صفة النَّفع أو الضُّرِّ؟ وقُدِّم النَّفع على الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؛ لأنَّه المقصود بالدُّعاء في جلب الخيرات.

فنُّ بديعِ الطِّباق:

أبلغ بيانٍ في بلوغ غايـة الضّعـف والسّفول

في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ طباقٌ، وجيء به لإتمام الحُجَّة القاطعة والحقيقة السّاطعة الدّالَّة على ضَعْفِ معبوداتهم وسُفول رُتبتها حتَّى في مُقابلة عابديها.

نكتةُ تقييد فعل النَّفع وإطلاق فعل الضُّرّ:

النَّفـعُ مطلوب النَّفس والضُّرُّ يعمُّ غيرها

قُيِّد النَّفع بالضّمير في قوله تعالى: ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾، أي: أنتم، وأُطلق فعل الضرِّ ﴿يَضُرُّونَ﴾، أيّ: يضرّونكم أو غيركم، أيّ: لا يضرّونكم ولا يضرّون عَدوَّكم، فلماذا تعبدونها؟! فقُيِّد النَّفع لأنَّ الإنسان يريده لنفسه فحسب، وأُطلق الضُّرّ لأنَّه أراد العموم فهم لا يضرّون غيركم فضلًا أن يضرّونكم؛ فالحذف للعموم، فإمّا: يضرّونكم إن لم تعبدوهم، أو يضرّون عدوّكم إذا عبدتموهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 139.

(2) العثيمين، تفسير سورة الشُّعراء، ص: 155.

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من إقامة الحجّة إلى الجواب الأبتر

لمّا أقام إبراهيم عليه السلام الحجَّة القاهرة على قومه واعترفوا بأنّ أصنامهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، ناسبَ ذِكْرُ ما أجاب به قومه في دفعِ هذه الحجّة؛ فعَدَلوا عن الجواب وأخبروا أنّهم وجدوا آباءهم على شيءٍ فقلّدوهم، وهذا من أقوى الدَّلائل على فساد التَّقليد ووجوب التَّمسُّك بالاستدلال[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدۡنَآ﴾: (وجد) أصلٌ يدُلّ على الشَّيءِ يُلْفيه، وجَدَ يَجِدُ وُجودًا، يقالُ: وجَدَ مَطلوبَه يَجِدُه وجودًا، ووَجَدْتُ الضّالَّةَ وِجدانًا[2]، والوجودُ يكونُ بإحدَى الحواسِّ الخَمس، ويُعبَّرُ عنِ التَّمكُّنِ من الشَّيء بالوجود، نحو قولِه تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التَّوبة: 5]، أي: حيث رأيتُموهم، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾[3].

2) ﴿يَفۡعَلُونَ﴾: (فعل) أصلٌ يدُلُّ على إحداثِ شيءٍ من عملٍ وغيره، ويوصف بالحُسن والقُبح، فعَلْتُ كذا أَفْعَلُه فعْلًا، والفِعال جمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ، بفتح الفاء: الكَرَم وما يُفعَلُ من أمرٍ حَسَن، قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197][4]، ومعنى ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ أي: يعبدون الأصنام.

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُفْلِسُ من الحججِ يُسارع إلى تمجيدِ الآباء

أجابَ قومُ إبراهيمَ عليه السلام عن أسئلته مُضْرِبينَ عن أن يكونَ لهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 510.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصِّحاح: (وجد).
(3) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).

سمعٌ أو نفعٌ أو ضُرٌّ اعْترافًا بما لا سبيلَ لهم إلى إنكاره، واضطرّوا إلى إظْهارِ أنْ لا سَنَدَ لهم سِوَى التَّقليدِ الأعمَى، فكأنَّهم قالوا: لا يَسْمعونَ ولا يَنْفعونَنا ولا يضرّون، وإنَّما وجَدْنا آباءنا يفعلونَ مثل فِعْلِنا ويعبدونَهم مثلَ عبادتِنا فاقْتدَيْنا بهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصل:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ هذا منهم حَيْدَةٌ عن جَوابِ الاستِفهام[2]، وجيء بهذه العبارة مستأنفةً لكونها واردةً على صيغة المحاورة المشهورة بين الأطراف.

غرض الإضراب عن الجواب:

العدول إلى ذِكْرِ التَّقليد انقطاعًا منهم عن الجواب وإقرارًا بالعجز

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ إضرابُ انتِقالٍ عن جَوابِه عليه السلام لما سألَ، وأَخْذٌ في شَيءٍ آخَرَ لم يَسألْهم عنه؛ انقِطاعًا وإقرارًا بالعجز[3]، والجواب بـ﴿بَلۡ﴾ للانتقال من مقامِ إثباتِ صفاتِ السَّمع والنَّفع والضّرّ للأصنام إلى مقام قاطعٍ للمُجادلة - في نظرهم - وهو أنَّ عبادتهم للأصنام كانت موروثةً عن آبائهم، فانتقلوا إلى دليل التَّقليد بالسَّلَف، تفاديًا من كُلفة النَّظر والاستدلال بالمصير[4].

لأنَّهم لو قالوا: يسمعوننا وينفعوننا ويضرّوننا، فضحوا أنفسهم بالكذب الذي لا يُمترى فيه، ولو قالوا: يسمعوننا ولا يضرّوننا، أسجلوا على أنفسهم بالخطإ المحضِ، فعدلوا إلى التَّقليد في عبادتها من غير برهانٍ ولا حُجّة[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 92.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 163.

(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 164، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 140.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 23.

دلالة الإيجاز:

إذا دلَّ السياق على المعاني اختُزِلَت الألفاظ

جاءت أداة ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ للإضراب عن محذوفٍ بدلالة سَوق الكلام، أي: قال المشركون حين قال لهم إبراهيم عليه السلام ذلك: لا يكون لهم سمعٌ أو ضرٌّ بنفسه أو نفعٌ، أو لا نستطيع إثبات أنّهم يسمعون دعاءنا، ولا نستطيع إثبات أنّها تنفع أو تضرّ، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ففعلنا كذلك[1].

دلالة التَّعبير بالماضي:

الإيماءُ إلى عراقةِ الآباءِ في الشِّرك

جاء التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَجَدۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ والمعنى أنّنا وجدنا آباءنا من قَبْلِنا يعبدونها، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداءً بهم، واتّباعًا لمنهجهم[2]؛ وهذا دليلٌ على عراقة آبائهم في الشِّرك ورسوخهم فيه، ولهذا وصفهم إبراهيم عليه السلام بعد ذلك بالقِدَم في الشِّرك في قوله: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾.

غرضُ التَّشبيه وبلاغتُه:

سببُ عبادةِ الأصنامِ تقليدُ الآباءِ والاقتداءُ بالأسلافِ

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تَشبيهُ فِعلِ الآباءِ بفِعلِهم، وهو نَعتٌ لَمصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: يَفْعَلون فِعلًا كذلك الفِعلِ[3]، فلمّا علموا أنَّها لا تَضُرُّ ولا تنفع ولا تعقل ولا تسمع، فاضطروا إلى إظهار السَّببِ في عبادتهم إيّاها، والباعثِ لهم على ذلك، وهو تقليدُ آبائهم وأجدادهم؛ لأنَّهم كانوا يعبدونها قبلهم[4]، ولذلك شَبَّهوا فِعلَ آبائهم بفعلهم الذي هو عبادة الأصنام[5]، فالكاف قد عقدت صلةً بين أمرين هُما: فعل الأبناء،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 248.
(2) المغراوي، التَّدبر والبيان: 24/ 346.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 19/ 248.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.

وفعل الآباء، وبهذه الصِّلة انعقد التَّشبيه بين فعل الآباء وفعل الأبناء، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وغرض التَّشبيه بيانُ سبب عبادتهم لأصنامهم في تقليد الآباءِ والاقتداء بأسلافهم فحسب، وهذه حُجَّةٌ واهيةٌ ابتدعوها للخروج من مأزق الجواب.

فائدةُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم الجارُّ والمَجرورُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على يَفْعَلونَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾؛ للاهتمام بمَدلولِ اسم الإشارة[1] الموجَّهة إلى فعلهم لِما فيه من الظُّهور. وبيان أنّ فعلَهم الظّاهر ليس هو إلّا فعل الآباء.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع:

دَأب الآباء وعكفوا على عبادة الأصنام

التَّعبيرُ بصيغة المُضارع ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ لاستحضار الصّورة الماضية التي كان عليها آباؤهم في عبادة الأصنام التي استمرّوا عليها ودَأبوا على العكوف عليها.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

يفعلون فِعْلَ الأنعام بل هم أضلّ سبيلًا

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفْرَدَة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ ولم يقل: (يَعْبُدون)؛ لأنَّ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ تعمُّ العاقل وغير العاقل، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١﴾ [النّور: 41]، أمّا (يعبدون) فهي تخصُّ العاقل فقط، فإيثارُ الفعل على العبادة لبيان أنَّهم يفعلون فعل آبائهم بمتابعةٍ شديدةٍ دون عقلٍ أو تأمّلٍ في صحَّة أفعالهم، وهو قريبٌ من قول مَنْ شاكلهم من قريشٍ حين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزّخرف: 22].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

العـمـل فِـعْـلٌ صادر عن قصدٍ، والفعلُ أعمُّ منه

الفعل كون الشَّيء مُؤَثِّرًا في غيره[1]، ولفظ الفعل أعمُّ من معنى سائر أخواته، نحو: العمل، والصُّنع، والإبداع، والإحداث، والخلق والكسب[2]؛ أمّا العمل فهو كلُّ فعلٍ صادرٍ من الحيوان بقصدٍ؛ فالعمل لا يُقال إلّا لِما كان من الحيوان دون ما كان من الجماد، ولِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[3]، فهو أخصُّ من الفعل[4].

والعملُ لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ وروِيَّة، ولهذا قُرن بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعض الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلم تنبيهًا أنَّه من مقتضاه، فالفعل لفظٌ عامٌّ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الانسان والحيوان والجماد[5]، والعملُ أخصُّ منه.

(1) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 168.
(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 168.
(3) المناوي، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 247.
(4) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (عمل).
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 322.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء: 75 - 77]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

المواقفُ الواضحة تَحسُن بعد الإجابات الفاضحة

لّما بيَّنتِ الآية السّابقة اعترافَ قوم إبراهيم عليه السلام لِما وصَلوا إليه من التَّقليد المحض الخالي عن أدنى نَظَرٍ كما تفعل البهائم والطَّير في تبعها لأوَّلها؛ ناسبَ أن تُبيِّن الآياتُ اللّاحقة مَوقِف إبراهيم عليه السلام من جوابهم، وما قاله بعد ذلك من التّصريح المليء بالإعراضِ عن جواب كلامهم إشارةً إلى أنَّه كلامٌ ساقطٌ لا يرتضيه من شَمَّ رائحةَ العقل(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَقْدَمُونَ﴾: (قدم) أصلٌ يدلّ على سبقٍ ورعفٍ، والقِدَمُ: ضِدُّ الحُدوث، يُقال: قَدُمَ الشَّيءُ - بضمِّ الدّال - قِدَمًا، فهو قديمٌ، وتقادَمَ مثلُه، ويقالُ: قِدْمًا كانَ كذا وكذا، وهو اسْمٌ من القِدَم، جُعِلَ اسْمًا من أسماءِ الزَّمان، والقِدَمُ: وجودٌ فيما مضَى(2)، ومعنى القدم في قولِه تعالى: ﴿وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾، أي: الَّذين سَبقوكم ومَضَوْا في ضلالِهم القديم في عبادةِ الأصنام(3).

2) ﴿عَدُوٌّ﴾: (عدو) أَصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَرجِعُ إِلَيهِ الفُروعُ كُلُّها، وهوَ يَدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتَقَدُّمٍ لِما يَنبَغي أَنْ يُقتَصَرَ عليْه(4)، والعَداءُ تجاوزُ الحدِّ في الظُّلم، قالَ تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: 108]، والعَدُوُّ: ضدُّ الوَليِّ، والجمعُ عِدًى وأَعْداء، يقالُ: رجلٌ عَدوٌّ، وقومٌ عَدوٌّ، قالَ تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ [طه: 123](5)،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 50.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختارُ الصِّحاح: (قدم).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 93.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (عدا).

ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾، أي: أُناصفُهم بالسّوء، وأعاملُهم في إبْطالِهم ومَحْقِهم معاملةَ الأعداء[1]، أو: لو عبدتُّهم كانوا إلى يومِ القيامةِ ضِدًّا وعَدوًّا[2].

3) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: (علم) أَصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على أَثَرٍ بِالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غَيرِهِ[3]، والعالَمُ: الخَلْقُ كلّه، وهو في الأصلِ اسْمٌ لما يُعلَمُ به، كالخاتَم لما يُختَمُ به، وكالطّابَع لما يُطبعُ به، والعالَمُ آلةٌ في الدّلالةِ على صانعِه سبحانه وتعالى.

والعالَمون: أصنافُ الخَلْق، فكلُّ نوعٍ وصنفٍ من هذه العوالم قد يُسمَّى عالَمًا، فيقالُ: عالمُ الإنسان، وعالَمُ الحيوان، وعالمُ الماء، وغيرُها[4]، وقولُه تعالى: ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: مُدبِّرَ الأكوانِ كلّها، وجميع الخَلْق[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَمّا اعتذَرَ قومُ إبراهيمَ عليه السلام بعُذرٍ هو أقبحُ من ذَنْب، وهو التَّبعيَّةُ العَمياء على غيرِ هدًى، قال لهم خليلُ اللّه: فهل أَبْصرتُم وتفكَّرتُم ما كنتُم تعبدون من هذه الأصنامِ الَّتي لا تَسمعُ ولا تنفعُ ولا تضرُّ حتَّى تعلموا أنَّكم على ضلالةٍ وجَهالة[6]؟! فإنَّ التَّقدُّمَ والأَوْلويّةَ لا تكونُ برهانًا على الصّحة، والباطلُ لا ينقلِبُ حقًّا بالقِدَم، ولذلك جمعَ إبراهيمُ عليه السلام بينَهم وبين آبائهمُ المتقدِّمينَ لهم في الضَّلال، فقال: أنتُم وآباؤكمُ الأَقْدمونَ[7].

الباطلُ لا ينقلِبُ حقًّا بالقِدَم، وكلُّ ما عُبِدَ من دون الله فهو عدوٌّ مُبين

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 51.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 281.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس: (علم).
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 51.
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 139.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 50.

ويُعلِّلُ إبراهيمُ عليه السلام فيقول: إنّي لا أعبدُ أصنامَكم، ولا تصحُّ عبادتُهم أَصْلًا؛ لأنَّهم أعداءٌ لي؛ بل هم كذلك أعداءٌ لعابديهم الَّذين يُحبّونَهم لِما أنَّهم يتضرَّرون من جهتِهم تضرُّرَ الرَّجُلِ من جهة عَدوِّه، لكنَّ ربَّ العالَمين ليس كذلك، فإنَّه جل جلاله وليُّ مَنْ عَبَدَهُ في الدُّنيا والآخرة، لا يزالُ يتفضّلُ عليه بالمنافع[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة الفصل عن السّابق:

فُصلت الآية الكريمة ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ عن السابقة لأنّها على طريق الاستئناف البيانيّ، وجيء بها لكونها واردةً على صيغة المحاورة المشهورة بين الأطراف في القصص[2].

غرضُ الاستفهام:

ظاهره استفهامٌ، وباطنُه إنكارٌ

الهمزة في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم﴾ للاستفهام الإنكاريّ[3]، المُتضمِّن معنى الاستهزاء والسُّخرية[4]، فاللّفظُ لفظُ استفهامٍ، والمُراد به الإعلام والإنكار.

معنى الفاء ودلالتها:

بقوّة تفريع الكلامِ يحسُنُ البيان

الفاء في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ جُملةٌ مُفرَّعةٌ على جُمَلِ كَلامِ القَومِ المُتضمِّنةِ عِبادتَهمُ الأصنامَ، وأنَّهم مُقتَدون في ذلك بآبائِهم؛ فالفاءُ في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ للتَّفريع، ومِثلُ هذا التَّركيبِ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على ما يَجِبُ أن يُعلَمَ؛ على إرادةِ التَّعجُّبِ مِمّا يُعلَمُ مِن شَأنِه[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 93.
(2) ياقوت، إعراب القرآن، ص: 3332.
(3) الدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 386.
(4) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 86.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140، 141.

بلاغةُ استعمالِ فعل الرُّؤية:

التَّنبيه على مراد المُتكلِّمُ ليَعيَه السّامِعُ

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ قلبيَّة، والكلام بمعنى: (أخبروني) فتكون متعدّيةً لمفعولين أوَّلُهما اسمُ الموصول، وثانيهما محذوفٌ، وهو جملةٌ تقديرها: هل هو جديرٌ بالعبادة[1]، وفي استعمال هذه المفردة إيماءٌ إلى ضرورة إعمال الرُّؤية والرَّأي في الوصول إلى الحقِّ.

فائدةُ استعمالِ ﴿مَّا﴾ المَوْصوليَّة:

آثر النَّظم استعمال ﴿مَّا﴾ وهي اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي) والمراد به الأصنام؛ لعموم المعبودات من دون اللّه تعالى، وتعميم حُكم البطلان والعداوة على جميع المعبودات من دون اللّه.

دلالةُ ذكرِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

عبادةُ الأصنامِ دَيْدن الفاسدين ومسلكُ الهالكين

آثر النَّظم ذِكْرَ ﴿كُنتُمۡ﴾ دون الاستغناء عنها بأن يُقال: (ما تعبدون)؛ لبيانِ أنَّ عبادةَ الأصنام كانت ديدنَهم، وكان التوجُّه إليها في جميع الأحوال مسلَكهم الدّائم؛ ولِتَشمَل آباءهم الأقدمين، وهي تنسحب إلى ما قبل لحظة التَّكلُّم، على أنَّ فعل (كان) له في الاستعمال صفةُ الدَّوام أو الاستمرار في كثيرٍ من العبارات، وله صفة الصَّيرورة التي يُلازمها غالبًا الاستمرار.

بلاغةُ العدول عن (تفعلون) إلى ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

تصحيحُ مفاهيم المخاطَبين ببيان ما هم عليه حقًّا واقعًا

لمّا سأل إبراهيم عليه السلام قومَه عن عبادة الأصنام كان جوابهم أنَّهم وجدوا آباءهم ﴿كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾، فجيءِ بمفردة الفعل، ولمّا ردَّ عليهم إبراهيم عليه السلام قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، فآثر مفردة العبادة، وذلك أنَّه عليه السلام أراد أن يُبيِّن لهم أنَّ الذي يصنعونه ليس مجرَّد فعل، بل هو عبادةٌ محضةٌ، سيُحاسَبون عليها، فهي ليست مجرَّد أفعالٍ ذات سجيَّةٍ سلوكيَّةٍ يقومون بها.

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 86.

نكتةُ إظهارِ الضَّمير:

لفتُ الأنظارِ إلى المقصودِ بالخِطابِ

قوله تعالى ﴿أَنتُمۡ﴾: ضميرٌ مُنفصلٌ مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ رفع، جيء به لتوكيد ضمير الفاعل في ﴿تَعۡبُدُونَ﴾؛ فلم يقل: (كنتم تعبدون وآباؤكم) مع كون الخطاب موجَهًّا إليهم، زيادةً في التَّأكيد، وتَقْوِيةً للوعيد والتَّهديد، فهم بأعيانهم المقصودون بالكلام ابتداء[1].

فائدةُ العطفِ ودلالته:

هدمُ الأصولِ أقوى من الاكتفاء بتقريعِ الفروعِ

قولُه تعالى: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ فيه عَطْفُ ﴿وَءَابَآؤُكُمُ﴾ على ﴿أَنتُمۡ﴾؛ لزيادةِ إظهارِ قلَّةِ اكتراثِه بتلك الأصنامِ، معَ العِلمِ بأنَّ الأَقدَمينَ عَبَدوها؛ فتَضمَّنَ ذلك إبطالَ شُبهتِهم في استِحقاقِها العِبادةَ[2]، فإنَّ ردَّ الأمر إلى أصله أقوى في ردِّه من الاقتصار على الفرع وهو المخاطبون؛ ولذلك لم يقتصر على ذِكْرِ الضّمير المستكنّ في فعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾.

بلاغةُ اختيارِ وصفِ الآباءِ بلفظِ ﴿ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾:

قِدَمُ عِبادةِ أهل الباطل لا يشفع لهم في المدح أو التّنازل

وصف الآباء بالأقدمين في قوله تعالى: ﴿وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾: أيْ: أجدادكم الغابرون؛ لأنَّ الأب في القرآن الكريم يُطلق على الجَدِّ وما علا، ففي وصْفِهم بالأَقدَمينَ دَلالةٌ على تَقادُمِ عِبادةِ الأصنام فيهم[3]، ووصْفُ الآباءِ بالأَقدميَّةِ: إيغالٌ في قلَّةِ الاكتراث بتَقليدِهم؛ لأنَّ عُرْفَ الأُمَم أنَّ الآباءَ كلَّما تَقادَمَ عَهْدُهم كان تَقليدُهم آكَدَ[4]، والتقَدُّمُ لا يدُلُّ على الصِّحَّةِ، ولا ينقَلِبُ به الباطِلُ حَقًّا[5]، بالإضافة إلى ما فيه من قوَّة الاعتزاز باللّه تعالى، وهدم كلِّ باطلٍ سواه، ولو كان راسخًا في القدم.

(1) ياقوت، إعراب القرآن، ص: 3332.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 141.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 164.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 141.
(5) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141.

نوع الفاء ودلالتها:

الفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ التَّعجيبِ مِن شأنِ عِبادتِهم إيّاها، وقد تكون الفاء فصيحةً مفيدةً للتَّوكيد؛ وهي بتَقديرِ: إنْ رأيْتُموهُم فاعلَموا أنَّهم عدوٌّ لي[1].

الـفـاء إمّا تـفـريـعـيَّةٌ أو فصيحةٌ

بلاغة التَّعريض في قوله ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾:

كان مقتضى الظّاهر أن يكون قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على وفق الآتي: "فإنّهم عدوٌّ لكم"؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن - وحاشاه - من عابدي الأصنام، فيتضرَّر منهم، فكان الأمر يقتضي أن يقول لهم: اعلموا أنّ الأصنام أعداءٌ لعابديها لأنّهم يتضرّرون منها فوق ما يتضرّر الرّجل من عدوّه[2]، وإنَّما قال ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ تصويرًا للمسألة في نفسه، على معنى: أنّي فكّرت في أمري فرأيتُ عبادتي لها عبادةً للعدوّ، فاجتنبْتُها، وآثرتُ عبادةَ مَن الخيرُ كُلُّه منه؛ وأراهُم بذلك أنَّها نصيحةٌ نَصَح بها نفْسَه أوَّلًا، وبنى عليها تدبير أمره؛ لينظروا فيقولوا: ما نَصَحَنا إبراهيم إلّا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلّا ما أراد لروحه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبْعَثَ على الاستماع منه، ولو قال: فإنَّه عدوٌّ لكم، لم يكن بتلك المثابة[3]؛ ولأنّه دخل من باب التَّعريض، وقد يبلغ التَّعريض للمنصوح ما لا يبلغه التَّصريح؛ لأنَّه يتأمَّل فيه، فربَّما قاده التَّأمل إلى التَّقبُّل؛ ومنه ما يُحكى عن الشّافعيِّ، رضي الله عنه، أنَّ رَجُلًا واجهَهُ بشيءٍ فقال: لو كُنتُ بحيثُ أنتَ، لاحتجتُ إلى أدب[4].

الدّاعـيـة قـدوةُ الآخرين ومهمازُ تحريك العقول والقلوب

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 141.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 248.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 318.

(4) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 88.

التَّهكُّمُ بمن عامل الجمادات معاملة العقلاء

سِرُّ التَّعبير عن الأصنام بضمير العُقلاء:

التَّعبيرُ عنِ الأصنامِ بضَميرِ جمعِ العُقلاءِ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ دونَ (فإنَّها)، جرْيٌ على غالبِ العِباراتِ الجاريةِ بيْنَهم عنِ الأصنامِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[1]، فلَمّا عَبَدوها ونزَّلوها مَنزِلةَ الأحياءِ العُقَلاءِ، أطلقَ إبراهيمُ لَفظَ العَداوةِ عليها[2]، وتحتمل أن تكون من باب التَّهكّم وهو الأولى بالمقام، ويُؤيِّده قوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63].

تشبيهُ الأصنامِ بالعدوِّ العاقلِ يزيد من التَّنفير والتَّقبيح

غرض التَّشبيه البليغ ودلالته:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، والمعنى: (فإنَّهم كالعدوِّ لي) في أنّي أُبغضهم وأَضُرُّهم[3]، ولا يمكن أن نقول: إنَّه شبَّه عداوَتَهم بعداوة العدوِّ، لأنَّ الأصنام جماداتٌ لا تُعادي ولا يصدر منها عداء، وإنَّما تشبيهه لها بالعدوِّ يعني أنَّها أشبهت العدوَّ في إلحاق الضَّرر بمن يعبدها، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وغرضُ التَّشبيه التَّنفيرُ من عبادة الأصنام، مع ما فيه من التَّقبيح لها، والتَّشبيهُ يرسم الصّورة كما تُحِسُّ بها النَّفس، ولذلك اختير لفظ (العدوِّ) للمشبَّه به لما يوحي به من معاني التَّنفير والبُغْض وإلحاق الضَّرر[4]، فهو شَرٌّ كُلُّه، ومُعاداته تقود إلى التَّهلكة، فالأَولى تركه والابتعاد عنه، فهو أسلَمُ وأحفَظُ، وكذلك الأصنام فإنَّ عبادتها شَرٌّ أيضًا، فهي تقود إلى طريق التَّهلكة، وتؤدّي - بعابديها - إلى النّار[5].

الكفر ملَّةٌ واحدةٌ، وأصنافُ الباطل عدوٌّ واحد

سِرُّ إفرادِ لفظِ ﴿عَدُوّٞ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ (بصيغة الجمع) و﴿عَدُوّٞ﴾ (بصيغة المفرد) فلم يقل: (أعداء لي) كما يقتضيه الظّاهر؛ لأنَّ عداوتهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 327.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.
(5) فوزية المطيري، سورة الشعراء (دراسة بلاغيَّة)، ص: 194.

أو (عداوة كلِّ الآلهة) تمثِّل عداوةً واحدةً هي الشّرك باللّه، فلذلك قال: عدوٌّ لي[1]، فمهما تعدَّدت المعبوداتُ من دون اللّه تعالى، فهي بمنزلة عدوٍّ واحد؛ لأنَّ القاسم المشترك بينها هو الباطل الماحق.

معنى الاستثناء ودلالته في قوله ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الاحــتـرازُ ديــدنُ العقلاء وطريق المتمكِّنين

لَمّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ واردًا على الاستِدراجِ، وإرخاءِ العِنانِ؛ جاءَ قَولُه: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَخلُّصًا منه إلى التَّمكُّنِ مِن إجراءِ الأوصافِ الَّتي يُصحِّحُ بها معنَى الإلهيَّةِ مِن كَونِه خالقًا رازقًا، مُحْيِيًا ومُميتًا، مُعاقِبًا ومُثيبًا؛ تربيةً لمعنَى النُّصحِ والاستِدراجِ، وبَعْثًا على التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ[2]، ولمّا كان قومه مشركين، يعبدون أصنامهم ويعبدون أيضًا مع عبادتهم لها ربَّ العالمين، كان من الواجب أن يستثنيَ فيقولَ: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

نكتة استعمال عنوان الرُّبوبيّة:

المُـسـتـحـقُّ لـلـعـبـادة هو الخالق الرّازق لا المخلوق المَهين

آثر النَّظم استعمالَ عنوان الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي الخالق المدبِّر الرّازق الحاكم، والمعنى لكنَّ ربّ العالمين الخالقُ لِكُلِّ الموجودات الكونيَّة، والمُمِدُّ لها بعطاءات ربوبيّته، فإنَّه ربِّي ووليّي الذي يستحقّ العبادة[3]؛ فجاء باسم الرُّبوبيَّة المُقتضي للتَّربية والإحسان تدليلًا على كونه سبحانه وتعالى هو المستحقّ للعبادة دونما سواه.

دلالةُ الإضافة:

الإشـــارة إلـــى ضـعـف مـعـبـوداتـهـم الباطلة وقِلَّة شأنهم

أُضيف لفظ الرّبوبيّة للفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لبيان شمولِ ربوبيَّته لجميع العالمين، والعالمون: جمع عالَم، ومنها عالم الإنس والجنّ والملائكة والحيوان والنَّبات، وباقي

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 318، 319، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 164.
(2) الطيبي، حاشيته على الكشاف: 11/ 374.
(3) المكي، المُعين على تدبُّر الكتاب المُبين، ص: 370.

العوالم السُّفلية والعلويَّة الدقيقة والجليلة؛ فاللّٰه هو خالق العالمين، والمُتصرِّف دوامًا بِكُلِّ الكائنات دونما سواه بصفات ربوبيَّته الشّاملة لمعظم أسمائه الحُسنى، وصفاته العُليا؛ أمّا معبوداتهم الباطلة لا تملك خَلْقَ أنفُسها ولا نَفْعَها بشيءٍ فضلًا عن خَلْقِ غيرها من العوالِم الظّاهرة والباطنة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩
وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ
أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: 78 - 82]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بيانُ سبب استحقاق ربّ العالمين لجميع أنواع العبادة

لَمّا ذكرت الآيات السّابقة بيانَ عداوة إبراهيم عليه السلام لجميع المعبودات التي يتوجّه إليها قومه، ثم استثنى ربَّ العالَمينَ؛ ناسب أن يُعلِّل ذلك بذكر صفاته سبحانه وتعالى التي لأجلها استحقَّ العبادة دون سواه، ممّا هو ظاهرٌ لكلِّ عيانٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِينِ﴾: (هدى) أَصلانِ؛ أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلإرشادِ، والآخَرُ: بَعثَةُ لَطَفٍ[1]، والهُدَى: الرَّشادُ والدّلالة وخلاف الضّلالة، تقول: هَدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي: تقدَّمتُه لأُرشِدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلكَ هادٍ[2]، وخُصَّ ما كانَ دَلالةً بهدَيْت، وما كان إعطاءً بأَهْدَيْت، والهدايةُ: التَّوفيقُ والإيصالُ للحقّ، وهي خاصَّةٌ باللّهِ تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزُّمر: 37][3]، والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي: يُرشدني إلى مصالح الدُّنيا والآخرة.

2) ﴿يُطۡعِمُنِى﴾: (طعم) أَصلٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ في تَذَوُّقِ الشَّيء، يُقالُ: طعمتُ الشَّيء طَعْمًا، والطَّعامُ هو المأكول، والإطعامُ يقعُ في كلِّ ما يُطعَمُ حتَّى الماء، قالَ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(2) الرّازي، مختار الصِّحاح: (هدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

مِنِّىٓ﴾ [البقرة: 249][1]، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ أي: الذي هو وحده يُطعمني إذا جُعتُ.

3) ﴿وَيَسْقِينِ﴾: (سقي) أصلٌ يدلّ على إشرابِ الشَّيءِ الماءَ وما أَشْبَهه، تقولُ: سَقَيتُه بيدي، أَسْقيه سَقيًا، وأَسْقيتُه، إذا جَعَلْتَ له سِقيًا، قالَ تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: 24]، وقالَ جل جلاله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: لا يُطعِمُ غيرُه ولا يَسقي غيرُه، وهو خالقُ هذه النِّعم وغيرِها[3].

4) ﴿مَرِضْتُ﴾: (مرض) أصلٌ يدُلُّ على ما يَخرُج به الإنسانُ عن حدِّ الصّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كانَ منه العِلّةُ، ويُستعارُ فيُقال: شمسٌ مريضةٌ، إذا لم تكنْ مُشرِقةً، والنّفاقُ مَرَضٌ كما في قولهِ تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10][4]، وقولُه تعالى: ﴿مَرِضْتُ﴾، أي: باسْتيلاءِ بعضِ الأَخْلاطِ على بعضٍ لما بينَها من التّنافُر[5]، وهو المرض المعهود.

5) ﴿يَشْفِينِ﴾: شَفاه اللّهُ من مرضِه يشفيه شفاءً، واسْتشفى: طَلَبَ الشِّفاء، والشِّفاءُ من المرض: موافاةُ شَفا السَّلامة، وصارَ اسْمًا للبُرء، قالَ تعالى في صفةِ العَسَل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النّحل: 69]، وقالَ تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التّوبة: 14][6]، وقولُه تعالى: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: بتعديلِ الأَخْلاطِ وقَسْرِها على الاجتماعِ والاعتدال، والبُرءِ من الأمراض[7].

6) ﴿يُمِيتُنِى﴾: (موت) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ذهابِ القوَّةِ من الشَّيء، منه الموت: خلافُ الحياة، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، والمَوْتَةُ: الواحدةُ من الموت، والمِيتَةُ حالٌ من الموتِ حسنةٌ أو قَبيحة[8]، والموت المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ هو المقابِل للحياة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طعم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقى).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 110.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرض).

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 52.

(6) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس: (شفى).

(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 52.

(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).

7) ﴿يُحۡيِينِ﴾: (حيّ) أَصلانِ: أَحَدُهُما خِلافُ المَوْتِ، والآخَرُ الاِسْتِحْياءُ الَّذي هوَ ضِدُّ الوَقاحَةِ، ويَحْيَى حياةً، والحياةُ: خلافُ الموت، ويُسمَّى المطرُ حَيًا؛ لأَنَّ به حياةَ الأرض، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]، والحيُّ: ضدُّ الميِّت، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: 73][1]، والإحياء المقصود في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ هو البعث بعد الموت.

8) ﴿أَطۡمَعُ﴾: (طمع) أَصْلٌ يدُلُّ على رجاءٍ في القلبِ قويٍّ للشَّيء، يقالُ: طَمِعَ في الشَّيءِ طَمَعًا وطَماعَةً وطَماعيَةً، فهو طَمِعٌ وطامِعٌ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا﴾ [الشُّعراء: 51][2]، وقولُه تعالى: ﴿أَطۡمَعُ﴾ أي: تعلُّقُ بالِ إبراهيم عليه السلام بربِّه من غيرِ تقدُّمِ سببٍ إلّا الرَّجاء بما عند اللّه[3].

9) ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾: (خطأ) الخاءُ والطّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ والمَهْموزُ، يَدُلُّ على تَعَدّي الشَّيْءِ، والذَّهابِ عَنْهُ، والخَطاءُ مِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُ مُجاوَزَةُ حَدِّ الصَّوابِ[4]، يُقالُ أَخْطَأَ إِذا تَعَدَّى الصَّوابَ، وخَطِئَ يَخْطَأُ، إِذا أَذْنَبَخطِئَ يخطَأُ، خِطْأً، وخِطْأَةً، والخَطَأُ: العُدولُ عنِ الجهة، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: 31]، ويُقالُ لمن أخطأ في الفِعل مع كونِه أصابَ في الإرادة: أَخْطَأَ إِخْطاءً فهو مُخطِئٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [النِّساء: 92][5]، وقولُه تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾، أي: تَقْصيري عن أنْ أُقدِّرَ اللّهَ حقَّ قَدْرِه[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآياتُ ما وصفَ به إبراهيمُ عليه السلام ربَّه من صفاتٍ عظيمةٍ بدأها بأعظمِها وهي صفةُ الخَلْق، ثم أتبعَها بالهداية؛ فهو سبحانه وتعالى الَّذي يهديني إلى كلِّ ما يهمُّني ويصلحُني من أمورِ المعاشِ والمعادِ هدايةً مُتَّصلةً بحينِ الخَلْقِ ونفخِ الرّوحِ متجدِّدةً على

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصِّحاح: (حي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طمع).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 53 - 54.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خطوأ).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس: (خطأ).
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 54.

من محاسن الحوار استقصاءُ المعاني وتَتَبُّعُ الدّلائل

الاسْتمرارِ إلى مُنْتهَى الأجَل[1]، ويتابعُ إبراهيمُ ﵇ بيانَ بعضِ صفاتِ اللّٰهِ المعبودِ بحقٍّ دون سواه، فيقول: اللّٰهُ الَّذي أَعْبُدُه وحدَه لا شريكَ له هو الَّذي يُطعمُني ويَسقيني، ولو أرادَ لَأعدَمَ ما آكلُ وما أَشْرَب، أو أصابني بآفةٍ لا أستطيعُ معها أَكْلًا ولا شُربًا[2]، ثمّ بيّن أنّه إذا وقَع في مَرَضٍ فإنَّه لا يقدِرُ على شفائه منه أحدٌ غيرُ اللّٰه بما يُقدِّر سبحانه وتعالى من الأسْبابِ الموصِلَةِ إليه[3]، ثمَّ أثارَ إبراهيمُ ﵇ ذكر الموتِ والحياة، لأنَّ قومَه يؤمنون بالموت لكونِه واقعًا بهم وبأمثالهم ممّا يَرَوْنَه بأَعْيُنهم، ولكنَّهم لا يعتقدونَ أنَّه بقدرةِ اللّٰهِ تعالى؛ بل بأسبابٍ مجرَّدةٍ عن القدرةِ الإلهيَّة، كالمرضِ والكِبَرِ وغيرِ ذلك، ولا يؤمنون بالبعثِ بعد الموت، ولذلك كانَ من فِطْنةِ خليلِ اللّٰهِ ﵇ ذِكْرُ هذيْنِ الأمرَيْنِ العَقَديَّيْنِ العظيميْن[4]، ثُمَّ ختم ﵇ برجائه ما عندَ اللّٰهِ تعالى من المغفرة بما يُدلِّلُ على هَضْمِه لنَفْسِه واطِّراحه لأعمالِه، وإشارةً إلى أنَّه بالنِّسبة إلى الحَضرةِ الأعظميّة غيرُ قادرٍ لها حقَّ قَدْرِها، فإنَّ الطَّمَعَ تعلُّقُ البالِ بالشَّيءِ من غيرِ تقدُّم سبب، فلذلك لم يُعِدَّ له عملًا، وهو هنا بمعنَى: ربِّ اغفِرْ لي يومَ الجزاءِ تقصيري عن أنْ أُقدِّرَكَ حقَّ قَدْرِك، فإنَّ الضَّعيفَ العاجزَ لا يبلُغُ كلَّ ما يَنْبغي من خدمةِ العَليِّ الكبير، وما فعلَه فهو بإقدارِه سبحانَه، فلا صُنعَ له في الحقيقةِ أصلًا[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ إيراد الصِّفات التَّفصيليَّة:

الإيضاحُ في مقامِ الإرشادِ والتَّصريحِ بالنِّعمِ الخاصَّة به ﵇

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفةٌ لربِّ العالمين، ووصفُه تعالى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 94.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 52.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 317.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 317 - 318.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 54.

بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكلِّ تحت ربوبيَّته تعالى للعالمين زيادةٌ في الإيضاح في مقام الإرشاد، وقيل: تصريحًا بالنِّعم الخاصَّة به ﷺ وتفصيلًا لها لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى، وقصرِ الالتجاء في جلب المنافع الدينيَّة والدنيويَّة ودفع المضارِّ العاجلة والآجلة عليه تعالى[1].

دلالة استعمال الاسم الموصول:

مواضعُ التّعليل يحسُن معها الاسم الموصول

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ وما بعده بالاسم الموصول دون الاسم الظّاهر للتَّعليل، فالمقامُ هو مقام تعليل عبادة اللّٰه تعالى وحده دون سواه، فكأنَّه قيل: إنَّما أعبد ربّ العالمين لأنَّه الذي خلقني وخلقكم، وهداني ويهديكم.

دلالة التَّعبير بالماضي:

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي ﴿خَلَقَنِى﴾ على بيان أنَّ خَلْقَه عَينَه لا يتجدَّد فهو يحصل مرَّةً واحدةً في الدُّنيا، وإذا وقعَ بقيَ إلى الأمد المعلوم[2].

بلاغة استعمال الضَّمير (هو) في الآيات:

خلوُّ الضَّمير ممّا يختصُّ بربِّ العالمين، وذِكْرُهُ فيما يُدّعى القدرة عليه

لم يُذكر ضمير الفصل (هو) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾: فلم يأت النَّظم القرآنيّ بقول: (الذي هو خلقني)؛ لأنَّ عمليَّة الخَلْقِ لا يُشاركه فيها أحد؛ فجميع الخلق يعلم أنَّ الخالقَ هو اللّٰه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرف: 87]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فلا حاجة لاستعمال (هو)، أمّا في مسألة الهداية فقد يُشارك فيها آخرون، ولكي يبيِّن أنَّ اللّٰه وحده هو الهادي لا غيره استعمل (هو)، فلَمّا كان الخَلقُ لا يُمكِنُ أنْ يَدَّعيَه أحدٌ لم يُؤَكِّدْ فيه بالضَّمير (هو)،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 94، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 248.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب، ص: 42، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 58.

ولمّا كانت الهدايةُ قد يُمكِنُ ادِّعاؤُها - والإطعامُ والسَّقْيُ كذلك - أكَّد بـ هوَ(1).

معنى الفاء ودلالتها:

بيان كون الهداية مُترتِّبةً على الخلق مسبَّبةً عنه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ للعَطفِ، وجاء فعل الهداية مُفرَّعًا على فعل الخلق بحرف الفاء الذي يُفيد التَّرتيب والتَّعقيب، فالخَلْقُ أوَّلًا والهداية مُترتِّبةٌ عليه ومُعاقِبةٌ له(2)، ويَجوزُ أن يَكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾ مُبتدأً مُستأنَفًا نحويًّا، ويَكونَ ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ خبَرًا عنِ الَّذي، والفاءُ فيه للسَّببيَّةِ، وذُكرت الفاءُ في الخَبرِ؛ لمُشابَهةِ المَوصولِ للشَّرطِ(3).

غرضُ القصر:

تَخصيصُ الخالق بالهداية خلافًا لما يعتقده الجاهلون

قُدِّم المسندُ إليه ﴿فَهُوَ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَهۡدِينِ﴾ دونَ أن يقولَ: (فيَهدين)؛ لتَخصيصِه بأنَّه مُتولّي الهدايةِ دونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقامَ لإبطالِ اعتِقادِهم تَصرُّفَ أصنامِهم بالقَصرِ الإضافيِّ، وهو قَصْرُ قَلْبٍ(4)، لاعتقادهم أنَّ الأصنام تهديهم، وإثبات أنَّ الهداية هي لله تعالى وحده دون سواه؛ ففيه تعريضٌ بأصنامهم.

دلالة اختِلاف التَّعبير بالمُضارع بعد الماضي:

الخلقُ وقع وتحقَّق، والهدايةُ متجدِّدةٌ مستمرَّةٌ

اختِلافُ النَّظم في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ حيث قال: ﴿خَلَقَنِي﴾ فذَكَره بلفظِ الماضي، وقال: ﴿يَهۡدِينِ﴾ فذَكَرَه بلفظِ المُستقبَلِ؛ لتَقدُّمِ الخَلْقِ واستِمرارِ الهدايةِ؛ فخَلْقُ الذّاتِ لا يَتجدَّدُ في الدُّنيا، أمّا هدايتُه تعالى فهي ممّا يَتكرَّرُ كلَّ حينٍ وأوانٍ؛ سواءٌ كان ذلك هدايةً في المنافعِ الدُّنيويَّةِ، أو في المنافعِ الدِّينيَّةِ، فبَيَّنَ بذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 165.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 249، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 153.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 249، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 153.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 142.

أنَّه سُبحانَه هو الذي خَلَقَه بسائرِ ما تكاملَ به خلْقُه في الماضي دَفْعةً واحدةً؛ وأنَّه يَهديه إلى مصالحِ الدّينِ والدُّنيا بضُروبِ الهِداياتِ في كلِّ لحظةٍ ولمحةٍ(1).

مناسبة العطف ودلالته:

ذِكْر قوت الأبدان بعد قوت القُلوب

عُطِفَ ذِكْرُ نِعمة الطَّعام والشَّراب بعد نعمة الخلق والهداية في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنَّ ما تدوم به الحياة ويستمرّ به نظام الخلق هو الغذاء والشُّرب(2)؛ فاللّهُ ﷻ هو الذي يخلق أرزاق العباد، ويخلق وسائلها في كونه، وإبراهيمُ واحدٌ منهم، ولولا خَلْقُ اللّه وقضاؤه وقَدَرُه لم ينبُت نباتٌ، ولم تَحْيَ أحياءٌ، ولولا تهيئة وسائل الطّعام لم يَطْعَم طاعمٌ في الأرض، ولولا أنْ جَعَلَ اللّه للأحياء أفواهًا تأكل، ومجاريَ إلى بطونهم تبلع، وعناصرَ هضم تهضم، وأدواتٍ وعناصرَ توزّعه إلى مواضع الحاجة إليه من الأجساد، وتَصرِف عنها أذى فضلاته، لم يَطْعَم طاعِمٌ، ولو اختلّ شيءٌ من ذلك عن سَوائِه لما وصل الطَّعام إلى مواضع الحاجة إليه، ولما وصلت الأقوات إلى مُقتاتيها.

فائدة القصر ودلالته:

التَّأكيد على الاختصاص لدفع توهُّم نفعِ المخلوقين

جاء النظم الكريم بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ للحصر والتَّوكيد، وقد استفيد القصر من ضمير الفصل، وقد جاء بين الاسم الموصول وصلته، وجيء به للرَّدِّ على زعْمِهم أنَّ الأصنامَ تُقدِّرُ لهم تَيسيرَ ما يَأكُلونَ وما يَشرَبونَ(3)؛ ولأنَّ الإطعام والسَّقي قد يُشارك بها الإنسان؛ فجيء بضمير ﴿هُوَ﴾ في صدر الصِّلة دون ذكره مع الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسَّقي

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 512، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 165.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 143.

إلى غيره ﷻ؛ فلهذا أعاد الحقُّ في الإطعام والسَّقي إلى مصدره والمُنعم به سُبحانه، بخلاف الخلق فإنَّه لا يُستعمل في غيره، فلهذا لم يحتج إلى ضمير، فاللّه سُبحانه هو الذي يُنبت لعباده طعامهم وغذاءَهم وينزل لهم من السَّماء ماءً ليسقيَهُم، ولا دَخْلَ لهذه الآلهة في شيءٍ من ذلك، فكيف أعبد سواه؟[1] فجاء الضَّمير هُنا للتَّأكيد على اختصاص اللّه تعالى بهما.

دلالة التَّعبير بالمُضارع:

الامتنانُ مع التَّعريض بالتهديد

قوله تعالى: ﴿يُطۡعِمُنِي﴾: أي هو الذي يرزقني الطَّعام والشَّراب وغيرهما من أنواع الرِّزق المُتجدِّد والدّائم؛ فالتَّعبير بالمُضارع لإفادة التَّجدُّد والاستمرار باستمرار الحياة وتجدُّد الجديدَين، وفيه من المنَّة ما لا يعلم قدرَه إلّا اللّه تعالى، مع التَّعريض بالتَّهديد، فمن ذا الذي يُطعم ويسقي إنْ هو سبحانه منعَ ذلك عن الخلق؟!.

دلالة العطف وتقديم الإطعام:

لا يُستغنى بالأكل عن الشُّرب ولا بالشُّرب عن الأكل

تظهرُ حكمة العطف في التَّعبير القرآنيّ المُعجز وتتجلَّى في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡقِينِ﴾ حيث عُطف الفعل (يسقين) على الفعل ﴿يُطۡعِمُنِي﴾ بالواو التي هي لمُطلَق الجمع[2]، فالأكل والشُّرب من الضَّرورات التي يقوم عليها أَوَدُ حياة الإنسان، فلا يُستغنى بالأكل عن الشُّرب أو بالشُّرب عن الأكل، ولذلك عُطف بينهما بالواو؛ لتحقيق الجمع بينهما، وقُدِّم ذكرُ الإطعام لبيانِ شديد الامتنان، فإنَّ منَّةَ الإطعام أوضح عند عمومِ الخلق، وبه تكون القوّة والقدرة.

معنى الواو وفائدتها:

المرض والصِّحّة من مُتَفَرِّعات الأكل والشُّرب

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ للعطف على قوله تعالى: ﴿يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾؛ لأنَّه مِن رَوادِفِهما، مِن حَيثُ إنَّ

---

(1) مجموعة من المفسِّرين، التَّفسير الوسيط، ص: 1588.

(2) السُّيوطي، الإتقان: 1/ 379.

الصِّحَّةَ والمرضَ في الأغلَبِ يَتْبَعانِ المَأكولَ والمَشروبَ، فإنّ المرض من مُتفرِّعات الأكل والشُّرب؛ لأنَّه يحدث بتفريطٍ من الإنسان في طعامه وشرابه[1].

نكتةُ التَّعبير بالجُملة الشَّرطيَّة مصدَّرةً بأداة (إذا):

المــرضُ حتمـيُّ الوقوع طارئًا أو دائمًا

صُدّرت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ بحرف الشَّرط (إذا) الذي يختصُّ بالدُّخول على المُتيقَّن والمظنون والكثير الوقوع[2]، ولمّا كان المرض حُكمًا خاصًّا، وحدوثه مشروطٌ بتفريط الإنسان في مطعمه ومشربه، فهو المُتسبِّبُ في إحداثه، اقترن المرضُ بذِكْرِ الشَّرط[3]؛ والمرض مِمّا هو متيقَّنٌ أو كثير الوقوع؛ ولذلك جاء التَّعبير بإذا فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ أي: (إذا طرأ عليّ مرضٌ)[4]، فاستُعملت (إذا) الشّرطيَّة الّتي تدلّ على حتميَّةِ الحُدوث؛ فإنَّ المخلوقَ لا يخلو من مرضٍ على الدَّوام طارئٍ أو مستمرٍّ.

نكتةُ اختلاف إسناد المرض إلى المتكلّم والشِّفاء إلى الرَّبِّ:

رعـايـــة حــقِّ الأدب مع الله تعالى من كمال العبوديَّة وتمام الهداية

أُسند المرضُ إلى المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ تأدُّبًا مع الله سُبحانه، ولأنَّ كثيرًا من الأمراض بسبب التَّفريط في الطَّعام والشَّراب، وعدم الوقاية، وترك اتِّباعِ الوصايا الصِّحيَّة لمنع انتشار العدوى، كما أنَّه مِن الأدبِ إضافةُ نوعِ الحسنةِ إلى الله، ونوعِ السَّيئةِ إلى النَّفْسِ، وقد تأدَّب العارفونَ مِن عبادِ الله سُبحانَه وتعالى بهذا الأدبِ، فأضافوا إليه النِّعَمَ والخَيراتِ؛ وأضافوا الشّرورَ إلى محَلِّها، كما قال الخَضِرُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82]، وكما قالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 319.
(2) السُّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 316.
(3) ابن المنيِّر، الانتصاف بهامش الكَشّاف: 3/ 319.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 153.

﴿١٠﴾ [الجنّ: 10]، وقال تعالى آمرًا المصلّيَ أن يقولَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7]، فأسندَ الإنعامَ إلى اللّهِ سُبحانَه وتعالى، والغَضَبُ حُذِفَ فاعِلُه أدبًا، وأُسنِدَ الضَّلالُ إلى العَبيدِ[1].

علَّة حذف الموصول:

قـــوّةُ تـعـلُّـقِ المَرَض بالإطعام والسَّقي

ذِكرُ المرضِ والشِّفاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾؛ كالمُتابِعِ لمعنَى الإطعامِ والسَّقيِ؛ ولذلك تُرِك فيهما المَوصولُ إلى الشَّرطِ والجَزاءِ، فروعيَتْ فيهما تلك النُّكتةُ[2].

فائدةُ العطفِ بالفاء:

الشِّفاء يعقب المرض بلا زمان

عَطَفَ الشِّفاء ﴿يَشۡفِينِ﴾ على المرض ﴿مَرِضۡتُ﴾ باستعمال الفاء الّتي تدلّ على المُباشرة والسُّرعة؛ لأنَّ الشِّفاء يعقب المرض بلا زمانٍ خالٍ من أحدهما، وحصوله مُترتِّبٌ على حدوث المرض[3]، فدخلت الفاء هاهُنا كما دخلت في الخلق والهداية، وذلك أنَّهم كانوا يقولون: المرضُ مِنّا، ومن الزَّمان، ومن الأغذية، والشِّفاءُ من الأطبّاء، ومن الأدوية، فأعلَمَ إبراهيمُ أنَّ الذي أمرضَ هو الذي يَشفي؛ وهو اللّهُ ﷻ[4].

بلاغة القصر وغرضه:

التَّأكيد على الاختصاص لدفع توهُّم نفع المخلوقين

لمّا كان الإنسان بين الطَّبيب والدَّواء ينسى إرادةَ اللّه تعالى[5]، جاء الضَّمير (هو) متقدِّمًا على الخبر الفعليِّ، فقال: ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾؛ لتخصيص الشِّفاء باللّه تعالى وحده لا غير.

(1) البغوي، تفسير البغوي: 3/ 470، وابن القيم، شفاء العليل، ص: 169، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 6/ 146.
(2) الطيبي، حاشيته على الكشاف: 11/ 374.
(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 88.
(4) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 69.
(5) الشَّعراوي، من فيض الرَّحمن في معجزة القرآن، ص: 65.

يُراعى النَّظم في سياقِ النِّعم

دلالة إسناد الشِّفاء إلى الله تعالى:

أُسند الشِّفاء إلى الله سُبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾، وذلك أنَّ الشِّفاء محبوبٌ وهو من أصول النِّعم، بخلافِ المرض فهو مكروه، وكان مقصود إبراهيم ﷺ تعديدَ النِّعَم(1)، فلمّا كان إبراهيم ﷺ في معرض الثَّناء على الله تعالى وتعداد نعمه، أضاف الشِّفاءَ إلى ربِّه تأدُّبًا مع الله تعالى(2).

الجناسُ محسِّنٌ لفظيٌّ تابعٌ للمعنى السّياقيّ

بديعُ فنِّ الجناس:

الجناس واقعٌ بين لفظَتَي ﴿وَيَسۡقِينِ﴾ و﴿يَشۡفِينِ﴾ والطَّرفان فيه مُتماثلان في الخطِّ، فلو أزيلت النُّقط التي على حروفهما حدث بينهما تماثلٌ تامٌّ، والاختلاف في النقط تابعه اختلافٌ في النُّطق وهو جناس تصحيف - أي: تبديل حرف منقوط بآخر غير منطوق - تزيّنت به فواصل الآيتين الكريمتين وأعطى لخواتيمهما تأثيرًا عجيبًا في السَّمع، له أثره العميق في القلب.

تأكيد حصر الهداية والرِّزق والشِّفاء في الله الواهب الرزّاق

دلالة تكرار ضمير الفصل:

استعمل في هذه الآيات الثَّلاث: ضمير الفصل (هو) ليدلَّ على التَّوكيد والحصر، في كونه سُبحانه وحده الهادي والمُطعم والشّافي، واستُعمل (هو) حتّى لا يظنَّ أحدٌ أنّه الهادي أو المُطْعِم أو الشّافي؛ لأنَّ هناك من قد يدَّعي القُدرة على الإطعام والهداية والشِّفاء.

لم يزعم قوم إبراهيم أنَّ الأصنام تُحيي وتميت

دلالة حذف ضمير الفصل:

لم يُذكر ضمير الفصل (هو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ فلم يَأتِ فيه بما يَقتَضي الحَصرَ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزْعُمون أنَّ الأصنامَ تُميتُ، بل عمَلُ الأصنامِ قاصِرٌ على الإعانةِ أوِ الإعاقةِ في أعمالِ النّاسِ في حياتِهم(3).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 512.
(2) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 225.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 143.

توجيه إسناد الإماتة إلى الله تعالى دون الإمراض:

مهابة الموت أعظم وأفخم من أن تُسند إلى مخلوقٍ ضعيف

سبق بيان نكتة عدم إسناد المرض إلى اللّٰه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾؛ لأنَّ المقصودَ تَعديدُ النِّعَم، ولا يُنتقَضُ بإسنادِ الإماتة إليه؛ فإنَّ الموتَ من حيثُ إنَّه لا يُحَسُّ به لا ضَرَرَ فيه، وإنَّما الضَّررُ في مُقدِّماته وهي المرضُ، ثمَّ إنَّه قد يكون من النِّعم الإلهيَّة، فإنّ الموت لأهلِ الكمالِ وُصْلةٌ إلى نَيلِ المَحابِّ الَّتي تُستحقَرُ دونَها الحياةُ الدُّنيويَّةُ، وخَلاصٌ مِن أنواعِ المِحَنِ والبَليّاتِ؛ ولأنَّ المرضَ في غالبِ الأمرِ إنَّما يَحدُثُ بتَفريطٍ مِنَ الإنسانِ في مَطاعِمه ومَشارِبِه[1].

فيُفرَّقُ بينَ إسنادِ المَوتِ وإسناد المرضِ في مُقتَضى الأدبِ: بأنَّ المَوتَ قد عُلِم واشتهرَ أنَّه قضاءٌ مَحتومٌ مِنَ اللّٰهِ تعالى على سائرِ البشرِ، وحُكْمٌ عامٌّ لا يُخَصُّ، ولا كذلك المَرَضُ؛ فكم مِن مُعافًى منه قد بَغتَه الموتُ؛ فالتَّأسّي بعُموم المَوتِ لعلَّه يُسقِطُ أثَرَ كَونِه بَلاءً؛ فيَسوغُ في الأدبِ نِسبَتُه إلى اللّٰهِ تعالى، وأمّا المرضُ فلمّا كان ممّا يُخَصُّ به بعضُ البشرِ دونَ بعضٍ، كان بَلاءً مُحقَّقًا؛ فاقتَضى العُلوُّ في الأدبِ مع اللّٰهِ تعالى أن يَنسبَه الإنسانُ إلى نفْسِه باعتبارِ ذلك السَّببِ الَّذي لا يَخْلو منه، ويؤيِّدُ ذلك: أنَّ كلَّ ما ذَكَره مع المرضِ أَخبَرَ عن وُقوعِه بَتًّا وجَزْمًا؛ لأنَّه أمرٌ لا بدَّ منه، وأمّا المرضُ فلمّا كان قد يَتَّفِقُ وقد لا يتَّفق، أورَدَه مَقرونًا بشرط (إذا)، وكان مُمكِنًا أن يقولَ: والَّذي يُمرِضُني فيَشفيني[2].

فائدة العطف بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

البعث متراخٍ في الزَّمن عن الإماتة

عَطَف النَّظْمُ الكريم في الآيات السابقة السَّقيَ على الإطعام بالواو إرادةً للجمع بينهما، ثُمَّ عطف الإحياء على الإماتة بحرف

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 319، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 141، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 165، 166، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 413.

(2) الطيبي، حاشيته على الكشاف: 11/ 374.

﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّه إنّما يكون بمُهلةٍ وتراخٍ في الزّمن، فالمراد بالإحياء هو الإحياء للبعث، والبعث متراخٍ عن الإماتة في الزَّمان(1).

سِرُّ حذف الياء في فواصل الآيات:

تزيينُ جمالِ المعنى بجمالِ اللّفظ والنُّطق

حُذِفَتْ ياءاتُ المُتكلِّم مِن ﴿يَهۡدِينِ﴾، و﴿وَيَسۡقِينِ﴾، و﴿يَشۡفِينِ﴾، و﴿يُحۡيِينِ﴾؛ لأجْلِ التَّخفيفِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ؛ لأنَّها يوقَفُ عليها، وفواصِلُ هذه السّورةِ أكثَرُها بالنّونِ السّاكنةِ(2).

غرض العطف بالموصول:

الإشعار بالتَّعظيم المورِّث للرَّغبة والرَّهبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ﴾: اسمٌ موصولٌ يُفيد التَّعظيمَ للّٰه تعالى، فإنَّ مَن تَفَرَّدَ بخَلْقِ العبدِ وبهدايتِه وبرَزْقِه، وإحيائه وإماتته في الدُّنيا، وبمغفرةِ ذنوبِه في الآخرةِ؛ مُستحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسّؤالِ والتضرُّعِ إليه والاستكانةِ له، وقد استدَلَّ إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام بتفرُّدِ اللّٰه بهذه الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّ كُلَّ ما أُشرِك معه فباطِلٌ(3)؛ فإنَّ الطمع بمغفرة الذُّنوب يوم القيامة لا يكون إلّا له، فالتَّعليل بصلة الموصول، موصولٌ بالمعاني السّابقة واللّاحقة.

غرض تكرار الاسم الموصول:

الإيذان بأنَّ كُلَّ صِلةٍ نعتٌ جليلٌ له تعالى مستقلٌّ في استيجاب الحكم

الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ عطفٌ على الموصول الأوَّل، وإنَّما كُرِّر الموصول في المواضع الأربعة مع كفاية عطف ما في حيِّز الصِّلة من الجُمَل على صلة الموصول الأوَّل، للإيذان بأنَّ كُلَّ واحدةٍ من هذه الصِّلات نعتٌ جليل له تعالى مستقلٌّ في استيجاب الحكم، حقيقٌ بأن يتَّصف بها سبحانه ويُشكَر عليها، ويُعبد من أجلها(4).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 144.
(3) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 38.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 168، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 249.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَطۡمَعُ﴾:

من تمام لطفِ العبد استصغار حسناته أمامَ رحمة الله تعالى

جاء استعمال مُفردة ﴿أَطۡمَعُ﴾ بمعنى أرجو، وجاء استعمال هذه المفردة لبيان تلطُّف إبراهيم عليه السلام في حسن الاستدعاء والخضوع للّه تعالى[1]، وسمَّى طلبه طَمَعًا، استصغارًا لحسناته، واستكبارًا لسيِّئاته كشأن أهل الورع الذين يتَّقون ويخافون، وتستشعر نفوسهم الخوف دائمًا، كما كانت حال نبيِّنا محمَّد ﷺ فقد كان لعظيم مكانته يطلب رحمة اللّه بالمغفرة لا بالجزاء[2].

بلاغةُ التَّعريض بالدُّعاء:

تعليم الأمَّة كيفيَّة الدُّعاء وحُسْنَ الالتجاء

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ خبرٌ يَتضمَّنُ تَعريضًا بالدُّعاءِ[3]، والمعنى: الذي أطمَعُ أن يَغْفِر طَمَعَ العبيدِ في مواليهم، وإنْ لم يكونوا يستحقّون عليهم شيئًا، إذ العبد لا يستحقُّ على مولاه شيئًا، وما يأتيه يكون من فضل مولاه؛ وإنَّما ذَكَرَهُ على هذا الوجه تعليمًا منه لأمَّته كيفيَّة الدُّعاء[4].

فائدةُ إضافة لفظ الخطيئة إلى الفاعل:

شأنُ المؤمنين هضم النَّفس بقصد الاعتبار لا الافتخار

أُضيف لفظ الخطيئة إلى ياء المتكلّم في قوله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾؛ هَضْمًا للنَّفْسِ، وتعليمًا للأُمَّةِ أنْ يَجتنِبوا المعاصيَ، ويَكونوا على حَذَرٍ وطلَبِ مَغفرةٍ لِما يَفرُطُ منهم، وتَلافيًا لِما عَسَى يَندُرُ منه عليه السلام مِنَ الصَّغائرِ، وتَنبيهًا لأبيهِ وقَومِه على أنْ يَتأمَّلوا في أمرِهم، فيَقِفوا على أنَّهم مِن سوءِ الحالِ في درجةٍ لا يُقادَرُ قَدْرُها؛ فإنَّ حالَه عليه السلام مع كَونِه في طاعةِ اللّهِ تعالى وعبادتِه في الغايةِ القاصيةِ حيثُ

(1) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 355.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5369.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 144.
(4) السُّلمي، حقائق التَّفسير، ص: 77، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 513.

كانت بتلك المَثابةِ، فما ظَنُّك بحالِ أولئك المَغمورينَ في الكُفرِ وفُنونِ المعاصي والخَطايا[1].

كما أنَّ في قوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾ تخويفٌ للمُؤمِنينَ شديدٌ لِأَنْ يَعمَلوا ولا يَتَّكِلوا؛ إذ كان خليلُه ﷺ طامعًا في غُفران خطيئتِه، غيرَ حاتمٍ بها على ربِّه، فمَنْ بعْدَه مِن المؤمنينَ أَحرى أنْ يكونَ أشدَّ خوفًا مِن خطاياه، فقد أوقَفَ عليه السلام نفْسَه على الطَّمعِ في المغفرةِ؛ وهذا دليلٌ على شدَّةِ خَوفِه مع مَنزلتِه وخُلَّتِه[2].

سِرُّ تقييد فعل المغفرة بالظَّرف:

العــــبرة بالخواتيم ولا تظهر إلّا يوم الدّين

عَلَّقَ مَغفرةَ الخطيئةِ بيَوم الدّينِ، وإنَّما تُغفَرُ الخطايا في الدُّنيا؛ وذلك لأنَّه اليَومُ الَّذي يَظهَرُ فيه أثَرُ العَفوِ، وهو الآنَ خَفيٌّ لا يُعلَمُ؛ ولأنَّ في ذلك تَهويلًا له، وإشارةً إلى وُقوعِ الجزاءِ فيه إنْ لم تُغفَرْ[3]، فالعبرة بالخواتيم، ولا تظهر إلّا يوم الدّين.

بلاغة حُسن النَّسق وصحّة التَّقسيم بين الجُمَلِ:

مراعاةُ الترتيب الموضوعيّ والمقاميّ وحسن الانتقال

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ جملٌ كريمة فيها حُسن نَسَقٍ، فإنَّه سُبحانه وتعالى قدَّم الخَلْقَ الذي يجب تقديم الاعتداد به، والاعترافِ بنعمته، فإنَّه أوَّل نعمة، وفي إقرار المخلوق بنعمة الإيجاد من العدم إقرارُه بقدرة الخالق على الإيجاد والاختراع، ثُمَّ ثنَّى بنعمة الهداية التي هي أولى بالتَّقديم بعد نعمة الإيجاد من سائر النِّعم، ثُمَّ ثَلَّث بالإطعام والإسقاء اللَّذين هُما مادَّة الحياة،

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 320، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 142، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 249.

(2) القصّاب، النُّكت الدّالة على البيان: 3/ 529، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 166، 167.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 320، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 250، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 143.

وبهما من اللّه استمرار البقاء إلى الأجل المحتوم، وذكر المرض وأسنده إلى نفسه أدبًا مع رَبِّه، ثُمَّ أعقبَ ذِكْرَ المرض بِذِكْرِ الشِّفاء مُسنِدًا ذلك إلى ربِّه، ثُمَّ ذَكَرَ الإماتة مُسنِدًا فِعلَها إلى ربِّه لتكميل المدح بالقُدرة المُطلقة على كُلِّ شيءٍ من الإيجاد والإعدام، ثُمَّ أردف ذِكْرَ الموت بذكر الإحياء بعد الموت، وفيه مع الإقرار بهذه النِّعمة الاعترافُ بالقُدرة والإيمانُ بالبعث، وكلُّ هذه المعاني جُمَلٌ ألفاظُها معطوفٌ بعضُها على بعضٍ بحروفٍ مُلائِمةٍ لمعاني الجمل المعطوفة[1].

وبهذا استوعبت هذه الآيات أقسام النِّعم الدُّنيويَّة والأخرويَّة من الخلق والهداية، والإطعام والإسقاء، والمرض والشِّفاء، والموت والحياة، والإيمان بالبعث وغفران الذَّنب[2].

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 20/ 241.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 20/ 241.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتْباع الثَّناء بالدُّعاء جريًا على سنن الخُلَّص من الأتقياء

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة ثناءَ إبراهيم ﵇ على ربِّه سُبحانه بما أثنى عليه، ناسب أن يذكُرَ مسألته ودعاءه إيّاه بما ذكره، كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى، فإنَّه يَجِبُ عليه أن يتقدَّم بالثَّناء عليه وذِكْرِ عَظَمته وكبريائه؛ ليستغرق في معرفة ربِّه ومحبَّته، أنَّ تقديمَ الثَّناءِ على الدُّعاءِ مِن المهمّاتِ المُؤَكَّدات(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُكۡمٗا﴾: (حكم) أصلٌ يدلّ على المَنْعِ، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ: وهو المنعُ من الظُّلم، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابّة؛ لأنَّها تمنعُها، يُقال: حَكَمْتُ الدّابّةَ وأَحْكَمتُها، والحِكْمَةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تمنعُ من الجَهْل، تقولُ: حكَّمتُ فُلانًا تحكيمًا مَنَعتُه عمّا يُريد(2)، وكذلكَ حكمتُ السَّفيهَ وأَحْكمتُه، قال الشّاعر:

أبَني حنيفةَ أَحْكِموا سُفهاءكم(3)

والحُكْمُ بالشَّيءِ: أنْ تقضيَ بأنَّه كذا، أوْ ليس بكذا، سواء أَلْزَمتَ ذلك غيرَه أم لم تُلزِمه، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النِّساء: 58](4).

وقولُه تعالى: ﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ أي: معرفةً باللّٰهِ وبحدوده

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 514، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 20/ 243.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(3) صَدْر بيتٍ لجرير في ديوانه، ص: 47، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، ص: 91، وعجزه: إنِّي أخاف عليكُمُ أنْ أَغْضَبا.
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).

وأحكامِه[1]، أو النُّبوَّة[2]، أو العلم[3]، والمعاني السّابقةُ كلُّها تستوعبُها كلمةُ (الحُكم).

2) ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾: (لحق) أصلٌ يدلّ على إدراكِ شيءٍ وبلوغه إلى غيره، يُقال: لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أَدْرَكتُه، قالَ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ [الجمعة: 3]، يقالُ: أَلْحقَهُ بمعنَى لَحِقَه[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اجعَلني أُدرِكُ الصّالحينَ فأكون معهم.

3) ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: (صلح) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، وصَلُحَ الشَّيءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، ويقالُ: صَلَحَ - بفتح اللّام - صُلوحًا، والصَّلاحُ: ضدُّ الفَساد، وهما مُختصّان في أكثرِ الاسْتعمالِ بالأفعال، وقوبل في القرآنِ تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيئة[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: بالَّذينَ جعلتَهم أئمَّةً للمتَّقينَ في الدُّنيا والآخرة، وهم من كان قولُه وفعلُه صافيًا عن شَوْبِ فساد[6]، وقيل: بالنَّبيّين من قَبْلي، وقيل: بأهلِ الجنَّة[7]، وجميعُ هذه الأقوالِ ذاتُ مُؤدّى واحد.

المَعنى الإجْماليُّ:

هَمُّ خليلِ اللهِ وهِمَّتُه في نوالِ الحكمة والَّلحاقِ بالصّالحين

ضَرَعَ إبراهيمُ ﷺ إلى ربِّه فدَعا مُتوجِّهًا إليهِ سبحانه مناديًا بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّها هي الَّتي توجِّه وتُربّي النُّفوس، وتجعلُ الرَّجُلَ ربّانيًّا، وأوَّلُ ما طلبَه الحِكْمَةَ الضّابطة المانعة للنُّفوسِ من التَّردّي في مَهاوي الهوَى، ومنازعِ الشَّيطان، وجَمَعَ مع الحُكم أمرًا عظيمًا دعا به فقال: ربِّ وفِّقْني لكلِّ أسبابِ الكمال، والعُلوِّ في النَّفْسِ والخُلُقِ لِأَلْحَقَ بأهلِ الكمالِ والصَّلاحِ، وأُعَدَّ في زُمرةِ الأبرار[8].

(1) الواحدي، الوسيط: 3/ 356، والبغوي، معالم التَّنزيل: 6/ 118.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 86، وهو ما اعْتمده.
(3) تفسير ابن أبي حاتم: 8/ 2781.
(4) الرّاغب، المفردات: (لحق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (صلح).
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 55.
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 140.
(8) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5369.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف بجملة النِّداء:

التَّنبيهُ على أنَّ تقديمَ الثَّناءِ على الدُّعاءِ مِن المهمّاتِ

كان آخِرُ مَقالِه ﷺ في الدَّعوةِ إلى الدّينِ الحَقِّ مُتضمِّنًا دُعاءً بطَلبِ المغفرةِ؛ تَخلَّصَ منه إلى الدُّعاءِ بما فيه جَمعُ الكمالِ النَّفْسانيِّ بالرِّسالةِ، وتبليغِ دَعوةِ الخَلقِ إلى اللهِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ التي قامَ بها في قومِه بوحيٍ مِن اللهِ؛ فكان حينَئذٍ في حالِ قُربٍ مِن اللهِ، وجَهَر بذلك في ذلك الجَمعِ؛ لأنَّه عَقِبَ الانتِهاءِ مِن أقدَسِ واجبٍ وهو الدَّعوةُ إلى الدّينِ؛ فهو ابتِهالٌ أَرْجى للقَبولِ، ونَظيرُ ذلك دُعاؤُه عِندَ الانتِهاءِ مِن بِناءِ أساسِ الكعبةِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: 127] إلى قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128] إلى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129][1].

دلالة اختيار عنوان الرُّبوبيَّة:

من فقه الدَّعاءِ ذكرُ عبارات الامتنان

آثر النَّظمُ ذكرَ لفظ ﴿رَبِّ﴾ دون الدُّعاء بالاسم العلم (اللّه)، لأنَّ الدعاء فيه استحضار الإحسان، أي: أيُّها المُحسن إليّ يا من ربّاني بلطفه وهداني إلى صراطِ توحيده ﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾[2]، فعبَّر النَّظمُ الكريمُ باسم الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ دعاءٍ وطلبِ إحسانٍ من الرَّبِّ الكريم المنّان[3].

بلاغة استعمال مفردة الهبة:

هبةُ الله تعالى عن امتنانٍ تامٍّ

الهبة عطاءٌ من دون مقابل، لمن يستحقّ أو لا يستحقّ، ويوصف اللّه تعالى بالواهب والوهّاب بمعنى أنَّه يُعطي كُلًّا على استحقاقه[4]، وأوَّل ما طلبه إبراهيم من عطاء ربِّه في هذه الدُّنيا، هو أن يرزقه سُلطانًا من العلم والحكمة يُمسك به حقائق الأشياء، ويُقيمها على ميزانه، وبهذا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 144، 145.
(2) الشربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 59.
(3) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة والمفاتح الغيبية: 2/ 45.
(4) الرّاغب، المفردات: (وهب).

يكون في المُقرَّبين الصّالحين من عباد اللّه[1]، فاختير لفظ ﴿هَبۡ﴾ لبيان أنَّ ما يعطيه اللّه سبحانه وتعالى إنَّما هو محض تفضُّلٍ ومنَّةٍ.

نكتةُ ذكر الحُكْمِ:

الكمال في العلم والعمل

قوله: ﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ أي كمالًا في العلم والعمل، أستعدُّ به لخلافة الحقِّ ورئاسة الخلق؛ فإنَّ من يعلم شيئًا ولا يأتي من العَمَلِ بما يُناسب علمه لا يُقال له حكيم ولا لعلمه حُكْمٌ وحِكْمَةٌ[2].

دلالة العطف وفائدته:

التَّخصيص بعد التَّعميم بقبول العلم والعمل

قوله تعالى: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ وهو طلب الكمال في العمل، وذِكْرُه بعد ذلك تخصيصٌ بعد تعميم، اعتناءً بالعمل من حيث إنَّه النّتيجة والثَّمرة للعلم، وقيل: المراد بالأوّل ما يتعلَّق بالمعاش وبالثّاني ما يتعلّق بالمَعاد، والأَولى أن يُفسَّر الحُكْمُ بالحكمة بمعنى الكمال في العلم والعمل؛ والإلحاق بالصّالحين بجعل منزلته كمنزلتهم عنده ﷻ، والمُراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولَين إذ ما لم يُقبَلا لا يُلْحَقُ صاحبُهما بالصّالحين ولا تُجعلُ منزلته كمنزلتهم[3].

نكتة تقديم طلب الحُكْمِ قبل طَلَبِ الصَّلاح:

القوَّة النَّظريَّة مُقدَّمةٌ على القوَّة العمليَّة

قُدِّم ذِكرُ طلب الحكم على الإلحاق بالصالحين في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فقد استوهب الحُكمَ أوَّلًا، ثُمَّ طلب الإلحاقَ بالصّالحين، والسِّرُّ فيه دقيقٌ جدًا، ذلك أنَّ القوَّة النَّظريَّة مُقدَّمةٌ على القوَّة العمليَّة، لأنَّه يُمكنه أن يَعلَم الحَقَّ وإن لم يعمل به، وعكسه غير مُمكن، لأنَّ العلمَ صفةُ الرّوح والعملَ صفةُ البدن، وكما أنَّ الروح أشرفُ من البدن، كذلك العلمُ أفضلُ من الصَّلاح[4].

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 10/ 139.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 7/ 72، وإسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 286.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 96.

(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 91.

دلالةُ ذكر لفظ الصّالحين:

الإشارة إلى مظاهر التَّواضع اللّائق بالأنبياء عليهم السلام

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للإلصاق، وهذا مظهرٌ آخر من مظاهر تواضع إبراهيم عليه السلام، فقد قال في الأوّل ﴿أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ﴾ وفي الثّاني ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أيَ: بالقُدوة الصّالحة من الأنبياء والرُّسل، أي: وفِّقني للأعمال الصّالحة حتَّى أكون في زُمرة الصّالحين، وهذا من كمال التواضع.

دلالة اللّام في ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الدَّلالة على العموم في الكُمَّل من عِباد الله

تعريف لفظ ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للكمال، أي: واجعلني من ذوي الكمال في صلاحهم، الخالين من كلّ فسادٍ مهما قلّ، ولفظُ الصّالِحينَ يَعُمُّ جميعَ الصّالِحينَ مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فيَكونُ قد سأل بُلوغَ دَرَجاتِ الرُّسُلِ أولي العَزمِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ والشُّهداءِ والصّالِحينَ، فجَعَلَ الصّالِحينَ آخِرًا؛ لأنَّه يَعُمُّ؛ فكان تَذْييلًا[1]، وقد جاء في القرآن لفظ (الصّالحين) وصفًا للأنبياء والمُرسلين، وطائفةٍ من المؤمنين، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويُسارعون في الخيرات بإذن اللّه.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهبة والصَّدقة والهديَّة:

الهبة يُقصد بها النَّفع، والصّدقة تتعلق بالثَّواب الأُخروي

الهِبَةُ أن تجعل ملكك لغيرك بغير عِوَض، يقال وهَبْتُه هِبَةً ومَوهِبَةً ومَوهِبًا[2]، ويُقصَدُ بها النَّفعُ، ولا يُقصَدُ بها الثَّوابُ قصدًا أوّليًّا، أمّا الصَّدقةُ فيُقصَدُ بها ثَوابُ الآخرةِ[3]، كما أنَّ الصَّدقةَ أعَمُّ مِن الهِبةِ في الفضلِ؛ ففيها ما لا يُحصَرُ، إلّا أنْ يكونَ في الهِبة معنًى يَقتضي تَفضيلَها على الصَّدقةِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 145.

(2) الرّاغب، المُفردات: (وهب).

(3) النَّووي، روضة الطّالبين: 5/ 364.

(4) الرَّحَيْباني، مطالب أولي النُّهى: 4/ 378.

والصَّدقةُ تَختصُّ بالفقيرِ والمحتاجِ، أمّا الهِبةُ فتُخرَجُ للفقيرِ والغنـيِّ.

الهديَّة يُتقرَّب بها إلى المُهدى إليه والهبة فيها معنى التَّفضُّل

أمّا الهَديَّة فهي ما يتَقرَّب بِهِ المهْدي إِلَى المُهدَى إِلَيْهِ ولَيْسَ كَذَلِك الهِبَة ولِهَذا لا يجوز أَن يُقال إِنَّ اللّه يُهدي إِلَى العَبْد كَما يُقال إِنَّه يَهَبُ لَهُ ويقال أهْدَى المرؤوسُ إِلَى الرئيس ووهبَ الرئيسُ للمرؤوس[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 168، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدي).

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كان الصّالحُ قد لا يَظهرُ عملُه، وكان إظهارُ اللّهِ له مَجلَبةً للثَّناء والدُّعاءِ، وزيادةً في الأجرِ؛ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[1].

طلبُ إبراهيمَ الكمالَ بالثَّناءِ الحَسَنِ في العاقبة بعد تفضُّل اللهِ عليه بكمالِ العلم

بعدَ أنِ ابتدأَ إبراهيم عليه السلام بطلبِ ما هو الكمال الذّاتي للإنسان في الدُّنيا والآخرة - وهو طلبُ الحُكم الذي هو العلم - أتبعَ ذلك بطلبِ كمالاتِ الدُّنيا، ثمَّ بطلبِ كمالاتِ الآخرة، ومن كمالاتِ الدُّنيا طلبُ الأمرِ الرّوحانيِّ، فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾[2].

بعد إعظامِ إبراهيمَ للهِ واعترافِهِ بنعمِهِ تابعَ دعواتِه بحُسْن العاقبة

بعْدَ أنْ فرَغَ إبراهيمُ عليه السلام من إعظام اللّه، وإظهارِ جلاله، وتفخيم شأنه، وتعديدِ نعمه، وخرجَ إلى ذكر ما يكون ملائمًا له ومناسبًا، فدعا بدعوات أهل الإخلاص[3]؛ تابع دعواته بحسن العاقبة في الآخرين، فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِسَانَ﴾: أصلُ (لسن) يدلُّ على طولٍ لطيفٍ غيرِ بائنٍ، في عُضْوٍ أو غيرِه، من ذلكَ اللِّسانُ[4]: جارحةُ الكلام[5]، واللَّسَنُ: جَوْدَةُ اللِّسانِ[6]، يُقال: رجلٌ لَسِنٌ بيِّنُ اللَّسَن؛ إذا كانَ ذا بيانٍ وفصاحة[7]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 55.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 514.
(3) لأنَّ الطالب من مولاه إذا قدّم قبل سؤاله والتضرُّع إليه ذِكرَهُ بالصفات الحسنى والاعتراف بنعمه، كان ذلك أسرعَ للإجابة، وهذا من حسن الانتقال، ينظر: المؤيد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/ 176.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (لسن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (لسن).

واللِّسْنُ: اللُّغَةُ، يُقالُ: لِكُلِّ قَوْمٍ لِسْنٌ، أَيْ: لُغَةٌ[1]، واللِّسانُ في الآية مُرادٌ به الكلامُ والقول، من إطلاقِ اسم الآلةِ على ما يَتَقَوَّمُ بها[2].

2) ﴿صِدۡقٍ﴾: أصلُ (صدق) يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قَوْلًا وغيرَه، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له، ومعناه: اعتِبارُ الكلامِ صَحيحًا، لا كَذِبَ فيه، فهو نَقيضُه[3]، وصَدَّقْتُ فلانًا: نسبته إلى الصِّدق، وأَصْدَقْتُهُ: وجدته صادقًا[4]، ويُعبَّر عن كلِّ فِعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا بالصِّدق، فيُضاف إليه ذلك الفعل الَّذي يوصف به، نحو قوله: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر: 55]، والمعنى في الآية هنا: سؤالُ إبراهيم ﷺ ربَّهُ أنْ يجعله صالحًا، بحيث إذا أثنى عليه من بعده؛ لم يكن ذلك الثَّناء كذبًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: واجعَلْ لي ثناءً حَسَنًا دائمًا، فأُذكَر مِن بَعدي، ويَقتدي النّاسُ بي، ففي هذا الذِّكر الطيّب طريقٌ من طُرقِ الهداية للنّاس، إذ ينتصبُ لهم منه المَثَلُ الطَّيّب، والقُدوة الصّالحة، وهذا ما علَّم اللّهُ عباده المتَّقين أنْ يسألوه إيّاه، ويدعوه به، كما يقول سبحانه على لسانهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: 74][6].

حِرصُ إبراهيمَ على خُلودِ ذِكْرِه الطَّيِّبِ ليبقى طريقًا من طُرقِ الهدايةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قولِه: ﴿وَٱجۡعَل﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾

دعاءٌ يجمعُ بين التَّوفيقِ لأسبابِ الكمالِ وبين الثَّناءِ الحَسَنِ في العاقبة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 146.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (صدق)، والأبياري، الموسوعة القرآنية: 8/ 313.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 593، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 147، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 139.

عاطفةٌ، والمعطوف عليه الآيةُ التي قبلَها: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83] بجامع أنَّ كليهما هو دعاءٌ لخليلِ الرَّحمن إبراهيم عليه السلام، إلا أنَّ مضمون الأوَّل يكون سبيلًا للثّاني، فالأول دعاءٌ بأنْ يهبَه اللّهُ عملًا مُتقنًا بالحكمة الضّابطة المانعة للنُّفوس من التَّردّي في مهاوي الهوى، وأنْ يوفِّقه لكلِّ أسبابِ الكمال، والعلوِّ في النَّفس والخلق؛ ليلحقَ بأهل الكَمال والصَّلاح، وأمّا الثاني؛ فهو دعاءٌ بالعاقبة، وهو أنْ يبقى له ذِكْرٌ حسنٌ في الأمم والأجيال الآتية من بعده، وهذا يتضمَّنُ سؤالَ الدَّوام والختام على الكمال، وطلبَ نشرِ الثَّناءِ عليه، بأنْ يكون للمتَّقين إمامًا.

فائدةُ الجملةِ ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾:

لا بأسَ في طلبِ الثَّناءِ الحسنِ؛ إذا قُصد به وجهُ الله

دلَّتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على التَّرغيبِ في العَمَلِ الصّالح الذي يُكسِبُ الثَّناءَ الحَسَنَ[1]، واستِحبابِ اكتِسابِ ما يورِثُ الذِّكرَ الجَميل، وأنَّه لا بأسَ أنْ يحبَّ الرَّجُلُ أنْ يُثنَى عليه صالِحًا، ويُرى في عمَلِ الصّالحينَ؛ إذا قصَدَ به وجْهَ اللّه تعالى[2]، أي: إنَّ حُبَّ المحمدةِ بين النّاس ليس أمرًا غيرَ صالحٍ ما دام يقصدُ إليها النَّفعَ والخيرَ وعمومَ الإصلاح، وما دام لا يتعالى، ولا يستطيلُ على الناس[3].

وفيها كذلك دلالةٌ على أنَّ كلَّ إنسانٍ مُفتَقِرٌ إلى الدُّعاءِ حتى الأنبياءَ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام دعا اللّهَ سُبحانَه وتعالى بذلك[4].

غرضُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَٱجۡعَل﴾:

دعاءٌ بتحصيلِ الدَّوامِ والختامِ على الكمالِ

حقيقةُ الأمر ﴿وَٱجۡعَل﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ مجازيٌّ غرضهُ الدُّعاء؛ إذ فيه طلَبٌ من الأدنى إلى الأعلى سبحانه،

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 459.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 113، والقصاب، النُّكت الدّالة على البيان: 3/ 530.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5370.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 158.

والمخاطِبُ هو إبراهيمُ عليه السلام، وهو دعاءٌ يتضمَّنُ سؤالَ تحصيلِ الدَّوام والختامِ على الكمالِ، وطلب نشرِ الثناء عليه[1].

علّةُ التّعبيرِ بالجعل في الآية:

سَعةُ ما يطلبه إبراهيمُ عليه السلام تتناسبُ مع عظمةِ العطاءِ الرّبّانيِّ

عبَّرَ القرآنُ بلفظ ﴿وَٱجۡعَل﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾، وقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دون قوله: (هب لي)؛ لكون لفظ الجعْل أوسعَ دلالةً من الهبة؛ إذ الجعلُ لفظٌ عامٌّ في الأفْعال كلِّها[2]، بما يدلُّ على عظمةِ العطاءِ الرَّبّانيِّ، وسَعةِ ما يطلبه إبراهيمُ عليه السلام من هذا العطاء، وللتَّفنُّن في العبارة؛ إذ قد وردَ لفظُ الهبة في الآية التي قبلهما ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83].

معنى اللّامِ ونكتةِ التقييد في قولِه: ﴿لِّي﴾:

طلبُ إبراهيمَ للذِّكرِ الحسنِ في الآخرين خاصٌّ به دون غيره

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي﴾ للاختصاص والاستحقاق، أي: اجعل لي خاصَّة، وهي بذلك تقتضي أنَّ الذِّكرَ الحسنَ في الآخرين لأجلِ إبراهيم عليه السلام، فهو ذكرُهُ بخير[3]، وقد تحقَّق له ذلك، وللغرضِ ذاته عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالقيد ﴿لِّي﴾؛ إذ لو قال مثلًا: (واجعلني ذا لسانِ صدقٍ)؛ لفوَّت هذا الاختصاص، ولكانتْ عطيَّةُ اللسان الصِّدق في الآخرين يمكن أنْ تشملَ غيره، ولا تقتصرَ عليه، ومعلومٌ أنَّ استمرارَ أثرِه المحمود النافعِ بعد مماته، والمحبَّة والمودَّة بين النّاس من بعدِه، وبقاءَ دعوته إلى الحقِّ من بعده يردِّدها النّاس، ويدعون إليها[4]، أي: قد تحقَّق له ما دعا به.

نكتةُ تقديمِ قولِه: ﴿لِّي﴾ على ما بعدَهُ:

قدَّم النَّظمُ الحكيمُ الجارَّ والمجرور ﴿لِّي﴾ على ما بعدَه في قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 145.
(2) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 146.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5370.

حِرْصُ إبراهيمَ على أن يُكرِمَهُ اللهُ بخلودِ ذكره

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾؛ لإفادة التَّخصيص، أي: إنَّ إبراهيمَ طلبَ خلودَ ذكرِه خاصَّةً؛ وللعنايةِ والاهتمامِ بذاتِ المدعوِّ؛ لأنَّه محلُّ الانتفاعِ بالدُّعاء، وغرضُ الاهتمامِ مطابقٌ للحال؛ لأنَّ الدّاعي قد أهمَّتْه نفسُه، فلذا قُدِّمتْ حرصًا من إبراهيم ﷺ بأن يُكرِمَهُ اللهُ بخصيصةِ الذِّكر الحسنِ في الآخرين، وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ، فقال سُبحانه عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: 50]، وأتباعُ الرُّسُلِ لهم نصيبٌ من ذلك بحسَبِ ميراثِهم من طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكلُّ مَن خالَفهم؛ فإنَّه بعيدٌ من ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى ضرورةِ عنايةِ الإنسانِ بنفسه، وبما يُحقِّق له السَّعادةَ في الدُّنيا، وفق ما يُرضي اللّه سبحانه وتعالى.

نوعُ المجازِ وغرضُهُ في قولِهِ: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾:

ذِكرٌ حسنٌ باقٍ لا ينقطعُ خيره إلى آخرِ الدَّهر

يُراد بـ(اللسان) في قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ الكلامُ والقولُ أو الذِّكرُ، وهو من إطلاقِ اسم الآلة على ما يتقوَّم بها[2]، أي: تسميةُ الشَّيءِ باسم آلته، فوضَعَ اللِّسانَ موضعَ القول؛ لأنَّ القول يكون به، وهذا مجازٌ لغويٌّ مفردٌ مرسلٌ، علاقتُهُ الآليَّةُ التي هي كون الشَّيء واسطةً لإيصال أثرِ شيءٍ إلى آخر[3]؛ لأنَّ اللِّسانَ بمعناه الأصلي آلةٌ وواسطةٌ للذِّكر الحسن الذي هو المعنى المراد، والقرينةُ: استحالةُ بقاءِ هذه الجارحةِ بمعناها الحقيقيِّ فيمن يأتي من الأمم بعد[4].

ويمكن أنْ تكونَ علاقتُه محليَّةً من إطلاقِ المحلِّ على الحال؛ لأنَّ الذِّكرَ حالٌّ في اللِّسان، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾

---

(1) ابن القيم، الجواب الكافي، ص: 80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 146.
(3) وذلك فيما إذا ذُكر اسمُ الآلة، وأُريد الأثر الذي يُنتج عنه كما هو الحال هنا، يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 253.
(4) عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 1/ 137.

[العلق: 17][1]، أو أنْ تكون سببيَّةً من إطلاقِ السَّبب وإرادة المسبِّب؛ لأنَّه سببُ ذلك الثَّناء، أو جزئيةً من إطلاقِ الجزءِ على الكلِّ؛ لأنَّ الدَّعوة باللِّسان[2]، أي: جعلَ المجاز عن الدّاعي، وهو النبيُّ محمَّد ﷺ، فكأنَّه قال: اجعل لي داعيًا إلى الحقِّ صادقًا في الآخرين[3].

وغرضُ المجاز - أي: غرضُ التَّعبيرِ عن الذِّكر باللِّسان - هو الدَّلالةُ على طلبِ ذكرٍ لا تنقطعُ دلالته على خيره، كما لا تنقطعُ كلماتُ اللِّسان[4]، أي: دعا إبراهيمُ أن يُبقيَ اللّهُ له ذِكْرًا حسنًا في الأمم الآتية، وهذا يتضمَّنُ سؤالَ الدَّوام والختام على الكمالِ، وطلبَ نشرِ الثَّناء عليه؛ ولبيانِ أهميَّة اللِّسانِ في حدوثِ الذِّكر الحسن، وأهميَّةِ تنقيةِ اللِّسان، فلا يصدرُ عنه إلّا ما هو حسنٌ من القول[5].

نوعُ الإضافةِ وعلَّةُ التَّعبيرِ في الآيةِ:

دعـاءُ إبراهيـمَ عليه السلام لـسـانَ الـصِّـدق في الآخرين مبالغةٌ في الطَّلب

إضافةُ ﴿لِسَانَ﴾ إلى لفظِ ﴿صِدۡقٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ من إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفة، ففيه مُبالَغةُ الوَصفِ بالمصدرِ، أي: اللِّسانُ الصادق، بأنْ يكونَ الصِّدقُ مستغرقًا له، بحيث لا يُقال عنه إلّا ما هو صدق، وأنْ يكون اللِّسانُ صادقًا دائمًا، وأنْ يمتدَّ الصِّدقُ منه وفيه إلى ما بعده، وإنَّ لسانَ الصِّدق يكون بعدَّةِ أمورٍ، منها: أنْ يكونَ ذكرُهُ حسنًا صادقًا من بعده، بأنْ يكون أثرًا محمودًا من بعده، ويكون نافعًا بعد مماته، كما كان نافعًا في حياته، ومنها أنْ تكونَ له محبَّة ومودَّة بين النّاس من بعده، كما كانوا يودّونه في حياته، ومنها أنْ تكونَ دعوتُهُ إلى الحقِّ باقيةً من بعده يردِّدها النّاس، ويدعون إليها[6]، بأنْ يكون الصِّدقُ كِنايَةً

(1) السّبكي، عروس الأفراح: 2/ 139.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 283.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 97.
(4) الحنفي، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 241.
(5) جامعة المدينة، البلاغة (البيان والبديع)، ص: 220.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5370.

عنِ المَحبوبِ المَرغوبِ فيه؛ لأنَّه يُرغَبُ في تَحقُّقِه ووُقوعِه في نفْسِ الأمر[1]، أي: إنَّه أراد أنْ يقتدي به الآخرون، فيكون له مثلُ أجرِ مَن اقتدى به[2]، والصِّدقُ كذلك الحقُّ الثّابتُ، المتَّصِلُ باللّهِ، الموصِلُ إلى اللّهِ، وهو ما كان به وله مِن الأقوالِ والأعمالِ، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ[3].

سِرُّ تسلُّط ﴿فِي﴾ على الذَّواتِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

طلبُ إبراهيمَ للذِّكرِ الحسنِ في الآخرين لم يقتصرْ على الثَّناءِ في أقوالهم

في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ سلَّطَ ﴿فِي﴾ على الذَّوات ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، ولم يقلْ: (واجعل لي لسان صدقٍ في أقوالِ الآخرين)؛ وذلك للمبالغةِ، وإفادة معانٍ أخرى؛ إذ لو قال: (في أقوال الآخرين)؛ لاقتصرَ ذلك على الثَّناء والذِّكر الحسن في أقوالِ الآخرين، ولكن عندما سلَّطه على الذَّوات شملَ ذلك أيضًا معنى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام من بعده، وبقاءِ دعوته ومحبَّته في قلوبِ النّاس، واستمرارِ الأثر المحمودِ النافعِ بعد مماته، وغير ذلك من المعاني التي ذكرها المفسِّرون.

سِرُّ التقييدِ بـ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

غايةُ إبراهيمَ عليه السلام استمرارُ هدايةِ النّاس بسببهِ بعد كمالِ نفسِه

قيَّد البيانُ القرآنيُّ لسانَ الصِّدق بالجار والمجرور ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مرادَ إبراهيمَ عليه السلام هو طلبٌ للذِّكر الجميل، المستلزمِ لتكميلِ الآخر بعد طلبِ كمالِ النَّفس[4]، وعدمِ اقتصارهِ على نفسِه، ففي هذا الذِّكر الطيِّب طريقٌ من طُرُقِ الهداية للنّاس، حيث ينتصبُ لهم منه المثلُ الطَّيِّب، والقدوةُ الصّالحة[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 146.
(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 557.
(3) ابن القيم، مدارك السّالكين: 2/ 259.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 376.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 139.

طلبُ إبراهيمَ خلُودَ اللِّسان الصدق في الآخرين دليلٌ على عِظَمِ عطاءِ ربِّ العالمين

علَّةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دون غيرها، كـ (النّاس) في قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ ليشملَ كلَّ ملَّةٍ وأمَّةٍ وعالَم من العوالم ممَّن يكونون بعدَهُ، أي: اجعلْ لي إيمانًا بما دعوتُ إليه في كلِّ ملَّةٍ، وثناءً حسنًا في الأمم كلِّها من الذين يَجيئون بعدي إلى يوم القيامة[1]، وأثرًا محمودًا لدعوتي في كلِّ العوالم من بعدي - من الإنس والجنِّ وغيرهم - يبقى إلى يوم الدّين[2]، وقد استجابَ اللّٰه دعوته، فأرسل نبيَّنا محمدًا رحمةً للعالمين، قال ﷺ: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم»[3]، وأمّا لو عبَّر بلفظ (النّاس)؛ لَما أفادَ هذا الشَّمول، ولظُنَّ كذلك أنَّه يطلبُ الثَّناءَ في أقوالِ أهلِ زمانه وأفعالِهم فقط، فكان التَّعبيرُ بلفظ الآخرين فيه دلالةٌ على عِظم طلبِ إبراهيم عليه السلام من ربِّه العظيم جل جلاله.

وهذا المعنى الأشملُ أنسبُ مع عظمةِ العطاء الرَّبانيِّ وطلبِ إبراهيم بلفظ ﴿وَٱجۡعَل﴾، الذي يدلُّ على سَعةِ الطَّلب، وأنسبُ مع الفاصلة القرآنيَّة في الآيات، مثل ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83]، ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

دعاءُ إبراهيمَ عليه السلام أنْ يُذكرَ في جميع الأمم من بعدِهِ بذكرٍ حسن

نكتةُ الجمع في قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّه جمعٌ معرَّفٌ بـ(أل) الجنسيَّة، أي: إنَّ إبراهيم عليه السلام طلبَ ألّا يُذكر في جميع الأمم من بعده إلّا بذكرٍ حسنٍ[4]، فأعطاهُ اللّٰهُ ذلك، فكلُّ أهلِ الأديان يتولَّونه، ويثنون عليه[5]،

---

(1) الماوردي، النُّكت والعيون: 4/ 177، والواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 72.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250.

(3) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، رقم: (3566).

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 67.

(5) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 20/ 76.

ولا نرى أمَّةً إلّا مُحبَّةً لإبراهيم، وتدّعي أنَّها على ملَّته، وقد جاء من ذريَّته كمَلَةُ الأنبياء وأولو العزمِ منهم، وخُتِمَ ذلك بمجدِّد دينه، وداعيةِ النّاس إلى التَّوحيد وهو محمد ﷺ[1].

دلالةُ (أل) التعريف في ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

طلبُ إبراهيمَ عليه السلام التَّوفيقَ للآثار الحسنة على أبلغِ وجه

(أل) التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ جنسيَّةٌ تفيدُ العمومَ، أي: يعمُّ كلَّ من يأتي بعده من الأمم، وهذا يستلزمُ طلبَ التَّوفيق للآثار الحسنة على أبلغ وجهٍ[2]، وفيه إشارةٌ إلى رفعةِ مقام إبراهيمَ في تحمُّله للأمانةِ والتَّبليغ والدَّعوة إلى الله، فإنَّه طلبَ تخليدَ ذكره الجميل في الدُّنيا بتوفيقه لصالحِ العمل، فيكون قدوةً لمن بعده إلى يوم القيامة.

ويحتملُ أن تكون عهديَّةً، معهودها ذهنيٌّ، ويُراد بالآخرين آخرُ أمَّة، يُبعث فيها نبيٌّ، وأنَّه عليه السلام طلبَ الصِّيْتَ الحسنَ والذِّكر الجميل فيهم ببعثة نبيٍّ فيهم، يُجدِّد أصلَ دينه، ويدعو النّاس إلى ما كان يدعوهم إليه من التَّوحيد معلِّمًا لهم أنَّ ذلك ملَّة إبراهيمَ عليه السلام، ولا تُنسخُ شريعته إلى يوم القيامة، وهو نبيُّنا محمد ﷺ، وقد طلبَ بعثته بما هو أصرحُ ممّا ذكر في قوله: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: 129][3].

الفروقُ المُعجَميَّة:

الجَعْل والهِبَة:

الجعْلُ أوسعُ دلالةً من الهِبَةِ، فالهِبَةُ مختصَّةٌ بالعطيَّة بدونِ عوضٍ

الجَعْلُ أوسعُ دلالةً من الهبة؛ إذ الجعلُ لفظٌ عامٌّ في الأَفْعال كلِّها، وهوَ أَعَمُّ من فعَل وصَنَع وسائرِ أخواتِها[4]، ومن معانيه أيضًا: الوضعُ والتَّسويةُ والتَّهيئةُ والتَّصييرُ، والصَّنعُ والخلقُ، والقولُ والحُكم،

(1) أحمد المراغي، تفسير المراغي: 19/ 74.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 97.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 97.
(4) الرّاغب، المفردات: (جعل).

والوصف والظنُّ، وإيجاد الشَّيء من الشَّيء والتوجُّه والشُّروع في الشَّيء، والاشتغال به، والاعتقاد والتَّبيين، والتَّسمية والتَّشريف[1].

بينما الهبةُ لفظٌ أخصُّ من الجعل، فالهبةُ هي العَطيَّة الخالية عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، ووَهَبَ له الشَّيءَ: جعله له، وأَوهب لك الشيء: أَمكَنَك أَنْ تأْخُذَه وتَناله[2]، والهِبةُ: أنْ تجعلَ ملكك لغيرك بغيرِ عوض[3]، كما أنَّ لفظَ الهبةِ مشعرٌ بالتَّفضُّل والإحسانِ من غيرِ سببٍ ولا عملٍ ولا معاوضة[4].

إذًا لفظُ الجعل لفظٌ عامٌّ واسعُ الدَّلالة، له معانٍ كثيرةٌ، بينما لفظُ الهبةِ لفظٌ خاصٌّ يُطلقُ على العطيَّةِ بدون عوض، وفيه معنى التَّفضُّل والإحسان.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (جعل).
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(3) الرّاغب، المفردات: (وهب).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 32.

﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا نفعَ لسَعادةِ الدُّنيا إلّا باتِّصالِها بسَعادةِ الآخرةِ

لَمّا طَلَبَ إبراهيمُ عليه السلام سَعادةَ الدُّنيا، وكان لا نفْعَ لها إلّا باتِّصالِها بسَعادةِ الآخرةِ التي هي الجنَّةُ؛ طَلَبها بقَولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَثَةِ﴾: (ورث) كلمةٌ واحِدَةٌ، هي الوِرْثُ[2]، والوِرْثُ والإِرْثُ والتُّراثُ والميراثُ ما وُرِث، وقيلَ: الوِرْثُ والميراثُ في المالِ والإِرْثُ في الحَسَبِ[3]، والوارِثُ: صِفَةٌ من صفاتِ اللّه ﷻ، وهو الباقي الدّائمُ الَّذي يَرِثُ الخلائقَ، ويبقَى بعد فنائهم[4]، ويجوز أنْ يُسمَّى الحصولُ على الجنَّة وِراثةً؛ لحصول المؤمنين عليها دون غيرهم، ولأنَّهم يتصرَّفون فيها كما يتصرَّف الوارث المُستحقُّ في ميراثه، ويُقالُ لكلِّ من حصلَ له شيءٌ من غير تعبٍ: قد ورِثَ كذا، ويُقال لمن خوِّلَ شيئًا مهنَّئًا: أورِثَ[5]، وعليه استُعْمِلَ لفظُ الوَرَثَةِ هنا؛ لكون ذلك بغير ثَمَنٍ ولا مِنَّة، فورثةُ الجنَّة هم أهلُ الاستحقاق[6].

2) ﴿جَنَّةِ﴾: أصلُ (جنَّ) يدل على السَّتْرِ والتَّسَتُّر، والجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ[7]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 516، والخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(3) ابن سيده، المحكم: (ورث).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ورث).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (ورث).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (ورث)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 146.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).

والجَنَّةُ أيضًا: الحَديْقَةُ ذاتُ الشَّجَرِ[1]، وهو ذاكَ لأَنَّ الشَّجَرَ بورقه يَستُرُ، ويُقال: جنَّ النَّبْتُ جُنونًا، أي: طال والتفَّ وخرج زَهْرُهُ[2]، وسُمّيَتِ الجنَّة بذلك إمّا تشبيهًا بالجنَّة في الأرض - وإنْ كان بينهما بونٌ - وإمّا لستره نعمها عنّا[3]، ومعنى الجنَّة في الآية: هو ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ ثوابًا وجزاءً لهم.

3) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: أصلُ (نعم) يدلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصلاحٍ، ومنه النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تَعالَى على عَبْدِهِ بِهِ مِنْ مالٍ وعَيْشٍ[4]، وتَنَعَّمَ: تَناوَلَ ما فيه النِّعْمَةُ وطيبُ العَيْشِ[5]، والنَّعيمُ: ما به التذاذُ النَّفْسِ باللَّذّاتِ المحسوسةِ، وهو أَخَصُّ مِنَ النِّعْمَةِ[6]، والمُرادُ بالنَّعيمِ في الآيةِ: اسمُ ما يَنْعَمُ به الإنسانُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جنَّةُ النَّعيمِ تكونُ ميراثًا للعمل الصّالح

بعد أنْ طلَبَ إبراهيم سعادةَ الدُّنيا، طلبَ ثوابَ الآخرة، فقال: واجعلني في الآخرة عندما ألقاك - يا ربّي - للحساب، من عبادك الَّذين أكرمتهم بدخولِ جنَّتك ممَّن يتمتَّعون بخيراتها ونعيمها، كما يتَمتَّعُ الوارثُ بإرث غيرِهِ في الدُّنيا[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾:

الجَمعُ بين الحوائجِ المسؤولة التي تحقِّقُ سعادةَ الدُّنيا والآخرة دلالةٌ على كمالِ الطَّلب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عاطفةٌ، مدخولها على أوَّلِ الدُّعاء قبلها؛ استتمامًا له، ونسقٌ عليه، ودلالتها في الآية: الجمعُ بين الحوائجِ المسؤولةِ في الإجابةِ التي تحقِّق سعادةَ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (جنّ).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهريّ، الصّحاح: (جنّ - جنن).
(3) الرّاغب، المفردات: (جن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نعم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 150.
(7) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 257.

الدُّنيا وسعادةَ الآخرة؛ للدَّلالة على أنَّ أحدها لا يتمُّ دون الآخر، فهي لوازمٌ لا تنفصلُ، وكلُّ حاجةٍ من هذه الحوائج تُسلم لتحقيق ما بعدها؛ "إذ لا نفعَ لها إلّا باتِّصالها بسعادة الآخرة"(1)، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المخلوقَ لا يسعدُ إلّا باجتماعِ الأحوال التامَّة له في الدُّنيا والآخرة، وإشارةٌ إلى كمالِ طلبِ إبراهيم عليه السلام، وكمال عقله.

غرضُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾:

دعاءُ إبراهيم لنفسه بالسَّعادةِ الأخروية

فعلُ الأمر ﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خرجَ إلى المعنى المجازي، وهو الدُّعاءُ؛ لأنَّه طلبٌ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، ودعا إبراهيمُ لنفسِه بالسَّعادةِ الأخرويَّةِ بأنْ يجعله اللّٰهُ من ورثةِ جنَّة النَّعيم، الذين يتمتَّعون بخيراتها ونعيمها، كما يتمتَّع الوارثُ بما يرث.

معنى ﴿مِن﴾ والموقع الإعرابيُّ لـ ﴿مِن وَرَثَةِ﴾:

تبعيضٌ ومعيَّةٌ يدلّان على كمالِ خُلُقِ إبراهيمَ وحبِّه الخيرَ للآخرين من الصّالحين

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: وارثًا من بعض ورثةِ النَّعيم، أي: ممَّن يدخلون الجنَّةَ، ويتمتَّعون بنعيمها، بما يدلُّ على فيضِ عطاء اللّٰهِ على عباده الصالحين، وتحتمل أنْ تكونَ بمعنى (مع)، أي: في دعائه طلبٌ لجمعِ الشَّمل معهم في دار الكرامة(2)، بما يدلُّ في المعنيين على كمالِ خُلُقِ إبراهيمَ بحبِّ الخيرِ لغيره من الصّالحين، ويكون بذلك الجار والمجرور ﴿مِن وَرَثَةِ﴾ بمقامِ المفعولِ الثّاني لـ ﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾(3).

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في: ﴿وَرَثَةِ﴾:

جنَّةُ النَّعيم ميراثٌ لِمَن عملَ صالحًا منَّةً من اللهِ وتكرُّمًا

استعار النَّظمُ الحكيمُ لفظَ (الورثة) في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لمستحقي الجنَّة؛ إذ شبَّه الجنَّة التي استحقَّها العاملُ بعد فناءِ عمله بالميراثِ الذي استحقَّه الوارثُ بعد فناءِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 55.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 376.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 88.

مورِّثه، فأطلقَ عليها اسمَ الميراث، وعلى استحقاقها اسم الوراثة، وعلى العامل اسم الوارث[1]؛ مبالغةً في طلبِ التفضُّل من اللّه سبحانه؛ لأنَّ الإرثَ يحصلُ بغيرِ اكتسابٍ من الوارث، وهو أقوى أسبابِ الملك، أي: "لأنَّه الَّذي يغتنم في الدُّنيا، فشبَّه غنيمةَ الآخرة بغنيمة الدُّنيا"[2]، وللدَّلالة على أنَّ عملَهُ لا يعطيه ذلك الحقَّ، وهو دخولُ الجنَّة، إنَّما هو هبةٌ من اللّه تعالى وفضلٌ، فلا يستحقُّ عاملٌ بعمله إلّا أنْ يتغمَّده اللّه برحمته[3]، وهذا تصديقٌ لقول رسول اللّه ﷺ: «ما مِنْكُم أَحَدٌ داخِلٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِه»، قيلَ: ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: «وَلا أَنا، إِلّا أَنْ يَتَغَمَّدَني اللّه بِرَحْمَةٍ منه وفَضْلٍ»[4].

وفيه إشارةٌ إلى طلبِ إبراهيم كمالَ السَّعادة الأخرويَّة في الجنَّة بأنْ يكون ممَّن يتمتَّعون بنعيم الجنَّة، كما يتمتَّع المالك بما يملكه ميراثًا، ويؤولُ إليه أمره من شؤونِ الدُّنيا[5]، مع استعجالِ دخولها واستحقاقِ الخلود فيها؛ لأنَّ الوارثَ ينتقلُ إليه ملكُ الشَّيء الموروث بمجرَّد موتِ المالك السّابق، ولَمّا لم يكنْ للجنَّة مالكونَ؛ تعيَّن أنْ يَكونَ الوارِثونَ مُسْتَحِقّينَ من وقتِ تبوُّؤ أهلِ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: 10 - 11][6].

نكتةُ اصطفاءِ الجمع ﴿وَرَثَةِ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَرَثَةِ﴾ دون الإفراد، فلم يقل: (واجعلني وارثَ جنة)؛ للدَّلالة على أنَّ جنَّة النَّعيم ليس لإبراهيم فقط، وإنَّما لكلِّ عبادِ اللّهِ الصالحين، من لدن آدمَ

جنَّةُ النَّعيم لكلِّ عبادِ اللهِ الصّالحين ومن نعيمِها أُنسُ أهلِها ببعضهم

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 283.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 516.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 55، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5370.
(4) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم: 10123.
(5) أحمد المراغي، تفسير المراغي: 19/ 75.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 146.

إلى أنْ تقومَ السّاعة، وللإشارةِ إلى أنَّ نعيمَ الجنَّةِ لا يكتملُ إلّا مع الجماعة، وخاصَّة مع أهلِ الإنسان وأحبابه وأصدقائه، وللإيماء بعلوِّ خُلُقِ إبراهيمَ، الذي لا يريدُ أنْ يستأثرَ بدخولِ الجنَّة دون غيرهِ من المؤمنين، وإنَّما أرادَ الاجتماعَ المستلزمَ لزيادةِ الأُنسِ والسَّعادة عند أهل الجنَّة، فإنَّ الوحدةَ لا تُطاق.

نكتةُ الإفرادِ في قوله: ﴿جَنَّةِ﴾:

إبراهيمُ والمؤمنون يرثون منازلَ المشركينَ في الجنَّةِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الجنَّة مفردًا لا جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لكون ذلك أنسبَ لِلسّياق الَّذي هو حديثٌ عن إرثٍ في الجنَّة يطلبه إبراهيمُ من اللّهِ، وليس حديثًا عمّا أعدَّه اللّه للمؤمنين من جنّات، أي: أورِثْني - يا رَبِّ - مِن منازلِ مَن هَلَك مِن أعدائِك المشركينَ بك مِن الجنَّةِ، وأسْكنّي ذلك[1].

نوعُ الإضافة وبراعتها في: ﴿جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

الجنَّةُ هي محلُّ النَّعيم الدّائم

إضافةُ ﴿جَنَّةِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ من إضافةِ المحلِّ للحالِّ فيه، أي: الجنَّةُ التي هي محلُّ النَّعيم الدّائم[2]، والتي لا يتصوَّر فيها غيره[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بمادَّة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

مِن كمالِ السَّعادةِ الأخرويَّة تحصيلُ النَّعيم بكلِّ أشكالِه

استعمالُ لفظِ النَّعيم في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دون غيره من الأسماء أو الصفات، كجنَّة عدن أو المأوى أو الفردوس أو غير ذلك - أنسبُ للسّياق الذي يطلبُ فيه إبراهيمُ كمالَ السعادةِ الأخرويَّة؛ لأنَّ أصلَ النَّعيم يدلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[4]، وهو ضِدُّ البَأْساءِ والبُؤْسى، وكلُّ الأسماءِ الأخرى تشتملُ على وجهٍ من أوجهِ التنعُّم، من نعمةِ الإقامةِ في جنَّة عدنٍ، ونعمةِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 595.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 20/ 283.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 229.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

الخلد في جنَّة الخلد، ونعمةِ المأوى في جنَّة المأوى، إذًا عبَّر بجنَّة النَّعيم دون غيرها؛ لأنَّها في حقيقتها جناتٌ ليس فيها إلّا التَّنعُّمُ الخالصُ عن شائبةِ ما يُنغِّصهُ من الكدوراتِ وخوفِ الزَّوالِ، ففي جنَّةِ النَّعيم نعيمٌ مقيمٌ لا يحولُ، ولا يزولُ، ولا يبيد[1]، وفي هذا التَّعبير ما فيه من الإشارةِ إلى كمالِ فضلِ اللهِ الذي لا يُقادَر قدرُهُ، ولا يُحَدُّ حدُّه.

دلالةُ التَّعريف في قوله: ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

النَّعيمُ في الآخرةِ نعيمٌ خالدٌ كثيرٌ ومتجدِّد وخاصٌّ بأهلِ الجنَّةِ

(أل) التَّعريف في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، فالنَّعيمُ في الآية هو نعيمُ الآخرة، وهو النَّعيمُ الخاصُّ بأهلِ الجنَّة، الدائمُ الكثيرُ والمتجدِّدُ والخالدُ الذي لا يحولُ، ولا يزولُ، ولا يبيد، والخالصُ عن شائبةِ ما يُنغِّصهُ من الكدوراتِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجنَّة والنَّعيم وعَدن والخلد والمأوى والفردوس:

كلُّ اسمٍ من أسماءِ الجنَّةِ يشيرُ إلى صنفٍ من نعيمها، وجنَّةُ النعيم تشملها كلَّها

تعدَّدت أسماءُ الجنَّة للإشارة إلى معانٍ متنوِّعة يدلُّ عليها كلُّ اسم منها، وإنْ كانت جميعها تشترك بكونها دارَ الثَّواب والجزاء للمؤمنين، فجنَّةُ النَّعيم: من النَّعيم وهو التَرَفُّهُ وطيبُ العَيْش[3]، ونَعيمُ اللهِ تعالى: عَطيَّتُه الكَثيرَةُ الوافِرَة[4]، فجنَّة النَّعيم، أي: ذاتُ التَّنعُّم الخالصِ عن شائبةِ ما يُنغِّصهُ من الكدوراتِ وخوفِ الزَّوالِ، ففي جنَّةِ النَّعيم نعيمٌ مقيمٌ لا يحولُ ولا يزولُ ولا يبيد[5].

---

(1) النّسفي، مدارك التنزيل: 3/ 523، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 283، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 17.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 523، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 283، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 17.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (نعم).

(5) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 523، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 283، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 17.

وأمّا عَدْنٌ؛ فتدلُّ على الإقامة[1]، وجنّات عدنٍ هي جنّاتُ الإقامة والثُّبوت والاستقرار[2].

وأمّا الخُلْد؛ فيدلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَةِ، ودَوامِ البَقاءِ، ومِن ثمَّ فجَنَّةُ الخُلْدِ أهلُها فيها باقون[3]، لا تتبدَّل أحوالُهم من اعتراضِ فسادٍ وغيره[4].

وأمّا المأوى؛ فهو المكانُ والمنزلُ، والإيواء هو الضمُّ، فجنَّة المأوى هي جنَّةُ المَبيتِ، أو التي تَصيرُ إليها أرواحُ الشُّهَداءِ والمؤمنين[5].

وأمّا الفِرْدَوْسُ؛ فهو البستانُ الواسع الذي يجمعُ كلَّ ما يكون في البساتين[6]، ومنه جنّاتُ الفردوس، وهو مكانٌ مخصوصٌ في الجنَّة، يُقال: إنَّهُ أعلاها[7]، ومن هنا كان اصطفاءُ اسم جنَّةِ النَّعيم مناسبًا لما يطلبُه إبراهيمُ عليه السلام من كمال السَّعادةِ الأخرويَّة؛ إذ جنَّةُ النَّعيم شاملةٌ لكلِّ أصناف التَّنعُّم الخالص الذي لا يحول، ولا يزول.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدن).

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عدن).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خلد).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلد).

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (أوى).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (فردس).

(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فردوس).

﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء: 86]

بعدَ دعاءِ إبراهيمَ عليه السلام لنفسهِ دعا لأبيهِ عن موعدةٍ وعدها إيّاه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام لنفْسِه، بما يصلحها، ويحقِّقُ لَها السَّعاداتِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة؛ ثنَّى بأحقِّ الخَلقِ ببرِّه، وأشدِّ الناسِ التصاقًا به، وهو والده وسببُ وجوده؛ لأنَّه قد وعدَهُ بأنْ يدعو له، كما جاء في سورة مريم: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: 47]، فأنجزَ خليلُ اللّه وعده لأبيه، وقال ضارعًا إلى ربِّه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾: أصلُ (غفر) يدلُّ على التَّغْطيَةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفر والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها، وتَجاوَزَ عنها[2]، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ من اللّه هو أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّهُ العذاب[3]، وعليه فالمُرادُ بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾: اصفحْ لأبي عن شركه، ولا تعاقبه عليه، وتجاوزْ عنه بالهداية والتَّوفيق للإيمان[4].

2) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: أصلُ (ضلَّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه[5]، والضَّلالُ: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[6]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ[7]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 516، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 56، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5370.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 594، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 250.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).

ورجلٌ مُضَلَّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ[1]، وضِدُّه: الاهتداءُ والاستقامةُ والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: سُلوكُ طَريقٍ غَيْرِ موَصِّلَةٍ لِلْمَقْصودِ، والمرادُ بِهِ هنا الشِّركُ، فضلالُ والدِ إبراهيم كان ذهابًا عن الصَّوابِ إلى طريق الهلاك، وأنَّه كان كافرًا كُفْرَ جهلٍ، لا كُفْرَ عِنادٍ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلبُ إبراهيمَ لأبيه الهدايةَ خوفًا عليه ورحمةً به

قال إبراهيمُ ضارعًا إلى ربِّه: واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه مِنَ الضّالّينَ عن طَريقِ الحَقِّ، فلا تُعاقِبْهُ، قال ابن عبّاس في تفسيرها: امنُنْ عليه بتوبةٍ يستحقُّ بها مغفرتك، وكان أبوه آزرَ قد وعده بالإيمان، فلمّا تبيَّن له أنَّه عدوٌّ للّه تبرَّأ منه، وكفَّ عنِ الدُّعاء، فالدَّعوةُ وفاءٌ بما وعدَهُ من قَبل[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ تقديمِ الدُّعاءِ بالمغفرة لأبيه على سؤالِهِ بعدمِ الخزي:

الابنُ البارُّ لا تُكمَلُ سعادتُهُ إلّا بسعادةِ أبيه وأمِّه

سَأل إبراهيمُ المَغفرةَ لأبيهِ قبْلَ سؤالِه ألّا يُخزيَهُ اللّهُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّه أرادَ ألّا يَلحَقَهُ يَومَئذٍ شَيءٌ يَنكسِرُ منه خاطِرُه، وقد اجتَهَدَ في العملِ المُبَلِّغِ لذلك، واستَعانَ باللّهَ على ذلك، وما بَقيَتْ له حَزازةٌ إلّا حَزازةُ كُفْرِ أبيه، فسَألَ المغفرةَ له؛ لأنَّه إذا جيءَ بأبيه مع الضّالّينَ؛ لَحِقَهُ انكِسارٌ، ولو كان قد استُجيبَ له بقيَّةُ دَعَواته، فكان هذا آخِرَ شَيءٍ تَخوَّفَ منه لَحاقَ مَهانةٍ نفْسيَّةٍ مِن جهةِ أصْلِه لا مِن جهةِ ذاتِه[4]، وفيه إشارةٌ كذلك إلى أنَّ الابنَ لا تكملُ سعادتُهُ إلّا بسعادةِ أبيه وأمِّه.

(1) الخليل، العين: (ضلَّ).
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 240.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 595، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 123، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1592.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 146.

معنى الواو في قولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بجامع أنَّ كليهما دعاءٌ من إبراهيم ﷺ، إلا أنَّ الأولى دعاءٌ لنفسه بالسَّعادة الأخرويَّة، والثّانية دعاءٌ لأبيه بالهدايةِ والتَّوفيقِ للإيمان، بما يحقِّقُ له كذلك تمامَ سعادته.

دعاءُ إبراهيمَ لأبيهِ بالهدايةِ بعد دعائه لنفسه بالسَّعادة الأُخرويَّةِ من تمامِ سعادته

غرضُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾:

فعل الأمر ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ خرج إلى المعنى المجازي، وهو الدُّعاء، أي: دعا إبراهيمُ بهداية اللّه لأبيه، أي: ياربِّ اهدِ أبي إلى الإيمان، واغفرْ له، فالإيمانُ لازمٌ متقدِّم على الدُّعاء بالمغفرة، "فهذا دعاءٌ لأبيه بالإسلام"، وبهذا الاعتبار يصحُّ الدُّعاءُ بالمغفرة للكفرة، يُقصد به الدُّعاء بالهداية، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ في غزوة أحد: «اللهم اغفر لقومي، فإنَّهم لا يعلمون»[1]، وفي روايةٍ: اهدِ قومي[2]، وهذا وفاءٌ بما وعده لأبيه من قَبْلُ، وقبل أنْ يتبيَّن أنَّه عدوٌّ للّه، فلمّا تبيَّن له ذلك؛ تبرَّأ منه، وهذا يدلُّ على ما كان يتَّصف به أبو الأنبياء ﷺ من الرَّحمة والحِلم، وهذا ما وصفه اللّهُ به في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: 114].

دعاءٌ من الأوّاه الحليم لأبيه بالإسلام يدلُّ على شدَّة رحمته وحِلمِهِ

علّةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ الدُّعاءَ بلفظِ المغفرةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾، دون غيرها من الألفاظ كـ(العفو والصفح)؛ لكونه أبلغَ لاقتضائه الدُّعاءَ بالهداية للإيمان، وقد تَقَرَّرَ في الأصول أنَّ دلالةَ اللفظ على المعنى تكون بالعبارةِ وبالإشارةِ وبالدَّلالةِ

الدُّعاءُ بالمغفرةِ يقتضي الدُّعاءَ بالهداية

(1) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حَدِيثِ الغارِ، رقم: (3477).

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 262، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/ 48.

وبالاقتضاءِ، فالدُّعاءُ بالمغفرة ثابتٌ بالعبارة، والدُّعاءُ بالتَّوفيق ثابتٌ بالاقتضاء"[1].

سِرُّ حذفِ متعلِّق قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾:

دعـاءُ ابـنٍ بـارٍّ بأبيه أفادَ طلبَ عـمومِ المغفرة لعمومِ الخطايا

حُذِفَ مفعول ﴿وَٱغۡفِرۡ﴾؛ إذ لم يقل عليه السلام: (واغفر لأبي ذنوبه) لإفادةِ العموم، أي: طلبَ له المغفرةَ العامَّة المطلقة، التي تشملُ ذنبَ الكفر، بأنْ يهديَه ويوفِّقه للإيمان، وتشملُ بقيَّة الذُّنوبِ الأخرى، من كبيرِ المعاصي وصغائرها، وهذا يُظهر مدى برِّ سيدنا إبراهيم بأبيه ورحمته به.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِأَبِيٓ﴾:

في اختـصـاص إبراهيـمَ لأبيـهِ بالدُّعاء حِرصٌ منـه عـلى أبيـهِ وبرٌّ به

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ هي لامُ الاختصاص، أي: خصَّ إبراهيمُ أباهُ بالدُّعاء بالمغفرة دون غيره، وفي هذا إشارةٌ إلى حرصِ إبراهيم على إيمان أبيه خاصَّة، وهذا من برِّ الابن بأبيه.

علَّةُ تخصيصِ الدُّعاء لأبيه:

عـدمُ دعـاءِ إبـراهيـمَ لأمِّـه بالمغفرة لكونها مؤمنةً

خَصَّ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السلام أباه بسُؤالِ المغفرةِ له دون أمِّه في قولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأنَّ أباهُ كان ضالًّا، وقد وعدهُ بدخولِ الإسلام، فخصَّه بدعوتِه للمَوعِدةِ الَّتي وعَدَها إيّاه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114]، بخلاف أمِّه فقد قيل: إنَّها كانت مُؤمِنةً[2]، وعدمُ اختصاصها بالدُّعاء يدلُّ على ذلك.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لِأَبِيٓ﴾:

توسُّلُ إبراهيمَ لـربِّـه بنسـبِ الأبوَّة إشارةٌ إلى رحمةِ إبراهيم وبرِّه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الأب في قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾، ولم يعبِّر باسمه (آزر)، فلم يقل: (واغفر لآزر)؛ إشارةً إلى تأدُّب إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه، ورحمته وبرِّه به؛ إذ دعا ربَّه بالمغفرة متوسِّلًا إليه بنَسَبِ الأُبوَّة بينهما؛ إذ لا تكتملُ سعادته إلّا بإيمان أبيه.

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 262.

(2) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 394.

نوعُ الإضافة وسِرُّها في ﴿لِأَبِيٓ﴾:

استشفاعُ الخليلِ لأبيه بنسبتِهِ إليه

إضافةُ (أب) إلى ياء المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ إضافةُ تعريفٍ للمضاف؛ بأنَّه أبو إبراهيمَ ﷺ؛ يقصدُ بإضافته إلى نفسه التَّأكيدَ على أدبِهِ مع مقامِ الأبوَّة، ورحمته به، وأنَّ الإسلام يحترمُ الأبوَّة ويقدِّرها رغمَ اختلافِ الدّين، وأنَّ حقوقها لا تسقطُ بالكفر، ويؤكِّد ذلك ما ورد في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]، كما يقصدُ الاستشفاعَ لأبيه بأنْ يهديه، ويغفر له بمكانته عند اللّه.

موقعُ جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾، وبلاغتها:

تعليلُ طلبِ إبراهيمَ المغفرة لأبيه إيماءٌ إلى مغفرةٍ خاصَّة

جاءت جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعليلًا لطلَبِ المغفرةِ لأبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه سأل له مَغفرةً خاصَّةً، وهي مغفرةُ أَكبَرِ الذُّنوبِ، أي: الإشراكِ باللّهِ، وهو سؤالٌ اقتضاهُ مَقامُ الخُلَّة، وقد كان أبوه حيًّا حينَئذٍ، ولعلَّ إبراهيمَ ﷺ عَلِمَ من حالِ أبيه أنَّه لا يُرجَى إيمانُه بما جاء به ابنُه، أو أنَّ اللّهَ أَوْحَى إليه بذلك، ويجوزُ أنَّه لم يَتقرَّرْ في شَرْعِ إبراهيمَ حينَئذٍ حِرمانُ المشركينَ من المغفرة، فيكونُ ذلك من معنى قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة: 114]، ويجوزُ أنْ يكونَ طلبُ الغُفرانِ له كِنايةً عن سَببِ الغُفرانِ، وهو هِدايتُه إلى الإيمانِ[1].

دلالةُ التَّوكيدِ في: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

الإخبارُ بثباتِ والدِ إبراهيم على الضَّلال تعليلٌ لدعاء إبراهيم له بالمغفرة

أُكِّدتْ جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بمؤكِّدات: بـ(إنَّ)، والجملةِ الاسميَّة، التي تدُلُّ على الثَّباتِ والدَّوام، واسم الفاعل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ إظهارًا لتحقُّق أبيه بالضَّلال وثباته عليه، بما يسوِّغ سببَ استعانةِ إبراهيمَ باللّه ليهديه، ويوفِّقه للإيمان، أي: ليؤكِّد تعليله بطلبِ الهداية له.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 147.

سِرُّ ذكرِ ﴿كَانَ﴾، ودلالةُ المُضيِّ فيها:

دعاءُ إبراهيمَ لأبيه بالهداية لتأكُّده من تحقُّق الكفر من أبيه

آثر البيانُ القرآنيُّ ذكرَ لفظ ﴿كَانَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لإفادة توكيد كفرِ والد إبراهيم وكونه من الضّالين؛ إذ يُمكن الاستغناء عنها، والمعنى: (إنَّه من الضالين)، والتعبيرُ عنها بالماضي؛ لإفادة تحقُّق الكفر منه، وثبوته عليه.

علَّةُ التَّعبيرِ بمادة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

ضلالُ والدِ إبراهيمَ كان كُفْرَ جهلٍ لا كُفْرَ عناد

اختار البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بوصف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ دون غيره كالظّالمين أو الفاسقين؛ لكون لفظِ الضَّلال أنسبَ لحالِ والد إبراهيم؛ إذ معنى الضَّلال هو ضياعُ الشَّيءِ وذهابه في غيرِ حقِّه[1]، وهو ضدُّ الهدى، والعدولُ عن الحقِّ عَمدًا كانَ أَو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أَو كثيرًا[2]، دلَّ على أنَّ ضلالَ والدِ إبراهيم كان ذهابًا عن الصَّواب إلى طريقِ الهلاك، وأنَّه كان كافرًا كُفْرَ جهلٍ، لا كفرَ عنادٍ[3].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

التَّبعيضُ دلالةٌ على كَثرة الضّالّين في مختلفِ الأزمان أو الأقطار

يفيدُ حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ معنى التَّبعيضِ، ومقصودُ إبراهيم عليه السلام أنَّ أباه واحدٌ من الضّالين الكثيرين عن الحقِّ في مختلفِ الأزمان أو الأقطار، وفي هذا استرحامٌ لأبيه، ومبالغةٌ منه في طلبِ الهداية له.

سِرُّ التَّعبيرِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

الضَّلالُ من الجماعةِ أفظعُ وأشنع

عدل النَّظمُ الحكيمُ عن الإفراد والتَّعبير بالفعل، فلم يقل: (إنَّه كان ضالًّا) أو(كان من الذين ضلّوا) إلى التَّعبير باسم الفاعل المجموع: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لكون ذلك أبلغَ في الدَّلالة على المقصود، فإنَّ قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أشدُّ من (كان ضالًّا)؛ لأنَّ (أل) في

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).

(2) الزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).

(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 240.

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ جنسيَّةٌ دلَّت على العمومِ، أي: دلَّت على أنَّ أبا إبراهيم واحدٌ من الفئة الموصوفة بالضَّلال عن الحقِّ ومعدودٌ منها، أي: أثبتَ لأبيه الضَّلال بأنْ عدَّه من زمرةِ الضّالين، ثم أثبتَ له مزيدًا من الثُّبوتِ على الضَّلال، وتمكُّنه منه والمداومة عليه من خلال التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعل، التي تدلُّ على الدَّوام والثُّبوت والاستمرار، كما أنَّ صيغة الجمع في اسم الفاعل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ تدلُّ على كثرة الضّالين، وعلى فظاعة الضَّلال؛ لأنَّ الضَّلال من الجماعةِ لا كالضَّلال من الواحد، فهو أفظعُ وأشنع، والجمعُ كذلك مناسبٌ للسّياق الذي وردَ بصيغة الجمع: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83]، ﴿فِى ٱلْأَٰخِرِينَ﴾، ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وفيه مراعاةٌ للفاصلةِ الغالبةِ في آياتِ سورة الشُّعراء[1].

حذفُ متعلِّق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

في حذفِ المتعلِّقِ إفادةٌ لعموم ضلالِ أبي إبراهيم أو لإثباتِ الوصف له

حُذِفَ متعلِّقُ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ إذ التَّقدير: (إنَّه كان من الضّالين عن الهداية)، إمّا لإفادةِ العموم، ولو ذُكِرَ؛ لاقتُصِرَ على المذكور، والمراد أنَّه ضلَّ عن الإيمان، وضلَّ عن رحمة اللّه ومغفرته، وضلَّ عن جنَّة اللّه ورضوانه، وضلَّ عمّا شرعه اللّه لأمَّة إبراهيم من الأحكام، وإمّا أنَّ الوصف المشتقَّ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ صار لازمًا لأبي إبراهيم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المغفرة والعفو والصَّفح:

المغفرةُ سترٌ وتغطيةٌ للذَّنب، والعفوُ تركٌ ومحوٌ له، والصَّفحُ إعراضٌ عنه وإبداءُ صفحةٍ جديدة

المغفرةُ: سترٌ وتغطيةٌ للذَّنب؛ إذ المغفرةُ تدلُّ في أصلها على السَّترِ[2]، والمَغْفِرَةُ من اللّه: هو أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّه العذابُ[3]، وأمّا العفو؛ فهو تركٌ ومحوٌ للذَّنبِ فضلًا ممَّن يعفو،

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).

وعَفْوُ اللّه تعالى عنْ خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم فضْلًا منه[1]، والعَفْوُ: المَحْوُ، مِن عَفَتِ الرّياحُ الأَثَرَ، أَي: دَرَسَتْه، ومَحَتْهُ[2]، وأمّا الصَّفحُ؛ فهو إعراضٌ عن الذَّنْبِ وتركُ التَّثريب، وإبداءُ صفحةٍ جميلةٍ، يُقال: صَفَحَ عنه، أي: أعرضَ عن ذنبِهِ؛ لِأنَّهُ إذا أَعْرَضَ عنه؛ فكأنَّه قد ولّاهُ صَفْحَتَهُ، أَيْ: عُرْضَهُ وجانِبَهُ[3]، وصَفَحْتُ عنه: أوليته منّي صَفْحَةً جميلةً معرضًا عن ذنبه، أو تجاوزتُ الصَّفْحَةَ التي أثبتُّ فيها ذنبه من الكتابِ إلى غيرها، والصَّفْحُ أبلغُ من العفو، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ[4]، كما أنَّ الغفرانَ يقْتَضي إسقاطَ العقابِ، وإِسْقاطُه هو إيجابُ الثَّواب، ولا يُسْتَعْملُ إلّا في اللّه، فلا يُقال: غفرَ زيدٌ لَكَ إلّا شاذًا، والعَفو يَقْتَضي إسْقاط اللَّوم والذَّمِّ، ولا يَقْتَضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُسْتَعْمل في العَبْد، وإذا عَفا عَنهُ؛ لم يجبْ عليه إثابته[5].

الأب والوالد:

الوالدُ من ولَد من غيرِ واسطة، والأبُ قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد

أصلُ الأب من (أبو)، ويدلُّ على التَّرْبِيَةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيءَ آبوهُ أَبْوًا؛ إِذا غَذَوْتُهُ، وبذلك سُمّيَ الأَبُ أَبًا[6]، ويُسمّى كلُّ مَن كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا[7]، وأمّا الوالد؛ فأصلُه من (ولد)، وهوَ دَليلُ النَّجْلِ والنَّسْلِ[8]، والفرق بين الوالد والأب: أنَّ الوالدَ لا يُطلق إلّا على من ولَد من غيرِ واسطة، والأبُ: قد يُطلق على الجدِّ البَعيد، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][9]، ولهذا لا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (عفو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(4) الرّاغب، المفردات: (صفح)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 421.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية: 235 - 236.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أبا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولد).
(9) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 567.

يُسمّى الإنسان والدًا إلّا إذا صار له ولدٌ، وليس هو مثل الأب؛ لأنَّهم يقولون في التَّكنيةِ: أبو فلانٍ؛ وإنْ لم يلدْ فلانًا، ولا يقولون في هذا: والدُ فلانٍ[1].

الضَّلال والفسق والكفر:

الضَّالاّلُ يتناسبُ مع وصفِ والد إبراهيم الذي كان كفرُهُ عن جهل

الضَّلالُ يدلُّ في أصله على ضياعِ الشَّيءِ وذهابه في غيرِ حقِّه[2]، وهو: ضدُّ الهدى والرَّشاد، وهو كُلُّ عُدولٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[3]، ويُستعمل بمعنى الخطأ[4]، وأمّا الفِسْقُ؛ فأصلُه الخُروجُ عَنِ الطّاعَةِ، من قولهم: فسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِها؛ إذا خَرَجَتْ[5]، والفِسْق: العِصْيانُ والتَّرْكُ لأَمرِ اللّه ﷻ والخُروجُ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[6]، وقيل: الخروجُ من طاعةِ اللّه بكبيرة[7]، وهو أعمُّ من الكفر، ويقع بالقليل من الذُّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال: الفاسِقُ لمن التزم حكمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فاسِقٌ؛ فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة[8]، وأمّا الكُفْرُ؛ فيدلُّ في أصله على السَّتْرِ والتَّغْطيَةِ، والكُفْرُ: ضِدُّ الإيمانِ، وسُمّيَ بذلك؛ لِأَنَّهُ تَغْطيَةُ الحَقِّ، والكُفْرُ: جُحودُ النِّعْمَةِ، وهوَ ضِدُّ الشُّكْرِ[9]، والكافرُ يُقال فيمن يجحدُ الوحدانيَّة، أو النُّبوَّة، أو الشَّريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال:

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 281 - 282.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(6) الجوهريّ، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 405.
(8) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).

كَفَرَ لمن أخلَّ بالشَّريعة، وتركَ ما لزمه من شكر اللّٰهِ عليه[1]، ومن هنا اختار في الآية لفظَ الضَّلال؛ لكونه أنسبَ؛ ليدلَّ على أنَّ ضلالَ والد إبراهيم كان ذهابًا عن الصَّواب إلى طريق الهلاك، وأنَّه كان كافرًا كُفْرَ جهلٍ، لا كُفْرَ عنادٍ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).

(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 240.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 87 - 89]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد دعواتِ إبراهيمَ الإيجابيَّة؛ نبَّهَ على المقصودِ الأسمى، وهو النَّجاة في الآخرة

بعد دعواتِ إبراهيمَ الخليلِ المخلصِ إلى ربِّه، والتي كانت كلُّها مطالبَ إيجابيَّة؛ اتَّجه بعد ذلك إلى مطالب سلبيَّة مانعة، فقال عليه السلام، كما ذكر القرآن: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[1]، فلَمّا نَبَّهَ على أنَّ المقصودَ الأسمى هو الآخرةُ؛ صَرَّحَ بالتَّزهيدِ في الدُّنيا بتحقيرِ أجَلِّ ما فيها، وهو المالُ والولد، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُخْزِنِي﴾: (خزي) أَصلُ الخِزْيِ ذلٌّ يُستَحى منه؛ ولذلكَ يُستَعمَل في الذُّلِّ والاستِحياء[3]، وقيل: أَصلُهُ: الإبعادُ، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللهُ، أَي: أَبعَدَهُ ومَقَتَهُ[4]، والخِزْيُ: الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَح، وتَحيَّر فضيحَةً[5]، والخِزْيُ أيضًا: السّوءُ[6] والهَوانُ[7]، والمقصود بالخزي في الآية: الفضيحةُ والذُّلُّ.

2) ﴿يُبْعَثُونَ﴾: أصلُ (بعث) هو إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهه[8]، والبَعْثُ: الإحياءُ مِنَ اللهِ للمَوْتى، وبَعَثَ اللهُ الخَلْقَ: نَشَرَهُم، والبَعْثُ: الرَّسولُ، وبَعَثَهُ على الشَّيْءِ: حَمَلَهُ على فِعْلِه، وبَعَثَ عليهمُ البلاءَ: أَحَلَّهُ، وانْبَعَثَ الشَّيءُ، وتَبَعَّثَ: انْدَفَع، وبَعَثَهُ مِنْ نَوْمِه: أَيْقَظَهُ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5370.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 371.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (خزي).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

وأَهَبَّهُ[1]، وقد غلَبَ البَعْثُ في اصطلاحِ القُرآنِ على إحضارِ النّاسِ إلى الحِسابِ بَعْدَ الموتِ، وهو المُراد بِهِ في الآيةِ[2].

3) ﴿أَتَى﴾: أصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيل المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، والإِتيان قد يُقالُ للمجيءِ بالذّات، وبالأَمرِ، والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأَعيان، وفي الأَعراض[3]، والإتيانُ إلى اللهِ الإحضارُ في مكانِ قضائه، وتقول: أَتَيْتُ الأمرَ من مَأْتاتِهِ، أي: من وجهه الَّذي يؤتى منه[4]، وأمّا المرادُ بالإتيان في الآية؛ فالمجيء والحضور.

4) ﴿سَلِيمٍ﴾: أصلُ (سلم) يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[5]، فالسِّلْمُ والسَّلامَةُ: التَّعرّي من الآفات الظّاهرة والباطنة، وقوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أي: مُتعرٍّ من الدَّغل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظّاهر، وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سَلامَةً، وسَلامًا، وسَلَّمَهُ اللهُ[6]، والمُرادُ بالسَّليم في الآية: الموصوفُ بقوَّةِ السَّلامةِ، أي: الخُلوصُ من عقائدِ الشِّركِ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلبُ إبراهيمَ من ربِّهِ ألّا يفضحَهُ يومَ القيامةِ حيث لا ينفعُ مالٌ ولا بنون

يُكمِلُ إبراهيمُ عليه السلام دعواتِهِ بقوله: ولا تَفْضَحْني يومَ القيامةِ حينَ تَبعَثُ عِبادَك لفصلِ القضاءِ، يومَ لا ينفعُ العَبدَ فيه مالُهُ ولا أبناؤُهُ، إلّا مَن لَقيَ اللّهَ يومَ القيامةِ، وقَلبُهُ خالِصٌ مِنَ الشِّرك والشَّكِّ، والعقائِدِ الباطِلة، والأوصافِ الذَّميمةِ والإراداتِ الفاسدةِ[8].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (أتي)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 43.
(4) الجوهريّ، الصحاح: (أتي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(6) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سلم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 150.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 595، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 114، 115، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 149.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

دعـاءُ إبراهيمَ بالهدايةِ لأبيه لخوفِهِ من الخزيِ يومَ القيامة

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]، والجامعُ بينهما: أنَّ هدايةَ اللّهِ لوالدِ إبراهيم يومَ يُبعثُ النّاسُ كافَّةً سببٌ لعدم وقوعِ إبراهيم عليه السلام في الهوان، أو أنْ يكون الجامعُ بينهما: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عائدٌ على الضّالين، أي: إنَّ الكلام فيهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، فيكون عطفًا على (واغفر لأبي) ومن تتمَّته، فإنَّ المَعْنَى: ولا تخزني يوم يُبعَثُ الضّالون، والحالُ أنَّ أبي منهم[2].

غرضُ الطلب في قولِه: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

نهيُ تَعطُّفٍ والتماسٍ يدلُّ على كمالِ الأدبِ من الخليلِ عليه السلام

جاءت جملة: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ بطريقة الإنشاء، وقد خرجَ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنًى مجازي، وهو الدُّعاء والابتهال من قِبلِ إبراهيمَ الخليل متعطِّفًا وملتمسًا من اللّه ألّا يخزيَهُ يوم الحساب، وكيف يُتصوَّر أنْ يخزيه اللّهُ تعالى، وهو رسوله؟ واللّه يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النَّحل: 27]، أي: ما كان نصيب الكفار فقط، فكيف يخافهُ المعصوم؟ والجواب: أنَّ هذا الدُّعاءَ من إبراهيم إنَّما هو لفرطِ إحساسه عليه السلام بحقِّ اللّه تعالى حتى يظنَّ في نفسه القصورَ، ومعه الخزي، فإنَّ دقَّةَ الإحساس تجعله يستصغرُ حسناتِهِ في جنبِ اللّه تعالى العزيز الحكيم، وكلَّما قربَ الإنسانُ من اللّه تعالى؛ أحسَّ بقصوره، ولا يحسُّ بعظمةِ ما فعل، ويحسبُ أنَّه من المقصِّرين، لا من المقرَّبين الصادقين[3]، فكما أنَّ حسناتِ الأبرارِ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 264.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5371.

سيِّئاتُ المقرَّبين، فكذا درجاتُ الأبرارِ دركاتُ المقرَّبين[1]، وهذا من كمالِ مقامه عليه السلام وأدبِهِ مع اللّه سبحانه.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

دعاءُ إبراهيمَ عليه السلام بنفي الخزيِ عنه يومَ القيامة هو دعاءٌ جامعٌ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الخزي، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، دون غيره من الألفاظِ كـ (الهوان أو الفضيحة أو الخذلان أو الذل)؛ لاتِّساع دلالة الخزي ومناسبته للسِّياق؛ إذ أصلُ الخِزي ذلٌّ يُستحى منه، وقيل: أصلُه الإبعاد، فقولهم: أخزاه اللّهُ، أي: أَبْعَدَهُ، ومَقَتَهُ، وقولهم: خَزِيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ، وذلك أَنَّهُ إذا فعل ذلك، واسْتَحْيا؛ تَباعَدَ، ونَأَى[2]، وقيل: أصلُهُ من قولهم: خزيَ الرَّجلُ: لحقه انكسارٌ إمّا من نفسه أو من غيره[3]، ومن معاني الخِزْي أيضًا: السّوءُ، والهوانُ، والذُّلُّ، والفضيحةُ، والقهر، وقد يكون بمعنى: الهَلاكِ والوُقوعِ في بَلِيَّةٍ[4]، وهذه المعاني كلُّها تتناسبُ مع السِّياق الذي يظهرُ فيه أنَّ المقصودَ بدعاء إبراهيم بعدم الخزي يوم القيامة ألّا يلحقَهُ أيُّ انكسارٍ أو افتضاحٍ بسببِ كفرِ أبيه، وكذلك دعاءُ إبراهيم عليه السلام بنفي الخزي عنه يوم القيامة هو دعاءٌ جامعٌ بنفيِ أيِّ ذلٍّ وأيِّ هوانٍ وقهر، وأيِّ بُعدٍ وهلاكٍ وعذابٍ ومقتٍ من اللّه يمكن أن يلحقَهُ يوم البعث.

دلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

دعاءٌ والتماسٌ من إبراهيم عليه السلام بألّا يخزيه اللهُ يومَ البعث

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعل المضارع المسبوق بحرف (لا) الدُّعائيَّة الجازمة[5]، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، وهو دعاءٌ والتماسٌ من إبراهيم عليه السلام بألّا يخزيَهُ اللّهُ يوم البعث، وقد أفاد

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (خزي).

(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).

(4) الزّمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزى).

(5) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 268.

التَّعبيرُ بالمضارع الدُّعاءَ باستمرارِ انتفاءِ الخزي عنه في المستقبل، أي: يومَ القيامة، وهذا يسلتزمُ استمرارَ الكرامة له يومئذٍ.

نوعُ الإضافةِ ودلالتها في قولِه: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾:

دعاءُ إبراهيمَ بعدمِ الخزي مقيَّدٌ ومختصٌّ بيومِ البعث، فهو المقصودُ الأسمى

أضافَ إبراهيمُ عليه السلام إلى دعائه - بألّا يخزيه اللّهُ - قيدَ ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، وهي إضافةٌ بيانيَّة بيَّنت أنَّ دعاءه عليه السلام بعدم الخزي مقيَّدٌ ومختصٌّ بيوم البعث لا الدُّنيا؛ إذ الدُّنيا مظهرُ اسم السّتّار[1]، وفي هذا التقييدِ إشارةٌ إلى مكانة الدّار الآخرةِ عند إبراهيمَ عليه السلام، فهي المقصودُ الأسمى، والنَّجاة فيها هي النَّجاة الحقُّ، وأنَّ الدُّنيا دارُ زوالٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

حدثٌ عظيمٌ مهيبٌ يصوِّرُ خروجَ النّاس من قبورهم مجتمعين يوم القيامة

عبَّرَ البيانُ القرآني بلفظ البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لمناسبته للسّياق والمقام؛ إذ البعثُ في معناه اللُّغوي الإثارة والاندفاع[2]، وبَعْثُ الموتى هو إخراجهم من قبورهم إلى يوم القيامة[3]، والبعثُ هو النُّشور[4]، فهذه المعاني للبعث مضافةٌ إلى ﴿يَوۡمَ﴾، ومجيئها بصيغة المضارع - الذي يصوِّر حالَ خروجِ النّاس من قبورهم مندفعين مجتمعين في إثارةٍ وخوف إلى أرض النُّشور يوم القيامة - ناسبَ أنْ يدعو إبراهيمُ بانتفاءِ الخزي عنه في هذا الموقف المهيبِ أمام الخلائقِ مجتمعةً، فيكون له الفوزُ والكرامةُ والنَّجاة فيه، وقد أتى الفعلُ بصيغة البناء لِما لم يُسمَّ فاعلُه ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ لتوجيه النَّظرِ إلى الحدثِ العظيم، وهو بعثُ الخلائقِ يوم القيامة، ولأنَّه معلومٌ للنّاس أنَّ هذا الفعل - وهو بعثُ النّاس - لا يملكُه إلّا هو سبحانه، ولا يصلحُ إلّا له، ولا يكون إلّا منه.

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الراغب، المفردات: (بعث).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

علَّةُ الإضمارِ في قوله: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾:

العدولُ عن مقتضى الظّاهر تهويلٌ ليوم البعث وتفظيعٌ له

في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ إضمارٌ، حيثُ لم يُذْكَرِ المَبعوثونَ قبْلُ، وكان مقتضى الظّاهر أنْ يُعبَّر بالاسم؛ لأنَّه لم يسبقْ له ذكرٌ، إلّا أنَّه عُدِل عنه إلى ضميره؛ لِما في عُموم البَعث مِنَ الشُّهرةِ الفاشيةِ المُغْنيةِ عن إظهار الاسم، ولأنَّ البعثَ عامٌّ، فيدلُّ عليه، والتقدير: (ولا تخزني يوم يُبعث النّاسُ كافَّةً)[1]، أي: تكون علّةُ الإضمار هي الإيجاز والاختصار، مع التَّهويلِ ليوم البعثِ والتفظيع له، وإذا كان الضَّميرُ يعود إلى الضّالين في الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، بحيث يُجعلُ قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ من جملة الاستغفارِ لأبيه، أي: ولا تخزني في يوم يُبعث الضّالّون، وأبي فيهم[2]، فتكون علَّةُ الإضمار كذلك الإيجاز والاختصار.

والراجحُ هو عودُ الضمير على العباد؛ لأنَّ البعثَ عامٌّ فيهم جميعًا، ويدخلُ فيهم الضّالون، وهولُ ذلك اليوم يشملُ جميعَ الناس، ولذلك يقول أبو السعود: "إنَّ تخصيصَ البعثِ بالضّالين يخلُّ بتهويلِ ذلك اليوم"[3].

علَّةُ تأخيرِ دعاءِ إبراهيمَ بعدمِ الخزي:

خوفُ إبراهيمَ من بقاءِ أبيه على الكفرِ جعله يدعو بعدمِ الخزي بسبب ذلك

دعاءُ إبراهيمَ عليه السلام بعدمِ الخزي بعد دعائِهِ بوراثة الجنَّةِ - في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ... ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، رغم أنَّه متى حصلت له وراثةُ الجنَّة؛ امتنعَ حصولُ الخزي - لأنَّ الدُّعاءَ بوراثة الجنَّة هو مقصودٌ أعظمُ وأهمُّ ولذلك قُدِّمَ، أو لمناسبة مجيء دعائِه بعدم الخزي بعد دعائه لأبيه ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فخوفُ إبراهيمَ عليه السلام من عدمِ هدايةِ أبيه جعله يدعو ألّا يلحقه أيُّ انكسارٍ أو افتضاحٍ يوم القيامة بسببِ كفرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 100.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 320، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 569.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 251.

أبيه، ولأنَّ الخزيَ في أحدِ معانيه مأخوذٌ من الخَزايَةِ، وهي الحياءُ من قُبحِ فعلٍ له أو لغيره[1].

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ﴾:

يوم البعث يومٌ مهولٌ لا ينفع فيه إلّا الالتجاءُ لله وحده

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ على القولِ بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ ﷺ، يَكونُ بدَلًا مِن ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾[2]؛ لأنَّ العاملَ في البدلِ هو العاملُ في المبدل منه، وقد جيءَ بالبدل؛ تَأكيدًا للتَّهويل، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِنَ الاستِثناءِ، وهو مِن أَعَمِّ المَفاعيلِ، أي: لا ينفعُ مالٌ، وإنْ كان مصروفًا في الدُّنيا إلى وجوهِ البِرِّ والخيراتِ، ولا بنون وإنْ كانوا صُلحاءَ مستأهلينَ للشَّفاعةِ أحدًا ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[3]، وكذلك قُصِدَ بالبدليَّة إظهارُ أنَّ الالتِجاءَ في ذلك اليَوم إلى اللّهِ وحْدَه، ولا عَوْنَ فيه بما اعتادَه النّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الدَّفعِ عن أنفُسِهم، وللبدليَّة فُصِلَ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ﴾ عمّا قبلَهُ بترك العاطف؛ لكمالِ الاتِّصال.

وقيل: إنَّ الآياتِ - الَّتي أوَّلُها ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - مُنقطِعةٌ عن كلامِ إبراهيمَ ﷺ، وهي انتقالٌ من البيان القرآني إلى وصفِ المعاد، وهو اليومُ الَّذي وقَفَ إبراهيمُ عِندَه في دُعائِه ألّا يُخزَى فيه، فيَكون ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ﴾ استِئنافًا؛ خبرًا لمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: (هو يومٌ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنونَ)[4]، ويَظهَرُ على هذا الوجهِ أنْ يَكونَ المُرادُ بـ﴿مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيمَ ﷺ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى وصَفَه بمثلِ هذا في آيةِ سورةِ (الصّافّات)، في قَولِه: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤﴾ [الصافات: 83 - 84][5] أي: شيعةِ نوحٍ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 997، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 100.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250.

(4) ومن المفسرين من أعربه بدلًا كابن عطية في المحرر الوجيز: 4/ 235، ولا يصح ذلك لاختلاف المتكلمين.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 147.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

المرادُ نفيُ الانتفاعِ بالمال والولد يومَ القيامة

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ نافيةٌ مهملة، نفتْ أيَّ نفعٍ للمال والولد يمكن أنْ ينتفعَ به أحدٌ يومَ القيامة إلّا من أتى اللّه بقلبٍ سليم، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ دون (ما)؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ تخلِّصُ المضارع للمستقبل، بينما (ما) تخلِّص المضارع للحال، والحديثُ في الآية عن يوم القيامة، وهذا يناسبه استعمالُ ﴿لَا﴾ دون (ما).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

استمرارُ انتفاءِ النَّفعِ بالمال والولد يوم القيامة تهويلٌ لذلك اليوم

عبَّرَ القرآنُ بلفظ النَّفع في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لاتِّساعِ دلالةِ لفظ النَّفع وشموله، فالنَّفعُ: ضدُّ الضُّرِّ[1]، والنَّفْعُ: الخَيْرُ، وهوَ ما يَتَوَصَّلُ بِهِ الإنْسانُ إلَى مَطْلوبِهِ[2]، ففي نفي النَّفعِ عن الإنسان يوم القيامة بالمال والولد مبالغةٌ في النَّفي لكلِّ خيرٍ يطلبه، أو يقصدُ به التوصُّل إلى مطلوبٍ يطلبه، والتَّعبيرُ بصيغة المضارع المسبوق بالنَّفي، في قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ انتفاء النَّفع ودوامه بالمال والولد يوم القيامة، لمن كان في قلبه ذرَّةٌ من كفرٍ أو نفاق، حسبما يقتضيه مقامُ التَّهويلِ والتَّفظيع[3].

سرُّ حذفِ المفعول في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

عدمُ نفعِ المال والولد يومَ البعث عامٌّ لكلِّ أحدٍ

حُذِفَ مَفعولُ يَنْفَعُ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للعلم به، كأنَّه قيل: لا ينفعُ مالٌ ولا بنون أحدًا[4]، أو لقَصدِ العُموم، كحَذفِهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، أي: يَدْعو كلَّ أحَدٍ، فتَحصَّلَ أنَّ التَّقديرَ: (يَومَ لا يَنفَعُ أحدًا شيءٌ يَأتي به للدَّفعِ عن نفسِهِ)[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (نفع).
(3) الهرريُّ، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 283.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 75.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 149.

سِرُّ الاقتِصارِ على ذكرِ المالِ والبَنينَ:

الاقتِصارُ على المالِ والبَنينَ في نَفْيِ النّافِعينَ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، جرَى على غالبِ أحوالِ القَبائلِ في دِفاعِ أحدٍ عن نفْسِه، بأنْ يُدافِعَ إمّا بفِدْيةٍ وإما بنَجْدةٍ (وهي النَّصرُ)، فالمالُ وسيلةُ الفِديةِ، والبَنونَ أحَقُّ مَن يَنصُرونَ أباهُم، بل إنَّهما "عزُّ هذه الحياةِ الدُّنيا وزينتها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ﴾ [الكهف: 46]، فالمالُ والبنون هما الزّينة التي أُعدَّت للفخر بها من أهل الدُّنيا"[1]، وهذا يقتضي أنَّ انتِفاءَ نَفْعِ ما عدا المالَ والبَنينَ مِن وسائلِ الدِّفاعِ حاصِلٌ بالأَوْلى، بحُكمِ دَلالةِ الاقتِضاءِ المُستنِدةِ إلى العُرْفِ، فالكلامُ مِن قَبيلِ الاكتِفاءِ[2]، فلا المالُ ولا البنون ولا الإخوة ولا الزَّوجة ولا الأقارب ولا السُّلطان الدنيويُّ ولا أيُّ شيءٍ ينفعُ.

انتفاءُ النَّفعِ بالمالِ والولدِ انتفاءٌ لما عداهما بالأولى

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله: (مال)، بجامع أنَّ كليهما، أي: المال والبنون لا ينفعُ يوم القيامة.

سِرُّ تكرارِ (لا):

كرَّر البيانُ القرآنيُّ (لا) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، فلم يقل: (يوم لا ينفع مال وبنون)؛ لإفادة توكيد النَّفي عن كلِّ واحدة على حدة، أي: لا ينفعُ مالٌ، ولا ينفعُ بنون، وفي هذا التَّأكيد مزيدُ تهويل ليوم القيامة.

تأكيدُ انتفاءِ النَّفعِ من المالِ والولدِ يومَ القيامةِ تهويلٌ لذلك اليوم

نكتةُ تقديمِ ﴿مَالٌ﴾ على ﴿بَنُونَ﴾:

قُدِّمَ المالُ على البنين في قوله تعالى: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لأنَّ الكل يملكُ المالَ، ولو لم يكن إلّا ملبسه، وليس لكلِّ واحد بنون، فقُدِّمَ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 148.

الأعمُّ على الأقلِّ، ولأنَّ الأبناءَ يأتون من الزَّواج، والزَّواج يحتاجُ إلى المال، فقُدِّم الأسبق، ولأنَّ الأموالَ مظنَّة الحملِ على الفساد أكثر، فلا تكاد تفارقُها الفتنةُ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7]، وإنَّ غرضَ عموم النّاس في جمع الأموال أنْ يتركوها لأبنائهم من بعدهم[1]، فقُدِّمَ الأنسبُ للسّياقِ، وهو انتفاءُ النَّفع، ويمكن أنْ يكونَ التَّقديمُ لمراعاة الإفرادِ، فيكون قد قُدِّم الأنسبُ للمقام الذي يأتي فيه الإنسانُ وحيدًا.

المالُ هو الأسبقُ والأعمُّ في الملكِ وفي الانتفاعِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَالٞ﴾ و﴿بَنُونَ﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿مَالٞ﴾ و﴿بَنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ الكثرةَ وعمومَ نفي النَّفع من كلِّ مالٍ وبنين، والمَعْنَى: (لا ينفعُ مالٌ من الأموال ولا ابنٌ من البنين إلّا مالٌ من هذا شأنه، وبنو من هذا شأنه، وهو من أتى اللّه بقلب سليم)[2]، وهذا العمومُ يشملُ جميعَ أنواعِ الأموال وأصنافِها، ويشملُ جميعَ الأبناء من الذكور أو الإناث، أو من أبناء الذُّكور أو أبناء الإناث، مهما نزلوا، أو من الرضاع.

لا ينفعُ أيُّ مالٍ وأيُّ ولدٍ في الآخرة مهما بَلَغَ

سرُّ التَّعبيرِ بصيغة الجمع ﴿بَنُونَ﴾:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الابن في قوله تعالى: ﴿مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾؛ ليشملَ جميعَ الأبناءِ والبنات من الأبناء، وإنْ بعدَتْ أنسابهم، وللدَّلالة على الكثرة، أي: مهما بلغَ أبناءُ الإنسانِ كثرةً لا ينفعونه في الآخرة كما كانوا ينفعونه في الدُّنيا، إلّا إذا أتى اللّهَ بقلبٍ سليم.

مهما بلغَ أبناءُ الإنسانِ كثرةً لا ينفعونه في الآخرة

نوعُ الاستثناءِ في الآية:

يصحُّ أنْ يكونَ الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ متَّصلًا، وفيه وجهان أحدُهما أنْ يكون بدلًا من المحذوف أو استثناء منه، فهو في محلِّ نصبٍ على الوجهين، والتَّقدير: (لا ينفعُ

الكافرُ لا ينفعهُ مالُه وإنْ تصدَّق به، ولا بنوه يغيثونه وإنْ كانوا صلحاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 324.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 265.

مالٌ ولا بنون أحدًا إلّا من أتى...)، ويجوز أيضًا أنْ يكون بدلًا من فاعل، فهو في محلِّ رفع[1]، وبذلك يكون الاستثناءُ من عموم نفي النَّفع بالمال والبنين، أي: إلّا من كان ذا مال وبنين، وأعطى المال حقَّهُ، وربّى البنينَ، وأحسنَ تربيتهم، فكانوا له عملًا صالحًا دائمًا، أي: من أتى بقلبٍ سليم فينفعه ماله الذي أنفقه في الخير، وولده الصالح بدعائه؛ لأنَّه إذا مات ابن آدم؛ انقطعَ عمله إلّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، وعلم يُنتفعُ به، وولدٍ صالحٍ يدعو له، فمع المال والولد ينفعُ الإنسان إذا أَتى اللّه بقلبٍ سليم من كلِّ المفاسد في الدُّنيا، ولَمّا سُبِقَ هذا الاستثناء بنفي ﴿إِلَّا﴾ أفادَ الحصرَ في معنى الآية، فالمنتفعُ الحقيقيُّ واحدٌ هو من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم، وقد حصلَ مِن نَسْجِ الكلام على منوال الاستثناء المتَّصل إيجازٌ بالحذف، مغنٍ عن ذكرِ كثيرٍ من الجمل[2].

من أتى الله بقلبٍ سليم تنفعه سلامةُ قلبه

ويجوزُ أنْ يكون الاستثناءُ منقطعًا بمعنى (لكن)؛ لأنَّ سلامةَ القلب ليست من جنسِ المال والبنين، ويكون المعنى: لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، لكن من أتى اللّه بقلبٍ سليم من مطامعِ المال وغطرسة البنين، تنفعه سلامةُ قلبِهِ[3]، أو لا يعتزُّ إلّا باللّه، وقد سلمَ قلبُهُ وكلُّ أحاسيسه له سبحانه[4].

وممّا يشيرُ إليه أسلوبُ الاستثناء هنا أنَّ ممّا أَكرَمَ اللّهُ تعالى به خليلَهُ، ونَبَّهَ على جلالةِ محَلِّه في الإخلاصِ أنْ حَكَى استِثناءَه هذا حكايةَ راضٍ بإصابتِه فيه في قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثمَّ جَعلهُ صِفةً له في قَولِه: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 83 - 84][5].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 5371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 3/ 321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 26.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 3/ 321.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾:

كلُّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليم يستحقُّ النجاةَ من الخزي

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِ الإنسان للنَّجاةِ في يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، وهو سلامةُ قلبه، وللدَّلالة على العموم، فكلُّ من أتى اللّٰه بقلبٍ سليم يستحقُّ النَّجاةَ من الخزي، وفيه كذلك لفتٌ للانتباه من خلالِ الإبهام؛ ليقعَ بعده التفصيلُ فيتمكَّن معناه من الذِّهن، وقد يكون المرادُ بـ﴿مَنۡ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيم ﷺ؛ لأنَّ اللّٰهَ تعالى وصفَهُ بمثل هذا في سورة الصافات في قوله: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [الصافات: 83]، أي: شيعةِ نوحٍ ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤﴾ [الصافات: 83 - 84].

علَّةُ التَّعبيرِ بمادة ﴿أَتَى﴾:

سلامةُ القلبِ من الشِّركِ والأخلاقِ الذَّميمة أمرٌ سهلُ التحقُّق

التَّعبيرُ بفعل أتى دون جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ طاعةَ اللّٰه وسلامةَ القلب من الشِّرك والأخلاق الذَّميمة أمرٌ سهلُ التَّحقُّق لا صعوبةَ فيه ولا مشقَّة، وهذا ترغيبٌ للسّامعين بقصَّة إبراهيم ودعائه والقارئينَ لكلامِ اللّٰه تعالى؛ وللإشارة كذلك إلى أنَّ دعواتِ إبراهيم ﷺ بما حوته من معانٍ كانت - لعلوِّ إيمانه وثقته بفضل اللّٰه وعطائه - تنسابُ منه بسهولةٍ ويُسر، وذلك لكون ﴿أَتَى﴾ لغةً تُستعمل في الأمور التي يُتوصَّل إليها بسهولة، أو تكون في سياقٍ تنسابُ فيه المعاني بسهولة، بخلاف المجيء فإنَّه يأتي لِما فيه صُعوبةٌ ومشقَّة، وحتى في نطق حروف الفعلين، فإنَّ ﴿أَتَى﴾ أخفُّ من (جاء)، كما أنَّ ﴿أَتَى﴾ تُستعملُ في الأزمنة الثَّلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، بخلاف (جاء) فإنَّها تأتي بالزمن الماضي فحسب[1]، ومن ثَمَّ فإنَّ استعمالَ لفظ ﴿أَتَى﴾ في الآية أنسبُ للمقام، وهو يوم القيامة الذي هو في المستقبل.

(1) الراغب، المفردات: (أتى)، والدوري، دقائق الفروق البيانية، ص: 229.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي في قوله: ﴿أَتَى ٱللَّهَ﴾:

لمّا كان القدومُ على الله واجبَ الوقوعِ؛ جُعلَ مستقبلُه كالماضي

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مع أنَّ الإتيانَ في يوم البعث لم يقعْ بعد، وسيكون في المستقبل؛ وذلك تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعه وتقرُّره، حتى كأنَّه قد وقع؛ إذ القيامةُ لَمّا كانتْ واجبةَ الوقوع؛ جعلَ اللّهُ مستقبلها كالماضي(1)، بما يشيرُ كذلك إلى قوَّة إيمان إبراهيم عليه السلام ويقينه بتحقُّق يوم البعثِ والحساب، ولو عُبِّر بصيغة المضارع؛ لَما كان فيه هذه المبالغة.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي بين آيتي الشعراء والصافات:

مِن أساليبِ القرآنِ وبلاغته مراعاةُ السّياقِ والمقامِ في اختيارِ ما يناسبه من ألفاظ

في آية الشُّعراء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ أتى، وفي آية الصافات ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾ [الصافات: 84] عبَّر بلفظ جاء، فالفرقُ بينهما بكلمة أتى وجاء، و﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84] تعني: المجيءَ بمشقَّة وصعوبة، وتعني: الوصول، و﴿أَتَى﴾ تعني: القدومَ بسهولة، وأنَّه لم يصل إلى المكان المرجوِّ بعدُ.

فقد عبَّرَ بـ﴿أَتَى﴾ في آية الشعراء، وهي في سياق دعاءِ إبراهيم ربَّهُ، وقد انساب الدعاءُ على لسان إبراهيم عليه السلام بسهولةٍ، وكذلك الآية تتحدَّث عن المستقبل، فهي تستثني من أتى بقلب سليم في يوم القيامة الَّذي لا ينفع فيه مالٌ ولابنون، وهذا اليوم لم يأتِ بعدُ، فناسبَ أن يُعبِّر بـ﴿أَتَى﴾؛ إذ تُستعمل في المستقبل، فلا زالَ في الأمرِ متَّسع، بينما عبَّر بـ﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84] في آية الصافات؛ لأنَّ الآيةَ إخبارٌ عن مجيءِ إبراهيمَ ربَّهُ بقلبٍ سليم من الشِّرك وغيره من الآفات، ومخلصٍ للّه في الدعوة إليه، ومستعدٍّ لبذل نفسه وكلِّ شيءٍ يملكه في سبيل رضا ربِّهِ عز وجل، وهو أمرٌ ليس بالسَّهل، وقد تحقَّق هذا الأمر من إبراهيم عليه السلام، فناسب أن يعبِّر بلفظ ﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 283.

فائدةُ الالتفاتِ في الآية:

لفتُ الانتباهِ إلى أنَّ الغيبَ المتعلِّق بقيامِ السَّاعة لا يعلمه إلّا الله

بدأ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ بدعاء إبراهيم عليه السلام اللّهَ عزوجل لنفسهِ بقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾، ثم تحوَّل النَّسَقُ من الخطاب إلى الغَيبة بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى﴾؛ لأنَّه أراد في سياق الحديث أن يقرِّرَ قاعدةً عامَّة: أنَّه لا ينفعُ المرء يوم القيامة إلّا إيمانُهُ وسلامة قلبه، وكذلك أراد لفتَ الانتباهِ إلى أنَّ الغيبَ المتعلِّق بقيام الساعة والبعث من القبور، ومحاسبة النّاس، وعدم انتفاعِهم إلّا بإيمانهِم وسلامة قلوبهم هو أمرٌ غيبيٌّ لا يعلمه إلّا اللّهُ؛ لفتًا لانتباهِ المخاطَبين وتحفيزًا لهم على الاهتمام.

سِرُّ حَملِ ﴿مَنۡ﴾ على الإفرادِ في ﴿أَتَى﴾:

كلٌّ آتيهِ يومَ القيامة فردًا ومسؤولٌ عن سلامةِ قلبه

﴿مَنۡ﴾ تحتمل معنى الإفرادِ بالنَّظر إلى لفظها، ومعنى الجمع بالنَّظر إلى معناها، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ حملها على الإفراد في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ لإرادةِ الجنس، ولكون الإتيانِ على اللّه يوم القيامة يكون فرادى، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 95]، وكلُّ فردٍ يحاسبُ عن نفسه، وهو مسؤولٌ عن سلامةِ قلبه بذاته، وسيحملُ وحدَهُ تبعةَ انحرافِهِ عن طريقِ الحقِّ، وسينظرُ اللّهُ إلى قلبِ كلِّ إنسانٍ على حِدة، ومن ثَمَّ سلامةُ القلبِ تنفعُ صاحبها لا أحدًا غيرَهُ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

الاسمُ الجليلُ الجامعُ لكلِّ صفاتِ الكمال أنسبُ مع ذكرِ القلوب

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، فلم يقلْ: (إلّا من أتى ربَّهُ)؛ لكون الاسم الجليل أنسبَ لِلمقامِ والسّياق من لفظ الربوبيَّة؛ إذ المقامُ هو يومُ القيامة، وهو يومٌ عظيم مهيبٌ، يناسبهُ ذكرُ الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابة في القلوب، وهو الاسم الَّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال والقدرة والعظمة، المطَّلع على القلوب وخفاياها.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾:

لا ينفعُ مالٌ ولا بنون يومَ القيامة إلّا حالَ من أتى بقلبٍ سليم

الجارُّ والمجرور ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ متعلِّقان بـ﴿أَتَى﴾ أو بمحذوف حال، أي: مصحوبًا بقلبٍ سليم[1]، والمعنى: (لا ينفعُ مالٌ ولا بنون في يوم القيامة في حالٍ من الأحوال إلّا حالَ من أتى بقلبٍ سليم، فإنَّه ينفعه ذلك).

علَّةُ التَّعبيرِ بالقلب في قوله: ﴿بِقَلۡبٖ﴾:

الجوارحُ تابعةٌ للقلب تسلَمُ بسلامته وتفسُدُ بفساده

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالقلب دون بقيَّةِ الجوارح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ من باب إضافة الكلِّ إلى الجزءِ؛ لكونه رئيسَهُ، فهو أشرفُ ما في الإنسان، ولأنَّ الجوارحَ تابعةٌ للقلبِ، فتسلمُ بسلامته، وتفسُد بفساده[2]، إذ الفسادُ بالجوارح لا يكون إلّا عن قصدٍ فاسدٍ بالقلب، فإنِ اجتمع مع ذاك جهلٌ؛ فقد عَدِمَ السَّلامةَ من وجهين[3]، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فسَدَتْ؛ فسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهيَ القَلْبُ»[4].

سرُّ وصف القلب بقوله: ﴿سَلِيمٖ﴾:

القلبُ الصَّحيحُ الخالصُ من الشِّركِ والشَّكِّ هو الذي ينفعُ صاحبه

قيَّد البيانُ القرآنيُّ القلبَ الذي ينفع صاحبَهُ بصفة السَّلامة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ للدَّلالة على فضيلةِ القَلبِ السَّليم؛ لأنَّه سببٌ لاستفادة الإنسانِ من مالِه وبَنيه، وهذا بناءً على أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ[5]، وسلامةُ القلبِ تعني: خلوصَهُ من الشَّكِّ والشِّرك، ومن الكفرِ والنِّفاق، وهو المأثورُ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن سيرين[6]،

(1) درويش، معاني القرآن وبيانه: 7/ 89.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 248.
(3) الجصاص، أحكام القرآن: 5/ 214.
(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الإيمان، الحديث رقم: (52).
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 159.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 101، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 19/ 319.

ولابن القيِّم في معنى القلب السَّليم كلامٌ قيِّمٌ، حيث يقول: "هو الذي سلِمَ من أنْ يكون لغير اللهِ فيه شركةٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديَّته لله تعالى: إرادةً ومحبَّةً وتوكُّلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلصَ عمله وأمره كلُّه لله تعالى"[1]، ولا يكونُ سَليمًا إذا كان حَقودًا حَسودًا، مُعجَبًا مُتكبِّرًا، وقد شرَطَ النبيُّ ﷺ في الإيمانِ أنْ يحِبَّ لأخيه ما يحِبُّ لنَفْسِه، واللهُ الموفِّقُ برَحمتِه[2].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ السَّلامة إلى القلب:

السَّـلامـةُ من الـكـفـرِ وصـفٌ لصاحبِهِ محلُّه القلب

إسنادُ السَّلامة إلى القلبِ في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ السّلامةَ من الكفرِ والشِّرك والنِّفاق وغيرِها من الآفات وصفٌ لصاحبها، لكنْ محلُّه القلبُ كالإيمان، ولذا أسندَ السَّلامة إليه[3].

دلالةُ صيغةِ فعيل في ﴿سَلِيمٖ﴾:

المـبـالـغـةُ في سلامةِ القلبِ حـتـى صـارت صفةً ثابتةً له

عبَّر النَّظمُ الحكيم عن صفة السَّلامة للقلب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ بصيغةِ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ لإفادةِ بلوغ الغاية في سلامة القلب، فالقلب السليمُ: هو القلبُ الذي قد صارتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً له، وأيضًا فإنَّه ضدُّ المريضِ والسَّقيم والعليلِ، أي: جاءَتْ على هذا المثالِ؛ لأنَّه للصِّفاتِ، كالطَّويلِ والقصيرِ والظَّريفِ[4]، وفي هذا كلِّه حُسنُ انتقاءِ اللَّفظ ودقَّةِ الوضع، ممّا زادَ المعنى قوَّةً، وجعل العبارةَ جزلةً خاليةً من المنافرة، ومختصرةً بما أضفى عليها إشراقًا ورونقًا.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾:

قلبٌ سَلِم من أيِّ مرضٍ يغيِّره عن الفطرة التي فطره اللهُ عليها

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَي ﴿بِقَلۡبٖ﴾ و﴿سَلِيمٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا

(1) ابن القيم، التّفسير القيم، ص: 394.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 459.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 264.
(4) ابن القيم، إغاثة اللهفان: 1/ 7.

﴿مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيم والتَّفخيم والتَّشريف لهذا القلب، ولصفة السَّلامة فيه، والتي بلغتِ الغاية من السَّلامة، فهو قلبٌ سَلِم من أيِّ مرضٍ يغيِّره عن الفطرةِ التي فطره اللّٰهُ عليها، وهي الإسلامُ الذي رأسه التَّوحيدُ، والاستقامةُ على فعل الخير، وحفظُ طريق السُّنَّة[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخزي والخذلان:

الخِزْيُ ذلٌّ وانكسارٌ وحياءٌ من الافتضاح، والخُذلان تركُ المعونة والنُّصرة ممَّن يُتوقَّع منه ذلك

الخِزيُ هو ذلٌّ مع افتضاحٍ[2]، وهو العيبُ التي تظهرُ فضيحته، ويلزمُ الاستحياء منه[3]، وقيل: أصلُه الإبعادُ، فقولهم: أخزاهُ اللّٰه، أي: أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ، وقولهم خَزيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ خَزايَةً، فهو خَزْيانٌ، وذلك أَنَّهُ إذا فعل ذلك، واسْتَحْيا؛ تَباعَدَ ونَأى[4]، وقيل: أصلهُ من قولهم: خزيَ الرَّجلُ: لحقهُ انكسارٌ إمّا من نفسه أو من غيره[5]، ومن معاني الخِزْي أيضًا: السّوءُ، والهوانُ، والفضيحةُ، والقهر، وقد يكون بمعنى الهَلاكِ والوُقوعِ في بَلِيَّةٍ[6]، وأمّا الخذلانُ؛ فهو تركُ النَّصرِ ممَّن يُتوقَّع منه ذلك[7]؛ إذ أصلُه يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ والقُعودِ عَنْهُ، فالخِذْلانُ: تَرْكُ المَعونَةِ والنُّصْرَةِ، وخِذْلانُ اللّٰه للعبد: ألّا يعصمَهُ من السّوءِ والشُّبَه فيقعَ فيهما، والخاذِلُ ضدُّ النّاصر[8]، ولهذا ناسبَ استعمال لفظِ الخزي لا الخذلان؛ إذ دعاءُ إبراهيم عليه السلام بعدم الخزي يَقصد منه ألّا يلحقه أيُّ انكسارِ أو

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 57.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 250.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 201.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خزى).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خذل).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خذل).

افتضاحٍ بسببِ كُفر أبيه، ولا يصحُّ استعمالُ لفظ الخذلان؛ إذ اللّهُ سبحانه لا يمكن أنْ يخذل رسلَهُ، أو أنْ يترك نصرتهم.

الإتيان والمجيء:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة، ويقال لما لـم يحصل بعدُ، فهو أنسبُ مع الإتيانِ على الله بقلبٍ سليم

الإتيانُ هو مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسيل المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ[1]، فالإتيانُ لِما فيه يُسرٌ، ويُعبَّر به عن سهولةِ الفعلِ وسرعته، وأمّا المجيءُ؛ فيُستعمل فيما ثقلَ وعظم شأنه، ولِما فيه صعوبةٌ ومشقَّة، والمجيءُ أعمُّ من الإتيان؛ لأنَّ الإتيانَ قد يُقال باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منه الحصول، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول[2]، أي: المجيءُ هو تمامُ الإتيان، فإنَّ الإتيانَ إذا اكتملَ، وبلغَ مقصده من مكان أو زمان أو شخص؛ أصبحَ مجيئًا، والإتيانُ يُقال للمجيء بالذاتِ وبالأمر وبالتَّدبير، ويُقال في الخير وفي الشرِّ، وفي الأعيان والأعراض[3]، والمجيءُ يُقال في الأعيانِ والمعاني، ولِما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[4]، ومن هنا ناسبَ التَّعبيرُ بالإتيان دون المجيء؛ إذ الإتيانُ على اللّه بقلبٍ سليم لم يحصلْ بعدُ.

القلب والفؤاد:

القلبُ خالصُ الشيءِ وشريفه وهو محلُّ الأفكار والمعتقدات

القلبُ من (قلب)، وأصلُه يدلُّ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جِهةٍ، ويدلُّ على خالصِ الشَّيءِ وشريفه (باطنُ الشيءِ ولُبُّه)[5]، ومنه قلبُ الإنسان، وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ التي في الصَّدر، فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصه[6]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلُّبه[7]، ويعبَّرُ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قلب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (القلب).

بالقلبِ عن العقلِ، وعن المعاني التي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك[1]، وأمّا الفؤادُ؛ فمِن (فَأَدَ)، وأصله يدلُّ على حُمّى وشِدَّةِ حرارةٍ، وسُمّيَ بذلك لحرارته[2]، والفُؤادُ يُقال له: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد[3]، وقيل: أصلُهُ من الحركةِ والتَّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنَّه ينبضُ، ويتحرَّك كثيرًا[4]، وقيل: الفؤادُ: هو وعاءُ القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حبَّته[5]، والقلبُ أخصُّ من الفؤادِ لحديث: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألين أفئدة»[6]، فوصفَ القلوبَ بالرِّقَّة والأفئدةَ باللين[7]، وقد ناسبَ هنا التَّعبيرُ بالقلب دون الفؤاد؛ لأنَّ الحديث عن سلامة القلب من الشِّرك والنِّفاق والآفات التي محلُّها القلبُ الذي هو محلُّ المعاني والأفكار والمعتقدات، وليس الكلام عن التوقُّد وحرارة القلب.

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 289.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).

(3) الرّاغب، المفردات: (فأد).

(4) الزّبيدي، تاج العروس: (فأد).

(5) الزّبيدي، تاج العروس: (فأد).

(6) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، رقم: (4388).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (القلب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾

[الشعراء: 90 - 91]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

انتقالٌ من دعواتِ إبراهيم عليه السلام إلى مشاهد من يوم البعث

لَمّا فرغ إبراهيمُ عليه السلام ممّا يخصُّه من الدُّعاء لنفسِه ولأبيه بالدَّعواتِ الصّالحة، وكان آخرُها دعاءَهُ بعدم الخزي يوم البعث، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلّا من أتى اللّٰه بقلبٍ سليم؛ انتقل إلى مشهدٍ آخر من مشاهد ذلك اليوم، وهو إزلافُ الجنَّة للمتقين، وبروزُ الجحيم للغاوين، فجمعَ في ذلك بين التَّرغيب في الطّاعة والتَّرهيب من المعصية[1]، وهذا من حسن الانتقال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾: أصلُ (زلف) يدلُّ على اندفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ، يُقالُ مِنْ ذلكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تقدَّمَ[2]، والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ[3]، وزَلَفَ إليه: دَنا منه، وأَزْلَفَ الشَّيْءَ: قَرَّبَهُ[4]، ومُزدَلفة: اسمٌ لمكان معروف، وخُصَّت بذلك لقربها من مِنًى بعد الإفاضة، أو لاجتماع النّاس فيها، والازدلافُ: الجمع[5]، ومعنى أُزلفت في الآية: قُرِّبت من المتَّقينَ، فيجدونَ الجَنَّةَ حاضرةً، فلا يتجشَّمونَ مشقَّةَ السَّوقِ إليها[6].

2) ﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أصلُ (برز) هو ظُهورُ الشَّيءِ وبُدوُّه، يُقالُ: بَرَزَ الشَّيءُ فهو بارزٌ، وكذلكَ انفرادُ الشَّيءِ مِنْ أمثالِه، نحو: تَبارُزِ

(1) المؤيد بالله، الطراز لأسرار البلاغة: 2/ 177.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (زلف).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (زلف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 151.

الفارسين، وذلكَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينفردُ عَنْ جماعته إلى صاحبه، والبَرازُ المُتَّسِعُ من الأرضِ؛ لأنَّهُ بادٍ ليس بغائطٍ ولا دَحْلٍ ولا هوَّةٍ(1)، وبَرَزَ فلانٌ يَبْرُزُ بالتَّخفيف، أي: ظهَر بعد الخفاء(2)، والتَّفعيل في قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ مُبالغةٌ في الظُّهور، أي: بُرِّزت واستعدَّتْ بجميع ما فيها من العذاب، وقد رأوها رؤيا العيان، فعلموا مآلهم ونهايتهم(3).

3) ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾: أصلُ (جحم) يدلُّ على الحَرارَةِ وشِدَّتِها، فالجاحِمُ المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ(4)، والجَحيمُ: اسمٌ من أسماء النّار، وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ؛ فهي جَحيمٌ(5)، والمُراد بها في الآية: النّارُ المُؤَجَّجَةُ، وتُطْلَقُ علمًا على جَهَنَّمَ دارِ العَذاب الآخِرَة(6).

4) ﴿لِلۡغَاوِينَ﴾: أصلُ (غوي) يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلام الأَمرِ(7)، والغَوايةُ: الضَّلالُ واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغَوٍ وغَويٌّ وغَيّانٌ: ضالٌّ، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل، وخلافُهُ: الرُّشد(8)، والغَيُّ: جهلٌ من اعتقادٍ فاسد(9)، والمقصودُ بالغاوين في الآية: هم الضّالّون الكافرون(10).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إزلافُ الجنَّةِ تعجيلُ المسرَّة للمؤمنين، وبروزُ الجحيم تعجيلُ الغمِّ للغاوين

يقولُ سبحانه مُبيِّنًا مَشهدًا من مَشاهدِ يوم القيامةِ: وأُدنيَتِ الجنَّةُ للَّذين اتَّقوا ربَّهم، وصانوا أنفسهم عن كلِّ ما لا يرضاه اللّه تعالى، بحيث تكون بمرأى العينِ منهم؛ إكرامًا لهم، واطمئنانًا

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(2) الخليل، العين: (برز).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5372.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(8) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(9) الرّاغب، المفردات: (غوي).
(10) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5372.

لنفوسهم، فيرون ما أُعِدَّ لهم من نعيم وحبورٍ، ولذَّة وسرور، لا نفادَ له ولا فناء[1]، وبالمقابل يقول الحقُّ تعالى: وأُظهِرَتِ النّارُ يومَ القيامةِ للذين ضَلّوا في الدُّنيا عن الحَقِّ، بحيث يرونها، ويبصرون أهوالها، ويتحسَّرون على أنَّهم المسوقون إليها، المحشورون فيها، ويسمعون زفراتها التي تبلغ منها القلوب الحناجر، ويوقنون بأنَّهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مصرفًا[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قولِه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ﴾:

الجمعُ بين مشاهدِ يوم القيامة وأحوالها ترغيبٌ وترهيب

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة ﴿لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾[3]؛ إذ كلتا الجملتين حديثٌ عن يوم القيامة، سواءٌ فيما يتعلَّق ببعض أحواله أم عن بعض مشاهدِه، ويرى ابن عاشور أنَّ الظاهرَ أنَّها واوُ الحالِ، والعاملُ فيها: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٞ﴾، أي: يومَ عدَم نَفْعِ المال والبنون لأيِّ أحدٍ إلّا مَن أتَى اللّهَ بقلبٍ سليم، والحالُ أنَّه قد أُزلِفَتِ الجنَّةُ للمُتَّقينَ، وفي تصويرِ هذه الحال ترغيبٌ وترهيبٌ للمخاطَبين المؤمنين والكافرين[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾:

الجنَّةُ تُقرَّبُ للمؤمنينَ تكريمًا لهم بألّا يتجشَّموا أيَّ عناءٍ ومشقَّة

عبَّر النَّظم الحكيم بالفعلِ ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ دونَ غيره من الأفعال، فلم يقل: قُرِّبَت وأُدنيَت؛ لأنَّه أنسبُ لمقام التَّكريم لعباد اللّه المتَّقين؛ فإنَّ أصلَ الإزلافِ في اللُّغة يدُلُّ على اندِفاعٍ وتقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[5] في سهولة، وفي هذا تكريمٌ لهم بألّا يتجشَّموا مشقَّةَ أنْ يأتوها، وإنَّما الجنَّةُ

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 166، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 19/ 151.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 597، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 115، 116، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 77، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1595.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 251.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 150.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).

هي التي تقترِبُ منهم في سهولةٍ ويُسرٍ؛ تعريفًا لأهل الموقف بأنَّها لهم خاصَّة؛ تعجيلًا لسرورهم وزيادةً في شرفهم[1]، وتكريمًا لهم وتحقيقًا لمسرَّتهم وتعجيلًا لها وفاءً لما عملوا لها، ورغبوا عن الدُّنيا وزخرفها[2]، ولذلك لم يأتِ الفعلُ مضعَّفًا، بخلاف الغاوين فإنَّهم يُساقون إلى النّار سوقًا، وفي هذا التَّعبيرِ كذلك إشارةٌ إلى أنَّ رحمةَ اللّه سبحانه تسبقُ غضبَهُ.

بُني الفعل ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُهُ؛ تركيزًا على الحدثِ وحصرِ الوعي فيه؛ اهتمامًا به وتفخيمًا لأمره، وهو حدثُ رفعِ الحُجب بين المتَّقين وبينها بما يكون في ذلك تقريبٌ لها، ولأنَّ الفاعل معلومٌ سبحانه، فالملكُ ملكه والحكمُ حكمه والأمرُ له.

سرُّ إفرادِ ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾:

جنس الجنَّة يُقرَّبُ للمتَّقين يوم القيامة

أفردَ البيانُ الإلهي ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ولم يقلْ: (وبرِّزت الجنات)؛ لإرادة الجنس، أي: جنس الجنَّة، ولحسنِ التَّقابل بين الجملتين ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ و﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾:

رابطة قدريّة بين الجنّة وأهلها

لامُ تعريف في ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذكريٌّ؛ لأنَّه قد سبقَ ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وذهنيٌّ؛ إذا لا جنَّةَ غيرها يومَ القيامة.

معنى اللامِ في قوله: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

إزلافُ الجنَّةِ خاصٌّ بالمتَّقين تكريمًا لهم وتعجيلًا لسرورهم

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ لام التَّعدية[3]، ومعناها: لامُ الاختصاص، أي: قُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوا عذابَ اللّهِ في الدُّنيا لا لغيرهم من أهل الغواية، بحيث "عرَفَ أهلُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 57.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 77.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 150.

الموقف أنَّها لهم خاصَّة؛ تعجيلًا لسرورهم وزيادةً في شرفهم"[1]، أو تكون لامُ العِلَّة، أيّ: أُزلفتِ الجنَّة لِأجلِ المُتَّقينَ.

دلالةُ التَّعريف في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

(أل) التَّعريفِ في قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ جنسيَّةٌ تفيد العموم، أي: تُقرَّبُ الجنَّة لكلِّ الذين عرفوا اللّه تعالى، واتَّقوه، وخافوا عذابه، ورجوا رحمته، وفي هذا ترغيبٌ بالتَّقوى والعمل الصّالح.

كلُّ الذين عرفوا اللّه تعالى واتَّقوهُ تُقرَّب لهم الجنَّة

سرُّ الإيثارِ بالوصف في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

وصفَ البيانُ الحكيم الذين أُزلفت لهم الجنَّةُ بالمتَّقين دون غيرها من الأوصاف؛ لأنَّ التَّقوى هي أعلى ثمراتِ الانتفاعِ بالموعظةِ والذِّكر، ومَنِ اتَّصفَ بها؛ التزمَ الحقَّ وما حادَ عنه، وكذلك لحثِّ المخاطَبين على الاتِّصاف به، وآثر وصف الذين اتَّقوا باسم الفاعلِ المجموع ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، فلم يقلْ: (للذين اتقوا)؛ لِما تفيدُهُ صيغةُ اسم الفاعل الدّالة على الثُّبوت من امتلاءِ قلوبهم بالتَّقوى، وثبوتها عندهم ولصوقها بهم، حتى صارَ وصفُ التَّقوى لَهم شِعارًا يُعرفون به، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة اسم الفاعل المجموع ينسجمُ، ويتناسبُ مع فواصل الآيات، التي تنتهي بالياء والنّون أو الواو والنّون، وهذا التَّناسبُ من أسرارِ الجمال في النَّظم القرآني.

التَّقوى أعلى ثمراتِ الانتفاعِ بالذِّكر والمتَّقون مَن أصبحت التَّقوى شعارًا لهم يُعرفون بها

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي في نظم الآية:

وردتْ هذه الآية: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بلفظها ومعناها ونظمها في سورة: (ق)، ولكن بزيادة ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾ [ق: 31]، في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾ [ق: 31] التي تفيدُ تأكيدَ قُربِ الجنَّة من المتَّقين؛ إذ الإزلافُ هو التَّقريب، وأكَّده بقوله: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾ [ق: 31]؛ وهذا التَّأكيدُ جاء تناسبًا مع سياق آية (ق) التي هي أشدُّ

شدَّةُ التَّرهيب للكافرين ناسبَت شدَّةَ التَّرغيبِ للمؤمنين

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 57.

رهبةً وتخويفًا من آية الشُّعراء، ففي آية (ق) سُبقت بتخويفٍ وتهديدٍ شديد في قوله: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق: 30]، بينما آيةُ الشُّعراء أُتبعتْ بقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، فناسبت شدَّةُ التَّرهيبِ للكافرين شدَّةَ التَّرغيبِ والتَّطمين للمؤمنين، كما أنَّ في اختلافِ الآيتين مناسبةً لفواصلِ الآيات في كلِّ سورة.

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾:

الجمعُ بين التَّرغيبِ والتَّرهيبِ عادةٌ قرآنيَّة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بجامع أنَّ كليهما من مشاهدِ يومِ القيامة، فبعد أن ذَكَرَ التَّرغيب للمؤمنين بإزلافِ الجنَّة لهم؛ عطفَ عليه التَّرهيبَ للكافرين ببروزِ الجَحيم لهم، وهذا من عادةِ القرآن أنْ يجمعَ بين التَّرغيب والتَّرهيب.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾:

تعجيلُ الغمِّ والحسرة للكافرين الذين نسوا في دنياهم هذا اليوم

معنى ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ ظهرتْ واضحةً، ورغم أنَّ البروزَ من لوازم الدُّنوِّ؛ لأنَّ الشَّيء ما لم يدنو؛ لم يظهر[2]، إلا أنَّه لم يعبِّر بالدُّنوِّ؛ تحقيرًا لهم، كما أنَّ التَّعبير بالبروز يدلُّ على انفرادِ الجحيم بعذابٍ ليس له مثيل، ممّا يزيد في أحزانهم ومساءتهم؛ لأنَّ من معاني البروز في اللُّغة انفرادَ الشَّيء[3]، ويدلُّ على رؤيةِ الغاوين لكلِّ ما فيها من أنواعِ العذاب؛ إذ البروزُ هو ظهورٌ كلّيٌّ قويٌّ[4]، فتُحصل لهم المساءة والأحزان، وتُعجَّل لهم الحسرة، ويوقنون بأنَّهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مصرفًا[5]، ويعرف أهلُ الموقف أنَّها لهؤلاء الغاوين الضّالين الهالكين[6].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 95.
(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 5/ 362.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (برز).
(5) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1349.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 57.

والتَّعبيرُ بصيغة التَّفعيل ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ مبالغةٌ في (أبرزت)؛ لأنَّ التَّضعيفَ فيه مبالغةٌ ليست في التَّعدية بالهمزة[1]، أي: مبالغةٌ في الظُّهور، مع ما توحي به هذه الصّيغةُ من مضاعفة الحسرةِ والألم عند رؤية النّار وانكشافها، أي: رأوا الجحيمَ رؤيا العيان، فعلموا مآلهم ونهايتهم بالعيان[2].

كما أنَّ بناءَ الفعل في ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعله؛ للتَّركيز على الحدثِ المهول، وحصرِ الوعي فيه، وهو بروزُ الجحيم لهم ورؤيتهم لها.

وفي هذا كلِّه تخويفٌ وتهديدٌ، وتعجيلٌ للغمِّ والحسرة للمخاطَبين من الكافرين، إذا نسوا في دنياهم هذا اليوم، كما جاء في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾ [الجاثية: 34][3].

سرُّ العدولِ في ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ و﴿وَبُرِّزَتِ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ إزلافِ الجنَّة للمؤمنين، وبروزِ النّار للغاوين مبالغةٌ في التَّطمينِ والتَّخويف

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ عن الفعلين: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾، ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بصيغةِ الماضي دون صيغة المضارع، فلم يقل: (وتُزلَف)(وتُبرز)، رغم أنَّ جملة ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ المعطوفةِ على جملة: ﴿لَا يَنفَعُ﴾[4]، ورغم أنَّها أحداثٌ مستقبليَّة لم تقع بعدُ؛ للدَّلالة على تحقُّق الوقوعِ وتقرُّره، فإنَّ الشَّيء الذي يكون لازمَ الحصول في المستقبل قد يُعبَّرُ عنه بالماضي، وهذه المبالغةُ تحقِّقُ زيادةَ البشرى والتَّطمين والتَّثبيت للمؤمنين، وزيادةَ التَّهديدِ والتَّخويفِ للغاوين، فكأنَّهم أمامَ مشهدٍ، تدنو فيه الجنَّة من موقف الأتقياءِ السُّعداء، ينظرون إليها، ويغتبطون بما ينتظرهم فيها من نعيم، وعندما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 151.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5372.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 77.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 95.

تدنو النّارُ من موقف الأشقياء ينظرون إليها، ويتحسَّرون على أنَّهم مسوقون إليها[1]، أي: إنَّ التَّعبيرَ بصيغة الماضي في الفعلين خروجٌ على خلافِ مقتضى الظّاهر، دعا إليه مقامُ التَّرغيب والتَّرهيب.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ على ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾:

رحمتهُ سبحانه سبقَتْ غضبَهُ

قُدِّمت ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ على ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾؛ دلالةً على سبْقِ رحمته سبحانه على غضبه[2]، وتقديمًا للتَّرغيبِ في الدَّعوةِ على التَّرهيب، ومناسبةً مع ما سبقها مباشرة من ذكرِ أصحاب القلب السَّليم، وهم المذكورون من أهل الجنَّة في الآية.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾:

النّارُ المتوقِّدةُ المتأجِّجةُ أشدُّ ظهورًا للعيان

استُعمِلت كلمةُ ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، دون غيرها كالنّار وجهنَّم؛ لكون هذا الاسم - الذي هو من أسماء النّار - أنسبَ لسياقِ التَّخويف، الذي هو مقصودُ الإبراز للنّار ليراها الغاوون، وأنسبَ للفظ البروز؛ لأنَّ أصلَ الجحيم من مادة (جحم) التي تدلُّ على شدَّة توقُّدِ النّار وتأجُّجها والتهابها وإضرامها[3]، فالجاحمُ هو المكان الشَّديد الحر[4]، "فالجحيمُ نارٌ على نار وجمرٌ على جمر"[5]، وبهذا يكون ظهورها أقوى وأوضح.

دلالةُ التَّعريف في قوله: ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾:

الجحيمُ معهود عند المخاطَبين بأنَّه من أسماء النّار التي أُعدّت للكافرين

(أل) التَّعريف في ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذهنيٌّ، فالجحيمُ اسمٌ من أسماء النّار، وهي التي وُعِدَ بها الكافرون، وخوِّفوا، وأنذروا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 95، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 283.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 266، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 250.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم)، وابن منظور، لسان العرب: (جحم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).

(5) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 278.

منها في آيات عديدة سبقتْ نزولَ آية الشُّعراء[1]، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢﴾ [التكوير: 12]، وقوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة: 94].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾:

وصفُ الكافرين بالغواية أنسبُ لبيانِ استحقاقِهم العذابَ الشَّديد

وصْفُ أهلِ الجحيم بالغواية في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أبلغُ من وصفهم بالضَّلال؛ لأنَّه أنسبُ لبيان استحقاقِهم للعذابِ الشَّديد البدنيِّ والقلبيِّ؛ لأنَّ الغوايةَ هي ضلالٌ مع عدم رشدٍ، فأصلُ (غوي) في اللُّغة يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ، وهي انهماكٌ في الباطلِ[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالغاوين أنسبُ للسّياق الذي يشتملُ على مقابلةٍ بين إزلاف الجنَّةِ للمتقين، وإظهار الجحيم للغاوين، فلمّا عبَّر بالمتَّقين، وهم أعلى درجة في الإيمان؛ أتبعَ ذلك بالتَّعبير بالغاوين، وهم أعلى درجة في الضَّلال.

معنى اللامِ في قوله: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾:

بروزُ الجحيم للغاوين خاصَّةً دون غيرهم

اللامُ في قوله: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ لامُ الاستحقاق والاختصاص، أي: بروزُ الجحيم وكشفها كان للغاوين خاصَّةً دون غيرهم؛ لأنَّهم استحقوها، أي: كُشِفَت لهم النّار الشَّديدةُ التَّأجُّجِ كشفًا عظيمًا دون غيرهم، بحيث عرفَ أهلُ الموقف أنَّها لهم[3].

دلالةُ التَّعريف في قوله: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾:

كلُّ مَن يتحقَّق فيه وصفُ الغواية تُبرزُ النّارُ له يوم القيامة

التَّعريفُ في ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للجنس، ودخولها على اسم الفاعل المجموع يدلُّ على العموم والاستغراق، أي: يندرجُ تحتَ هذا الحكم - وهو بروز النّار له - كلُّ ما ينطبقُ عليه وصفُ الغواية من كلِّ ضالٍّ وكافر ومشركٍ من الإنس والجن والشَّياطين.

(1) يرجِّح ابن عاشور أنَّ سورة الشُّعراءِ كلها مكيَّة، وعددها في ترتيب النُّزول السابعة والأربعون، يُنظر: التَّحرير والتَّنوير: 19/ 90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوى).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 57.

سرُّ مجيءِ التَّعبير بصيغة ﴿لِلۡغَاوِينَ﴾:

الغوايةُ صفةٌ ثابتة للكافرين تنبئُ عن استحقاقهم للجحيم

آثر البيانُ القرآنيُّ نظمَ وصف الذين عصوا أمرَ الله، فحادوا عن الحقِّ، فاستحقّوا أن تُبرزَ النّار لهم يوم القيامة؛ بصيغة اسم الفاعل المجموع بقوله: ﴿لِلۡغَاوِينَ﴾، فلم يقل: (للذين غووا)؛ لِما تفيده صيغةُ اسم الفاعل الدّالة على الثُّبوت والدَّوام من ثبوتِ صفة الغواية لهم، وقرارها فيهم، وتمكُّنها منهم ولصوقها بهم، بما يُنبِئ عن استحقاقهم للجحيم.

كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة اسم الفاعل المجموعِ يتناسبُ مع فواصل الآيات، التي تنتهي بالياء والنّون أو الواو والنّون.

المقابلةُ البديعةُ بين مشهدين للآخرة:

مقابلةٌ أصابتْ هدفَ المعنى في وضوحٍ وجلاءٍ، وحقَّقت التَّأثير النَّفسي على حدٍّ سواء

وقعت المقابلة في قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بين مشهدين من مشاهد الآخرة، هما مشهدُ الجنَّة، وهي تُقرَّب للمتقين[1]، "حيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، فيبتهجون بأنَّهم المحشورون إليها"[2]، ومشهدُ النّار، وهي تُبرَّز للغاوين "بحيث يرونها مع ما فيها من أنواعِ الأحوال الهائلة، ويوقنون بأنَّهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مصرفًا"[3]، فتقريبُ الجنَّة للمتَّقين يقابله تبريزُ النّار للغاوين، وهذه المقابلة بين الصورتين والمعاني المتضادَّة، تدعو الإنسان إلى التَّفكير في أيِّ السبيلين أقوم، وأيِّ الفريقين أهدى، مع ما فيها من جمع بين التَّرغيب والتَّرهيب؛ لأنَّ في ذكر الجنَّة وإزلافها للمتَّقين ترغيبًا ووعدًا، وفي ذكر النّار وتبريزها للغاوين ترهيبًا ووعيدًا، وهذه عادةُ القرآن الكريم في الجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب؛ ليكون حاصلًا على

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 283.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 251.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 251.

الكمال، ومراعاة المطابقة في كلِّ الأحوال[1]، وغير خافٍ أنَّ تصويرَ المعاني بذكرِ نقائضها فيه تثبيتٌ للمعنى وتأثيرٌ في النَّفس، وممّا يُظهر حُسنَ المقابلة، ويزيدها وضوحًا وتثبيتًا للمعنى، مجيءُ الفعلين ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ - ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بصيغة الماضي الذي يفيد تحقُّق الوقوع[2].

نكتةُ اخْتِلافِ فعلَي ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾:

الغايةُ من الإزلاف تكريمُ المؤمنين، والغايةُ من البروز تخويفُ الكافرين

لم يعبِّر البيانُ القرآنيُّ عن الحدثين المتعلِّقين بالمتَّقين والغاوين يوم القيامة بتعبيرٍ واحد، بل عبَّر بفعلين مختلفين في اللَّفظ والمعنى، وهما: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ حيثُ قال في حقِّ المتَّقين ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾، أي: قُرِّبَت، وفي حقِّ الغاوين ﴿وَبُرِّزَتِ﴾، أي: أُظْهِرَت[3]، رغم أنَّ النَّتيجة واحدةٌ، وهي رؤيةُ الجنَّة والنّار ودنوِّهما من أصحابهما؛ لأنَّ غرضَ كلِّ فعلٍ يختلفُ عن الآخر، فالتَّعبيرُ بالإزلاف يدلُّ على غاية التَّقريب، ويشيرُ إلى قربِ الدُّخولِ وتحقُّقه، بخلافِ الإبراز فإنَّه يعني الإراءة والظُّهورَ، ولذلك كان التَّعبيرُ به مطمعًا في النَّجاة، ولا نجاة[4]، فالجنَّةُ تُدنَى للمؤمنينَ تكريمًا لهم، أمّا الغاوون؛ فتَظْهَرُ لهم الجحيم، فيَرَوْنها من بعيدٍ، ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12] تخويفًا لهم؛ لأجْلِ أنْ يكونوا في خَوفٍ وذُعرٍ من قَبْلِ أنْ يَصِلوا إليها[5]، أي: فلمّا اختلفت العلَّةُ؛ اختلف اللَّفظ والمعنى.

بلاغةُ التَّقسيمِ المستوفي في الآيتين:

التَّقسيمُ سمةٌ من سماتِ أسلوبِ القرآن الحكيم

تجلَّت بلاغةُ التَّقسيم في الآيتين الكريمتين ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ في استيفاء قسمَي العباد

---

(1) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/ 177.

(2) فوزية المطيري، سورة الشّعراء دراسة بلاغية تحليلية، ص: 212.

(3) الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 21.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 20.

(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 161.

(المتقين والغاوين)، والدّارين اللَّتين سيدخلانها (الجنَّة والنّار)؛ لأنَّه لا يخلو العباد من اثنين: إمّا متَّقٍ، وإمّا غاوٍ، ولكلٍّ جزاؤُهُ: إمّا الجنَّةُ، وإمّا النّار، وهما داران لا ثالثَ لهما، فجرى الكلامُ على الصِّحَّة واستوفى المعنى، وأخذ حقَّه من الجودة وحُسنِ السَّلك والتَّرتيب والتَّقسيم، وهذه سمةٌ من سماتِ أسلوبِ القرآن العظيم.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في النَّظم:

عمومٌ وخصوصٌ لبروزِ النّار في مقامٍ مختلفٍ يوم القيامة

في سورة الشُّعراء قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، أي: خصَّ الغاوين بتبريزها لهم، وفي سورة النّازعات قال: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾ [النازعات: 36]، أي: أُظهِرَت النّارُ للنّاس جميعًا من المؤمنين والكافرين، لا حائل بين أحدٍ وبين رؤيتها، ولا منافاة بينهم؛ إذ كلُّ آية تتحدَّثُ عن مقامٍ مختلفٍ ناسبَ سياقها، ففي آية النّازعات يراها كلُّ النّاس؛ فيزداد سرورُ المُؤْمنينَ لخلاصهم عنها، ويتحسَّر الكافرون تحسُّرًا شديدًا، وهذا العموم في رؤيتها يتناسب مع السّياق الذي ورد في عموم النّاس في قوله: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾ [النازعات: 35]، وهذا الموقفُ غير الموقف الذي تبرزُ فيه للغاوين، وتظهر لهم بحَيْثُ تمسُّهم، فقد اقتربوا من دخولها، فلا منافاة بين العموم الخصوص[1]، ويؤكِّد ذلك قوله تعالى في التي بعدها: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾، وخاصَّةً أنَّ السّياق هنا سياق تقسيم بين صنفين من العباد، بما استدعى أنْ يذكر الغاوين مقابل المتَّقين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإزلاف والتَّقريب:

الإزلافُ قربٌ شديدٌ سلسٌ وسهلٌ يتناسبُ مع تكريمِ المتَّقين

أصلُ الإزلافِ يدلُّ على انْدِفاعٍ وتَقدُّمٍ في قُرْبٍ إِلَى شَيْءٍ، وأَزْلَفْته: قَرَّبْته، والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ: الدَّرَجَةُ والرُّتْبَةُ والمَنْزِلَةُ، وأَزْلَفْتُ الرَّجُلَ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 74.

إِلَى كَذا: أَدْنَيْتُهُ، والزُّلْفَى: التَّقْرِيبُ جدًّا[1]، وهو أيضًا التَّقريبُ السَّلسُ السَّهلُ[2]، وأمّا التَّقريبُ؛ فأصلهُ يدلُّ على خِلافِ البُعْدِ، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَقَرُّبُ: التَّدنّي والتَّواصل بحقٍّ أو قَرابةٍ[3]، وقيل: الأَصْلُ في القرب: أَنَّه الدُّنوُّ من المسافَة[4]، ويُقالُ: القُرْبُ في المَكانِ، والقُرْبَةُ في المَنْزِلَة، والقُرْبَى والقَرابَةُ في الرَّحِمِ[5]، إذًا: التَّقريبُ هو دنوٌّ واقتراب، الإزلافُ أخصُّ منه، فالإزلافُ هو القربُ الشَّديد السَّلس والسَّهل، ولهذا كان التَّعبيرُ بالإزلاف للجنَّة أنسبَ مع مقام التَّكريم للمتَّقين.

البروز والظُّهور والكشف:

البروزُ البروزُ القويُّ الكليُّ لجهنم بعد استتارها أشدُّ تخويفًا للغاوين

البروزُ هو ظُهورُ الشَّيءِ وبُدوُّهُ، وانْفِرادُ الشَّيْءِ مِنْ أَمثالِهِ، نَحْوُ: تَبارُزِ الفارِسَيْنِ[6]، وبرَزَتِ السَّفينةُ: بانَتْ، وظهرَتْ بعد خفاء، وبرَّز العملَ وغيرَه: أخرجَهُ وأَظهرَه وبَيَّنَهُ، والبارِزُ: الظّاهرُ ظهورًا كليًّا، والمعنى المحوريُّ للبروز هو: خلوصُ الشَّيء أو ظهوره ظهورًا قويًّا، أي: نفاذه من بين ما يكتنفه بجَهد وقوَّة[7]، وأمّا الظُّهور؛ فهو ضدُّ الخفاء والاستتار، ظَهَرَ الشَّيْءُ؛ إذا انْكَشَفَ، وظَهَرَ بِهِ وعليْه، غَلَبَه، وقَوِيَ عليه، والمعنى المحوري للظُّهور: بروز من أثناء أو باطن إلى سَطْح مع شدَّة وغلظ أو قوة كالظَّهر من الأرض[8]، وقيل: أصلُه من العلوِّ يقال: ظهر فوق البيت؛ إذا علاه[9]، والظُّهور: يكون بقصد وبِغير قصد، تَقول: استتر فلان، ثمَّ ظهر، ويدلُّ هَذا على قصدِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(2) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 497.
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (قرب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(7) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (برز).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(9) العسكريّ، الوجوه والنَّظائر، ص: 329، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 428.

للظُّهور، ويُقال: ظهر أَمرُ فلان، إن لم يقْصد[1]، وأمّا الكشفُ؛ فيَدُلُّ على سَرْوِ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ، كالثَّوْبِ يُسْرَى عَنِ البَدَنِ[2]، أي: أصلُ الكشف إزالةُ الغطاء ونحوه عن الشَّيء، ويُستعار بذلك في المعاني، فالكشفُ يقاربُ الكشط[3]، فالكَشْفُ: رفعُ شيء عمّا يواريه، ويغطيه، كرفعِ الغطاء عن الشَّيء[4]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ لفظِ البروزِ مع الجحيم التي يُقصدُ إظهارها للغاوين ظهورًا قويًّا كليًّا بعدما كانت مخفيَّةً مستترة عنهم، فيكون في ذلك زيادةُ تخويفٍ لهم.

الجحيم والسَّعير وجهنَّم:

النّارُ الشَّديدةُ التأجُّج والتوقُّد أكثرُ ظهورًا وأشدُّ تخويفًا

الجحيمُ: من (جحم) وهو شدَّة توقُّد النّار وإضرامها، وجَحَمتُ النّار: أضرمتها، وزدتُ في توقُّدها[5]، والجحيمُ: هي النّارُ الشَّديدة التَّأَجُّج والالتِهاب[6]، فالجحيمُ "نارٌ على نار وجمرٌ على جمر"[7]، وأمّا السَّعيرُ؛ فأصلهُ يدلُّ على اشْتِعالِ الشَّيْءِ واتِّقادِهِ وارْتِفاعِهِ، والسَّعيرُ: النّارُ الملتهبةُ الحرّاقة[8]، وأمّا جهنَّمُ؛ فتدلُّ على بُعْدِ القعرِ، يقال: بئرٌ جهنَّمُ: بعيدةُ القعر، واشتقاقُ جهنَّمَ من ذلك لبُعد قعرها[9]، ويدلُّ على بُعد قعرها قولُ النبيِّ ﷺ: «يهوي بها في جهنَّمَ سبعين خريفًا»[10]، وجهنَّمُ أكثرُ أسماءِ النّار ورودًا في القرآن، فقد وردَتْ سبعًا وسبعين مرَّةً، إذًا: الجحيمُ: هي النّار الشَّديدة التوقُّد والتَأَجُّج، والسَّعيرُ: هي النّار الملتهبةُ المشتعلةُ الحراقة، وجهنَّمُ: هي النّار البعيدة القعر، ومن هنا ناسبَ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كشف).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كشف).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جحم).
(6) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (جحم).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 278.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 278.
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جهنم).
(10) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب: الفتن، الحديث رقم: (3970).

استعمالُ اسم الجحيم - وهي النّارُ الشَّديدةُ التأجُّجِ والتَّوقُّد - مع لفظ البروزِ وسياق الشِّدَّة في التَّخويف.

الغواية والضَّلال:

الغواية ضلالٌ مع فسادٍ وجهلٍ وخيبة وانهماكٍ في الباطل، والضَّلالُ الانحرافُ عن طريق الحقِّ

الغَواية تدلُّ في أصل مادَّتها على خِلافِ الرُّشْدِ وإِظْلام الأَمرِ، وعلى فسادٍ في شَيْءٍ، والغَوايةُ: الانهماكُ في الباطل، والتَّغاوي: التَّجَمُّعُ والتَّعاوُن على الشَّرِّ[1]، والغاوي: الضّالُّ المنهك في ضلالهِ لا يردُّه شيءٌ، والغَيُّ جَهْلٌ مِن اعْتِقادٍ فاسِدٍ، وذلكَ لأنَّ الجَهْلَ قد يكونُ مِن كوْنِ الإنْسان غَيْرَ مُعْتَقِدٍ اعْتِقادًا لا صالِحًا ولا فاسِدًا[2]، وأمّا الضلالُ؛ فيدلُّ في أصله على ضياعِ الشَّيءِ وذهابه في غير حقِّهِ وهلاكه[3]، وهو: ضدُّ الهدى؛ إذ يُقال لِكُلِّ عُدولٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[4]، ويُستعمل بمعنى الخطأ[5]، والغوايةُ أخصُّ من الضَّلال، فالضَّلالُ ألّا يجدَ السّالك في مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ ألّا يكون له إلى المقصد طريقٌ، وأيضًا الضَّلالُ يُستعملُ في الطَّريق كما يُستعملُ في الدّين، فيقال: ضلَّ عن الطريق؛ إذا فارقه، والغيُّ لا يُستعمل إلّا في الدّين خاصَّة[6]، فكان استعمالُ لفظِ الغواية أنسبَ لمقام التَّرهيب والتَّخويف؛ لكون الغوايةِ أبلغَ؛ إذ هي ضلالٌ مع فسادٍ وجهلٍ وخيبةٍ وانهماكٍ في الباطل.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 394، والزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 292، 394.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ [الشعراء: 92 - 93]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعدَ ذِكرِ بروزِ النّارِ وانكشافِها للغاوين توبيخٌ لهم قبل الكبكبةِ فيها

لَمّا فرغَ من ذكرِ البعثِ يوم القيامة ومجازاةِ اللّٰه مَن آمن به، واتَّقاه بالجنَّة، ومن عصاه، وعبدَ غيره بالنّار؛ عادَ إلى سؤالِ المشركين ثانيًا - عند معاينة بروزِ النّار العظيمة للغاوين، وانكشافها لهم انكشافًا عظيمًا وقبل دخولهم النار - على جهةِ التَّوبيخ والاستهزاء والتَّبكيت والتَّنديم، وأنَّهم لا ينصرونهم في دفعِ السّوء عنهم، ولا ينتصرون لأنفسهم بحال، فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، وهذا من حُسن الانتقال[1].

بعدَ ذكرِ قصَّة إبراهيمَ أعقبَها بذكرِ حالِ من كفرَ بما جاء به

بعد أنْ ذكرَ القرآنُ من البيانِ في قصَّة إبراهيم، ممّا لم يُذكر في سورٍ أخرى إلّا بعض ما يتعلَّق بعبادة الأصنام؛ ذكر سبحانه بعضَ ما يكون يوم القيامة من أحوالِ مَن كفرَ بما جاء به، فقال اللّٰه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: أصلُ (عبد) يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ[3]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطءِ الأقدام له[4]، والعَبْدُ: الإنسانُ، يُقالُ: فُلانٌ عَبْدٌ للّٰه، أَيْ: مَملوكٌ لَهُ، ويُجْمَعُ على عَبيدٍ وعِبادٍ[5]، والاسْتِعْبادُ والإعْبادُ: اتِّخاذُ الشَّخصِ عَبْدًا ورَقيقًا[6]،

(1) المؤيّد بالله، الطراز لأسرار البلاغة: 2/ 177.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5372.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 7.
(6) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).

والعُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى[1]، والمقصودُ بالعِبادَةِ في الآية: فِعْلٌ يَدُلُّ على الخُضوعِ والتَّذلُّلِ للأصنام والأنداد.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآلهةُ المعبودةُ والعابدون لها في نار الجحيم

وقيل للغاوينَ توبيخًا لهم: أين مَعبوداتُكم التي كنتُم تعبُدونَها في الدُّنيا مِن دونِ اللّهِ، وتزعُمونَ أنَّها تنفعُكم، وتشفَعُ لكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم، ويمنعونكم من العذاب؟ وهل ينفعون أنفسهم بانتصارهم ودفعِ العذاب عنهم؟ لا يحصل كلا الأمرين، فإنَّهم وآلهتهم وقودُ النّار، وحصب جهنَّم، هم لها واردون[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾:

عذابٌ نفسيٌّ للكافرين جمعَ بين مشاهدةِ الجحيم وتوبيخهم بما يزيدهم ندمًا وحسرةً

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ عاطفةٌ[3]، والمعطوف عليه جملة ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ بجامع أنَّ كليهما من أحوالِ يوم القيامة، فالأولى حديثٌ عن معاينةِ الغاوين بروزَ النار العظيمة وانكشافها لهم انكشافًا عظيمًا، والثانية خطابهم بعد هذه المعاينة، وقبل دخولهم النار خطابًا توبيخيًّا، يُظهر عجزَ الأصنام التي عبدوها من دون اللّه، بما يزيد ندمهم وحسرتهم.

دلالةُ صيغةِ الفعلِ: ﴿وَقِيلَ﴾:

المشركون أحقرُ من أنْ يوجّهَ اللهُ إليهم خطابَهُ مباشرة

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول، في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، ولم يأتِ بالمبنيِّ للفاعل؛ لتعلُّق الغرضِ بالقول نفسه لا بمعرفة الفاعل، أي: القائل، أي: وقيل لهم هذا الكلام، ولإفادة العموم بحيث يصلحُ أنْ يكونَ القائلُ أيَّ أحدٍ؛

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (عبد).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 597، والسّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 559.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 55.

تحقيرًا لشأنهم[1]، وتوبيخًا لهم[2]؛ لأنَّ المشركين أحقرُ من أنْ يوجِّهَ اللّهُ خطابه إليهم مباشرة[3]، وخاصَّة أنَّ السّياقَ هو بيانُ سوءِ حالهم، فناسبَهُ بناءُ الفعل للمفعول؛ لأنَّهم لا يستحقّون التَّشريف.

سرُّ العدولِ في: ﴿وَقِيلَ﴾:

في تحقُّقِ وقوعِ القول للغاوين دلالــــةٌ على توبيخهم

عدل البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبير بصيغة المضارع إلى الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، فلم يقل: (ويُقال لهم)؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ القول توبيخًا لهم، أي: كأنَّه وقعَ حتى صحَّ أنْ يُخبرَ عنه أنَّه قد حصل، وهذا كثيرٌ في كلام اللّهِ عن أحداث السّاعة.

معنى اللام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

القولُ الذي بُلِّغ للغاوين يحمل لـهـم تبكيتًا وتوبيخًا

اللامُ في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ لامُ التَّبليغ، "وهي الجارَّةُ لاسمِ السّامع لقولٍ أو ما في معناه"[4]، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطَبِ بالقول، أي: بُلِّغ الغاوون هذا القول الذي يحملُ التَّبكيت والتَّوبيخ والتَّأنيب والتَّحسير لهم.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

لـفـتُ انـتـبـاهِ الـسـامـعـين إلى اختصاصِ هـذا التَّـوبيخ والـتَّـبـكـيـت بالغاوين دون غيرهم

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ اختصاصهم بالقول، أي: قيل لهم هذا القول التَّوبيخي دون غيرهم، كما أفادَ لفتَ انتباهِ السّامعين لقصَّتهم، والتَّشويق لمعرفة المؤخَّر، وهو القول المذكور.

معنى الاستفهامِ في الآية:

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ استفهامٌ عن تعيينِ مكانِ الأصنام إنْ لم تكن حاضرةً، أو عن عملها إنْ كانت حاضرةً في ذلك الموقف؛ تنزيلًا لعدم جدواها فيما كانوا يأملونه منها منزلةَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 57.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1349.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 151.
(4) السّيوطي، الإتقان: 2/ 266.

العدم؛ تهكُّمًا بهم وتوبيخًا على إشراكهم وتوقيفًا على هذا الخطأ[1]، وتقريعًا وتبكيتًا؛ إذ هو استفهامٌ لا يُتوقَّع له جوابٌ[2]، وهو كذلك استفهامٌ يفيدُ التَّحسير والتَّغميم؛ إذ "يجمعُ عليهم الغموم كلَّها والحسرات، فتُجعلُ النّارُ بمرأى منهم، فيُهلكون غمًّا في كلِّ لحظةٍ، ويوبَّخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم؟"[3].

الاستفهامُ عن مكانِ الأصنام أو عملها يوم الحساب تهكُّمٌ بالكافرين وتوبيخٌ لهم

وقد سُلِّط الاستفهامُ على مكانِ الأصنام دون الأصنام نفسها، والمرادُ نفيُ أنْ يكون لهم مكانٌ، ونفيُ المكان يستلزمُ نفيَ الكائن فيه، وهذه كنايةٌ عن عدم وجود الأصنام، فضلًا عن عدم وجودِ نفعها لمن كانوا عابديها في الدُّنيا[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

بيانُ عجزِ كلِّ المعبودات التي عبدوها واستخفافٌ بها وتحقيرٌ لها

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يقلْ: (أين معبوداتكم؟)؛ للإيذانِ بأنَّ معنى الصِّلة معروفٌ لدى المخاطَبين، فأغنى عن التَّصريح به اسمًا، كما أنَّ التعبيرَ بالاسم الموصول يفيدُ الدَّلالةَ على عموم المعبودات التي عبدوها من الأصنام والكواكب وغير ذلك، والمعنى: (أين كلُّ معبوداتِكم من دون اللّه؟) وفيه تحقيرٌ واستخفافٌ بهذه المعبودات العاجزة عن نصرتهم، بل عاجزة عن نصرة نفسها، وما يتضمنه الاسم الموصول من إبهامٍ يؤكِّد هذا الاستخفافَ، ولا سيَّما أنَّ ﴿مَا﴾ تُستعمل لغير العاقل.

علَّةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في: ﴿كُنتُمۡ﴾:

تهويلُ استمرارِ قومِ إبراهيم في عبادة من لا يستحقُّ ذلك زيادةُ تحسيرٍ لهم وتوجيع

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُنتُمۡ﴾ الذي هو جملة اسميَّةٌ تفيدُ الثَّباتَ والدَّوام في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾؛ تهويلًا لعبادتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 151.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 251.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 322.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 102.

مَن لا يستحقُّ العبادة؛ إذ إنَّهم رغمَ ثباتهم واستقرارهم ودوامهم على عبادتها زمنًا طويلًا، فهي لا تنفعهم، بل لا استطاعةَ لها على ذلك، وهذا التَّهويلُ بعدما أُزلفت الجنَّة للمتقين، وبُرِّزت الجحيم للكافرين الذين يخاطبهم إبراهيمُ، فيه زيادةُ تحسيرٍ وتوجيع لهم.

علَّةُ التَّعبيرِ في ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

العبادةُ لا تكون إلّا لمن يستحقُّها لا لأصنامٍ ثبتَ عجزُها رغمَ طول عبادتها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ دون غيرِه؛ للدَّلالة على كمالِ توبيخهم؛ إذ العبادةُ لا تكون إلّا لمن يستحقُّها بما يملكُ من القدرةِ المطلقة، وهذه معبوداتٌ لا تملكُ نصركم ودفْعَ العذاب عنكم، بل لا تملكُ دفعه عن نفسها، والتَّعبيرُ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استحقاقِهم لهذا التَّوبيخ ولهذا العذاب، فقد كانوا يعبدونها في الدُّنيا على سبيل التَّجديد والاستمرار[1]، وليصوِّرَ لهم قُبْحَ ما كانوا يفعلون من خضوعهم وذلِّهم لمنْ لا ينفعهم، ولا استطاعةَ له على أنْ ينفعهم؛ ليحملَ هذا التَّصويرُ المخاطَبين بالقرآن من الكافرين على النُّفورِ ممّا هم فيه من عبادةِ الأصنام.

نكتةُ حذفِ مفعولِ: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

تحقيرُ اللهِ لمعبودات المشركين وعدمِ الاعتدادِ بها زيادةٌ في توبيخهم

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ المفعولَ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ: (تعبدونه من دون اللّه) اختصارًا؛ إذ سبق الحديث عنها في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ [الشعراء: 70 - 71]، وللإشارة إلى تحقيرِ معبوداتهم وعدمِ الاعتدادِ بها بعدم التَّصريح بذكرها، بما يكون فيه زيادةُ توبيخٍ للمشركين.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

في تذكير الغاوين بحالهم مجاوزين اللهَ في عبادتهم مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخٍ لهم

الجار والمجرور ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ من واو تعبدون، والمعنى: حالة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 101.

كونكم - أيُّها الغاوون - مجاوزينَ اللّهَ في عبادتكم[1]، وفي تذكيرهم بحالهم مجاوزين اللّه في عبادتهم مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخٍ لهم.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالةُ التَّعبير في: ﴿دُونِ﴾:

زيادةُ تبكيتِ العابدين غيرَ اللهِ وتعنيفهم وتحقير شأنهم وشأنِ معبوداتهم

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَعۡبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حرفُ جرٍّ، يحتمل أنْ يكون للتَّأكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى: (غير)، والمعنى: (أين ما كنتم تعبدون أصنامًا غير اللّه؟) أو ابتدائيَّة؛ إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعَدِ، فهي إذًا مُستعارةٌ لمعنى المخالفة أو الخسَّة والحقارة، والمعنى: (تعبدون أصنامًا موصوفة بأنَّها مخالفةٌ لصفاتِ اللّه، أو خسيسةٌ حقيرة).

وقد عبَّر النَّظمُ الحكيم بلفظ الدّونيَّة في الآية، وأضافه إلى اسم الجلالة؛ تحقيرًا لمعبوداتِهم وزيادةَ تبكيتٍ لهم، وتعنيفٍ وتقريعٍ، حيث انصرفوا عن عبادةِ اللّهِ - الملك الذي لا كفءَ له؛ إذ هو خالقُهم ورازقهم والمنعم عليهم إلى عبادة المخلوقِ الأدنى خِسَّةً ورتبةً، ويزعمون أنَّ هذه المعبوداتِ الباطلةَ تشفعُ لهم وتقيهم شرَّ يوم الحساب[2].

سرُّ اصطفاءِ الاسم ﴿ٱللَّهِ﴾ وإظهاره:

الإعراضُ عن عبادةِ الملك الذي لا كفءَ له غايةُ الحمقِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ دون غيره، وأظهره، ولم يُضمره رغم أنَّه قد سبق ذكره ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، فلم يقلْ سبحانه: (تعبدون من دونه)؛ تربيةً للمهابةِ في النُّفوس، بذِكْر الاسم الجامع لكلِّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، فهو الملكُ الذي لا كفءَ له، وإظهارًا لقدرته تعالى وعجز معبوداتهم[3]، وخاصَّة أنَّ السّياقَ سياقُ تعظيم للّه وتحقيرٍ لمعبوداتهم، بما يتضمَّن تعريضًا بفظاعةِ صنيعهم وقبحِهم، وهو إعراضُهم عن عبادةِ اللّه المستحقِّ للعبادة، وعبادة أصنامٍ لا تملكُ أنْ تدفعَ عن نفسها العذابَ.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 95، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 269.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 58.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 58.

معنى الاستفهام في الآية:

زيادةُ التَّهكُّمِ بالمشركين وتوبيخهم على خطئهم؛ ليزدادوا غمًّا بعد غمٍّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ يفيد - إضافةً إلى زيادةِ التهكُّم والتَّوبيخ وتوقيف المشركين على خطئهم - الإنكارَ أن تَكونَ الأَصنامُ نُصراءَ لهم[1]، وفيه كذلك زيادةُ التَّحسير والتَّسفيه لهم، فقد علموا من الاستفهام الأوَّل أنَّ ما كانوا يعبدونه من الأصنام إنَّما هو وهمٌ كاذب، ثمَّ زيدوا هنا غمومًا بعد غموم، وحسراتٍ فوق حسرات، فلا آلهة لهم تنصرهم، فتزحزهم عن النّار، وتدخلهم الجنَّة، بل ولا هي ناصرة لأنفسها، ومن عجز عن نصرة نفسِه أو نفعها؛ كان بالنِّسبة لغيره أشدُّ عجزًا، فهم وآلهتهم وقود النار[2].

وإيثارُ ﴿هَلۡ﴾ دون الهمزة في الاستفهام، أي: لم يقل: (أينصرونكم أم ينتصرون)؛ للدَّلالة على أنَّ إنكاره عليهم كان شديدًا؛ إذ ﴿هَلۡ﴾ أشدُّ استفهامًا من الهمزة، وهي مفيدةٌ للتَّحقيق؛ لأنَّها بمعنى (قد) في الاستفهام، فهو استنكارٌ على ما يعلمونه محقّقًا من عجز الأصنام عن نصرتهم.

سرُّ تنزيلِ غيرِ العاقل منزلةَ العاقل:

أسلوبٌ قرآنيٌّ يوضِّحُ ضعفَ حجَّةِ المشركين، ويبرزُ التَّناقضَ والعبثيةَ في اعتقادهم

ضميرُ الجمعِ في قولهِ تعالى: ﴿يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ للآلهةِ الَّتي عبدها الكافرون من دونِ اللّٰه تعالى، وهي أصنامٌ غيرُ عاقلةٍ، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ قد نَزَّلها منزلةَ العاقل؛ لكون المشركين كانوا يعتقدون أنَّ هذه الأصنامَ تستطيعُ أنْ تنصرَهم، أو تدافعَ عنهم، فهم يعاملونها، وكأنَّها كائناتٌ عاقلةٌ قادرة على الفعل، وهذا من باب التَّهكُّم والسُّخرية والاستهزاء بعقول المشركين الذين يظنّون أنَّ الأصنام تملكُ قدرةً على النَّصر أو الانتقام، ليبرز التَّناقض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 151.

(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 102.

والعبثيَّة في اعتقادهم، وبهذا الأسلوب البلاغيِّ، يوضِّحُ القرآنُ الكريم ضعفَ حجَّةِ المشركين، ويبرزُ قوَّةَ التَّوحيد والإيمان باللّٰه الواحدِ القادر على كلِّ شيء.

دلالةُ صيغةِ المضارع في الآية:

الكفارُ أشدُّ حاجةً إلى من يدفعُ عنهم العذابَ في الحال والمستقبل

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المُضارِعِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ رغم أنَّه قد يُظَنُّ أنَّ الأنسبَ هو التَّعبيرُ بالماضي؛ لأنَّه المناسبُ لقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾، أي: وقيلَ لهم: هل نَصَروكُم؟ لأنَّه مستقبلٌ بالنسبةِ إلى القيلِ، كما أنَّه كذلكَ في الواقعِ[1]؛ لأنَّ هذا الكلامَ يُخاطَبُ به المشركون، وهم في أشدِّ الحاجةِ إلى من يدفعُ عنهم العذابَ حالًا ومستقبلًا[2]، ولِما في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ من زيادةِ التَّناسبِ، الذي بين قوله: ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾ و﴿يَنتَصِرُونَ﴾ حُسْنًا وتثبيتًا للمعنى، ممّا يكونُ له أثرٌ في زيادةِ التَّبكيتِ لهم، وكذلك فيه مراعاةُ فاصلةِ الآية ﴿يَنتَصِرُونَ﴾، ممّا يزيد من جماليَّة النَّص.

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾:

إضرابٌ يبطلُ أيَّ قدرةٍ للأصنام على الانتصار لنفسها أو لغيرها

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ للإضراب، فليست قائمة مقام (أم)، والمعنى فيها الإضرابُ عن أنْ ينصروكم، أو هم ينتصرون، بأنْ تحمي الأصنامُ نفسَها من عذابٍ واقعٍ أو متوقَّعٍ[3]، أي: "كيف يخلِّصونكم من عذاب النّار؟ بل كيف يقدرون على خلاصِ أنفسِهم منها؟"[4].

نكتةُ تقديم ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾ على ﴿يَنتَصِرُونَ﴾:

أصنامٌ لا تنتصرُ لنفسِها فضلًا عن أنْ تنصرَ غيرَها

في تقديم ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾ على ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ ترقٍّ ومُبالَغةٌ، أي: كيفَ يُخلِّصونَكم مِن عذابِ النّارِ؟ بل كيف يَقدِرونَ على خَلاصِ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 267.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 102.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5373.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 384.

أنفُسِهم منها؟ فوُضِع ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ - وهو مَن انتَصَرَ منه، أي: انتَقَمَ - مَوضِعَ الاستِخلاص؛ مُبالغةً وتَهكُّمًا[1]، كما أنَّ الخطابَ بالاستفهام في الآيات: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٩٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ موجَّهٌ للغاوين؛ لإقامة الحجَّة عليهم لا على أصنامِهم؛ ولذا قُدِّموا في الذِّكرِ في قوله: ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾ على آلهتهم في قوله: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾، أي: لأنفسِهم، والفاعلُ فيهما هو الآلهةُ.

دلالةُ المجرَّدِ والمزيد في (نَصَرَ):

المبالغةُ في إظهارِ عجزِ الأصنام عن نصرة الغاوين تزيدُ من حدَّة التَّوبيخ والتَّبكيت

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ استخدم البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المجرَّد ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾ من الفعل (نصر) التي تشيرُ إلى الفعل البسيط والمباشر للنُّصرة أو المساعدة، كما استخدم صيغةَ المزيد ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ من الفعل (انتصر) التي تشيرُ إلى التَّكلُّف وبذل الجهد لتحقيق النُّصرة أو الدِّفاع عن النَّفس، وفي الجمع بين الصيغتين مبالغةٌ في إظهارِ العجز لأصنامهم عن تقديم النَّصر بكافَّة أشكاله، ممّا يزيد من حدَّة التَّوبيخ والتَّبكيت، وفي استعمال الصيغتين أيضًا تنوُّعٌ في المعنى؛ إذ الجمع بين الصيغتين يثري المعنى، ويعطي أبعادًا متعدِّدة للسُّؤال، حيث يشملُ القدرة على تقديم النُّصرة للآخرين، وكذلك القدرة على الدِّفاع عن النَّفس، وفيه تناسبٌ صوتيٌّ وفنّي، ممّا يعزِّز من جماليَّة النصِّ القرآني، ويزيد من تأثيره على المستمع.

نكتةُ حذفِ متعلِّق الفعل ﴿يَنتَصِرُونَ﴾:

في الحذفِ اختصارٌ وتحقيرٌ للأصنام ومبالغةٌ في إظهارِ عجزهم

حَذَفَ النَّظمُ الحكيم متعلِّقَ الفعل في قوله: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ينتصرون لأنفسهم)؛ اختصارًا؛ لأنَّه مفهومٌ من السّياق؛

(1) الطيبي، حاشيته على الكشّاف: 11/ 384.

لأنَّه لمّا بيَّن القرآنُ عجزَ الأصنام عن دفْعِ عذاب اللّه عن غيرهم من العبدةِ في قوله: ﴿يَنصُرُونَكُمۡ﴾، عُلِمَ أنَّ متعلِّقَ ينتصرون هو أنفسهم، وفي الحذف كذلك تحقيرٌ لهم بعدم ذكر هذا المتعلِّق، ومبالغةٌ في إظهار عجزِهم، فكأنَّ أنفسَهم غيرُ موجودةٍ، ومراعاةٌ كذلك للفاصلة القرآنيَّة، مثل: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾، ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾، ﴿أَجۡمَعُونَ﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العبادة والدُّعاء:

العبادة أخصُّ من الدُّعاء، فهي إظهارُ الطّاعةِ والخضوعِ ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضال

العبادة: تدلُّ في أصلها على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[1]، ومعنى العبادةِ في اللغةِ الطاعةُ مع الخُضوع[2]، وأصلُ العُبوديَّةِ الخضوعُ والذُّلُّ، والعِبادة: الطاعةُ، والتَّعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ[3]، والعِبادَةُ أبلغُ منها، لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضال[4]، وأمّا الدُّعاءُ؛ فأصله هو أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[5]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشَّيءِ، أو محاولةُ ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوق إلى الأمير، ومنه الدُّعاءُ بمعنى التضرُّعِ إلى اللّهِ ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغْبَةُ إلى اللّه تعالى فيما عنْدَه من الخَيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤالِ، والدُّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به، فهي من الجذبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النِّداء استلفاتًا أو استحضارًا أو استنهاضًا، والدُّعاءُ: النِّداءُ والتَّسميةُ، يُقال: دعوته زيدًا ودعوته بزيدٍ؛ إذا سمَّيته به[6]، فالدُّعاءُ أعمُّ وأوسعُ دلالةً من العبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشملُ معنى العبادة وغيرها،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(3) الجوهريّ، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (عبد).

(4) الرّاغب، المفردات: (عبد).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

(6) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دعو).

كالاستغاثةِ والنِّداءِ والسُّؤالِ والاستعانةِ والتَّسميةِ، بخلافِ العبادةِ التي معناها إظهارُ الطّاعةِ والخضوعِ والتذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللهُ، ومن هنا ناسب استعمالُ العبادة مع الغاوين على نحو مخصوص؛ إذ كانوا يظهرون الطّاعة والخضوعَ والتذلُّلَ لأصنامهم، ويتركون المستحِقَّ للعبادة سبحانه.

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥﴾

[الشعراء: 94 - 95]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعدَ توبيخِ الغاوين لعبادتِهم أصنامًا عاجزةً؛ أعقبَهُ بوصف حالهم ومعبوداتهم في النّار

لَمّا فرغَ البيانُ القرآنيُّ من سؤاله المشركين عند معاينتهم الأهوالَ في يوم الجزاء عن معبوداتهم توبيخًا لهم واستهزاءً بهم، بقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾؛ أتبعَ ذلك بوصفِ حالِ المشركين مع هذه المعبوداتِ في النّار والعذاب الذي لا يفارقهم، فقال: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾: أصلُ (كبّ) يدلُّ على جمعٍ وتجَمُّعٍ، ويُقالُ لِما تَجمَّعَ مِنَ الرَّملِ: كُبابٌ، ومنه: كَبَبْتُ الشَّيءَ لِوَجهِهِ أَكُبُّهُ كبًّا[1]، والكَبْكَبَةُ: الرَّميُ في الهوَّة، وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾، أَي: دُهْوِروا، وجُمِعوا، ثُمَّ رُمِيَ بهم في هوَّةِ النّارِ[2]، وحقيقةُ ذلك في اللُّغةِ تَكريرُ الانكبابِ، كأنَّه إذا أُلقيَ؛ ينكبُّ مَرَّةً بعد مرَّةٍ، حَتَّى يستقرَّ فيها، وكَبْكَبَ الشَّيءَ: قَلَبَ بعضَهُ على بعضٍ[3]، وكبكبوا تدلُّ على تكريرِ الكَبِّ، وهو الإلقاءُ على الوجه مرَّةً بعد أُخرى[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ المشركين مع معبوداتهم ومع أتباعِ إبليس في عذاب النّار الذي لا يفارقهم

يخبرُ اللّهُ تعالى عن حالِ الغاوين ومعبوداتهم وجنودِ إبليس، فيقول: فطُرِح في جهنَّمَ المعبودونَ وعابِدوهم والقادةُ وأتباعهم على وجوههم إلقاءً مكررًا، مرَّةً بعْدَ أُخرى بعضهم على بعض حتَّى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبَّ).
(2) الخليل، العين: (كبَّ).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كبّ - كبب).
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 259.

يستقرّوا في قَعرِها، كما طُرِحَ في جهنَّمَ جَميعُ مَن كانوا أعوانًا وأتباعًا لإبليسَ في الدُّنيا مِن الإنسِ والجِنِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾:

في اقتران الإلقاءِ المهين في النّار بعجزِ أصنامِ زعمَ الغاوون ألوهيَّتها مبالغةٌ في عذابهم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ هنا للإفصاح؛ لأنَّها تُفصح عنْ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا كانوا لا ينصرون غيرهم ممَّن عبدوهم، ولا ينتصرون لأنفسهم، فإنَّهم كُبْكِبوا فيها هم والغاوون وجنودُ إبليس أجمعون[2]، أي: إنَّ هذا الإلقاءَ المُهينَ لهم على وجوههم، وتكفُّؤَهم وتساقطَهم بلا عناية ولا نظام، والمتكرِّر مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ مقارنٌ لعجز أصنام زعم الغاوون أنَّها آلهةٌ تنصرهم، أو تستشفعُ لهم، وفي هذا مزيدٌ من العذاب النَّفسي والتَّحسُّر والتَّبكيت.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ الكَبْكَبة:

زيادةُ إذلالٍ وشدَّةُ عذابٍ للغاوين ولمعبوداتهم ولأتباعِ إبليس

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ مادَّة الكَبْكَبة - في قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ دون غيرها كالطَّرح أو الإلقاء - لِما فيها من مناسبةٍ للمقام، وهو مقامُ زيادةِ الإذلالِ وشدَّة العقاب للغاوين ولمعبوداتهم[3]؛ إذ إنَّ الكَبْكَبةَ في معناها اللغوي تدلُّ على إسقاطِ الشَّيءِ على وجْهه وتدهورِه في هوَّةٍ، وانقلابِ بعضِه على بعضٍ، وتكرارِ هذا الانكباب[4]، ولِما فيها من مناسبةٍ للسّياق الَّذي جاء الجمعُ فيه معنًى ولفظًا: معنًى من خلال العطف بين الغاوين ومعبوداتهم وجنود إبليس، ولفظًا من خلال التَّعبير بلفظ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾؛ إذ إنَّ أصلَ مادة الكَبْكَبة تدلُّ على الجمع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 598، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 593.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5373.
(3) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/ 198.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كبّ).

والتَّجمُّع[1]، ولذا فُسِّرت بـ: جُمِعَ المعبودونَ وعابِدوهم في جهنَّمَ[2]، وطُرِحَ بعضُهم على بعضٍ[3].

دلالةُ صيغة (فُعْلِلَ):

في قــوَّةِ اللفظ قوَّةٌ في المعنى

استُعمِلت صيغة (فُعْلِلَ) في قوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾؛ لإفادة تكرير الكَبِّ، والمعنى على جهة المطابقة، أي: كُبّوا فيها كَبًّا بعدَ كَبٍّ، فإنَّ (كُبكِبوا) مُضاعَفُ (كُبّوا) بالتَّكرير، وتكريرُ اللَّفظِ مفيدٌ تكريرَ المعنى[4]، على جهة المطابقة، كأنَّه إذا ألقيَ في جهنَّم ينكبُّ مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يستقرَّ في قعرها[5]، وفي هذا دلالةٌ على طول زمان الفعل، بما يدلُّ على طولِ مدَّة عذابهم وتكراره، فهم يكبّون فيها كبًّا بعد كبٍّ[6]، وهذا من ائتلاف اللَّفظ مع المعنى، فقولُهُ: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ أبلغُ من (كُبّوا)؛ للإشارة إلى أنَّهم يُكبّون كبًّا عنيفًا فظيعًا[7]، بدون ترتيبٍ، وبدونِ نظام، كأنَّما يُحثَون حَثْيًا - والعياذُ باللّه - ويُلقَوْن[8]، بالإضافة إلى أنَّ في التَّعبير بهذه الصّيغة " تصويرًا صادقًا مؤثِّرًا لحالةِ هؤلاء الضّالين، وهم يتساقطون في جهنَّمَ، بلا رحمة، ولا عناية، ولا نظام، بل بعضُهم فوق بعضٍ، وقد تناثرتْ أشلاؤُهم"[9].

دلالةُ بناءِ الفعل لِلمفعول ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾:

عـدمُ التَّصريح بـالـفـاعـل من شـأنـه تـهـويـلُ مشهدِ الكبكبةِ وتفخيمُ حدثها

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾، ولم يأتِ بالمبني للفاعل؛ للتَّركيزِ على الحدثِ العظيم والفظيعِ والمخيف

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 367، والخليل، العين: (كبَّ)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبب)، والسّيوطي، الإتقان: 2/ 34.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 94، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 152.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 3/ 322.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 152.
(7) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 300.
(8) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 162.
(9) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 259.

وحصرِ الوعي فيه، وهو كبكبتُهم في النّار، وتهويله وتعظيمه، فإنَّ عدمَ التَّصريحِ بالفاعل من شأنه تهويلُ المشهدِ وتفخيمُ الحدث، لا سيَّما أنَّ الأمر يتعلَّقُ بالعذاب، وكذلك لإفادة العموم، بأنْ يشملَ كلَّ من أمره اللّهُ بقلبهم بعد سؤالِ التَّوبيخ الذي وُجِّهَ إليهم، والمعنى: "(قُلبوا، وصُرعوا، ورُموا قلبًا عظيمًا مكرَّرًا سريعًا) من كلِّ مَن أَمره اللّهُ بقلبِهم بعد هذا السُّؤال؛ إظهارًا لعجزهم بالفعل حتى عن الجواب قبل الجواب"[1]، والفاعلُ هو الملائكةُ الموكلةُ بتعذيبهم، إذ الغاوون أحقرُ من أنْ يعذِّبَهم اللّهُ بنفسه سبحانه.

فائدةُ كبِّ الأصنامِ، وهي لا تعقل:

مَذَلَّةُ الأصْنامِ وحضورُها مع عابديها في العذابِ أقوى شاهدٍ على بطلانِها وإهانةِ عابديها

أكبَّ اللّهُ معبودات الغاوين من الأصنام في النّار - رغم أنَّها لا تعقلُ ولا تَفْقَهُ، ولا تُحْسِنُ - حتى يُريَهُم رأيَ العين كيف تُرمى في النّار، ويَرونَ عجزها عن نصرةِ نفسها، ممّا فيه إهانةُ عابديها[2]، وزيادةُ تحسُّرِهم وندمهم، ولأنَّ رُؤْيَتَهم أصْنامَهم هو مَثارُ الخُصومَةِ بَيْنَهم؛ إذْ رَأى الأتْباعُ كَذِبَ مُضَلِّليهم مُعايَنَةً، ولا يَجِدُ المُضَلَّلونَ تَنَصُّلًا ولا تَفَصّيًا، فإنَّ مَذَلَّةَ الأصْنام وحُضورِها معهم، وهم في ذلك العذابِ أقوى شاهدٍ على أنَّها لا تَملِكُ شَيْئًا لهم ولا لِأنْفُسِها[3].

المرادُ بضمير الجمعِ ﴿هُمْ﴾ ونكتتُهُ:

اعتقادُ العقلِ والتَّدبيرِ في الأصنامِ مثارُ تهكُّمٍ وسخريةٍ بعقولِ عابديها

ضمير الجمع (الواو) في قوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ﴾ عائدٌ إلى ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، أي: لما يعبدون من دون اللّه، وهي الأصنام وما شابهها ممّا عُبد من الشَّياطين ونحوها[4]، بتنزيلها منزلةَ العقلاء[5]، وأُكِّد بالضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾، وهو كذلك للعقلاء؛ تهكُّمًا وسخريةً واستهزاءً بعقول عابديها الذين اعتقدوا فيها الفهمَ والنُّطق والعقل

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 58.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 153.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 58.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 169، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 19/ 152.

والتَّدبير، بما يُظهر عبثيَّةَ اعتقادهم، وعن السُّدّي أنَّ ضمير ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ ومؤكِّدَهُ لمشركي العرب، والغاوون: سائرُ المشركين[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه الضَّميرُ المنفصل ﴿هُمۡ﴾، بجامع اشتراك الأصنامِ وعابديها بالمصيرِ ذاتِهِ - وهو الكبكبةُ في نارِ جهنَّم - وبالعجزِ عن دفعِ العذاب، والمغايرةُ التي يقتضيها هذا العطفُ هي في ذاتِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وفي وحدة المصير والحالِ في النّار بين الأصنام وعابديها زيادةُ تسفيهٍ وعذابٍ للغاوين، وتعريضٌ بالمخاطَبين من المشركين.

في وحدةِ المصيرِ في النّار بين الأصنامِ وعابديها زيادةُ تسفيهٍ وعذابٍ

سرُّ إعادةِ ذكرِ أهلِ الضَّلالةِ:

أعاد البيانُ القرآنيُّ وصفَ الضّالّينَ - الذين بُرِّزت لهم الجحيمُ، وكُبكبوا في النّار مع أصنامِهم التي عبدوها والشَّياطين التي أضلَّتهم - بالغواية، ولم يقل: (والعابدون) أو (والضالّون)؛ للتَّأكيد على اتِّصافهم بهذا الوصف الذي جعلهم يستحقّون به هذا العذابَ الشَّديد، وهو الانهماكُ في الباطل، فالغاوي هو الضّالُّ المنهمك في ضلالهِ، لا يردُّه شيء[2]، وللإشارة إلى أنَّ الغوايةَ أصبحت وصفًا ملازمًا لهم.

الضّالُّ الشَّديدُ يستحقُّ العذابَ الشَّديدَ

دلالةُ التَّعريف في: ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾:

(أل) التَّعريفِ في ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذكريٌّ؛ لأنَّه قد سبقَ ذكرُه في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، وهم الموصوفونَ بالغواية من الإنس والجنِّ.

الغاوون معهودون عند أهلِ الموقفِ لبروزِ الجحيم لهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 101.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غوي).

في تأخيرِ العابدين عن معبوداتهم في الكبكبةِ زيادةُ غمِّهم وانقطاعُ رجائهم

نكتةُ التَّقديمِ في الآية:

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ ذِكرَ الآلهةِ الباطلةِ على عابديها، في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العابدينَ الغاوينَ يُؤَخَّرون عن معبوداتهم في الكَبْكَبةِ؛ "ليُشاهِدوا سوءَ حالِها، فيَزْدادوا غَمًّا إلى غَمِّهم"[(1)]، وينقطعَ رجاؤهم منها قبلَ دخول الجحيم[(2)].

اجتماعُ الأصنام وعابديها وجنودِ إبليس في العذاب لاجتماعِهم فيما يوجبه

معنى الواو في قوله: ﴿وَجُنُودُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ عاطفةٌ، والظاهر أنَّ المرادَ من جنود إبليسَ الشَّياطين، وأنَّه عطفٌ على ما قبله والعطف يقتضي المغايرة بالذات في الأغلب، فالشَّياطينُ غير الغاوين وغير الأصنام وما شابهها ممّا عُبِدَ من دون الله، أو أنَّ المراد بجنود إبليس متَّبعوه من عصاةِ الثَّقلين، وتكون المغايرةُ بين المشركين في زمن إبراهيم، وكلُّ من اتَّبع إبليسَ من الثَّقلين، ورجَّح ذلك الآلوسي؛ لِما في التَّعميم من مزيد تهويلٍ، ومن رجَّح الأوَّل؛ فلكون السّياقِ والسِّباقِ في بيانِ سوء حالِ المشركين في الجحيم؛ إذ هو قولُ إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين، فلا وجاهةَ لذكر حالِ قومٍ آخرين في هذا الحال، بل لا وجودَ لهم في القصَّة، وذكرُ الشياطين مع المشركين؛ لكونهم المسوِّلين لهم عبادةَ الأصنام[(3)]، وعلى الرَّأيين يشتركُ الجميعُ بالمصير ذاته، وهو الكبكبة في الجحيم حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه[(4)]، وبالعجزِ عن دفع العذاب.

كثرةُ إفسادِ أتباعِ إبليسَ وشدَّته وقوته جعلتهم جنودًا له

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَجُنُودُ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الجُنْدِ في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ دون غيرها من المفردات كـ (الطائفة والعصبة والحزب والجماعة)؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 252.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 101، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 78.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 101.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.

للإشارة إلى كثرتهم واجتماعهم على الشَّرِّ وشدَّةِ إفسادهم، وقوَّته وكثرتهِ؛ إذ إنَّهم لم يكونوا مجرَّدَ أتباعٍ لإبليسَ، بل مقوّين له وناصرينَ لإفساده، وناشرينَ لِما يريد، ومدافعينَ عنه، فهم كالجُنديِّ المُسَخَّرِ له، وهذا ما تدلُّ عليه المعاني اللُّغوية للجند دون بقيَّة المفردات الأخرى، فالجندُ هم العسكرُ الكثيرُ الشَّديدُ المعدُّ للقتالِ والنُّصرة[1]، أمّا المفرداتُ الأخرى؛ فمنها ما يدلُّ على جماعةٍ قليلة صفتها السَّفر[2]، أو بين أفرادها آصرةٌ شديدةٌ تربطهم[3]، أو أهواءٌ[4]، أو أغراض[5] تجمعهم، وهذا لا يتناسبُ مع حال جنود إبليس.

وقد عُبِّر عنه بجمعِ الكثرةِ؛ للدَّلالةِ على كثرةِ الشَّياطين وكثرةِ أتباع إبليسَ الَّذين سعَوا في إغواءِ النّاسِ، والإفسادِ بيْنَهم، وهم رغمَ كثرتهم لا يُعجزون اللّهَ، فهو يُكبكبهم في النّار أجمعين، وفي هذا ترهيبٌ وتخويفٌ للمشركين، وحثٌّ لهم على الاتّعاظ والإيمان باللّه ورسوله.

نوعُ الإضافةِ ودلالتها في: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾:

إضافةُ تعريفٍ لجند إبليس وتحقيرٍ لهم

إضافة ﴿وَجُنُودُ﴾ إلى ﴿إِبْلِيسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ إضافةُ تعريفٍ، وهم أشخاصٌ من الإنس، قد أُشربوا في أنفسهم شَرَّهُ، فكانوا له جندًا، ويصحُّ أنْ يكونَ من جنودِهِ المطامعُ والأهواءُ والشَّهواتُ والأوهام[6]، أو المرادُ بهم الشَّياطين، أو متَّبعوه من عصاةِ الثَّقلين[7]، ومع إضافةِ التَّعريف إضافةُ تحقيرٍ؛ إذ إبليسُ قد لُعِنَ، واستحقَّ غضبَ اللّه تعالى، وطُرِدَ من جنَّتِه سبحانه.

---

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جند).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طوف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عصب).
(4) الخليل، العين: (حزب).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (جمع).
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5373.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 101.

علّةُ اصطفاءِ التَّعبير بـ ﴿إِبْلِيسَ﴾:

إبليسُ أصلُ الجنِّ والشَّياطين وذكرُهُ أولى بالسّياقِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ إبليس في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ دون غيره، فلم يقل: وجنود الشَّيطان أو الجن؛ لأنَّ التَّعبيرَ بإبليسَ أولى بالسّياق؛ إذ إبليسُ هو أصلُ الجنِّ والشَّياطين[1]، وهم جنودُه، وهو الَّذي أيسَ من رحمة الله؛ لتعاظمه وتكبُّره على أمره، وهو السُّجودُ لآدم عليه السلام، فطالته اللَّعنات، أي: هو أصلُ كلِّ شرٍّ.

الموقعُ الإعرابيُّ لـ﴿أَجْمَعُونَ﴾، ودلالته:

تأكيدٌ بأنَّ النّار لا يتخلَّفُ عنها عاصٍ ولا تَذَرُه

﴿أَجْمَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدٌ لفظي للضَّميرِ ﴿هُمْ﴾، وما عُطِفَ عليه من الغاوين وجنود إبليس[2]، إنْ كان لفظُ ﴿وَجُنُودُ﴾ معطوفًا على ما قبله، فإنْ كان غيرَ معطوفٍ، وإنَّما كانَ مبتدأً خبرُه ما بعدَه، فإنَّ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدٌ لـ ﴿وَجُنُودُ﴾[3]، وفي التَّأكيدِ دلالةٌ على أنَّ "النّار لا يتخلَّف عنها عاصٍ، ولا تذرُه"[4]، وفي هذا مزيدُ تخويفٍ للمخاطَبين.

وإذا عُدَّ الجميعُ ممّا ذكر من المعبودات والغاوين وكلُّ متَّبعٍ لإبليس هم من جنودِ إبليس؛ فتكون دلالة ﴿أَجْمَعُونَ﴾ هي التَّعميمُ بعد التَّخصيص.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكبكبة والإلقاء والطَّرح:

الكبكبةُ جمعٌ وإلقاءٌ على الوجه مع تكرار الفعل، وهذا يتناسب مع مقامِ التَّهديد والتَّخويف والتَّعذيب

الكبكبةُ تدلُّ في أصلها على جَمع وتَجَمُّع، والكَبْكَبَةُ: أَنْ يَتَدَهْوَرَ الشَّيْءُ؛ إذا أُلْقيَ في هوَّةٍ حتَّى يَسْتَقِرَّ، وكَبْكَبَ الشَّيءَ: قَلَبَ بعضَه على بَعْضٍ، وفيه تَكْريرُ الانْكِبابِ، كأَنَّه إذا أُلْقيَ يَنْكَبُّ مَرَّةً بَعْدَ مرَّة[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلس).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 252.

(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 17/ 19.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5373.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كبّ).

والكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهه[1]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ دُهوِروا، وجُمِعوا، ثم رُمي بهم في هوَّة من النّار[2]، أي: "أُلقوا في الجحيم على وجوههم، مرَّةً بعد أخرى، إلى أنْ يستقرّوا في قعرها"[3]، وأمّا الإلقاءُ؛ فأصلُه يدلُّ على طرحِ شيءٍ، وأَلْقَيْتُه: نَبَذْتُه إِلْقاءً، والشَّيءُ الطَّريحُ لَقًى[4]، والمُلْقَى: هو ما طُرِحَ، وتُرِكَ لهَوانه[5]، وكلُّ إلقاءٍ؛ فهو طرحٌ للشَّيء حيث يُلْقَى، أي: يُرى، ويُؤخذ، ثم تُعورف في كلِّ طرْحٍ[6]، وأمّا الطَّرحُ؛ فأصلُهُ يدلُّ على نَبْذِ الشَّيءِ وإلقائه، ومن ذلك الطَّرَحُ: المكانُ البعيد[7]، وطَرَحَهُ: رمى به بعيدًا، والطِّرْحُ: الشَّيءُ المطروحُ لا حاجةَ لأَحدٍ فيه[8]، والطَّرْحُ: الإلقاءُ والإبعادُ، ويكون الإطراحُ غالبًا إلقاءَ الشَّيءِ غيرَ معتدٍّ به[9]، إذًا: تتميَّزُ الكبكبة بالجمع والإلقاء على الوجه في هوَّة حتى يستقرَّ مع تكرار هذا الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ، بينما يتميَّزُ الإلقاءُ بمعنى الطَّرحِ والنَّبذِ للشَّيء وتركه لهَوانِه، ويتميَّزُ الطرحُ بالنَّبذِ والإبعادِ وإلقاءِ الشَّيءِ غيرَ معتدٍّ به، فكان استعمالُ الكبكبةِ أبلغَ وأشدَّ تناسبًا مع مقام التَّهديد والتَّخويف والتَّبكيت والتَّعذيب للكافرين ومعبوداتهم وشياطينهم؛ إذ فيها جمعٌ لهم وإلقاءٌ على الوجه في هوَّةٍ حتى يستقرَّ، وفيها تكرار الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ.

الجنود والطّائفة والعصبة والأحزاب والجماعة:

الجنودُ: يدلُّ في أصلِه على التَّجَمُّعِ والنُّصْرَةِ[10]، والجُنْدُ:

الجنودُ هم العسكرُ المعدُّ للنُّصرة، ومع ذلك فجنودُ إبليسَ لا ينصرون الكافرين يوم القيامة

(1) الرّاغب، المفردات: (كبّ).
(2) الخليل، العين: (كبّ).
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 146.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (لقى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لقى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرح).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (طرح).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طرح).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).

العَسْكَرُ والأَعوان والأنصار، وكُلُّ صِنْفٍ على صِفَةٍ مِنَ الخَلْقِ جُنْدٌ على حِدَةٍ[1]، والجندُ: العسكرُ المعدُّ للقتال اعتبارًا بالجَنَدِ: وهي الأرضُ الغليظة الكثيرةُ الأحجار[2]، وأمّا الطّائِفَةُ؛ فمِن (طوف)، وأصله يدلُّ على دورانِ الشَّيءِ على الشَّيء، وأنْ يحفَّ به، فهي الجماعةُ التي من شأنها الطَّوفُ في البلاد للسَّفر، أو التي تطوف حولَ مذهبٍ عام، أي: التي تطيفُ بالواحد أو بالشَّيء، وقد تكون قليلة، قيل: إنَّ الواحدَ طائفةٌ، وقيل: أربعةٌ فما فوقها، وقيل: هي الثَّلاثة، وقيل: غير ذلك[3]، وأمّا العُصْبةُ؛ فتدلُّ في أصلِ مادَّتها على رَبْطِ شيءٍ بشيءٍ[4]، والعُصْبَة من الرِّجال عشرة فأكثر[5]، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها قد عُصِبَتْ، أي: كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ، إذ بينهم آصرةٌ شديدةٌ تربطهم، أو هم متَّحدون على أمرٍ ما[6]، وأمّا الحِزْبُ؛ فيدلُّ في أصله على تجمُّعِ الشَّيء، ومنه الحِزْبُ: الجماعةُ من النّاس[7]، وكلُّ طائفةٍ تكون أهواؤهم واحدةً، منفردون برأيهم عَن غَيرهم؛ فهم حزبٌ[8]، فهي تتحزَّب على الأمر، أي: تتعاون[9]، وحِزْبُ الرَّجل: أصحابهُ وجُنْدُهُ الذين على رأيه[10]، والحِزْبُ: جماعةٌ فيها غِلظ[11]، وأمّا الجَماعَةُ؛ فتدلُّ في أصلها على تَضامِّ الشَّيْءِ[12]، والجمعُ: ضمُّ الشَّيء بتقريبِ بعضه من بعض، والجَماعَةُ: عَدَدُ كُلِّ شيءٍ وكثرتُه[13]، والجماعةُ من كلِّ شيءٍ يُطلق على القليل والكثير[14]، والجماعةُ من النّاس: طائفةٌ من النّاس يجمعها غرضٌ واحد[15]، وقد ناسبَ استعمال لفظ الجنود دون غيره من الألفاظ؛ لكون الجنود تُتَّخذ للنُّصرة والعون، وقد ورد في السّياق سؤالُ الكافرين ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (جند).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جند).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طوف)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 278.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصب).
(5) الخليل، العين، والزّبيدي، تاج العروس: (عصب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب)، وابن الجوزي، نزعة الأعين النواظر، ص: 116.
(9) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 277.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (حزب).
(11) الرّاغب، المفردات: (حزب).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(13) الزّبيدي، تاج العروس: (جمع).
(14) الفيوميّ، المصباح المنير: (جمع).
(15) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (جمع).

إبليس والشَّيطان:

إبليسُ اللَّعين أُبلسَ من الخير ويئسَ من رحمةِ الله

إبليسُ والشَّيطان قد يُراد بهما واحدٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، يعني: أنَّ الشَّيطان هو إبليس نفسه؛ لأنَّه هو الذي أَبى السُّجود لآدم، وأقسم ليغوينَّه وذريَّته، ولكن عند الرُّجوع إلى المعنى اللُّغوي لكلٍّ منهما، وإلى الاستعمال القرآني يتَّضح أنَّ بينهما فرقًا، وهو أنَّ إبليسَ من (بَلَسَ)، وأصلُهُ يدلُّ على اليَأس، يُقالُ: أَبْلَسَ؛ إذا يَئِسَ، ومنه اشْتُقَّ اسْمُ إبْلِيسَ، كَأَنَّهُ يَئِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ[1]، والمُبْلِسُ: الكئيبُ الحزين المُتَنَدِّم، والإِبْلاسُ: الحَيْرة، والحزن المعترضُ من شدَّة اليأس، وسُمّي إِبليسَ - وكانَ اسْمُهُ عَزازيلَ - لأنَّه أُبلسَ من الخَيْر، أي: أويسَ من رحمة الله، وقيل: لُعِن[2]، وأمّا الشيطان: فمِن (شَطَنَ)، ويدلُّ في أصله على البُعْد، وسمّي شيطانًا؛ لِبُعْدِهِ عَنِ الحَقِّ وتَمَرُّدِهِ[3]، وقيل: أصلُهُ من (شاطَ)، ويدلُّ على ذَهابِ الشَّيْءِ، إمّا احْتِراقًا، وإِمّا غَيْرَ ذَلِكَ[4]، وقيل: بمعنى: (احْتَرَقَ، وهَلَكَ، وذَهَبَ، وبَطَل)؛ لأَنَّ من أَسمائِهِ المُذْهِبَ والباطلَ[5]، والمعنى المحوريُّ لـ (شطن) امتدادٌ بالغٌ مع اعوجاجٍ أو انحرافٍ، ومنه الشَّيطان؛ فخفاؤه بُعدٌ، وتمرُّدُه اعوجاج، وعتوُّه وتمرُّده المأخوذ من الاعوجاج في الأصل هو أساسُ كلِّ أعماله ووظائفه من وسوسةٍ بالشَّرِّ، واستزلالٍ، وإضلالٍ ونزغ، وهمز، ومسٍّ وتزيين للباطل وصدٍّ عن سبيلِ اللّه، ونحو ذلك، ما أسند إليه في القرآن الكريم[6].

فإبليسُ هو كبيرُ الشَّياطين ورأسهم، وأوَّلُ الجنِّ وبداءتهم، فهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلس).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بلس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شاط).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (شيط).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شطن).

كآدمَ في الإنس، وقيل: كنوح في الإنس، فكلُّ ما ينشأ من وسوسة الشَّياطين؛ فهو راجعٌ إليه؛ لأنَّه الذي خطا الخطوات الأولى[1]، وقد ناسب استعمالُ لفظِ إبليس دون الشَّياطين؛ لكون السّياقِ في شدَّةِ يأسِ الكافرين من رحمةِ اللّه، ومن النَّجاة؛ وذلك عند إلقائهم في النّار هم وما كانوا يعبدون، ومَن كانوا يظنّون أنَّهم سينصرونهم.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شطن)، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إبليس).

المحتويات

الجزء التاسع عشر	**7**
سورة الفُرقان	**9**
- [الفرقان: 43]	10
- [الفرقان: 44]	21
- [الفرقان: 45 - 46]	33
- [الفرقان: 47]	53
- [الفرقان: 48 - 49]	64
- [الفرقان: 50]	82
- [الفرقان: 51 - 52]	89
- [الفرقان: 53]	99
- [الفرقان: 54]	109
- [الفرقان: 55]	118
- [الفرقان: 56]	127
- [الفرقان: 57]	134
- [الفرقان: 58]	144
- [الفرقان: 59]	155
- [الفرقان: 60]	164
- [الفرقان: 61]	170
- [الفرقان: 62]	177
- [الفرقان: 63]	186
- [الفرقان: 64]	194
- [الفرقان: 65 - 66]	199
- [الفرقان: 67]	205
- [الفرقان: 68]	211
- [الفرقان: 69]	227
- [الفرقان: 70]	235
- [الفرقان: 71]	247
- [الفرقان: 72]	251
- [الفرقان: 73]	261
- [الفرقان: 74]	270
- [الفرقان: 75]	283
- [الفرقان: 76]	294
- [الفرقان: 77]	298
سورة الشُّعَراء	**307**
- [الشّعراء: 1 - 2]	317
- [الشّعراء: 3 - 6]	323
- [الشّعراء: 7 - 9]	344
- [الشّعراء: 10 - 11]	355
- [الشُّعراء: 12 - 14]	361
- [الشّعراء: 15 - 17]	371
- [الشّعراء: 18 - 19]	380
- [الشعراء: 20 - 22]	387
- [الشعراء: 23 - 24]	408
- [الشعراء: 25 - 26]	418
- [الشعراء: 27 - 28]	427
- [الشعراء: 29 - 33]	438
- [الشعراء: 34 - 37]	460
- [الشعراء: 38 - 39]	480
- [الشعراء: 40]	488
- [الشعراء: 41 - 42]	499
- [الشعراء: 43 - 44]	518
- [الشعراء: 45 - 48]	532
- [الشعراء: 49]	552
- [الشعراء: 50 - 51]	578
- [الشعراء: 52 - 56]	598
- [الشعراء: 57 - 60]	620
- [الشُّعراء: 61]	636
- [الشعراء: 62]	644
- [الشعراء: 63]	649
- [الشعراء: 64 - 66]	658
- [الشعراء: 67 - 68]	665
- [الشعراء: 69 - 71]	672
- [الشعراء: 72 - 73]	682
- [الشعراء: 74]	687
- [الشعراء: 75 - 77]	692
- [الشعراء: 78 - 82]	701
- [الشعراء: 83]	717
- [الشعراء: 84]	723
- [الشعراء: 85]	733
- [الشعراء: 86]	740
- [الشعراء: 87 - 89]	750
- [الشعراء: 90 - 91]	769
- [الشعراء: 92 - 93]	784
- [الشعراء: 94 - 95]	795

